

معاوية بن أبي سفيان

شخصيته وعصره

تأليف الدكتور

على محمد محمد الصلابي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٦١٦٧

الترقيم الدولي: I.S.B.N

977-6142-65-6

دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع

١٨ شارع مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر - ت. ٠١٠١٠٦٨١٣٥

newandalus@hotmail.com



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها السيرة النبوية. عرض وقائع وتحليل أحداث، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي، رضى الله عنهم جميعاً، وقد سميت هذا الكتاب معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره، وهو جزء من كتابنا الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، فيتحدث الكتاب عن اسمه ونسبه وكنيته وأسرته، وعن إسلام أبي سفيان والد معاوية رضى الله عنه، وعن هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضى الله عنهما، وعن إخوان وأخوات معاوية، ويتحدث عن زوجات معاوية وأولاده وعن إسلام معاوية رضى الله عنه، وشيء من فضائله، وعن رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ، وعن الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى شأن معاوية مدحاً وذمماً، ويتكلم الكتاب عن دور بنى أمية فى عهد رسول الله ﷺ، وعهد الخلافة الراشدة، ويشير إلى متى

بدأ نجم معاوية في الظهور وعن ولايته على دمشق وبعلبك والبلقان في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلاقته بعمر رضى الله عنهما، ويبين الكتاب جهود معاوية رضى الله عنه على جبهة الشام، وعن سنّ نظام الصوائف والشواتى في عهد عمر، وعن تكوين أسطول إسلامى فى البحر، وعن أعمال معاوية فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنهما، فى توضيح فتوحاته فى عهده، وإصراره فى الطلب من عثمان السماح له بالغزو البحرى، وعن غزوه لقبرص واستسلام أهلها وطلب الصلح ثم نقض القبارصة للصلح ثم فتحها، ويتعرض الكتاب لحقيقة الخلاف بين أبى ذر ومعاوية وموقف عثمان رضى الله عنهم منه، ويرد الكتاب عن الشبهات التى ألصقت بعثمان رضى الله عنه كاتهامه بإعطاء أقرابه من بيت المال، وتعيينه لأقرابه فى مناصب الدولة على حساب المسلمين، ويتطرق الكتاب لأسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه كالرخاء وأثره فى المجتمع وطبيعة التحول الاجتماعى فى عهده وظهور جيل جديد، واستعداد المجتمع لقبول الشائعات، ومجىء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما، وخروج كبار الصحابة من المدينة، والعصية الجاهلية، وتوقف الفتوحات بسبب موانع طبيعية أو بشرية، والمفهوم الخاطىء للورع، وظهور جيل جديد من الطامحين، ووجود طائفة موتورة من الحاقدين، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضى الله عنه، واستخدام الأساليب والوسائل المهيّجة للنّاس، ودور عبد الله بن سبأ فى تحريك الفتنة، وموقف معاوية بن أبى سفيان فى الفتنة، ويتحدث عن مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأى معاوية فى ذلك، وعن مقتل عثمان وموقف الصحابة منه، وعن معاوية فى عهد على بن أبى طالب رضى الله عنهما، ويتطرق الكتاب إلى اختلاف الصحابة فى الطريقة التى يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان، وإلى معركة صفين وإلى تسلسل الأحداث، ابتداءً من إرسال أم حبيبة أم المؤمنين بنت أبى سفيان لنعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام، ودوافع معاوية رضى الله عنه فى عدم بيعته على رضى الله عنه ورده على أمير المؤمنين على، وعن تجهيز أمير المؤمنين على لغزو الشام، وإرساله جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل لدعوته للبيعة، ومسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام، وخروج معاوية إلى صفين، وبداية المناوشات بين

الطرفين، والمواذعة بينهما ومحاولات الصلح ثم نشوب القتال ثم الدعوة إلى التحكيم. ويتكلم الكتاب عن مقتل عمّار بن ياسر رضى الله عنه وأثره على المسلمين، وعن المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة، ومعاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وعن عدد القتلى، وعن تفقد أمير المؤمنين على للقتلى وترحمه عليهم، وعن موقف معاوية مع ملك الروم فى تلك الأحداث، وعن قصة باطلة فى حق عمرو بن العاص بصفين، وعن إصرار قتلة عثمان رضى الله عنه أن تستمر المعركة، وعن نهى أمير المؤمنين على شتم معاوية ولعن أهل الشام، وعن التحكيم، وعن نص وثيقة التحكيم وعن قصة التحكيم المشهورة وبيان بطلانها، وعن حقيقة قرار التحكيم، ومكان انعقاد المؤتمر، وأشار الكتاب إلى إمكانية الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض المنازعات بين الدول الإسلامية، هذا وقد بينت موقف أهل السنة والجماعة من تلك الحروب، وتكلمت عن تغيير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين، وعن المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما، وعن استشهاد أمير المؤمنين على واستقبال معاوية خبر مقتله، ثم تحدثت عن المشروع الإصلاحى الكبير فى عهد الحسن بن على والذى توجّج بوحدّة الأمة وذلك بتنازل الحسن بالخلافة لمعاوية رضى الله عنهما، وأسّرت إلى مراحل الصلح وشروطه وأسبابه ومعوقاته، ونتائجه، كما وضحت الفقه الكبير فى مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد وفقه الخلاف الذى تميز به الحسن بن على والذى بنى عليه مشروعه الإصلاحى العظيم، والذى ترتب عليه دخول الأمة الإسلامية فى مراحل جديدة تمّ فيها بيعة معاوية رضى الله عنه من جميع الصحابة الأحياء وأبناء الأمة. ووضحت صفات معاوية رضى الله عنه والتي من أهمها، العلم والفقه، والحلم والعفو، والدهاء والحيلة، وعقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب، وتواضعه وورعه، وبكاؤه من خشية الله، ونقلت ثناء العلماء على معاوية، وأسّرت إلى دخول دولة بنى أمية فى خير القرون والتي قال فيها رسول الله ﷺ: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١)، وتحدثت عن عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول ﷺ فى فضائل أهل الشام، وعن أهل الحل والعقد فى

(١) البخارى، رقم (٦٦٩٥).

عهد معاوية رضى الله عنه، وعن الشورى، وحرية التعبير وعن سياسته الداخلية، من الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة، وأبنائهم، وحسن علاقته مع الحسن والحسين وابن الزبير وابن عباس وغيرهم رضى الله عنهم، وبينت بيان بطلان تعميم معاوية سب أمير المؤمنين على منابر الدولة الأموية، وزعم بعض المؤرخين بأن معاوية سمّ الحسن بن على، فأثبتت بالحجج العلمية والبراهين الساطعة بطلان ذلك أيضاً، وتعرضت لموقف معاوية من قتلة عثمان بعد ما أصبح أمير المؤمنين، وكذلك مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، وموقف عائشة أم المؤمنين من مقتله. كما أوضحت حرص معاوية على مباشرة الأمور بنفسه وتوطين الأمن فى خلافته، فتحدثت عن مجلسه فى يومه، وعن الدواوين المركزية التابعة له، كديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البريد، وعن نظام الحجابة، والحرس، والشرطة، وعن حسن اختياره للرجال والأعوان وعن استخدامه للمال فى تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب واتباعه سياسة الشدة واللين، وسياسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيّتهم، واتخاذه سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته وجعل الناس يميلون إليهم، وعن اهتمامه بجهاز الاستخبارات، وبناء الجيش الإسلامى وتطويره، وعن فقهه الكبير فى سياسة الموازنات بين القبائل، والعشائر، وأعيان المجتمع وعن سياسته مع الأسرة الأموية، وتكلمت عن حياته فى المجتمع، وعن اهتماماته العلمية والتاريخية والشعرية واللغوية والعلوم التجريبية، وأفردت مبحثاً فى علاقته بالخوارج، ووسائله فى تحجيم دورهم وإضعافهم، وبينت النظام المالى فى عهده، ومصادر دخل الدولة، كالزكاة، والجزية، والخراج، والعشور، والصوافى، والغنائم، وعن النفقات العامة، كالنفقات العسكرية، والإدارية، والاجتماعية، واهتمامه بالزراعة والتجارة الداخلية والخارجية، والحرف والصناعات، وأثرت قضية الشبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية وناقشتها بعلم وإنصاف، كالتفرقة فى العطاء وكذبة إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص، وكالتوسع فى إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار، ومظاهر الترف عند الأمويين، وأفردت مبحثاً عن القضاء فى عهد معاوية، والدولة الأموية، وصلته بالعهد الراشدى وتخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء وفصل

السلطات، ومرتبات القضاة وتسجيل الأحكام والإشهاد عليها، وأعوان القضاة، كالمنادى والحاجب، والترجمان أو المترجم، والمراقبة والمتابعة، وعن مصادر الأحكام القضائية فى العهد الأموى وعن اختصاص القضاة وذكرت أسماء أشهر القضاة فى عهد معاوية. كما أشرت إلى ميزات القضاء فى عهد معاوية والأموى عمومًا، وإلى خطاب عمر بن الخطاب إلى معاوية رضى الله عنهما فى القضاء، وتكلمت عن مؤسسة الشرطة فى عهد معاوية وواجباتها، كحماية الخليفة وولاية الأمصار ضد مناوئتهم فى الداخل، ومعاقبة المذنبين والخارجين عن القانون، وتنفيذ العقوبات الشرعية، وعن قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة والحرس والعرفاء، وصاحب الاستخراج أو العذاب، وجهاز الحسبة، ونظام المراقبة، ومؤسسة الدرك، وتحدثت عن مؤسسة الولاية والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه، وأهم الأقاليم التابعة لدولته وأسماء أشهر ولاته وأهم أعمالهم فى تلك الأقاليم، وعندما تحدثت عن المدينة النبوية ترجمت لشخصية أبى هريرة رضى الله عنه حيث توفى بها عام ٥٨ هـ أو ٥٩ هـ، وقد عاش فى عهد معاوية ما يقرب من ثمانى عشرة سنة، وقد تعرض هذا الصحابى الجليل لهجمة ظالمة من قبل أعداء الصحابة فى القديم والحديث، وتلقف تلك الاتهامات الباطلة مجموعة من المستشرقين فرأيت لزاماً علىّ أن أدافع عن هذا الصحابى الجليل الذى يعتبر من أكبر رواة السنة النبوية الشريفة، فعرفت به وبشئ من حياته، كعبادته وعفاهة وحلمه وعفوه، واهتمامه بالعلم ورددت على الشبهات التى أثيرت حوله، والتى هدفها التشكيك فيما وصل إلينا من سنة رسول الله ﷺ وذلك بالطعن فى هذا الصحابى الجليل رضى الله عنه، وكان لسان حالى فى مجادلة أولئك الكذابين قول الشاعر:

وإذا اضطرت على الجدال ولم تجد
فاجعل كتاب الله درعاً سابغاً
والسنة البيضاء دونك جنة
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى
لك مهرباً وتلاقت الصّفان
والشرع سيفك وابد فى الميدان
واركب جواد العزم فى الجولان
فالصبر أوثق عدة الإنسان

واطعن برمح الحق كل معاند لله درُّ الفارس الطعان
واحمل بسيف الصّدق حملة مخلص متجرّداً لله غير جبان

هذا؛ وقد وصفت حركة الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه، وقدمت بين يدى حركة الفتوحات مقدمة تناقش الشبهات التى ألصقت كذباً وزوراً وبهتاناً بحركة الفتوحات أن معاوية رضى الله عنه حمى وعزّز منجزات الموجة الأولى فى حركة الفتح التى قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتح هى التى بدأت فى عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكى تبلغ أقصى اتساعها فى عهد الوليد بن عبد الملك، لقد وصفت ما قام به معاوية من حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية واهتمامه بفتح القسطنطينية، وتخطيطه الاستراتيجى للاستيلاء عليها، كاهتمامه بدور صناعة السفن فى مصر والشام وتقوية الثغور البحرية بهما، واستيلائه على الجزر الواقعة شرقى البحر المتوسط، وتحصينه أطراف الشام الشمالية، وقد قام بحصار القسطنطينية، وقد توفى أبو أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية، وقد ترك أبو أيوب رضى الله عنه فى وصيته بأن يدفن فى أقصى ما يمكن من أرض العدو، وهذه صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فىكون بين صفوفهم حتى وهو فى نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل فى أرض العدو حياً وميتاً، وكأنما لم يكفه ما حقق فى حياته فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده فى مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

هذا؛ وقد استطاع معاوية رضى الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة براً وبحراً، وقد أرهق البيزنطيين وأذاقهم ألوان الضنك والخوف، وأنزل بهم خسائر فادحة بالرغم من كل ذلك لم يستطع اقتحام القسطنطينية بسبب عوامل عديدة سيرها القارىء فى الكتاب بإذن الله تعالى، وقد دخل معاوية فى علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية وتم تبادل المراسلات، والخبرات، والسفراء فيما بين الدولتين الأموية والبيزنطية، وواصل معاوية فتوحاته فى الشمال الإفريقى، وانطلقت حملة معاوية بن حديج رضى الله عنه فى عهده، وبرز اسم عقبة بن نافع فى تلك الفتوحات وقام ببناء مدينة القيروان بتونس اليوم

وكان ذلك فى عهد معاوية، وقد أصبحت القيروان مركز الإشعاع الحضارى الإسلامى بالمغرب وعاصمتها العلمية. وسيمضى القارىء مع الفتوحات فى الشمال الإفريقى حتى استشهاد عقبة رحمه الله تعالى، وتحدثت فى فتوحات معاوية فى الجناح الشرقى للدولة الأموية فى خراسان وسجستان وما وراء النهر، وعن فتوحات السند فى عهده ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات التى من أهمها، أثر الآيات والأحاديث النبوية فى نفوس المجاهدين، وسنن الله فى الفتوحات، كسنة الله فى الاتحاد والاجتماع، وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدافع، وسنة الله فى الظلم والظالمين، وسنة الله فى المترفين، وسنة الله فى الطغيان والطغاة، وسنة التدرج، وسنة تغيير النفوس، والتخطيط الاستراتيجى للفتوحات عند معاوية، وسياسته تجاه الروم، وجبهة الشمال الإفريقى، وجبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر، وإدارته للشورى فى حركة الفتوحات، ومركزية القيادة والإمداد فى إدارته، ونظام الألوية والرايات واهتمامه بالعيون والبريد، والحدود البرية للدولة، واهتمامه بالأسطول والحدود البحرية، وبديوان الجند والعتاء، والأثر العلمى والاقتصادى والاجتماعى فى عهده، وتحدثت عن بعض كرامات المجاهدين فى عهده.

إن من فضائل الدولة الأموية فى عهد معاوية وعبد الملك وابنيه الوليد وسليمان الفتوحات الواسعة التى تمت على أيديهم، والتى امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك بين الصين فى الشرق وبلاد الأندلس وجنوبى فرنسا فى الغرب. وكان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى الجهاد ويشهدون القتال، وكان الصحابة وكبار التابعين من ضمن تلك الجيوش، فحركة الفتوحات أشرفت عليها الدولة وتفاعل معها المجتمع الإسلامى بكل ألوانه من العلماء والفقهاء والتجار والزهاد والعباد، وتحركت تلك الجيوش فى المشارق والمغرب، كان الفاتحون لتلك الشعوب المترامية الأطراف قد جاءوها بالعدل والإحسان ومطالب الروح ومطالب البدن، وجاءوا إليهم بدين الإسلام الذى يقرّر الإنسانية بمعناها الصحيح فى هذه الأرض؛ لذلك كان الإسلام سريع المدخل إلى نفوسهم، لطيف التخلل فى الأفكار، قوى التأثير على الأبواب

والعقول، وجاء الفاتحون لتلك الشعوب بالحقائق التي سعد بها أصحاب محمد
وأسعدوا بها تلك الأمم، قال الشاعر:

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبيلا
طلعت به شمس الهداية للورى وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج فى شريعته التى جمعت فروعاً للهدى وأصولا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

لقد كانت الفتوحات الكبرى فى عهد معاوية والدولة الأموية دليلاً ملموساً على
حيوية الأمة وتفاعلها مع دين الله وحرصها على هداية الشعوب.

هذا؛ وقد تكلمت عن فكرة ولاية العهد والخطوات التي اتبعتها معاوية لبيعة
يزيد، من مشاورات، وحملات إعلامية، وقبول أهل الشام لبيعة يزيد، وبيعة
الوفود، وطلب البيعة من أهل المدينة واعتراض عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن
أبى بكر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على رضى الله عنهم عن تلك البيعة،
وعن أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد، كالحفاظ على وحدة الأمة، وقوة العصية
القبلية، ومحبة معاوية لابنه وقناعته به، وعن الانتقادات التي وجهت لمعاوية بشأن
البيعة ليزيد، وعن المآخذ على فكرة ولاية العهد فى عهد معاوية، وعن الأيام
الأخيرة من حياته وعن دعائه وهو فى سكرات الموت وقوله: اللهم أقل العثرة،
واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل ما لم يَرَجُ غيرك فإنك واسع المغفرة،
ليس لذى خطيئة مهرب إلا إليك ثم مات.

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته
العلی أن يجعل عملى لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبنى على كل حرف
كتبته، ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين ساهموا فى إتمام هذا
الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد
الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي

عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ [النمل: ١٩]. قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عضوريه ومغفرته ورحمته ورضوانه

على محمد محمد الصلابي

الأخوة القراء الكرام، يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبه من خلال دور النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء بظهر الغيب بالإخلاص والصواب ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

عنوان المؤلف

E_mail : abumohamed2@maktoob.com

الفصل الأول

معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وأسرته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب أمير المؤمنين ملك الإسلام، أبو عبد الرحمن، القرشي الأموي المكي^(١)، ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر^(٢)، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيباً، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يجبو فيقول لوالدته: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة^(٣)، وعن أبان بن عثمان قال: كان معاوية يمشى مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعتك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لم تقولين له؟ فوالله إني لأظنه سيسود قومه، قالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه^(٤).

ثانياً: إسلام أبي سفيان والد معاوية رضى الله عنهما:

كان أبو سفيان من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام . . وكتب السيرة النبوية وصفت أعماله ضد الدعوة الإسلامية إلا أن الله تعالى أراد الهداية له، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله ﷺ في فتح مكة وأعلن: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(٥)، وفي هذا الإكرام النبوي الشريف لأبي سفيان لفته تربوية، ففي تخصيصه ﷺ بيت أبي سفيان شيء يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه^(٦)، وكان هذا الأسلوب النبوي

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٨).

(٣) البخاري رقم (٤٢٨٠).

(٤) الإصابة (٦/ ١٥١).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢١).

(٦) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣).

الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان، وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام، إن هو أخلص له، وبذل في سبيله^(١)، وهذا منهج نبوي كريم، على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به في تعاملهم مع الناس^(٢). وقد حسن إسلام أبي سفيان وشاهد المواقع وقدم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله ﷺ في حنين، وشارك في حصار الطائف وفقد إحدى عينيه فيها، وفي اليرموك فقد الثانية^(٣)، وبعد ثقيف أرسله رسول الله ﷺ مع المغيرة بن شعبه لهدم اللات^(٤) - صنم ثقيف - وقد كانت اللات معظمة عند قريش كذلك، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليل على تغلغل الإيمان في قلب أبي سفيان رضى الله عنه، لقد أسلم أبو سفيان إذن بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلاً بينه وبين الإسلام. وقد راعى رسول الله ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبي سفيان ونفوس عليه القوم من قريش بعد الفتح، فقد جعل من دخل دار أبي سفيان آمناً، كما أعطاه من غنائم حنين مع غيره ممن سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم^(٥).

ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية، وحرص على مضاعفة جهده في خدمة الإسلام، وقال عنه ابن كثير: من سادات قريش في الجاهلية، وتفرد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكانت له مواقف شريفة، وآثار محمودة في اليرموك وما قبله وما بعده^(٦).

وروى عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل واحد يقول: يا نصر الله اقترب، والمسلمون يقتتلون هم والروم، فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد^(٧)، وروى أنه كان يوم اليرموك يقف على الكراديس: فيقول الناس: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك^(٨)، وقيل: مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع وثلاثين^(٩)،

(١) قراءة سياسة للسيرة النبوية لمحمد رواس، ص (٢٤٥).

(٢) السيرة النبوية للصّليبي (٢/٤٩٧).

(٣) التبيين في أنساب القرشيين، ص (٢٠٣).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٩٥).

(٥) الدولة الأموية المفتى عليها، ص (١٤٢).

(٦) البداية والنهاية (١١/٣٩٧).

(٧) التبيين في أنساب القرشيين، ص (٢٠٣).

(٨)، (٩) المصدر نفسه، ص (٢٠٣).

وصلى عليه ابنه معاوية، وقيل: بل صلى عليه عثمان، وله ثلاث وثمانون، وقيل: كان له بضع وتسعون سنة^(١).

ثالثاً: هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضی الله عنهما:

هى أم معاوية، أسلمت يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبى سفيان، فأقاما على نكاحهما، ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال، بايع النساء - وفيهن هند بنت عتبة وكانت متنكرة، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها، لما صنعت بحمزة - على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بيهتان يفتريه بين أيديهن، وأرجلهن، ولا يعصين فى معروف، ولما قال النبى ﷺ: ولا يسرقن، قالت هند: يا رسول الله، إن أبأ سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى، ويكفى بنى، فهل على من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: خذى من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف، ولما قال: ولا يزنين، قالت هند: وهل تزنى الحرّة؟ ولما عرفها رسول الله ﷺ قال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عمّا سلف عفا الله عنك. وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصفح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلّها الله له، أو ذات محرّم منه، وفى الصحيحين عن عائشة رضی الله عنها: أنها قالت: لا والله! ما مست يد رسول الله يد امرأة قط^(٢). وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير إنه لما بايعت هند تكلمت فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتتفعنى رحمك يا محمد، إننى امرأة مؤمنة بالله، مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بك، فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلى أن يُعزوا من أهل خبائك، قال: - وأيضاً والذى نفسى بيده - قالت: يا رسول الله، إن أبأ سفيان رجل ممسك، فهل على من حرج أن أطعم من الذى له عيالنا، قال: لا أراه إلا بالمعروف^(٣). ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى

(١) التبيين فى أُنساب القرشيين، ص (٢٠٤). (٢) البخارى رقم (٥٢٨٨) مسلم رقم (١٨٦٦).

(٣) الطبقات الكبرى (١٧٢/٨)، البخارى رقم (٣٨٢٥).

بيتها فجعلت تكسر صنماً كان عندها حتى فلذته فلذة وهي تقول: كنت منك في غرور^(١)، ولما رأت المسلمين بيت الله الحرام قالت: والله ما رأيت الله عبداً حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً^(٢).

وكان لهند في جاهليتها موقف مع زينب بنت المصطفى ﷺ، فقد كانت بمكة مع زوجها أبي العاص بن الربيع وأرسل النبي ﷺ من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد «بدر» ولم تحف دماء قريش بعد، وكانت «هند» قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجالس قريش وأنديتها تُذكي نار الثأر، وتؤجج أوار الحرب، وفي الطريق لقيت زينب بنت رسول الله ﷺ، وكان قد تسرب خبر استعدادها للخروج لأبيها، فقالت هند: أي بنت محمد، بلغني أنك تريدن اللحوق بأبيك!! . . . أي ابنة عمي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يعينك في سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فعندي حاجتك فلا تستحي مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما يكون بين الرجال، تروى زينب رضی الله عنها ذلك، وتقول: ووالله ما أراها قالت إلا لتفعل^(٣). ثم يوم خروج زينب يتعرض لها رجال من قريش، يريدون إرجاعها، فتسقط من على ناقتها وكانت حاملاً، فتترف، وتسمع هند، فتخرج مسرعة وترفع عقيرتها في وجه قومها: معركة مع أنثى عزلاء؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟ وتحول بينهم وبين زينب وتضمها إليها وتمسح عنها ما بها، وتصلح شأنها، حتى استأنفت الخروج إلى أبيها في أمن وأمان^(٤). وكانت هند امرأة حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة. ويروى أنها كانت قبل أبي سفيان عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش، له مجلس يأتيه ندماءؤه فيدخلون بغير استئذان، فدخلته هند يوماً وليس فيه أحد، فنامت فيه، وجاء بعض ندماء الفاكه فدخل البيت، ورأى هند نائمة فخرج، فلقى الفاكه خارجاً، ثم دخل فوجد هند في المجلس نائمة فقذفها بالرجل، فشرى^(٥) الأمر إلى أن اتفقوا على أن يتحاكموا إلى كاهن في بعض النواحي، فحملها أبوها عتبة وخرج معهم الفاكه حتى إذا دنوا من الكاهن رآها أبوها متغيرة مصفرة لونها، فخلا بها وقال: يا بُنية مالي أراك قد

(٢) نحو رؤية جديدة للتاريخ، ص (٢٠٠).

(١) الطبقات (١٧٢/٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٠٨)، فرسان من عصر النبوة، ص (٨٥٣).

(٥) فشرى: بمعنى عظم وتفاقم.

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٨).

اصفر لونك وتغير جسمك، فإن كنت قد ألمت بذنب بأخبريني حتى أفل^(١) هذا الأمر قبل أن نفتضح على رؤوس الناس. فقالت: يا أبتى إني لبريئة، ولكنى أعلم أنا نأتى بشراً يخطئ ويصيب، فأخشى أن يخطئ فى بقول يكون عاراً علينا إلى آخر الدهر. قال عتبة: فإنى سأختبره، فخبأ له حبة برّ فى إحليل مهر^(٢)، ثم ربط عليها، فلما أتى الكاهن قال: قد خبأت لك خبيئاً فما هو؟ قال: ثمرة فى كمرّة، قال: بين، قال: حبة برّ فى إحليل مهر. فأجلسوا هنداً بين نساء ثم سألوا الكاهن، فقام فضرب بيده بين كتفى هند وقال: قومى حصاناً غير زانية ولتلدن ملكاً يقال له معاوية، فوثب الفاكه، فأخذ بيدها وقال: امرأتى، فنزعت يدها من يده وقالت: والله لأحرصن أن يكون من غيرك، فتزوجها أبو سفيان، وولدت له معاوية^(٣). هذا وقد توفيت فى ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنه^(٤).

رابعاً: من إخوان وأخوات معاوية رضى الله عنه:

١ - يزيد بن أبى سفيان: وكان يقال له يزيد الخير، وهو أفضل بنى أبى سفيان، أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً، وأعطاه النبى ﷺ من غنائمها مائة بغير وأربعين أوقية^(٥) واستعمله أبو بكر على أول الجيوش التى أرسلها إلى الشام وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتحها ومساعدة الجيوش الإسلامية الأخرى عند الضرورة، وكان جيش يزيد أول الأمر ثلاثة آلاف رجل، وقبل رحيل جيش يزيد أوصاه الخليفة أبو بكر وصية بليغة عالية المستوى، تشتمل على حكم باهرة فى مجالى الحرب والسلام، وشيعه ماشياً وأوصاه بما يأتى: إنى قد وليتك لأبلوك وأجرّبك وأخرّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذى من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً بعمله، وقد وليتك عمل خالد^(٦)، فإياك وعيبة الجاهلية^(٧) فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على

(١) أى: حتى أفلك.

(٢) من اختبار الكاهن، فإن عرف سألوه وإلا تركوه.

(٣) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢١٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢١٩).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٤).

(٦) يعنى خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استغفى أبا بكر فأعفاه.

(٧) يعنى التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية.

جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون به، ولا تربيتهم فيروا خلكك^(١)، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكريك^(٢)، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى للكلامهم، ولا تجعل شرك علانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخز عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتكشف عنك الأستار، وأكثر حرسك، وبددهم في عسكريك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجّن فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكريك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له. قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر^(٣). ومن فوائد هذه الوصية:

- أن الولايات والمناصب ليست حقاً ثابتاً لأصحابها وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل، ومن واجب المسئول الأعلى أن يعزلهم إذا أساؤوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا، فيخل بمسئولته ويعرض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع .

(١) يعنى لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك .

(٢) ليروا قوة المسلمين .

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/٦٤، ٦٥) .

- إن تقوى الله عز وجل هي أهم عوامل النجاح في العمل، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم، فإذا اتقوه في باطنهم فَحَرَىٰ بِهِمُ أَنْ يَتَّقُوهُ فِي ظَاهِرِهِمْ، وبذلك يتجنب الوالى كل مظاهر الفساد والإفساد، التى تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التى لا تلتزم بتقوى الله تعالى.

- التحذير من التعصب للأباء والأجداد والأقوام، فإن التعصب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف عن الطريق المستقيم، إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفاً للاستقامة، إضافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهى الأخوة فى الله .

- الإيجاز فى الموعظة فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً، فيضيع المقصود، ويغلب على السامع الإعجاب ببلاغة المتكلم إن كان بليغاً عن استيعاب ما يقول والاستفادة من مواعظه، وإن لم يكن بليغاً فإن الملل يأخذ بالسامع فلا يعى ما يقول المتكلم.

- إذا أصلح المسئول نفسه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجاً صالحاً للقذوة الحسنة فإن ذلك يكون سبباً فى صلاح من هم تحت رعايته .

- الإهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهراً ومخبراً؛ مظهراً من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها، ومخبراً من ناحية الخشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى، فإن هذه الصلاة الكاملة يقام بها ذكر الله فى الأرض، وتهذب السلوك، وتقوى القلوب، وتبعث على ارتياح النفوس، وتعتبر ملاذاً للمسلم عند الشدائد.

- إكرام رسل العدو إذا قدموا مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلامى، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلى به المسلمون من مكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكرام إلى حد إطلاعهم على بطانة أمور المسلمين، بل ينبغى إطلاعهم على قوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم^(١).

(١) التاريخ الإسلامى (٩/١٩٤).

- الاحتفاظ بالأسرار، وعدم التهاون بإفشائها، خاصة فيما يتعلق بأمر المسلمين العامة، فإن الحكيم يستطيع التعرف على الأمور وإن تغيرت وجوهها ما دام سره حياً في ضميره، فإذا أفضاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها.

- إتقان المشورة أهم من النظر في نتائجها، فإن المستشار وإن كان حصيف الرأي ثاقب الفكر، فإنه لا يستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح، فإذا أخفى المستشار بعض تفاصيل القضية فإنه يكون قد جنى على نفسه، حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

- إن على القائد وكل مسئول أن يكون مخالطاً لمن ولى أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمرهم، وفي هذا أكبر العون له على تصور مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها، أما المسئول الذي يعيش في عزلة ولا يختلط إلا بأفراد من كبار رعيته، فإنه لا يصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء، وقد لا يكشفون له الأمور بكل تفصيلاتها، فقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

- الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصة من مكامن الخطر، واختيار الحراس الأمناء من ذوى النباهة وعدم وضع الثقة الكاملة بهم، بل لا بد من الرقابة عليهم حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم.

- أن يسلك المسئول في عقاب المخالف مسلماً وسطاً، فلا يتهاون فيترك عقوبة المستحق، فإن ذلك يجزئه على مزيد من المخالفة، ويجرى غيره على ارتكاب المخالفات، فتسود الفوضى وينفلت الأمر، ولا يشتد في العقوبة فينفر الرعية، ويدفعهم إلى التسخط والتحزب، بل تكون عقوبته بحكمة واتزان بعد النظر والتروى بحيث تؤدي غرضها التربوي بدون إثارة ضجة، ولا دفع إلى النقد والتسخط^(١).

- أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل ما يجرى في حدود المسئولية المناطة به حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتماماً بأمرهم فيزيد المحسن إحساناً ويقتصر

(١) التاريخ الإسلامى (١٩٥/٩).

المسئء عن الإساءة، ولكن بدون تجسس عليهم، فإن ذلك يعتبر فضيحة لهم، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذى يربط المسئول بأفراد رعيته، من المودة والإعجاب والشكر على الجميل، وهذا الخيط ما دام قائمًا فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التى تفسد المجتمع وتحدث الفوضى، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى فإن أهم الحواجز التى تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة وهذه لها سلياتها المعروفة.

- أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة، وإن سمع منهم ما يكره أحيانًا من النقد والتوجيه، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعه الله أمرهم بالنفع، وأن لا يجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية فإن هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم فإنهم يحولون بينه وبين التفكير فى الأمور الجادة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به ويمن ولى أمورهم.

- أن يصدق القائد فى لقاء الأعداء وأن لا يجبن، فإن جبنه يسرى على جنده، فيقع بذلك الفشل والهزيمة، وفى غير الحرب أن يكون المسئول شجاعاً فى مواجهة المواقف، وأن لا يضعف فيسرى ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج.

- أن يتجنب القائد الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، هذا فى مجال الحرب، وفى مجالات السلم أن يتجنب المسئول أية استفادة دنيوية من علمه لا تحل له شرعاً، مثل أخذ الهدايا التى يقصد لها دفعها الاستفادة من المسئول فى مجانية الحق، فإن ذلك من الغلول، والغلول كما جاء فى هذه الوصية يقرب إلى الفقر، ويدفع النصر.

ومن هذه الفوائد تبين لنا عظمة الوصية التى أوصى بها أبو بكر رضى الله عنه أحد قواده، وهى تبين لنا أنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين، وأنه كان يتصور ما قد يواجهه قواده فيحاول تزويدهم بما ينفعهم فى تلافى الوقوع فى المشكلات، وحلها إذا وقعت، وهذه الوصية وأمثالها تسجل إضافة جديدة لمواقف

أبى بكر المتعددة^(١)، وجاء فى رواية أن أباً بكر رضى الله عنه لم ينس اللمسات الإنسانية فى وصيته لجيش يزيد حيث وصاه بدستور المسلمين للحرب المكون من عشر نقاط تجسد إنسانية الحضارة الإسلامية وروحها المفعمة بالرحمة، والشفقة، وقد جاءت هذه الوصية على شكل مقتبس من رسول الله ﷺ، فقد قال: أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تفسدوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بيعيراً إلا لأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. اندفعوا باسم الله^(٢).

وقد استفاد منها يزيد بن أبى سفيان غاية الاستفادة، ولما فتح الشام، فى عهد عمر ولّى الفاروق يزيد فلسطين وناحيتها، ثم لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، فلما مات معاذ بن جبل استخلف يزيد بن أبى سفيان، ثم مات يزيد فاستخلف أخاه معاوية، وكان موت هؤلاء كلهم فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، وقيل: مات يزيد سنة تسع عشرة بعد فتح قيسارية، وقيل: بل مات قبل فتح قيسارية وإنما افتتحها معاوية^(٣). وقال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله البصرى: جزع عمر على يزيد جزعاً شديداً، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام^(٤).

٢ - عتبة بن أبى سفيان: يكنى أباً الوليد، ولد على عهد رسول الله ﷺ وولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم، ثم وولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وحكى عنه أنه اعترضه إعرابى وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لست به ولم تبعد. قال: فيا أخاه. قال: أَسْمَعْتَ فقل، قال: شيخ من بنى عامر يتقرب إليك بالعمومة، ويختص بالخؤولة^(٥)، ويشكو إليك كثرة العيال، ووطأة الزمان، وشدة فقر، وترادف ضرٌّ، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه، أستغفر

(١) التاريخ الإسلامى (١٩٦/٩).

(٢) صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامة الهرفى، ص (٦٢)، نقلاً عن تاريخ الطبرى (٢٢٧/٣).

(٣) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٧)، قادة فتح الشام ومصر، ص (٩٩).

الله منك، وأستعينه عليك. قال: قد أمرنا لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك^(١)، وكان خطيباً فصيحاً، يقال: إنه لم يكن في بنى أمية أخطب منه^(٢)، وأقام بمصر والياً سنة ثم توفى بها، ودفن في مقبرتها سنة أربع وأربعين وقيل سنة ثلاث وأربعين^(٣).

٣ - عنبسة بن أبي سفيان: يكنى أبا عثمان، روى عن أبي أمامة قال: لما حضر عنبسة بن أبي سفيان الموت اشتد جزعه وجاءه الناس يعودونه، فجعل عنبسة يبكي ويجزع، فقال له القوم: يا أبا عثمان ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة إن شاء الله حسنة؟! فازداد حزناً وشدة بكاء وقال: ما يمنعني ألا أبكي وأن لا يشتد حزني من هول المطلاع، وما يدريني ما أشرف عليه غداً، وما قدمت من كبير عمل تثق به نفسي^(٤).

٤ - أم حبيبة بنت أبي سفيان رضی الله عنها: هي رملة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ، تكنى أم حبيبة وهي بها أشهر من اسمها، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية، ولدت رضي الله عنها قبل البعثة بسبعة عشر عاماً وكانت قبل النبي ﷺ عند عبيد الله بن جحش بن رثاب بن يعمر الأسدي من بنى أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجرا إلى الحبشة فولدت حبيبة وبها كانت تكنى، وقد ارتد زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام ودخل في النصرانية فهلك وهو على تلك الحالة، وتمسكت بدينها وذلك من فضل الله عليها ليتم لها الإسلام والهجرة فأبدلها الله عز وجل به خير البشر وأفضلهم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهي أقرب أزواجه نسباً إليه وأكثرهن صداقاً رضي الله عنها وأرضاها^(٥). قال الذهبي عنها: وهي من بنات عم الرسول ﷺ، وليس في أزواجه من هي أكرم نسباً إليه منها ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها، عُقد له ﷺ عليها بالحبشة وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مائة دينار، وجهازها بأشياء^(٦).

(١) التبيين في أنساب القرشيين، ص (٢٠٨).

(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٨).

(٥) الطبقات لابن سعد (٨/٩٦ - ١٠٠)، مجمع الزوائد (٩/٢٤٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٩).

وقد ورد لها بعض المناقب التي تدل على علو مكانتها وعظيم شأنها رضى الله عنها وأرضاها، ومن تلك المناقب:

أ- أنها كانت ممن هاجر في الله الهجرة الثانية إلى الحبشة فارة بدينها رضى الله عنها، فقد روى الحاكم بإسناده إلى إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص قال: قالت أم حبيبة: رأيت في النوم عبيد الله بن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهه، ففزعت فقلت: تغيرت والله حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة إنى نظرت في الدين فلم أر ديناً خيراً من النصرانية وكنت قد دنت بها، ثم دخلت في دين محمد، ثم قد رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله ما خير لك وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له فلم يحفل بها وأكب على الخمر حتى مات فأرى في النوم كأن آتياً يقول لى: يا أم المؤمنين ففزعت، وأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجنى قالت: فما هو إلا أن انقضت عدتى فما شعرت إلا برسول النجاشى على بابى يستأذن، فإذا جارية له يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه فدخلت على فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجه فقالت: بشرك الله بخير، قالت: يقول لك الملك وكلى من يزوجه فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته^(١). . . ففى هذا الحديث فضيلة ظاهرة ومنقبة عالية لأم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها، وهى أنها كانت ممن شرف بالهجرة إلى أرض الحبشة وثبتت على إسلامها وهجرتها^(٢).

ب- ومن مناقبها أنها أكرمت فراش رسول الله من أن يجلس عليه أبوها، لما قدم المدينة لعقد الهدنة بين الرسول ﷺ وبين قريش ومنعته من الجلوس عليه؛ لأنه كان يومئذ على الشرك ولم يكن قد أسلم^(٣)، فقد روى ابن سعد بإسناده إلى محمد ابن مسلم الزهرى قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد فى هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه، فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية أصابك بعدى شر^(٤).

(١) المستدرک ، ك معرفة الصحابة (٤/ ٢٠ - ٢١).

(٢) العقيدة فى أهل البيت، ص (١١٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (١١٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، الطبقات الكبرى (٨/ ٩٩، ١٠٠).

ج - ومن مناقبها ما رواه ابن سعد والحاكم عن عوف بن الحارث قال: سمعت عائشة تقول: دعنتى أم حبيبة زوج النبي ﷺ عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك، فقالت: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز وحللك من ذلك، فقالت: سررتنى سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك، وتوفيت سنة أربع وأربعين فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما^(١).

٥ - أم الحكم بنت أبى سفيان رضى الله عنهما: هى أم عبد الرحمن بن أم الحكم، كانت من مسلمة الفتح، كانت حين نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾ [المتحنة: ١٠] تحت عياض بن غنم الفهرى، ففارقها حيثذ، فتروجها عبد الله بن عثمان الثقفى^(٢).

٦ - عزة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما: ذكرها ابن شهاب فى حديث أم حبيبة فى الرضاع، أخرج مسلم حديثها وهو ما يروى عن أم حبيبة أنها قالت: يا رسول الله هل لك فى أختى؟ قال: ما أصنع بها؟ قالت: تنكحها، قال: أتجيبن ذلك؟ قالت: نعم لست بمخلية لك وأحب من شركنى فى خير أختى^(٣)، فبين لها رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له^(٤)، إذ لا يجوز فى الإسلام الجمع بين الأختين^(٥). هذا؛ وقد عقد رسول الله ﷺ على أم حبيبة بنت أبى سفيان سنة ست للهجرة^(٦)، وكان عمرها ٣٣ سنة يوم عقد عليها رسول الله، وقال الذهبى: فكان لها يوم قدم بها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية إلى المدينة بضع وثلاثون سنة^(٧)، وقد توفيت سنة ٤٤ هـ^(٨).

٧ - أميمة بنت أبى سفيان: ولدت أبا سفيان بن حويطب بن عبد العزى وجويرية، وذكرها ابن قدامة فى التبيين فى أنساب القرشيين باقتضاب^(٩).

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٢٣).

(٢) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٩).

(٣) (٤) مسلم رقم (١٤٤٩).

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٢).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/٢٢٠).

(٧) (٨) المصدر نفسه (٢/٢٢٢).

(٩) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٩).

خامساً: زوجات معاوية رضى الله عنه وأولاده:

١ - من نساء معاوية رضى الله عنه ميسون بنت بحدل الكلبي، ولدت له يزيد ابن معاوية، وأمة رب المشارق فماتت صغيرة^(١)، وكان معاوية رضى الله عنه يجلب ميسون بنت بحدل ويحترمها إلا أنها كانت تحن إلى مرتع طفولتها في البادية، وتكثر ذكر أهلها وحياتهم البسيطة، وبعدهم عما يكدرهم، وتزهد في حياة القصور، بما فيها من الخدم والوصيفات، وذات يوم تذكرت باديتها وحنّت إلى أترابها وأناسها، وتذكرت مسقط رأسها فبكت وتنهّدت فقالت لها بعض حظاياها: ما يبكيك وأنت في مُلْكٍ يضاهاى ملك بلقيس؟ فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

لبيت تخفق الأرواح فيه	أحبّ إلىّ من قصر منيف
وبكر ^(٢) يتبع الأظعان شقبا	أحبّ إلىّ من بغل زفوف ^(٣)
وكلب ينبج الطّراق عنى	أحبّ إلىّ من قطّ أليف
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني	أحبّ إلىّ من لبس الشفوف ^(٤)
وأكل كُسيرة في كَسر بيتى	أحبّ إلىّ من أكل الرّغيف ^(٥)
وأصوات الرّياح بكلّ فجّ	أحبّ إلىّ من نقر الدفوف
وخرق من بنى عمى نحيف	أحبّ إلىّ من علج كليف ^(٦)
خشونة عيشى فى البدو أشهى	إلى نفسى من العيش الطّريف
فما أبغى سوى وطنى بديلاً	فحسبى ذاك من وطن شريف

(١) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٦، ٢٤٧).

(٢) البكر: الفتى من الأبل والشقب: الذكر من ولد الناقة.

(٣) زفوف: مسرع.

(٤) الشفوف: جمع شف: وهو الثوب الرقيق الذى يشفّ ما وراءه.

(٥) الكسيرة: القطعة من الخبز، الكسّر: طرف الخباء من الأرض.

(٦) الخرق: الفتى السّمح الكريم، العلج: الشديد.

فلما دخل معاوية عرفته الحظية بما قالت، وقيل: إنه سمعها وهي تنشد ذلك فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني عليجاً علوقاً، هي طالق، مرؤها فلتأخذ جميع ما في القصر فهو لها، ثم سيرها إلى أهلها بالبادية فأخذت معها ابنها يزيد فنشأ في البرية فصيحاً^(١).

ونقل البغدادي - رحمه الله - في خزنة الأدب، إن معاوية لما طلقها قال لها: كنت فبنت، فأجابته: ما سررنا إذ كنا، ولا أسفنا إذ بنا^(٢). ولله در القائل حيث أشار إلى هذا في قوله:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا الأوطان ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلك^(٣)

٢- ومن زوجاته، فاختة ابنة قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، ولدت له عبد الرحمن وعبد الله ابني معاوية، وكان عبد الله محمقاً ضعيفاً وكان يكنى أبا الخير، وأما عبد الرحمن^(٤) فمات صغيراً.

٣- ومن زوجاته، كنود بنت قرظة وهي أخت فاختة تزوجها منفردة عنها بعدها، وهي التي كانت معه حين افتتح قبرص^(٥).

٤- وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ثم طلقها^(٦)، ومن بناته رملة تزوجها عمرو ابن عثمان بن عفان^(٧)، وهند بنت معاوية تزوجها عبد الله بن عامر^(٨) وعائشة وعاتكة وصفية^(٩).

سادساً: إسلام معاوية رضي الله عنه وشيء من فضائله:

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد رضي الله عنهم يوم الفتح^(١٠)، هذا على المشهور، ولكن يروى عنه أنه قال: أسلمت يوم القضية - أي عمرة القضاء سنة ٧

(١) شاعرات العرب، ص (٣٩٦، ٣٩٧)، نساء من عصر التابعين، أحمد خليل، ص (٤٣).

(٢) خزنة الأدب (٣/٥٩٣)، نساء من عصر التابعين، ص (٤٣).

(٣) نساء عصر التابعين، ص (٤٤). (٤) تاريخ الطبري (٦/١٤٧).

(٥) البداية والنهاية (١١/٤٦٢). (٦)، (٧)، (٨) المصدر نفسه (١١/٤٦٣).

(٩) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٢٩).

(١٠) الإصابة (٣/٤٣٣)، التبيين في أنساب القرشيين، ص (١٠٥).

هـ - ولكن كتمت إسلامي من أبي، ثم علم بذلك، فقال لي: هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه فقلت له: لم آل نفسي جهداً، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي، فجنّته فرحب بي وكتبت بين يديه^(١)، وشهد معاوية - رضى الله عنه - مع رسول الله ﷺ حينئذ وأعطاه مائة من الأبل وأربعين أوقية من الذهب^(٢)، وقد ذكر العلماء لمعاوية رضى الله عنه فضائل كثيرة من هذه الفضائل:

١ - من القرآن الكريم:

فقد اشترك معاوية رضى الله عنه في غزوة حنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]. ومعاوية رضى الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي ﷺ^(٣)، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]. ومعاوية رضى الله عنه ممن وعدهم الله الحسنى، فإنه أنفق في حنين والطائف وقاتل فيهما^(٤).

٢ - من السنة:

أ - دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضى الله عنه، ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم اجعله هادياً^(٥)، مهدياً^(٦)، واهد به»^(٧).

وقال ﷺ: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ووقه العذاب»^(٨).

ب - ما أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ، فتواريت خلف الباب، قال: فجاء

(٢) المصدر نفسه (٣٩٦/١١).

(٤) المصدر نفسه (٤٩٥/٤).

(٦) مهدياً: مهتدياً في نفسه.

(١) البداية والنهاية (٣٩٦/١١).

(٣) الفتاوى (٤٥٨/٤).

(٥) هادياً: أى للناس أو دالاً على الخير.

(٧) الشريعة (٢٤٣٧/٥) إسناده صحيح.

(٨) موارد الظمان للهيثمي، تحقيق حسين الداراني (٢٤٩/٧) إسناده حسن.

فحطأني حطأةً وقال: اذهب وادع لى معاوية، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لى: اذهب فادع لى معاوية، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، فقال: لا أشبع الله بطنه^(١).

قال النورى معلقاً على هذا الحديث: وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقاً للدعاء عليه، فلماذا أدخله فى هذا الباب^(٢)، وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه فى الحقيقة دعاء له^(٣)، ولذلك قال ابن عساکر عن حديث لا أشبع الله بطنه: أصح ما روى فى فضل معاوية.. وبعده حديث: «اللهم علمه الكتاب»، وبعده حديث: «اللهم اجلعه هادياً مهدياً»^(٤). وعن الحديث نفسه قال الذهبى: قلت: لعل أن يقال هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ: «اللهم من لعنته أو سببته، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة»^(٥). وقال الألبانى: قد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعناً فى معاوية رضى الله عنه، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك، كيف وفيه أنه كان كاتب النبى ﷺ^(٦)، وقيل فى «لا أشبع الله بطنه»: أنها كلمة جرت على عادة العرب نحو: قاتله الله ما أكرمه، ويل أمه وأبيه ما أجوده، مما لا يراد معناه^(٧).

ج- ما أخرجه البخارى من طريق أنس بن مالك، عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت: نام النبى ﷺ يوماً قريباً منى، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: أناس من أمتى عرضوا علىّ، يركبون هذا البحر الأخضر، كالمملوك على الأسرة، قالت: فادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: «أنت من الأولين»، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية^(٨)، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين، فقُرِّبَتْ إليها دابة لتركبها

(١) مسلم رقم (٢٦٠٤).

(٢) اسم الباب: من لعنه النبى صلى الله عليه وسلم أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً.

(٣) شرح صحيح مسلم للنورى (١٦٥/١٦). (٤) تاريخ دمشق (٢٤/٦٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٣٠/١٤). (٦) السلسلة الصحيحة (١٦٥/١).

(٧) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٦٩).

(٨) وذلك فى إمارة معاوية على الشام فى خلافة عثمان سنة ٢٧هـ.

فصرعتها فماتت^(١). قال ابن حجر معلقاً على رؤيا رسول الله ﷺ قوله: «ناس من أمتي عرضوا على غزاة» يشعر بأنه ضحكه كان إعجاباً بهم، وفرحاً لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة^(٢).

د- ما أخرجه البخارى من طريق أم حرام بنت ملحان رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»^(٣)، قالت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر»^(٤) مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا^(٥).

قال المهلب^(٦) معلقاً على هذا الحديث: فى هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر^(٧). وكان معاوية رضى الله عنه يكتب الوحي لرسول الله ﷺ^(٨)، وكذلك رسائل النبي ﷺ إلى زعماء القبائل^(٩)، وكتابة معاوية للوحي لرسول الله ﷺ أتاح له لوئاً من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ فى تلك الفترة التى أعقبت فتح مكة حتى وفاة رسول الله ﷺ، مما يستتبع بالضرورة التأثير بشخص الرسول الكريم ﷺ، والأخذ المباشر منه^(١٠).

سابعاً: رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ:

يعد معاوية رضى الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله ﷺ، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وكان عمره فى فتح مكة حوالى ثمانى عشرة سنة^(١١)، ولكونه صهر رسول الله ﷺ وكتابه فقد أتحت له فرصة عظيمة مكنته من الاستفادة من رسول الله ﷺ، هذا وقد روى معاوية رضى

-
- (١) فتح البارى على صحيح البخارى (٢٢/٦).
(٢) المصدر نفسه (٧٦/١١).
(٣) أوجبوا : أى فعلوا فعلاً وجبت لهم الجنة .
(٤) مدينة قيصر : يعنى القسطنطينية، فتح البارى (٦/١٢٠).
(٥) فتح البارى على صحيح البخارى (٢٢/٦).
(٦) المهلب بن أحمد بن أبى صفرة الأسدى الأندلسى، مصنف شرح صحيح البخارى، توفى سنة ٤٣٥ هـ انظر: سير أعلام النبلاء (٥٨٩/١٧)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٧).
(٧) فتح البارى (٦/١٢٠).
(٨) البداية والنهاية (٣٩٦/١١).
(٩) الإصابة فى تمييز الصحابة (٤٣٤/٣).
(١٠) الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (١٤٥).
(١١) الطبقات الكبرى (٤٠٦/٧)، خلافة معاوية د. عمر العقيلى، ص (١٤).

الله عنه مائة وثلاثة وستين حديثاً^(١) عن رسول الله ﷺ، واتفق له البخارى ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخارى بأربعة ومسلم بخمسة^(٢)، ومن هذه الأحاديث التى رواها معاوية رضى الله عنه:

١ - دخل معاوية على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، ولم يقم ابن الزبير فقال معاوية: مه، قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يمثل له عباد الله قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»^(٣).

٢ - عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا أراد الله بعد خيراً فقهه فى الدين»^(٤).

٣ - عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة فى المسجد، فقال: ما أجلسكم^(٥)، قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل قال: آله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنى لم استحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلة من رسول الله ﷺ أقلّ عنه حديثاً منى، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ علينا بك، قال: آله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنه أتانى جبريل عليه السلام فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة»^(٦).

٤ - عن معبد الجهنى قال: كان معاوية قلماً يحدث عن رسول الله ﷺ شيئاً، ويقول هؤلاء الكلمات قلماً يدعهن أو يحدث بهن فى الجمع، عن النبى ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإن هذا المال حلّو خضر فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح، فإنه الذبيح»^(٧).

(١) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم، ص (٥٥)، مرويات خلافة معاوية، ص (٢٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦٢/٣).

(٣) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (٤٠/٢٨) إسناده صحيح.

(٤) المصدر نفسه (٤٨/٢٨) إسناده صحيح. (٥) أى: فى المسجد.

(٦) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٥٠/٢٨) إسناده صحيح.

(٧) المصدر نفسه (٥٢/٢٨) إسناده صحيح.

٥ - عن عبد الرحمن بن عبد عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب الخمر، فاجلدوه، فإن عاد، فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه، فإن عاد الرابعة، فاقتلوه»^(١).

٦- عن عيسى بن طلحة قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(٢).

٧- عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس أن معاوية أخبره: أنه رأى رسول الله ﷺ قصر من شعره بمشقص فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية، فقال: ما كان معاوية على رسول الله متهمًا.

٨- عن الزهري قال حدثني حميد بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع معاوية يخطب بالمدينة يقول: يا أهل المدينة، أين علماءكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا يوم عاشوراء ولم يفرض علينا صيامه، فمن شاء منكم أن يصوم فليصم فإنني صائم» فصام الناس^(٣) بداية.

٩- عن الحكم بن ميناء أن يزيد بن جارية الأنصاري أخبره أنه كان جالساً في نفر من الأنصار، فخرج عليهم معاوية، فسألهم عن حديثهم، فقالوا: كنا في حديث من حديث الأنصار، فقال معاوية: ألا أزيدكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب الأنصار أحبه الله عز وجل، ومن أبغض الأنصار، أبغضه الله عز وجل»^(٤).

١٠- عن أبي صالح عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»^(٥).

١١- قال محمد بن كعب القرظي، سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٦).

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٦١/٢٨) إسناده صحيح.

(٢) المصدر نفسه (٧٥/٢٨) إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) المصدر نفسه (٨١/٢٨) إسناده صحيح.

(٤) المصدر نفسه (٨٥/٢٨) إسناده صحيح.

(٥) المصدر نفسه (٨٩/٢٨) صحيح لغيره.

(٦) المصدر نفسه (١٠٠/٢٨) إسناده صحيح.

١٢- عن أبي بردة عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته»^(١).

١٣- وعن معاوية رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»^(٢).

١٤- وعن معاوية بن أبي سفيان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من نسي شيئاً من صلاته فليسجد سجدين وهو جالس»^(٣).

١٥- وعن معاوية بن أبي سفيان، عن النبي ﷺ قال: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٤).

١٦- وعن عمير بن هانئ قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم ظاهرون على الناس» فقام مالك بن يخامر السكسكى فقال: يا أمير المؤمنين سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام، فقال معاوية ورفع صوته: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: وهم أهل الشام^(٥).

١٧- حدثنا روح، قال: حدثنا أبو أمية عمرو بن يحيى بن سعيد قال: سمعت جدى يحدث أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبي هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها واشتكى أبو هريرة فبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ، فقال: يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله عز وجل واعدل، قال: فما زلت أنى مُبتلى بعملٍ لقول النبي ﷺ حتى ابتليت^(٦).

(١) الموسوعة الحديثية منسد أحمد (١٠٧/٢٨) إسناده صحيح.

(٢) المصدر نفسه (١١٦/٢٨) إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) المصدر نفسه (١١٨/٢٨) صحيح لغيره.

(٤) المصدر نفسه (١٢٩/٢٨) إسناده صحيح.

(٦) المصدر نفسه (١٣٠/٢٨) رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن جد عمرو بن يحيى - وهو سعيد بن عمرو

ابن سعيد بن العاص لم يبين لنا سماعه من معاوية، فقد ذكر البخارى فى تاريخه الكبير (٣/٣٣١)

فقال: ويروى فى فضائل معاوية أشياء ضعيفة تحتمل وذكر منها هذا الحديث .

١٨- وعن أبي عامر عبد الله بن لُحَيٍّ، قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلماً قدمنا مكة قام حين صَلَّى صلاة الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، - يعنى الأهواء - كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة، وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»^(١).

ثامناً: من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى شأن معاوية مدحاً وذمماً:

١ - من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى مدح معاوية: وقد ساق ابن عساكر فى ترجمته لمعاوية أحاديث واهية وباطلة طول بها جداً، فمن الأباطيل المختلفة: ^(٢)
أ - عن واثلة مرفوعاً: كاد معاوية أن يبعث نبياً من حلمه واثمائه على كلام ربي^(٣).

ب - وعن أبى موسى: نزل عليه الوحي، فلما سُرِّي عنه طلب معاوية، فلما كتبها -يعنى آية الكرسي- قال: غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة^(٤).

ج - وعن أنس: هبط جبريل بقلم من ذهب، فقال: يا محمد، إن العلى الأعلى يقول: قد أهديت هذا القلم من فوق عرشى إلى معاوية، فمره أن يكتب آية الكرسي به ويشكله ويعجمه، فذكر خبراً طويلاً^(٥).

د - وعن ابن عباس، قال: لما أنزلت آية الكرسي، دعا معاوية فلم يجد قلماً، وذلك أن الله أمر جبريل أن يأخذ الأقلام من دواته، فقام ليحجىء بقلم، فقال النبى ﷺ خذ القلم من أذنك، فإذا قلم ذهب مكتوب عليه لا إله إلا الله، هدية من الله إلى أمينه معاوية.

هـ - وعن حذيفة مرفوعاً: يبعث معاوية وعليه رداء من نور الإيمان^(٦).

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (١٣٥/٢٨) إسناده حسن.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/١٢٧، ١٢٨).

(٣) المصدر نفسه (٣/١٢٨) موضوع.

(٤) المصدر نفسه (٣/١٣٠) موضوع.

(٥)، (٤) المصدر نفسه (٣/١٢٩) موضوع.

و - وعن أنس مرفوعاً: لا أفتقد أحداً غير معاوية، لا أراه سبعين عاماً، فإذا كان بعد أقبل على ناقة من المسك، فأقول: أين كنت؟ فيقول في روضة تحت العرش .

ز - وعن ابن عمر مرفوعاً: يا معاوية، أنت منى وأنا منك، لتزاحمني على باب الجنة^(١).

قال الذهبي بعد ذكر هذه الأحاديث وغيرها: فهذه الأحاديث ظاهرة الوضع والله أعلم^(٢). وقد ذكر أكثر هذه الأحاديث الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية^(٣)، وقال ابن كثير بعد أن ذكر حديثاً منها وقد أورد ابن عساکر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة^(٤)، والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبه عليها وعلى نكارتها وضعف حالها^(٥).

٢ - من الأحاديث الباطلة في ذم معاوية: قال ابن الجوزي: قد تعصب قوم ممن يدعى السنة فوضعوا في فضله أحاديث ليغضبوا الرافضة، وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا في ذمه أحاديث وكلا الفريقين على الخطأ القبيح^(٦)، ومن الأحاديث الواهية في ذمه:

أ - الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم رجل يموت على غير ستي فطلع معاوية». وقام النبي ﷺ خطيباً، فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة، فقال النبي ﷺ: «لعن الله القائد والمقود»، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذى الإساءة. وهذا الحديث لا يصح وهو كذب على رسول الله، وهو من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد في شيء من دواوين الحديث التي يرجع إليها في معرفة الحديث، ولا له إسناد معروف^(٧). ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس، وأصبرهم على من يؤذيه، وأعظم الناس تأليفاً لمن يعاديه، فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ، مع أنه أعظم الناس مرتبة في الدين والدنيا، وهو محتاج إليه في كل أموره؟ فكيف لا يصبر

(٣) الفوائد المجموعة، ص (٤٠٣ - ٤٠٧).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٣١/٣).

(٧) البداية والنهاية (٤٣٨/١١).

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (١٣١/٣) موضوع.

(٤) البداية والنهاية (٤٠٩/١١).

(٦) الموضوعات (١٥/٢).

على سماع كلامه وهو بعد الملك يسمع كلام من يسبه في وجهه، فلماذا لا يسمع كلام النبي ﷺ؟ وكيف يتخذ النبي ﷺ كاتباً من هذه حاله^(١).

٣- دور بنى أمية في عهد رسول الله ﷺ: رغم إسلام الكثير من رجال بنى أمية منذ بداية الدعوة، وتضحياتهم وهجرتهم إلى الحبشة، ورغم إسلام جميع بنى أمية عند فتح مكة، وترحيب الرسول بهم وفرحه بإسلامهم، والاعتماد عليهم في جلائل الأعمال وقد أفسح لهم مكاناً في دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم، فقد أعطى الرسول ﷺ لأبى سفيان ميزة لم يعطها أحداً من أهل مكة، حين قال: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»^(٢)، وهذا شرف كبير حازه أبو سفيان يدل على تقدير الرسول للزعماء وأصحاب الكلمة في قومهم، واستعمل الرسول ﷺ أباً سفيان على نجران، واتخذ ابنه معاوية كاتباً له^(٣). روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس، أن أباً سفيان طلب من النبي ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين، وأن يجعل معاوية كاتباً بين يديه، فاستجاب له النبي ﷺ^(٤)، وكان أول وال على مكة - وهى أشرف بلاد الله - بعد فتحها رجلاً من بنى أمية، هو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس، يروى ابن إسحاق عن زيد بن أسلم أنه قال: لما استعمل النبي ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً، فقال: أيها الناس: أجاج الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقنى رسول الله ﷺ كل يوم درهماً فليست بى حاجة إلى أحد^(٥)، كما استعمل رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على قرى خيبر ووادى القرى وتيماء وتبوك، وقبض رسول الله ﷺ وعمرو عليها^(٦)، كما استعمل الحكم بن سعيد بن العاص على سوق مكة^(٧)، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء^(٨)، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وقبض رسول الله ﷺ وهو

(١) أمير المؤمنين معاوية لابن تيمية، جمع وتقديم محمد مال الله، ص (٨٨).

(٢) البخارى رقم (٤٢٨٠).

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى (٦٢/١٦).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٦٩/٤ - ١٤٩)، تاريخ خليفة بن خياط، ص (٩٧).

(٦) خليفة بن خياط، ص (٩٧).

(٧) منهاج السنة (٣/١٧٥، ١٧٦).

عليها^(١)، كما كان أبان وخالد ابنا سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان إضافة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنهم - من كتاب الرسول ﷺ^(٢).

وخلاصة القول: فقد قبض رسول الله ﷺ ومُعظم رجالات بنى أمية على مختلف الأعمال، من الولاية والكتابة، وجباية الأموال، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال الرسول ﷺ أكثر منهم^(٣)، واستعمال النبي ﷺ لأكثر رجال بنى أمية، أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم^(٤). وأما قوله ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٥)، فهذه الكلمات، جعل بعض الناس منها سبة في جبين بنى أمية وحدهم، وجعلوا يعيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء، ولم يفهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم، وكانت لهم مواقف مشهودة في نصرته الإسلام في حياة الرسول ﷺ وبعده في الفتوحات في عهد خلفائه الراشدين^(٦)، ونحب أن نشير إلى عدة نقاط متعلقة بوصف الطلقاء منها:

١ - إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة، لما تفجرت الأحقاد ضد بنى أمية في أواخر عهد عثمان رضى الله عنه، وبعد بروز نجم معاوية بن أبي سفيان وخلافه مع على بن أبى طالب رضى الله عنه، حيث أصبح ذلك الوصف يعنى عندهم أنهم قوم ضعاف الإيمان، دخلوا الإسلام رغبة في غنائه، أو رهبة من القتل، ليكيدوا لأهله ويفيدوا أنفسهم.

٢ - أن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة، فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول وجيشه بمر الظهران خارجها، وقد جاء فور إسلامه يدعو قومه إلى المسالمة والفتح، أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضاً، غير أنه كان يخفى إسلامه - شأن بعض الناس آنذاك - لمكانته من أبيه الذى كان يقود القتال ضد المسلمين، فقد روى أنه أسلم سراً يوم عمرة القضاء، أو عام الحديبية^(٧)، وإنما وضعهم المؤرخون في زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبى سفيان من الفتح، ولأنه كان زعيم مكة

(١) منهاج السنة (٣/١٧٥، ١٧٦) .

(٢) تخريج الدلالات السمعية، ص (١٥٩-١٦٢).

(٣) منهاج السنة (٣/١٧٥) ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٢).

(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٢) . (٥) الطبقات (٢/١٤١، ١٤٢).

(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٨) . (٧) البداية والنهاية (١١/٣٩٦).

الذي ارتبط إسلامه بإسلامها، كما أن معاوية كان إسلامه سرّاً لم يشع، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة.

٣- إن وصف الطلقاء لا يقتضى الذم، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبي ﷺ، وكانوا نحو من ألفى رجل، ومنهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، ويزيد بن أبي سفيان وحكيم بن حزام، وأبى سفيان بن الحارث، ابن عم النبي ﷺ الذي كان يهجوهم ثم حسن إسلامه، وعتاب بن أسيد الذي ولاه النبي مكة لما فتحها، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم.

٤- إن النظرة الإسلامية فى هذا الشأن أن الإسلام يجب ما قبله، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات ويدفع بها نحو تحقيق غاياته الكبرى، وينزل الناس منازلهم، وأن خيار الناس فى الإسلام خيارهم فى الجاهلية إذا فقها، ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوئهما المكانة العالية عند النبي ﷺ، فأرسل عمرراً أميراً على ذات السلاسل، وسمى خالداً سيف الله... هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمنزلة العظمى للسابقين الصادقين فى الإسلام، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بنى أمية وغيرهم، كما كان من الطلقاء بنى أمية وغيرهم (١).

(١) الدولة الأموية المفتري عليها، ص (١٤٤).

المبحث الثانى

الأمويون ومعاوية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم

أولاً: فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه:

واجه المسلمون بعد موت نبيهم ﷺ ظروفاً عصيبة وأجمع المسلمون على بيعة أبى بكر خليفة لرسول الله ﷺ، وقام بجهود عظيمة فى مواجهة الأخطار، فحارب المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجماعة، وبدأ حركة الفتوح فى بلاد الفرس والروم، وكان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموى على مكة عتاب بن أسيد حيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام، فواجههم عتاب فى تهامة حتى ظفر بهم^(١)، ثم جهز من أهل مكة وأعمالها خمسمائة رجل وأمر عليهم أخاه خالد بن أسيد، فاشتركوا فى قتال المرتدين باليمن^(٢)، وإعادة أهل حضرموت وكندة إلى حظيرة الإسلام^(٣)، وفى حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كان قائد الجيش خالد بن الوليد الذى جعل على قيادة المهاجرين فى جيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومعه زيد بن الخطاب^(٤)، فقاتل أبو حذيفة قتالاً مجيداً، ولما انكشف المسلمون فى أول القتال كان أبو حذيفة يهتف فيهم: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال، وقاتل حتى قُتل رضى الله عنه^(٥)، وحمل راية المهاجرين يومذاك مولاه سالم وقاتل بها حتى قُتل أيضاً^(٦)، وشهد حروب اليمامة ضد مسيلمة معاوية رضى الله عنه^(٧)، كما استشهد من حلفاء بنى أمية عكاشة بن محصن الأسدى فى قتال طليحة الأسدى^(٨)، وساهم العلاء الحضرمى حليفهم أيضاً فى إخمد الردة فى البحرين،

(١) تاريخ الطبرى (٣/٣١٩)، الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (١٤٨).

(٢) تاريخ الطبرى (٣/٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣٠). (٣) المصدر نفسه (٣/٣٣٠ - ٣٤٢).

(٤) المصدر نفسه (٣/٣٨١). (٥) المصدر نفسه (٣/٢٩١).

(٦) المصدر نفسه (٣/٢٩١، ٢٩٢)، الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (١٤٨).

(٧) البداية والنهاية (١١/٣٩٦). (٨) ديوان الردة للعتوم، ص (٨٦).

ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة^(١)، وكان من الطبيعي بعد انتهاء حروب الردة وعودة المرتدين إلى حظيرة الدين وانصياعهم للحكومة الراشدة، أن تطمح الأبصار إلى تخليص الشعوب المستعبدة من حكوماتها الظالمة ودعوتها إلى الإسلام، وبدأ ما عُرف في التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتي فارس والروم. . وقد كان لبني أمية دور بارز في هذه الحروب مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامي وحيوية دورهم التاريخي في هذه الفترة، غير أننا نشير في البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح^(٢):

الأولى: هي تعاظم دور مسلمة الفتح وطلاق مكة في الفتوح - ومنهم بعض بني أمية - وقد كان ذلك متوقعًا لسببين، الأول: هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه في الفتح^(٣). وقد كان هذا يعود إلى حرص أبي بكر الصديق رضى الله عنه على نفاء هذه الفتوحات من آثار رقة الدين أو شهوات هذه النفوس التي لم تخلص بعد للإسلام، أو لم تبرهن على إخلاصها له.

والثاني: يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاتهم من خدمة قضية الإسلام، وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فسادوا بذلك وعلت أقدارهم^(٤).

والسمة الظاهرة الثانية: هي تركيز نشاط الأمويين في الفتوح على جبهة الشام، يشاركونهم في ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عموماً، ويبدو أن ذلك كان أمراً مقصوداً من الخليفة الصديق الذى أدرك وجود صلات عميقة الجذور بين بني أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحت الحكم البيزنطى، تلك الصلات التي تعمقت من خلال النشاط التجارى المتواصل بين مكة والشام فى الجاهلية، والذى كان بنو أمية أبرز قواده ورواده^(٥).

وأما عن مشاركة الأمويين فى حروب الفتح، فقد جاءت مبكرة، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبى معيط مع خالد بن الوليد فى فتوح العراق الأولى، وشهد

(١) تاريخ الطبرى (٣/٣٠١ - ٣١٣)، سيرة أبى بكر الصديق الصلابى، ص (٢٢٥).

(٢) الدولة الأموية المفتري عليها، ص (١٤٨). (٣) تاريخ الطبرى (٣/٣١٩، ٣٤٧).

(٤) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٤٩). (٥) المصدر نفسه، ص (١٤٩).

معه قتل هرمز، وأرسله خالد إلى أبي بكر بالغنائم وبشارة الفتح وإخباره عن جمع جديد من الفرس^(١)، ثم وجهه الخليفة مدداً إلى عياض بن غنم الذي كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال، وكان يحاصر دومة الجندل فيجد العنت والمشقة في فتحها، فأشار عليه الوليد باستمداد خالد بن الوليد، فاستمده، فأنجده، وفتحوا معاً دومة الجندل^(٢)، ثم ولاه أبو بكر على النصف من صدقات قضاة مما يلي دومة الجندل^(٣)، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد في سبيل الله، ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذي ولاه إياه فأجابه بإيثار الجهاد، فوجه به إلى الشام^(٤)، وكان أول لواء عقده أبو بكر في حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموي ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أيضاً^(٥)، وأما جيش يزيد بن أبي سفيان، فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشياً^(٦)، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح^(٧)، يقول الذهبي عن يزيد بن أبي سفيان: وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، عقد له أبو بكر، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه، وما ذلك إلا لشرفه، وكمال دينه^(٨).

ثم أتبع الصديق بأناس آخرين يرغبون في الجهاد وألحقهم بجيش يزيد وجعل عليهم أميراً معاوية بن أبي سفيان^(٩). . . وخرج أبو سفيان بن حرب - وهو يومئذ شيخ كبير^(١٠). كما اشترك في الجهاد في الشام أيضاً خالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، وعمرو بن سعيد، وقاتلوا جميعاً هناك وقتلوا، حتى قيل: ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص شهيداً^(١١)، وقبل

(١) البداية والنهاية (٦/٣٥٤).

(٢) تاريخ الطبري (٣/٣٩٠)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٤٩).

(٣) المصدر نفسه (٣/٣٩٠). (٤) المصدر نفسه (٣/٣٨٩)، (٣٩٠).

(٥) المصدر نفسه (٣/٣٨٧). (٦) فتوح الشام للواقدي (١/٣ - ٤).

(٧) تاريخ الطبري (٣/٣٩٤). (٨) سير أعلام النبلاء (١/٣٢٨).

(٩) تاريخ الطبري (٣/٣٩١).

(١٠) لما توفي كان عمره ثمانية وثمانين عاماً، ولما حضر اليرموك كان عمره أكثر من سبعين عاماً.

(١١) النزاع والتخاصم، ص (٤٦)، الدولة الأموية حمدى شاهين، ص (١٥٠).

معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمراً للحرب فى الجولان . . ومر بهم أبو سفيان بن حرب فقال: ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم، ويتذاكرون ما يكيدون به عدوهم - فى منزلى - ولا يحضرونى، فاشترك معهم فى مشورتهم، فأفسحوا له، فأسهم معهم فى رسم خطة القتال^(١). ولما أزفت ساعة الحرب فى اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود، فبينما كان الروم يحضضهم القسيسون والرهبان، وينعون لهم النصرانية، حتى تشجعوا وخرجوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال مثله^(٢)، كان المسلمون يتبادرون إلى لقاء الخطب البليغة والأرجاز المثيرة^(٣)، بل أنهم عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم فى مهمة «القاص» وكان ذلك الرجل هو أبو سفيان بن حرب نفسه^(٤)، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه فى دينه وإسلامه، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه آنذاك غير هذا الإخلاص ما جعلوه أميناً على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله فيه ذلك الأثر العظيم، وقد كان اختياراً موفقاً فعلاً يتسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذى يضم الكثير من أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم، والذين احتفظوا بثقتهم القديمة فى أبى سفيان، زعيمهم الذى خبروه^(٥)، وكان أبو سفيان رضى الله عنه يقف على الكراديس^(٦)، فيقول: الله الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل النصر على عبادك^(٧).

ثانياً: فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

عندما توفى الصديق عام ١٣هـ ببيع الفاروق بالخلافة وسار على نهج صاحبيه فى استعمال بنى أمية والثقة بهم، فلم يعزل أحداً منهم من عمل، ولم يجد على أحد منهم مأخذاً، والكل يعرف صرامة عمر، وتحريه أمر ولاته وعماله وتقصيه

(١) فتوح الشام للواقدي (١/٩٩) .

(٢) المصدر نفسه (٣/٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١) .

(٤) المصدر نفسه (٣/٣٩٧) .

(٥) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٥١) .

(٦) الكراديس: جمع كردوس: القطعة العظيمة من الخيل أو الكتبية من الجنود.

(٧) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٣) .

أعمالهم وأخبارهم، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم، فاستمرارهم فى عهده يدل على أمانتهم وكفائتهم، فقد بقى يزيد بن أبى سفيان والياً على دمشق، كما زاد عمر فى عمل معاوية بالشام^(١).

١ - بدأ نجم معاوية فى الظهور:

بدأ نجم معاوية رضى الله عنه فى الظهور فى ميدان العمل السياسى والإدارى فى عهد الخليفة عمر رضى الله عنه، فقد ولاه فتح قيسارية^(٢) سنة خمس عشرة للهجرة^(٣)، وجاء فى كتاب توليته له: أما بعد، فقد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، الله ربنا وثقتنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير^(٤). كانت هذه المهمة الجسيمة اختباراً كبيراً من عمر لمعاوية فى ميدان الواقع، فقد استطاع تجاوز هذا الاختبار بكل نجاح، فقد سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعددهم له أخوه يزيد بن أبى سفيان - أحد ولاة الشام لعمر رضى الله عنه- وكانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد، فحاصرها معاوية طويلاً وزاحف أهلها مرات عديدة، فلم ييأس معاوية، فصمم على فتحها، واجتهد فى القتال حتى فتح الله على يديه، وكان فتحه كبيراً فقد قتل من أهلها ما يقرب من مائة ألف^(٥)، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه^(٦)، وقد أثبت معاوية - بعد توفيق الله - بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، فأسند له أخوه يزيد - أمير دمشق - مهمة فتح سواحل الشام، وقد أبلى فى ذلك بلاءً حسناً^(٧)، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فرجماً قوتل قتالاً شديداً، وربما رمى ففتحها، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد^(٨)،

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٥).

(٢) قيسارية : على ساحل الشام، تعد فى أعمال فلسطين، ياقوت (٤/٤٢١).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٩).

(٤) تاريخ الطبرى (٤/٤٣١). (٥) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص (٦٣، ٦٤).

(٦) البداية والنهاية (٧/٥٤). (٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٩).

(٨) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (١٣٤).

ويرى الدكتور عبد الرحمن الشجاع أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان لا يجعلهم يفكرون في المقاومة؛ فتساقطت مدن بيروت، وصيدا، ونبلس، واللد، وحلب، وأنطاكية، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحاً على يد معاوية بن أبى سفيان، وكان ذلك بعد القدس^(١).

وكان عبادة بن الصامت على ميمنة جيش المسلمين في حصار قيسارية، فقام رضى الله عنه بوعظ جنده ودعاهم إلى تفقد أنفسهم والحيلة من المعاصي، ثم قاد هجوماً قتل فيه كثيراً من الروم، لكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه، فعاد إلى موقعه الذي انطلق منه، فحرّض أصحابه على القتال، وأبدى لهم استغرابه الشديد لعدم تحقيق أهداف ذلك الهجوم فقال: يا أهل الإسلام، إنى كنت من أحدث النقباء سناً وأبعدهم أجلاً، وقد قضى الله أن أبقانى حتى قاتلت هذا العدو معكم. . . والذي نفسى بيده ما حملت قط في جماعة من المؤمنين على جماعة من المشركين، إلا خلوا لنا الساحة وأعطانا الله عليهم الظفر، فما بالكم حملتم على هؤلاء فلم تزيلوهم؟^(٢) ثم بين لهم ما يخشاه منهم، فقال: إنى والله لخائف عليكم خصلتين، أن تكونوا قد غللتم، أو لم تناصحوا الله فى حملتكم^(٣)، وحض أصحابه على طلب الشهادة بصدق، وأعلمهم أنه سيكون فى مقدمتهم وأنه لن يعود إلى مكانه، إلا أن يفتح الله عليه أو يرزقه الشهادة^(٤)، فلما التحم المسلمون والروم، ترجل عبادة عن جواده وأخذ راجلاً، فلما رآه عمير بن سعد الأنصارى نادى المسلمون يعلمهم بما فعل أميرهم ويدعوهم إلى الاقتداء به، فقاتلوا الروم حتى هزموهم وأحجروهم فى حصنهم^(٥). وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية فى فتح سواحل دمشق ولاء عمر ابن الخطاب ولاية الأردن وكان ذلك عام ١٧هـ^(٦).

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٣٥٥).

(٢) الأنصار فى العصر الراشدى، ص (٢٠٧). (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).

(٦) تاريخ الطبرى (٤/٦٧)، خلافة معاوية للعقبلى، ص (١٧، ١٨).

٢ - ولايته على دمشق وبعليك والبلقاء:

فى سنة ثمان عشرة للهجرة توفى يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما فى طاعون عمواس، فولى عمر معاوية عمل أخيه - دمشق وبعليك والبلقاء - (١)، وقد كان لعمل عمر هذا أكبر الأثر على نفسية والد معاوية ووالدته، فحين عزاً عمر أباً سفيان فى وفاة ابنه يزيد قال: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية. قال: وصلت رحماً يا أمير المؤمنين. وكتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه فى بداية عمله هذا، فمما قال: يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعاً، وقد لوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجرى إلى أمد فنافس، فإن بلغت أورتته عقبك (٢)، وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة تقول: والله يا بنى إنه قل أن تلد أم مثلك وإن هذا الرجل قد استهضك فى هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحبت وكرهت (٣).

وكان بعض الناس - لا سيما شيوخهم - استغربوا تولية عمر رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه مع حداثة سنه ووجود من هو أكبر منه وأفضل، لذا سوغ عمر رضى الله عنه عمله هذا - حيث قالوا: ولّى حدث السن - بقوله: تلومونى فى ولايته، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به» (٤).

٣ - معاوية فى موكب عظيم وإنكار عمر عليه:

كان عمر رضى الله عنه - وهو الخبير بمعادن الرجال - يدرك أكثر من غيره ما يتمتع به معاوية من صفات تؤهله للقيادة، فحين قدم عمر الشام وافاه معاوية بموكب عظيم أنكره عليه عمر فقال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: مع ما بلغنى عنك من طول وقوف ذوى الحاجات ببابك. قال: هو ما بلغك

(١) الطبقات الكبرى (٧/٤٠٦)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦١).

(٢) البداية والنهاية (١١/٣٩٩) المقصود أورتته عقبك أى: الحمد.

(٣) المصدر نفسه (١١/٣٩٩).

(٤) السلسلة الصحيحة (٤/٦١٥) رقم (١٩٦٩) وقال الألبانى: حديث صحيح.

من ذلك. قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن أمرك بالمشى حافيًا إلى بلاد الحجاز. قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن تظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم، فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال له عمر: ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب^(١) الضرس، لئن كان ما قلت حقًا، إنه لرأى أريب^(٢)، ولئن كان باطلاً إنه لخديعة أديب^(٣). قال: فمرنى يا أمير المؤمنين قال: لا أمرك ولا أنهاك. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه^(٤). وفي رواية أن الرجل الذي قال لعمر: ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه هو عبد الرحمن بن عوف، وكان مع عمر حين استقبلهما معاوية بهذا الموكب العظيم^(٥).

وهذا الجواب من معاوية - رضى الله عنه - يدل على خبرة سياسية عالية، ومعرفة واعية بأحوال الأمم، ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمنى للدولة التى يحكمها، ومن أجل هذا رضى عمر سياسته على الرغم من أنها تخالف سياسة عمر فى اهتمامه بأحوال رعيته وبحث شكواهم، ولعل كلمة عمر - رضى الله عنه - من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه تدل على رضاه عن سياسة معاوية^(٦).

وكان عمر رضى الله عنه يتعهد معاوية بالتربية والوعظ والنصح، وأحياناً يشتد ويغلظ عليه، فعن أسلم مولى عمر رضى الله عنه قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض أو أبض الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه، فيعجب له، ثم يضع أصبعه على منته ثم يرفعها عن مثل الشراك، فيقول: بخ، نحن إداً خير الناس، أن جمع لنا خير الدنيا والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنا بأرض الحمّامات والريف، فقال عمر: سأحدثك ما بك إطفاك نفسك بأطيب الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس مستيك وذوو الحاجات وراء الباب. قال: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها، فوجد

(١) الرواجب : جمع راجبة : وهى ما بين عقد الأصابع من داخل أى : أضيّق ما يكون .

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٤١٦/١١).

(٦) الأمويون بين الشرق والغرب، لمحمد الوكيل (٣٠/١).

عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجاً تَفلاً، حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل فيهما على عشيرتي أو قومي، والله لقد بلغني أذاك ههنا وبالشام، والله يعلم إنى لقد عرفتُ الحياء فيه ثم نزع معاوية ثوبيه، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما^(١)، وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي، عن جدّه قال: دخل معاوية على عمر وعليه حلّةٌ خضراء فنظر إليها الصّحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة، فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين، الله الله فيّ، فرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله؟، فقال: والله ما رأيت إلا خيراً وما بلغني إلا خيراً، ولكنني رأيت - وأشار بيده^(٢) - فأحبيت أن أضع منه^(٣)، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب^(٤).

وكان معاوية رضى الله عنه في إمارته بالشام فى أبهة الملك وزيه من العديد والعدة، وكان يرى أنه فى ثغر تجاه العدو ويحتاج إلى مباحاتهم بزيينة الحرب والجهاد^(٥)، وإظهار الملك والسلطان، وكان يرى أن الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه التغلب بالباطل وتصريف الأدميين طوع الأغراض والشهوات، فلو كان الملك مخلصاً فى غلبه للناس أنه لله ولحملة على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً^(٦)، وقد قال الله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٣] لما علم من نفسه أنه بمغزل عن الباطل فى النبوة والملك، وكانت أبهة معاوية فى الملك لها أغراض ومقاصد شرعية، ولذلك سكت عمر رضى الله عنه، وذات يوم ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك فى الغضب ولا يُنال منه إلا على الرضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه^(٧)، ومهما يكن فى هذه الرواية وغيرها من مبالغة، فإن ثقة عمر فى معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك^(٨)،

(١) البداية والنهاية (٤١٧/١١).

(٢) يعنى: أشار بيده إلى أعلى.

(٣) البداية والنهاية (٤١٨/١١).

(٤) المصدر نفسه (٤١٧/١١)، الاستيعاب، ص (٦٦٨).

(٥) ابن خلدون إسلامياً، عماد الله خليل، ص (٧٨).

(٦) المصدر نفسه، ص (٧٨).

(٧) البداية والنهاية (٤١٥/١١).

(٨) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٥٤).

فقد برهن معاوية لعمر عمق فهمه لضرورات السياسة وتغير البيئة والمجتمع، وأثر ذلك كله على التطوير السياسى لأدوات الحكم، ومهما يكن من أمر فقد عظمت مكانة معاوية عند عمر رضى الله عنه، فولاه أهم أقاليم دولته، وزاد فى ولايته، ولم يعزله، على كثرة من كان يعزل من عماله وأمرائه، وكان معجباً بذكائه وإدارته ولا يكتفم ذلك الإعجاب^(١) حتى قال يوماً لجلسائه تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية^(٢).

٤ - جهود معاوية رضى الله عنه على جبهة الشام:

لما تولى معاوية أمر الشام، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر، أصبحت مهمة حماية الحدود الشامية للدولة الإسلامية والتوسع منها منوطاً به، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية فى أمرين هما: سن نظام الصوائف والشواتى^(٣)، وتكوين أسطول بحرى إسلامى لأول مرة فى تاريخ الإسلام^(٤).

أ- سن نظام الصوائف والشواتى فى عهد عمر: أصيب الروم على يد جنود الإسلام بهزائم مريعة متتالية، فقدوا على أثرها الشام ومصر، بكل ما تمثلانه من أهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية، غير أنهم لم يسلموا بهذه الهزائم، بل استمرت هجماتهم على الشام من خلال الدروب الجبلية التى تفصلهم عن باقى أجزاء إمبراطورية الروم، مما جعل عمر بن الخطاب يقول فى جولته بالشام سنة ١٦هـ: والله لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم لنا ما دونه، وللروم ما وراءه^(٥)، وفى رحلته هذه إلى الشام سمى عمر الصوائف والشواتى، وسد فوج الشام ومسالكها^(٦)، ومن المحتمل أن يكون هدف الروم من هجماتهم على المدن الإسلامية الحدودية منذ البداية، هو اعتماد ذلك كتدبير وقائى لحماية بلاد الروم وردع المسلمين، لكن استجابة معاوية كانت فوق التحدى، فقد نقل المعركة إلى بلاد العدو، وابتعد بالحرب عن بلاد المسلمين، وكان لا بد لمعاوية - من أجل

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠).

(١) الدولة الأموية، حمدى، ص (١٥٧).

(٣) الصوائف: غزو بلاد الروم فى الصيف والشواتى فى الشتاء.

(٥) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٣٣).

(٤) الدولة الأموية، حمدى، ص (١٥٤).

(٦) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٢).

تحقيق ذلك الهدف - من تطوير وسائل الدفاع، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقى الصدمة والإنذار، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة ٢٢هـ، حيث دخل بها بلاد الروم فى عشرة آلاف، وصائفة ٢٣هـ^(١)، حيث أوغل حتى بلغ عمورية، ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ، عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصارى، وأبو ذر الغفارى، وشداد بن أوس^(٢).

ب - تكوين أسطول إسلامى فى البحر: ويعود الفضل إلى الله ثم إلى معاوية فى هذه المرحلة المبكرة إلى فتح باب الجهاد فى البحر الذى أصبح ضرورياً لحماية الشام ومصر، ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطى، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين، وإمداداته للثائرين بهما. وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتى أن تضع حداً للتهديدات البرية، لكن المدن الساحلية، بداية من إنطاكية ونهاية بالأسكندرية، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية، وأدرك معاوية أيضاً أنه من المحال تطوير عمليات الفتوح فى أفريقيا ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين^(٣)، ولم يبدأ معاوية فى غزو البحر فعلياً إلا فى عهد عثمان وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى.

ثالثاً: معاوية رضى الله عنه فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه:

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية رضى الله عنه والياً على معظم الشام، فأقره عثمان عليها^(٤)، كما أقر بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث، وضمّت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح معاوية هو الوالى المطلق لبلاد الشام، بل أصبح أقوى ولاة عثمان، وأشدّهم نفوذاً، وقد كان فى بداية خلافة عثمان ولاة آخرون، منهم: عمير بن سعد الأنصارى، وكان على حمص، وينافس معاوية بن أبى سفيان فى المكانة لدى عثمان رضى الله عنه إلا أن عميراً

(١) تاريخ الأمم والملوك (٤/١٤٤، ١٦٠).

(٢) المصدر نفسه (٤/٢٤١)، الدولة الأموية حمدى، ص (١٥٥).

(٣) معاوية بن أبى سفيان، بسام العسلى، ص (٤٠). (٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٥٥).

مرض مرضاً أعياه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليفة عثمان أن يعفيه، فأعفاه، وضم ولايته إلى معاوية بن أبي سفيان، وبذلك زاد نفوذ معاوية، فامتد إلى حمص التي ولى عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^(١)، كما تُوفى علقمة بن محرز، وكان على فلسطين، فضمّ عثمان ولايته إلى ولاية معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه، فاجتمعت الشّام لمعاوية بعد سنتين من خلافة عثمان رضى الله عنه، وأصبح الوالى المطلق فيها طيلة السنوات الباقية من خلافة عثمان رضى الله عنه حتّى توفى عثمان وهو عليها كما هو معروف^(٢)، وقد كانت فترة معاوية على الشّام مليئة بالأحداث، وكانت الشّام من أهم مناطق الجهاد، ومع أن الشّام فى داخلها قد استقرت أوضاعها، وسادها الإسلام، وقلّت محاولات الروم إثارة القلاقل فيها، إلا أن الشام كانت متاخمة لأرض الروم، وبالتالي كان المجال مفتوحاً أمام معاوية للجهاد فى تلك النواحي وسيأتى الحديث عنها بإذن الله، وقد كان لمعاوية ثقله السياسى فى الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان رضى الله عنه، إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح فى الأفق، كما ظهرت له آراء خاصة فى هذا الاجتماع، وجّهها إلى عثمان^(٣) رضى الله عنه، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى.

١ - فتوحات حبيب بن سلمة الفهرى رضى الله عنه:

كان حبيب بن سلمة الفهرى من أبرز أمراء الجهاد فى زمن ولاية معاوية على بلاد الشّام، فعند أجلبت الروم على المسلمين بالشّام بجموع عظيمة أوّل خلافة عثمان، كتب معاوية إلى عثمان يستمده، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة والى الكوفة -عندما انتهى من مهمته فى أذربيجان وعاد إلى الموصل-، جاء فى خطاب الخليفة إلى الوليد بن عقبة: أمّا بعد، فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى يخبرنى: أن الروم قد أجلبت^(٤) على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابى هذا، فابعث رجلاً ممن ترضى نجاته، وبأسه، وشجاعته، وإسلامه فى ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف

(١) تاريخ الطبرى (٤٤٢/٥).

(٢) المصدر نفسه (٤٤٣/٥).

(٣) الولاية على البلدان (١/١٧٦).

(٤) أجلبت: تجمّعت للحرب.

إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولى^(١) والسّلام. فقام الوليد فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد، أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاءً حسناً، وردّ عليهم بلادهم التى كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردّهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين، وقد كتب إلى أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين عشرة آلاف إلى ثمانية آلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا -رحمكم الله- مع سليمان بن ربيعة، فانتدب الناس، فلم يمض ثلاثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا، حتى دخلوا الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهرى، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلى، فشنوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى، وملأوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة^(٢)، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة، وكان صاحب كيد لعدوه، فاجمع أن يبيت قائدهم الموريان -أى: يباغته ليلاً- فسمعت امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبيّة يذكر ذلك، فقالت: فأين موعذك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة. ثم بيّتهم، فغلبهم. وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته، قد سبقته إليه^(٣)، وواصل حبيب جهاده، وإنتصاراته المتوالية من أراضى أرمينية، وأذربيجان، ففتحها إمّا صلحاً، أو عنوة^(٤).

وقد كان حبيب بن سلمة الفهرى من أبرز القادة الذين حاربوا فى أرمينية البيزنطية، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدو، وفتح حصوناً، ومدناً كثيرة^(٥)، كما غزا ما يلى ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط، وملطية، وغيرها^(٦).

(١) تاريخ الطبرى (٢٤٧/٥).

(٢) تاريخ الطبرى (٢٤٧/٥)، عثمان بن عفان للصّلابى، ص (١٨١).

(٣) تاريخ الطبرى (٢٤٨/٥).

(٤) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، لحمدى شاهين، ص (٢٥٢).

(٥) حروب الإسلام فى الشام فى عهود الخلفاء الراشدين، ص (٥٧٧).

(٦) عثمان بن عفان للصّلابى، ص (٢٠٥).

٢ - غزوات معاوية في عهد عثمان في البر:

أدرك معاوية رضى الله عنه بأن إزالة خطر الروم وتهديدهم للمسلمين لا يتم إلا بمواصلة غزو الروم وتنشيط حركة الجهاد بشكل مستمر في الثغور الشامية والجزرية^(١)، وشحنها بالمرابطين وتعهدتها على الدوام، وقد أخذ منه ذلك وقتاً طويلاً وبذل فيه جهداً كبيراً خلال ولايته تلك في عهد عثمان، ففي سنة خمس وعشرين للهجرة قام معاوية بجولة عسكرية على الثغور الشامية، فوجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وفسرين حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك، وكانت الولاة تفعله^(٢)، وفي سنة إحدى وثلاثين غزا من ناحية المصيصة فبلغ درولية^(٣)، فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه^(٤)، وكذلك الشأن فى الثغور الجزرية فقد أولاهها عنايته فقد وجه فى الأيام الأولى لولايته تلك، كلاً من حبيب بن مسلمة الفهرى وصفوان بن المعطل السلمى إلى شمشاط ففتحها. كما وجه حبيب بن مسلمة إلى إعادة فتح ملطية بعد أن انتقضت، ففتحها عنوة، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها، كما قام معاوية بنفسه بعد ذلك بحملة أخرى يريد التوغل فى أرض الروم فقد مرَّ على ملطية فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما وذلك لكى تكون طريقاً آمناً لحملات الصوائف. كما غزا حصن المرأة من الثغور الجزرية فى السنة نفسها^(٥)، وكان يتعهد حصن الحدث، وبنى مدينة مرعش وأسكنها الجند،

(١) الثغور الشامية والجزرية هى شريط طويل من القلاع والحصون يمتد على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية مع الدولة البيزنطية، ويبدأ هذا الشريط من ملطية إلى الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط. وينقسم خط هذه القلاع إلى مجموعتين: إحداهما تسمى بـ(الثغور الجزرية) وهى تمثل الجزء الشمالى الشرقى من هذا الخط ومن أهم ثغور هذا القسم: ملطية، وزبطرة، وحصن منصور، والحدث ومرعش وشمشاط. والمجموعة الثانية تسمى بالثغور الشامية وهى تمثل الجزء الجنوبى الغربى من ذلك الخط وأهم ثغور ذلك القسم: عين زربة، وأذنة، وطرطوس، وهرقلة، ويقصل بين المجموعتين فاصل طبيعى وهو جبل اللكام. انظر: أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٦٧).

(٢) فتوح البلدان، ص (٦٩).

(٤) فتوح البلدان، ص (١٦٩).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٦٧)، فتوح البلدان، ص (١٨٩).

وكل هذه المدن والحصون من الثغور الجزرية^(١)، ولما اطمأن معاوية إلى قوة جانبه بعد تلك الإجراءات أخذ يغزو في عمق الأراضي الرومية، فقد قاد بنفسه غزوة سنة اثنين وثلاثين للهجرة توغل فيها بجيشه حتى وصل مضيق القسطنطينية^(٢).

٣- معاوية يلتبس من عثمان رضى الله عنهما السماح له بالغزو البحرى:

كان معاوية رضى الله عنه يلح على عمر في غزو البحر، ويصف له قرب الروم من حمص، ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم، حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لى البحر وراكبه، فإن نفسى تنازعنى إليه، فكتب إليه عمرو: إنى رأيت خلقًا كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلب، وإن تحرك أزاع العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية: أن لا، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وتالله لمسلم أحبُّ إلىَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لى، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء منى، ولم أتقدم إليه فى ذلك^(٣). ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى فى الروم ما رأى، فطمع فى بلادهم وفتحها، فلمَّا تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث، وألحَّ به على عثمان، فردَّ عليه عثمان رضى الله عنه قائلاً: أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر - رحمه الله - حين استأذنته فى غزو البحر. ثم كتب إليه معاوية مرةً أخرى يهونُّ عليه ركوب البحر إلى قبرص فكتب إليه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا^(٤). كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضى الله عنه أيضاً بقوله: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً، فاحمله وأعنه^(٥)، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى

(١) فتوح البلدان، ص (١٨٧ - ١٩٦).

(٢) تاريخ خليفة، ص (١٦٧)، تاريخ الطبرى (٤/٣٠٤)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٦٩).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٥٨).

(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/٥٣٨).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/٢٦٠).

قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكا، فقد رمه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص^(١).

٤ - غزو قبرص:

أعد معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي، وأتخذ ميناء عكا مكاناً للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة، وحمل معه زوجه فاخنة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصّامت امرأته أمّ حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة^(٢)، وأمّ حرام هذه صاحبة القصة المشهورة: عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أمّ حرام بنت ملحان، فتطمعه، وكانت أمّ حرام تحت عبادة بن الصّامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً، فأطعمته، ثم جلست تفلئ من رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك. فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله، يركبون ثبيج هذا البحر ملوكاً على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة. وقالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم! فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟! قال: ناس من أمتي عرضوا على في سبيل الله... - كما قال في الرواية الأولى -. قال: أنت من الأوّلين. فركبت أمّ حرام بنت ملحان في البحر في زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت^(٣). ورغم أن معاوية رضى الله عنه لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين^(٤)، مما يدل أن المسلمين قد هانت في أعينهم الدنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبأون بها بالرغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون في نعيمها. إن المسلمين قد تربوا على أن ما عند الله خير، وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه، وإقامة العدل، ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كل ما عداه، وهم يعتقدون: أن هذه المهمة هي

(١) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٥٣٨/٢).

(٢) البداية والنهاية (١٥٩/٧). (٣) البخارى رقم (٢٨٧٧).

(٤) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٦).

رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصروا في مهمتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم، فسيمسك الله عنهم نصره في الدنيا، ويحرمهم مرضاته في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، من أجل هذا هرعوا مع معاوية، وتسابقوا إلى السفن يركبونها، ولعلَّ حديث أم حرام قد ألمَّ بخواطيرهم، فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ثمان وعشرين من الهجرة- 6٤٩م^(١)، وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء أم حرام لتركب دابَّتها، فنفرت الدابة، وألقت أم حرام على الأرض، فاندقت عنقها، فماتت^(٢)، وترك المسلمون أم حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنواناً على مدى التضحيات التي قدَّمها المسلمون في سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة^(٣).

واجتمع معاوية بأصحابه، وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصَّامت، ووائلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازني، وشداد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وكعب الخبر بن ماتع، وجبير بن نضير الضرمي. وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم: أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم^(٤)، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله، ثم تأمّن حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأنَّ البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص محطةً يستريحون فيها؛ إذا غزوا، ويتمونون منها، إذا قلَّ زادهم، وهى بهذه المثابة تهدد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسألة هذه الجزيرة لهم، وخضوعها لإرادتهم، فإن وجودها كذلك سيظلُّ شوكة في ظهورهم، وسهماً مسدداً في صدورهم، ولكن سكان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة، ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصَّنوا في العاصمة، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدّم الروم للدفاع عنهم، وصدَّ هجوم المسلمين عليها^(٥).

(٢) البداية والنهاية (٧/١٥٩).

(١) حوله تاريخية في عصر الخلفاء، ص (٣٥٦).

(٣) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٧).

(٥) المصدر نفسه، ص (٣٥٧).

(٤) المصدر نفسه، ص (٣٥٧).

٥ - الاستسلام وطلب الصلح:

تقدّم المسلمون إلى عاصمة قبرص «قسطنطينا» وحاصروها وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وقدّموا للمسلمين شروطًا، واشترط عليهم المسلمون شروطًا، وأما شرط أهل قبرص، فكان طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطًا تورّطهم مع الروم، لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم، وأما شروط المسلمين، فهي:

أ - ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة، إذا هاجم سكانها محاربون.

ب - أن يدلّ سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوّهم من الروم.

ج - أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومائتي دينار في كل عام.

د - أن يكون طريق المسلمين إلى عدوّهم عليهم.

هـ - ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يُطلعوهم على أسرارهم^(١).

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدخول في معارك من هذا النوع مع العدو المتربص بهم، سواء بالهجوم على بلاد الشام، أو على الإسكندرية^(٢).

٦ - عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي في الشام:

استعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة، فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية، وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه الله العافية في جنده، وألا يتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتّى إذا أراد أن يصيبه وحده، خرج في قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم، وعليه سؤال يعترّون^(٣) بذلك المكان، فتصدق عليهم،

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٦١).

(٢) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٨، ٣٥٩).

(٣) يعترّون : يتعرضون للناس دون أن يسألهم.

فرجعت امرأة من السُّوَال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرفأ، قالوا: أى عدوة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبّختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه، وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاءوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه، ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي^(١)، وقيل لتلك المرأة التي استثارت الروم على عبد الله ابن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سألته، أعطاني كالملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس^(٢). وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتاحت له وهو في وضع لا يضرُّ بسمة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء، فكانت تلك الكائنة الغريبة التي أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرجل يظهر من مظاهره الخارجية بمظهر التجار العاديين، ولكنه يعطى عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السيادة مع بساطة مظهره، فعرفت أنه قائد المسلمين، الذي دوّخ المحاربين في تلك البلاد، وهكذا كانت سمات ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً، فيتم بذلك الهجوم عليه، وظفر بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المثل العليا بأنفسهم، لتتمّ الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه، ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء، والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه، فيتولى هذه المهمة، ثمّ نجده يتخلق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء، وضعفتهم فيمد لهم يد الحنان، والعطف، ويسخو لهم بالمال الذي هو من أعزّ ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رقيقاً صبوراً، ليس معنفاً،

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠).

ولا مستكبراً، وإذا ادلهمت الخطوب، تفانى لكشف الغمة، ولم يلجأ إلى لوم أصحابه، وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذى يفسد العمل، ويعجّل بالخلل، والفوضى.

وأما خليفته سفيان الأزديُّ، فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك، والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمر القيادة، ولكن مما يُحفظ له: أنه لما نبّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذى كان أميره ينتهجه فى القيادة سارع فى التأسى به فى ذلك، ولم يحمله التكبر على عدم سماع كلمة الحق، وإن صدرت من جارية مغمورة. وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذى كان غالباً فى الجيل الأوّل، موبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة، والقادة فى إدارة أمور الأمة، فلله درُّ أبناء ذلك الجيل ما أبلغ ذكرهم وما أبعد نحورهم! وما أعظم وطأتهم فى الأرض على الجبارين، أو ما أعذب لمساتهم فى الأرض على المستضعفين والمساكين^(١).

٧- القبارصة ينقضون الصلح:

فى سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومى عنيف أجبرهم على إمداد جيش الروم بالسفن، ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أدخلوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة، ووضعها تحت سلطان المسلمين، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً، فقتلوا، وأسروا، وسلبوا، وهجم عليها جيش معاوية من جانب، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبيّاً كثيراً، وغنموا مالا جزيلاً^(٢)، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاطميين ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأوّل^(٣)، وخشى معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يربط فى الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء، ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين، فبعث إليهم اثني عشر ألفاً من الجنود، ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجداً، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم، وظلّ الحال على

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/٤٠٢).

(٢) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) البلاذرى، ص (١٥٨).

ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من هجمات الروم المفاجئة، ولاحظ المسلمون أن أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخرونهم لمصالحهم، فرأوا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلط البيزنطيين وقال إسماعيل بن عيَّاش: أهل قبرص أذلاء مقهورون ويغلبهم الروم على أنفسهم، ونسائهم، فيحق علينا أن نمنعهم، ونحميهم^(١).

٨ - ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضى الله عنه حينما نظر إلى سبى الأعداء فبكى، ثم قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله - عز وجل - وعصوه، صاروا إلى ما ترى^(٢).

وجاء في رواية: فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، فقال: ويحك، إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله، صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبى، وإذا سلط على قوم السبى، فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى، إذا تركوا أمره^(٣).

إن ما تفوه به أبو الدرداء يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة، والفقه في أمر الله تعالى، فهذا الصحابي الجليل يبكى حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم، فلم ينقادوا لدعوة الحق، فباءوا بهذا المصير المؤلم، حيث تحولوا من الملك، والعزة إلى الاستسلام والذلة، لإصرارهم على لزوم الباطل، والتكبر على الخضوع لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا، وتدبروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم، وعمران ديارهم، والظفر بحماية دولة الإسلام، وإن هذا التفكير العميق من أبي الدرداء مظهر من مظاهر الرحمة، والعطف، تفتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تتحدّر من عيني هذا الرجل العظيم، ليعبر عما يجول في نفسه من نظرات الحنان، والرحمة، والأسى على مصير تلك الأمة التي

(١) جولة تاريخية، ص (٣٦١).

(٢) التاريخ الإسلامي (١٢ / ٣٩٦).

(٣) البداية والنهاية (٧ / ١٥٩).

اجتمع البقاء على الضلال، والمآل السيئ بزوال الملك، والوقوع فى الذل والهوان، وإنه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس فى الإسلام، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون فى ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد فى الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم فى الأسر، والتشرد، وتعرضهم للقتل فى الحياة الدنيا؟^(١)

٩ - معارَ يترلى عبادة بن الصامت رضى الله عنهما على قسمة غنائم قبرص:

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضى الله عنهما: شهدت رسول الله ﷺ فى غزوة حنين والناس يكلمونه فى الغنائم، فأخذ وبرة من بعير، وقال: مالى مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم^(٢). فاتق الله يا معاوية! واقسم الغنائم على وجهها، ولا تعط منها أحداً أكثر من حقه! فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشام أفضل منك، ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها، واتق الله فيها، فقسمة عبادة بين أهلها، وأعانها أبو الدرداء، وأبو أمامة^(٣).

وعباد بن الصامت رضى الله عنه من مؤسسى المدرسة الشامية، فقد وجهه عمر إلى الشام قاضياً ومعلماً، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين فولى قضاءها، واستقر به المقام فيها، فكان أول من تولى قضاء فلسطين، وكان أيضاً يعلم أهلها القرآن، وظل على هذا النحو إلى أن مات بها^(٤)، وقد أسهم عبادة رضى الله بنصيب كبير فى تنفيذ سياسة الخلافة الراشدة العلمية والتربوية والجهادية، وكان رضى الله عنه من أهل الزهد والخشونة، فعندما وصل إلى حمص قال لأهلها: ألا أن الدنيا عرض حاضر، وإن الآخرة وعد صادق، ألا أن للدنيا بنين وإن للآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها بنوها^(٥).

١٠ - حقيقة الخلاف بين أبي ذر ومعاوية وموقف عثمان - رضى الله عنه - منه:

إن مبغضى عثمان بن عفان رضى الله عنه كانوا يشنعون عليه أنه نفى أبا ذر رضى الله عنه إلى الربذة، وزعم بعض المؤرخين: أن ابن السوداء عبد الله بن سبأ

(١) التاريخ الإسلامى (١٢ / ٣٩٧). (٢) البداية والنهاية (٤ / ٣٥٣).

(٣) الرياض النضرة، ص (٥٦١). (٤) عبادة بن الصامت، صحابى كبير وفتح مجاهد، ص (٨٤).

(٥) الاكتفاء، الكلاعى (٣ / ٣١٠).

لقى أبا ذر في الشام، وأوحى إليه بمذهب القناعة، والزهد، ومواساة الفقراء، ووجوب إنفاق المال الزائد عن الحاجة، وجعله يعيب معاوية، فأخذ عباد بن الصامت إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذي بعث إليك أبا ذر. فأخرج معاوية أبا ذر من الشام^(١)، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهاً بين رأى أبي ذر، ورأى مزدك الفارسي، وقال إن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان في اليمن وطوف في العراق، وكان الفرس في اليمن، والعراق قبل الإسلام، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق، واعتنقها أبو ذر على حسن النية في اعتقادها^(٢). وكل ما قيل في قصة أبي ذر، مما يُشنع به على عثمان باطل لا يُبنى على رواية صحيحة، وكل ما قيل حول اتصال أبي ذر رضي الله عنه بابن السوداء باطل لا محالة^(٣). والصحيح: أن أبا ذر رضي الله عنه نزل في الربذة باختياره، وأن ذلك كان بسبب اجتهاد أبي ذر في فهم آية خالف فيه الصحابة، وأصر على رأيه، فلم يوافق أحد عليه، فطلب أن ينزل بالربذة^(٤)، التي كان يغدو إليها زمن النبي ﷺ، ولم يكن نزوله بها نصياً قصرياً، أو إقامة جبرية، ولم يأمره الخليفة بالرجوع عن رأيه، لأن له وجهاً مقبولاً، لكنه لا يجب على المسلمين الأخذ به^(٥). وأصح ما روى في قصة أبي ذر رضي الله عنه ما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه، فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا، وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إلى عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر على الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحيت فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمروا على حبشياً، لسمعت وأطعت^(٦). وقد أشار هذا الأثر إلى أمور مهمة منها:

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦، ٢١٧).

(٢) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٧).

(٤) كانت منزلاً في الطريق بين العراق ومكة.

(٦) البخاري، ك الزكاة رقم (١٤٠٦).

(٥) المدينة المنورة، فجر الإسلام (٢/ ٢١٧).

أ - سأله زيد بن وهب، ليتحقق مما أشاعه مبغضو عثمان: هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذر المكان؟ فجاء سياق الكلام: أنه خرج بعد أن كثر الناس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشام، وليس في نص الحديث: أن عثمان أمره بالذهاب إلى الربذة، بل اختارها بنفسه، ويؤيد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله بن الصامت قال: دخلت على أبي ذر عند عثمان، فحسر رأسه، فقال: والله ما أنا منهم - يعنى الخوارج - فقال: إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لي في ذلك، ائذن لي بالربذة. قال: نعم^(١).

ب - قوله: كنت بالشام: بين السبب في سكناه الشام ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد بن وهب، حدثني أبو ذر، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا بلغ البناء - أى المدينة - سلعاً، فارتحل إلى الشام». فلما بلغ البناء سلعاً، قدمت الشام فسكنت فيها^(٢).

ج - إن قصة أبي ذر في المال جاء من اجتهاده في فهم الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤) يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكفرون ﴿ [التوبة: ٣٤ ، ٣٥]. وروى البخارى عن أبي ذر ما يدل على أنه فسّر الوعيد «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا» الآية، وكان يخوف الناس به، فعن الأحنف بن قيس، قال: جلست إلى ملاء من قريش في مسجد المدينة، فجاء رجل خشن الشعر، والثياب، والهئية، حتى قام عليهم، فسلم، ثم قال: بشر الكانزين برضف^(٣) يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة تذى أحدهم، يخرج من فضى كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل^(٤). ثم ولى فجلس في سارية، وتبعته، وجلست إليه، وأنا لا أدري من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت، قال: إنهم لا يعقلون شيئاً. واستدل أبو ذر

(٢) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٩).

(١) فتح البارى (٣/٢٧٤).

(٣) الرضف: الحجارة المحماة، واحدها: رصفة.

(٤) نفص: العظم الدقيق الذى على طرف الكتف، يتزلزل: يضطرب.

رضى الله عنه يقول رسول الله ﷺ: «ما أحبُّ أن لي مثل أحد ذهباً، أنفقته كله إلا ثلاثة دنانير»^(٥).

د - وقد خالف جمهور الصحابة أبا ذرٍّ، وحملوا الوعيد على مانعي الزكاة واستدلوا على ذلك بالحديث، الذي رواه أبو سعيد الخدرى، قال: قال النبي ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة»^(١)، وليس دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة». وقال الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث: أن ما زاد على الخمس ففيه صدقة، ومقتضاه: أن كل ما أخرجت منه الصدقة، فلا وعيد على صاحبه، فلا يسمى ما يفضل بعد إخراج الصدقة كنزاً^(٢)، هذا وقد فصلت في موضوع أبى ذرٍّ وخلافه مع معاوية رضى الله عنهما في كتابى عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأثبت بالحجج والأدلة والبراهين أن عثمان رضى الله عنه لم ينف أبا ذرٍّ، رضى الله عنه، إنما استأذنه، فأذن له، ولكن أعداء عثمان رضى الله عنه كانوا يشيعون عليه بأنه نفاه، ولذلك لما سأل غالب القطان، الحسن البصرى: عثمان أخرج أبا ذرٍّ؟ قال الحسن: لا، معاذ الله^(٣)، وكل ما روى فى أن عثمان نفاه إلى الربذة فإنه ضعيف الإسناد، لا يخلو من علة قادحة، مع ما فى متنه من نكارة لمخالفته للمرويات الصحيحة والحسنة، التى تبين أن أبا ذرٍّ استأذن للخروج إلى الربذة، وأن عثمان أذن له^(٤)، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام، ليجاوره بالمدينة، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا بالمدينة^(٥). وقال له أيضاً: كن عندى، تغدو عليك وتروح اللقاح^(٦). أفمن يقول ذلك ينفيه؟!^(٧). ولم تنص على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمى الذى قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوى، وفيه رفض. فهل تقبل رواية رافضى تتعارض مع الروايات الصحيحة، والحسنة^(٨)؟

واستغل الرافضة هذه الحادثة أبشع استغلال، فأشاعوا أن عثمان رضى الله عنه نفى أبا ذرٍّ إلى الربذة، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه، أو أنهم

(١) البخارى: ك الزكاة رقم (١٤٠٧). (٢) البخارى رقم (١٤٠٥).

(٣) فتح البارى (٣/٢٧٢). (٤) تاريخ المدينة، ابن شبة، ص (١٠٣٧)، إسناده صحيح.

(٤) فتنه مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١١٠).

(٥) تاريخ المدينة، ص (١٠٣٦، ١٠٣٧) إسناده حسن.

(٦) الطبقات، لابن سعد (٤/٢٢٦، ٢٢٧).

(٧) فتنه مقتل عثمان (١/١١١). (٨) المصدر السابق نفسه.

سوَّغوا الخروج عليه^(١)، وعاب على عثمان رضى الله عنه ذلك ابن المطهر الحليّ الشيعي المتوفى سنة ٧٢٦هـ، بل زاد: أن عثمان رضى الله عنه ضرب أبا ذرّ ضرباً وجيعاً، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردّاً جامعاً قوياً^(٢)، وكان سلف هذه الأمة يعلمون هذه الحقيقة، فإنّه لما قيل للحسن البصرى: عثمان أخرج أبا ذرّ؟ قال: لا، معاذ الله^(٣). وكان ابن سيرين إذا ذُكر له أنّ عثمان رضى الله عنه سيّر أبا ذرّ، أخذته أمرٌ عظيم، ويقول: هو خرج من نفسه، ولم يسيّره عثمان^(٤)، وكما تقدم فى الرواية الصحيحة الإسناد: أنّ أبا ذرّ رضى الله عنه لما رأى كثرة الناس عليه خشى الفتنة، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه فى الخروج، فقال له عثمان رضى الله عنه: إن شئت تنحيت فكنت قريباً^(٥). كما أنّ أبا ذرّ رضى الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهودي، وقد أقام بالربذة حتى توفى، ولم يحضر شيئاً مما وقع فى الفتنة^(٦)، ثمّ إنه قد روى حديثاً من أحاديث النهي عن الدخول فى الفتنة^(٧)، وبعد وفاة أبى ذرّ رضى الله عنه ضمّ أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه عياله إلى عياله^(٨)، فرضى الله عن جميع الصحابة الأبرار، الطيبين الأطهار.

١١ - اتهم عثمان رضى الله عنه بإعطاء أقرابه من بيت المال:

اتُّهم عثمان رضى الله عنه من قبل الغوغاء، والخوارج بإسرافه فى بيت المال، وإعطائه أكثره لأقرابه، وقد ساند هذا الاتُّهام حملة دعائية باطلة قادها أعداء الإسلام ضده، وتسربت فى كتب التاريخ، وتعامل معها بعض المفكرين، والمؤرخين على أنها حقائق، وهى باطلة لم تثبت، لأنها مختلفة، والذى ثبت من إعطائه أقرابه أمور تعد من مناقبه، لا من المثالب^(٩) فيه. إن عثمان رضى الله عنه كان ذا ثروة عظيمة، وكان وصولاً للرحم^(١٠) يصلهم بصلات كثيرة وفيرة، فنقم

(١) فتنة مقتل عثمان (١/ ١١١).

(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ١٨٣).

(٣) تاريخ المدينة (١٠٣٧) إسناده صحيح.

(٤) المصدر السابق.

(٥) البخارى، ك: الزكاة رقم (١٤٠٦).

(٦) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة فى ضوء قواعد الجرح والتعديل، ص (١٧٤).

(٧) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٤).

(٨) المصدر نفسه، ص (١٧٤).

(٩) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص (٨٢).

(١٠) عثمان بن عفان للصّلاي، ص (١٤٨).

عليه أولئك الأشرار، وقالوا إنه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا: إني أحب أهل بيتي، وأعطيتهم.. فأما حبي لهم؛ فإنه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم.. وأما إعطاؤهم، فإني إنما أعطيتهم من مالي، ولا استحلُّ أموال المسلمين لنفسى، ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرعية من صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ، وأبى بكر، وعمر، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي^(١)، وفنى عمرى، وودعت الذى لى فى أهلى، قال الملحدون ما قالوا؟^(٢). وكان عثمان قد قسم ماله، وأرضه فى بنى أمية، وجعل ولده كبعض من يعطى، فبدأ بنى أبى العاص، فأعطى آل الحكم؛ رجالهم عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك، وقسم فى بنى العاص، وفى بنى العيص، وفى بنى حرب^(٣). فهذه النصوص وغيرها ومما اشتهر عنه، وما صحَّ من الأحاديث فى فضائل الجمَّة تدل على أن ما قيل فيه من إسرافه فى بيت المال، وإنفاق أكثره على أقاربه، وقصوره، حكايات بدون زمام، ولا خطام^(٤).

إن سيرة عثمان -رضى الله عنه- فى أقاربه تمثل جانباً من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة، لقوله تعالى: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. كما أنها تمثل جانباً عملياً من سيرة المصطفى ﷺ، فقد رأى عثمان رضى الله عنه من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم يره، أو يعلم غيره من منتقديه وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة الناس، وكان ممَّا رأى شدة حب رسول الله ﷺ لأقاربه وبره لهم، وإحسانه إليهم، وقد أعطى عمه العباس ما لم يعط أحداً عندما ورد عليه مال البحرين^(٥)، ولعثمان وسائر المؤمنين فى رسول الله أعظم القدوة^(٦)، وقد ردَّ ابن تيمية - رحمه الله - على من اتَّهم عثمان بتفضيله أهله

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٥٦).

(٤) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص (٨٣).

(٦) البداية والنهاية (٧/٢٠١).

(١) جاوزت أعمارهم.

(٣) المصدر نفسه (٥/٣٥٦).

(٥) البخارى، ك: الجزية.

بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال: وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتى إنه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوجهم بناته أربعمئة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف دينار - مليون دينار - فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟. نعم كان يعطى أقاربه، ويعطى غير أقاربه أيضاً، وكان يحسن إلى جميع المسلمين، وأما هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانياً: هذا من الكذب البين، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ^(١).

١٢- هل عين عثمان رضى الله عنه أحداً من أقربائه على حساب المسلمين؟

لم يعين عثمان رضى الله عنه أحداً من أقاربه على حساب المسلمين ولو أراد أن يجامل أحداً من أقاربه على حساب المسلمين لكان ريبه محمد بن أبى حذيفة أولى الناس بهذه المجاملة، ولكن الخليفة أبى أن يوليه شيئاً ليس كفتاً له بقوله: يا بنى لو كنت رضا ثم سألتنى العمل، لاستعملتك، ولكن لست^(٢) هناك ولم يكن ذلك كراهية له، ولا نفوراً منه، وإلا لما جهّزه من عنده، وحمله، وأعطاه حين استأذن فى الخروج إلى مصر^(٣)، وأما استعمال الأحداث فكان لعثمان رضى الله عنه فى رسول الله أسوة حسنة فقد جهّز جيشاً لغزو الروم فى آخر حياته، واستعمل عليه أسامة بن زيد، رضى الله عنهما^(٤)، وعندما توفى الرسول ﷺ تمسك الصديق رضى الله عنه بإنفاذ هذا الجيش، لكن بعض الصحابة رغبوا فى تغيير أسامة بقائد أحسن منه، فكلموا عمر فى ذلك ليكلم أبا بكر، فغضب أبو بكر لما سمع هذه المقالة، وقال لعمر: يا عمر استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرنى أن أعزله^(٥). ويجب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملائمة من الصحابة بقوله: ولم

(١) منهاج السنة (٣/١٩٠).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٢٤٧).

(٣) المصدر السابق (١/٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٥/٤١٦).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٥/٤١٦).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/٤١٦).

أستعمل إلا مجتمعاً، محتملاً، مرضياً، وهؤلاء أهل عملهم، فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم، وقد ولى من قبلى أحدث منهم، وقيل لرسول الله ﷺ مما قيل لى فى استعماله لأسامه، أكذلك؟ قالوا: نعم يعييون للناس مالا يفسرون^(١). ويقول على رضى الله عنه: ولا يولّ -أى عثمان- إلا رجلاً سويّاً، عدلاً، وقد ولى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة^(٢)، ولم يكن ولاة الأمصار فى عهد عثمان رضى الله عنه جاهلين بأمر الشرع، ولم يكونوا من المفرطين فى الدين، وإذا كانت لهم ذنوب، فلهم حسنات كثيرة، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء تعود عليهم ولم يكن لها تأثير فى المجتمع المسلم، وقد تتبعنا آثار هؤلاء الولاة أيام ولايتهم، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين، وقد اهتدى على يدى ولاة عثمان مئات الألوف إلى الإسلام، وبسبب فتوحاتهم انضم إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة والدين ما يحثهم على الجهاد، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد، وفيه مظنة الهلاك، وفيه ترك الراحة، ومتاع الدنيا. وقد تتبعت سيرة هؤلاء الولاة، فوجدت لكل واحد منهم فتحاً، أو فتوحاً فى الجهات التى تهاور ولايته، مع مناقب وصفات حسنة تؤهله للقيادة، وقد فصلت فى كتابى عن عثمان رضى الله عنه فى مبحث مستقل حقيقة ولاة عثمان^(٣) رضى الله عنه.

إن الذى يرجع إلى الصحيح الممحص من وقائع التاريخ، ويتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين - رضوان الله عليهم - وما كان لجهادهم من جميل الأثر فى تاريخ الدعوة الإسلامية، بل مما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج فى هناء الأمة، وسعادتها، فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الجهر بالإعجاب، والفسخر كلما أمعن فى دراسة ذلك من أدوار التاريخ الإسلامى^(٤).

(٢) البداية والنهاية (١٧٨/٧)

(١) تاريخ الطبرى (٣٥٥/٥)

(٣) عثمان بن عفان للصّلى، ص (٢٩٤)

(٤) حاشة المتقى من منهاج الاعتدال، ص (٣٩٠)

إن عثمان رضى الله عنه وولاته انشغلوا بمدافعة الأعداء، وجهادهم، وردّهم، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ومدّ نفوذها فى مناطق جديدة، وقد كان للولاء تأثير مباشر فى أحداث الفتنة؛ حيث كانت التهمة موجهة إليهم، وأنهم اعتدوا على الناس، ولكننا لم نلمس حوادث معينة يتّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم، والمشاع، كما اتُّهم عثمان بتولية أقاربه، وقد دحضنا تلك الفرية. وهكذا نرى أن عثمان لم يألُ جهداً فى نصح الأمة، وفى تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا لم يسلم عثمان، وولاته من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة فى حينها، كما أن عثمان رضى الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين فى كتاباتهم غير المحقّقة عن عهد عثمان وخصوصاً الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة، فقد تورّط الكثير منهم فى الروايات الضعيفة، والرافضية، وبنو أحكاماً باطلة وجائرة فى حق الخليفة الرّاشد عثمان بن عفان، مثل طه حسين فى كتابه «الفتنة الكبرى»، وراضى عبد الرحيم فى كتابه «النظام الإدارى والحربى»، وصبحى الصالح فى كتابه «النظم الإسلامية»، ومولوى حسين فى كتابه «الإدارة العربية»، وصبحى محمصانى فى كتابه «تراث الخلفاء الراشدين فى الفقه»، والقضاء، وتوفيق اليوزبكي فى كتابه «دراسات فى النظم العربية والإسلامية»، ومحمد الملحم فى كتابه «تاريخ البحرين فى القرن الأول الهجرى»، وبدوى عبد اللطيف فى كتابه «الاحزاب السياسية فى فجر الإسلام»، وأنور الرّفاعى فى كتابه «النظم الإسلامية»، ومحمد الرّيس فى كتابه «النظريات السياسية»، وعلى حسنى الخربوطلى فى كتابه «الإسلام والخلافة»، وأبى الأعلى المودودى فى كتابه «الملك والخلافة» وسيد قطب فى كتابه «العدالة الاجتماعية»، وغيرهم (١).

ولقد أكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمة الحكم فى عهده، حتى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس، فثاروا ناقلين عليه إطلاقه يد ذوى قرياه فى شئون الدولة (٢)، وأقارب عثمان الذين ولاهم رضى الله عنه

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٥٩).

(١) الولاية على البلدان (٢٢٢/١ - ٢٣٢).

أولهم معاوية بن أبي سفيان، والثاني عبد الله بن أبي السرح، والثالث الوليد بن عقبة، والرابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولاهم عثمان، وهم من أقاربه، وهذا في زعمهم مطعن عليه، فلو أخذنا إحصائية لوجدنا أن عدد الولاية في عهد عثمان ستة وعشرون والياً، ألا يصح أن يكون خمسة من بنى أمية يستحقون الولاية، وبخاصة إذا علمنا أن النبي ﷺ كان يولى بنى أمية أكثر من غيرهم؟ علماً بأن هؤلاء الولاية لم يكونوا كلهم في وقت واحد، بل كان عثمان رضى الله عنه ولى الوليد بن عقبة، ثم عزله، فولى مكانه سعيد ابن العاص، فلم يكونوا خمسة في وقت واحد، ولم يتوف عثمان إلا وقد عزل أيضاً سعيد بن العاص، فعندما توفى عثمان لم يكن من بنى أمية من الولاية إلا ثلاثة وهم معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن عامر بن كريز فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، ولكنه عزلهما من أين؟ من الكوفة التي عزل منها عمر سعد بن أبي وقاص، الكوفة التي لم ترض بوال أبدأ، إذ عزل عثمان رضى الله عنه لأولئك الولاية لا يعتبر مطعناً فيهم، بل مطعن في أهل الشغب في المدينة التي وُلوا عليها^(١).

إن بنى أمية كان رسول الله ﷺ يستعملهم في حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة منهم أبو بكر، وعمر، رضى الله عنهما، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بنى عبد شمس! لأنهم كانوا كثيرين وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبي ﷺ عتاب بن أسيد بن أبي العاص على مكة، وأبا سفيان بن حرب على نجران، وخالد بن سعيد على صدقات بنى مدحج، وأبان بن سعيد على بعض السرايا ثم على البحرين. فعثمان رضى الله عنه، لم يستعمل إلا من استعمله النبي ﷺ، ومن جنسهم، وقبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده، فقد ولى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام، وأقره عمر، ثم ولى عمر بعده أخاه معاوية^(٢).

والسؤال الذى يطرح نفسه أثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ والحقيقة العلمية التى أثبتتها فى كتابى عن عثمان رضى الله عنه بأن ولاية عثمان أثبتوا كفاءتهم، فالولاية

(٢) منهاج السنة (٣/١٧٥، ١٧٦).

(١) حقة من التاريخ، ص (٧٥).

الذين ولاهم عثمان رضى الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة فى إدارة شئون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا فى الرعية سيرة العدل والإحسان^(١)، فمثلاً معاوية رضى الله عنه كانت سيرته مع الرعية فى ولايته من خير سير الولاية مما جعل الناس يحبونه، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «خيار أئمتكم - حكامكم - الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم - تدعون لهم - ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»^(٢)، وقد بين القاضى ابن العربى وأثبت أن رسول الله استكتب معاوية، وأن سند ولايته الأعمال فى الدولة الإسلامية لم يكن لأحد قبله، ولم يكن لأحد بعده، حيث اجتمع على توليته: رسول الله ﷺ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة، ثم صالحه وأقر له بالخلافة الحسن بن على بن أبى طالب^(٣).

١٣ - أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه:

قال الزهرى: ولى عثمان اثنتى عشرة سنة أميراً للمؤمنين، أوّل ستّ سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأنّ عمر كان شديداً عليهم، أما عثمان، فقد لان لهم، ووصلهم، ثمّ حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمى المؤرّخون المسلمون الأحداث فى النّصف الثانى من ولاية عثمان ٣٠ - ٣٥هـ (الفتنة)، التى أدّت إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه^(٤)، وكان المسلمون فى خلافة أبى بكر، وعمر، وصدراً من خلافة عثمان، متّفقين، لا تنازع بينهم، ثم حدثت فى أواخر خلافة عثمان أمور، أوجبت نوعاً من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة، والظلم فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان^(٥)، وكان المجتمع الإسلامى فى خلافة الصديق، والفاروق، والنّصف الأوّل من خلافة عثمان يتّصف بالسّمات الآتية:

أنه - فى عمومته - مجتمع مسلم بكل معانى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق الإسلام بجديّة واضحة، والتزام ظاهر، وبأقل قدر من المعاصى وقع فى أى مجتمع فى التاريخ.

(١) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (٤١٧/١).

(٢) مسلم، إك الإمارة رقم (٦٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٣٩/١ - ٤٧)، الخلفاء الراشدون للخالدى، ص (١١٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/١٣).

- أنه المجتمع الذي تحقّق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقيّ للأمة بمعناها الربّانيّ، فهي الأمة التي تربط بينها رابطة العقيدة، بصرف النظر عن اللغة، والجنس، واللّون، ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقّق في التاريخ كما تحقّقت في الأمة الإسلامية.

- أنه مجتمع أخلاقيّ يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين، وتوجيهاته.

- أنه مجتمع جادّ، مشغول بمعالى الأمور لا بسفاسفها، وليس الجدّ بالضرورة عبوساً، وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمة في الناس، وتحثّ على النشاط، والعمل، والحركة.

- أنه مجتمع مجنّد للعمل، في كلّ اتجاه، تلمس فيه روح الجنديّة واضحة لا في القتال في سبيل الله فحسب، ولكن في جميع الاتجاهات، فهو معبأً من تلقاء نفسه بدافع العقيدة، وبتأثير شحنتها الدافعة لبذل النشاط في كلّ اتجاه^(١).

- أنه مجتمع متعبّد نلمس فيه روح العبادة واضحة في تصرفاته، ليس فقط في أداء الفرائض، والتطوّع بالنّوافل ابتغاء مرضاة الله، ولكن في أداء الأعمال جميعاً، والعمل في حسّه عبادةً، يؤدّيه بروح العبادة^(٢).

هذه من أهم صفات عهد الخلفاء الراشدين - بصفة عامة - إلا أن تلك السّمات كانت أقوى كلّما اقتربنا من عهد النبوة، وتضعف كلّما ابتعدنا عن عصر النبوة، وقد بدأ التغير على عهد الخلافة الراشدة مع ظهور فتنة مقتل عثمان رضی الله عنه، وكان لظهور هذه المحنة العظيمة التي مرت بها الأمة أسباب منها:

أ - الرخاء وأثره في المجتمع: وغنى عن الإشارة أنّ النعم، والخيرات، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرخاء وما يترتّب عليه من انشغال النّاس بالدنيا، والافتتان بها، كما أنّها مادة للتنافس، والبغضاء، خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التّقوى من أعراب البادية، وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات، وأبناء الأمم المترفة، وقد أدرك

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟، ص (١٠٢). (٢) المصدر نفسه، ص (١٠٢).

عثمان رضى الله عنه هذه الظاهرة وأندر بما سيؤول إليه أمر الأمة من التبدُّل والتغيُّر في كتابه الموجه إلى الرعية: فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداء بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن^(١). وحدث ما توقعه عثمان رضى الله عنه، وبدأ التغير يظهر أثره أولاً على أطراف الدولة الإسلامية ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، ممّا دفع عثمان رضى الله عنه إلى تذكير المسلمين في خطبه بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا، وحطامها، فكان مما قاله في إحدى خطبه: إنَّ الله إنَّمَا أعطاكم الدنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها، لتركنوا إليها، إن الدنيا تفتنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبترنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، . . . واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً^(٢)، ثم قرأ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴿ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

وفي مثل هذه الظروف، والخيرات، فاضت الدنيا على المسلمين وتفرغ الناس بعد أن فتحوا الأقاليم، واطمأنوا فأخذوا ينقمون على خليفتهم^(٣). ومن هنا يعلم أثر الرخاء في تحريك الفتنة، ومن هنا أيضاً يمكن فهم مقالة عثمان رضى الله عنه لعبد الرحمن بن ربيعة - له صحبة - وهو على الباب^(٤): إن الرعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة، فقصر بهم، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنني خاش أن يبتلوا^(٥).

ب - طبيعة التحول الاجتماعي في عهد عثمان رضى الله عنه: حدثت تغيرات اجتماعية عميقة، ظلَّت تعمل في صمت، وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجِّر بدءاً من النصف الثاني من خلافة عثمان

(٢) أحداث وأحاديث الهرج، ص (٥٦٧).

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٥).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٦٢).

(٤) المقصود بالباب: منطقة في جهة أذربيجان، معجم البلدان (١/٣٠٣).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٦٢).

بلغت قمة فورانها في التمرد الذي أدى إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه^(١)، ولما توسعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح، حصل تغير في تركيبة المجتمع واختلالات في نسيجه، لأن هذه الدولة بتوسّعها المكاني، والبشرى، ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، وألوان، ولغات، وثقافات، وعادات، ونظم، وأفكار، ومعتقدات، وفنون أدبية، وعمرانية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة، وخروقات غير منتظمة، صيرت المجتمع غير متجانس في نسيجه التركيبى، وبالذات في الأمصار الكبرى المؤثرة: البصرة، الكوفة، والشّام، ومصر، والمدينة، ومكة، فقد كانت الأمصار الكبيرة بموقعها وأهميتها تدفع لجيوش الفتوح، وتستقبلها وهى عائدة، وقد نقص عددها بالموت والقتل، وتستقبل بدلا منهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة؛ فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس، أو النّصارى العرب، أو غيرهم، أو من اليهود^(٢)، وأكثر سكان هذه الأمصار، هؤلاء من القبائل العربية من جنوبها، وشمالها، وشرقها، والذين لم يكونوا - عادة - من الصحابة، وبمعنى أدق ليسوا ممن تلقوا التربية الكافية على يد رسول الله ﷺ، أو على أيدي الجيل الأوّل من الصحابة، إمّا لانشغالهم بالفتوح، أو لقلّة الصحابة، وقد حصلت تغيرات في نسيج المجتمع البشرى المكوّن من الجيل السّابو وسكّان البلاد المفتوحة، والأعراب، ومن سبقت لهم ردة، واليهود، والنّصارى، وفي تكوين نسيج المجتمع الثقافى، وفي بسطة عيش المجتمع، وفي ظهور لون جديد من الانحرافات، وفي قبول الشائعات^(٣).

ج- ظهور جيل جديد: فقد حدث في المجتمع تغير أكبر، ذلك أن جيلاً جديداً من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه في المجتمع وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش في العصر غير الذى كانوا يعيشون فيه، ويتّصف بما لا يتّصفون به، فهو جيل^(٤) يعتبر في مجموعه أقلّ من الجيل الأوّل الذى حمل على كتفه عبء بناء الدولة، وإقامتها، فقد تميز الجيل الأوّل من المسلمين بقوة الإيمان، والفهم السليم

(٢) دراسات في عهد النبوة، ص (٣٧٩).

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٦٦).

(٤) الدولة الأموية، يوسف العث، ص (١٣٢).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٨٠).

لجوهر العقيدة الإسلامية، والاستعداد التام لإخضاع النفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن والسنة، وكانت هذه المميزات أقل ظهوراً في الجيل الجديد الذي وُجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع الفردية، وبُعثت فيه العصبية للأجناس، والأقوام، وبعضهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهلية التي كانوا عليها، ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السليمة مثل ما نال الرعيل الأول من الصحابة رضی الله عنهم على يد رسول الله ﷺ، وذلك لكثرتهم، وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوح الجديدة^(١)، فالصحابة كانوا أقل فتناً من سائر من بعدهم، فإنه كلما تأخر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف^(٢)، ووجد دعاة الفتنة في المنحرفين من الجيل الجديد بغيتهم.

د- استعداد المجتمع لقبول الشائعات: ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في نسيج المجتمع أنه صار مهياً للهزات، مستعداً للاضطراب، قابلاً لتلقى الإذاعات، والأقاويل والشائعات^(٣)، ولهذا لما كان الناس في خلافة أبي بكر وعمر أقرب عهداً بالرسالة، وأعظم إيماناً، وصلاحاً، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت في الطمأنينة لم تقع فتنة، إذ كانوا في حكم القسط، أي النفوس المطمئنة^(٤)، ولما كان في آخر خلافة عثمان، وخلافة علي، كثر أهل النفس اللوامة التي تخلط عملاً صالحاً، وآخر سيئاً؛ فصار فيهم شهوة، وشبهة مع الإيمان، والدين، وصار ذلك في بعض الولاة، وبعض الرعايا، ثم كثر هذا القسم، الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تمحيص القوى، والطاعة في الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية في الطرفين، وكل منهم متأولٌ وأنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأنه مع الحق، والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه من الظن، وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى^(٥)، ويوضح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأحد أتباعه، قال الرجل: ما بال

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٥٦).

(٢) ذو النورين عثمان بن عفان، مال الله، ص (٩٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/١٤٨).

(٣) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٣٨٢).

(٥) المصدر نفسه (٢٨/١٤٩).

المسلمين اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبي بكر، وعمر؟ قال علي: لأنَّ أبا بكر، وعمر كانا واليين على مثلي، وأنا اليوم والٍ على مثلك^(١)، وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدرِّكًا لما يدور في وسط المجتمع حيث قال في رسالته إلى الأمراء: أمّا بعد، فإن الرعيّة قد طعنت في الانتشار، ونزعت إلى الشره، وأعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مسرعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر، فتُغيّر^(٢).

هـ- مجيء عثمان بعد عمر، رضى الله عنهما: كان مجيء عثمان رضى الله عنه مباشرة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، واختلاف الطبع بينهما مؤدبًا إلى تغيير أسلوبيهما في معاملة الرعيّة، فبينما كان عمر قوى الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعًا، وأرقّ في المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه، أو يأخذ الناس بما يأخذ به عمر، حتّى يقول عثمان لنفسه: يرحم الله عمر، ومن يطبق ما كان عمر يطبق؟!^(٣) لكن الناس، وإن رغبوا في الشوّط الأوّل من خلافته، لأنّه لان معهم، حتّى أصبحت محبته مضرب المثل، فقد أنكروا عليه بعد ذلك، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان في لطفه، ولين عريكته، ورقة طبعه ودماثة خلقه، ممّا كان له بعض الأثر في مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده، وعهد سلفه عمر بن الخطاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جرّأكم على؟ ما جرّأكم على إلا حلمي^(٤)، وحين بدأت نوايا الخارجين -وقد ألزمهم عثمان الحجّة في رده على المآخذ التي أخذوها عليه أمام الملأ من الصحابة والناس- أبي المسلمون إلا قتلهم وأبى عثمان إلا تركهم، لحلمه، ووداعته قائلاً: بل نعفر، ونقبل، ولنصبرهم بجهدهما، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حدّاً، أو يبدى كفرًا^(٥).

و- خروج كبار الصحابة من المدينة: كان عمر رضى الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن، وأجل، فشكوه، فبلغه فقام،

(٢) التمهيد والبيان، ص (٦٤).

(٤) المصدر نفسه (٥/ ٢٥٠).

(١) مقدمة ابن خلدون، ص (١٨٩).

(٣) تاريخ الطبرى (٤١٨/٥).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٣٦٤).

فقال: ألا أتى قد سنتت الإسلام سنُّ البعير، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثنياً، ثم رباعياً، ثم سديساً، ثم بازلاً^(١)، فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإن الإسلام قد نزل، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حىُّ فلا، إني قائم دون شعب الحرّة، آخذٌ بحلاقيم^(٢) قريش، وحجزها أن يتهافتوا فى النار^(٣). لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصحابة من انتشارهم فى البلاد المفتوحة، وتوسّعهم فى القطاع والضياء؛ فكان يأتيه الرجل من المهاجرين، وهو ممن حبس فى المدينة، فيستأذنه فى الخروج، فيجيبه عمر: لقد كان لك فى غزوك مع رسول الله ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا، ولا تراك^(٤)، وأما عثمان فقد سمح لهم بالخروج، ولان معهم.

ز - العصبية الجاهلية: يقول ابن خلدون: لما استكمل الفتح، واستكمل للملّة الملك، ونزل العرب بالأمصار فى حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة، والكوفة، والشّام ومصر، وكان المختصون بصحبة الرسول ﷺ والافتداء بهديه، وآدابه: المهاجرين والأنصار، وقريش، وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأما سائر العرب من بنى بكر بن وائل، وعبد القيس، وسائر ربيعة، والأزد، وكندة، وتميم، وقضاعة، وغيرهم فلم يكونوا فى تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم فى الفتوحات قدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السّابقة، ومعرفة حقّهم، وما كانوا فيه من الذهول، والدهش لأمر النّبوة، وترددُ الوحى، وتنزل الملائكة، فلمّا انحصر ذلك العباب، وتنوسى الحال بعض الشّىء، وذل العدو، واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض، ووجدوا الرّئاسة عليهم من المهاجرين، والأنصار، وقريش، وسواهم، فأنفت نفوسهم منه، ووافق ذلك فى أيام عثمان، فكانوا يظهرن الطعن فى ولاته بالأمصار، والمواخذة لهم باللحظات، والخطوات، والاستبطاء عليهم بالطاعات، والتجنى بسؤال الاستبداد منهم، والعزل، ويفيضون فى النكير على عثمان، وفشت المقالة فى ذلك فى أتباعهم، وتناولوا بالظلم فى جهاتهم، وانتهت

(٢) الحلاقيم : جمع حلقوم .

(٤) المصدر نفسه (٤١٤/٥).

(١) البازل : الذى انشق نابه بدخوله فى التاسعة .

(٣) تاريخ الطبرى (٤١٣/٥) .

الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة، فارتابوا، وأفاضوا في عزل عثمان، وحمله على عزل أمرائه، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر. . فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامهم^(١).

ح- توقفت الفتوحات بسبب حواجز طبيعية أو بشرية: حيث توقفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء في جهات فارس، وشمالى بلاد الشام، أو فى جهة إفريقية، توقفت الغنائم على أثرها، فتساءل الأعراب: أين ذهبت الغنائم القديمة؟ أين ذهبت الأراضى المفتوحة التى يعدونها حقاً من حقوقهم^(٢)، وانتشرت الشائعات الباطلة التى اتهمت عثمان رضى الله عنه بأنه تصرف فى الأراضى الموقوفة على المسلمين وفق هواه، وأنه أقطع منها لمن شاء من الناس، وقد كان لها أثر، وواقع على الأعراب، خاصة وأن معظمهم بقى بدون عمل يقضون شطراً من وقتهم فى الطعام، والنوم، والشرط الآخر بالخوض فى سياسة الدولة، والحديث عن تصرفات عثمان التى كانت تهوّلها السبئية، وقد أدرك أحد عمال عثمان هذا الأمر، وهو عبد الله بن عامر، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله - وهم وزراؤه، ونصحاؤه - أن يجتهدوا فى آرائهم، ويشيروا عليه، فأشار عليه أن يأمر الناس بالجهاد ويجمّهم فى المغازى حتى لا يتعدى هم أحدهم قمل فروة رأسه، ودبر دابته^(٣)، وفى ذلك الجو من الحديث، والفكر عند أفراد تعودوا الغزو، ولم يفقهوا من الدين شيئاً كثيراً يمكن أن يتوقع كل سوء، ويكفى أن يحرك هؤلاء الأعراب، وأن يوجّهوا توجيهاً، فإذا هم يشورون، ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فإن الأعراب - بسبب توقف الفتوحات - ساهموا فى بؤاد الفتنة الأولى، وكانوا سبباً من أسباب اندلاعها^(٤).

ط- المفهوم الخاطيء للورع بتحريم الحلال: الورع فى الشريعة طيبٌ، وهو أن يُترك ما لا بأس به، مخافةً مما فيه بأس، وهو فى الأصل ترفع عن المباحات فى الله، ولله، والورع شىء شخصى يصح للإنسان أن يطالب به نفسه، ولكن لا

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٤٤).

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/٤٧٧).

(٤) تحقيق موقف الصحابة فى الفتنة (١/٣٥٣).

(٣) تاريخ الطبرى (٢/٣٤٠).

يصح أن يطالب به الآخرين، ومن أخطر أنواع الورع: الورع الجاهل الذي يجعل المباح حراماً، أو مفروضاً، وهذا الذي وقع فيه أصحاب الفتنة^(١)، فقد استغل أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه، ونفخوا فيها، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات، أو المصالح خروجاً على الإسلام، وتغييراً لسنة من سبقه، وعظمت هذه المسائل في أعين الجهلة، فاستباحوا -أو أعانوا من استباح - دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم^(٢).

ي- ظهور جيل جديد من الطامحين: وجد في الجيل الثانى من أبناء الصحابة رضى الله عنهم من يعتبر نفسه جديراً بالحكم والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أن الطريق أمامهم مغلق، وفي العادة أنه متى وجد الطامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفساً، فإنهم يدخلون في كل عملية تغيير، ومعالجة أمر هؤلاء في غاية الأهمية^(٣).

ك- وجود طائفة متورة من الحاقدين: لقد دخل في الإسلام منافقون متورون اجتمع لهم من الحقد، والذكاء والدهاء، ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضعف التي يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا من يستمع إليهم بأذان صاغية، فكان من آثار ذلك ما كان^(٤)، فقد عرفنا سابقاً وجود يهود، ونصارى، وفرس، وهؤلاء جميعاً معروف باعث غيظهم، وحقدهم على الإسلام، والدولة الإسلامية، ولكننا هنا نضيف من وقع عليه حدٌ أو تعزير لأمر ارتكبه في وسط الدولة، وعاقبه الخليفة، أو ولاته في بعض الأمصار، وبالذات البصرة، والكوفة، ومصر، والمدينة، فاستغل أولئك الحاقدون من يهود، ونصارى، وفرس، ومجموعات من أصحاب الجرائم كان معظمهم من الأعراب، ممن لا يفقهون هذا الدين على حقيقته، فتكونت لهؤلاء جميعاً طائفة، وصفت من جميع من قابلهم بأنهم أصحاب شر، فقد وُصفوا: بالغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل، وأهل المياه، وعبيد المدينة^(٥)، وبأنهم ذؤبان العرب^(٦)، وأنهم حثالة الناس

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٥١٧).

(٤) المصدر نفسه (١٦٧٦/٤).

(٥) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٣٩٢). (٦) المصدر السابق، ص (٣٩٢).

وَمَتَّقُونَ عَلَى الشَّرِّ^(١)، وسفهاء عديمو الفقه^(٢)، وأرذال من أوباش القبائل^(٣)، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل^(٤)، وأنَّهم آله الشيطان^(٥)، وقد تردَّد في المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصنعاني اليهودي ضمن هؤلاء الموتورين الخاقدين، وأنه كان من اليهود، ثم أسلم، ولم يُنقَب أحد عن نواياه، فتنقلَّ بين البلدان الإسلاميَّة باعتبارِه أحد أفراد المسلمين^(٦)، وسيأتى الحديث عنه بإذن الله.

ل - التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدَّ عثمان رضى الله عنه: كان المجتمع مهياً لقبول الأقاويل، والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة، وكانت الأرض مهياً، ونسيج المجتمع قابلاً لتلقى الخروقات، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطعن في الأمراء بحجَّة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى استمالوا النَّاس إلى صفوفهم، ووصل الطَّعن إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه نفسه باعتباره قائد الدولة، وإذا ما حصرنا الدَّعاوى التي رُوِّجت ضدَّ الخليفة، وطعنوه بها، فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات:

- مواقف شخصيَّة له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات، والمواقع).
- سياسته الإدارية النَّافذة: توليه أقربائه، طريقته في التَّولية.
- اجتهادات خاصة به، أو بمصلحة الأُمَّة (إتمام الصَّلَاة بمنى، جمع القرآن، الزيادة في المسجد).
- معاملته لبعض الصحابة: عمار، أبي ذر، ابن مسعود.

وقد بينت موقف عثمان رضى الله عنه في كلِّ ما وجه إليه في كتابي «تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره». وقد حدثت مزيد في إبراز المطاعن على عثمان رضى الله عنه سواء في عهده، وما واجهه بها، وردَّه عليها في حينه، أو ما تُقول عليه فيما بعد عند الرواة، والكتَّاب، فإنها لم تصح، ولم تصل إلى حدِّ أن تكون سبباً في قتله^(٧).

(١) الطبقات (٧١/٣) هذا وصف ابن سعد. (٢) دراسات في عهد النبوة، ص (٣٩٢).
(٣) شذرات الذهب (٤٠/١) هذا وصف ابن العماد. (٤) شرح صحيح مسلم (١٥/١٤٨، ١٤٩).
(٥) تاريخ الطبري (٥/٣٢٧). (٦) دراسة في عهد النبوة، ص (٣٩٤).
(٧) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٤٠٠).

إن المآخذ السَّابِق ذكرها والمدوَّنة في تاريخ الطَّبْرِي، وغيره من كتب التاريخ والمروية عن طريق المجاهيل، والإخباريين الضُعفاء - خاصة الشيعة - كانت وما تزال بليَّة عظمى على الحقائق في سير الخلفاء والأئمَّة، خاصة في مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضی الله عنه من ذلك الحظُّ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على النهج الملتوى بعض ما نال تلك السيرة النيرة، من تحريف المنحرفين، وتشويه الغالين، بغية التأليب عليه، أو التشهير به. وقد أدرك عثمان رضی الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمراءه: أما بعد، فإن الرعية طعنت في الانتشار ونزعت إلى الشرِّ، أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرِّعة، وضغائن محمولة^(١)، وقال ابن العربي على تلك المآخذ: قالوا متعدِّين متعلِّقين برواية كذَّابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم، ومناكير، . . . هذا كله باطل سنداً وممتناً^(٢).

م- استخدام الأساليب والوسائل المهيَّجة للنَّاس: وأهم هذه الأساليب: إشاعة الأراجيف، حيث تردَّدت كلمة الإشاعة، والإذاعة كثيراً، والتَّحريض، والمناظرة، والمجادلة للخليفة أمام النَّاس، والطَّعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب، واختلاقها على لسان الصَّحابة رضی الله عنهم، كعائشة، وعليٍّ، وطلحة، والزبير، والإشاعة بأن علي بن أبي طالب رضی الله عنه الأحق بالخلافة، وأنَّ الوصي بعد رسول الله ﷺ، وتنظيم فرق في كل من البصرة، والكوفة، ومصر، أربع فرق من كلِّ مصرٍّ مما يدل على التَّديير المسبق، وأوهموا أهل المدينة أنَّهم ما جاءوا إلا بدعوة الصَّحابة، وصعدوا الأحداث، حتى وصل الأمر إلى القتل^(٣)، وإلى جوار هذه الوسائل استخدموا مجموعة من الشعارات منها: التَّكبير ومنها: أنَّ جهادهم هذا ضدَّ المظالم، ومنها: أنَّهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ومنها: المطالبة باستبدال الولاة، وعزلهم، ثمَّ تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن تبادوا في جراتهم، وطالبوا، بل سارعوا إلى قتل الخليفة، وخاصة حينما وصلهم الخبر بأنَّ أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والشوق إلى قتله بأيِّ وسيلة^(٤).

(٢) العواصم من القواصم، ص (٦١ - ٦٣).

(١) التمهيد والبيان، ص (٦٤).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٠٢).

(٣) دراسات في عهد النبوة، ص (٤٠١).

ن- دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة: في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضى الله عنه بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلامي نتيجة عوامل التغيير التي ذكرتها، وأخذ بعض اليهود يتحينون فرصة الظهور مستغلين عوامل الفتنة، ومتظاهرين بالإسلام، واستعمال التقيّة، ومن هؤلاء: عبد الله بن سبأ الملقّب بابن السّوداء. وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التّهويل في شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة^(١)، فإنه كذلك لا يجوز التّشكيك فيه، أو الاستهانة بالدور الذي لعبه في أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنّه أبرزها، وأخطرها، إذ أنّ هناك أجواء للفتنة مهّدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء، ومعتقدات ادّعاها، واخترعها من قبل نفسه، وافتعلها من يهوديّة الحاقدة، وجعل يروّجها لغاية ينشدها، وغرض يستهدفه، وهو الدس في المجتمع الإسلامي بغية النّيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشّقاق بين أفرادها، فكان ذلك من جملة العوامل التي أدّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وتفرّق الأمة شيعاً وأحزاباً^(٢).

وخلاصة ما جاء به أنه أتى بمقدمات صادقة، وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السّدج، والغلاة، وأصحاب الأهواء من النّاس، وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبس فيها على من حوله، حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوله على زعمه الفساد، حيث قال: لَعَجِبُ مَنْ يَزْعَمُ أَنَّ عَيْسَى يَرْجِعُ، وَيَكْذِبُ بَأَن مُحَمَّدًا يَرْجِعُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى^(٣). كما سلك طريق القياس الفاسد من ادّعاء إثبات الوصية لعليّ رضى الله عنه بقوله: إنّه كان ألف نبى، ولكل نبى وصى، وكان عليّ وصىّ محمد، ثمّ قال: محمد خاتم الأنبياء، وعليّ خاتم الأوصياء، وحينما استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج النّاس على الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، فصادف ذلك هوى في نفوس بعض القوم، حيث قال لهم: من أظلم ممّن لم يُجزْ وصية رسول الله ﷺ، ووثب عليّ وصىّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمة، ثمّ قال لهم بعد

(١) مثال سعيد الأفغانى في كتابه «عائشة والسياسة».

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٢٧).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧).

ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصى رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر، فحرّكوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر^(١)، وبثّ دعائه، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولائهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كلّ مصر منهم إلى مصر آخر بما يضعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنّنا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنّنا لفي عافية مما فيه الناس^(٢).

ويظهر من هذا النصّ الأسلوب الذي تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من الصحابة، حيث جعل أحدهما مهضوم الحقّ وهو على، وجعل الثاني مغتصباً وهو عثمان، ثم حاول بعد ذلك أن يحرك الناس خاصة في الكوفة على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولائهم، علماً بأنّه ركّز في حملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادة ملائمة لتنفيذ خطته، فالقراء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيّج أنفسهم، بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان، مثل تحيزه لأقاربه، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنّه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التهم، والمطامع التي حرك بها نفوس الغوغاء ضدّ عثمان رضى الله عنه، ثمّ إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة مضخمة عن مصرهم إلى بقية الأمصار، وهكذا يتخيل الناس في جميع الأمصار أنّ الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية، لأنّ تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي^(٣).

هذا وقد شعر عثمان رضى الله عنه بأن شيئاً ما يحاك في الأمصار، وأنّ الأمة تمخض بشرّاً، فقال: والله أن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات، ولم

(٢) المصدر السابق (٥/٣٤٨).

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٤٨).

(٣) الدولة الأموية يوسف العشر، ص (٦٨)، تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٣٠).

يحرّكها^(١)، على أن المكان الذي رتع فيه ابن سبأ هو مصر، وهناك أخذ ينظّم حملته ضدّ عثمان رضى الله عنه، ويحثُّ على التوجّه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أنّ عثمان أخذ الخلافة بغير حقّ، ووثب على وصيّ رسول الله، يقصد علياً^(٢)، وقد غشهم بكتب ادعى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً، وتبرأوا ممّا نسب إليهم من رسائل تؤلّب النّاس على عثمان^(٣)، ووجدوا عثمان مقدراً للحقوق، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، وردّ عليهم افتراءهم وفسر لهم صدق أعماله؛ حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر النخعي: لعله مكر به وبكم^(٤)، ويعتبر الذهبي: أنّ عبد الله بن سبأ المهيج للفتنة بمصر، وبأذر بذور الشقاق والنقمة على الولاية ثمّ الإمام - عثمان - فيها^(٥)، ولم يكن ابن سبأ وحده وإنّما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين، وكان أخطبوطاً من أساليب الخداع، والاحتيال، والمكر، وتجنيد الأعراب، والقراء وغيرهم، ويروى ابن كثير أنّ من أسباب تألّب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر، وإذاعته بين النّاس كلاماً اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر^(٦).

إنّ المشاهير من المؤرّخين والعلماء من سلف الأئمّة وخلفها يتفقون على أنّ ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد، وأفكار، وخطط سبئية، ليلفت المسلمين عن دينهم، وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة، والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكوّنت به الطائفة السبئية المعروفة، التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضى الله عنه. والذي يظهر من خطط السبئية أنّها كانت أكثر تنظيمًا، إذ كانت بارعة في توجيه دعايتها، ونشر أفكارها، لامتلاكها ناصية الدعاية، والتأثير بين الغوغاء والرّعاع من النّاس، كما كانت نشيطة في تكوين فروع لها سواء في البصرة، أم الكوفة، أم مصر، مستغلة العصبية القبليّة ومنتكنة من إثارة مكامن التذمّر عند الأعراب، والعبيد، والموالى، عارفة بالمواضع الحسّاسة في حياتهم، وبما يريدون^(٧).

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٠). (٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠)، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٨).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠)، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٦٥).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٣١). (٥) المصدر نفسه (١/ ٣٣٨).

(٦) البداية والنهاية (٧/ ١٦٧، ١٦٨). (٧) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٩).

س - موقف معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه فى الفتنة:

فى يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس والى الكوفة سعيد بن العاص فى مجلسه العام، وحوله عامة الناس، وكانوا يتحدثون، ويتناقشون فيما بينهم، فسئل الخوارج من السبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة، وجرى كلام وحوار فى المجلس بين سعيد بن العاص، وبين أحد الحضور، وهو خنيس بن حُبَيْش الأسدى، واختلفا على أمر، وكان سبعة من الخوارج أصحاب الفتنة جالسين، منهم: جندب الأزدي، الذى قتل ابنه السارق بسبب تورطه فى قضية قتل، ومنهم الأشتر النخعي، وابن الكواء، وصعصعة بن صحوان، فاستغل أصحاب الفتنة المناسبة، وقاموا بضرب خنيس الأسدى فى المجلس، ولما قام أبوه يساعده، وينقذه، ضربوه، وحاول سعيد منعهم من الضرب، فلم يمتنعوا، وأغمى على الرجل وابنه من شدة الضرب، وجاء بنو أسد للأخذ بشأر أبنائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكن سعيداً تمكّن من إصلاح الأمر^(١)، ولما علم عثمان بالحادثة، طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع، وذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا ينشرون الإشاعات، ويُدّيعون الافتراءات والأكاذيب ضد سعيد والى الكوفة، وضد عثمان، وضد أهل الكوفة، ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال له سعيد: إن عثمان قد نهانى عن ذلك، فإذا أردتم ذلك، فأخبروه، وكتب أشرف أهل الكوفة، وصلحائهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة، ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخربون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية فى الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء، فقال له: إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة. فرعهم، وأخفهم، وأدبهم، وأقم عليهم، فإن آتست منهم رشداً، فأقبل منهم^(٢).

ومن الذين تمّ نفيهم إلى الشام، الأشتر النخعي، وجندب الأزدي، وصعصعة ابن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابئ، وابن الكواء^(٣)، ولما قدموا على

(٢) المصدر السابق (٥/٣٢٤).

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٣).

(٣) الخلفاء الراشدون، ص (١٣١).

معاوية رحب بهم، وأحسن ضيافتهم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يُجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدى، ويتعشى معهم، فقال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان، وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرقاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم، وموارثهم، وقد بلغنى أنكم نقيتم قريشاً، وإن قريشاً لو لم تكن، لعدتم أذلة كما كنتم^(١). كان عثمان رضى الله عنه يدرك أن معاوية للمعضلة، فله من فصاحته وبلاغته، وله من حلمه، وصبره، وله من ذكائه، ودهائه ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلها، وفعلاً بذل معاوية رضى الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النفر؛ أكرمهم أولاً، وخالطهم، وجالسهم، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نُقل عنهم، وبعد أن أزال الوحشة عنهم، وأزال الكلفة بينه وبينهم، لاحظ أن النعرة القبلية هي التي تحركهم، وأن شهوة الحكم والسلطة هي التي تثيرهم، فكان لا بد أن يلج عليهم من زاويتين اثنتين:

الأولى: أثر الإسلام فى عزة العرب.

الثانية: دور قريش فى نشر الإسلام وتحمل أعبائه، فإن كان للإسلام أثر فى تكوينهم، فلا بد أن يرعوا لهذا الحديث، بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب، وقد انقلبوا بالإسلام أمة واحدة تخضع لإمام واحد، وودعوا حياة الفوضى، وسفك الدماء، والقبلية المنتنة^(٢)، ويتابع معاوية حديثه معهم، فيقول: إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة^(٣)، فلا تشدوا عن جنتكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة، والله لتنتهن أو ليبتليتنكم الله بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية فى حياتكم، وبعد موتكم، فقال رجل من القوم: أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها فى الجاهلية، فتحوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة، فإن الجنة إذا احترقت خلص إلينا. فقال معاوية: عرفتمكم الآن، علمت أن الذى أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً.

(٢) معاوية بن أبى سفيان، لنير الغضبان، ص (١٠١).

(١) تاريخ الطبرى (٣٢٤/٥).

(٣) جنة: وقاية.

أُعْظَمَ عَلَيْكَ أَمْرَ الْإِسْلَامِ، وَأَذْكَرَكَ بِهِ، وَتَذَكَّرْنِي الْجَاهِلِيَّةَ؟ وَقَدْ وَعْظْتِكَ وَتَزَعَمَ لِمَا يُجْنُكَ أَنَّهُ يَخْتَرِقُ، وَلَا يَنْسَبُ مَا يَخْتَرِقُ إِلَى الْجَنَّةِ، أَخْزَى اللَّهُ أَقْوَامًا أَعْظَمُوا أَمْرَكُمْ، وَرَفَعُوا إِلَى خَلِيفَتِكُمْ^(١).

وعرف معاوية أن الإشارة العابرة لن تقنعهم، ولا بد من شرح مسهب لواقع قريش أولاً، فقال: افقهوا - ولا أظنكم تفقهون - أن قريش لم تعز في جاهلية ولا في إسلام إلا بالله - عز وجل - لم تكن أكثر العرب، ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية، والناس يأكل بعضهم بعضاً، إلا بالله الذي لا يُستدك من أعز، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عرباً، أو عجماً، أو سوداً، أو حمراً إلا قد أصابه الدهر في بلده، وحرمة بدولة، إلا ما كان من قريش، فإنه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خذه الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم، واتبع دينه من هوان الدنيا، وسوء مرد الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً، فكان خيارهم قريشاً، ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم. أف لك، ولأصحابك ولو أن متكلماً غيرك تكلم، ولكنك ابتدأت، فأما أنت يا صعصعة فإن قريتك شر قرى عربية، أنتها نبأ، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشر، وألمها جيراناً، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سب بها، وكانت عليه هجنة. ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً، وألمها أصهاراً، نزاع^(٢) الأمم، وأنتم جيران الخطّ وفعلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ، ونكبتك دعوته، وأنت نزيح شطير^(٣) في عمان، لم تسكن البحرين، فتشركهم في دعوة النبي ﷺ، فأنت شر قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالناس، وحملك على الأمم التي كانت عليك، أقبلت تبغى دين الله عوجاً، وتنزح إلى اللامة، والذلة، ولا يصنع ذلك قريش، ولن يضرهم، ولن يمنعمهم من تأدية ما عليهم، إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر من بين أممكم، فأغرى الناس، وهو صارعكم، لقد علم أنه لا

(٢) النزاع : جمع نزيح وهو الغريب

(١) تاريخ الطبري (٥/٣٢٤).

(٣) الشطير : الغريب .

يستطيع أن يردّ بكم قضاء الله، ولا أمراً أراد الله، ولا تدركون بالشّرّ أمراً إلا فتح الله عليكم شرّاً منه، وأخزى، ثم قام وتركهم، فتذامروا، فتقاصرت إليهم أنفسهم^(١) وبذلك بذل معاوية كلّ طاقاته الفكرية، والثقافية، والسياسية، لإقناعهم:

- عرض لهم أولاً أمر قريش في الجاهلية والإسلام.

- تناول قبائل هؤلاء النّفر، ووضعها في الجاهلية، حيث كانت تعاني سوء المناخ، وفتن المنبت من الناحية الطبيعية، ثمّ الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذلك، وارتقت بعد هوان.

- تناول معاوية رضى الله عنه صعصعة بن صوحان خطيب القوم، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة، وقد دخل قومه بها، ثمّ عاد وانضم إلى الإسلام، ورفع الإسلام ثانية بعد انحدار.

- كشف معاوية رضى الله عنه مخططات صعصعة، وأصحابه، وكيف يبغون الفتنة، ويبغون دين الله عوجاً.

- وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة، ومحرك هذا الشرّ، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله، ثمّ الإسلام، والعقيدة، ثمّ كشف عن زيف هؤلاء النّفر، وفضحهم عن آخرهم، وأبان عن مخططاتهم، وصلتها بدعوى الجاهلية^(٢).

جلسة أخرى:

ثمّ أتاهم القابلة فتحدّث معهم طويلاً، ثمّ قال: أيّها القوم، ردّوا علىّ خيراً، أو اسكتوا، وتفكّروا، وانظروا فيما ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه تعيشوا، ونعش بكم. قال صعصعة: لست بأهل لذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله. فقال معاوية: أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله، وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً، ولا تفرقوا؟ قالوا: بل أمرت بالفرقة، وخلاف ما جاء به النّبي ﷺ قال: إنّي أمركم الآن، إن كنت فعلت، فأتوب إلى الله، وأمركم بتقواه، وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، ولزوم الجماعة، وكرامة الفرقة، وأن توقروا أئمتكم، وتدلّوهم على كلّ

(٢) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان، ص (١١١).

(١) تاريخ الطبرى (٣٢٦/٥).

حسن ما قدرتم، وتعظوهم في لين، ولطف في شيء إن كان معهم. قال صعصعة: فإننا نأمرك أن تعتزل عملك فإن من المسلمين من هو أحقُّ به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قَدَمًا من أبيك، وهو بنفسه أحسن قَدَمًا منك في الإسلام، قال معاوية: والله إن لى في الإسلام قَدَمًا، ولغيرى كان أحسن قَدَمًا مِنِّي، ولكنه ليس في زمانى أحدٌ أقوى على ما أنا فيه مِنِّي، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطَّاب، فلو كان غيرى أقوى مِنِّي، لم يكن لى عند عمر هُوادة، ولا لغيرى، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لى أن أعتزل عملى، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، لكتب بخطِّ يده، فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك، لرجوت أن يعزم له على ذلك إلى ما هو خير. فمهلاً فإن في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان، ويأمر، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم، وأمانيتكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يومًا ولا ليلة، ولكن الله يقضيها، ويدبرها وهو بالغ أمره، فعادوا الخير، وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إنَّ لله سطوات، ونقمت، وإنِّي لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تُحلَّكم مطاوعة الشيطان، ومعصية الرحمن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر، والخزى الدائم في الآجل، فوثبوا عليه، فأخذوا بلحيته، ورأسه، فقال: مه! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمري إنَّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا، ثم قام من عندهم. فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلًا ما بقيت^(١).

هذه المحاولة الأخيرة التى بذل فيها معاوية أمير الشام كلَّ جهده واستعمل حلمه، وثقافته، وأعصابه كى يثنيهم عن الفتنة، إنَّه يدعوهم إلى تقوى الله، وطاعته، والاستمسك بالجماعة، والابتعاد عن الفرقة، وإذا بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: ليس لك أن تطاع فى معصية الله^(٢). وبحلِّمه الكبير، وصدِّره الواسع عاد فذكرهم بأنَّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله، وعلى حدِّ زعمهم، فهو يتوب من المعصية، إن وقعت، ثمَّ يعود لدعوتهم إلى الطاعة، والجماعة، والابتعاد عن

(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٣٠).

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠ ، ٣٣١).

تفريق كلمة الأمة، ولو كان الوعظ يجدى معهم، لأمكن أن تتأثر قلوبهم لهذه المعاملة، وهذا اللطف، وهو يوجههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادى عن العظة، واللين فى النصح، فوجدوا المجال رحباً أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم. فقالوا: فإننا نأمرك أن تعتزل عملك، فإن فى المسلمين من هو أحقُّ به منك، وانتبه معاوية انتباهاً مفاجئاً إلى ما يكتنون، فأحبَّ أن يتعرف جانباً غامضاً عليه، لعلَّ فى هذا التعرف ما يوصله إلى من يحركهم، ويبث فى ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنهم أخفوا ما يكتنون، واكتفوا بالإشارة إلى أنهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه، ولمن أبوه أفضل من أبيه، ثم تحلَّم عليهم أكثر فأكثر رغم الأسلوب الفجَّ الذى سلكوه معه، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل. وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره فى الحكم، والإمارة، والقيادة، وقد لخصَّ معاوية إجابته فى ستِّ نقاطٍ أساسيةٍ ومهمَّة:

- هى أن له قدماً، وسابقة فى الإسلام، فهو حامى ثغر الشام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما.

- أن هناك فى المسلمين من هو أفضل منه، وأكرم، وأحسن سابقة، وأكثر بلاءً، وهو يرى أنه أقوى من يحمى هذا الثغر الإسلامى العظيم - الشام - فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه، وسياسته، وفهم نفسيات أهله حتى أحبوه.

- إنَّ الميزان الحساس، والمعيار الدقيق الذى يقمِّم الولاة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططاً، أو انحرافاً عمل له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتباً بين يديه، وولاه أبو بكر الصديق من بعده، ولم يطعن فى كفاءته أحد.

- إنَّ اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال، فما هى الحجَّة التى يقدمها دعاة الفتنة، ليطمَّ الاعتزال على أساسها؟

- إنَّ الذى يقرِّر العزل عن العمل، أو البقاء فى الإمارة ليس هؤلاء الأعداء، إنَّ ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو الذى له الحقُّ فى تعيين الولاة، وعزلهم.

- إنَّ أمير المؤمنين عثمان يوم يقرَّر عزل معاوية، فهو واثق أنَّ أمره خير كله، ولا غضاضة في ذلك فهو أمير مأمور، وهو أمر خليفة المسلمين^(١).

كان ختام الجلسة مؤسفاً أشدَّ الأسف، مؤلماً أشدَّ الألم، لقد حذَّره نعمة الله، وغضبه، وحذَّره الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم، فماذا كان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه وأخذوا برأسه ولحيته، وعندئذ زجرهم، وقمعهم، ووجَّه لهم كلاماً قاسياً مبطناً بالتهديد، وعرف أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحقِّ، فلا بدَّ من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وكشف هويَّاتهم، وخطرهم، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر^(٢).

ف- كتابة معاوية إلى عثمان رضى الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب معاوية إلى عثمان رضى الله عنهما قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون باللسنة الشياطين وما يُملون عليهم، ويأتون النَّاس - زعموا - من قِبَل القرآن فيشبهون على النَّاس، وليس كل النَّاس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رُقى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من النَّاس ممن كانوا بين ظهرانيتهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذى نما فيه نفاقهم^(٣)، فكتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردَّهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا، وكتب سعيد إلى عثمان يضحّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان أميراً على حمص^(٤)، فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، استدعاهم، وكلمهم كلاماً شديداً، وكان ممَّا قاله لهم: يا آله الشيطان، لا مرحباً بكم، ولا أهلاً، لقد رجع الشيطان محسوراً خائباً، وأنتم ما زلتم نشيطون فى الباطل، خسَرَ الله عبد الرحمن إن لم

(١) معاوية بن أبي سفيان، صحابى كبير، وملك مجاهد، ص (١١٤ - ١١٧).

(٢) معاوية بن أبي سفيان للغضبان، ص (١١٧، ١١٨).

(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٣٣١/٥).

يؤدُّ بكم ويخزِكُم! يا معشر من لا أدري من أنتم أعرب، أم عجم، لن تقولوا لى كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقىء الرِّدة، والله لأذلنَّكم! وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهراً كاملاً، وعاملهم بمنتهى الخزم، والشدة، ولم يكن معهم كما لان سعيد، ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويدلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم صعصعة بن صوحان يقول له: ي بن الخطيئة! هل تعلم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشرُّ، وأن من لم يصلحه اللين أصلحته الشدة؟ وكان يقول لهم: لماذا لا تردون على، كما كنتم تردون على سعيد فى الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبوننى، كما كنتم تخاطبونهما؟ ونفع معهم أسلوب عبد الرحمن بن خالد، وأخرسهم حزمه، وشدته، وقسوته، وأظهروا له التوبة والندم، وقالوا له: نتوب إلى الله، ونستغفره، أقلنا أقلك الله، وسامحنا سامحك الله.

بقى القوم فى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد، وأرسل عبد الرحمن أحد زعمائهم وهو الأشتر النخعى إلى عثمان ليخبره بتوبتهم، وصلاحهم، وتراجعهم عمّا كانوا عليه من الفتنة، فقال عثمان للأشتر: احلُّ أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرحمن فى الجزيرة مدة، أظهروا فيها التوبة، والاستقامة والصلاح^(١)، وسكت أصحاب الفتنة فى الكوفة إلى حين، وكان هذا فى سنة ثلاثة وثلاثين، بعدما تم نفى رؤوس الفتنة إلى معاوية فى الشام، ثم إلى عبد الرحمن بن خالد، فرأى أصحاب الفتنة فى الكوفة أن المصلحة تقتضى أن يسكتوا إلى حين^(٢).

إلا أن بقية دعاة الفتنة كانوا يشتغلون فى البصرة، ومصر، وغيرها وفى سنة أربع وثلاثين - السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان - أحكم عبد الله بن سبأ خطته، ورسم مؤامراته، ورتب مع جماعته السبئيين الخروج على الخليفة، وولاته، فقد اتصل ابن سبأ اليهودى من وكر مؤامراته فى مصر بالشياطين من حزبه فى البصرة، والكوفة، والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكتابتهم، وكتابته، وراسلهم، وراسلوه،

(٢) الخلفاء الراشدون للخالدى، ص (١٣٤).

(١) تاريخ الطبرى (٣٢٧/٥).

وكان ممن كاتبهم، وراسلهم السَّبَّيُّون في الكوفة، بضعة عشر رجلاً منهم منفيون في الشَّام، ثمَّ في الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد، وبعد نفى أولئك الخارجين، كان زعيم السَّبَّيِّين الحاقدين في الكوفة يزيد بن قيس^(١). وقد خلت الكوفة في ستة أربع وثلاثين من وجوهها، وأشرفها، لأنَّهم توجَّهوا للجهاد في سبيل الله، ولم يبق إلا الرُّعاع، والغوغاء الذين أثر فيهم السَّبَّيُّون والمنحرفون، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة، وهيجوهم ضدَّ والي عثمان إلى الكوفة سعيد بن العاص رضى الله عنه^(٢). واستطاع القعقاع بن عمرو التميمي أمير الحرب بالكوفة أن يقضى على التحرك الأوَّل بقيادة يزيد بن قيس، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته، وبصيرته، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم في الخروج على الخليفة عثمان، وخلعه، وأظهر له أن كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالي سعيد بن العاص، والمطالبة بوال آخر مكانه، فاستُجيب لطلبهم، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة، لما سمع كلام يزيد، ثمَّ قال يزيد: لا تجلس لهذا الهدف في المسجد، ولا يجتمع عليك أحد، واجلس في بيتك واطلب ما تريد من الخليفة، وسيحقِّق لك ذلك ياذن^(٣) الله، واستمر يزيد بن قيس في إشعال الفتنة، واضطر إلى تعديل خطته في الخروج، وبعد كيد ومكر وتدبير من أتباع السَّبَّيِّين، قرَّر الغوغاء والرُّعاع بقيادة يزيد بن قيس منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة وكان سعيد بالمدينة^(٤).

ولما خرج السيِّون، والغوغاء طلباً للفتنة، والتمرد، وإحداث القلاقل بقي في المسجد وجوه المسلمين، وأشرفهم، وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالي عمرو ابن حُرَيْث وطالب المسلمين بالأخوة، والوحدة، ونهاهم عن التفرق، والاختلاف، والفتنة، والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والتمرديين^(٥)، قال القعقاع بن عمرو التميمي: أتردُّ السَّيل عن عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات، لا والله لا تُسكَّن الغوغاء إلا المشرفية^(٦)، ويوشك أن تُتَّضَى، ثمَّ

(١)، (٢) الخلفاء الراشدون للخالد، ص (١٣٥). (٣) تاريخ الطَّبري (٥/٣٣٧).

(٤) المصدر نفسه (٥/٣٣٨). (٥) الخلفاء الرَّاشِدون، للخالد، ص (١٣٩).

(٦) نوع من السيوف.

يعجُّون عَجيج العتدان^(١)، ويتمنون ما هم فيه، فلا يردهم عليهم أبداً، فاصبر، فقال: أصبر، وتحول إلى منزله^(٢).

واستطاع أهل الفتنة أن يمنعوا سعيد بن العاص من دخول الكوفة ورجع إلى المدينة، وكان من رأيه أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقل، وبعد رجوعه إلى المدينة أخبر سعيد عثمان بما حصل. فقال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خلعوا يدك من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة؟ وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا، لقد أظهروا أنهم لا يريدونني والياً عليهم، ويريدون والياً آخر مكاني. قال له عثمان: من يريدون والياً؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعري، قال عثمان: قد عينا وأثبتنا أبا موسى والياً عليهم، ووالله لن نجعل لأحد عُذراً ولن نترك لأحد حجة، ولنصبرنَّ عليهم كما هو مطلوب منّا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون، وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه والياً على الكوفة^(٣)، وكان أبو موسى رضى الله عنه يقوم بتهدئة الأمور، وبنهى الناس عن العصيان. وقال لهم: أيها الناس لا تخرجوا في هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، والزموا جماعتكم، والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا، فكأنكم بأمير^(٤). فقالوا: فصل بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان^(٥) بن عفان، قالوا: على السمع، والطاعة لعثمان. وما كانوا صادقين في ذلك، لكنهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية عن الآخرين. وكان أبو موسى يصلى بالناس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه والياً على الكوفة، وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة: أما بعد، فقد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنَّ لكم عرضي، ولأبذلنَّ لكم صبري، ولأستصلحننكم بجهدى، واسألونى كلَّ ما أحببتم، ممَّا لا يعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم على حجة. وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار^(٦)، رضى الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما كان أصلحه وأوسع صدره، وكم ظلمه السببيون والخارجون الحاقدون، واختلفوا عليه.

(١) تتضى: أخرج السيف من غمده، العتدان: قيل الحولى من أولاد الماعز.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٢٣٣٨).

(٣) المصدر نفسه (٥/٣٣٩).

(٤) أى: يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان.

(٥) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٩).

(٦) المصدر نفسه (٥/٣٤٣).

ع - مشورة عثمان لولاية الأمصار ورأى معاوية في ذلك:

واجه عثمان بن عفان الفتنة بوسائل وأساليب متنوعة منه: إرسال لجان تفتيش وتحقيق إلى الولايات، ومحاولة معرفة أغراض أهل الفتنة، واستطاع أن يخترق صفوفهم، وأقام الحجة على الغوغاء والمتمردين بالحوار والنقاش، والاستجابة لبعض مطالبهم. وقد فصلت الحديث عن سياسة عثمان في التعامل مع الفتنة في كتابي عن عثمان بن عفان رضى الله عنه.

ومن الأساليب التي اتخذها عثمان رضى الله عنه مشورته لولاية الأمصار رضى الله عنه. حيث بعث إلى ولاية الأمصار واستدعاهم على عجل، وكانوا: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وهم من الولاة السابقين وكانت جلسة مغلقة وخطيرة، وقال فيه كل المشاركين برأيه، وكان رأى معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام^(١)، وبعد أن سمع عثمان من المشاركين اقتراحاتهم قام، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: كل ما أشرتم به علىّ قد سمعت، ولكلّ أمر باب يؤتى منه، إنّ هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وإنّ باب الذي يغلق عليه، فيكفكف به اللّين، والمؤاتاة والمتابعة، إلا في حدود الله تعالى ذكره، التي لا يستطيع أحد أن ييادى بعبئ أحدها، فإنّ سدّه شيء فرّق، فذاك والله ليُفتحنّ، وليست لأحد علىّ حجة حقّ، وقد علم الله إنّى لم آك الناس خيراً، ولا نفسى. والله إنّ رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إنّ مات ولم يحركها، كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واعتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله، فلا تُدهنوا فيها^(٢). فمنع عثمان رضى الله عنه الولاة من التّنكيل بمشيري الشّعب، وجسهم، أو قتلهم، وقرّر أنّ يعاملهم بالحسنى واللّين^(٣)، وطلب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التي كان كلٌّ بصير يرى أنّها قادمة^(٤)، وقبل أن يتوجه معاوية بن أبي سفيان إلى الشّام أتى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين، انطلق معى

(١) الكامل (٢/٢٧٨) تاريخ الطبرى (٥/٣٥١).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٥١).

(٣) خلافة عثمان، د. السلمي، ص (٧٧).

(٤) الخلفاء الراشدون، للخالدي، ص (١٥١).

إلى الشام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قبيل لك بها. قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، ولو كان فيه قطع خيط عنقي. قال له معاوية: إذاً أبعث لك جيشاً من الشام، يقيم في المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة، ليدافع عنك، وعن أهل المدينة، قال عثمان: لا، حتى لا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق، بجند تسكنهم، ولا أضيق على أهل الهجرة والنصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين، والله لتُغتالنَّ، أو لتُغزبنَّ. قال عثمان: حسبى الله ونعم الوكيل^(١).

ولقد حدث كل ما توقعه معاوية، فجاءت جموع أهل الفتنة لتحاصر عثمان رضى الله عنه وتغتاله فى النهاية. وحين جاء هؤلاء الثوار من مختلف الأقاليم لا نجد من بينهم جماعة من أهل الشام^(٢)، من كل ما سبق نجد أننا أمام وال كبير يشق طريقه بجدارة من بين الولاة إلى ما هو أبعد من الولاية، فقد استطاع أن يجعل من إقليم الشام الإقليم المهيأ لقيادة بقية الأقاليم فى الدولة الإسلامية بما عمق فيه من حسن الطاعة للقيادة، وبما ثبت فيه من دعائم الاستقرار، وقطعه لأسباب الفتنة وعوامل الفرقة فيه. وهذا ما لا نجده فى غيره من الأقاليم^(٣).

غ - مقتل عثمان رضى الله عنه وموقف الصحابة من ذلك:

اشتد الحصار على عثمان رضى الله عنه، حتى منع من أن يحضر للصلاة فى المسجد، وكان صابراً على هذه البلوى التى أصابته كما أمره رسول الله ﷺ بذلك، وكان مع إيمانه القوى بالقضاء والقدر، يحاول أن يجد حلاً لهذه المصيبة، فنراه تارة يخطب الناس عن حرمة دم المسلم، وإنه لا يحل سفكه إلا بحقه، وتارة يتحدث فى الناس ويظهر فضائله وخدماته الجليلة فى الإسلام، ويستشهد على ذلك ببقية العشرة رضوان الله عليهم^(٤)، وكأنه يقول: مَنْ هذا عمله وفضله هل من الممكن أن يطمع بالدنيا ويقدمها على الآخرة، وهل يعقل أن يخون الأمانة ويعبث بأموال الأمة ودمائها، وهو يعرف عاقبة ذلك عند الله. وهو الذى تربى على عين النبي ﷺ والذى شهد له وزكاه وكذلك أفاضل الصحابة. ومتى؟ بعد ما

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٥٣).

(٢) عبد الله بن سبأ، للعودة، ص (١٥٢)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٧٦).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٧٦).

(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد على، ص (٨٥).

تجاوز السبعين وقارب الثمانين من عمره، وهكذا تكون معاملته؟ واشتدت سيطرة المتمردين على المدينة حتى أنهم ليصلون بالناس في أغلب الأوقات^(١)، وحينها أدرك الصحابة أن الأمر ليس كما حسبوا، وخشوا من حدوث ما لا يحمد عقباه، وقد بلغهم أن القوم يريدون قتله، فعرضوا عليه أن يدافعوا عنه، ويخرجوا الغوغاء عن المدينة إلا أنه رفض أن يراق دم بسببه^(٢)، وأرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان رضی الله عنه، ومن هؤلاء الحسن بن علي رضی الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، فقد كان عثمان يحب الحسن ويكرمه، فعندما وقعت الفتنة وحوصر عثمان رضی الله عنه أقسم على الحسن رضی الله عنه بالرجوع إلى منزله، وذلك خشية عليه أن يصاب بمكروه^(٣)، وقد قال عثمان للحسن رضی الله عنهما: أرجع ابن أخى حتى يأتى الله بأمره^(٤)، وقد صحت روايات أن الحسن حمل جريحاً من الدار يوم الدار^(٥)، كما جرح غير الحسن، عبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، كما كان معهم الحسين بن علي، وابن عمر رضی الله عنهما^(٦).

وقد كان علي رضی الله عنه من أدفع الناس عن عثمان رضی الله عنه، وشهد له بذلك مروان ابن الحكم^(٧)، كما أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضی الله عنه، إن علياً أرسل إلى عثمان فقال: إن معي خمسمائة دارع، فأذن لي فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئاً يستحل به دمك، فقال: جزيته خيراً، ما أحب أن يهراق دم في سببي^(٨)، وقد وردت روايات عديدة تفيد وقوفه بجانب عثمان رضی الله عنهما، أثناء الحصار فمن ذلك: أن الثائرين منعوا عن عثمان الماء حتى كاد أهله يموتون عطشاً، فأرسل علي رضی الله عنه إليه بثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصلت.

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٥١٥) .

(٢) فتنة مقتل عثمان (١/١٦٧) صحيح الإسناد .

(٣) تاريخ المدينة لابن شبة (٤/١٢٠٨) .

(٤) الرياض النضرة نقلاً عن الحسن بن علي ودوره السياسي، ص (٤٦) .

(٥) الطبقات لابن سعد (٨/١٢٨) بسند صحيح .

(٦) تاريخ خليفة، ص (١٧٤) .

(٧) تاريخ الإسلام، ص (٤٦٠ - ٤٦١)، إسناده قوى .

(٨) تاريخ دمشق، ص (٤٠٣) .

ولقد تسارعت الأحداث فوثب العسويغاء على عثمان فقتلوه رضى الله عنه، وأرضاه، ووصل الخبر إلى الصحابة وأكثرهم فى المسجد، فذهبت عقولهم، وقال على لأبنائه وأبناء أخيه: كيف قتل عثمان، وأنتم على الباب؟ ولطم الحسن، وكان قد جرح^(١)، وضرب صدر الحسين وشم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى منزله وهو يقول: تباً لكم سائر الدهر، اللهم أنى أبرأ إليكم من دمه أن يكون قتلت أو مالات على قتله^(٢)، وهكذا كان موقف على رضى الله عنه، نصحاً وشورى، سمعاً وطاعة، ووقفة قوية بجانبه أثناء الفتنة، ومن أدفع الناس عنه، ولم يذكره بسوء قط، يحاول الإصلاح وسد الخرق بين الخليفة والخارجين عليه لكن الأمر فوق طاقته، وخارج إرادته، إنها إرادة الله عز وجل أن يفوز أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه بالشهادة^(٣).. وبيوء المفسدين بالإثم.

إن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنكر قتل عثمان، وتبرأ من دمه، وكان يقسم على ذلك فى خطبه، وغيرها؛ إنه لم يقتله ولا أمر بقتله، ولا مالاً عليه، ولا رضى، وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع^(٤)، خلافاً لما تزعمه الشيعة الرافضة من أنه كان راضياً بقتل عثمان رضى الله عنهما^(٥)، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة فى مقتله رضى الله عنه: فأما الذى ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فإنه كذب وزور، فقد تواترت الأخبار بخلافه^(٦). وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على على رضى الله عنه، وافتراء عليه، فعلى رضى الله عنه لم يشارك فى دم عثمان رضى الله عنه، ولا أمر ولا رضى، وقد روى عنه ذلك وهو الصادق البار^(٧)، وقد قال على رضى الله عنه: اللهم أنى أبرأ إليك من دم عثمان^(٨).

وقد شوهت بعض كتب التاريخ مواقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وذلك بسبب الروايات الضعيفة والموضوعة التى ذكرها كثير من المؤرخين، والمتبع لأحداث الفتنة فى تاريخ الإمام الطبرى، وكتب التاريخ الأخرى من خلال روايات

(١) ابن أبى عاصم، الأحاد والثنائي (١٢٥/١) نقلاً عن خلافة على، ص (٨٧).

(٢)، (٣) مصنف ابن أبى شيبة (٢٠٩/١٥) إسناده صحيح.

(٤) البداية والنهاية (٢٠٢/٧). (٥) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص (١٢٩).

(٦) المستدرک (١٠٣/٣). (٧) منهاج السنة (٤٠٦/٤).

(٨) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص (٢٢٩)، الطبقات (٣/٣) إسناده حسن.

أبي مخنف، والواقدي، وابن أعثم، وغيرها من الأخبار التي حبكت بطريقة ذات ميول عدائية للتاريخ الصحيح يشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة، ويشيرون الفتنة، فأبو مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع في اتهام عثمان بأنه الخليفة الذي كثرت سقطاته، فاستحق ما استحق، ويظهر طلحة في مروياته كواحد من الثائرين على عثمان، والمؤلبين ضده، ولا تختلف روايات الواقدي عن روايات أبي مخنف، وقد كثرت الروايات الشيعية التي تتهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان رضى الله عنه، وأنهم هم الذين حركوا الفتنة، وأثاروا الناس، وهذا كله كذب وزور^(١)، وخلافاً للروايات الموضوعية والضعيفة فقد حفظت لنا كتب المحدثين، يحمد الله، الروايات الصحيحة التي يظهر فيها الصحابة من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه والمتبرئين من قتله^(٢)، والمطالبيين بدمه بعد مقتله، وبذلك يستبعد أى اشتراك لهم فى تحريك الفتنة، أو إثارتها^(٣).

إن الصحابة جميعاً رضى الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضى الله عنه، ومن قال خلاف ذلك، فكلامه باطل، ولا يستطيع أن يقيم عليه أى دليل ينهض إلى مرتبة الصحة، ولذلك أخرج خليفة فى تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم، عن أبيه، قال: قلت للحسن: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين، والأنصار؟ قال: لا، كانوا أعلجاً^(٤) من أهل مصر. وقال الإمام النووي: ولم يشارك فى قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج، ورعاع من غوغاء القبائل، سفلة الأطراف والأراذل، تحزبوا، وقصدوه من مصر، فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم، فحضره حتى قتل، رضى الله عنه^(٥)، وقد وصفهم الزبير رضى الله عنه بأنهم غوغاء من الأمصار، ووصفتهم السيدة عائشة بأنهم نزاع القبائل^(٦)، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون ضالون، باغون معتدون^(٧)، ووصفهم الذهبي بأنهم رؤوس شر، وجفاء^(٨)، ووصفهم ابن العماد الحنبلى فى الشذرات بأنهم أراذل من

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١٤/٢٠ - ١٨).

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على للصلابي، ص (١٢٢).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١٤/٢٠ - ١٨).

(٤) العليج : كل جاف شديد من الرجال ، عثمان بن عفان للصلابي، ص (٤٥٠).

(٥) شهيد الدار عثمان بن عفان، ص (١٤٨). (٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٨/١٥).

(٧) منهاج السنة (١٨٩/٢ - ٢٠٦). (٨) دول الإسلام للذهبي (١٢/١).

أوباش القبائل^(١)، ويشهد على هذا الوصف تصرف هؤلاء الرُّعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة رضى الله عنه ظلمًا. وعدوانًا، فكيف يمنع الماء عنه، والطعام وهو الذى طالما دفع من ماله الخاص ما يروى ظمًا المسلمين بالمجان^(٢)، والذى يساهم بأموال كثيرة عندما يلمُّ النَّاسُ مجاعة، أو مكروه، وهو الدائم العطاء عندما يصيب النَّاسُ ضائقة، أو شدة من الشدائد^(٣)، حتى أن عليًّا رضى الله عنه يصف هذا الحال، وهو يؤنب المحاصرين بقوله: يا أيها الناس، إن الذى تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تمنعوا عن هذا الرَّجل الماء، ولا المادة - الطعام - فإن الروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقى^(٤). لقد صحَّت الأخبار وأكّدت حوادث التاريخ على براءة الصحابة من التحريض على عثمان أو المشاركة فى الفتنة ضده^(٥)، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابى تيسير الكريم المنان فى سيرة عثمان ابن عفان^(٦).

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٤٨٢/١)، شذرات الذهب (٤٠/١)

(٢) تيسير الكريم المنان فى سيرة عثمان بن عفان، ص (٤٥٠).

(٣) التمهيد والبيان، ص (٤٢٤).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/٤٠٠).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٨/٢).

(٦) عثمان بن عفان للصَّلايى، ص (٤٥١ - ٤٦٦).

المبحث الثالث

معاوية بن أبى سفيان

فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما

كان معاوية رضى الله والياً على الشام فى عهدى عمر وعثمان رضى الله عنهما، ولما تولى على رضى الله عنه الخلافة أراد عزله - ويبدو أنه كانت هناك ضغوط على على رضى الله عنه من قبل الغوغاء لكى يعزل معاوية، وخصوصاً أن الغوغاء يعرفون معاوية جيداً، والذى جعلنى أقول ذلك أن العلاقة بين على ومعاوية قبل خلافة على، لا يوجد ما يشوبها، بل كانت جيدة، كما أن الغوغاء فيما بعد ضغطوا على أمير المؤمنين على فى عزل قيس بن سعد من مصر، ونجحوا فى ذلك، وترتب على ذلك ضياع مصر، وقد فصلت ذلك فى كتابى أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب، هذا وقد اختار أمير المؤمنين على بدلاً من معاوية عبد الله بن عمر، فأبى عليه عبد الله قبول ولاية الشام واعتذر عن ذلك، وذكر له القرابة والمصاهرة التى بينهما^(١)، ولم يلزمه أمير المؤمنين على وقبل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام، وأما الروايات التى تزعم أن علياً قام بالتهجم على عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - لاعتزاله وعدم وقوفه إلى جانبه، ففى ذلك الخبر تحريف وكذب^(٢).

وأقصى ما وصل إليه الأمر فى قضية عبد الله بن عمر وولاية الشام ما رواه الذهبى من طريق سفيان بن عيينة: عن ابن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: بعث إلى على قال: يا أبا عبد الرحمن، إنك رجل مطاع فى أهل الشام، فسر فقد أمرتك عليهم، فقلت: أذكرك الله وقرابتى من رسول الله ﷺ، وصحبتى إياه، إلا ما أعفيتنى، فأبى على، فاستعنت بحفصة فأبى، فخرجت ليلاً إلى مكة^(٣)، وهذا دليل قاطع على مبايعة ابن عمر، ودخوله فى الطاعة، إذ كيف يوليه على وهو لم يبايع. وفى الاستيعاب، لابن عبد البر من طريق أبى بكر بن أبى الجهم عن ابن عمر أنه قال

(١) المصنف لابن أبى شيبه (٤٧٢/٧) إسناده صحيح. (٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص (١٦٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢٤/٣) رجاله ثقات.

حين احتضر: ما أسى على شىء إلا تركى قتال الفئة الباغية مع على رضى الله عنه^(١)، وهذا مما يدل أيضاً على مبايعته لعلى، وإنه إنما ندم على عدم خروجه مع على للقتال، فإنه كان ممن اعتزل الفتنة، فلم يقاتل مع أحد، ولو كان قد ترك البيعة، لكان ندمه على ذلك أكبر وأعظم، ولصرح به، فإن لزوم البيعة والدخول فيما دخل الناس فيه واجب، والتخلف عنه متوعد عليه برواية ابن عمر نفسه أن النبي ﷺ قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(٢). وهذا بخلاف الخروج للقتال مع على، فإنه مختلف فيه بين الصحابة، وقد اعتزله بعض الصحابة، فكيف يتصور أن يندم ابن عمر على ترك هذا القتال، ولا يندم على ترك البيعة لو كان تاركاً لها، مع ما فيه من الوعيد الشديد، وبهذا يظهر بطلان قول بعض المؤرخين فى زعمهم من ترك ابن عمر البيعة لعلى رضى الله عنه، حيث ثبت أنه كان من المبايعين له بل من المقربين منه، الذين كان يحرص على توليتهم، والاستعانة بهم، لما رأى فيه من صدق الولاء والنصح له^(٣)، وبعد اعتذار ابن عمر عن قبول ولاية الشام، أرسل أمير المؤمنين علىّ سهيل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع^(٤)، وكانت بلاد الشام تغلى غضباً على مقتل عثمان ظلماً وعدواناً.

أولاً: اختلاف الصحابة فى الطريقة التى يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان :

إن الخلاف الذى نشأ بين أمير المؤمنين على من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم من جهة أخرى، ثم بعد ذلك بين على ومعاوية رضى الله عنهما . لم يكن سببه ومنشؤه أن هؤلاء كانوا يقترحون فى خلافة أمير المؤمنين على وإمامته، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين، فقد كان هذا محل إجماع بينهم، قال ابن حزم: ولم ينكر معاوية قط فضل علىّ، واستحقاقه الخلافة، ولكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضى الله عنه على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان^(٥).

(١) الاستيعاب (٣٢٦/٦) بحاشية كتاب الإصابة.

(٢) مسلم، ك الإمامة رقم (١٨٥١). (٣) الانتصار للصحب والآل، ص (٥٠٧).

(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٣٩/٤)، خلافة على، لعبد الحميد، ص (١١٠).

(٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/١٦٠).

وقال ابن تيمية: ومعاوية لم يدع الخلافة، ولم يبائع له بها حين قاتل علياً، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقرُّ بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا علياً وأصحابه بالقتال، ولا فعلوا^(١)، وقال أيضاً: وكل فرقة من المتشيعين مقرّة مع ذلك بأن معاوية ليس كفوّاً لعلي بالخلافة، ولا يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي، فإن فضل علي وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة، كفضل إخوانه أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم^(٢).

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحاً في خلافة أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وإنما اختلافهم في قضية الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم يكن خلافهم في أصل المسألة، وإنما في الطريقة التي تعالج بها هذه القضية، إذ كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه موافقاً من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وإنما كان رأيه أن يرجىء الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع، وهدوء الأمور، واجتماع الكلمة، وهذا هو الصواب^(٣)، قال النووى: وأعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته، وقاتل الباغى عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدتهم وقاتل الباغى عليه، وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم، لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين، وأن الحق معه، لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه^(٤).

(٢) المصدر نفسه (٧٢/٣٥).

(١) مجموع الفتاوى (٧٢/٣٥).

(٣) شرح النووى على صحيح مسلم (١٤٩/١٥).

(٤) أحداث وأحاديث فتنه الهرج، ص (١٥٨).

ثانياً: معركة صفين (٣٧هـ):

- تسلسل الأحداث التي قبل المعركة:

١ - أم حبيبة بنت أبي سفيان، ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام:

لما قُتل عثمان رضى الله عنه أرسلت أم المؤمنين، أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى أهل عثمان: أرسلوا إليّ بثياب عثمان التي قُتل فيها، فبعثوا إليها بقميصه مضرّجاً بالدم، وبخصلة الشعر التي نتفت من لحيته، ثم دعت النعمان بن بشير، فبعثته إلى معاوية، فمضى بذلك وبكتابها^(١).

وجاء فى رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها^(٢)، وكانت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوج عثمان كلبية شامية^(٣)، فورد النعمان على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع فى كم القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله، وحث بعضهم بعضاً على الأخذ بثأره^(٤)، وجاء شرحبيل بن السمط الكندى وقال لمعاوية: كان عثمان خليفتنا، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا^(٥). وألى رجال الشام ألاّ يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش، حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم^(٦)، وكان ذلك ما يريده معاوية، فقد كانت الصورة التي نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام كانت بشعة: مقتل الخليفة، سيوفاً مصلتة من الغوغاء على رقاب الناس بالمدينة، بيت المال منتهك مسلوب، وأصابع نائلة مقطوعة، فهاجت النفوس والعواطف، واهتزت المشاعر، وتأثرت بها القلوب، وذرفت منها العيون. ولذلك كان إصرار معاوية ومن معه من أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، وتسليم القتلة للقصاص قبل البيعة. وهل تتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد

(١) تاريخ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص (٥٣٩). (٢) البداية والنهاية (٥٣٩/٧).

(٣) تاريخ الدعوة الإسلامية لمحمد جميل، ص (٣٩٨). (٤) البداية والنهاية (٥٣٩/٧) سندها ضعيف.

(٥) الأنساب (٤١٨/٤)، تاريخ الدعوة الإسلامية ص (٣٩٨).

(٦) تاريخ الطبرى (٦٠٠/٥).

المسلمين من حاقدين محتالين متآمرين، ولا يتماوج العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة^(١)؟

٢- دوافع معاوية رضى الله عنه فى عدم البيعة:

كان معاوية رضى الله عنه والياً على الشام فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما، ولما تولى الخلافة على رضى الله عنه أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، فاعتذر ابن عمر، فأرسل على سهل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كان يصل مشارف الشام - وادى القرى - حتى عاد من حيث جاء، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهرى، فقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيها بك وإن كان بعثك غيره فارجع^(٢)، لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتصّ على رضى الله عنه من قتلة عثمان رضى الله عنه ثم يدخلون البيعة^(٣)، وقالوا: لا نبايع من يأوى القتلة^(٤). وتخوفوا على أنفسهم من قتلة عثمان رضى الله عنه الذين كانوا فى جيش على، فرأوا أن البيعة لعلى لا تجب عليهم قبل القصاص، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قتل مظلوماً باتفاق المسلمين، وقتلته فى عسكر على، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان، وكان معاوية رضى الله عنه يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه، فهو ولى دمه، والله يقول: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قتل مظلوماً على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام، إذ سفكوه فى الشهر الحرام فى البلد الحرام، فثار الناس، واستنكروا وعلت الأصوات، وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقام أحدهم واسمه مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت: «... وذكر الفتن وقربها، فمر رجل متنعق فى ثوب، فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقامت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: نعم»^(٥).

(١) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان، ص (١٧٨ - ١٨٣). (٢) تاريخ الطبرى (٤٦٦/٥).

(٣) البداية والنهاية (١٢٩/٧). (٤) العواصم من القواصم، ص (١٦٢).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٤٠).

وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قتلة عثمان، وكان منشطاً ودافعاً قوياً للتصميم على تحقيق الهدف، وهو: عن النعمان بن بشير عن عائشة رضی الله عنهما قالت: أرسل رسول الله ﷺ . . فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه، فقال: يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني ثلاثاً، فقلت لها: يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيت والله ما ذكرته، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته، حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبى إلى به، فكتبت إليه كتاباً^(١).

لقد كان الحرص الشديد في تنفيذ حكم الله في القتل السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب رضی الله عنهما، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة، وليست لأطماع معاوية في ولاية الشام فضلاً عن طلبه للخلافة، إذ كان يدرك إدراكاً تاماً أن هذا الأمر في بقية الستة من أهل الشورى، وأن علياً أفضل منه وأولى بالأمر منه^(٢)، فعن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إنني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، والطالب بدمه، فأتوه، فقولوا له، فليدفع إلى قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا علياً فكلموه، فلم يدفعهم إليه^(٣).

وأما ما شاع بين الناس قديماً وحديثاً أن الخلاف بين علي ومعاوية رضی الله عنهما كان سببه طمع معاوية في الخلافة، وأن خروج هذا الأخير على علي وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام، فهذه روايات لا تصح ولا تثبت، فقد جاء في كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري، وهو لا يثبت له، وإنما صاحبه ذو أنفاس شيعية رافضية، فقد ذكر أن معاوية ادعى الخلافة، وذلك من خلال الرواية التي ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبي موسى الأشعري رضی الله عنه: اعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأنا أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة فإن صدقك فقد حلّ خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه^(٤)، وهذا

(١) مسند أحمد رقم (٢٤٠٤٥) حديث صحيح.

(٢) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد، ص (١١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/١٤٠)، رجاله ثقات وإسناده جيد.

(٤) الإمامة والسياسة (١/١١٣).

كلام لا يثبت عن أمير المؤمنين على وإنما من كلام الشيعة الروافض، وسيأتي الحديث عن كتاب الإمامة والسياسة وبيان كذبه وزوره ودوره في تشويه حقائق التاريخ في موضعه بإذن الله، وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب بالروايات الموضوعة والضعيفة التي تزعم أن معاوية اختلف مع على من أجل الملك والزعامة والإمارة^(١). والصحيح أن الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما كان حوله مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعلى قبل توقيع القصاص على قتلة عثمان أو بعده، وليس هذا في أمر الخلافة في شيء، فقد كان رأى معاوية رضى الله عنه، ومن حوله من أهل الشام أن يقتص على رضى الله عنه من قتلة عثمان، ثم يدخلون بعد ذلك في البيعة^(٢)، يقول القاضى ابن العربى أن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين المواقف بينهما: فهؤلاء - أى أهل العراق - يدعون إلى على بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء - أى أهل الشام - يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان ويقولون: لا نبايع من يؤوى القتلة^(٣)، ويقول إمام الحرميين فى «لمع الأدلة»: إن معاوية وإن قاتل على، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظاناً منه أنه مصيب، وكان مخطئاً^(٤). ويقول الهيثمى: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أن ما جرى بين معاوية وعلى رضى الله عنهما من الحروب، لم يكن لمنازعة معاوية لعلى فى الخلافة؛ للإجماع على أحقيتها لعلى، فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية طلب تسليمه قتلة ابن عمه فامتنع على^(٥)، لقد تضافرت الروايات وأشارت إلى أن معاوية رضى الله عنه اتخذ موقفه للمطالبة بدم عثمان، وأنه صرح بدخوله فى طاعة على رضى الله عنه إذا أقيم الحد على قتلة عثمان، ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال على وطمعاً فى السلطة، فماذا سيحدث لو تمكن على من إقامة الحد على من قتلة عثمان؟ حتماً ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلى ومبايعته له، لأنه التزم بذلك فى موقفه من تلك الفتنة، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان، على أن

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١٤٥/٢). (٢) البداية والنهاية (١٢٩/٨)، فتح البارى (٩٢/١٣).

(٣) العواصم من القواصم، ص (١٦٢). (٤) لمع الأدلة فى عقائد أهل السنة والجماعة، ص (١١٥).

(٥) الصواعق المحرقة (٦٢٢/٢)، هذا هو اجتهاد معاوية، وإن كان الصواب هو أن يسلم معاوية ويطلب

بالدعوة للقصاص.

معاوية إذا كان يخفى فى نفسه شيئاً آخر لم يعلن عنه، سيكون هذا الموقف بالتالى مغامرة، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع^(١).

إن معاوية رضى الله عنه كان من كتّاب الوحى، ومن قادة الصحابة، وأكثرهم حلمًا، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعى، ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟ وهو القائل: والله لا أخير بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه^(٢)، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به»^(٣)، وقال: «اللهم علمه الكتاب وقه العذاب»^(٤). وأما وجه الخطأ فى موقفه من مقتل عثمان رضى الله عنه، فيظهر فى رفضه أن يبايع لعلّى رضى الله عنه قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء، وحرصهم على قتله، بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم، إن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، بل يدخل فى الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم، ويطلب الحق عنده^(٥)، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد ويأخذ حقه دون السلطان، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر، لأن ذلك يفضى إلى الفتنة وإشاعة الفوضى^(٦). ويمكن القول: إن معاوية رضى الله عنه كان مجتهدًا، متأولًا يغلب ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيبًا فى أهل الشام بعد أن جمعهم وذكرهم أنه ولى عثمان - ابن عمه - وقد قُتل مظلومًا، وقرأ عليهم الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. ثم قال: أنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان، فقام أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفنى الله أرواحهم^(٧).

وإذا قارنًا بين طلحة والزبير رضى الله عنهما، ومعاوية لاحظنا أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية رضى الله عنه ومن معه من أربعة أوجه؛ كان أولها: مبايعتهما

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥٠).

(٢) صحيح سنن الترمذى للألبانى رقم (٣٠١٨) (٣/ ٢٣٦).

(٣) فضائل الصحابة (٢/ ٣١٩) إسناده حسن.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥١).

(٥) تفسير القرطبي (٢/ ٢٥٦).

(٦) صفين لابن مزاحم، ص (٣٢)، تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥٢).

لعلّى رضى الله عنه طائعين مع اعترافهما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفاً بفضله^(١). والثانى: منزلتهما فى الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معاوية ولاشك أن معاوية دونهما فيها^(٢). الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط، ولم يتعمدا محاربة على ومن معه فى وقعة الجمل^(٣)، بينما أصر معاوية على حرب على ومن معه فى صفين^(٤)، والرابع: لم يتهما علياً بالهودة فى أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك^(٥). ونضيف نقطة خامسة: أن طلحة والزبير اقتنعا بصواب موقف على ودخلا فى الطاعة عندما اتفقا مع القعقاع بن عمرو إنما الحرب بإثارة الغوغاء والسبئية لها .

٣- معاوية يرد على أمير المؤمنين على رضى الله عنهما:

بعث على رضى الله عنه كتباً كثيرة إلى معاوية، فلم يرد عليه جوابها، وتكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان رضى الله عنه فى صفر، ثم بعث معاوية طُوماراً^(٦) مع رجل، فدخل به على على رضى الله عنه، فقال له على: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود^(٧)، كلهم موتور^(٨)، تركت ستين ألف شيخ يكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال على: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. ثم خرج رسول معاوية من بين يدي على، فهم به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد^(٩).

٤ - تجهيز أمير المؤمنين على لغزو الشام:

بعد وصول رد معاوية لأمر المؤمنين على رضى الله عنهما عزم الخليفة على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبى موسى الأشعري بالكوفة، وبعث إلى عثمان بن حنيف بالبصرة بذلك، وخطب

(١) البداية والنهاية (١٢٩/٨)، وفتح البارى (٩٢/١٣).

(٢) كان طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١١٣/٢)، تاريخ الطبرى (٤٧٥/٥) .

(٤) تاريخ الطبرى (٦١٢/٥ - ٦١٥) .

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١٣٩/٢) ، البداية والنهاية (٢٥٩/٧) .

(٦) الطومار: الصحيفة .

(٧) القود: القتل بالقتيل .

(٨) الموتور: صاحب الثأر .

(٩) البداية والنهاية (٢٤٠/٧).

الناس فحثهم على ذلك، وعزم على التجهز وخرج من المدينة، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج عن أمره، ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسين رضى الله عنهما فقال: يا أبتِ دع هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقع الاختلاف بينهم، فلم يقبل منه ذلك، بل صمم على القتال، ورتّب الجيش، فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية، وجعل ابن عباس على اليمين، وعمر بن أبى سلمة على المسيرة وقيل: جعل على المسيرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبى ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخ أبى عبيدة، واستخلف على المدينة قثم ابن العباس، ولم يبق شىء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً الشام، جاءه ما يشغله عن ذلك^(١)، وقد تمّ تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم إلى البصرة إلى معركة الجمل، فليرجع إليه فى كتاب «أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب»^(٢).

٥ - إرسال أمير المؤمنين على جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل:

ذكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين على إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يسمى البصرة، أو معركة الجمل، خمسة أشهر وواحد وعشرون يوماً، وبين دخوله الكوفة شهر، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر^(٣)، وروى شهران أو ثلاثة^(٤)، وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له: انزل بالقصر الأبيض: فقال: لا، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكره لذلك، فنزل فى الرحبة وصلى بالجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس فحثهم على الخير، ونهاهم عن الشر، ومدح أهل الكوفة فى خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله، وكان على همدان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هنالك ثم يقبلان إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد على أن يبعث إلى معاوية يدعو إلى بيعته، قال جرير بن عبد الله البجلي: أنا ذاهب إليه يا أمير المؤمنين، فإنّ بينى وبينه وداً، فأخذ لك البيعة منه، فقال الأشتر: لا تبعه يا أمير

(٢) على بن أبى طالب للصّلىبى (١/٤٩٨ - ٦٢٤) .

(١) البداية والنهاية (٧/٢٤٠ ، ٢٤١) .

(٤) التاريخ الصغير للبخارى (١/١٠٢) .

(٣) مروج الذهب (٢/٣٦٠) .

المؤمنين، فإنني أخشى أن يكون هواه معه. فقال علي: دعه، فبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلما انتهى إليه جرير بن عبد الله، أعطاه الكتاب، وطلب معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام، فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم. فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال الأشر: ألم أنك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً؟ فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشر: والله لو بعثتني لم يعينى جواب معاوية، ولأعجلته عن الفكرة، ولو أطاعنى فيك أمير المؤمنين، لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة. فقام جرير مغضباً فأقام بقرقيسياء وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه^(١). وهكذا كان الأشر سبباً في إبعاد الصحابي جرير بن عبد الله، الذى كان والياً على قرقيسياء وعلى غيرها، ورأساً في قبيلته بجيلة، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين على، وهذا الصحابي جرير بن عبد الله البجلي قال: ما رأتى رسول الله ﷺ إلا تبسم فى وجهى، وقال ﷺ: «يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذى يمن، على وجهه مسحة ملك»^(٢).

٦ - مسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام:

استعد أمير المؤمنين على لغزو الشام، فبعث يستنفر الناس، وجهز جيشاً ضخماً، اختلفت الروايات فى تقديره، وكلها روايات ضعيفة^(٣)، إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار فى خمسين ألفاً^(٤)، وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخلة^(٥)، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك، فتوافدت عليه القبائل من شتى إقليم العراق^(٦)، واستعمل أمير المؤمنين على رضى الله عنه أبا مسعود

(١) البداية والنهاية (٧/٢٦٥).

(٢) مسلم رقم (٢٤٧٥).

(٣) أسى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢/٦٣٠).

(٤) تاريخ خليفة، ص (١٩٣) بسند حسن.

(٥) النخلة: موقع قرب الكوفة من جهة الشام، معجم البلدان (٥/٢٧٨).

(٦) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص (١٨٨).

الأنصارى، وبعث من النخيلة زياد بن النضر الحارثى طليعة فى ثمانية آلاف مقاتل، وبعث شريح بن هانئ فى أربعة آلاف، ثم خرج على رضى الله عنه بجيشه إلى المدائن (بغداد) فانضم إليه من فيها من المقاتلة، وولى عليها سعد بن مسعود الثقفى، ووجه منها طليعة فى ثلاثة آلاف إلى الموصل^(١)، وسلك على رضى الله عنه طريق الجزيرة الرئيسى على شط الفرات الشرقى حتى بلغ قرب قرقيساء^(٢)، فأنته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم على رضى الله عنه إلى الرقة^(٣)، وعبر منها الفرات غرباً ونزل على صفين^(٤).

٧- خروج معاوية إلى صفين:

كان معاوية جاداً فى مطاردة قتلة عثمان رضى الله عنه فقد استطاع أن يترصد بجماعة ممن غزا المدينة من المصريين أثناء عودتهم وقتلهم ومنهم: أبو عمرو بن بديل الخزاعى^(٥)، ثم كانت له أيد فى مصر، وشيعة فى أهل «خربتا» تطالب بدم عثمان رضى الله عنه، وقد استطاعت هذه الفرقة من إيقاع الهزيمة بمحمد بن أبى حذيفة فى عدة مواجهات عام ٣٦هـ، كما استطاع أيضاً أن يوقع برؤوس مدبرى ومخططى غزو المدينة من المصريين مثل عبد الرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر، ومحمد بن حذيفة، فحبسهم فى فلسطين، وذلك فى الفترة التى سبقت خروجه إلى صفين، ثم قتلهم فى شهر ذى الحجة عام ٣٦هـ^(٦)، وعندما علم معاوية بتحرك جيش العراق نحو صفين جمع مستشاريه من أعيان أهل الشام، وخطب فيهم وقال: إن علينا نهد إليكم فى أهل العراق.. فقال ذو الكلاع الحميرى: عليك أم رأى وعلينا أم فعال^(٧). وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب بدم عثمان رضى الله عنه والقتال^(٨)، وقد قام عمرو بن العاص رضى الله عنه بتجهيز الجيش وقاد الألوية، وقام فى الجيش خطيباً يحرضهم، فقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا

(١) تاريخ الطبرى (٦٠٣/٥) بسند منقطع .

(٢) قرقيساء: بلد يقع على نهر الخابور عند مصبه فى الفرات، معجم البلدان (٣٢٨/٤) .

(٣) الرقة: مدينة مشهورة - فى سوريا اليوم - على نهر الفرات الشرقى، معجم البلدان (١٥٣/٣) .

(٤) تاريخ الطبرى (٦٠٤/٥) .

(٥) المحن لأبى العرب التميمى، ص (١٢٤)، خلافة على، لعبد الحميد، ص (١٩١) .

(٦) خلافة على، لعبد الحميد، ص (١٩١) .

(٧) الإصابة (٤٨٠/١)، خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (١٩٢) .

(٨) أنساب الأشراف (٥٢/٢) بسند منقطع، وخلافة على، ص (١٩٢) .

شوكتهم، وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصرة المخالفين لعلى قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صنائدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شردمة قليلة ومنهم من قد قتل خليفتمكم، فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تبطلوه^(١). وسار معاوية في جيش ضخم، اختلفت الروايات في تقديره، وكلها روايات منقطعة أسانيدھا، وهى عين الروايات التى قدرت جيش على رضى الله عنه، فقدر بمائة وعشرين ألفاً^(٢)، وقدر بسبعين ألف مقاتل، وقدر بأكثر من ذلك بكثير إلا أن الأقرب للصواب أنهم ستون ألف مقاتل، فهى وإن كانت منقطعة الإسناد إلا أن راويها صفوان بن عمرو السكسى، حمصى من أهل الشام ولد عام «٥٧٢هـ»، وهو ثبت ثقة، وقد أدرك خلق ممن شهد صفين، كما تبين من دراسة ترجمته^(٣)، والإسناد إليه صحيح^(٤)، وكان قادة جيش معاوية على النحو التالى: عمرو بن العاص، على خيول أهل الشام كلها، والضحاك بن قيس على رجاله الناس كلهم، وذو الكلاع الحميرى على ميمنة الجيش، وجبيب بن مسلمة على ميسرة الجيش، وأبو الأعور السلمى على المقدمة، هؤلاء هم القادة الكبار وتحت كل قائد من هؤلاء قادة وزعوا على حسب القبائل، وكان هذا الترتيب عند سيرهم إلى صفين، ولكن أثناء الحرب تغير بعض القادة، وظهر قادة آخرون مما اقتضته الظروف، ولعل هذا يكون السبب فى اختلاف أسماء القادة فى بعض المصادر^(٥). وبعث معاوية أبا الأعور السلمى مقدمة للجيش، وكان خط سيرهم إلى الشمال الشرقى من دمشق، ولما بلغ صفين أسفل الفرات، عسكر فى مكان سهل فسيح، إلى جانب شريعة ماء فى الفرات، ليس فى ذلك المكان شريعة غيرها وجعلها فى حيزه^(٦).

٨ - القتال على الماء:

وصل جيش على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى صفين، حيث عسكر معاوية، ولم يجد موضعاً فسيحاً سهلاً يكفى الجيش، فعسكر فى موضع وعرة نوعاً ما إذ أغلب الأرض صخور ذات كدى وأكمام^(٧)، ففوجيء جيش العراق

(١) تاريخ الطبرى (٦٠١/٥) بسند منقطع.

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (١٩٤)، المعرفة والتاريخ (٣/٣١٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/٣٨٠). (٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (١٩٤).

(٥) امتداد العرب فى صدر الإسلام، صالح العلى، خلافة على، ص (١٩٤).

(٦) صفين لنصر بن مزاحم، ص (١٦٠، ١٦١). (٧) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص (١٩٦).

بمنع معاوية عنهم الماء، فهرع البعض إلى على رضى الله عنه يشكون إليه هذا الأمر، فأرسل على إلى الأشعث بن قيس فخرج في ألفين، ودارت أول معركة بين الفريقين، انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء^(١)، إلا أنه قد وردت رواية تنفى وقوع القتال من أصله مفادها: أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ! هبوا إنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذراري؟ إن الله يقول: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] قال معاوية: فما تريد؟ قالوا: خلوا بيننا وبين الماء، فقال لأبى الأعرور: خل بين إخواننا وبين الماء^(٢).

وقد كان القتال على الماء في أول يوم تواجهها فيه في بداية شهر ذى الحجة فاتحة شر على الطرفين من المسلمين، إذ استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة، فكان على رضى الله عنه يخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمر عليها أميراً، فيقتلان مرة واحدة في اليوم في الغداة أو العشي، وفي بعض الأحيان يقتتلان مرتين في اليوم، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتائب في جيش على الأشر، وحجر بن عدى، وشبث بن ربعى، وخالد بن المعتمر، ومعقل بن يسار الرياحى، ومن جيش معاوية أغلب من يخرج؛ حبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو الأعرور السلمى، وشرحيل بن السمط، وقد تجنّبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك والاستئصال، وأملاً في وقوع صلح بين الطرفين تصان به الأرواح والدماء^(٣).

٩ - المودعة بينهما ومحاولات الصلح:

ما إن دخل شهر المحرم، حتى بادر الفريقان إلى المودعة والهدنة، طمعاً في صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر في المراسلات بينهم ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة - شهر المحرم - وردت من طرق ضعيفة^(٤)، مشهورة، إلا أن

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٢٩٤/١٥) بسند حسن .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤١/٢)، مرويات أبى مخنف، ص (٢٩٦).

(٣) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص (١٩٧، ١٩٨)، تاريخ الطبرى (٦١٤/٥)، البداية والنهاية (٢٦٦/٧).

(٤) تاريخ الطبرى (٦١٢/٥، ٦١٣)، خلافة على بن أبى طالب، ص (١١٩).

ضعفها لا ينفي وجودها. كان البادئ بالمراسلة، أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه، فأرسل بشير بن عمرو الأنصارى، وسعيد بن قيس الهمداني وشبت ابن ربيعى التميمى إلى معاوية رضى الله عنه يدعوهم كما دعاه من قبل إلى الدخول فى الجماعة والمبايعة فرد معاوية عليه برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولاً، ثم يدخل فى البيعة، وقد تبين لنا موقف على من هذه القضية^(١)، كما أن قراء الفريقين قد عسكروا فى ناحية من صفين، وهم عدد كبير، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما، فلم تنج تلك المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه^(٢). وقد حاول اثنان من الصحابة وهما أبو الدرداء، وأبو أمامة رضى الله عنهما الصلح بين الفريقين، فلم تنجح مهمتهما، فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما^(٣)، وكذلك حضر مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين وخطب الناس فى محاولة منه لرأب الصدع بينهم، فقال: أيها الناس أنصتوا، ثم قال: أرايتم لو أن منادياً ناداكم من السماء فسمعتم كلامه وأرايتموه فقال: إن الله ينهاكم عما أنتم فيه، أكنتم مطيعيه، قالوا: نعم، قال: فوالله لقد نزل بذلك جبرائيل على محمد. . . فما زال يأتى من هذا. ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ثم انساب فى الناس فذهب^(٤). وقد انتقد ابن كثير التفصيلات الطويلة التى جاءت فى روايات أبى مخنف ونصر بن مزاحم، بخصوص المراسلات بين الطرفين فقال: . . . ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين على، وفى صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن فى مطاوى ذلك الكلام من على ما ينتقص فيه معاوية وأباه، وأنهم إنما دخلا فى الإسلام ولم يزالا فى تردد فيه، وغير ذلك، وأنه قال فى غضون ذلك: لا أقول إن عثمان قُتل مظلوماً ولا ظالماً، وهذا عندى لا يصح من على رضى الله عنه^(٥). وموقف على رضى الله عنه من قتل عثمان رضى الله عنه واضح، وقد بيته فى كتابى عن عثمان بن عفان رضى الله عنهما وفى هذا الكتاب.

(١) تاريخ الطبرى (٥/٦١٣)، خلافة على بن أبى طالب، ص (١٩٩).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٦١٤).

(٣) البداية والنهاية (٧/٢٧٠).

(٤) الطبقات (٦/٧٨)، القراء ودورهم فى الحياة العامة فى صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادى حسين حمود.

(٥) البداية والنهاية (٧/٢٦٩).

ثالثاً : نشوب القتال :

عادت الحرب على ما كانت عليه فى شهر ذى الحجة من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية، خشية الالتحام الكلى إلى أن مضى الأسبوع الأول منه، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة، وذكر أنها تسعون^(١)، إلا أن علياً أعلن فى جيشه أن غداً الأربعاء سيكون الالتحام الكلى لجميع الجيش، ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك^(٢)، فثار الناس فى تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها، وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه، وهو يحرض الناس على الاستيسال فى القتال^(٣)، وبات جميع الجيش فى مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية^(٤).

١ - اليوم الأول :

أصبح الجيشان فى يوم الأربعاء قد نظمت صفوفهم، ووزعوا حسب التوزيع المتبع فى المعارك الكبرى، قلب، وميمنة، وميسرة، فكان جيش على رضى الله عنه على النحو التالى^(٥) : على بن أبى طالب على القلب، وعبد الله بن عباس على الميسرة، وعمّار بن ياسر على الرجالة، ومحمد بن الحنفية حامل الراية، وهشام بن عتبة (المرقال) حامل اللواء، والأشعث بن قيس على الميمنة. وأما جيش الشام، فمعاوية فى كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع وهو أمير الجيش، وعمرو بن العاص قائد خيل الشام كلها، وذو الكلاع الحميرى على الميمنة على أهل اليمن، وحبيب بن مسلمة الفهرى على الميسرة على مضر، والمخارق بن الصباح الكلاعى حامل اللواء^(٦)، وتقابلت الجيوش الإسلامية ومن كثرتها قد سدت الأفق، ويقول كعب بن جعيل التغلبى أحد شعراء العرب^(٧)، وذلك عندما رأى الناس فى ليلة الأربعاء وقد وثبوا إلى نبالهم وسيوفهم يصلحونها استعداداً لهذا اليوم :

(١) الأبناء بتواريخ الخلفاء، ص (٥٩)، شذرات الذهب (١/٤٥).

(٢) البداية والنهاية (٧/٢٧٣).

(٣) سنن سعيد بن منصور (٢/٢٤٠) ضعيف.

(٤) على بن أبى طالب للصّلايى (٢/٦٣٥).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٩٣)، بسند حسن إلى شاهد عيان.

(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٣).

(٧) الأعلام للزركلى (٦/١٨٠).

أصبحت الأمة في أمر عجب والمملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب^(١)

وتذكر بعض الروايات الضعيفة أن علياً خطب في جيشه، وحرصهم على الصبر والإقدام والإكثار من ذكر الله^(٢)، وتذكر أيضاً أن عمرو بن العاص، قد استعرض جيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقامتها^(٣)، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها، لأن كل قائد يحرص جيشه ويحمسه، ويهتم بكل ما يؤدي به إلى النصر. والتحم الجيشان في قتال عنيف، استمر محتدماً إلى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصلاة، يصلى كل فريق في معسكره وبينهما جثث القتلى في الميدان تفصل بينهما، وسأل أحد أفراد جيش علي رضى الله عنه حين انصرافه من الصلاة، فقال: ما تقول في قتالنا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة^(٤). وقد صبر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحداً، ولم ير مولياً حتى انتهى ذلك اليوم. وفي المساء خرج علي رضى الله عنه إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام، فدعا ربه قائلاً: اللهم اغفر لى ولهم^(٥).

٢ - اليوم الثاني:

في يوم الخميس تذكر الروايات أن علياً رضى الله عنه قد غلس بصلاة الفجر واستعد للهجوم، وغير بعض القيادات، فوضع عبد الله بن بديل الخزاعي على الميمنة بدلاً من الأشعث بن قيس الكندى الذى تحول إلى الميسرة^(٦)، وزحف الفريقان نحو بعضهما، واشتبكوا في قتال عنيف أشد من سابقه، وبدأ أهل العراق في التقدم، وأظهروا تفوقاً على أهل الشام واستطاع عبد الله بن بديل أن يكسر ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة، ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء) وأظهر شجاعة وحماساً منقطع النظير، وصاحب هذا التقدم الجزئى، تقدم عام لجيش

(١) البداية والنهاية (٢٧٣/٧)، تاريخ الطبرى (٦٢٦/٥).

(٢) تاريخ الطبرى (٦٢٢/٥) من طريق أبى محنف . (٣) الطبقات (٢٥٥/٤) من طريق الواقدى .

(٤) سنن سعيد بن منصور (٣٤٤/٢، ٣٤٥) بسند ضعيف .

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (٢٩٧/١٥) بسند صحيح . (٦) تاريخ الطبرى (٦٣٠/٥) .

العراق، حتى أن معاوية، قد حدثته نفسه بترك ميدان القتال، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أبت لى عفتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإكراهى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى^(١)

واستحث كتيبته الشهباء، واستطاعوا قتل عبد الله بن بديل، فأخذ مكانه فى قيادة الميمنة الأشتر، وتماسك أهل الشام وبايعوا بعضهم على الموت، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة، وقتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع، وحوشب، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما. وانقلب الأمر لجيش الشام، وأظهر تقدماً، وبدأ جيش العراق فى التراجع، واستحر القتل فى أهل العراق، وكثرت الجراحات، ولما رأى على جيشه فى تراجع، أخذ يناديهم ويحمسهم، وقاتل قتالاً شديداً واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت فيهم الحمية وبايعوا أميرهم خالد بن المعمر على الموت وكانوا أهل قتال^(٢).

وكان عمّار بن ياسر رضى الله عنه قد جاوز الرابعة والتسعين عاماً، وكان يحارب بحماس، يحرض الناس، ويستنهض الهمم، ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام، فنهاه عمار عن ذلك وقال: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهانا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة^(٣).

ولما رأى عمار رضى الله عنه تقهقر أصحابه، وتقدم خصومه، أخذ يستحثهم، ويبين لهم أنهم على الحق ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة، فيقول رضى الله عنه: من سره أن تكتنفه الحور العين فليقدم بين الصفيين محتسباً، فإنى لأرى صفاً يضربكم ضرباً يرتاب منه المبطلون، والذي نفسى بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل، ولعلمنا أن مصلحينا على

(١) تاريخ الطبرى (٦٣٦/٥).

(٢) الإصابة (٤٥٤/١)، أنساب الأشراف (٥٦/٢) بسند حسن إلى قتادة.

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (٢٩٠/١٥) الإسناد حسن لغيره.

الحق وأنهم على الباطل^(١)، ثم أخذ في التقدم، وفي يده الحربة ترعد لكبير سنه- ويشد على حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ويستحثه في التقدم ويرغبه ويطمعه فيما عند الله من النعيم، ويطمع أصحابه أيضاً فيقول: أذفت الجنة وازينت الحور العين، من سره أن تكتفه الحور العين، فليستقدم بين الصفين محتسباً. وكان منظرًا مؤثراً فهو صحابي جليل مهاجرى بدرى جاوز الرابعة والتسعين يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت، فكان عاملاً هاماً من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية مما زادهم عنفاً وضراوة وتضحية في القتال حتى استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم، وتقدم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو يرتجز بقوله:

أعور يبغي أهله مَحَلًّا قد عالج الحياة حتى ملأً
لا بد أن يَفُلَّ أو يُفَلَّ^(٢)

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت فى أطراف الأسل^(٣)، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين.

اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه^(٤)

وعند غروب شمس ذلك اليوم (الخميس)، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لى: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»^(٥). ثم تقدم واستحث معه حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهرى فلم يرجعا وقتلا^(٦)، رحمهما الله ورضى الله عنهما.

٣- ليلة الهيرير ويوم الجمعة:

عادت الحرب فى نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة، وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وقاتل

(١) مجمع الزوائد (٢٤٣/٧)، خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢١٩) إسناده حسن.

(٢) تاريخ الطبرى (٦٥٢/٥).

(٤) تاريخ الطبرى (٦٥٢/٥).

(٥) مصنف ابن أبى شيبه (٣٠٢/١٥، ٣٠٣)، بسند منقطع. (٦) تاريخ الطبرى (٦٥٢/٥).

أمير المؤمنين على قتالاً شديداً وبائع على الموت^(١)، وذكر أن علياً رضى الله عنه صلى بجيشه المغرب صلاة الخوف^(٢)، وقال الشافعى: وحفظ عن علي أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير^(٣)، يقول شاهد عيان: اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاثة ليالى حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسابقة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نعائق بعضنا بعض، ولما صارت السيوف كالمناجل تضاربنا بعمد الحديد، فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم، ثم ترامينا بالحجارة وتحاينا بالتراب، وتعاضينا بالأسنان، وتكادنا بالأفواه إلى أن أصبحوا فى يوم الجمعة وارتفعت الشمس، وإن كانت لا ترى من غبار المعركة، وسقطت الألوية والرايات، وأنهك الجيش التعب وكلت الأيدى وجفت الحلوق^(٤).

ويقول ابن كثير فى وصف ليلة الهرير ويوم الجمعة: وتعاضوا بالأسنان، يقتل الرجلان حتى يثخنا، ثم يجلسان يستريحان وكل واحد منهما ليهمر على الآخر، ويهمر عليه، ثم يقومان فيقتلان كما كانا، فإننا لله وإننا إليه لراجعون، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك، وصلى الناس الصبح إيمانهم فى القتال حتى تضاحى النهار وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام^(٥).

٤ - الدعوة إلى التحكيم:

إن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيد قتال، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة أصحابه ليلة الهرير فقال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى، وما قد فنى فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيتم مثل هذا قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن توافقنا غداً إنه لفناء العرب، وضیعة الحرمات، أما والله

(١) المستدرک (٤٠٢/٣) قال الذهبى: ضعيف، خلافه على، ص (٢٢٦).

(٢) سنن الكبرى للبيهقى (٢٥٢/٣) قال الألبانى: رواه البيهقى بصيغة التمریض، إرواء الغلیل (٤٢/٣).

(٣) تلخیص الحیبر (٧٨/٢)، خلافة على بن أبى طالب، ص (٢٢٧).

(٤) شذرات الذهب (٤٥/١)، وقعة صفین، ص (٣٦٩).

(٥) البداية والنهاية (٧/٢٨٣).

ما أقول هذه المقالة جزءاً من الحرب، ولكنى رجل مسن، وأخاف على النساء والذراري غداً إذا نحن فنيناً، اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل دينى فلم آل^(١).

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلن أهل فارس على أهل العراق وذرايهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا^(٢)، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمر بن العاص ولا للمخادعة والاحتيال، وإنما كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرو بشيء أن تأتى أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك، وينقذ ما تبقى من قوى الأمة المتصارعة، إنما يزعج ذلك أعداء الأمة الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة، وتركوا لنا ركائماً من الروايات المضللة بشأنها، تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل كالمناداة بتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة جريمة ومؤامرة^(٣) وحيلة، ونسبوا لأمير المؤمنين على أقوالاً مكذوبة تعارض ما فى الصحيح على أنه قال: (إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة)^(٤)، ومن الشنائم قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة^(٥)، ووسّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص -رضى الله عنه- حتى لم تعد تجد كتاباً من كتب التاريخ إلا فيه انتقاص لعمر بن العاص، وأنه مخادع وماكر بسبب الروايات الموضوعية التى لفقها أعداء الصحابة الكرام، ونقلها الطبرى، وابن الأثير وغيرهما، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن فى تاريخ الإسلام، ومحمد الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، وعبد الوهاب النجار فى تاريخ الخلفاء الراشدين وغيرهم كثير، مما ساهم فى تشويه الحقائق التاريخية الناصعة.

(٢) المصدر نفسه، ص (٤٨١ - ٨٨٤).

(١) وقعة صفين للمتفرى، ص (٤٧٩).

(٣) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣١٦).

(٥) المصدر نفسه، (٥/٦٦٢، ٦٦٣).

(٤) الكامل (٢/٣٨٦).

إن رواية أبي مخنف تفترض أن علياً رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء، الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد^(١)، وهذه الرواية تحمل سباً من على لمعاوية وصحبه يتنزه عنه أهل ذاك الجيل المبارك، فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين على، ويكفى للرواية سقوطاً أن فيها أبا مخنف الرافضى المحترق، فهي رواية لا تصمد للبحث التنزيه، ولا ما يرويه الأمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل - أحد رجال على بن أبي طالب - فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى على المصحف، فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]. فقال على: نعم، أنا أولى بذلك، فقال القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج، بأسياهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا غشى إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل بن حنيف الأنصارى رضى الله عنه فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ فى الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، ثم حدثهم عن معارضة عمر رضى الله عنه للصلح يوم الحديبية، ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ فقال على: أيها الناس إن هذا فتح فقبل القضية ورجع، ورجع الناس^(٢). وأظهر سهل بن حنيف رضى الله عنه اشمئزاً ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الإخوة وقال: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم^(٣)، وبين لهم بأنه لا خيار عن الحوار والصلح لأن ما سواه فتنة لا تعرف عواقبها، فقد قال: ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر إلا أسهلنا بنا إلى ما نعرفه قبل هذا الأمر، ما سد منها خُصماً إلا تفجر علينا خُصم ما ندرى كيف نأتى له^(٤)، وفى هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة، ومبغضى الصحابة الذين يضعون الأخبار المكذوبة، ويضعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا فى

(١) الكامل (٥/٦٦٢، ٦٦٣).

(٢) مصنف أبى شيبة (٨/٣٣٦)، مسند أحمد مع الفتح الربانى (٨/٤٨٣).

(٣)، (٤) البخارى رقم (٤١٨٩).

صفيين، ليظهروهم بمظهر المتحمس لتلك الحرب ليزرعوا البغضاء فى النفوس، ويعملوا ما فى وسعهم على استمرار الفتنة^(١). إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية، وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية فى طاعة على والبيعة له، تطور فرضته أحداث حرب صفيين، إذ أن الحرب التى أودت بحياة الكثير من المسلمين، أبرزت اتجاهًا جماعيًا رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الأمة، وصيانة قوتها أمام عدوها، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيها وأثرها فى اتخاذ القرارات^(٢).

إن أمير المؤمنين على رضى الله عنه قبل وقف القتال فى صفيين ورضى التحكيم وعد ذلك فتحًا ورجع^(٣) إلى الكوفة، وعلق على التحكيم آمالاً فى إزالة الخلاف وجمع الكلمة، ووحدة الصف، وتقوية الدولة، وإعادة حركة الفتوح من جديد. إن وصول الطرفين إلى فكرة التحكيم ساهمت فيه عدة عوامل، منها:

أ - أنه كان آخر محاولة من المحاولات التى بذلت لايقاف الصدام وحقن الدماء سواء تلك المحاولات الجماعية، أم المحاولات الفردية التى بدأت بعد موقعة الجمل ولم تفلح، أم الرسائل التى تبودلت بين الطرفين لتنفيذ وجهات نظر كل منهما، ولم تُجد - هى الأخرى - شيئًا، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به معاوية فى أيام اشتداد القتال حيث كتب إلى على رضى الله عنه يطالبه بتوقف القتال فقال: فإننى أحسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك ما بلغت لم نجنّها على أنفسنا، فإننا إن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منا ما ينبغى أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقى^(٤).

ب - تساقط القتلى وإراقة الدماء الغزيرة ومخافة الفناء، فصارت الدعوة إلى إيقاف الحرب مطلبًا يرنو إليه الجميع.

ج - الملل الذى أصاب الناس من طول القتال، حتى كأنهم على موعد لهذا الصوت الذى نادى بالهدنة والصلح، وكانت أغلبية جيش على فى اتجاه المودعة

(١) الإنصاف فيما وقع فى تاريخ العصر الراشدى من الخلاف، ص (٥٣٠).

(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٨).

(٣) المصدر نفسه رقم (٦١٩٢).

(٤) الأخبار الطوال للدينورى، ص (١٨٧)، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٣٢).

وكانوا يرددون: قد أكلتنا الحرب، ولا نرى البقاء إلا في المواعدة^(١)، وهذا ينقض ذلك الرأي المتهاافت الذى رُوِّج بأن رفع المصاحف كان خدعة من عمرو بن العاص. والحق أن فكرة رفع المصاحف لم تكن جديدة، وليست من ابتكار عمرو ابن العاص، بل رفع المصحف فى الجمل ورشق حامله كعب بن سور قاضى البصرة بسهم وقتل.

د - الاستجابة لصوت الوحي الداعى للإصلاح، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] ويؤيد هذا ما قاله على بن أبى طالب حينما عرض عليه الاحتكام إلى كتاب الله، قال: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله^(٢).

٥ - مقتل عمّار بن ياسر -رضى الله عنه- وأثره على المسلمين:

يعد حديث رسول الله ﷺ لعمّار رضى الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»^(٣) من الأحاديث الصحيحة والثابتة عن النبي ﷺ. وقد كان لمقتل عمّار رضى الله عنه أثر فى معركة صفين، فقد كان علماً لأصحاب رسول الله يتبعونه حيث سار، وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافاً سلاحه، فلما رأى مقتل عمّار سل سيفه وقاتل أهل الشام، وذلك لأنه سمع حديث رسول الله ﷺ فى عمّار: «تقتله الفئة الباغية»^(٤)، واستمر فى القتال حتى قُتل^(٥)، وكان لمقتل عمّار أثر فى معسكر معاوية، فهذا أبو عبد الرحمن السلمى دخل فى معسكر أهل الشام، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وأبو الأعور السلمى، عند شرعة الماء يسقون، وكانت هى شربة الماء الوحيدة التى يستقى منها الفريقان، وكان حديثهم عن مقتل عمّار بن ياسر، إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده: لقد قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال: وأى رجل؟ قال: عمّار بن ياسر. قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقال عمرو لمعاوية: لقد قتلنا الرجل وقد

(١) صفين ص ٤٨٢ - ٤٨٥، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٣٣).

(٢) مصنف ابن أبى شيبة (٣٣٦/٨). (٣)، (٤) مسلم رقم (٢٩١٦).

(٥) خلافة على، ص (٢١١).

قال فيه رسول الله ﷺ ما قال! فقال معاوية: اسكت فوالله ما تزال تدحض^(١) في بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به^(٢)، فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار في الهشيم، وجاء في رواية صحيحة أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقام عمرو بن العاص فرعاً يرجع حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قُتل عمار، فقال معاوية: قُتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «تقتلك الفئة الباغية» فقال له معاوية: دحضت في بولك، أو نحن قتلناه، إنما قتله على وأصحابه، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال بين سيوفنا^(٣). وفي رواية صحيحة أيضاً: جاء رجلان عند معاوية يختصمان في رأس عمار يقول كل واحد منهما: أنه قتله، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليطلب به أحدهما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية». قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه. فأنا معكم ولست أقاتل»^(٤).

من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابي الفقيه عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما حريص على قول الحق، والنصح، فقد رأى أن معاوية وجنده، هم الفرقة الباغية لقتلهم عماراً، فقد تكرر منه هذا الاستنكار في مناسبات مختلفة، ولا شك أن مقتل عمار رضى الله عنه قد أثر في أهل الشام بسبب هذا الحديث، إلا أن معاوية رضى الله عنه أوّل الحديث تأويلاً غير مستساغ، ولا يصح في أن الذين قتلوا عمار هم الذين جاءوا به إلى القتال^(٥)، وقد أثر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص، بل كان استشهاد عمار دافعاً لعمرو بن العاص للسعى لإنهاء الحرب^(٦)، وقد قال رضى الله عنه: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة^(٧)، وقد جاء في البخارى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: كنا

(١) الدحض: الزلق، والداحض: من لا ثبات له ولا عزيمة في الأمور.

(٢) مسند أحمد (٢٠٦/٢) إسناده حسن. (٣) مصنف عبد الرزاق (١١/٢٤٠) بسند صحيح.

(٤) مسند أحمد (١١/١٣٨، ١٣٩) قال أحمد شاكر: سنده صحيح.

(٥) خلافة على بن أبي طالب، عبد الحميد، ص (٣٢٥).

(٦) معاوية بن أبي سفيان، الغضبان، ص (٢١٥).

(٧) أنساب الأشراف (١/١٧٠)، عمرو بن العاص للغضبان، ص (٦٠٣).

نحمل لبنة لبنة، وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ، فينفض التراب عنه ويقول: «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار». قال عمّار: أعوذ بالله من الفتنة^(١)، وقال ابن عبد البر: تواترت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: «تقتل عمار الفئة الباغية». وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوته ﷺ، وهو من أصحاب الأحاديث^(٢)، وقال الذهبي بعد ما ذكر الحديث: وفي الباب عن عدة من الصحابة، فهو متواتر^(٣).

- فهم العلماء للحديث:

أ- قال ابن حجر: وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لعلی وعمار، وردّ على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه^(٤)، وقال أيضاً: دل الحديث: «تقتل عماراً الفئة الباغية»، على أن علياً كان المصيب في تلك الحروب، لأن أصحاب معاوية قتلوه^(٥).

ب- يقول النووي: وكانت الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة لهذا الحديث^(٦).

ج- قال ابن كثير: كان علي وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، قال: حدثني من هو خير مني - يعني أبا قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»^(٧). وقال أيضاً: وهذا مقتل عمار بن ياسر رضی الله عنهما مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك سر ما أخبر به الرسول ﷺ من أن تقتله الفئة الباغية، وبان بذلك أن علياً محق، وأن معاوية باغ، وما في ذلك من دلائل النبوة^(٨).

د- وقال الذهبي: هم طائفة من المؤمنين، بغت على الإمام علي، وذلك بنص قول المصطفى صلوات الله عليه لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»^(٩).

(٢) الاستيعاب (٣/ ١١٤٠).

(٤) فتح الباري (١/ ٦٤٦).

(٦) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٨).

(٨) المصدر نفسه (٧/ ٢٧٧).

(١) البخاري رقم (٤٤٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢١).

(٥) المصدر نفسه (١٣/ ٩٢).

(٧) البداية والنهاية (٦/ ٢٢٠).

(٩) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٠٩).

هـ- قال القاضي أبو بكر بن العربي فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾ [الحجرات: ٩]، هذه الآية أصل فى قتال المسلمين، والعمدة فى حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من هذه الملة، وإياها عنى النبى ﷺ بقوله: «تقتل عمار الفئة الباغية»^(١).

و- وقال ابن تيمية: وهذا يدل على صحة إمامة على ووجوب طاعته، وأن الداعى إلى طاعته داع إلى الجنة، والداعى إلى مقاتلته داع إلى النار - وإن كان متأولاً - وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال على، وعلى هذا فمقاتله مخطئ - وإن كان متأولاً - أو باغ - بلا تأويل -، وهو أصح القولين لأصحابنا، وهو الحكم بتخطئة من قاتل علياً، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين^(٢). وقال أيضاً: مع أن علياً أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عمار قتلته الفئة الباغية - كما جاءت به النصوص - فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف^(٣).

ز- وقال عبد العزيز بن باز: قال ﷺ فى حديث عمار: «تقتل عمار الفئة الباغية» فقتله معاوية وأصحابه فى وقعة صفين، فمعاوية وأصحابه بغاة، لكن مجتهدون ظنوا أنهم مصيبون فى المطالبة بدم عثمان^(٤).

ح- وقال سعيد حوى: بعد أن قتل عمار الذى وردت النصوص مبينة أنه تقتله الفئة الباغية، تبين للمتريدين أن علياً كان على حق، وأن القتال معه كان واجباً، ولذا عبر ابن عمر عن تخلفه بأنه يأسى بسبب هذا التخلف، وما ذلك إلا أنه ترك واجباً وهو نصرة الإمام الحق على الخارجين عليه بغير حق كما أفتى بذلك الفقهاء^(٥).

- الرد على قول معاوية رضى الله عنه: إنما قتله من جاء به^(٦):

إن جل الصحابة والتابعين قد فهموا من قول رسول الله ﷺ لعمار: «تقتلك

(١) أحكام القرآن (٤/١٧١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٤٣٧).

(٣) المصدر نفسه (٤/٤٤٩، ٤٥٠).

(٤) فتاوى ومقالات متنوعة (٦/٨٧).

(٥) الأساس فى السنة (٤/١٧١٠).

(٦) مسند أحمد (٢/٢٠٦) إسناده حسن.

الفئة الباغية»^(١)، أن المقصود جيش معاوية رضى الله عنه، مع أنهم معذرون فى اجتهادهم؛ فهم يقصدون الحق ويريدونه، ولكنهم لم يصيبوه، وفئة على أولى بالحق منهم كما قال صلى الله عليه وسلم^(٢)، ومع أن الأئمة لم يعجبهم تأويل معاوية - كما سأنقل - إلا أنهم عذروه فى اجتهاده، فهذا هو ابن حجر يقول فى قوله صلى الله عليه وسلم: «يدعوهم إلى الجنة ويدعونهم إلى النار»^(٣). فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع على، والذين قتلوه مع معاوية، وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم فى اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها، وهو طاعة الإمام وكذلك معذرون للتأويل الذى ظهر لهم^(٤).

وقال القرطبي: وقال الإمام أبو المعالى فى كتاب الإرشاد، فصل «على رضى الله عنه»: كان إماماً حقاً فى توليته، ومقاتلوه بغاة، وحسن الظن بهم يقتضى أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه^(٥)، وقال أيضاً: وقد أجاز على رضى الله عنه عن قول معاوية بأن قال: فرسول الله صلى الله عليه وسلم إذن قتل حمزة حين أخرجه، وهذا من على رضى الله عنه إلزام، لا جواب عنه، وحجة لا اعتراض عليها، قاله الإمام الحافظ أبو الخطاب بن دحية^(٦)، وقال ابن كثير: فقول معاوية: إنما قتله من قدمه إلى سيفنا، تأويل بعيد جداً، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يقتلون فى سبيل الله، حيث قدمهم إلى سيوف الأعداء^(٧)، وقال ابن تيمية: وهذا القول لا أعلم له قائلًا من أصحاب الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل السنة، ولكن هو قول كثير من الرواية ومن وافقهم^(٨)، وقال ابن القيم معلقاً على هذا التأويل: نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله صلى الله عليه وسلم لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»^(٩)، فقالوا: نحن لم نقتله، إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا، فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذى قتله هو الذى قتله، لا من استنصر به^(١٠).

(٢) معاوية بن أبى سفيان، ص (٢١٠ - ٢١٤).

(٤) فتح البارى (١/٦٤٥).

(٦) المصدر نفسه (٢/٢٢٣).

(٨) منهاج السنة (٤/٤٠٦).

(١٠) الصواعق المرسله (١/١٨٤، ١٨٥).

(١) مسلم رقم (٢٩١٦).

(٣) البخارى رقم (٤٤٧).

(٥) التذكرة (٢/٢٢٢).

(٧) البداية والنهاية (٦/٢٢١).

(٩) مسلم رقم (٢٩١٦).

٦- من هو قاتل عمّار بن ياسر؟

قال أبو الغادية الجهني وهو يحدث عن قتله لعمار: فلما كان يوم صفين، أقبل يستن أول الكتيبة رجلاً، حتى إذا كان بين الصفين فأبصر رجلاً عورة، فطعنه في ركبته بالرمح فعثر، فأنكشف المغفر عنه، فضرته فإذا هو رأس عمار. ثم قتل عمّاراً، واستسقى أبو غادية، فأتى بماء في زجاج، فأبى أن يشرب فيها، فأتى بماء في قدح فشرب، فقال رجل: . . . يتورع عن الشرب في الزجاج ولم يتورع عن قتل عمّار^(١)، ويخبر عمرو بن العاص رضي الله عنه الخبر فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار وسالبه في النار»^(٢). قال ابن كثير ومعلوم أن عمّاراً كان في جيش على يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذي تولى قتله يقال له أبو الغادية، رجل من أفاء الناس، وقيل إنه صحابي^(٣)، وقال ابن حجر: والظن بالصحابة في تلك الحروب أنهم كانوا متأولين للمجتهد المخطئ أجز، وإذا ثبت هذا في حق آحاد الناس فثبوته للصحابة بالطريق الأولى^(٤)، وقال الذهبي: وابن ملجم عند الروافض أشقى الخلق في الآخرة، وهو عندنا أهل السنة ممن نرجو له النار، ونجوز أن الله يتجاوز عنه، لا كما يقول الخوارج والروافض، وحكمه حكم قاتل عثمان، وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جبير، وقاتل عمار وقاتل خارجة، وقاتل الحسين، فكل هؤلاء نبراً منهم ونبغضهم في الله، ونكل أمورهم إلى الله عز وجل^(٥)، وقد وفق الألباني في تعليقه على قول ابن حجر: هذا حق، لكن تطبيقه على كل فرد من أفرادهم مشكل، لأنه يلزم تناقض القاعدة المذكورة بمثل حديث الترجمة، أي (قاتل عمار وسالبه في النار)^(٦)، إذ لا يمكن القول بأن أبا غادية القاتل لعمار مأجور، لأنه قتله مجتهداً، ورسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار في النار»^(٧)، فالصواب أن يقال: إن القاعدة صحيحة، إلا ما دل الدليل

(٢) السلسلة الصحيحة (١٨/٥)، (١٩).

(٤) الإصابة (٧/٢٦٠).

(٦) السلسلة الصحيحة (١٨/٥)، (١٩).

(١) الطبقات الكبرى (٣/٢٦٠، ٢٦١).

(٣) البداية والنهاية (٦/٢٢٠).

(٥) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص (٦٥٤).

(٧) المصدر نفسه (١٨/٥)، (١٩).

القاطع على خلافها، فيستثنى ذلك منها كما هو الشأن هنا، وهذا خير من ضرب الحديث الصحيح بها^(١). وقد ترجم لأبي الغادية الجهني ابن عبد البر فقال: اختلف في اسمه، فقيل: يسار بن سبُع، وقيل: يسار بن أزهر، وقيل: إن اسمه مسلم. سكن الشام ونزل في واسط، يعدُّ في الشاميين، أدرك النبي ﷺ وهو غلام، روى عنه أنه قال: أدركت النبي ﷺ وأنا أبيع، أرد على أهلي الغنم، وله سماع من النبي ﷺ قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٢)، وكان محباً لعثمان، وهو قاتل عمار بن ياسر، وكان يصف قتله إذا سئل عنه لا يباله، وفي قصته عجبٌ عند أهل العلم^(٣).

٧- المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة:

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين.. كانت هذه الوقعة من الغرابة إلى حد أن القارئ لا يصدق ما يقرأ، ويقف مشدوهاً أمام طبيعة النفوس عند الطرفين، فكل منهم كان يقف وسط المعركة شاهراً سيفه وهو يؤمن بقضيته إيماناً كاملاً، فليست معركة مدفوعة من قبل القيادة يدفعون الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها، بل كانت معركة فريدة في بواعثها، وفي طريقة أدائها، وفيما خلفتها من آثار. فبواعثها في نفوس المشاركين يعبر عنها بعض الواقف التي وصلت إلينا في المصادر التاريخية، فهم إخوة يذهبون معاً إلى مكان الماء فيستقون جميعاً، ويزدحمون وهم يغرفون الماء، وما يؤذى إنساناً إنساناً^(٤)، وهم إخوة يعيشون معاً عندما يتوقف القتال، فهذا أحد المشاركين يقول: كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء، في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في معسكر هؤلاء.. وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم^(٥)، وهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما اجتهاده،

(١) السلسلة الصحيحة (١٩/٥).

(٢) مسند أحمد (٧٦/٤) وسنده حسن.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب رقم (٣٠٨٩).

(٤) تاريخ الطبري (٦١٠/٥)، سير أعلام النبلاء (٤١/٢)، مرويات أبي مخنف، ص (٢٩٦).

(٥) البداية والنهاية (٢٧٠/٧)، دراسات في عهد النبوة، ص (٤٢٣).

فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل في طرف^(١) قتالاً مريراً، وكل منهما يرى نفسه على الحق وعنده الاستعداد لأن يُقتل من أجله، فكان الرجلان يقتتلان حتى يُثخنا (وهنا وضعفًا) ثم يجلسان يستريحان، ويدور بينهما الكلام الكثير، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا^(٢)، وهما أبناء دين واحد يجمعهما، وهو أحب إليهما من أنفسهما، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها^(٣)، ويوم قتل عمار بن ياسر صلى عليه الطرفان^(٤)، ويذكر شاهد عيان اشترك في صفين: تنازلنا بصفين، فاقتلنا أيامًا، فكثر القتلى بيننا حتى عقرت الخيل، فبعث على إلى عمرو بن العاص أن القتلى قد كثروا فأمسك حتى يدفن الجميع قتلاهم فأجابهم، فاختلط بعض القوم ببعض حتى كانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - وكان الرجل من أصحاب على يشد فيقتل في عسكر معاوية، فيستخرج منه، وقد مر أصحاب على بقتيل لهم أمام عمرو، فلما رآه بكى وقال: لقد كان مجتهدًا أحسن في أمر الله^(٥). وكانوا يسارعون إلى التناهي عن المنكر حتى في مثل هذه المواقع، فكانت هناك مجموعة عرفوا بالقراء، وكانوا من تلامذة عبد الله بن مسعود من أهل العراق ومن أهل الشام معًا، فلم ينضموا إلى أمير المؤمنين على، ولا إلى معاوية بن أبي سفيان، وقالوا لأمير المؤمنين: إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغى كنا عليه، فقال على: مرحبًا وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين، والعلم بالسنة، من لم يرض بهذا فهو جائر خائن^(٦). والحقيقة أن هذه المواقف منبعثة من قناعات واجتهادات استوثقوا منها في قرارة أنفسهم وقاتلوا عليها^(٧).

(١) تاريخ الطبري، نقلًا عن دراسات في عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٢) البداية والنهاية (١٠/٢٧٢).

(٣) تاريخ الطبري، نقلًا عن دراسات في عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٤) تاريخ دمشق (٨/٢٣٣)، دراسات في عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٥) أنساب الأشراف (٦/٥٦) بسند حسن.

(٦) صفين، ص (١١٥)، دراسات في عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٧) دراسات في عهد النبوة، ص (٤٢٤).

٨ - معاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه:

إن المعاملة الحسنة للأسير وإكرامه فى صفتين من الأمور البدئية بعد ما استعرضنا المعاملة الكريمة أثناء القتال، وقد بين الإسلام معاملة الأسرى، فقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الأسرى، وإطعامه أفضل الأَطعمة الموجودة، هذا مع غير المسلمين، فكيف إذا كان الأسير مسلماً؟، لا شك إن إكرامه والإحسان إليه أولى، ولكن الأسير فى هذه المعركة يعتبر فئة وقوة لفرقة^(١)، لذلك كان على رضى الله عنه يأمر بحبسه، فإن بايع أُخلى سبيله، وإن أبى أخذ سلاحه ودابته، أو يهبها لمن أسره ويحلفه ألا يقاتل، وفى رواية: يعطيه أربعة دراهم^(٢). وغرض الخليفة الراشد من ذلك واضح، وهو إضعاف جانب البغاة وقد أتى بأسير يوم صفين فقال الأسير: لا تقتلنى صبراً، فقال على رضى الله عنه: لا أقتلك صبراً إنى أخاف الله رب العالمين، فخلى سبيله ثم قال: أفيك خير تباع^(٣).

ويبدو من هذه الروايات أن معاملته للأسرى كانت كما يلى:

- إكرام الأسير والإحسان إليه.

- يعرض عليه البيعة والدخول فى الطاعة، فإن بايع أُخلى سبيله.

- إن أبى البيعة أخذ سلاحه ويحلفه ألا يعود للقتال ويطلقه.

- إن أبى إلا القتال تحفظ عليه فى الأسر ولا يقتله صبراً^(٤). وقد أتى رضى

الله عنه مرة بخمسة عشر أسيراً، ويبدو أنهم جرحى، فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه^(٥). ويقول محب الدين الخطيب معلقاً على هذه الحرب: ومع ذلك، فإن هذه الحرب المثالية هى الحرب الإنسانية الأولى فى التاريخ التى جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل التى يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها فى حروبهم، ولو فى القرن الحادى والعشرين، وإن كثيراً من قواعد الحرب فى

(١) كتاب قتال أهل البغى من الحارثى الكبير، ص (١٣٣، ١٣٤).

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٤٣).

(٣) الام للشافعى (٢٢٤/٤) (٢٥٦/٨).

(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٤٣).

(٥) تاريخ دمشق، تحقيق المنجد (١/٣٣١)، خلافة على بن أبى طالب، ص (٢٤٣).

الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله فى كل أمر حكمة^(١)، قال ابن العديم: قلت: وهذا كله حكم أهل البغى، ولهذا قال أبو حنيفة: لولا ما سار على فيهم، ما علم أحد كيف السيرة فى المسلمين^(٢).

٩ - عدد القتلى:

تضاربت أقوال العلماء فى عدد القتلى، فذكر ابن أبى خيثمة أن القتلى فى صفين بلغ عددهم سبعين ألفاً، من أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألف مقاتل^(٣)، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى فى صفين بلغ سبعين ألفاً أو أكثر^(٤)، ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقة، بل أرقام خيالية، فالقتال الحقيقى والصدام الجماعى استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة فىكون مجموع القتال حوالى ثلاثين ساعة^(٥)، ومهما كان القتال عنيقاً، فلن يفوق شدة القادسية التى كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة^(٦)، وبالتالي يصعب عقلاً أن نقبل تلك الروايات التى ذكرت الأرقام الكبيرة.

١٠ - تفقد أمير المؤمنين على القتلى وترحمه عليهم:

كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى، فىقول شاهد عيان: رأيت علياً على بغلة النبى ﷺ الشهباء، يطوف بين القتلى^(٧)، وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشر، مر برجل مقتول - وهو أحد القضاة والعباد المشهورين بالشام - فقال الأشر - وفى رواية أخرى عدى بن حاتم -: يا أمير المؤمنين أحابس^(٨) معهم؟ عهدى والله به مؤمن، فقال على فهو اليوم مؤمن. ولعل هذا الرجل المقتول هو القاضى الذى أتى عمر بن الخطاب وقال: يا أمير المؤمنين، رأيت رؤيا أفضعتنى، قال: ما هى؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين قال: فمع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس، فقال

(١) العواصم من القواصم، ص (١٦٨، ١٦٩) من تعليق الخطيب فى الحاشية.

(٢) بغية الطالب فى تاريخ حلب (٣٠٩/١)، خلافة على، ص (٢٤٥).

(٣) الأنبياء للقساعى، ص (٥٩) نقلاً عن خلافة على، ص (٢٤٥).

(٤) الصواعق المرسله (٣٧٧/١) بدون سند، تحقيق محمد دخيل الله.

(٥) الدولة الأموية، ص (٣٦٠ - ٣٦٢). (٦) تاريخ الطبرى (٣٨٨/٤).

(٧) مصنف ابن أبى شيبة. (٨) حابس بن سعد الطائى مخضرم، قتل بصفين.

عمر: قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢] فانطلق فوالله لا تعمل لى عملاً أبداً، قال الراوى: فبلغنى أنه قتل مع معاوية بصفين^(١). وقد وقف على قتلاه وقتلى معاوية فقال: غفر الله لكم، غفر الله لكم، للفريقين جميعاً^(٢)، وعن يزيد بن الأصم قال: لما وقع الصلح بين على ومعاوية، خرج على فمشى فى قتلاه فقال: هؤلاء فى الجنة، ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: هؤلاء فى الجنة، ويصير الأمر إلى وإلى معاوية^(٣)، وكان يقول عنهم هم: المؤمنون^(٤)، وقوله رضى الله عنه فى صفين لا يكاد يختلف عن قوله فى أهل الجمل^(٥).

١١ - موقف لمعاوية مع ملك الروم:

استغل ملك الروم الخلاف الذى وقع بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما، وطمع فى ضم بعض الأراضى التى تحت هيمنة معاوية إليه، قال ابن كثير: وطمع فى معاوية ملك الروم بعد أن كان أخشاه وأذله، وقهر جندهم ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب على تدانى إلى بعض البلاد فى جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحن أنا وابن عمى عليك ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقنَّ عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة^(٦). وهذا الأثر يدل على أن الخلاف الذى بينه وبين على رضى الله عنه لن يبقى لحظة واحدة فيما لو تعرض أمن الدولة الإسلامية فى الشام للخطر، ولولا أن الروم يعلمون أن هذه الخلافات قابلة للنسيان المطلق ما أخذوا تحذير معاوية مأخذ الجد وكفوا أيديهم^(٧).

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٧٤/١١) بسند منقطع.

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٥٠).

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (٣٠٣/١٥) بسند حسن.

(٤) تاريخ دمشق (٣٣١/١)، (٣٢٩)، خلافة على، ص (٢٥١).

(٥) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٥١)، تنزيه لخال المؤمنين، ص (١٦٩).

(٦) البداية والنهاية (١٢٢/٨). (٧) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص (٢١١).

١٢ - قصة باطلة في حق عمرو بن العاص بصفين:

قال نصر بن مزاحم الكوفى: وحمل أهل العراق وتلقّاهم أهل الشام فاجتلدوا وحمل عمرو بن العاص فاعترضه على وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل والخضر والأنامل الطفول^(١)
إلى أن يقول: ثم طعنه فصرعه واتقاه عمرو برجله، فبدت عورته، فصرف على وجهه عنه وارثاً. فقال القوم: أفلت الرجل يا أمير المؤمنين. قال: وهل تدرّون من هو؟ قالوا: لا. قال: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي^(٢)، وذكر القصة - أيضاً - ابن الكلبي، كما ذكر ذلك السهيلي فى الروض الأنف، وقول على: إنه اتقاني بعورته فأذكرني الرّحم إلى أن قال: . . . ويروى مثل ذلك عن عمرو بن العاص مع -على رضى الله عنه - يوم صفين، وفى ذلك يقول الحارث بن النضر الشهمي: رواه ابن الكلبي وغيره.

أفى كل يوم فارس غير متته وعورته وسط العجاجة بداية
يكف لها عنه على سنانه ويضحك منه فى الخلاء معاوية^(٣)

والرد على هذا الافتراء والأفك الميين كالاتى: فراوى الرواية الأولى، نصر بن مزاحم الكوفى صاحب وقعة صفين، شيعى جلد لا يستغرب عنه كذبه وافتراؤه على الصحابة، قال عنه الذهبى فى الميزان: نصر بن مزاحم الكوفى: رافضى جلد، تركوه، قال عنه العقيلي: شيعى فى حديثه اضطراب وخطأ كثير، وقال أبو خيثمة: كان كذاباً^(٤)، وقال عنه ابن حجر: قال العجلي: كان رافضياً غالباً. . . ليس بشقة ولا مأمون^(٥). وأما الكلبي، هشام بن محمد بن السائب الكلبي، فاتفقوا على غلوه فى التشيع، قال الإمام أحمد: من يحدث عنه؟ ما ظننت أن أحداً يحدث عنه، وقال الدارقطنى: متروك^(٦)، وعن طريق هذين الرافضيين

(١) الطفول: جمع طفل، بالفتح، وهو الرخص الناعم.

(٢) وقعة صفين، ص (٤٠٦ - ٤٠٨)، قصص لا تثبت، سليمان الخراشى (١٦/٦).

(٣) الروض الأنف (٥/٤٦٢)، قصص لا تثبت (١٩/٦).

(٥) لسان الميزان (٦/١٥٧).

(٤) ميزان الاعتدال (٤/٢٥٣، ٢٥٤).

(٦) المجروحين لابن حبان (٣/٩١)، تذكرة الحفاظ (١/٣٤٣)، معجم الأدباء (١٩/٢٨٧)، قصص لا تثبت

سارت هذه القصة فى الأفاق وتلقفها من جاء بعدهم من مؤرخى الشيعة، وبعض أهل السنة ممن راجت عليهم أكاذيب الرافضة^(١)، وتعد هذه القصة أمودجاً لأكاذيب الشيعة الروافض وافتراءاتهم على صحابة رسول الله، فقد اختلق أعداء الصحابة من مؤرخى الرافضة مثالب لأصحاب رسول الله ﷺ، وصاغوها على هيئة حكايات وأشعار لكى يسهل انتشارها بين المسلمين، هادفين إلى الغض من جناب الصحابة الأبرار - رضى الله عنهم - فى غفلة من أهل السنة الذين وصلوا متأخرين إلى ساحة التحقيق فى روايات التاريخ الإسلامى، بعد أن طارت تلكم الأشعار والحكايات بين القصاص، وأصبح كثير منها من المسلمات، حتى عند مؤرخى أهل السنة للأسف^(٢).

١٣ - مرور أمير المؤمنين على بالمقابر بعد رجوعه من صفين:

لما انصرف على أمير المؤمنين رضى الله عنه من صفين مرّ بمقابر، فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبع، وبكم عمّا قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، الحمد لله الذى جعل الأرض كفاتاً، أحياءً وأمواتاً، الحمد لله الذى خلقكم وعليها يحشركم، ومنها يبعثكم، وطوبى لمن ذكر المعاد وأعدّ للحساب، وقنع بالكفاف^(٣).

١٤ - إصرار قتلة عثمان رضى الله عنه على أن تستمر المعركة:

إن قتلة عثمان كانوا حريصين على أن تستمر المعركة بين الطرفين، حتى يتفانى الناس، وتضعف قوة الطرفين، فيكونوا بمنأى عن القصاص والعقاب، ولذلك فإنهم فزعوا وهم يرون أهل الشام يرفعون المصاحف، وعلى رضى الله عنه يجيئهم إلى طلبهم، فيأمر بوقف القتال وحقن الدماء، فسعوا إلى محادثة تنهى أمير المؤمنين عن عزمه، لكن القتال توقف، فسقط فى أيديهم، فلم يجدوا بداً من الخروج على على رضى الله عنه، فاخترعوا مقولة (الحكم لله) وتحصنوا بعيداً عن الطرفين، والغريب أن المؤرخين لم يركزوا على ما فعله هؤلاء فى هذه المرحلة،

(١) قصص لا تثبت (٢٠/١) .

(٢) المصدر نفسه (١٠/١) .

(٣) البيان والتبيان للجاحظ (١٤٨/٣) ، فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص (٣٢٧).

كما فعلوا في معركة الجمل، رغم أنهم كانوا موجودين في جيش علي، وعن سر إخفاق تلك المفاوضات التي دامت أشهراً عديدة، وعن الدور الذي يمكن أن يكون قتله عثمان قد قاموا به في معركة صفين لإفشال كل محاولة صلح بين الطرفين، لأن إصلاح علي مع معاوية هو أيضاً اصطلاح عل دمائهم، فلا يعقل أن يجتهدوا في الفتنة في وقعة الجمل، ويتركوا ذلك في صفين^(١).

١٥ - نهى أمير المؤمنين علي عن شتم معاوية ولعن أهل الشام:

روى أن علياً - رضى الله عنه - لما بلغه أن اثنين من أصحابه يظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليهما: أن كفّا عما يبلغني عنكما، فأتيا فقالا: يا أمير المؤمنين: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى وربّ الكعبة المسدّنة، قالا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا لعانين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأبعدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغى من لجج به^(٢)، وأما ما قيل من أن علياً كان يلعن في قنوته معاوية وأصحابه، وأن معاوية إذا قنت لعن علياً وابن عباس والحسن والحسين، فهو غير صحيح، لأنّ الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أكثر حرصاً من غيرهم على التقيد بأوامر الشارع الذي نهى عن سباب المسلم ولعنه^(٣)، فقد روى عن رسول الله ﷺ قوله: «من لعن مؤمناً فهو كقتله»^(٤)، وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بطعان ولا بلعان»^(٥)، وقوله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»^(٦)، كما أن الرواية التي جاء فيها لعن أمير المؤمنين في قنوته لمعاوية وأصحابه، ولعن معاوية وأمير المؤمنين وابن عباس والحسن والحسين لا تثبت من ناحية السند حيث فيها أبو مخنف لوط بن يحيى الرافضى المحترق الذي لا يوثق في رواياته. كما أن في أصح كتب الشيعة عندهم النهي عن سب الصحابة، فقد أنكر علي من يسب معاوية ومن معه فقال: إني

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (١٤٧).

(٢) الأخبار الطوال، ص (١٦٥) نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢/٢٣٢).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٣٢).

(٤) البخارى، ك الأدب (٧/٨٤).

(٥) السلسلة الصحيحة للالبانى رقم (٣٢٠)، صحيح سنن الترمذى (٢/١٨٩) رقم (١١١٠).

(٦) مسلم (٤/٢٠٠٦) رقم (٢٥٩٨).

أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقتلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم^(١). فهذا السب والتكفير لم يكن من هدى علي باعتراف أصح كتاب في نظر الشيعة^(٢).

رابعاً: التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين، وهو أن يحكم كل واحد منهما رجلاً من جهته، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكل معاوية عمرو بن العاص، ووكل علي أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما جميعاً، وكتب بين الفريقين وثيقة في ذلك، وكان مقر اجتماع الحكّمين في دومة الجندل في شهر رمضان سنة ٣٧هـ، وقد رأى قسم من جيش علي رضي الله عنه أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر فعليه أن يتوب إلى الله تعالى، وخرجوا عليه فسموا الخوارج، فأرسل علي رضي الله عنه إليهم ابن عباس -رضي الله عنهما- فناظرهم وجادلهم، ثم ناظرهم علي رضي الله عنه بنفسه، فرجعت طائفة منهم وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين علي رضي الله عنه حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة.

تعتبر قضية التحكيم من أخطر الموضوعات في تاريخ الخلافة الراشدة، وقد تاه فيها كثير من الكتاب، وتخبط فيها آخرون، وسطروها في كتبهم ومؤلفاتهم، وقد اعتمدوا على الروايات الضعيفة والموضوعة التي شوّهت الصحابة الكرام وخصوصاً: أبا موسى الأشعري الذي وصفوه بأنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوع في القول، وبأنه كان علي جانب كبير من الغفلة، ولذلك خدعه عمرو بن العاص في قضية التحكيم، ووصفوا عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه كان صاحب مكر وخداع، فكل هذه الصفات الذميمة حاول المغرضون والحاقدون على الإسلام إلصاقها بهذين الرجلين العظيمين اللذين اختارهما المسلمون ليفصلا في خلاف كبير أدّى إلى قتل الكثير من المسلمين، وقد تعامل الكثير من المؤرخين والأدباء والباحثين مع الروايات التي وضعها خصوم الصحابة الكرام على أنها حقائق

(١) نهج البلاغة، ص (٣٢٣).

(٢) أصول مذهب الشيعة (٢/٩٣٤).

تاريخية، وقد تلقاها الناس منهم بالقبول دون تمحيص لها، وكأنها صحيحة لا مرية فيها، وقد يكون لصياغتها القصصية المثيرة وما زعم فيها من خداع ومكر أثر في اهتمام الناس بها، وعناية المؤرخين بتدوينها، ولعلم أن كلامنا هذا ينصب على التفصيلات لا على أصل التحكيم حيث إن أصله حق لا شك فيه^(١).

خامساً : نص وثيقة التحكيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - هذا ما تقاضى عليه عليُّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

٢ - قضية على على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، قضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

٣ - إنا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نُحیی ما أحیا، ونُمیم ما أمت. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

٤ - وإن علياً وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظراً وحاكماً، ورضى معاوية وعمرو بن العاص ناظراً وحاكماً.

٥ - على أن علياً ومعاوية أخذوا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله، أن يتخذوا القرآن إماماً، ولا يعدوا به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً، وما لم يجدا في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة، لا يتعمدان لها خلافاً، ولا يبقيان فيها بشبهة.

٦ - وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه، وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره.

٧ - وهما آمنان في حكومتها على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما، ما لم يعدوا الحق، رضی به راض أو سخط ساخط، وإن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

(١) مرويات أبي محنف في تاريخ الطبری، ص (٣٧٨)، تنزيه لخال أمير المؤمنين معاوية، ص (٣٨).

٨ - فإن توفي أحد الحكّمين قبل انقضاء الحكومة، فليُعيته وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والصلاح، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق.

٩ - وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية، فليُعيته أن يُولوا مكانه رجلاً يرضون عدله.

١٠ - وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح .

١١ - وقد وجبت القضية على ما سَميناه في هذا الكتاب، من موقع الشرط على الأميرين والحكّمين والفريقين، والله أقرب شهيد وكفى به شهيداً، فإن خالفاً وتعدياً، فالأمة بريئة من حكمهما، ولا عهد لهما ولا ذمة.

١٢ - والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل، والسلاح موضوعه، والسبل آمنة، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر.

١٣ - وللحكّمين أن ينزلا منزلاً متوسطاً عدلاً بين أهل العراق والشام.

١٤ - ولا يحضرهما فيه إلا من أحبباً عن تراضٍ بينهما .

١٥ - والأجل إلى انقضاء شهر رمضان، فإن رأى الحكّمان تعجيل الحكومة عجلاًها، وإن رأى تأخيرها إلى آخر الأجل أخرها.

١٦ - فإن هما لم يحكّما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهم الأول في الحرب.

١٧ - وعلى الأمة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر، وهم جميعاً يد واحدة على من أراد في هذا الأمر إلحاداً أو ظلماً أو خلافاً.

وشهد على ما في هذا الكتاب الحسن والحسين، ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والأشعث بن قيس الكندي، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن القيس الهمداني، والحسين والطفيل ابنا الحارث بن عبد

المطلب، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاري، وعبد الله بن خباب بن الأرت، وسهل ابن حنيف، وأبو بشر بن عمر الأنصاري، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب، ويزيد بن عبد الله الأسلمي، وعقبة بن عامر الجهني، ورافع بن خديج الأنصاري، وعمر بن الحمق الخزاعي، والنعمان بن عجلان الأنصاري، وحجر بن عدي الكندي، ويزيد بن حجية النكري، ومالك بن كعب الهمداني، وربيع بن شرحبيل، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعلبة بن حجية. ومن أهل الشام، حبيب بن مسلمة الفهري، وأبو الأعور السلمى، وبشر بن أرطاة القرشي، ومعاوية بن خديج الكندي، والمخارق بن الحارث الزبيدي، ومسلم بن عمرو السكسي، وعبد الله بن خالد بن الوليد، وحمزة بن مالك، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن أبجر العبسي، ومسروق بن حبله العكي، وبسر بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر القرشي، وعتبة بن أبي سفيان، ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، وعمار بن الأحوص الكلبي، ومسعدة بن عمرو العتيبي، وال صباح بن جلهمة الحميري، وعبد الرحمن بن ذى الكلاع، وتامة بن حوشب، وعلقمة بن حكم.

وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين^(١).

سادساً: قصة التحكيم المشهورة وبطلانها من وجوه:

لقد كثر الكلام حول قصة التحكيم، وتداولها المؤرخون والكتاب على أنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها، فهم بين مطيل في سياقها، ومختصر، وشارح ومستنبط للدروس، وبيان للأحكام على مضامينها، وقلمما تجد أحداً وقف عندها فاحصاً محققاً، وقد أحسن ابن العربي في ردها إجمالاً وإن كان غير مفصل، وفي هذا دلالة على قوة حاسته النقدية للنصوص، إذ إن جميع متون قصة التحكيم لا يمكن أن تقوم أمام معيار النقد العلمي، بل هي باطلة من عدة وجوه^(٢).

(١) انظر: الوثائق السياسية، ص (٥٣٧، ٥٣٨)، الأخبار الطوال للدينوري، ص (١٩٦ - ١٩٩)، أنساب الأشراف (١/٣٨٢)، تاريخ الطبري (٥/٦٦٥، ٦٦٦)، البداية والنهاية (٧/٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص (٤٠٤٢).

١ - أن جميع طرقها ضعيفة ، وأقوى طريق وردت فيه هو ما أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند رجاله ثقات عن الزهري مرسلًا قال: قال الزهري: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم، ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراقين، فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختر أهل العراق أبا موسى الأشعري، واختار أهل الشام عمرو بن العاص فتفرق أهل صفيين حين حكم الحكمان، فاشترط أن يرفعا ما رفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن، وأن يختار لأمة محمد ﷺ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح، فلما انصرف عليّ خالفت الحرورية وخرجت - وكان ذلك أول ما ظهرت - فأذنوه بالحرب، وردوا عليه: أن حكمَ بنى آدم في حكم الله عز وجل، وقالوا: لا حكم إلا لله سبحانه، وقاتلوا، فلما اجتمع الحكمان بأذرح، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير، ووافى معاوية بأهل الشام، وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوى الرأى من قريش: أترون أحدًا من الناس برأى يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يفترقان؟ قالوا: لا نرى أحدًا يعلم ذلك، قال: فوالله إنى لا أظن أنى سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأرجعهما، فدخل عمرو بن العاص وبدأ به، فقال: يا أبا عبد الله، أخبرنى عما أسألك عنه، كيف ترانا معشر المعتزلة، فإننا قد شككنا فى الأمر الذى تبين لكم من هذا القتال، ورأينا أن نستأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمة، قال: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، وأمام الفجار، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبى موسى فقال له مثل ما قال لعمرو، وقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأياً، فيكم بقية المسلمين، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، فلقى الذين قال لهم ما قال من ذوى الرأى من قريش، فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد، فلما اجتمع الحكمان وتكلما، قال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، رأيت أول ما تقضى به من الحق أن تقضى لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم، قال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: أأست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وفوا، وقدموا للموعود الذى واعدناهم إياه؟ قال: بلى، قال عمرو: اكتبها فكتبها

أبو موسى، قال عمرو: يا أبا موسى، آئت على أن تسمى رجلاً يلي أمر هذه الأمة؟ فسمه لى، فإن أقدر على أن أتابعك فلك على أن أتابعك، وإلا فلى عليك أن تتابعنى، قال أبو موسى: أسمى لك معاوية بن أبى سفيان! فلم ييرحا مجلسهما حتى استبأ، ثم خرجا إلى الناس، فقال أبو موسى: إنى وجدت مثل عمرو كمثل الذى قال الله عز وجل: ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس وجدت مثل أبى موسى كمثل الذى قال الله عز وجل: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. وكتب كل واحد منهما مثله الذى ضرب لصاحبه إلى الأمصار^(١).

والزهري لم يدرك الحادثة فهى مرسله، ومراسيله كأدراج الرياح لا تقوم بها حجة^(٢)، كما قرّر العلماء، وهناك طريق أخرى أخرجها ابن عساكر بسنده إلى الزهري وهى مرسله، وفيها أبو بكر بن أبى سبرة قال عنه الإمام أحمد: كان يضع الحديث^(٣). وفى سنده أيضاً الواقدى، وهو متروك^(٤)، وهذا نصها: ... رفع أهل الشام المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله والحكم بما فيه، وكان ذلك مكيدة من عمرو بن العاص، فاصطلحوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يوافقوا رأس الحول أذرح، وحكموا حكمين ينظران فى أمور الناس فيرضون بحكمهما، فحكم على أبا موسى الأشعري، وحكم معاوية عمرو بن العاص، وتفرق الناس فرجع على إلى الكوفة بالاختلاف والدغل، واختلف عليه أصحابه فخرج عليه الخوارج من أصحابه ممن كان معه، وأنكروا تحكيمه وقالوا: لا حكم إلا لله. ورجع معاوية إلى الشام بالألفة واجتماع الكلمة عليه، ووافق الحكمان بعد الحول بأذرح فى شعبان سنة ثمان وثلاثين، واجتمع الناس إليهما وكان بينهما كلام اجتمعا عليه فى السر خالفه عمرو بن العاص فى العلانية، فقدم أبا موسى فتكلم وخلع علياً ومعاوية، ثم تكلم عمرو بن العاص فخلع علياً وأقر معاوية، فتفرق الحكمان ومن كان اجتمع إليهما، وبابح أهل الشام معاوية فى ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين^(٥).

(١) المصنف (٥/٤٦٣)، مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).

(٢) المراسيل لأبى حاتم، ص (٣)، الجرح والتعديل (١/٢٤٦).

(٣) تهذيب التهذيب (١٢/٢٧)، مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).

(٤) مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).
(٥) تاريخ دمشق (١٦/٥٣).

وأما طرق أبي مخنف فهي معلولة به، وبأبي جناب الكلبى، فالأول: وهو أبو مخنف لوط بن يحيى، ضعيف ليس بثقة^(١)، وإخبارى تالف غال في الرفض. وأما الثانى قال فيه ابن سعد: كان ضعيفاً^(٢)، وقال البخارى وأبو حاتم: كان يحيى القطان يضعفه^(٣)، وقال عثمان الدارمى: ضعيف^(٤)، وقال النسائى: ضعيف^(٥).

هذه طرق قصة التحكيم المشهورة، والمناظرة بين أبى موسى وعمرو بن العاص المزعومة، أمثل هذا تقوم به حجة، أو يعول على مثل ذلك فى تاريخ الصحابة الكرام وعهد الخلفاء الراشدين، عصر القدوة والأسوة، ولو لم يكن فى هذه الروايات إلا الاضطراب فى متونها لكفاهها ضعفاً، فكيف إذا أضيف إلى ذلك ضعف أسانيدها^(٦).

٢ - أهمية هذه القضية فى جانب الاعتقاد والتشريع: ومع ذلك لم تنقل لنا بسند صحيح، ومن المحال أن يطبق العلماء على إهمالها مع أهميتها وشدة الحاجة إليها^(٧).

٣ - وردت رواية تناقض تلك الروايات تماماً، وذلك فيما أخرجه البخارى فى تاريخه مختصراً بسند رجاله ثقات، وأخرجه ابن عساكر مطولاً، عن الحصين بن المنذر أن معاوية أرسله إلى عمرو بن العاص فقال له: إنه بلغنى عن عمرو كذا وكذا فاذهب فانظر ما هذا الذى بلغنى عنه، فأتيته فقلت: أخبرنى عن الأمر الذى وُئيت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس وقالوا ولا والله ما كان ما قالوا ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له: ما ترى فى هذا الأمر؟ قال: أرى أنه فى نفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قال: فقلت: أين تجعلنى من هذا الأمر أنا ومعاوية؟ قال: أن يستعن بكما فبيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما^(٨).

وقد روى أبو موسى عن تورع عمرو ومحاسبته لنفسه، وتذكره سيرة أبى بكر وعمر، وخوفه من الإحداث بعدهما، قال أبو موسى: قال لى عمرو بن العاص:

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٢٣).

(٢) مرويات أبى مخنف ص (٤٠٧).

(٣) التاريخ الكبير (٤/٢٦٧)، الجرح والتعديل (٩/١٣٨).

(٤) التاريخ للدارمى، ص (٢٣٨)، تحقيق مواقف الصحابة. (٢/٢٢٣).

(٥) الضعفاء والمتركون، ص (٢٥٣). (٦) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص (٤٠٨).

(٧) المصدر نفسه، ص (٤٠٨). (٨) التاريخ الكبير (٥/٣٩٨).

والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحلُّ لهما، غُبنا وأخطأ أو نقص رأيهما، ووالله ما كانا مغبونين ولا مخطئين ولا ناقصي الرأي. ووالله ما جاء الوهم والضعف إلا من قبلنا^(١).

٤- إن معاوية كان يقر بفضل علي عليه وأنه أحق بالخلافة منه: فلم ينازعه الخلافة ولا طلبها لنفسه في حياة علي، فقد أخرج يحيى بن سليمان الجعفي بسند جيد^(٢)، عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً في الخلافة أو أنت مثله؟ قال: لا، وإني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه، أطلب بدمه؟ فأتوا علياً فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا علياً فكلموه فلم يدفعهم إليه^(٣)، فهذا هو أصل النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فالتحكيم من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها لا لاختيار خليفة أو عزله^(٤).

ويقول ابن حزم في هذا الصدد: إن علياً قاتل معاوية لامتناعه من تنفيذ أوامره في جميع أرض الشام، وهو الإمام الواجب طاعته، ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه من أولاد عثمان وأولاد الحكم بن أبي العاص لسنه وقوته على الطلب بذلك، وأصاب في هذا وإنما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط^(٥). وفهم الخلاف على هذه الصورة - وهي صورته الحقيقية - يبين إلى أي مدى تخطئ الروايات السابقة عن التحكيم في تصوير قرار الحكيم، إن الحكيم كانا مفوضين للحكم في الخلاف بين علي ومعاوية، ولم يكن الخلاف بينهما حول الخلافة ومن أحق بها منهما، وإنما كان حول توقيع القصاص على قتلة عثمان، وليس هذا من أمر الخلافة في شيء، فإذا ترك الحكمان هذه القضية الأساسية، وهي ما طلب إليهما الحكم فيه، واتخذوا قراراً في شأن الخلافة، كما تزعم الرواية الشائعة، فمعنى ذلك أنهما لم يفهما موضوع النزاع، ولم يحيطا بموضوع الدعوى، وهو مستبعد جداً^(٦).

(١) العواصم من القواصم، ص (١٧٨ - ١٨٠). (٢) فتح الباري (١٣/٨٦).

(٤) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص (٤٠٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/١٤٠).

(٦) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢/٢٢٥).

(٥) الفصل في الملل والنحل (٤/١٦٠).

٥ - أن الشروط التي يجب توافرها في الخليفة هي العدالة والعلم، والرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتديير المصالح، وأن يكون^(١) قرشياً، وقد توافرت هذه الشروط فى على -رضى الله عنه- فهل بيعته منعقدة أم لا؟ فإن كانت منعقدة - ولا شك- وقد بايعه المهاجرون والأنصار أهل الحل والعقد، وخصومه يقرون له بذلك، فقول معاوية السابق يدل عليه بأن «الإمام إذا لم يَحُلْ عن صفات الأئمة، فرام العاقدون له عقد الإمامة أن يخلعوه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً باتفاق الأئمة، فإن عقد الإمام لازم، لا اختيار فى حله من غير سبب يقتضيه، ولا تنتظم الإمامة ولا تفيد الغرض المقصود منها إلا مع القطع بلزومها، ولو تخير الرعايا فى خلع إمام الخلق على حكم الإيثار والاختيار لما استتب للإمام طاعة ولما استمرت له قدرة واستطاعة ولما صح لمنصب الإمام معنى^(٢). وإدأ فليس الأمر بهذه الصورة التى تحكيها الروايات أن كل من لم يرض بإمامه خلعه، فعقد الإمامة لا يحله إلا من عقده، وهم أهل الحل والعقد، وبشرط إخلال الإمام بشروط الإمامة، وهل على رضى الله عنه فعل ذلك واتفق أهل الحل والعقد على عزله عن الخلافة وهو الخليفة الراشد حتى يقال إن الحكمين اتفقا على ذلك، فما ظهر منه قط إلى أن مات -رضى الله عنه- شىء يوجب نقض بيعته، وما ظهر منه قط إلا العدل، والجد والبر والتقوى والخير^(٣).

٦ - أن الزمان الذى قام فيه التحكيم زمان فتنة، وحالة المسلمين مضطربة مع وجود خليفة له، فكيف تنتظم حالتهم مع عزل الخليفة! لا شك أن الأحوال ستزداد سوءاً، والصحابة الكرام أحذق وأعقل من أن يقدموا على هذا، وبهذا يتضح بطلان هذا الرأى عقلاً ونقلاً.

٧ - أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حصر الخلافة فى أهل الشورى وهم الستة وقد رضى المهاجرون والأنصار بذلك، فكان ذلك إذناً فى أن الخلافة لا تعدو هؤلاء إلى غيرهم ما بقى منهم واحد، ولم يبق منهم فى زمان التحكيم إلا سعد بن أبى

(١) الأحكام السلطانية المارردى، ص (٦)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص (٢٠)، غياث الأمم، ص (٧٩) وما بعدها.

(٢) غياث الأمم، ص (١٢٨)، مرويات أبى مخنف، ص (٤١٠).

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/٢٣٨).

وقاص وقد اعتزل الأمر ورجب عن الولاية، والإمارة، وعلى بن أبي طالب القائم بأمر الخلافة، وهو أفضل الستة بعد عثمان فكيف يتخطى بالأمر إلى غيره^(١).

٨ - أوضحت الروايات أن أهل الشام بايعوا معاوية بعد التحكيم: والسؤال ما المسوغ الذي جعل أهل الشام يبايعون معاوية؟ إن كان من أجل التحكيم؛ فالحكمان لم يتفقا ولم يكن ثمة مبرر آخر حتى ينسب عنهم ذلك، مع أن ابن عساكر نقل بسند رجاله ثقات عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي^(٢)، أعلم الناس بأمر الشام^(٣) أنه قال: كان على بالعراق يدعى أمير المؤمنين، وكان معاوية بالشام يدعى الأمير فلما مات على دعى معاوية بالشام أمير المؤمنين^(٤).

فهذا النص يبين أن معاوية لم يبائع بالخلافة إلا بعد وفاة على، وإلى هذا ذهب الطبري، فقد قال في آخر حوادث سنة أربعين: وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء^(٥)، وعلق على هذا ابن كثير بقوله: يعنى لما مات على قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبق له عندهم منازع^(٦)، وكان أهل الشام يعلمون أن معاوية ليس كفتنا لعلنا بالخلافة، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف على رضى الله عنه، فإن فضل على، وسابقته، وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله. . كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه، أبي بكر، وعمر، وعثمان وغيرهم رضى الله عنهم^(٧)، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفة فإقتلوا الآخر منهما»^(٨)، والنصوص في هذا المعنى كثيرة^(٩)، ومن المحال أن يطبق الصحابة على مخالفة ذلك^(١٠).

٩ - أخرج البخارى في صحيحه عن ابن عمر قال: دخلتُ على حفصة ونوساتها^(١١) تنطف^(١٢) قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يجعل لى من الأمر شىء، فقالت: الحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون فى احتباسك عنهم

(١) مرويات تاريخ أبى مخنف، ص (٤١١). (٢) سعيد بن عبد العزيز التنوخي ثقة إمام (التقريب).

(٤) تاريخ الطبرى (٧٦/٦).

(٦) البداية والنهاية (١٦/٨).

(٨) صحيح مسلم (٣/١٤٨٠).

(١٠) مرويات أبى مخنف، ص (٤١٢).

(١٢) تنطف: تقطر.

(٣) تهذيب التهذيب (٦٠/٤).

(٥) المصدر نفسه (٧٦/٦).

(٧) الفتاوى (٧٣/٣٥).

(٩) سنن البيهقي (٨/١٤٤).

(١١) نوساتها: صفاتها.

فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم فى هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب ابن مسلمة: فهلا أجيته؟ قال عبد الله: فحللت جوتى وهممت أن أقول أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عنى غير ذلك، فذكرت ما أعد الله فى الجنان. قال حبيب: حفظت وعصمت^(١).

هذا الحديث قد يفهم منه مبايعة معاوية بالخلافة، وليس فيه تصريح بذلك، وقد قال بعض العلماء: إن هذا الحديث كان فى الاجتماع الذى صالح فيه الحسن بن على رضى الله عنه معاوية - رضى الله عنه - وقال ابن الجوزى: إن هذه الخطبة كانت فى زمن معاوية لما أراد أن يجعل ابنه يزيد ولى عهده، ويراه ابن حجر فى التحكيم^(٢)، ودلالة النص على القولين الأولين أقوى. فقولته: فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم.. دليل على اجتماع الكلمة على معاوية، وأيام التحكيم أيام فرقة واختلاف لا أيام جمع وائتلاف^(٣).

١٠ - حقيقة قرار التحكيم: ليس من شك فى أن أمر الخلاف الذى رأى الحكمان رده إلى الأمة، أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين على ومعاوية حول قتلة عثمان، ولم يكن معاوية مدعياً للخلافة، ولا منكرًا حق على فيها، كما تقرر سابقاً، وإنما كان ممتنعاً عن بيعته، وعن تنفيذ أوامره فى الشام حيث كان متغلباً عليها بحكم الواقع لا بحكم القانون، مستفيداً من طاعة الناس له بعد أن بقى والياً فيها زهاء عشرين سنة^(٤)، وقد قال ابن دحية الكلبي فى كتابه «أعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين»: قال أبو بكر محمد بن الطيب الأشعري - الباقلانى - فى مناقب الأئمة: فما اتفق الحكمان قط على خلعه - على بن أبى طالب - . . . وعلى أنهما لو اتفقا على خلعه لم ينخلع حتى يكون الكتاب والسنة المجتمع عليهما يوجبان خلعه، أو أحد منهما على ما شرطاً فى الموافقة بينهما، أو إلى أن يبين ما يوجب خلعه من الكتاب والسنة، ونص كتاب على - عليه السلام - اشترط على الحكيمين أن يحكما بما فى كتاب الله عز وجل من فاتحته إلى خاتمته -

(٢) فتح البارى (٧/٤٦٦).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/٢٣٤).

(١) البخارى (٥/٤٨).

(٣) مرويات أبى مخنف

لا يجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه، ولا يميلان إلى هوى ولا إدهان، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق، وإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله فلا حكم لهما . . والكتاب والسنة يثبتان إمامته، ويعظمانه ويثنيان عليه، يشهدان بصدقه وعدالته، وإمامته، وسابقته في الدين، وعظيم جهاده في جهاد المشركين، وقرابته من سيد المرسلين، وما خصص به من القدم في الحلم والمعرفة بالحكم، ووفور الحلم، وأنه حقيق بالإمامة، وأهل حمل أعباء الخلافة^(١).

١١ - مكان انعقاد المؤتمر: كان الموعد المحدد لاجتماع الحكمين - كما جاء في الوثيقة - في رمضان في عام ٣٧هـ، إذا لم تحدث عوائق، في موضع وسط بين العراق والشام، وهذا الموضع المختار هو دومة الجندل^(٢)، في روايات موثقة، وأذرح^(٣) في روايات أخرى دونها في الإلتقان، ولعل لقرب المكانين من بعضهما أثر في اختلاف الروايات، إذ يقول خليفة بن خياط^(٤): ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب، وقد تم الاجتماع في الموعد المحدد بدون عوائق^(٥).

إن المكان الذي اجتمع فيه الحكمان هو دومة الجندل، وهذا بخلاف ما جزم به ياقوت الحموي من أن التحكيم حدث في أذرح، واستدل على ذلك ببعض روايات لم بينها، وبالأشعار، وبخاصة بشعر ذى الرمة^(٦)، في مدح بلال بن أبي بردة^(٧) وهو قوله:

أبوك تلافى الدين والناس بعدما تشاءوا وبيت الدين منقلع الكسر
فشد إصار الدين أيام أذرح ورد حروباً قد لقحن إلى عقر^(٨)

١٢ - هل حضر سعد بن أبي وقاص اجتماع الحكمين: اجتمع الحكمان في موعهما المحدد، ومع كل واحد منهما بضع مئات يمثلون وفدين، وفد عن أهل العراق، وآخر يمثل أهل الشام، وطلب الحكمان من عدد من أعيان قريش

(١) أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين ص (١٧٧).

(٢) دومة الجندل: غرب مدينة الجوف في شمال الجزيرة العربية.

(٣) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البلقاء.

(٤) تاريخ خليفة، ص (١٩١، ١٩٢). (٥) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد ص (٢٦٧).

(٦) ذى الرمة: هو غيلان بن عقبة توفي ١١٧هـ، سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٧).

(٧) بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، تهذيب تاريخ دمشق (٣/٣٢١).

(٨) ديوان ذى الرمة، ص (٣٦١ - ٣٦٢)، نقلاً عن خلافة علي، ص (٢٧٢).

وفضلائهم الحضور لمشاورتهم والاستئناس برأيهم، ولم يحضر الاجتماع عدد من كبار الصحابة كانوا قد اعتزلوا القتال منذ بدايته، وأفضل هؤلاء: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فإنه لم يحضر التحكيم ولا أراد ذلك ولا همَّ به^(١)، فعن عامر بن سعد أن أخاه عمر انطلق إلى سعد في غنم له خارجاً من المدينة، فلما أراه سعد قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الركب، فلما أناه قال: يا أبة، أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك، والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»^(٢).

سابعاً: هل يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية؟

يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية، وذلك بتحمل قادة البلاد الإسلامية جميعاً مسؤولياتهم ومن ورائهم الأمة الإسلامية التي يحكمونها في الضغط الجادَّ الصادق، على الطرفين المتنازعين، لكي يوقفا ما بينهما من قتال، ويلجأ إلى التحكيم الشرعي في الإسلام، فيرسل هذا الطرف حكماً من قبله، وذلك حكماً آخر من قبله أيضاً، للفصل في النزاع القائم وذلك على ضوء ما يلي:

١ - تحديد صلاحيات الحكّمين في إصدار الأحكام التي لا بدَّ منها لحل المشكلات التي هي سبب النزاع.

٢ - جعل مصادر التشريع الإسلامي هي المرجع الوحيد لإصدار تلك الأحكام والحلول التي تفصل في مسائل النزاع.

٣ - أخذ العهد على كل طرف من طرفي النزاع، وأخذ العهد على جميع قادة البلاد الإسلامية بقبول ما يصدره الحكمان من أحكام، وحلول مشروعة لإنهاء النزاع الرَّاهن، على أنها واجبة التنفيذ بحكم الإسلام، وأن الخروج عليها، أو الرضا بذلك الخروج يترتب عليه الإثم شرعاً.

(١) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد ص (٢٧٢).

(٢) المسند (١/١٦٨) وقال أحمد شاعر: إسناده صحيح (٣/٢٦)، خلافة علي بن أبي طالب، للسلمي، ص (١٠٧).

٤ - إذا أصدر الحكمان ما اتَّفَقَا عليه من أحكام، وحلول، وانقاد لها الطرفان المتنازعان، قُضِيَ الأمر، وكفى الله المؤمنين القتال.

٥ - إذا رفض أحد الطرفين، أو كلاهما، الانقياد لقضاء الحكامين اعتبر الطرف الراض هو الطرف الباغي، سواء صدر الرفض من أحدهما، أو من كليهما، ووجب شرعاً على القوات الإسلامية في الأقطار الأخرى أن تضع نفسها تحت تصرف ما يصدره الحكمان من قرارات عسكرية، من أجل التدخل لحسم النزاع بالقوة على وجه لا تترتب عليه أضرار ومخاطر هي أكبر من ضرر النزاع القائم.

٦- ويكون من صلاحيات الحكامين -بالاتفاق - إصدار القرارات التي تخص كيفية تحريك القوات المسلحة في الأقطار الإسلامية الأخرى، من أجل حل النزاع القائم على ضوء ما سلف بيانه^(١)، ولعلّ اللجوء إلى مثل هذه الطريقة في حل المنازعات بين الأقطار الإسلامية، كفيل بسد الطريق على أية قوة خارجية تتدخل في نزاعات المسلمين، بحجة أن بعض أطراف النزاع دعاها إلى هذا التدخل. . ومن ثم تستغل هذه الفرصة، لكي تتآمر على المسلمين، فتعمل على تصعيد تلك النزاعات، وفرض الحلّ الذي يحلّو لها، ويكون فيه مصلحتها فقط، وليعاني المسلمون، بعدئذ، من آثار ذلك الحلّ أسوأ ممّا كانوا يُعانون من فتنة النزاع نفسها، فهذه المعاناة لا تهمها في شيء، لا، بل إنّ هذه المعاناة هي من جملة الاهتمامات التي فرضت من أجل تفجيرها ذلك الحلّ المشؤوم، قلنا: لعل اللجوء إلى التحكيم، على نحو ما سلف بيانه، يسد الطريق في وجه تلك القوى الخارجية التي تبغى في صفوف المسلمين الفساد، هذا، وإن الصفة الإلزامية شرعاً للحل عن طريق التحكيم الذي عرضناه - تستند إلى إجماع الصحابة، فقد أجمع الصحابة كلهم في عهد النزاع الذي نشب بين علي ومعاوية على اللجوء إلى التحكيم، والقبول به. . سواء في ذلك الصحابة الذين كانوا مع علي، والصحابة الذين كانوا مع معاوية، والصحابة الذين اعتزلوا الفريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وغيرهما - رضى الله عنهم أجمعين^(٢).

(١)، (٢) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (٣/١٦٦٥).

ثامناً: موقف أهل السنة من تلك الحروب:

إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام - رضى الله عنهم- هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم -رضى الله عنهم- لما يسببه الخوض فى ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويطرأ عنهم، ويترحم عليهم، ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم، وأن الذى حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد والجمع ماثبون فى حالتى الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ فى اجتهاده، وأن القتال والمقتول من الصحابة فى الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم، وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التى تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة، أذكر بعض النصوص التى فيها الإشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هى (١):

١- قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ففى هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال، لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله - عز وجل - مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم، وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان، فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا فى موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل فى اسم الإيمان الذى ذكر فى هذه الآية، فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيماناً حقيقياً، ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار فى إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد (٢).

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام (٢/٧٢٧)، تنزيه لخال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان من

الظلم والضيق فى مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، ص (٤١).

(٢) العواصم من القواصم ص (١٦٩، ١٧٠)، أحكام القرآن (٤/١٧١٧).

٢ - عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»^(١). والفرقة المشار إليها فى الحديث هى ما كان من الاختلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما، وقد وصف ﷺ الطائفتين معاً بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة؛ إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب على أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن علياً هو المصيب، وإن كان معاوية مجتهداً وهو مأجور إن شاء الله، ولكن على هو الإمام فله أجران كما ثبت فى صحيح البخارى: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجره»^(٢).

٣ - وعن أبى بكره قال: بينما النبى ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبى ﷺ: «ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(٣). ففى هذا الحديث شهادة من النبى ﷺ بإسلام الطائفتين أهل العراق وأهل الشام، والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين كفروا علياً ومن معه ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام. ولذا كان يقول سفيان بن عيينة: قوله: فئتين من المسلمين يعجبنا جداً. قال البيهقى: وإنما أعجبهم لأن النبى ﷺ سماهم جميعاً مسلمين، وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن على بعد وفاة على فى تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبى سفيان^(٤).

فهذه الأحاديث المتقدم ذكرها فيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع على وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبى سفيان، وقد وصفهم النبى ﷺ بأنهم من أمته^(٥). كما وصفهم بأنهم جميعاً متعلقون بالحق لم يخرجوا عنه، كما شهد لهم ﷺ بأنهم مستمرون على الإيمان ولم يخرجوا عنه بسبب القتال الذى حصل بينهم، وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا

(١) مسلم (٧٤٥/٢). (٢) البخارى مع شرحه فى فتح البارى (٣١٨/١٣).

(٣) البخارى، ك الفتى رقم (٧١٠٩). (٤) الاعتقاد للبيهقى، ص (١٩٨)، فتح البارى (٦٦/١٣).

(٥) فى صحيح مسلم (٧٤٦/٢) تكون فى أمى فرقان.

فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴿ [الحجرات: ٩]. وقد قدمنا أن مدلول الآية ينتظمهم رضى الله عنهم أجمعين، فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم بل هم مجتهدون متأولون، وقد بين الحكم فى قتالهم ذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه كما مر معنا. فالواجب على المسلم أن يسلك فى اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام رضى الله عنهم مسلك الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة، وهو الإمساك عما حصل بينهم - رضى الله عنهم - ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم، وكتب أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية النقية فى حق أولئك الصفوة المختارة، وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التى وقعت بينهم فى أقوالهم الحسنة التى منها^(١):

١- سئل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن القتال الذى حصل بين الصحابة فقال: تلك دماء طهر الله يدي منها، أفلا أظهر بها لساني؟! مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها^(٢). قال البيهقى معلقاً على قول عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى: هذا حسن جميل لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب^(٣).

٢- سئل الحسن البصرى رحمه الله تعالى عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: قتال شهدته أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا^(٤). ومعنى قول الحسن هذا أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، وما علينا إلا أن نتبعهم فيما اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله - عز وجل - إذ كانوا غير متهمين فى الدين^(٥).

٣- سئل جعفر بن محمد الصادق عما وقع بين الصحابة فأجاب بقوله: أقول ما قال الله: ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [طه: ٥٢]^(٦).

٤- قال الإمام أحمد رحمه الله بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين على ومعاوية قال: ما أقول فيهم إلا الحسنى^(٧)، وعن إبراهيم بن آرز الفقيه قال

(١) عقيدة أهل السنة فى الصحابة (٢/٧٣٢). (٢) الإنصاف للباقلانى، ص (١٦)، الطبقات (٥/٣٩٤).

(٣) مناقب الشافعى، ص (١٣٦). (٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٣٣٢).

(٥) المصدر نفسه (١٦/٣٣٢). (٦) الإنصاف للباقلانى، ص (١٦٤).

(٧) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى، ص (١٦٤).

حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية، فأعرض عنه فقيل له : يا أبا عبد الله هو رجل من بنى هاشم فأقبل عليه فقال: اقرأ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤١].

٥- وقال ابن أبي زيد القيرواني في صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله ﷺ، وما ينبغي أن يذكروا به، فقال : وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكره، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب^(١).

٦- وقال أبو عبد الله بن بطة أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة: ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم وأمرنا بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم^(٢).

٧- قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني: ويجب أن يعلم أن ماجرى بين أصحاب النبي ﷺ ورضى الله عنهم من المشاجرة نكف عنه وترحم على الجميع ونثنى عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان، ونعتقد أن علياً عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران، وأن الصحابة رضى الله عنهم ما صدر منهم كان باجتهاد، فلهم الأجر ولا يفسقون ولا يباعدون. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] وقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران على اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضى الله عنهم ورضوا عنه، ويدل على صحة هذا القول قوله ﷺ للحسن رضى الله عنه: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله

(١) رسالته المشهورة مع شرحها الثمر الداني، ص (٢٣).

(٢) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، ص (٢٦٨).

به بين فئتين عظيمتين من المسلمين^(١)، فأثبت العظمة لكل واحدة من الطائفتين، وحكم لهما بصحة الإسلام، وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]... إلى أن قال: ويجب الكف عما شجر بينهم والسكوت عنه^(٢).

٨- وقال ابن تيمية في صدد عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: يسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما هو زيد فيه، ونقص، وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون^(٣).

٩- وقال ابن كثير: أما ما شجر بينهم بعده -عليه الصلاة والسلام- فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل، ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين، والاجتهاد يخطئ ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ومأجور أيضاً، وأما المصيب فله أجران^(٤).

١٠- وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجريين^(٥).

فأهل السنة مجمعون على وجوب السكوت عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضى الله عنهم بعد قتل عثمان، والترحم عليهم وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم، ونشر محاسنهم رضى الله عنهم وأرضاهم^(٦).

تاسعاً: تغيير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين:

بعد معركة صفين بدأت الموازين تتبدل لصالح معاوية رضى الله عنه، فقد خرج الخوارج من جيش على رضى الله عنه، وانشغل بقتالهم، بينما ازداد أمر معاوية

(١) البخارى . ك الفتن رقم (٧١٠٩).

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به، ص (٦٧ - ٦٩).

(٣) العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس، ص (١٧٣).

(٤) الباعث الخبيث، ص (١٨٢).

(٥) فتح البارى (١٣/٦٣٤)، عقيدة أهل السنة (٢/٧٤٠).

(٦) عقيدة أهل السنة (٢/٧٤٠).

قوة لا سيما بعد انتهاء أمر التحكيم، وعدم الوصول إلى حل جذرى وكان معاوية رضى الله عنه يعمل بشتى الوسائل سرّاً وعلانية على إضعاف جانب أمير المؤمنين على رضى الله عنه، واستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، فأرسل جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص رضى الله عنه، سيطر عليها وضمها إليه، وقد ساعده على ذلك عدة أمور منها:

١- انشغال أمير المؤمنين على بالخوراج.

٢- عامل أمير المؤمنين على رضى الله عنه على مصر - محمد بن أبى بكر- لم يكن على قدر من الدهاء كسلفه قيس بن سعد الساعدى الأنصارى، فدخل فى حرب مع المطالبين بدم عثمان ولم يسايسهم، كما كان يصنع الوالى السابق فهزموه.

٣- اتفاق معاوية مع المطالبين بدم عثمان رضى الله عنه فى مصر فى الرأى، فساعده فى السيطرة عليها^(١).

٤- بُعد مصر عن مركز أمير المؤمنين على رضى الله عنه وقربها من الشام.

٥- طبيعتها الجغرافية فهى متصلة بأرض الشام عن طريق سيناء وتمثل امتداداً طبيعياً، وقد أضافت مصر قوة كبيرة لمعاوية بعوثة إلى شمال الجزيرة الغربية، ومكة والمدينة، وإلى اليمن ولكن لم تلبث هذه البعوث أن ردت على أعقابها عندما أرسل أمير المؤمنين على من يصدّها^(٢)، وعمل معاوية رضى الله عنه على استمالة كبار أعيان القبائل وعمال على رضى الله عنه، فقد حاول سحب قيس بن سعد رضى الله عنه عامل على مصر إليه فلم يستطع، ولكنه استطاع أن يثير شك حاشية على رضى الله عنه ومستشاريه فيه فعزله^(٣)، وكان عزل سعد عن ولاية مصر مكسباً كبيراً لمعاوية، كما حاول سحب زياد بن أبية عامل على رضى الله عنه على فارس ففشل فى ذلك^(٤)، وقد استطاع معاوية رضى الله عنه أن يؤثر على بعض الأعيان والولاة بسبب ما يمنيهم ويعدّهم به، ولما يرونه من علو أمر معاوية وتفرق أمر على رضى

(١) الطبقات (٨٣/٣) خلافة على، لعبد الحميد، ص (٣٥١) سند صحيح.

(٢) تاريخ خليفة، ص (١٩٨) بدون سند.

(٣) ولاة مصر، ص (٤٥، ٤٦).

(٤) الاستيعاب (٥٢٥/٢، ٥٢٦).

الله عنه؛ إذ يقول فى إحدى خطبه: ألا إن بسرّاً قد اطلع من قبل معاوية، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون عليكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، وبطاعتهم أميرهم ومعصيتكم أميركم، وبأدائهم الأمانة وبخياتكم، استعملت فلاناً فغلّ وغدر وحمل المال إلى معاوية، واستعملت فلاناً فخان وغدر وحمل المال إلى معاوية، حتى لو ائتمنت أحدهم على قدح خشيت على علاقته، اللهم إنى أبغضتهم وأبغضونى، فأرحهم منى وأرحنى منهم^(١). ولم يستسلم أمير المؤمنين على رضى الله عنه لهذه المصائب، وهذا التقاعس، والتخاذل فقد بذل جهده فى استنهاض همة جيشه بكل ما أوتى من علم وفصاحة وبيان، فخطبه الحماسية المشهورة التى اشتهرت عنه، وتعتبر من عيون التراث لم يقلها من فراغ أو خيال، بل مرّ تجرعه، وواقع أليم عاصره، ولقد ذكرت منها فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه^(٢).

عاشراً: المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما:

بالرغم من كل هذه المحاولات والجهود المضنية لم يستطع أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن يحقق ما يريد؛ إذ لم يستطع أن يغزو الشام بسبب التفكك والتصدع الذى حدث فى داخل جيشه، وتفرق كلمتهم، وظهور الأهواء، فاضطر أمير المؤمنين على رضى الله عنه فى سنة أربعين للهجرة أن يوافق لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه على أن يكون العراق له، والشام لمعاوية، ولا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو^(٣)، قال الطبرى فى تاريخه: وفى هذه السنة - ٤٠هـ - جرت بين على وبين معاوية رضى الله عنهما المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما، يطول بذكرها الكتاب على وضع الحرب بينهما، ويكون لعلى العراق، ومعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو^(٤)، ويبدو أن هذه المهادنة لم تستمر، فمعاوية أرسل بسر بن أرطاة إلى الحجاز واليمن فى العام الذى استشهد فيه على رضى الله عنه^(٥).

(١) التاريخ الصغير (١/١٢٥) بسند منقطع وله شواهد.

(٢) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢/١٠٢٠).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/٥٦)، خلافة على، عبد الحميد، ص (٣٥٦).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/٥٦).

(٥) التاريخ الصغير للبخارى (١/٤١)، وخلافة على بن أبى طالب، ص (٤٣١).

الحادى عشر: استشهاد أمير المؤمنين على واستقبال معاوية خبر مقتله:

ولما لم يتمكن على رضى الله عنه من تجهيز الجيش بما يصبو ويريد، ورأى خذلانهم، كره الحياة وتمنى الموت، وكان يتوجه إلى الله بالدعاء ويطلب منه عز وجل أن يعجل منيته، فمما روى عنه أنه خطب يوماً فقال: اللهم إني قد سئمتهم وسئمونى، ومللتهم وملونى، فأرحنى منهم وأرحهم منى، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم، ووضع يده على لحيته^(١)، وقد ألح على رضى الله عنه فى الدعاء فى أيامه الأخيرة، فعن جندب قال: ازدحموا على على رضى الله عنه حتى وطئوا على رحاله، فقال: اللهم إني قد مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى، فأرحنى منهم وأرحهم منى^(٢)، وفى رواية أخرى عن أبى صالح قال: شهدت علياً وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقعقع الورق، فقال: اللهم إني سألتهم ما فيه فمنعونى، اللهم إني قد مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى، وحملونى على غير أخلاقى، فأبدلهم بى شراً منى، وأبدلنى بهم خيراً منهم، ومث قلوبهم ميثه الملح فى الماء^(٣)، وفى رواية: فلم يلبث إلا ثلاثاً أو نحو ذلك، حتى قتل رحمه الله^(٤)، وقال الحسن بن على: قال لى على رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ سنع لى الليلة فى منامى، فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدود؟^(٥) قال: ادع عليهم، قلت: اللهم أبدلنى بهم من هو خير منهم، وأبدلهم بى من هو شر منى لهم. قال الحسن رضى الله عنه: فخرج فضربه الرجل^(٦).

ولما جاء خبر قتل على إلى معاوية رضى الله عنهما جعل يبكى، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدريين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم^(٧). وكان معاوية يكتب فيما ينزل به يسأل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن ذلك، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبى طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له: دعنى عنك^(٨)، وقد

(١) مصنف عبدالرزاق (١٥٤/١٠) بإسناد صحيح، الطبقات (٤/٣).

(٢) الأحاد والمثنائى لابن أبى عاصم (٣٧/١) بإسناد حسن، خلافة على، ص (٤٣٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/١٤٤).

(٤) المحن، ص (٩٩) لأبى العرب، وخلافة على، لعبد الحميد، ص (٤٣٢).

(٥) الأود: العوج، اللدود: الخصومة. (٦) تاريخ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص (٦٤٩).

(٧) البداية والنهاية (٨/١٣٣). (٨) الاستيعاب (٣/١١٠٨).

طلب معاوية رضى الله عنه فى خلافته من ضرار الصدائى أن يصف له علياً رضى الله عنه فقال: أعفنى يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنّه، قال: أما إذا لا بد من وصفه فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً^(١)، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استبأناه، ونحن -والله- مع تقريبه إيانا وقربه منا- لانكاد نكلمه هيبه له، يعظم أهل الدين ويُقرب المساكين، لا يطمع القوى فى باطله، ولا يئأس الضعيف من عدله. وأشهد أنى قد رأيت فى بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سدوله^(٢)، وغارت نجومه- قابضاً على لحيته، يتململ تلمل السليم^(٣)، ويبكى بكاء الحزين، ويقول: يادنيا غررى غيرى، إلىّ تعرضت أم إلىّ تشوّفت؟ هيهات هيهات، قد بايتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كثير، آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها وهو فى حجرها^(٤).

وعن عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت عليه وجلست، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف^(٥) الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج على وهو يقول: قُضى لى ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غُفر لى ورب الكعبة^(٦).

(١) الاستيعاب (٣/١١٠٧).

(٢) سدوله : سدلته.

(٣) السليم: الملدوغ، كانت العرب تسميه كذلك تفاؤلاً بشفائه.

(٤) الاستيعاب (٣/١١٠٨).

(٥) أجيف الباب : رُدَّ وأغلق.

(٦) البداية والنهاية (٨/١٣٣).

المبحث الرابع

معاوية رضى الله عنه فى عهد

الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم

كانت بيعة الحسن بن على رضى الله عنهما فى شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ، وذلك بعد استشهاده أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم المرادى^(١)، وقد اختار الناس الحسن بعد والده، ولم يعين أمير المؤمنين أحداً من بعده، فعن عبد الله بن سبيع قال: سمعت علياً يقول: لتُخضبن هذه من هذا^(٢)، فما ينتظر بى الأشقى^(٣). قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير^(٤) عترته، قال: إذن والله تقتلون بى غير قاتلى. قالوا: فاستخلف علينا، قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ، قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ - وقال وكيع^(٥) مرة -: إذا لقيته؟ قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم^(٦)، وفى رواية: أقول: اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك ثم قبضتني وتركتك فيهم^(٧)، وبعد مقتل على صلي عليه الحسن بن على وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقاتل المحلّين، فقال له الحسن رضى الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط؛ فبايعه وسكت، وبايعه الناس^(٨)، وقد اشترط الحسن بن على على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت^(٩)، وفى رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا:

(١) الطبقات (٣/٣٥-٣٨) تحقيق د. إحسان عباس.

(٢) مجمع الزوائد (٩/١٣٩)، مسند أحمد (٢/٣٢٥) حسن لغيره.

(٤) نبير عترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب (٤/٥، ٥٣٨).

(٥) وكيع بن الجراح، ثقة حافظ عابد، التقريب، ص (٥٨١).

(٦) مسند أحمد (٢/٣٢٥) حسن لغيره، الموسوعة الحديثية.

(٧) كشف الاستار عن زوائد البزار (٣/٢٠٤).

(٩) المصدر نفسه (٦/٧٧).

(٨) تاريخ الطبرى (٦/٧٧).

ما هو؟ قال: تسلمون من سالت وتحاربون من حاربت^(١)، وفي رواية ابن سعد: إن الحسن بن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي بن علي بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضى به^(٢).

ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء الحسن رضى الله عنه فى التمهد للصلح فور استخلافه، وقد باشر الحسن بن على سلطته كخليفة، فرتب العمال، وأمر الأمراء، وجند الجنود، وفرق العطايا، وزاد المقاتلة فى العطاء مائة مائة، فاكتمب بذلك رضاهم^(٣)، وكان فى وسعه أن يخوض حرباً لاهوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية العسكرية والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعد على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عبادة، وحاتم بن عدى الطائى وغيرهما فى صفه من الذين لهم من القدرات القيادية الشئ الكثير، إلا أن الحسن بن على، مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيها عند الله، وزهده فى الملك، وغير ذلك من الأسباب.

وقد قاد الحسن بن على مشروع الإصلاح الذى توج بوحدة الأمة، وقد تنازل الحسن بن على من موقف قوة، وهناك دلائل تشير إلى ذلك منها:

١- الشرعية التى كان يملكها الحسن:

لقد اختير الحسن بن على بعد والده اختياراً شورياً، وأصبح الخليفة الشرعى على الحجاز واليمن والعراق، وكل الأماكن التى كانت خاضعة لوالده، وقد استمر فى خلافته ستة أشهر، وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً، فقد روى الترمذى بإسناده إلى رسول الله ﷺ حيث قال: «الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»^(٤)، وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن على، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين سنة، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من

(١) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمى (١/٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) المصدر نفسه (١/٣١٦، ٣١٧).

(٣) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى، ص (٦٧)، مقاتل الطالبين، ص (٥٥).

(٤) سنن الترمذى مع شرحها تحفة الأحوذى (٦/٣٩٥ - ٣٩٧) حديث حسن.

الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليمًا^(١)، وبذلك يكون الحسن بن علي خامس الخلفاء الراشدين^(٢)، وقد تحدث عن شرعية الحسن بن علي بالخلافة كثير من علماء أهل السنة منهم أبو بكر بن العربي^(٣)، والقاضي عياض^(٤)، وابن كثير^(٥)، وشارح الطحاوية^(٦)، والمناوي^(٧)، وابن حجر الهيتمي^(٨)، ولو أراد الحسن أن يتعب معاوية بحكم أن الشرعية معه لأمكن ذلك، ولقام بترتيب حملة إعلامية منظمة في أوساط أهل الشام، لكسب ثقتهم، أو على الأقل زعزعة موقف معاوية بينهم، فقد كان يملك قوة معنوية ونفوذًا روحياً لا يستهان به بحكم الشرعية التي يستند إليها، ولكونه حفيد الرسول ﷺ .

٢- تقييم الحسن بن علي للموقف وقدراته القيادية:

فعندما قال له نفيير بن الحضرمي: إن الناس يزعمون إنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالم، ويحاربون من حاربت، فتركها ابتغاء وجه الله^(٩)، فهذه شهادة الحسن رضى الله عنه، بأنه كان في وضع قوى، وبأن أتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم، كما كان -رضى الله عنه- يملك من الملكات الخطابية والفصاحة البيانية، وصدق العاطفة، وقوة التأثير، والقرب من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكًا، ودليلنا على ذلك، ما قام به من استنفار أهل الكوفة للخروج مع والده، وكان أبو موسى الأشعري رضى الله عنه قد ثبت الناس ونهاهم عن الخروج والقتال والفتنة، وأسمعهم ما سمعه من رسول الله من التحذير من الاشتراك في الفتنة^(١٠)، فقد أرسل على -رضى الله عنه- قبل الحسن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، ولكنهما لم ينجحا في مهمتهما، وأرسل على بعد ذلك هشام بن عقبة بن أبي وقاص، ففشل في مهمته لتأثير أبي موسى عليهم^(١١)، وأتبعه على بعبد الله بن عباس، فأبطأوا عليه،

(١) البداية والنهاية (١١/١٣٤).

(٢) مآثر الإنافة (١/١٠٥)، مرويات خلافة معاوية، ص(١٥٥). (٣) أحكام القرآن لابن العربي (٤/١٧٢٠).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٢٠١). (٥) البداية والنهاية (١١/١٣٤).

(٦) شرح الطحاوية، ص (٥٤٥). (٧) فيض القدير (٢/٤٠٩).

(٨) الصواعق المحرقة (٢/٣٩٧). (٩) البداية والنهاية (١١/٢٠٦).

(١٠) تاريخ الطبري (٥/٥١٤)، مصنف بن أبي شيبة (١٥/١٢) إسناده حسن.

(١١) خلافة علي بن أبي طالب، ص (١٤٤)، لعبد الحميد، سير أعلام (٣/٤٨٦).

فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن^(١)، وكان للحسن أثر واضح، فقد قام فى الناس خطيباً وقال: أيها الناس، أجيئوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى^(٢) أمثل فى العاجلة، وخير فى العاقبة، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به^(٣) وابتليتكم، ولبى كثير من أهل الكوفة، وخرجوا مع عمار والحسن إلى على ما بين ستة إلى سبعة آلاف رجل^(٤)، ولا ننسى أن أبا موسى الأشعري كان والياً على الكوفة، ومن قيادات العراق المحبوبين من عهد عمر، وهو من هو فى علمه وزهده ومكانته عند الناس، ومع ذلك فقد استطاع الحسن أن يكسب أهل الكوفة لصفه وخرجوا معه.

٣- وجود بعض القيادات الكبيرة فى صفه:

كان معسكر الحسن بن على فى من القيادات الكبيرة، كأخيه الحسين، وابن عمه عبد الله بن جعفر، وقيس بن سعد بن عبادة -وهو من دهاة العرب-، وعدى بن حاتم وغيرهم، فلو أراد الخلافة لأعطى المجال لقياداته للتحرك نحو تعبئة الناس والدخول فى الحرب مع معاوية، وعلى الأقل يكون خليفة على دولته إلى حين.

٤- معرفته لنفسية أهل العراق:

كان له قدرات خاصة فى التعامل مع أهل العراق ومعرفة نفوسهم، ولذلك زاد لهم فى العطاء منذ بداية خلافته، كما أن مهمته التى قادها فى نجاح مشروعه الإصلاحى كانت أصعب من حربه لمعاوية، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التى واجهته، فقد حاولوا قتله، ورفض بعض الناس الصلح، وغير ذلك من العوائق إلا أنه تغلب عليها كلها، وحقق الأهداف التى رسمها من حقن الدماء، ووحدة الأمة، وأمن السبيل، وعودة حركة الفتوح.. إلخ مما يدل على قدراته القيادية الفذة.

٥- تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن رضى الله عنهم:

فقد جاء فى البخارى: استقبل -والله- الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني أرى لا تؤلى حتى تقتل أقرانها. فقال

(١) فتح البارى (١٣/٥٣)، على بن أبى طالب للصَّلابي (٢/٦٠).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٥١٦)، أولو النهى: أصحاب العقول.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٥١٦).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٥/٤٥٦، ٤٥٧) بسند صحيح للزهري.

معاوية- وكان خير الرجلين-: أى عمرو، إن قُتل هؤلاء من لى بأمر الناس، من لى بنسائهم، من لى بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بنى عبد شمس -عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كرز- فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه قولاً له، واطلبا إليه^(١).

أ- فعمرو بن العاص رضى الله عنه، القائد العسكرى الشهير، والسياسى المحنك والذى عركته الحروب يقول: إنى أرى كئائب لا تولى حتى تقتل أقرانها.

ب- وأما معاوية رضى الله عنه، فتقييمه للموقف العسكرى بأنه لا يستطيع أحد أن ينتصر ويحقق حسماً عسكرياً إلا بعد خسائر فادحة للطرفين، ولا يستطيع معاوية حتى لو كان هو المنتصر أن يتحمل تركة الحرب من أرامل وأيتام وقتل خير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاصد كبرى اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية للأمة الإسلامية، ولذلك اختار معاوية شخصيتين كبيرتين من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أصحاب النفوذ فى المجتمع الإسلامى ولهما حضور واحترام عند الحسن، وهما من قريش، فالشخصيتان اللتان أرسلهما معاوية رضى الله عنه تدل على حرصه على نجاح الصلح مع الحسن بأى ثمن ممكن، وقد ظل زمام الموقف بيد الحسن بن على رضى الله عنه ويد أنصاره، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه، ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، وكان عرف ضعف جانب الحسن، وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو ينزل على شروطه ومطالبه^(٢).

كان الحسن بن على رضى الله عنه ذا خلق يجنح إلى السلم، وكان رضى الله عنه يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم، خضعت لمراحل وبواعث، وتغلب على العوائق، وكتب شروطه، وترتب على صلحه نتائج، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن على مر العصور وتوالى الأزمان، فكان فى صلحه مع معاوية وحقته

(١) البخارى، ك الصلح رقم (٢٧٠٤).

(٢) دراسة فى تاريخ خلفاء الدولة الأموية، ص (٦١).

لدماء المسلمين، كعثمان في جمعه للقرآن، وكأبي بكر في حربه للمرتدين^(١)، ولا أدل على ذلك في كون هذا الفعل من الحسن يعدّ علماً من أعلام النبوة، ما أخرجه البخارى من طريق أبي بكرة رضى الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ على المنبر -والحسن بن على على جنبه- وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٢).

أولاً: أهم مراحل الصلح:

مر الصلح بمراحل من أهمها:

المرحلة الأولى: دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن رضى الله عنه إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم^(٣).

المرحلة الثانية: شرط البيعة الذى وضعه الحسن رضى الله عنه أساساً لقبول مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذى نص على أنهم يسالمون من يسالم، ويحاربون من يحارب^(٤).

المرحلة الثالثة: وقوع المحاولة الأولى لاغتيال الحسن رضى الله عنه بعد أن كشف عن نيته فى الصلح مع معاوية رضى الله عنه، وهذه المحاولة يبدو إنها قد جرت بعد استخلافه بقليل^(٥).

المرحلة الرابعة: خروج الحسن بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن، وإرساله للقوة الضاربة من الجيش، وهى الخميس إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عبادة^(٦).

المرحلة الخامسة: خروج معاوية رضى الله عنه من الشام وتوجهه إلى العراق بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه.

المرحلة السادسة: تبادل الرسل بين الحسن ومعاوية، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٣٤).

(٢) البخارى رقم (٧١٠٩).

(٣) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣١٧).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٥٦).

(٥) المصدر نفسه، ص (١٢٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٢٨).

المرحلة السابعة: محاولة اغتيال الحسن رضى الله عنه، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما، شرع الحسن رضى الله عنه فى تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذى تم، فقام فيهم خطيباً ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض معسكره محاولين قتله، لكن الله سبحانه وتعالى أنجاه كما أنجاه من قبل (١).

المرحلة الثامنة: تنازل الحسن بن على عن الخلافة وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين، بعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى الحسن بن على من الفتنة التى وقعت فى معسكره، ترك المدائن وسار إلى الكوفة وخطب فى أهلها فقال: أما بعد فإن أكيس الكيس (٢) التقى، وإن أحق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية؛ إما كان حقاً لى تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقق دمائهم، أو يكون حقاً كان لامرئ كان أحق به منى ففعلت ذلك ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ (٣) [الأنبياء: ١١١].

ثانياً: أهم أسباب ودوافع الصلح:

وأما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذى تم بين الحسن ومعاوية فهى:

١- الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة: قال الحسن بن على رضى الله عنه رداً على نفيير الحضرمى عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالم، ويحاربون من حاربت فتركها ابتغاء وجه الله (٤).

٢- دعوة الرسول ﷺ له: إن دعوة الرسول ﷺ بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين (٥) دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسى للصلح والتغلب على العوائق التى فى الطريق، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٣٩).

(٢) أكيس: أعقل، والكيس: العقل، لسان العرب (٢٠١/١٦)، ومن أراد التوسع فليراجع خلافة مرويات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٢٦ - ١٤٩).

(٣) (٤) البداية والنهاية (٢٠٦/١١).

(٣) المعجم الكبير (٢٦/٣) إسناده حسن.

(٥) البخارى رقم (٧١٠٩).

فى اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته، فقد حلت فى قرارة نفسه واستولت على مشاعره وأحاسيسه واختلطت بلحمه ودمه، ومن خلال هذا التوجيه واستيعابه وفهمه له بنى مشروعه الإصلاحى وقسم مراحلها، وكان متيقناً من نتائجه، فالحديث النبوى كان دافعاً أساسياً وسبباً مركزياً فى اندفاع الحسن للإصلاح.

٣- حقن دماء المسلمين: قال الحسن رضى الله عنه: . . . خشيت أن يجرى يوم القيامة سبعون ألفاً، أو أكثر، أو أقل، كلهم تنضح أوداجهم دمًا، كلهم يستعدى الله فيم هريقَ دمه؟^(١) وقال رضى الله عنه: ألا إن أمر الله واقع إذ لا دافع له وإن كره الناس، إنى ما أحببت أن لى من أمة محمد مثقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعنى مما يضرنى، الحقوا بطيبتكم^(٢).

٤- حرصه على وحدة الأمة: قام الحسن بن على خطيباً رضى الله عنه فى إحدى مراحل الصلح فقال: أيها الناس، إنى قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضعيفة^(٣)، وإنى ناظر لكم كنظرى لنفسى، وأرى رأياً، فلا تردوا على رأى، إن الذى تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة^(٤)، وقد تحقق بفضل الله. ثم حرص الحسن على وحدة الأمة ذلك المقصد العظيم، فقد ارتأى رضى الله عنه أن يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، وتجنباً للمفاسد العظيمة التى ستلحق الأمة كلها فى المآل إذا بقى مصراً على موقفه، من استمرار الفتنة، وسفك الدماء، وقطع الأرحام واضطراب السبل، وتعطيل الثغور وغيرها، وقد تحققت -بحمد الله- وحدة الأمة بتنازله عن عرض زائل من أعراض الدنيا حتى سمى ذلك العام عام الجماعة^(٥)، وهذا يدل على فقه الحسن فى معرفته لاعتبار المآلات ومراعاته التصرفات.

٥- مقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه: ومن الأسباب التى دعت أمير المؤمنين الحسن بن على إلى الصلح ما رُوِّع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغاً كبيراً فى جبهة العراق، وأثر اغتياله على نفسية الحسن رضى الله عنه، فترك فيها حزناً

(١) البداية والنهاية (٢٠٦/١١).

(٢) تاريخ دمشق (١٤/١٩)، بطيبتكم: جهنكم.

(٣) الضعيفة: الحقد.

(٤) الأخبار الطوال، ص (٢٠٠).

(٥) اعتبارات المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ص (١٦٧).

وأسى شديداً، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق، ولم يرع الخوارج سابقته في الإسلام وأفضاله العظيمة، وخدماته الجليلة التي قدمها للإسلام، فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب، لقد كان على رضى الله عنه معلماً من معالم الهدى، وفارقاً بين الحق والباطل، فكان من الطبيعي أن يتأثر المسلمون لفقده. ويشعروا بالفراغ الكبير الذى تركه، فقد كان وقع مصيبة مقتله على المسلمين عظيماً، فجللهم الحزن، وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالثناء والترحم عليه، وكان مقتله سبباً فى تزهد الحسن فى أهل العراق أولئك الذين غمرتهم مكارم أخلاق أمير المؤمنين وشرف صحبته، فأضلتهم الفتن والأطماع، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ونسثنى من أولئك الصادقين المخلصين لدينهم وخليفتهم الرَّاحل العظيم رضى الله عنه وأرضاه، فقد كان مقتله ضربة قوية وجهت لعهد الخلافة الراشدة وكانت من أسباب زوالها فيما بعد.

٦- شخصية معاوية: إن تسليم الحسن بن على الخلافة إلى معاوية مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفاً بايعوه على الموت، فلو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ولحاربه^(١)، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائل كثيرة وأعمالاً جليلة يأتى ذكرها بإذن الله تعالى فى هذا الكتاب.

٧- اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة: كان لخروج الخوارج أثر فى إضعاف أمير المؤمنين على رضى الله عنه، كما أن الحروب فى الجمل وصفين والنهروان، تسببت فى ملل أهل العراق للحرب ونفورهم منها، وخاصة أهل الشام فى صفين، فإن حربهم ليس كحرب غيرهم، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم، فكم يتمت من الأطفال، ورملت من النساء، بدون أن يتحقق مقصودهم ولولا الصلح أو التحكيم الذى رحب به أمير المؤمنين على وكثير من أصحابه لكانت مصيبة على العالم الإسلامى لا يتخيل آثارها السيئة، فكان هذا التخاذل عن المسير مع على رضى الله عنه إلى الشام مرة أخرى من فريق منهم، وتميل إليه نفوسهم، وإن كانوا يعلمون أن علياً على حق^(٢)، فقد تسلم الحسن رضى الله عنه الخلافة، وجيش

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٥٧).

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد على، ص (٣٤٥).

العراق مضطرب وأهل الكوفة مترددون في أمرهم^(١) وهذا ليس على إطلاقه، فجيش الحسن يمكن تقويته، كما أن هناك فصائل منه على استعداد للقتال على رأسهم قيس بن سعد الخزرجي وغيره من القادة^(٢).

٨- قوة جيش معاوية: وفي الجانب الآخر كان معاوية رضى الله عنه يعمل بثتى الوسائل سرّاً أو علانية على إضعاف جانب أهل العراق منذ عهد على رضى الله عنه، فاستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، واجتمعت لمعاوية رضى الله عنه عوامل ساعدت على قوة جبهته منها: طاعة الجيش له، اتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، خبرته الإدارية فى ولاية الشام، وثبات مصادره المالية، وعدم تخرجه من دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التى يراها مصلحة للأمة.

ثالثاً: شروط الصلح:

تحدثت الكتب التاريخية والمصادر الحديثة وأشارت إلى حصول الصلح وفق شروط وضعها الطرفان، وقد تناثرت تلك الشروط بين كتّاب التاريخ، وحاول بعض العلماء جمعها وترتيبها واستئناساً إلى ما وصلوا إليه نذكر أهم شروط الصلح منها:

١- العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء: وقد ذكر هذا الشرط مجموعة من العلماء منهم ابن الحجر الهيثمى حيث ذكر صورة الصلح بين الحسب ومعاوية، وجاء فيها: صالحه على أن يُسلم إليه ولاية المسلمين وأن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين^(٣)، وحتى بعض كتب الشيعة ذكرت هذا الشرط، وهذا دليل على توقير الحسن بن على لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى إلى حد جعل من أحد الشروط على معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهم: أنه يعمل ويحكم فى الناس بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الخلفاء الراشدين^(٤)، وفى النسخة الأخرى: الخلفاء الصالحين^(٥)، ففى هذا الشرط ضبط لدولة معاوية مرجعيتها ومنهجها فى الحياة.

(١) الشيعة وأهل البيت، ص (٣٧٩) نقلاً عن الاحتجاج للطبرسى، ص (١٤٨).

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، ص (٣٥٨) للصّلابي.

(٣) الصواعق المراسلة (٢/٣٩٩). (٤) الشيعة وأهل البيت، ص (٥٤).

(٥) منتهى الآمال (٢/٢١٢) نقلاً عن الشيعة وأهل البيت، ص (٥٤).

٢- الأموال: ذكر البخارى فى صحيحه أن الحسن قال لوفد معاوية عبد الرحمن ابن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كرز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لى بهذا؟ قالوا: نحن لك^(١) به.

فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بنى عبد المطلب يريد الحسن أن لا يطالبهم بها معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه من قادم^(٢)، وأما الروايات التى تشير بأن يجرى معاوية للحسن كل عام مليون درهم، وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليونى درهم فى كل عام، ويفضل بنى هاشم فى العطاء والصلوات على بنى عبد شمس، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات، وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة ضعيفاً أمام مصالحه الخاصة^(٣). أما حقه من العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشرة معشار ما ذكرته الروايات^(٤).

٣- الدماء: ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين أن الناس كلهم آمنون لا يؤخذ منهم أحد منهم بهفوة أو أحنة، ومما جاء فى رواية البخارى أن الحسن قال لوفد معاوية: وإن هذه الأمة عاثت فى دمائها، فكفل الوفد للحسن العفو للجميع فيما أصابوا من الدماء^(٥)، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان فى أيام على. وهى قاعدة بالغة الأهمية تحاول دون الالتفات إلى الماضى، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل^(٦)، وقد تمّ التوافق المبنى على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية بذنوب أحد بذنوب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وتأليف القلوب.

٤- ولاية العهد، أم ترك الأمر شورى بين المسلمين: قيل: ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن، وإن معاوية وعد إن حدث به

(١) البخارى، ك الصلح رقم (٢٧٠٤).

(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٣).

(٥) البخارى، ك الصلح (٩٦٣/٢).

(٤) المصدر نفسه، ص (٦٣).

(٦) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص (٣٤١).

حدث والحسن^(١) حتى يُسَمِّيَنَّهُ وليجعلن الأمر إليه^(٢)، ولكن ابن أكنم روى في هذا الخصوص عن الحسن إنه قال: أما ولاية الأمر من بعده، فما أنا بالراغب في ذلك، ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه^(٣)، وجاء في نص الصلح الذي ذكره ابن الحجر الهيثمي: . . بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين^(٤)، وعند التدقيق في روايات طلب الحسن الخلافة بعد معاوية، نجد أنها تتنافى مع أنفة وقوة وكرم الحسن، فكيف يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، وابتغاء مرضاة الله، ثم يوافق على أن يكون تابعاً يتطلب أسباب الدنيا، وتشرئب عنقه للخلافة مرة أخرى، والدليل على أن هذا غير صحيح ما ذكر جبير بن نفيير قال: قلت للحسن بن علي أن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سلمت، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء مرضاة الله^(٥). ومن الملاحظ أن أحداً من أبناء الصحابة أو الصحابة لم يذكروا خلال بيعة يزيد شيئاً من ذلك، فلو كان الأمر كما تذكر الروايات عن ولاية عهد الحسن بعد معاوية، لاتخذها الحسين بن علي رضي الله عنه حجة، ولكن لم نسمع شيئاً من ذلك على الإطلاق، مما يؤكد على أن مسألة خلافة الحسن لمعاوية لا أساس لها من الصحة، ولو كان الحسن رضي الله عنه أسند إليه منصب ولاية العهد في الشروط لكان قريباً في عهد معاوية من إدارة الدولة، أو تولى أحد الأقاليم الكبرى، لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شؤون الحكم، كما أن روح ذلك العصر يشير إلى أن مبدأ اختيار الأمة للحاكم عن طريق الشورى هو الأصل.

رابعاً: نتائج الصلح:

أهم نتائج الصلح هي:

- ١- توحد الأمة تحت قيادة واحدة.
- ٢- عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه.
- ٣- تفرغ الدولة للخوارج.
- ٤- انتقال العاصمة الإسلامية إلى بلاد الشام.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٢٦٤).

(٤) الصواعق المرسله (٢/٢٩٩).

(١) فتح الباري (١٣/٧٠).

(٣) الفتوح (٣ ، ٤/٤٩٣).

(٥) البداية والنهاية (١١/٢٠٦).

الفصل الثاني

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

المبحث الأول

بيعة معاوية وأهم صفاته وثناء العلماء عليه

أولاً: بيعة معاوية رضى الله عنه:

وبتنازل الحسن بن على رضى الله عنه اكتملت عوامل تولى معاوية الخلافة، وتهيات له جميع أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة، وسمى هذا العام بعام الجماعة^(١)، وسُجِّل في ذاكرة الأمة عام الجماعة وأصبح هذا الحدث من مفاخرها التي تزهو به على مر العصور، وتوالى الدهور، فقد التقت الأمة على زعامة معاوية، ورضيت به أميراً عليها، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة، بعد الفرقة المشتتة، وكان الفضل في ذلك لله ثم للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحى العظيم الحسن بن على بن أبى طالب، ويعد عام الجماعة من علامات نبوة المصطفى ﷺ، وفضيلة باهرة من فضائل الحسن، ولا يلتفت إلى ما قال العقاد من فهم غير صحيح عن عام الجماعة في هجومه الخاطيء على المؤرخين الذين سمو سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، فقد قال: فليس أضل ضلالاً، ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سمو سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها^(٢). والعقاد -رحمه الله- لم يأت بجديد في حكمه الخاطيء بل سبقه إليه كثير من مؤرخى الشيعة، ويكفى معاوية فخراً أن كل الصحابة الأحياء في عهده بايعوه، فقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين وعدوا خلافته شرعية

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١٣٧)، تاريخ خليفة، ص (٢٠٣).

(٢) معاوية بن أبى سفيان للعقاد، ص (٢٥).

ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلى أمر المسلمين ويقوم به خير قيام فى تلك المرحلة، فرؤى عن الأوزاعى أنه قال: أدركت خلافة معاوية عدة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم سعد، وأسامة، وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبوسعيد الخدرى، ورافع بن خديج، وأبو أمامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر مما سميت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم؛ حضروا من الكتاب تنزيهه، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله، ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محيريز فى أشباه له، لم ينزعوا يده عن مجامعة فى أمة محمد ﷺ^(١). وقال ابن حزم: فبويح الحسن ثم سلم الأمر إلى معاوية، وفى بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف عن أنفق قبل الفتح وقاتل، وكلهم؛ أولهم عن آخرهم بايع معاوية، ورأى إمامته^(٢). فالصحابه لم يبايعوا معاوية رضى الله عنه إلا وقد رأوا فيه شروط الإمامة متوافرة، ومنها العدالة، فمن يطعن فى عدالة معاوية وإمامته فقد طعن فى عدالة هؤلاء الصحابة جميعهم وخوانهم وتنقصهم. فمن رضى هؤلاء لدينهم وديانهم ألا نقبله ونرضى به نحن؟ ومن قال: لعلهم بايعوا خوفاً فقد اتهمهم بالجبن وعدم الصدع بالحق، وهم القوم المعلوم من سيرتهم الشجاعة والشهامة وعدم الخوف فى الله لومة لائم^(٣). وفى مبايعة سبط رسول الله ﷺ الحسن بن على لمعاوية درس بليغ وفهم عميق لآيات النهى عن الاختلاف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فالصراط المستقيم هو: القرآن، والإسلام، والفترة التى فطر الناس عليها، والسبل هى: الأهواء، والفرق، والبدع، والمحدثات، قال مجاهد: ولا تتبعوا السبل: يعنى البدع، والشبهات والضلالات^(٤)، ونهى الله سبحانه وتعالى هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما

(١) البداية والنهاية (١١/٤٣٤، ٤٣٥).

(٢) من سب الصحابة ومعاوية فأهوية، ص (١٢٠).

(٤) تفسير مجاهد، ص (٢٢٧)، دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ص (٤٩).

جاءتهم البينات، وأنزل الله إليهم الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] لقد تحقق بفضل الله تعالى ثم بنجاح الحسن بن علي في صلحه مع معاوية مقصد عظيم من مقاصد الشريعة من وحدة المسلمين واجتماعهم، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فلا بدّ من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وقد تحدث الشيخ السعدي عن الجهاد المتعلّق بالمسلمين بقيام الالفّة، واتفق الكلمة، وبعد أن ذكر الآيات، والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدهم قال: فإن من أعظم الجهاد السّعى في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدينية^(١). ولا ينظر للحديث الضعيف الذي رواه ابن عدى من طريق عليّ بن زيد، وهو ضعيف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، ومن حديث مجالد^(٢)، وهو ضعيف أيضاً، عن أبي الودّك عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»^(٣). أسنده أيضاً من طريق الحكم بن ظهيرة^(٤)، وهو متروك. وهذا الحديث كذب بلا شك، ولو كان صحيحاً لبادر الصحابة إلى فعل ذلك، لأنّهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم^(٥).

١ - انتهاء عهد الخلافة الراشدة:

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن علي لمعاوية رضى الله عنه، فقد قال رسول الله ﷺ «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء أن

(١) وجوب التعاون بين المسلمين، ص (٥).

(٢) الكامل في الضعفاء (١١/٤٣٤) الكامل في الضعفاء (٢/٦٢٦).

(٣) البداية والنهاية (١١/٤٣٤) الكامل في الضعفاء (٢/٦٢٦).

(٤) البداية والنهاية (١١/٤٣٤).

تكون، يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»^(١). وقد بين رسول الله ﷺ أن خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله الملك، أو ملكه من يشاء^(٢)، وقوله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»^(٣). وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليمًا^(٤)، وبذلك تكون مرحلة خلافة النبوة قد انتهت بتنازل الحسن رضى الله عنه عن الخلافة لمعاوية في شهر ربيع الأول من سنة ٤١هـ^(٥). فالحديث النبوى الكريم أشار إلى مراحل تاريخية وهى:

أ - عهد النبوة.

ب - عهد الخلافة الراشدة.

ج - عهد الملك العضوض^(٦).

د - عهد الملك الجبرى.

هـ - ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

وقد بين رسول الله ﷺ بأنه ستكون خلافة نبوة ورحمة، ثم يكون ملك ورحمة^(٧). ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكاً، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء، بدليل ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدى، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا:

(١) مسند أحمد (٤/٣٧١ - ٣٧٢)، سلسلة الأحاديث الصحيحة .

(٢) سنن أبى داود شرح عون المعبود (١٢/٢٥٩)، صحيح سنن الألبانى (٣/٨٧٩) .

(٣) سنن الترمذى شرح تحفة الأحوذى (٦/٣٩٥ - ٣٩٧) حديث حسن .

(٤) البداية والنهاية (٨/١٦) . (٥) مرويات خلافة معاوية، ص (١٦٥) .

(٦) العضوض : الشديد فيه عسف وعنف وظلم .

(٧) سنن الدارمى (٢/١١٤)، الأشربة ، الفتاوى (٣٥/١٤) .

فما تأمرنا؟ قال: وفوا بيعة الأول، فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم^(١). فقولته: «فتكثر» دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيراً، وأيضاً قوله: «وفوا بيعة الأول فالأول» دل على أنهم يختلفون، والراشدون لم يختلفوا، وقوله: «فأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» دليل على مذهب أهل السنة، في إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغنم^(٢)، فمعاوية رضى الله عنه أفضل ملوك هذه الأمة، والذين كانوا قبله خلفاء نبوة، وأما هو فكانت خلافته ملكاً، وكان ملكه ملكاً ورحمة، وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين، ما يعلم أنه كان خيراً من ملك غيره^(٣)، ومعاوية رضى الله عنه كان عالماً ورعاً عدلاً دون الخلفاء الراشدين في العلم والورع والعدل، كما ترى من التفاوت بين الأولياء، بل الملائكة والأنبياء، فإمارته - وإن كانت صحيحة بإجماع الصحابة وتسليم الحسن - رضى الله عنه - إلا أنها ليست على منهاج خلافة من قبله، فإنه توسع في المباحات، وتحرز عنها الخلفاء الأربعة، وأما رجحان الخلفاء الأربعة في العبادات والمعاملات فظاهر مما لا ستره فيه^(٤)، وقد حدد ابن خلدون مدى التغير الذى حدث، فقرر أن الخلافة وإن كانت تحولت إلى ملك، فإن معانى الخلافة بقيت بعضها، وإنما كان التغير فى الوازع، فبعد أن كان ديناً انقلب عصبية وسيقاً؛ يقصد بذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار الحكم مستنداً إلى العصبية والقوة، ولكن معانى الخلافة أى مقاصدها وأهدافها بقيت أى أن غايات هذا الملك كانت لاتزال تحقيق مقاصد الدين والحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل وتنفيذ الواجبات التى يأمر بها الإسلام، أى أن الحكم أو الملك استمر إسلامياً وشرعياً^(٥).

ولخص الأدوار التى مرت بها الخلافة فقال: فقد بين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً، ثم التبست معانيها واختلطت بالملك، ثم انفرد الملك حيث افتقرت عصبية الخلافة، والله مقدر الليل والنهار^(٦). فالدور الأول الذى يشير إليه

(١) البخارى رقم (٣٤٥٥).

(٢) الفتاوى (١٥/٣٥).

(٣) الفتاوى (٢٩٢/٤).

(٤) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٧٨).

(٥) النظريات السياسية للريس، ص (١٩٤) نقلا عن المقدمة لابن خلدون.

(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٥).

هو عصر الخلفاء الراشدين وهو عصر الخلافة الخالصة أو الكاملة، والدور الثاني هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين -، ولا يمنع كذلك العثمانيين- وهذا عصر الخلافة المختلطة بالملك أو الملك المختلط بالخلافة: أى الذى يحقق فى الوقت مقاصد الخلافة، أما الدور الثالث فهو عصر الملك المحض الذى صار بقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية، وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية، فهذا وصف أو تفسير ابن خلدون المؤرخ الفقيه للتطور الذى حدث والأدوار التى مرت بها الخلافة^(١).

إن الخلافة الحقيقية أو الكاملة أو خلافة النبوة استمرت ثلاثين عاماً، وهو عصر الخلفاء الراشدين، ثم تحولت إلى ملك، ولكن لكى نعبر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها، وأن التغيير حصل فى الأساس التى قامت عليه، أما حقيقتها فقد بقيت، فالتغيير إذن لم يكن كلياً ولكن جزئياً، أى أن الخلافة فى العصر الأول كانت هى الخلافة الكاملة المثالية، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه، لكن معظم عناصرها بقيت، فهى خلافة أقل فى الرتبة أو خلافة مختلطة بالملك^(٢)، والرأى العام فى الإسلام يتمسك بالمثال، أو خلافة النبوة، أو الخلافة الكاملة، وهى تلك التى تقوم على الشورى والاختيار التام من الأمة، وأنه إذا كانت الظروف الواقعية والعوامل الاجتماعية قد حتمت أو أدت إلى هذا التطور، فإن تحمل ذلك أو قبوله لا يكون إلا مؤقتاً أو من باب الضرورة، ولكن لا يلزم أن يكون المثل الكامل حاضراً دائماً فى فكر الرأى العام، وبمجرد أن تزول تلك العوامل والظروف تجب العودة إلى تحقيق المثل الكامل، ولذا فإن الكتابات الإسلامية الأصيلة ظلت ملتزمة ومتشبهة بالمثال الكامل ولا تستخلص مبادئها إلا منه، وتفرق بين الخلافة وهى الخلافة الحقيقية الشرعية، والخلافة الواقعية التى بعدت قليلاً أو كثيراً عن الحقيقة^(٣)، قد ذكر ابن تيمية أن مصير الأمر - أى الخلافة - إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة الأمراء ليس لنقص فيهم فقط، بل لنقص فى الراعى والرعية جميعاً، فإنه كما تكونوا يولّ عليكم، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ

(٢) المصدر نفسه، ص (١٩٦).

(١) النظريات السياسية، ص (١٩٥).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٧).

الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴿ [الأنعام: ١٢٩]. لقد ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار ملكًا، وظهر النقص في الأمراء، وكذلك في أهل العلم والدين، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعي التابعين انقرضوا في أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية^(١).

٢- هل يعتبر معاوية رضى الله عنه أحد الخلفاء الاثني عشر؟

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه: دخلت مع أبي على النبي ﷺ، فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينتضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة، قال: ثم تكلم بكلام خفى على، قال: فقلت لأبي: ما قال؟، قال: كلهم من قريش^(٢)، وفي رواية أخرى عن جابر: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشرة خليفة.. كلهم من قريش»^(٣) وفي رواية أخرى عنه: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة.. كلهم من قريش»^(٤)، زاد أبو داود في سننه، بإسناده عن جابر رضى الله عنه قال: فلما رجع إلى منزله أتته قريش فقال: ثم يكون الهرج^(٥). وقد شرح ابن كثير هذا الحديث فقال: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، ومنهم عمر بن عبدالعزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بنى العباس، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المُسرَّب به في الأحاديث الواردة بذكره.. وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء^(٦)، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء

(١) الفتاوى (٢٠٧/١٠) . (٢) صحيح مسلم على شرح النووي (٥٠٢/١٢) .

(٣) المصدر نفسه (٥٠٣/١٢) . (٤) المصدر نفسه (٢٠٣/١٢) .

(٥) صحيح سنن الألباني (٨٠٧/٣)، هرج الناس: وقعوا في فتنة واختلاط وقتل .

(٦) سامراء : مدينة بين بغداد وتكريت على شرفى دجلة .

الاثنى عشر الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية^(١). وبالتأمل فى النص بكل حيدة وموضوعية نجد أن هؤلاء الاثنى عشر وصفوا بأنهم يتولون الخلافة، وأن الإسلام فى عهدهم يكون فى عزة ومنعة، وأن الناس تجتمع عليهم ولا يزال أمر الناس ماضياً وصالحاً فى عهدهم، وكل هذه الأوصاف لا تنطبق على من تدعى الاثنا عشرية فيهم الإمامة، فلم يتول الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين على والحسن^(٢)... ثم أنه ليس فى الحديث حصر لأئمة بهذا العدد، بل نبوءة منه، بأن الإسلام لا يزال عزيزاً فى عصور هؤلاء، وكان عصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية عصر عزة ومنعة^(٣)، ولهذا قال ابن تيمية: إن الإسلام وشرائعه فى بنى أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم^(٤)، وعدّ معاوية من الأئمة المقصودين بالحديث^(٥).

ثانياً: أهم صفات معاوية رضى الله عنه:

اشتهر معاوية رضى الله عنه بصفات كثيرة من أهمها:

١- العلم والفقه:

استفاد معاوية رضى الله عنه من ملازمته لرسول الله ﷺ علماً وتربية، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة قد ذكرت بعضها، وقد روى له البخارى ومسلم مع شرطهما ألا يرويا إلا عن ثقة ضابط صدوق^(٦)، وشهد له ابن عباس بالفقه، فعن ابن أبى مليكة قال: قيل لابن عباس رضى الله عنه: هل لك فى أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: أصاب إنه فقيه. رواه البخارى^(٧). قال الشراح: أى مجتهد، وفى رواية أخرى للبخارى عن أبى مليكة قال: أوتر معاوية - رضى الله عنه - بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس - رضى الله عنه - فأتى ابن عباس - رضى الله عنه -، قال: دَعُهُ فإنه صحب رسول الله ﷺ وكان ابن عباس - رضى الله عنه - من فضلاء الصحابة، ويُلقب: البحر، لسعة علمه وحبر الأمة، وترجمان القرآن، وقد دعا له الرسول ﷺ بالعلم والحكمة

(٢) منهاج السنة (٤/ ٢١٠)، المتقى، ص (٥٣٣).

(٤) منهاج السنة (٤/ ٢٠٦).

(٦) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٤١).

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤).

(٣) أصول الشيعة (٢/ ٨١٦).

(٥) المصدر نفسه (٤/ ٢٠٦).

(٧) البخارى رقم (٣٧٦٤) رقم (٣٧٦٥).

والتأويل، فاستجيب له، وكان من خواص أصحاب على رضى الله عنه وشديد الإنكار على أعدائه، وأرسله على رضى الله عنه ليحاج الخوارج فحاجهم حتى لم يبق لهم حجة، فإذا شهد مثله لمعاوية بأنه مجتهد وكف مولاه عن الإنكار مستدلاً بأنه من الصحابة^(١)، كما أنه كان كاتب رسول الله ﷺ، وذكره مفتى الحرمين أحمد بن عبد الله بن محمد الطبرى فى خلاصة السير وقال: إن كتابه ﷺ ثلاثة عشر: الخلفاء الأربعة، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقم، وأبى بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وخالد بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسلمى، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبى سفيان، وشرحبيل بن حسنة. وكان معاوية وزيد ألزمهم لذلك وأخصهم به^(٢)، كما أن الفقهاء يعتمدون على اجتهاده ويذكرون مذهبه كسائر الصحابة، كقولهم: ذهب معاذ بن جبل ومعاوية وسعيد بن المسيب إلى أن المسلم يرث الكافر، وقولهم: روى^(٣) استلام الركنين اليمانيين عن الحسن أو الحسين وضح عن معاوية. وقال أبو الدراء الصحابى لأهل الشام: ما رأيت أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ، من إمامكم هذا - يعنى معاوية-^(٤) وكان رضى الله عنه حريصاً على تعليم الناس العلم، فعن أبى أمامة سهل بن حنيف قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان وهو جالس على المنبر إذا أذن المؤذن قال: الله أكبر الله أكبر، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال معاوية: وأنا فقال: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال معاوية: وأنا. فلما قضى التأذين قال: يا أيها الناس، إنى سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس - حين أذن المؤذن - يقول ما سمعتم منى من مقالتي^(٥).

وكان رضى الله عنه يحث الناس على الفقه فى الدين ويروى لهم الأحاديث الدالة على أهمية التفقه فى الدين، فعن الزهري قال: أخبرنى حميد قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان يخطب قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطى الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة. أو حتى يأتى أمر الله»^(٦).

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٤١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٥٧).

(٤) منهاج السنة (٣/١٨٥).

(٥) فتح البارى (٢/٤٦٢).

(٦) فتح البارى (٣٠٦/١٣).

وكان رضى الله عنه يكتاب أصحاب الرسول ﷺ ليتعلم منهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ ، فعن وراذ مولى المغيرة بن شعبه قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلى ما سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى على المغيرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وقال ابن جريج: أخبرني عدة أن وراذاً أخبره بهذا. ثم وفدت بعد إلى معاوية فسمعتة يأمر الناس بذلك القول^(١)، وكان رضى الله عنه حريصاً على اتباع السنة النبوية، فعن سعيد بن المسيب، وعن حمد بن عبد الرحمن بن عوف: أن معاوية لما قدم المدينة فى آخر مقدمة قدمها، قال على منبر رسول الله ﷺ: أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله ﷺ فى هذا اليوم - يوم عاشوراء - يقول: «من شاء منكم أن يصومه فليصمه»، وفى رواية: وإنى صائم، فصام الناس^(٢)، وقال: وسمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا، وأخرج قصة من شعر من كمه، فقال: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم^(٣)، يعنى وصل المرأة شعرها بشعر آخر، وقد صح فى عدد من الأحاديث لعن الواصلة والمستوصلة. وفى رواية أخرى أنه قال لهم: انكم أحدثتم أى حدث سوء، نهى رسول الله ﷺ عن (الزور)^(٤). سماه الرسول زوراً لما فيه من التزوير والتغريير، فهنا نراه حريصاً على إحياء سنة كصوم عاشوراء الذى رأى أن الناس أهملوه، كما نراه حريصاً على إماتة بدعة ظهرت فى الناس، وهى تقليد اليهوديات بوصل الشعر^(٥).

وروى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج: أن العباس بن عبد الله بن عباس أنكح عبد الرحمن بن الحكم ابنته، وأنكحه عبد الرحمن ابنته، وقد جعلاً - أى العقدين - صداقاً (أى كل منهما صداق الأخرى)، فكتب معاوية بن أبى سفيان - وهو خليفة - إلى مروان، يأمره بالتفريق بينهما، وقال فى كتابه: هذا الشغار الذى نهى عنه رسول الله ﷺ^(٦)، فهو يراعى إقامة السنة فى حياة الناس فى الأمور كلها؛ أمور الفرد، وأمور الأسرة، وأمور الجماعة^(٧)، وكان رضى الله عنه لا يروى

(١) فتح البارى (١١/٥٢١).

(٢) المصدر نفسه (٤/٢٨٧).

(٣) المصدر نفسه (٦/٥٩١).

(٤) المصدر نفسه (٦/٥٩٥).

(٥) تاريخنا المقتضى عليه للقرضاوى، ص (٧١).

(٦) مسند أحمد رقم (١٦٨٥٦) إسناده حسن.

(٧) تاريخنا المقتضى عليه للقرضاوى، ص (٧١).

الحديث عن رسول الله إلا بمناسبة اقتضته، فقد ورد أنه دخل على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر له، ولم يقيم ابن الزبير، فقال معاوية: مه. قال رسول الله ﷺ «من أحب أن يمثّل له عباد الله قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»^(١). وعن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أن معاوية أخبره أن رسول الله قصر من شعره - أي في العمرة - بمشقص، فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية. فقال: ما كان معاوية على رسول الله متهماً^(٢).

وكان رضى الله عنه يهتم بمذاكرة العلم ويحرص عليه، فعن عبد الله بن الحارث قال: دخلت مع ابن عباس على معاوية فأجلسه على السرير، وفي تلك القصة سأله معاوية عن مسألة فقهية، وكان رضى الله عنه يعلم الناس ويحثهم على سؤاله، والاستفادة من علمه، فقد خطب يوم الجمعة وقال: أيها الناس اعقلوا قولى، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة منى، أقيموا وجوهكم وصفوفكم فى الصلاة، فلتقيم وجوهكم وصفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم، خذوا على أيدي سفهائكم أو ليسلظنهم الله عليكم، فليسومنكم سوء العذاب، تصدقوا؛ لا يقولن الرجل: إني مقل، فإن صدقة المقل أفضل من صدقة الغنى، إياكم وقذف المحصنات، وأن يقول الرجل: سمعت، وبلغنى أنه لو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة^(٣).

وكان رضى الله عنه حريصاً على متابعة رسول الله ﷺ فعندما دخل مكة سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة^(٤). وله اجتهاد فى تعيين ليلة القدر، فقد روى ابن أبى شيبه بإسناد صحيح عن معاوية قال: ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين^(٥)، وكان يعترف بالحجة والبرهان لغيره، فعن ابن عباس أنه طاف مع معاوية وكان معاوية يستلم الأركان بالبيت، فقال له ابن عباس رضى الله عنهما: إنه لا يستلم هذان الركنان. فقال: ليس شىء من البيت مهجوراً^(٦)، وجاء فى رواية: فقال له ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فقال معاوية: صدقت^(٧)، ومن الأحكام التى قضاهَا

(١) البخارى رقم (٣٤٨٨). (٢) مسند أحمد رقم (١٦٨١٣) إسناده صحيح.

(٣) البداية والنهاية (٤٣٧/١١). (٤) الفتح (٥٤٤/٣).

(٥) الفتح (٣١١/٤). (٦) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى، ص (٥٨٥).

(٧) المصدر نفسه، ص (٥٨٦).

معاوية، رضى الله عنه ما أخرجه ابن أبى شيبة من طريق عبد الله بن معقل قال: ما رأيت قضاء أحسن من قضاء قضى به معاوية، نرت أهل الكتاب ولا يرثوننا، كما يحل النكاح فيهم ولا يحل لهم^(١). ومن المسائل الفقهية التي أثرت عن معاوية رضى الله عنه:

أ - أثر عنه رضى الله عنه أنه أوتر بركعة^(٢).

ب - أثر عنه رضى الله عنه الاستسقاء بمن ظهر صلاحه^(٣).

ج - أنه يجزىء إخراج نصف صاع من البر فى زكاة الفطر^(٤).

د - استحباب تطيب البدن لمن أراد الإحرام^(٥).

هـ - جواز بيع وشراء دور مكة^(٦).

و - التفريق بين الزوجين بسبب العنة^(٧).

ز - وقوع طلاق السكران^(٨).

ح - عدم قتل المسلم بالكافر قصاصاً^(٩).

ط - حبس القتال حتى يبلغ ابن القتيل^(١٠).

وأما علومه فى الفقه السياسى والسياسة الشرعية، ومقاصد الشريعة، وفقه الجهاد، فالكتاب سوف يحدثنا عن الكثير من فقهه فى إدارة الدولة وتحقيق أهدافها.

٢- الحلم والعفو:

اشتهر أمير المؤمنين معاوية بصفة الحلم، وكان يضرب به المثل فى حلمه رضى الله عنه، وكظم غيظه وعفوه عن الناس، وقد ذكر ابن كثير ما كان يتصف به أمير

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٣٧٤/١١)، سنن سعيد (٤٥/١).

(٢) فتح البارى (١٣٠/٧). (٣) المغنى (٣٤٦/٣).

(٤) زاد المعاد (١٩/٢). (٥) المغنى (٧٧/٥).

(٦) المصدر السابق (٣٦٦/٦).

(٧) العنة: هى عجز الرجل عن إتيان زوجته، القاموس المحيط، ص (١٥٧٠)، زاد المعاد (١٨١/٥).

(٨) المغنى (٢١١/٥). (٩) المصدر السابق (٤٦٦/١١).

(١٠) المصدر السابق (٥٧٧/١١)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨، ٢٩).

المؤمنين معاوية من الحلم حيث قال: وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلاماً سيئاً شديداً، فقيل له: لو سطوت عليه؟! فقال: إني لأستحي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي، وفي رواية: قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال: إني لا استحي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي. وقال الأصمعي عن الثوري قال: قال معاوية: إني لأستحي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لا أوارئها بستري. وقال معاوية: يا بني أمية فارقوا قريشاً بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسع حلماً، وأرجع وهو لى صديق، إن استجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرمًا، وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم^(١). وسئل معاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفساً حين يسأل، وأحسنهم في المجالس خلقةً، وأحلمهم حين يستجهل^(٢)، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قتل السفاهة مثل حلم يعود به على الجهل الخليم
فلا تسفَه وإن ملئتَ غيظاً على أحد فإن الفحش لومٌ
ولا تقطع أخاك عند ذنب فإن الذنب يغفره الكريم^(٣)

وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه: إنه لا ينبغي أن يُساسَ الناسَ سياسةَ واحدةٍ باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فيُحْمَلَ الناسَ على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأنا للين والألفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه^(٤).

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه تبين لنا شيئاً مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيتيه، أو يصارحونه بقوة - بما يرونه حقاً وهو يخالفهم في ذلك-، وكان لتخلقه بخلق الحلم الذى لم يخالطه ضعف أثر في

(١) البداية والنهاية (١١/٤٤١).

(٢)، (٣) المصدر نفسه (١١/٤٤٢). (٤) المصدر نفسه (١١/٤٤٣).

نجاحه فى تثبيت أركان دولته، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضا والقناعة بسياسته، وهكذا تأتى مكارم الأخلاق التى من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم؛ لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد أبان فى هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شىء من الذل كما أن النصر يخالطه شىء من العز، ولكن أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التى منها اكتساب الأصدقاء والأنصار^(١) وفى كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التى تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن، ولكنها فى الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم، ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة^(٢).

ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة الحلم، وفى ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان - يوماً وذكر معاوية-: ما رأيت مثله فى حلمه واحتماله وكرمه^(٣)، وقال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحداً أعظم حلماً، ولا أكثر سؤدداً، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب بالمعروف من معاوية^(٤) - وقال عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما: لله در ابن هند، إن كنا نُفَرِّقُه^(٥) - وما الليث على برائه بأجراً منه - فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه - وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه - فيتخادع لنا، والله لوددت أنا مُتُّعنا به مادام فى هذا الجبل حجر - وأشار إلى أبى قبيس -^(٦).

وفى قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جرىء شجاع ولكن يظهر عمداً عكس ذلك ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدى لديهم، وهو أدهى أهل الأرض فى زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نعمتهم عليه، وهو فى ذلك كله يخدم هدفاً سامياً وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية، ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغيير الأحوال من بعده^(٧)، ويصف حبر الأمة عبدالله بن عباس رضى الله عنهما سياسة معاوية

(٢) المصدر نفسه (٢٦/١٧) .

(٤) المصدر نفسه (٤٣٩/١١) .

(٦) البداية والنهاية (٤٤٢/١١) .

(١) التاريخ الإسلامى (٢٦/١٧) .

(٣) البداية والنهاية (٤٣٩/١١) .

(٥) نخرقه : نخوفه .

(٧) التاريخ الإسلامى (٢٧/١٧) .

بكلام موجز، لكنه يعنى خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بم غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا^(١). وهذا يعنى أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر، ثم يحتوى الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرختها، وإذا أرخوها جذبتها. ومن مواقفه فى الحلم أنه جرى بين رجل يقال له أبو جهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو جهم بكلام فيه غمراً لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبى الجهم بمال، فقال أبو الجهم فى ذلك يمدح معاوية:

نمىل على جوانبه كأنا نمىل إذا نمىل على أبينا
نُقَلِّبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرمًا ولينا^(٢)

وهكذا كان لحلم معاوية رضى الله عنه وحسن خلقه ومبادلته الإساءة بالإحسان الأثر الكبير فى نفس أبى الجهم، فقال هذين البيتين فى الثناء على معاوية، ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقاً لقوله الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

ونظراً لحلم معاوية الكبير وما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أثنى عليه بقوله: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك فى الغضب، ولا ينال منه إلا على الرضا، ومن لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه^(٣). فهذا قول دقيق من عمر فى وصف معاوية، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم، والعزة التى تجعله منيعاً لا ينال ما عنده على قهر منه، وهذه الصفة من صفاته التى جعلت أمير المؤمنين عمر يبقيه أميراً على الشام لخطورة ذلك الثغر^(٤).

(١) البداية والنهاية (١١/٤٤٣). (٢) التاريخ الإسلامى (١٧/٢٨)، البداية والنهاية (١١/٤٤٠).
(٣) البداية والنهاية (١١/٤١٥). (٤) التاريخ الإسلامى (١١/٣٠).

وقال معاوية رضى الله عنه: العقل والحلم أفضل ما أعطى العبد، فإذا ذُكر ذكر وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتلى صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز^(١)، ففي هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه درراً من الحكم، وهى الشكر عند الرخاء، والصبر عند الابتلاء، والتحكم فى السلوك عند الغضب، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالوعد، والاستغفار عند الإساءة، فهذا الخبر على قصره قد جمع ستة موضوعات، كل موضوع يحتاج إلى أن يكتب عنه فى صفحات، وهذا من جوامع الكلم، وهو يعتبر من أعلى أنواع البلاغة، وذلك فى جمع المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة، وقد اشتهر فى هذا البيان عدد من الصحابة رضى الله عنهم تلمذوا فى ذلك على رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم^(٢).

٣- الدهاء والحيلة:

ومن الصفات التى تميز بها معاوية رضى الله عنه صفة الدهاء والحيلة وما يروى من دهائه وحسن إدارته وتدييره، أن المسلمين غزوا فى أيامه فأسر جماعة منهم، فوقفوا بين يدي ملك الروم بقسطنطينية، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة^(٣)، ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حرّ وجهه^(٤)، وكان رجلاً من قريش فصاح: وإسلاماه، أين أنت عنا يا معاوية، إذ أهملتنا، وأضعت ثغورنا وحكمت العدو فى دمائنا وأعراضنا؟ فسمى ذلك الخبر إلى معاوية، فالله وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه، وامتنع عن الناس، ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أعمل الحيلة فى إقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن فدى ذلك الرجل، ومن أسر معه من المسلمين، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام، دعاه معاوية فبره وأحسن إليه ثم قال له: لم نهملك، ولم نضيعك، ولا أبحنأ دمك وعرضك. ومعاوية أثناء ذلك يدبر الرأى ويعمل الحيلة، ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان عارفاً كثير الغزوات فى البحر صمك^(٥) من الرجال -مرطان بالرومية- فأحضره وخلا به، وأخبره بما قد عزم عليه وسأله أعمال

(١) أنساب الأشراف (٥/٣٣٦) .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٩/٢٠، ٣٥٥).

(٣) البطارقة: جمع بطريق وهو رئيس الأساقفة والأسقف رجل الكنيسة .

(٤) لطم حرّ وجهه : ما ظهر منه .

(٥) الصمك والصموك : القوى الشديد، والغليظ الجافى .

الحيلة فيه، والثأني له، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالا عظيماً، لبيتاع به أنواعاً من الطرف والملح والجهاز من الطيب والجوهر وغير ذلك، وأنشأ له مركباً لا يلحق في جريه سرعة، ولا يدرك في سيره، إنشاءً عجيباً، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها، وأخبره أن معه حاجة للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصداً إلى الملك وخواصه بذلك، فروسل^(١) الملك بشأنه، فأذن له، فدخل خليج القسطنطينية، فلما وصلها أهدى للملك وجميع بطارقتة، وبائعهم وشارهم، وقصدهم، إلا ذلك البطريق الذي لطم القرشى، وتأنى الصورى من الأمور على حسب ما رسمها له معاوية، وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره أكثر البطارقة أن يبتاع حوائج ذكروها، وأنواعاً من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سراً، وذكر له من الأمر ما جرى، فابتيع له ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه، وتقدم إليه معاوية فقال: إن ذلك البطريق إذا عدت في كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره، واستعانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقول والهدايا، واجعله القيم بأمرك، والتفقد لأحوالك تزداد عندهم، فإذا أتقت جميع ما أمرتك به، وعلمت ما غرض البطريق وإيش الذي يأمرك بابتياعه فعد به إلينا لتكون الحيلة على حسبه، فلما رجع الصورى إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه، والزيادة مما لم يطلب، زادت منزلته، وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان في بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك، قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك، وقال له: ما ذنبى إليك؟ وبم استحق غيرى أن تقصده، وتقضى حوائجه وتعرض عنى؟، قال الصورى: أكثر من ذكرت ابتدأنى وأنا رجل غريب، وأرحل إلى هذا البلد كالمتنكر من أسارى المسلمين، وجواسيسهم لثلاً يَنمُوا خبرى ويوشوا بأمرى إلى المسلمين، فيكون فى ذلك بوارى، والآن فإذا قد علمت ميلك إلىّ فلست أحب أن يعتنى بأمرى سواك، ولا يقوم بحالى عند الملك وغيره غيرك، فمرنى بحوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام، وأهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجوهر والطرف والثياب، ولم يزل هذا فعلة، يتردد من الروم إلى معاوية، ومن

(١) الشهب اللامعة، ص (٤٨٧).

معاوية إلى الروم، ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج الجليلة، والحيلة لا تتوجه إلى معاوية، حتى مضى على ذلك سنين، فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتهيت أن تعمدني بقاء حاجة، وتمن بها على، وهى أن تبتاع لى بساط سوسنجرى بمخاده ووسائده، ويكون فيه من أنواع الألوان الحمرة والزرقة وغيرها، ويكون من صفة كذا وكذا، ولو بما بلغ ثمنه كل مبلغ، فأنعم له بذلك، وكان من شأن الصورى أن يكون مركبه إذا ورد القسطنطينية بالقرب من موضع ذلك البطريق، وكان للبطريق ضيعة سرية، وفيها قصر مشيد، ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية، راكمه على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المنتزه، وكانت الضيعة فيما بين قسم الخليج من يلى بحر الروم والقسطنطينية، فانصرف الصورى إلى معاوية سرًا، فأخبره بالحال فأحضر معاوية بساطًا بوسائد ومخاد ومجلس حسن^(١)، فانصرف به مع جميع ما طلب منه من أرض الإسلام، وقد تقدم إليه معاوية بالحيلة، وكيفية إيقاعها، وكان الصورى فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم فى المؤانسة والعشرة، وفى الروم طمع وشره فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية، وقد طابت له الريح، وقرب من ضيعة البطريق، أخذ الصورى أخبار البطريق من أصحاب القوارب والمراكب، فأخبر أن البطريق فى ضيعته، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمائة وخمسين ميلًا، والضياع والعمائر على حافته، والمراكب والقوارب تختلف بأنواع المتاع والأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمائر لا تحصى كثرة، فلما علم الصورى أن البطريق فى ضيعته فرش البساط ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد فى صحن المركب ومجلسه، والرجال تحت المجلس بأيديهم المقاذيف مشكلة قائمة غير قاذفين بها، ولا يعلم بهم أنهم فى بطن المركب إلا من ظهر منهم فى عمله، والريح فى القلع، والمركب مار فى الخليج كأنه سهم خرج عن كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيره واستقامته فى جريه، فأشرفه على قصر البطريق، وهو جالس فى مستشرفه مع حرمه، وقد أخذت منه الخمر، وعلاه الطرب، وذهب به الفرح والسرور كل مذهب، فلما رأى البطريق مركب الصورى

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٨٩).

زعق طرباً، وصاح فرحاً وسروراً وابتهاجاً بقدمه، فدنا من أسفل القصر فحط القلع، وأشرف البطريق على المركب فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط، ونظم تلك الفرش، كأنه رياض يزهر، فلم يستطيع اللبث في موضعه، حتى نزل قبل أن يخرج الصورى من مركبه إليه، فطلع إلى المركب فلما استقر قدمه على المركب ودنا من المجلس، وضرب الصورى بعقبه على من تحت البساط، وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين فى بطن المركب، فما استقر دقه فى المركب بقدمه، حتى اختطف المركب بالمقاذيف، وإذا هو وسط الخليج يطلب البحر لا يلوى على شىء، وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر، فلم يكن الليل حتى خرج عن الخليج وتوسط البحر، وقد أوثق البطريق كتافاً، وطابت له الريح، وأسعده الجد، وحمله المقدار فى ذلك اللج، فتعلق فى اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر وحمل الرجل، فكان فى اليوم الثالث عشر مأسوراً بين يدي معاوية فسُر بذلك معاوية^(١)، وقال: على بالرجل القرشى، فأتى به، وقد حضره خواص الناس، فأخذوا مجالسهم، وغص المجلس بأهله، فقال معاوية للقرشى: قم فاقصص من هذا البطريق الذى لطم وجهك على بساط معظم الروم، فإننا لم نضيعك ولا أبحنأ دمك ولا عرضك، فقام القرشى فدنا من البطريق، فقال معاوية: انظر لا تتعد ما جرى عليك، واقتصص منه على حسب ما صنع بك ولا تعتد، وارع ما أوجب الله عليك من المماثلة، فلطمه القرشى لطمات ووكزه فى حلقة، ثم أكب القرشى على يدي معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما ضاع من سودك، ولا خاب فيك من رأسك، أنت ملك لا يستضام^(٢)، تمنع حماك، وتصون رعيتك، وأرق فى وصفه ودعائه، وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وبره، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة، وهدايا إلى الملك، وقال له: ارجع إلى ملكك، وقل له: تركت ملك المسلمين^(٣) يقيم الحدود على بساطك، ويقتصص لرعيته فى دار مملكتك وسلطانك وعزك، وقال للصورى: سر معه حتى تأتى الخليج فتطرحة فيه ومن أسر معه، ممن كان بادر فصعد إلى المركب من غلمان البطريق، وخاصته،

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٩٠).

(٢) أصل الكلمة فى الأثل العرب.

(٣) الضيم الإذلال والقهر، أى ملك لا يقهر ولا يذل.

فحملوا إلى صور مكرمين، وحمل الجميع في المركب، وطابت لهم الرياح، فكانوا في اليوم الحادى عشر متعلقين بأرض الروم فقرّبوا من الخليج، فإذا قد أحكم فمه بالسلاسل والمنعة من الموكولين به، فطرح البطريق، وحمل من وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة، وتباشرت الروم بقدمه، وتلقوه مهئين له بخلاصه من الأسر، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله في أمر البطريق والهدايا، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه، وقال الملك: هذا أدهى العرب وأمكر الملوك، ولهذا قدمته العرب عليها، فأساس أمرها، ولو همّ بأخذى لتمت له الحيلة على^(١). وهذه القصة دليل على دهاء معاوية رضى الله عنه وحسن سياسته واهتمامه بأمر رعيته والمحافظة على حقوق كل فرد فيها وصيانة كرامته^(٢).

٤ - عقلية الفذة وقدرته على الاستيعاب:

امتاز معاوية رضى الله عنه بالعقلية الفذة، فإنه كان يتمتع بالقدرة الفائقة على الاستيعاب، فكان يستفيد من كل ما يمر به من الأحداث، ويعرف كيف يتوقاها، وكيف يخرج منها إذا تورط فيها، وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة، منذ ولاء عمر رضى الله عنه الشام، فكانت ولايته على الشام عشرين سنة أميراً، وعشرين سنة خليفة^(٣)، هذه الفترة الطويلة التى تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة فى سياسة البلاد، والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التى تمر بها، حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينازعه منازع^(٤)، يقول الشيخ الخضرى: أما معاوية نفسه، فلم يكن أحد أوفر منه يداً فى السياسة، صانع رؤوس العرب، وكانت غايته فى الحلم لا تدرك، وعصابته فيه لا تنزع، ومراقاته فيه تزل عنها الأقدام^(٥)، ومن المعلوم أن السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب، واحتواء الشدائد حتى تنجلي، ولعاقبة فى ذلك نصيب وافر - رضى الله عنه - وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة، وهذه طريقته مع الملوك والسوقة، وهذه أمثلة من سياسته فى معاملة الناس:

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٩١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤٩١)، تعليق محقق الكتاب السيد سليمان معتوق الرفاعى رحمه الله .

(٣) الطبقات الكبرى (٤٠٦/٧).

(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/٨٢).

(٥) الدولة الأموية للخضرى، ص (٣٧٧).

أ- المسور بن مخرمة -رضى الله عنه- واعتراضه على معاوية:

عن عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافداً على معاوية بن أبي سفيان فقضى حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ فقال المسور: دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنَّ بذات نفسك، والذي تعيب علىّ. قال المسور: فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلا بينته له. قال معاوية: لا برىء من الذنب، فهل تعد يا مسور ما ألى من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسننة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات. قال المسور: لا والله ما نذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب. قال معاوية: فإننا نعتز لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يامسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور: نعم! قال معاوية: فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة مني؟ فوالله لما ألى من الإصلاح أكثر مما تلى ولكن والله لا أخير بين أمرين، وبين الله وغيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو عنم يشاء، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها، وأوارى أموراً عظماً لا أحصيها ولا تحصيها من عمل لله في إقامة صلوات المسلمين، والجهاد في سبيل الله عز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التي ليست تحصيها وإن عدتها لك. قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمني حين ذكر لى ما ذكر. قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له^(١). وفي هذا الخبر مثل جيد في فن الإقناع ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضى الله عنه بتقبل سياسته التي يسير عليها، وعاد مادحاً داعياً له بعدما كان منتقداً مهاجماً له، وفي هذا الخبر لفظة تربوية من معاوية حيث أبان أنه من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه وأن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئاً مذكوراً^(٢).

(١) تاريخ بغداد (١/٢٠٨ - ٢٠٩)، سير أعلام النبلاء (٣/١٥١).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨، ٥٣٩).

ب - ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري رضى الله عنه :

كان ثابت بن قيس بن الخطيم، شديد النفس، وكان له بلاء مع على بن أبى طالب، واستعمله على المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة، وكان معاوية يتقى مكانه. انصرف ثابت بن قيس إلى منزله فوجد الأنصار مجمعة فى مسجد بنى ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية فى حقوقهم أول ما استخلف، فقال: ما هذا؟ فقالوا: نريد أن نكتب إلى معاوية. فقال: ما تصنعون أن يكتب إليه جماعة؟! يكتب إليه رجل منا، فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعاً وتقع أسماؤكم عنده، فقالوا: فمن ذلك الذى يبذل نفسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها: نصرة النبى ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حقوقنا واعتديت علينا وظلمتنا، ومالنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبى ﷺ، فلما قدم كتابه إلى معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما رأى؟ فقال: تبعث فتصلبه على بابيه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم، فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به ههنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، ولما ذكرت النبى ﷺ، وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلى وما كنت فيه من الفتنة التى شهرت فيها نفسك، فأنظرنى ثلاثاً، فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه، وصبَّحهم العطاء فى اليوم الرابع^(١). فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه فى الحكمة والسياسة، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه رأيهم، ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف والجبروت، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضى الله عنهم، ولم يؤاخذ ثابت ابن قيس رضى الله عنه على شدة اللهجة فى كتابه إليه، وبهذا التصرف الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئاً بل كسب رضا الأنصار عنه ورضا غيرهم ممن يطلع على خبره معهم، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكائتهم فى الإسلام^(٢).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧/٥٣٧).

(١) تاريخ بغداد (١/١٧٦).

ج - الأحنف بن قيس - رحمه الله - :

ذكر ابن خلكان في ترجمته: ثم إن عبيد الله - يعنى ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق - وفيهم الأحنف - وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم علىّ أولاً فأولّ على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إلىّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة. قال: ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر في عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال له معاوية: اشهدوا علىّ أننى قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا وانظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إلىّ بعد ثلاثة أيام. قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عين غيره، وسعوا في السرّ مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصاً وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن وليت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم. قال: فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا علىّ أنى قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولى. قال: فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل - يعنى الأحنف -؟ فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا

عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذة الإنسان عوناً وذخراً، قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره^(١). وفي هذا الخبر موقف لمعاوية رضى الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس -رحمه الله- وأدرك رفعة منزلته، وفرعه وأذناه منه، وأظهر له كثيراً من الاهتمام والاحترام وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يعتبر من السياسة الجيدة فى احتواء أهل القوة والتأثير على الناس، واستيعابهم^(٢). ومن القصص التى حدثت بين معاوية والأحنف والتى تدل على سعة صدر معاوية ومعرفته بعواقب الأمور، فعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوماً، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة فى قلبى إلى يوم القيامة؟ فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا، وإن السيوف التى قاتلناك بها لفى أعمادها، وإن تدن من الحرب فترأ ندن منه شبراً، وإن تمشى إليها نهول إليها، ثم قام وخرج، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا الذى يتهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم، لا يدرون فيم غضب^(٣).

د- أبو قتادة الأنصارى رضى الله عنه:

ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب وجاء بالسند فقال: من جامع معمر رواية عبد الرزاق^(٤)، قال: حدثنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصارى، فقال له معاوية: يا أبا قتادة، لم يكن معنا دواب، قال معاوية: فأين النواضح؟ قال أبو قتادة: عقربناها فى طلبك، وطلب أبيك يوم بدر، قال: نعم يا أبا قتادة، قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا: إننا سنرى بعده أثره، قال معاوية: فما أمركم به عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر، قال: فاصبروا حتى تلقوه^(٥).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧/٢٤).

(١) وفيات الأعيان (٢/٥٠٣، ٥٠٤).

(٣) وفيات الأعيان (٢/١٨٦).

(٤) مصنف عبد الرزاق رقم (١٩٩٠٩) وهو مرسل، فإن عبد الله بن محمد بن عقيل لم يدرك معاوية، وأبا قتادة، وابن عقيل ليس بذلك. وإما إخبار النبى ﷺ للأَنْصار بأنهم سيرون بعده أثره وأمره لهم بالصبر حتى يأتوه فثابت من حديث أسيد بن حضير عند البخارى رقم (٣٧٩٢)، ومسلم رقم (١٨٤٥)، الاستيعاب، ص (٦٧٠).

(٥) الاستيعاب، ص (٦٧٠) رقم الترجمة (٢٣٤٦).

٥- تواضعه وورعه:

ومن صفات معاوية رضى الله عنه التي اشتهر بها صفة التواضع، فقد كان في خطبه العامة يعترف بأن في الناس من هو خير منه وأفضل، وكان ذلك بعد أن تولى أمر المسلمين، واجتمع عليه الناس، فأصبح الأمير الذي لا ينازع، خطب مرة فقال: أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير مني، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم في عدوكم، وأدرككم حلباً^(١)، وروى الإمام أحمد بسنده إلى علي بن أبي حملة عن أبيه قال: رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه قميص مرقوع^(٢)، وعن يونس بن ميسر الحميرى قال: رأيت معاوية في سوق دمشق، وهو مردف وراءه وصيقاً، وعليه قميص الجيب، يسير في أسواق دمشق^(٣)، وبلغ من ورعه أنه لما رأى إحدى جواريه، ونظر إليها بشهوة، ولكنه شعر بعجزه عن وطئها، قال لمن أحضرها إليه: اذهب بها إلى يزيد بن معاوية، ثم قال: لا، ادع لى ربيعة بن عمرو الجرشى - وكان ربيعة فقيهاً - فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة، وقد رأيت منها ذلك وذلك، وإنى أردت أن أبعث بها إلى يزيد. فقال ربيعة: لا تفعل يا أمير المؤمنين: فإنها لا تصلح له، فقال معاوية: نعم ما رأيت، ثم وهب معاوية الجارية لعبد الله بن مسعدة الفزارى، مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكان أسود، فقال له: بيض بها ولدك^(٤). ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله: وهذا من فقه معاوية وتحريه، حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكن استعفف نفسه عنها، فتخرج أن يهبها لولده يزيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْهُنُوا مَا نَكَّحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢]، وقد وافقه على ذلك ربيعة بن عمرو الجرشى الدمشقى^(٥).

٦- بكاؤه من خشية الله:

روى في مجلس معاوية رضى الله عنه حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ، فى أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة - من أمة محمد - القارى المراثى، والمنفق

(١) البداية والنهاية (٤٣٦/١١). (٢) سير أعلام النبلاء (١٥٢/٣)، الزهد، ص (١٧٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٥٢/٣)، من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاربة، ص (١٢٩).

(٤) البداية والنهاية (٣٩٦/١١). (٥) المصدر نفسه (٣٩٦ / ١١).

المرائي، والمجاهد المرائي، وبين رسول الله ﷺ ذلك حيث قال: إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسلي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلاناً قارىء، فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذى قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جرىء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعر بهم النار يوم القيامة. فعند ما سمع معاوية هذا الحديث قال: قد فعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقى من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظن من حوله أنه هالك، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١﴾ [هود: ١٥، ١٦].

هذه أهم صفات معاوية التي خرجت لي عند البحث في سيرته.

ثالثاً: ثناء العلماء على معاوية ودخول دولة بني أمية في خير القرون:

١- عمر بن الخطاب رضی الله عنه: قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية^(٢)، وقال أبو محمد الأموي: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له

(١) رواه الترمذی والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني (١٧١٣).

(٢) المعجم الكبير (٢٣٠/٥) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص (٨٣).

عمر: يا معاوية، تروح فى موكب وتغدو فى مثله، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك وذوو الحاجات بيباك قال: يا أمير المؤمنين إن العدو قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك، ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدرى أمرك أم أنهاك^(١).

٢- على بن أبى طالب رضى الله عنه: قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه: لا تكرهوا إمارة معاوية، فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوساً تندر عن كواهلها، كأنها الحنظل^(٢). فهذا توجيه من أمير المؤمنين على لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية.

٣- عبدالله بن عمر رضى الله عنه قال: ما رأيت أحداً أسود من معاوية، قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه وكان معاوية أسود^(٣) منه: وفى رواية: ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية. قيل: ولا أبا بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه، وهو أسود منهم^(٤).

٤- عبد الله بن عباس رضى الله عنه: قال رضى الله عنه: ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية^(٥)، وفى صحيح البخارى أنه قيل لابن عباس: هل لك فى أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: إنه فقيه^(٦)، وذكر ابن عباس معاوية فقال: لله در ابن هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضناً منه بأحسابنا وحسبه^(٧). وحين عزى معاوية عبدالله بن عباس فى الحسن بن على بقوله: لا يخزيك الله ولا يسوؤك فى الحسن، فقال له ابن عباس: أما ما أبقي الله لى أمير المؤمنين، فلن يسوءنى الله ولن يخزىنى^(٨).

(١) أنساب الأشراف (٤/١٤٧)، الاستيعاب رقم الترجمة (٢٣٤٦)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٨٤).

(٢) البداية والنهاية (١١/٤٣٠).

(٣) المصدر السابق (١١/٤٣٨).

(٤) المصدر السابق (١١/٤٣٨).

(٥) المصدر السابق (١١/٤٣٩).

(٦) البخارى، رقم (٣٧٦٥).

(٧) تاريخ دمشق (٦٢/١٢٨، ١٢٩).

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/٦٧، ٦٨).

٥- سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه: قال رضى الله عنه: ما رأيت أحداً بعد عثمان أفضى بحق من صاحب هذا الباب، يعنى: معاوية^(١).

٦- أبو هريرة رضى الله عنه: كان يمشى فى سوق المدينة وهو يقول: ويحكم تمسكوا بصدغى معاوية، اللهم لا تدركنى إمارة الصبيان^(٢).

٧- أبو الدرداء رضى الله عنه: ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله من أميركم هذا- يعنى معاوية^(٣). قال ابن تيمية بعد أن أورد أثر ابن عباس السابق، وأثر أبي الدرداء هذا: فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه والشاهد بالفقه ابن عباس ويحسن الصلاة أبو الدرداء، وهما هما، والآثار الموافقة لهذا كثيرة^(٤).

٨- سعيد بن المسيب رحمه الله: قال ابن وهب عن مالك عن الزهري قال: سألت سعيد بن المسيب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لى: اسمع يا زهري، من مات محباً لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقاً على الله أن لا يناقشه الحساب^(٥).

٩- عبد الله بن المبارك -رحمه الله- قال: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً، اتهمناه على القوم، يعنى الصحابة^(٦). وسئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول فى رجل قال رسول الله ﷺ: سمع الله لمن حمده. فقال خلفه: ربنا ولك الحمد؟ فقيل: أيهما أفضل هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب فى منخرى معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز^(٧).

١٠- عمر بن عبد العزيز رحمه الله: قال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية، فإنه ضرب أسواطاً^(٨).

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧٩/٢٥)، أثر العلماء، ص (٨٤).

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٣٥٧)، رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير قيس بن الحرث المدحجى.

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٤٩).

(٤) منهاج السنة (٦/ ٢٣٥).

(٨) المصدر نفسه (١١/ ٤٥١).

(٦) المصدر نفسه (١١/ ٤٤٩).

١١- وقال محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي وغيره: سئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين، معاوية صاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحي الله^(١).

١٢- أحمد بن حنبل - رحمه الله -: سئل الإمام أحمد: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحي، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غضباً؟ قال أبو عبد الله: هذا قول سوء رديء، يُجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس^(٢).

١٣- الربيع بن نافع الحلبي - رحمه الله -: قال: معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر، اجترأ على ما وراء^(٣).

١٤- قال ابن أبي العز الحنفي: وأول ملوك المسلمين معاوية، وهو خير ملوك المسلمين^(٤).

١٥- القاضي بن العربي المالكي: - رحمه الله -: تحدث ابن العربي عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضى الله عنه، فذكر منها: ... قيامه بحماية البيضة، وسد الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدو، وسياسة الخلق^(٥). وقال في موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم: فعمر وواه، وجمع له الشّامات كلّها، وأقره عثمان، بل إنّما ولاه أبو بكر الصّدّيق، لأنّه ولى أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقره عمر، فتعلّق عثمان بعمر وأقره، فانظر إلى هذه السّلسلة ما أوثق عُراها^(٦). وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه، ثمّ صالحه، وأقرّ له بالخلافة الحسن بن عليّ سبط رسول الله ﷺ^(٧).

١٦- يقول ابن تيمية - رحمه الله -: واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة، وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً

(١) البداية والنهاية (١١/٤٥٠).

(٢) البداية والنهاية (١١/٤٥٠).

(٣) العواصم من القواصم، ص (٢١٠، ٢١١).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ص (٧٢٢).

(٥) المصدر نفسه، ص (٨٢).

(٦) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٦).

ورحمة^(١)، وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خيراً منهم فى زمان معاوية^(٢)، إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل، وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن العزيز فقال: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: فى حلمه، قال: لا والله فى عدله.

١٧- وقال الذهبى - رحمه الله -: أمير المؤمنين، ملك الإسلام^(٣). وقال: ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو بىرىء من الهنات، والله يعفو عنه^(٤)، وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - هو ثغر - فيضبطه ويقوم به أتم قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه . . . فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه^(٥).

١٨- وقال ابن كثير - رحمه الله -: وأجمعت الرعايا على بيعته فى سنة إحدى وأربعين . . . فلم يزل مستقلاً بالأمر حتى هذه السنة التى كانت فيها وفاته، والجهاد فى بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه فى راحة وعدل، وصفح وعفو^(٦)، وقال: كان حليماً، وقوراً، رئيساً، سيداً فى الناس، كريماً، عادلاً، شهماً^(٧). وقال عنه أيضاً: كان جيد السيرة، حسن التجاوز، جميل العفو، كثير الستر، رحمه الله تعالى^(٨).

١٩- قال ابن خلدون - رحمه الله -: وقد كان ينبغى أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم، فهو تاليهم فى الفضل والعدالة والصحة . . . والحق إن معاوية فى عداد الخلفاء وإنما أخره المؤرخون فى التأليف عنهم لأمرين:

الأول: إن الخلافة لعهدده كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصبية التى حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعاً، فيميزوا بين الحالتين. فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبهون بعضهم ببعض، وحاشا لله أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده. فهو من الخلفاء الراشدين، ومن

(٢) منهاج السنة (٦/٢٣٢) (٣/١٨٥).

(٤) المصدر نفسه (٣/١٥٩).

(٦) البداية والنهاية (١١/٤٠٠).

(٨) المصدر نفسه (١١/٤١٩).

(١) الفتاوى (٤/٤٧٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/١٢٠).

(٥) المصدر نفسه (٣/١٣٢، ١٣٣).

(٧) المصدر نفسه (١١/٣٩٧).

تلوه في الدين والفضل من الخلفاء الروائية ممن تلاه في المرتبة كذلك، وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكاً، واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتية المعبر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصية والشوكة، فلا ينافي الخلافة ولا النبوة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيين وملكين، كانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربهما عز وجل. ومعاوية لم يطالب الحكم ولا أبهته للاستكثار في الدنيا، وإنما ساقه أمر العصية بطابعها لما استولى المسلمون على الدولة كلها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم، عندما تستفحل العصية وتدعو لطبيعة الملك، وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده، إذا دعته ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه، والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار، لا بالواهي، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي ﷺ في المسلمين، ومن خرجت أفعاله غير ذلك فهو من ملوك الدنيا، وإن سمي خليفة بالمجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة إنهم كانوا أهل نسب واحد، وعظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه، والخلفاء الأولون مختلفون الأنساب، فجعلوا في نمط واحد، وألحق بهم عثمان، وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريباً في الفضل^(١).

وكلام ابن خلدون ليس على إطلاقه وفيه نوع من المبالغة، فهذه بعض أقوال علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم على الثناء على معاوية رضى الله عنه أنه من ملوك المسلمين ومن خيارهم الذين غلب عدلهم وظلمهم، وما هو ببرىء من الهنات، والله يعفو عنه، وهو على دين كما قال عن نفسه: يقبل الله فيه العمل ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء. ولقد تعرض معاوية رضى الله عنه ودولته ودولة بني أمية عموماً لسهام بعض الكتاب، وزعم بعضهم أنها دولة مدنية، وقال بعضهم: أنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية؛ بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لاصلة لها بالدين، ولا

(١) تاريخ ابن خلدون، ص (٥٢٨، ٥٢٩).

بالأخلاق، وهذه فرية تكذبها حقائق الدين وشواهد التاريخ، أما حقائق الدين، فقد بدأت دولة بنى أمية سنة ٤٠ هـ من الهجرة، واستمرت إلى سنة ١٣٢ هـ. فقد شملت القرون الثلاثة التي هي خير قرون الأمة: قرن الصحابة، وقرن التابعين، وقرن أتباع التابعين^(١) وهي التي جاءت بها الأحاديث الصحاح المستفيضة عن رسول الله ﷺ؛ مثل حديث ابن مسعود: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٢)، ومثله حديث عمران بن حصين: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران لا أدري أذكر النبي بعد قرنين أو ثلاثة.^(٣) وكذلك حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: قال: يأتي زمان يغزو فنام من الناس فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح. ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح^(٤).

ومعنى قول: «قرني» أي أهل عصرى. وهم الصحابة ثم قرن التابعين، ثم قرن الأتباع، وبعض الشراح حددوا القرن بزمان، فقال بعضهم: القرن أربعون سنة، وبعضهم قال: ثمانون سنة. وبعضهم جعله مائة سنة، وهو الذى اشتهر فى الاستعمال الآن، وأمسى حقيقة عرفية. وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيرية على هذا ثلاثمائة سنة. وهذا غير منسجم مع منطوق الواقع التاريخى، فالراجح تفسيره بما ذكرنا، من عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الأتباع^(٥). ومن الأحاديث الصحيحة التى يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام. مارواه البخارى فى صحيحه عن خالد بن مهران: أن عمير بن الأسود العنسى حدثه أنه أتى عبادة بن الصامت، وهو نازل فى ساحة حمص، وهو فى بناء له، ومعه أم حرام (زوجه) قال عمر: حدثتنا أم حرام أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا». (أى فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة)، قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبي ﷺ: «أول

(١) تاريخنا المقترى عليه، يوسف القرضاوى ص (٦٢).

(٢) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم (١٦٤٥).

(٣) المصدر نفسه رقم (١٦٤٦). (٤) المصدر نفسه رقم (١٦٤٧).

(٥) تاريخنا المقترى عليه، يوسف القرضاوى، ص (٦٣).

جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا^(١)، ومدينة قيصر هي القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية^(٢). قال الشراح: في هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، وذلك في خلافة عثمان، مازال معاوية يغريه بالغزو في البحر، حتى استجاب له، وبدأ الأسطول الإسلامى منذ عهد عثمان، ثم اتسع وازداد في عهد معاوية^(٣)، وفي هذه الغزوة مات أبو أيوب الأنصارى وكان في هذا الجيش رضى الله عنه، فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية، والذي يهمنا هو أن هذا الجيش المغفور له بالجملة، كان في عهد بنى أمية. إذ كانت هذه الغزوة سنة اثنين وخمسين من الهجرة النبوية، أى في عهد معاوية، ومن نظر في سيرة معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة، وبعد تنازل الحسن السبط رضى الله عنه له، وتأمل هذه السيرة بإنصاف وجد الرجل حريصاً على إقامة الإسلام في شعائره وشرائعه، وعلى اتباع السنة النبوية في مجالات الحياة المختلفة.

(٢) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى، ص (٦٣).

(١) البخارى رقم (٢٩٢٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٣).

المبحث الثاني

العلاقة بين الأمة ومعاوية كرئيس الدولة الإسلامية

للخليفة كما للأمة حقوق، كما أن على كل منها واجبات مطالباً بها محاسباً عليها، وإليك شيء من الإيضاح:

أولاً: واجبات الخليفة:

بينَّ الفقهاء الواجبات الملقاة على عاتق رئيس الدولة، وحددوها التحديد الذي يوضح مدى ما هو موكول إليه من المهام، ومهما اختلفت أساليب العلماء في التعبير عن هذه الواجبات وتعدادها، فإنه يمكن القول إن هذه الواجبات في حقيقتها لا تتعدى المحافظة التامة على المصالح الدينية والدنيوية، وإليك هذه الواجبات:

١- العمل بشتى الوسائل على أن يكون الدين مصوناً عن كل ما يسيء إليه، سواء في هذا ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، أو ما يتعلق بغيرها، وهذا الواجب ما عبر عنه الماوردي قائلاً: هو حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة، وبينَّ له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من خلل، والأمة ممنوعة من زلل^(١).

٢- نصب القضاة ليحكموا بين الناس بشريعة الله، حتى لا يكون هناك معتد لا يخاف جزاء، ولا مظلوم لا يستطيع وصولاً إلى حق كفله الشارع له^(٢)، وسوف نتعرف على مؤسسة القضاء في عهد الدولة الأموية في هذا الكتاب.

٣- توفير الأمن لكل آحاد الأمة، حتى يستطيع كل فرد أن ينصرف إلى سبيل عيشه آمناً على نفسه وأهله وماله.

٤- إقامة الحدود التي بينها الله سبحانه على مقترفي كل جريمة تستأهل حداً، لا يفرق في ذلك بين شريف وحقير، حتى تصان محارم الله من الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده عن إتلاف واستهلاك كما هو تعبير الماوردي^(٣).

(٢) رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص (٣٥٦).

(١) الأحكام السلطانية، ص (١٥).

(٣) الأحكام السلطانية، ص (١٦)، رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص (٣٥٧).

٥- إحاطة ثغور البلاد بسياج منيع من القوة، حتى لا يجد أعداء الإسلام ثغرة يتسللون منها إلى ضرب الأمة على حين غفلة، فيجب على رئيس الدولة أن يعمل على استكمال كل الوسائل التي تكلف الأمة الحماية التامة من شرور الأعداء.

٦- جهاد أعداء الإسلام الذين عاندوا دعوتهم إليه، حتى يدخلوا في الإسلام أو يدخلوا في الذمة.

٧- جباية الأموال المستحقة، سواء أكانت هذه الأموال صدقات أم فيئًا، وإخضاع ذلك إلى القواعد التي أوجبها الشارع نصًا واجتهادًا من غير زيادة أو نقصان في الجباية، إذ أن الزيادة تقضى إلى خسران من تجب عليهم الزكوات، والنقصان مفضٍ إلى تضيق مجال الصرف على الفقراء والمساكين والعاملين ونحوهم.

٨- تقدير الحقوق والرواتب المستحقة في بيت مال المسلمين، كالإعانات الاجتماعية للأسر المحتاجة، ورواتب الجند والموظفين، والعمل على إرساء قواعد تكون ضابطة لكل ما يتصل بهذا الواجب.

٩- اختيار الأكفاء الذين يثق في مقدرتهم ودينهم وصلاحهم للمناصب القيادية التي توكل إليهم، حتى يسير دولا ب الأعمال بيد الأمناء الذين يخافون الله، ولا يثبون على حقوق الناس.

١٠- الإشراف بنفسه على ما هو متصل بما يجب عليه نحو الأمة، ولا يترك الأمور تسيير بدون إشراف مباشر منه، إذ إن كل تقصير من أى من عماله الذين وكل إليهم بعض الأمور، منسوب إليه، متحمل خطئه، محاسب عليه أمام الله إن قصر في المتابعة، فإن الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته كما بين ذلك رسول الله ﷺ

١١- الشورى، لأنها من سمات الحكم الإسلامى^(١).

وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف تعامل معاوية رضى الله عنه، والخلفاء الأمويون من بعده مع هذه الواجبات، ولا نريد أن نستعجل الأحداث، وسنقف مع كل واجب من هذه الواجبات في موقفه، ونرى قرب الخلفاء الأمويين وبعدهم من تطبيق هذه الواجبات.

(١) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٥٨).

ثانياً: حقوق الخليفة:

إن الخليفة له حقوقاً على الأمة من شأنها أن تعينه على القيام بما هو موكول إليه من المهام، وقد بين علماء الإسلام هذه الحقوق وأهمها:

١- طاعته والانقياد له في كل ما أمر به ونهى عنه، ما دامت هذه الأوامر والنواهي في المعروف، ولم تتعارض مع الأحكام التي بيّنتها شريعة الإسلام، فما دام الخليفة أو رئيس الدولة قد التزم في أوامره ونواهيه جانب الشرع، فلم يحد في ذلك عن الحدود التي رسمتها، له الشريعة، فله حق ولاء المواطنين جميعاً، سواء في ذلك أهل الحل والعقد الذين بايعوه رئيساً للأمة، وسائر المواطنين الذين يلزمهم الانقياد له بمجرد تمام هذه البيعة.

٢- القيام بنصرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك، فما دام يسير في حكمه على طريق الحق فقد وجب على سائر الأمة نصرته على البغاة، وكل من رفع عليه السلاح، لأن نصرة الإمام الحق في الواقع ما هي إلا نصرة للمسلمين وتأييد له في العمل على أن يكون الدين قائماً، وكف للمعتدين عن كل ما يمكن أن يصدر عنهم من جرائم.

٣- جعل راتب له مع مخصصات له، تكفيه ومن يعوله، فإن رئيس الدولة سيشغل نفسه بواجبات الرياسة التي ستستحوذ على وقته، مما لا يترك له فرصة السعى في اكتساب رزقه، فيجب أن يجعل له راتب يغنيه، ويليق بهذا المنصب بحيث لا يكون فيه تقتير ولا إسراف، لأن رواتب الولاة والقضاة من أموال المسلمين التي يحتاط في وجوه صرفها.

٤- إخباره بأحوال من ولاهم المناصب العامة -كالولاة والقضاة- إذا انحرفوا عن الطريق الذين كلفوا بسلوكه، وذلك لأن الإمام مكلف شرعاً بمتابعة أعمال هؤلاء لإصلاح ما اعوج من أفعالهم، وتنبههم إلى ما غفلوا عنه من وجوه المصلحة، وهو محاسب أمام الله على ما ارتكبه هؤلاء من أخطاء في حق الله، والأمة، إذا هو قصر في منع ذلك، ولا طاقة له على متابعة أعمالهم، ومراقبة سيرهم إلا إذا عاونته الأمة في ذلك.

٥- تقديم جميع المساعدات إليه إن احتاج إلى ذلك في أداء ما تحمله من أعباء مصالح الأمة لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وولاية الأمور أحق من أعين على ذلك^(١). والأمة في عمومها لم تبخل على أمير المؤمنين معاوية بحقوقه وعلى الخلفاء الذين جاءوا من بعده، ولم يخل الأمر من ثورات ضد الخلفاء سنيينها في موضعها بإذن الله تعالى.

ثالثاً: عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول في فضائل الشام:

كانت الشام إحدى الولايات الهامة في الامبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية»، بل كانت لقربها من بيت المقدس، وتاريخها القديم، أحد المراكز الحضرية في هذه الامبراطورية، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة، لما تحويه من حضارة، فضلاً عما بها من خيرات وخضرة وأسواق، وتعتبر مدينة دمشق المدينة الأولى في بلاد الشام، فهي قاعدتها ومدينتها العظمى، ولعبت دوراً كبيراً في تاريخ المنطقة، لذلك اتخذها الحاكم الروماني قاعدة حكمه، ولما دخل الإسلام الشام، ودمشق خاصة، حافظ عليها، واحتفظ الولاة لها بمميزاتهما، وظل معاوية الوالي يعتنى بها طوال فترة ولايته عليها، وأقام علاقات وطيدة مع سكانها^(٢)، وعرف أهمية القبائل اليمنية في دمشق والشام، فتزوج من إحداها وهي بنى كلب وأنجب من زوجته الكلبية ابنه يزيد، فضمن ولاءهم له ولأبنائه من بعده، لأن الخزولة من أبرز ما تتحزب له القبائل العربية، هذا فضلاً عن أن التصاهر عند العرب بمثابة التحالف السياسي^(٣)، وقد كان معاوية ذكياً في اعتماده على القبائل اليمنية بدمشق والشام^(٤)، ولما قامت الدولة الأموية، رأى معاوية أن الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقاً وغرباً فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية، وذلك لأنها تقع بين جزءى العالم الإسلامى؛ الجزء الشرقى الذى يشمل العراق وفارس، والجزء الغربى الذى يشمل مصر والمغرب، فضلاً عن أن القبائل التى ارتبطت به أيدته ودعمت موقفه، وصارت يده الطولى فى تدعيم حكمه، أى

(١) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٧٠ - ٣٧٤).

(٢) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٥، ١٣٦).

(٣) الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، ص (٤٢).
(٤) المصدر نفسه، ص (٤٢).

أنها كانت القوة العسكرية والسياسية التي استند عليها الحكم والدولة الأموية، كما قدم له سكان البلد ما يمكن أن يقدموه من خبرة وعمل إداري^(١)، فقد وجد معاوية في دمشق تقاليد عريقة في الحكم والادارة، كما وجد جهازاً إدارياً متمرساً ساعده على تأسيس مهمته في فترة التأسيس هذه، التي لا تحتاج الإرادة الطيبة، فحسب، بل تحتاج الخبرة والمران اللذين وفرهما له جهاز الموظفين الذين كانوا يعملون في ظل الإدارة البيزنطية في الميدانين الإداري والمالي، كما أنه لابد لنا أن نلاحظ أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى، فالقبائل العربية التي هاجرت إليها، واستقرت فيها قبل الفتح كانت قد اعتادت فكرة الحكم المركزي وفكرة الدولة عموماً، على عكس عرب العراق مثلاً الذين لم يتقبلوا هذه الفكرة بسهولة، وينطبق هذا على من سكن العراق منهم قبل الفتح وبعده، فالذين سكنوا العراق قبل الفتح كانوا في خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسي^(٢)، وسكان بلاد الشام كانوا قد اعتادوا الخضوع والتعايش مع البيزنطيين، كما أن العرب الذين هاجروا إلى الشام بعد الفتح لم يعيشوا في معسكرات مستقلة، كما كانت الحال في العراق (البصرة والكوفة)، بل عاشوا جنباً إلى جنب مع السكان المحليين والقبائل التي كانت تقطن الشام قبلاً، وقد ساعد هذا الاختلاط على كسر حدة التمرد القبلي^(٣).

وقد ساعد على تحقيق انتصارات معاوية في الخارج الجيش الشامي الذي جمعه ونظمه ودربه منذ أن كان والياً، والذي أغدق عليه العطاء، ولم يبخل عليه بكل ما يوفر له سبل الرضا والإخلاص بعد أن غدا خليفة، وتعددت لقاءاته في البر والبحر مع الامبراطورية البيزنطية، وقد ساعدت هذه اللقاءات المستمرة على إعطاء جيش الشام فرصاً كثيرة للتدريب العملي، وقدمت له الخبرة اللازمة^(٤).

كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها في هجرة الناس للشام، واعتزاز أهلها بالإسلام، وحرصهم على زعامة العالم الإسلامي، فالنبي ﷺ ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر،

(١) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٦).

(٢) تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل، ص (٦٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٢)، الجذور التاريخية للأسرة الأموية، د. إحسان صدقي العماد، ص (٩٤).

(٤) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٦).

فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة^(١)، وقد كان معاوية يحتج لأهل الشام بحديث رسول الله ﷺ حيث قال: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة»^(٢)، فقام مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذًا يقول: وهم^(٣) بالشام، فقال معاوية: وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذًا يقول: وهم بالشام. ومارواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين»^(٤)، قال الإمام أحمد: وأهل الغرب هم أهل الشام^(٥). وذلك أن النبي ﷺ كان مقيمًا بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه، وما يشرق عنها فهو شرقه^(٦). . . . وقد أخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب وهو الشام وما يغرب عنها . . وكان أهل المدينة يسمون أهل الشام: أهل المغرب، ويقولون عن الأوزاعي: إنه إمام أهل المغرب^(٧). فإذا دلت النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التي لا يضرها خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل هي بالشام، فهذا لا يعارض قوله ﷺ: «تقتل عمارًا الفئة الباغية»^(٨)، وقوله في الخوارج ﷺ: «تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»^(٩). ولا ريب أن هذه النصوص لا بد من الجمع بينها، فيقال: أما قول ﷺ: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين»^(١٠)، ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم، فهذا وقع وهذا هو الأمر فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين^(١١)، وأما قوله عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله»^(١٢)، والذي هو ظاهر، فلا يقتضى ألا يكون فيهم من فيه بغى، ومن غيره أولى بالحق منهم، بل فيهم هذا وهذا^(١٣). وأما قوله: «تقتلهم أولى الطائفتين بالحق» فهذا دليل على أن عليًا ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحًا في بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائمًا بأمر الله، وأن يكون ظاهرًا بالقيام بأمر الله من طاعة الله ورسوله، وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه،

(١) الفتاوى (٢٧٥/٤). (٢) البخارى رقم ٧٣١١، مسلم رقم (١٩٢٠، ١٩٢١).

(٣) الفتاوى (٢٧٣/٤)، مالك بن يخامر ذكره ابن حبان في الثقات، تهذيب التهذيب (١/٢٥، ٢٣).

(٤) مسلم فى الإمارة. (٥) الفتاوى (٢٧٣/٤).

(٦) المصدر نفسه (٢٧٣/٤). (٧) المصدر نفسه (٢٧٣/٤).

(٨) البخارى رقم ٤٤٧. (٩) مسلم فى الزكاة.

(١٠) مسلم فى الإمارة. (١١) الفتاوى (٢٧٤/٤).

(١٢) البخارى رقم (٧٣١١). (١٣) الفتاوى (٢٧٤/٤).

وأما كون بعضهم باغياً في بعض الأوقات، مع كون بغيه خطأ مغفوراً له، أو ذنباً مغفوراً، فهذا -أيضاً- لا يمنع ما شهدت به النصوص؛ وذلك أن النبي ﷺ أخبر عن جملة أهل الشام، ولا زيب أن جملتهم كانوا أرجح في عموم الأحوال^(١)، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفضلهم في مدة خلافته على أهل العراق، حتى قدم الشام غير مرة، وامتنع من الذهاب إلى العراق، واستشار فأشير عليه أنه لا يذهب إليها، وكذلك حين وفاته لما طعن أدخل عليه أهل المدينة أولاً وهم كانوا إذ ذاك أفضل الأمة، ثم أدخل عليه أهل الشام، ثم أدخل عليه أهل العراق، وكانوا آخر من دخل عليه^(٢). وكذلك الصديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال: لكفر الشام أحب إلى من فتح مدينة العراق^(٣)، والنصوص التي في كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه في فضل الشام، وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق، أكثر من أن تذكر هنا، بل عن النبي ﷺ من النصوص الصحيحة في ذم المشرق وإخباره بأن الفتنة ورأس الكفر منه ما ليس هذا موضعه، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين على، وذلك كان أمراً عارضاً ولهذا لما مات على رضى الله عنه ظهر منهم من الفتن، والنفاق، والردة، والبدع، ما يعلم به أن أولئك كانوا أرجح^(٤).

وكذلك - أيضاً - لا ريب أن في أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل من كثير من أهل الشام، كما كان على وابن مسعود، وعمار، وحذيفة ونحوهم، أفضل من أكثر من بالشام من الصحابة، لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح، وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه، مع أن علياً رضى الله عنه كان أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عماراً قتله الفئة الباغية - كما جاءت به النصوص - . فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولانتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف^(٥).

(١) الفتاوى (٢٧٤/٤) .

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٢٧٥/٤) .

رابعاً: أهل الحل والعقد في عهد معاوية رضى الله عنه:

كان المجتمع الإسلامي في عصر الراشدين يتطور تطوراً سريعاً وخطيراً بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم، والتي تظهر في ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية، وخوف الله في معاملة بعضهم للبعض، وقد تمثل ذلك التطور في تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين في المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم في الأمصار، وباكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز مقر الخلافة نتيجة نمو دور القبائل العربية التي أسلمت متأخراً، ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى، التي أدت إلى إثراء المجتمع الإسلامي بصورة لم يعرفها من قبل، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق^(١)، وبدأت تدريجياً تتغير بعض المفاهيم، كمفهوم أهل الحل والعقد، فلم يعودوا هم أهل بدر، أو جماعة السابقين إلى الإسلام في المدينة، التي تقلصت أعدادها بمضى الزمن، وبرز إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار، وزعماء الشام من بينهم، فحين نحتكم إلى أحداث التاريخ نجد أنها تؤكد قدرة أهل الأمصار آنذاك على الحسم السياسي، وعجز أهل المدينة عن ذلك، ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة والتوحد الاجتماعي، والتعود على الخضوع لنظم الدولة، وأساليب الإدارة، وأنماط الحضارة، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت معاوية، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عاماً هي عمر الدولة الأموية. . مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم بحكم الواقع السياسي جل أهل الحل والعقد في المجتمع الإسلامي، والقادرين على اختيار الخليفة، وإقناع بقية الأمصار بذلك الاختيار - إن سلماً أو عنفاً - في ذلك المجتمع الذي أصبحت تحكمه عصبية مختلفة الرغبات والأهواء^(٢) والمطامع.

١ - رأى الفقهاء في معنى أهل الحل والعقد:

وحين نحتكم إلى أقوال علمائنا في معنى أهل الحل والعقد نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال^(٣)، ويذكرون مصطلحات متعددة منها:

(١) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص (١٢٧). (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (١٢٨).

أ - أولو الأمر: وهو مصطلح شرعى جاء بنص القرآن الكريم وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقد اختلف فى المراد بهم على أقوال من أشهرها:

- أنهم الأمراء، ورجحه الإمام الطبرى^(١)، وقال النووى: هو قول جمهور السلف والخلف^(٢).

- أنهم العلماء، وبه قال بعض السلف منهم: جابر بن عبد الله والحسن البصرى، والنخعى وغيرهم.

- أنهم أصحاب محمد ﷺ.

- أنهم أبو بكر وعمر.

- أنهم عامة فى كل أولى الأمر والعلماء، ومال إليه الإمام ابن كثير^(٣)، وابن القيم^(٤)، والشوكانى^(٥) وغيرهم.

- أنهم العلماء والأمراء والزعماء، وكل من كان متبوعاً وهو رأى ابن تيمية^(٦)، ومحمد عبده^(٧)، وقال: إنهم هم أهل الحل والعقد^(٨)، ولعل القولين الخامس والسادس هما الأقرب إلى الصواب، وليس بينهما فرق كبير^(٩).

ب - العلماء: والمراد بهم علماء الشريعة: وهو لفظ قرآنى، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وربما جاء بلفظ ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ كما فى قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وفى السنة النبوية جاء هذا المصطلح فى أحاديث لا تكاد تحصر ومن ذلك الحديث المشهور: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يموت العلماء»^(١٠).

(١) تفسير الطبرى (٥٠٢/٨) تحقيق محمود شاكر.

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (٢٢٣/١٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٥٣٠/١).

(٤) فتح القدير للشوكانى (٤٨١/١).

(٥) تفسير المنار (١٨١/٥).

(٦) تفسير المنار (١٨١/٥).

(٧) تفسير المنار (١٨١/٥).

(٨) تفسير المنار (١٨١/٥).

(٩) تفسير المنار (١٨١/٥).

(١٠) تفسير المنار (١٨١/٥).

ج- أهل الاختيار: وهم الذين يوكل إليهم اختيار الإمام ومبايعته، وهم أهل الحل والعقد^(١)، وهو مصطلح اجتهادى اصطلاح عليه بعض أهل العلم^(٢).

د- أهل الاجتهاد: وهم العلماء الذين بلغوا درجة الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية، ويكونون مؤهلين للأعمال المهمة، كالإمامة الكبرى، والقضاء، والفتوى ونحو ذلك، ومن أطلق هذا المصطلح: البغدادى^(٣)، والقرطبى^(٤).

هـ- أهل الشورى: وهم الذين يستشارون فى أمر المسلمين وفق الآية الكريمة، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]

و- أهل الشوكة: وهم أصحاب القدرة والسلطان، لتوافر القدرة والبأس لديهم، ومن استعمل هذا المصطلح ابن تيمية^(٥).

ز- أهل الرأى والتدبير: وهم من يتسمون بالعقل والفكر الناضج مع القدرة على تصريف الأمور وتسييرها، ومن استعمل هذا المصطلح ابن عابدين^(٦).

فأهل الحل والعقد هم الذين لهم القدرة على عقد نظام جماعة المسلمين فى شئونهم العامة، والسياسية، والإدارية، والتشريعية، والقضائية، ونحوها، ثم حل هذا النظام لأسباب معينة ليعاد ترتيب هذا النظام وعقده من جديد^(٧).

والذى تحقق فى عهد معاوية -رضى الله عنه- أن أهل الحل والعقد فى دولته كانوا هم الولاة، وزعماء القبائل، وقادة الجيوش ونحوهم، وتركزت الشوكة والقوة الفعلية فى أهل الشام، حيث كانوا قادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم، وهذا ما تحقق فى ذلك الظرف التاريخى فى أهل الشام، وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافاً، قلنا إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية فى العراق والحجاز، ومصر وغيرهم، وأن تضم بجوار أصحاب العصبيات القوية، أصحاب الرأى من

(١) الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت (١١٥/٧).

(٢) أهل الحل والعقد، عبد الله الطريقي، ص (١٣)، وهذا الكتاب فريد فى بابه.

(٣) المصدر نفسه، ص (١٣) أصول الدين (٢٧٩).

(٤) تفسير القرطبى (١/٢٦٥).

(٥) منهاج السنة (١/٥٥٠).

(٦) حاشية ابن عابدين (٤/٢٦٣).

(٧) أهل الحل والعقد، ص (١٥).

علماء الأمة وأهل الديانة فيهم، وأن يوكل إلى هذه الطائفة منهم اختيار الخليفة أو عزله، علاوة على الفصل في المسائل المهمة في حياة الأمة. . ولو حدث ذلك في مسيرة الدولة الأموية لتجنبت الأمة كثيراً من الاختلاف وإراقة الدماء. . ولكن الذى حدث فعلاً هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء فى العصر الأموى من الأسرة الأموية ذاتها، وكانت بداية ذلك هى البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد من أبيه، وبعد خطوب شتى أصبح تسلسل الخلفاء من البيت الأموى أمراً واقعاً، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت^(١). وسيأتى الحديث عن ولاية العهد فى حينه بإذن الله تعالى.

خامساً: الشورى فى عهد معاوية رضى الله عنه:

عندما آلت الخلافة إلى بنى أمية، لم يكن معاوية بن أبى سفيان ممن يجهل فوائد الشورى ويهمل الأخذ بها، وما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة، فقد كان يشاور ذوى الرأى من الولاة ووجوه الناس وأشرف القوم وأهل العلم، وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بنى أمية، وكان من كبار مستشارى معاوية رضى الله عنه: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان يستشير الوفود التى كانت تأتية^(٢)، وكان الناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم، ويهتم الخليفة بها كل الاهتمام، ويناقشهم فيها، ويحقق ما يمكن تحقيقه منها.

وكان والحكم يعتمد على مستشارين أكفاء وكتاب قادرين، أطلقت يدهم فى العمل، ومنحهم الخليفة ثقته، وشدهم بسلطانه، والحكم لم يكن متمركزاً فى شخص الخليفة، فملكته واسعة، ولا يستطيع أن يضطلع بكل أمر، وهو يرسل ولاته على الأقطار ويطلق لهم اليد فى شئونها، وهو لا يولى إلا من يثق به، ولا يعطى السلطان إلا لمن لا يخشاه^(٣)، وولاته يستشيرهم فى حدود معينة.

وأما أمر الخلافة فحصر فى بنى أمية، وأصبح أمرها خاصاً بالبيت الأموى، يفتى فيها بالمجامع الأموية خاصة من دون الناس، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فى شورى استخلاف السلطان ورد الطامعين به إلى الجماعة الأموية

(١) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (١٢٨).

(٢) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص (٥٥).

(٣) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (١٣٩).

غالباً^(١). ومن هنا يمكن القول بوجود نوعين من الشورى فى عهد بنى أمية أولهما: شورى تتعلق بالأمر والمصالح العامة، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فيها إلى ذوى الرأى من أشرف القوم والولاة وغيرهم، وثانيهما: شورى تتعلق بالسلطان خاصة، وكان الخلفاء من بنى أمية يفزعون فيها إلى آل بيتهم ويقضون فيها بينهم^(٢).

وقيادة معاوية للدولة لم تكن فردية خالصة، فاللامركزية فى الحكم والإدارة فى الأغلب، ومشاركة الرجال من أهل الرأى والخبرة فى حمل المسئولية والقيام بأعباء الدولة فى السلم والحرب، وفى المراكز والولايات، ووجود الإسلام فى حياة الفرد والمجتمع والدولة سلوكاً ونظام حكم منذ عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، تقلل من مظهر القيادة الفردية ومساوئها، وتعزز مظهر الشورى وغلبة الاتجاه العام الثابت فى السياسة والقيادة والإدارة وتصريف الأمور ورعاية المصالح^(٣)، كما أن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثى لم يكن يعنى تحولاً كاملاً عن شورى الراشدين، أو ارتداداً عن أوامر الإسلام ومنهجه فى الحكم، وقد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعى وسياسى ولقد بقيت فى عهد معاوية والعصر الأموى - كما يقرر ابن خلدون - معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه، والجرى على مذاهب الحق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيافاً، وهكذا كان الأمر فى عهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها^(٤). وما ذهب إليه ابن خلدون ليس على إطلاقه؛ ففى عهد الدولة العثمانية فى زمن محمد الفاتح انتعشت بعض معانى ومقاصد الخلافة، من الفتوحات، والدعوة، وإعزاز الإسلام، والعدل، ولم يذم الشرع العصبية أو الملك، لما كان القصد منها إقامة الدين، وإظهار الحق، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّيَبْتَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك^(٥)، وعلى ذلك فإن الملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية^(٦)، التى يقصد بها قهر الناس بغير حق،

(٢) المصدر نفسه، ص (٥٧).

(١) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص (٥٦).

(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٢).

(٤) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٥).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (٢٧٥).

ولم يكن ذلك شأن معاوية في خلافته، وقد استرعى انتباه بعض فقهاءنا ومؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مقاصد خلافة معاوية ومقاصد خلافة الراشدين، لذلك فقد رأى ابن تيمية: .. فهذا يقتضى أن شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا، وأن ذلك لا ينافي العدل، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل^(١)، ولن نتعد عن الحقيقة إذا قلنا إن معاوية وبعض خلفاء بني أمية كان يودون لو ساروا سيرة الراشدين كاملة، ولكنهم كانوا غير قادرين على ذلك في تفاعلهم مع أحوال رعيته وظروف عصرهم، وإن ذلك الأفق العالى والمثل الرفيع الذى قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء، ولكنه كان أيضاً يستعلى على قدراتهم، فيجهدون أنفسهم لتحقيقه، ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة^(٢)، ولقد سأل معاوية يوماً ولده وولى عهده يزيد: كيف سيعمل بعد استخلافه؟ فقال: أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب، فتبسم معاوية وقال: والله لقد جهدت أن أعمل فيها عمل عثمان فلم أقدر، أتعلم أنت فيهم بعمل عمر بن الخطاب؟^(٣)، ولا يعنى ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة فى عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل، ولكن لا يأتى به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعى والرعية حيث؛ يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق، ويحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهودهم لتربية الرعية على كمال الإيمان، ويعطون القدوة فى ذلك والمثل، ويستفرغون فى ذلك وذاك وقتهم وجهدهم^(٤)، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء الحكم فى مجتمع ما كان ذلك إلا لنقص فى الراعى والرعية^(٥) معاً. إن الشورى فى عهد معاوية والدولة الأموية تقلصت عمّا كانت عليه فى عهد الخلافة الراشدة وبقيت فى عهد معاوية بعض جوانبها، ولم تتقدم كلياً كما يطرح البعض.

(١) الفتاوى (١٨/٣٥).
(٢) الدولة الأموية المقتدى عليه، ص (٢٧٦).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (٢٧٦).

(٤) الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (٢٧٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/٣٥)، الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (٢٧٧).

سادساً: حرية التعبير فى عهد معاوية رضى الله عنه:

كان معاوية رضى الله عنه يفرق بين المعارضة السلمية والمسلحة، فهو يطلق حرية الكلام والتعبير عن الرأى ما دام ذلك فى حدود التعبير عن الرأى، أما إذا انقلب الأمر إلى حمل السلاح وسلّ السيوف، فإنه لا يجد مفرّاً من مواجهة هذه الثورات كما فعل مع الخوارج، وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى، فقد روى عن معاوية أنه قال: إنى لا أحول بين الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا^(١). وقال عامله على العراق زياد بن أبيه فى خطبته لأهل البصرة: إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضى لم أكشف له قناعاً، ولم أهلك له سترّاً، حتى يبدى لى صفحته، فإذا فعل لم أناظره^(٢)، ويقول عن أحد معارضيه: لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضى ما هجته حتى يخرج على^(٣). وإليك الكثير من المواقف التى تدل على حرية التعبير، وحق المعارضة السلمية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمعاوية، وكيف كان يستقبل تلك الانتقادات.

١ - أبو مسلم الخولانى: فقد كان رحمه الله من العلماء الربانيين، وكان ممن لا يجامل ولا يدهن، فقد قام أمام معاوية فوعظه وقال: إياك أن تميل على قبيلة من العرب فيذهب حيفك بعدلك^(٤). وكان يذكر معاوية بمسئوليّاته تجاه رعيته ويحثه على أداء حقوقه، فقد دخل ذات يوم على معاوية فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال الناس: الأمير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول. قال أبو مسلم: إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيراً فولاه ماشيته، وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية، ويوفر جزاها وألبانها، فإن أحسن رعيّتها ووفر جزاها حتى تلحق الصغيرة، وتسمن العجفاء، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة، وإن هو لم يحسن رعيّتها وأضاعها حتى تهلك العجفاء وتعجف السمينّة، ولم يوفر جزاها وألبانها

(١) ذكر الدكتور خالد الغيث فى كتابه القيم مرويّات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨١، ٢٨٢): أن فى إسناد هذه الرواية اجتمعت فيه علتان، الأولى: أن عبد الله بن صالح الجهنى لم يدرك عبد الملك بن عمير، وذلك أن مولد عبد الله بن صالح كان بعد وفاة عبد الملك بن عمير بسنة، والعلّة الثانية: تشيع هشام بن سعد، وكرهية الشيعة لبنى أمية أمر معلوم، لذا لا يؤخذ منه فى هذا المقام، لأنه يروى ما يوافق هواه.

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المقترى عليها، ص (٣٠٣). (٣) المصدر نفسه، ص (٣٠٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٣/٤)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٢٧٤).

غضب عليه صاحب الأجر. فقال معاوية: ماشاء الله^(١). فانظر كيف حث أبو مسلم الخولاني معاوية رضى الله عنه على الاهتمام بأمر الرعية وحذره من التهاون أو التفريط في إصلاح شئونهم، وذلك عن طريق ضرب المثل تقريباً للصورة وتشبيهاً للحال^(٢)، وهناك موقف عملي آخر لأبي مسلم الخولاني مع معاوية أيضاً، وذلك عندما صعد معاوية المنبر - وكان قد حبس العطاء - فقام أبو مسلم وقال له: لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك، ولا كد أمك حتى تحبس العطاء، فغضب معاوية غضباً شديداً، ونزل عن المنبر، وقال للناس: مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعة ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل»^(٣) وإنى دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم: إنه ليس من كدى ولا كد أبى، فهلموا إلى أعطيائكم^(٤).

٢- الفرزدق يهجو معاوية: هجا الفرزدق معاوية وافخر عليه بنسبه وآبائه، وذلك لغرض شخصى، حيث أعطى معاوية عم الفرزدق الحتات بن يزيد المجاشعى - وكان ضمن وفد أتى معاوية- جائزة أقل من الآخرين، ولما مات الحتات بن يزيد المجاشعى فى الطريق أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال، فقال الفرزدق يخاطب معاوية:

فلو كان هذا الأمر فى جاهلية علمت من المرء قليل جلائبه
ولو كان هذا الأمر فى غير ملككم لأبديته أو غص بالماء شاربه
وكم من أب لى يا معاوى لم يكن أبوك الذى من عبد شمس يقاربه

فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتات بجائزته^(٥).

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له، وكان كثيراً ما يقول: إنى لأرفع نفسى أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوى،

(١) فضيلة العادلين من الولاة للأصفهاني، ص (٣٠٦).

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٣٠٦). (٣) سنن أبى داود (٢٤٩/٤).

(٤) مقامات العلماء بين يدى الخلفاء والأمراء، ص (٣٠٧)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٣٠٧).

(٥) الدولة الأموية المقتري عليها، ص (٣٠٤)، تاريخ الطبرى (١٥٩/٦).

وجهلُّ أكثر من حلمي، أو عورة لا أواريتها بستري، أو إساءة أكثر من إحساني^(١).
وكان أحياناً يتمثل بهذه الأبيات:

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة نكلها^(٢)

٣- أم سنان بنت خيشمة في مجلس معاوية: كانت أم سنان بنت خيشمة المذحجية من أنصار أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وفي عهد معاوية قدمت على دمشق واستأذنت عليه فأذن لها، فانتسبت له فعرفها، وأمرها بالجلوس، فلما جلست قال لها: مرحباً يا ابنة خيشمة، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتكَ تبغضين قومي، وتحضين على عدوى؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنَّ لبنى عبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأعلاماً ظاهرة، وأحلاماً وافرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهبون بعد حلم، ولا يتعقبون بعد عفو، وإنَّ أولى النَّاس باتِّباع سنن آباءه لأنَّت. قال معاوية - رضى الله عنه -: صدقت يا أم سنان، نحن كذلك؛ ثم سادت فترة صمَّت، قطعها بسؤال لأم سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه، فقال لها: كيف قولك:

عَزَبَ الرِّقَادَ فَمَقَلْتِي مَا تَرَقَّدَ وَاللَّيْلُ يُصَدِّرُ بِالْهَمُومِ وَيُورِدُ
يَا أَلْ مَذْحَجَ لَا مُقَامَ فَشَمَّرُوا إِنْ الْعَدُوَّ لَا أَحْمَدَ يَقْصِدُ
هَذَا عَلِيٌّ كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ
مَا زَالَ مُدَّ شَهْدِ الْحُرُوبِ مَظْفَرًا وَالتَّصَرُّفُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ

وكانت أم سنان - رحمها الله - تصغى لما ينشده معاوية من شعرها، ولما انتهى قالت له: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأنا لنطمع أن تكون لنا خلفاً بعده، فمثلك جدير بذلك، وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة، قال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وأنا أحفظ من شعرها خلاف ما تقول لك الآن، فهي القائلة:

إِذَا هَلَكْتَ أَبَا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا
فَاذْهَبْ عَلَيْكَ صَلَاةَ رَبِّكَ مَا دَعَتْ فَوْقَ الْعُصُونِ حَمَامَةَ قَمْرِيَا

(١) الدولة الاموية المفتري عليها، ص (٣٠٤) تاريخ الطبرى . (٢) تاريخ الطبرى (٦/٢٥٣).

فاليوم لا خلف يؤمّل بعده هيهات نمدح بعده إنسيًا^(١)
عندئذ قالت أم سنان وعلائم الحزم والصدق ترتسم على وجهها وهي تعرّضُ
بجلسائه: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقّق فيك، ما ظننا،
فحظُّك الأوفر، والله ما ورثك الشّناءة - البغض - في قلوب المسلمين إلا هؤلاء -
وأشارت إلى بعض جلسائه - فادحض مقالتهم، وابدع منزلتهم، فإنك إن فعلت
ذلك ازددت من الله عز وجل قرباً ومن المسلمين حباً. وتعجب معاوية مما تقول،
فقطع عليها مقالتهما قائلاً: وإنك لتقولين ذلك يا أم سنان؟ قالت: سبحان الله يا
أمير المؤمنين، والله ما مثلك مدح بباطل، ولا اعتذر إليه بكذب، وإنك لتعلم
ذلك من رأينا وضمير قلوبنا، كان والله على - رضى الله عنه - أحب إلينا منك
إذ كان حياً، وأنت أحب إلينا من غيره إذ أنت باق. فسألها معاوية: ومن أنا
أحب إليكم ما دمت باقياً؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، أنت أحب إلينا من مروان
بن الحكم وسعيد بن العاص. قال: وبم استحققت بذلك عليهما؟ قالت:
بحسن حلمك، وكرم عفوك^(٢). وبعد انتهاء الحوار سألتها: ما حاجتك الآن يا
أم سنان؟ فسألته حاجتها في حفيدها بالمدينة أن يفك أسره، فلبى معاوية طلبها،
وأكرمها ووصلها، وردّها إلى المدينة، وقد قضيت حاجتها، وكان لسانها يلهج
بالدعاء لمعاوية^(٣). هذه أم سنان المذحجيّة، إحدى نساء عصر التابعين، ومن
فطرت نفسها على الصّفاء والصّراحة، وأوتيت شطراً من البلاغة والحكمة ما
جعلها في سجل ناصع يحكى خلودها وخلود أمثالها^(٤). ولم تكن أم سنان
المذحجية وحدها التي كانت تعبر عن رأيها، وتتكلّم بوضوح عن معتقداتها، بل
كانت مثيلاتها كثيرات مثل: الزرقاء بنت عدى^(٥)، وأم الخير بنت الحرّيش^(٦).
لقد كان معاوية رضى الله عنه، يجرىء الناس على الصدع بمعتقداتهم وآرائهم،
ويشجعهم على حرية الرأى والتعبير وحق النقد والمعارضة السلمية.

(١) العقد الفريد (١٠٨/٢)، نساء من عصر التابعين، ص (٢٧٥ - ٢٧٨).

(٢) العقد الفريد (١٠٨/٢)، تاريخ دمشق نقلاً عن نساء من عصر التابعين، أحمد جمعة، ص (٢٧٨)،
شاعرات العرب، ص (١٧٦، ١٧٧).

(٣) نساء من عصر التابعين، ص (٢٨٠)، شاعرات العرب، ص (١٧٦، ١٧٧).

(٤) نساء من عصر التابعين، ص (٢٨٠). (٥) المصدر نفسه، ص (٢٩٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٤٨).

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضى الله عنه

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة ٤١هـ، فأخذ يعمل بكل ما أوتى من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار فى ربوع العالم الإسلامى، فانتهج سياسة داخلية، تقوم على عدة أمور:

المبحث الأول

الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة

وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم

فقد خطب مرة فى أهل الحجاز بعد توليه الخلافة فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله، فقال: وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم؟ رحمة الله ورضوان الله عليهم، غير أنى سلكت بها طريقاً لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة، ومشاركة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى بعضه. . وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، أستغفر الله لى ولكم^(١)، ويمثل هذه السيرة سار خليفة المسلمين وانقاد له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة. كان رضى الله عنه، يهتم بغزو القلوب والإحسان إليها، مع الوعى والحذر الشديدين أن لا تنتقض الأمة عليه، لقد كان يبذل المال بلا حساب لكبار الشخصيات القيادية فى المجتمع، ويعتبر أن عليها مسئوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأمة، فلا بد أن تكون مليئة لتسد الخلة، وتلبى الحاجة، وتحلّ المعضلة، ولعل أشرف بنى هاشم كانوا فى هذا الصدد أكثر قيادات الأمة إغداً عليهم بالمال، فهم لا يزالون

(١) البداية والنهاية (١١/٤٣٢).

فى عُرِفَ الناس القيادات الشعبية التى تمثل جماهير الأمة، وتلجأ الأمة إليهم أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأمرء، وهذه القيادات لم تشارك فى الحكم ولم تكن لها رغبة فى ذلك^(١).

أولاً : العلاقة بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما بعد الصلح :

كان الحسن بن على يقدم على معاوية فى خلافته، فقدم عليه ذات مرة فقال له معاوية: لأجيزنك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك، ولا أجيز بها أحداً بعدك، فأعطاه أربع مائة ألف فقبله^(٢)، وجاء فى رواية: . . . أن الحسن بن على كان يفد كل سنة إلى معاوية فيصله بمائة ألف درهم، فبعد سنة عنه ولم يبعث إليه معاوية بشيء فدعا بدواة ليكتب إليه، فأغفى قبل أن يكتب، فرأى النبي ﷺ فى منامه كأنه يقول: يا حسن أتكتب لمخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟ قال: فما أصنع يا رسول الله وقد كثر ديني؟ قال: قل: اللهم إني أسألك من كل أمر ضعفت عنه قوتي، وحيلتي، ولم تنته إليه رغبتى، ولم يخطر ببالى، ولم يبلغه أملى، ولم يجر على لسانى من اليقين الذى أعطيته أحداً من المخلوقين الأولين، والمهاجرين الآخرين إلا أخصصتنى يا أرحم الراحمين. قال الحسن: فانتبهت وقد حفظت الدعاء، فكنت أدعو به، فلم يلبث معاوية أن ذكرنى فقبل له: لم يقدم السنة، فأمر له بمائتى ألف درهم^(٣). وجاء فى رواية: بأن الدعاء الذى علمه رسول الله للحسن فى المنام هو: اللهم ائذف فى قلبى رجاءك، واقطع رجائى عمّن سواك، لا أرجو أحداً غيرك، اللهم وما ضعفت عنه قوتي؛ وقصر عنه عملى؛ ولم تنته إليه رغبتى، ولم تبلغه مسألتى، ولم يجر على لسانى مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين فخصنى به يا رب العالمين. قال: فوالله ما ألححت به أسبوعاً حتى بعث إلى معاوية بألف وخمسمائة ألف، فقلت: الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره، ولا يخيب من دعاه، فرأيت النبي ﷺ فى المنام فقال: يا حسن كيف أنت؟ فقلت: بخير يا رسول الله، وحدثته حديثى فقال: يا بنى هكذا من رجا الخالق ولم يرجُ المخلوق^(٤). وروى الزهرى: . . . لما قتل على بن أبى طالب رضى

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٢٦٩).

(١) معاوية بن أبى سفيان للغضبان، ص (٣١٤).

(٤) المصدر نفسه (٨/١٤).

(٣) تاريخ دمشق (٨/١٤).

الله عنه وجاء الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية، فقال له معاوية: لو لم يكن لك فضل على يزيد إلا أن أمك امرأة من قريش وأمه امرأة من كلب لكان لك عليه فضل، فكيف وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ (١).

ثانياً: صلوات معاوية للحسن وابن الزبير رضي الله عنهم:

عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا يقبلان جوائز معاوية رضي الله عنه (٢)، وكان يرسل للحسن والحسين، فقد أمر معاوية مرة للحسن بن علي بمائة ألف فذهب بها إليه فقال لمن حوله: من أخذ شيئاً فهو له، وأمر للحسين بن علي بمائة ألف فذهب بها إليه وعنده عشرة، فقسمها عليهم عشرة آلاف، عشرة آلاف. وأمر لعبد الله بمائة ألف (٣)، وكان معاوية رضي الله عنه إذا لقي الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: مرحباً بابن رسول الله وأهلاً، ويأمر له بثلاثمائة ألف، ويلقي ابن الزبير رضي الله عنه فيقول: مرحباً بابن عمه رسول الله وابن حواريه، ويأمر له بمائة ألف (٤)، وقد أشاد ابن الزبير بذكر معاوية بعد وفاته، فقد حدث هشام بن عروة بن الزبير قال: صلى يوماً عبد الله بن الزبير، فوجم بعد الصلاة ساعة، فقال الناس: لقد حدث نفسه ثم التفت إلينا فقال: لا يبعدن ابن هند إن كانت فيه لمخارج لا نجد لها في أحد بعده أبداً، والله إن كنا لنفرقه - أي نخوفه - وما الليث الحرب على برائته بأجراً منه فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متعنا به ما دام في هذا حجر - وأشار إلى أبي قبيس - (٥). وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حصر في عهد عبد الملك بن مروان (٦).

ثالثاً: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مع معاوية:

كان معاوية يحترمه ويقدره، وكان يفد على معاوية فأكرمه وقرّبه واحترمه وعظمه، وكان يلقي عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعاً، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحداً أحضر جواباً منه. ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن علي اتفق كون

(١) الشريعة للأجري (٥/٢٤٧٠)، إسناده حسن . (٢) الشريعة (٥/٢٤٧٠)، إسناده حسن .

(٣) تاريخ دمشق (٦٢/١٣٣) . (٤) المصدر نفسه (٦٢/١٣٣) .

(٥) عيون الأخبار (١/١١، ١٢) . (٦) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (١١٥).

ابن عباس عند معاوية فعزاه فيه بأحسن تعزية، وردّ عليه ابن عباس ردّاً حسناً^(١)، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس وعزاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس^(٢)، أما تعزية معاوية رضى الله عنه وإجازته لابن عباس، فكما رواها قتادة: ثم قال لابن عباس: لا يسوؤك الله ولا يحزنك فى الحسن بن على، فقال ابن عباس لمعاوية: لا يحزننى الله ولا يسوؤنى ما أبقى الله أمير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم، وعروضاً وأشياء وقال: خذها فاقسمها فى أهلك^(٣). وكان ابن عباس رضى الله عنه من سادات المجتمع الإسلامى وقائداً من قاداتها الكبار، وكان معاوية رضى الله عنه يعرف مكاتته الاجتماعية والعلمية، فابن عباس كان بمثابة المستشار للشئون العلمية للخليفة، وقد كان معاوية رضى الله عنه يعترف بفضل بنى هاشم على بنى أمية، فقد قيل له: أيكم كان أشرف، أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر أشرفاً، وكانوا أشرف واحداً، لم يكن فى عبد مناف مثل هاشم، فلما هلك كنا أكثر عدداً، وكانوا أكثر أشرفاً وكان فيهم عبد المطلب، ولم يكن فينا مثلهم، فصرنا أكثر عدداً وأكثر أشرفاً ولم يكن فيهم واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى جاء شىء لم يسمع الأولون بمثله، ولا يسمع الآخرون بمثله، محمد ﷺ^(٤). وكان معاوية رضى الله عنه يحذر بنى أمية من الإساءة إلى آل على بن أبى طالب قائلاً: إن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى. وكان يطلب من خالصاء على رضى الله عنه، وصفه وسرد روائع خصاله وأعماله^(٥).

رابعاً: هل عمّم معاوية سب أمير المؤمنين علىّ على منابر الدولة الأموية؟ تذكر كتب التاريخ أن الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون علىّ، وهذا الأثر الذى ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا على بن محمد، عن لوط بن يحيى، قال: كان الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون رجلاً رضى الله عنه، فلما ولى هو - عمر بن عبد العزيز - أمسك عن ذلك، فقال كثير عزة الخزاعى:

(٢) المصدر نفسه (١١/٦٤٢).

(٤) المصدر نفسه (١١/٤٤٦).

(١) البداية والنهاية (١١/٦٤٢).

(٣) المصدر نفسه (١١/٤٤٦).

(٥) الدور السياسى للصفوة، ص (١٧٢).

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
فصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضياً كل مسلم^(١)

فهذا الأثر واه، فعلى بن محمد هو المدائنى فيه ضعف وشيخه لوط بن يحيى، واه، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطنى: إخبارى ضعيف ووصفه فى الميزان: إخبارى تالف لا يوثق به^(٢)، وعامة روايته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل^(٣)، وقد اتهم الشيعة معاوية رضى الله عنه بحمل الناس على سب على ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذى يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المسلمات التى لا مجال لمناقشتها، ولم تثبت قط فى رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء فى كتب الدميرى، واليعقوبى وأبى الفرج الأصفهانى، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء^(٤)، من احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين على وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن على على منابر بنى أمية لا تتفق مع منطق الحوادث، ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبنى أمية، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك أبداً، وإنما نجده فى كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم فى عصر بنى العباس، بقصد أن يسيروا إلى سمعة بنى أمية فى نظر الجمهور الإسلامى، وقد كتب ذلك المسعودى فى مروج الذهب وغيره من كتاب الشيعة، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية صحيحة صريحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية، رضى الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله فى الدين، وكان محمود السيرة فى الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار

(٢) الميزان (٣/٤١٩).

(١) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٧).

(٣) دفاعاً عن السلفية، ص (١٨٧).

(٤) الحسن والحسين، محمد رضا، ص (١٨)، كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب.

التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير^(١). وقد ثبت هذا في حق معاوية - رضى الله عنه -، كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن على رضى الله عنه على المنابر، وهو من هو في الفضل، ومن علم سيرة معاوية - رضى الله عنه - في الملك، وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية - رضى الله عنه - في الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال^(٢)، وقد فصلنا في صفة الحلم في شخصية معاوية فيما مضى.

وأما ما استدل به الشيعة على تلك الفرية من صحيح مسلم فليس ما يدل على زعمهم، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ، فلن أسبه، لأن تكون لى واحدة منهن أحب إلى من حمر النعم^(٣)، قال النووي: قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعداً بسبه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السب. كأنه يقول: هل امتنعت تورعاً أو خوفاً، أو غير ذلك، فإن كان تورعاً وإجلالاً له عن السب، فأنت مصيب محسن، ولعل سعد رضى الله عنه وقد كان في طائفة يسبون، فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار أن أنكر عليهم، فسأله هذا السؤال، قالوا: ويحتمل تأويلاً آخر أن معناه: ما منعك أن تخطئه في رأيه واجتهاده وتظهر للناس حسن رأينا واجتهادنا وأنه أخطأ^(٤)، وقال أبو العباس القرطبي صاحب المفهم - معلقاً على وصف ضرار الصدائى لعلى رضى الله عنه وثناؤه عليه بحضور معاوية، وبكاء معاوية من ذلك وتصديقه لضرار فيما قال - : وهذا الحديث يدل على معرفة معاوية بفضل على رضى الله عنه ومنزلته، وعظيم حقه ومكانته، وعند ذلك يبعد عن معاوية أن يصرح بلعنه وسبّه، لما كان معاوية موصوفاً به من العقل والدين، والحلم وكرم الأخلاق، وما يروى عنه من ذلك فأكثره كذب لا يصح، وأصح ما فيها قوله لسعد بن أبي وقاص: ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ وهذا ليس

(١) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٦٧) للرحيلى .

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب، ص (٣٥٣).

(٣) مسلم، ك: فضائل الصحابة (٤/١٨٧١).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٧٥/١٥).

بالتصريح بالسب، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج من عنده من ذلك، أو من نقيضه، كما قد ظهر من جوابه، ولما سمع ذلك معاوية، سكن وأذعن، وعرف الحق لمستحقه^(١)، قال الدكتور الرحيلي في كتابه الصحب والآل: والذي يظهر لى فى هذا - والله أعلم - : أن معاوية إنما قال ذلك على سبيل المداعبة لسعد، وأراد من ذلك استظهار بعض فضائل على - رضى الله عنه - فإن معاوية - رضى الله عنه - كان رجلاً فطناً ذكياً، يحب مطارحة الرجال واستخراج ما عندهم، فأراد أن يعرف ما عند سعد فى على - رضى الله عنه - فألقى سؤاله بهذا الأسلوب المثير. وهذا مثل قوله - رضى الله عنه - لابن عباس: أنت على ملة على؟ فقال له ابن عباس: ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله ﷺ^(٢). فظاهر أن قول معاوية هنا لابن عباس جاء على سبيل المداعبة، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب، وأما ما ادعى الشيعة من الأمر بالسب فحاشا معاوية رضى الله عنه أن يصدر منه مثل ذلك^(٣)، والمانع من هذا عدة أمور:

١- أن معاوية - رضى الله عنه - ما كان يسب علياً - رضى الله عنه - كما تقدم حتى يأمر غيره بسبه، بل كان معظماً له، معترفاً له بالفضل والسبق إلى الإسلام، كما دلت على ذلك أقواله الثابتة عنه، فقد قال ابن كثير: وقد ورد من غير وجه: أن أبا مسلم الخولانى وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: والله إنى لأعلم أنه خير منى وأفضل، وأحق بالأمر منى^(٤)، وعن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: لما جاء خبر قتل على إلى معاوية جعل يبكى، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدري ما فقد الناس من الفضل والفقہ والعلم^(٥)، فهل يسوغ فى عقل ودين أن يسب معاوية علياً بل ويحمل الناس على سبه وهو يعتقد فيه هذا؟^(٦).

٢- أنه لا يعرف بنقل صحيح عن معاوية - رضى الله عنه - تعرض لعلى رضى الله عنه - بسب أو شتم أثناء حربه له فى حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد

(١) المفهم للقرطبي (٢٧٨/٦).

(٢) الإبانة (٣٥٥/١)، شرح أصول اعتقاد الألكائى (٩٤/١).

(٣) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٥).

(٤) البداية والنهاية (١٣٣/٨).

(٥) المصدر نفسه (١٣٣/٨).

(٦) الانتصار للصحب والآل ص (٣٧٦).

انتهاء حربه معه ووفاته، فهذا من أبعد ما يكون عند أهل العقول، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه.

٣ - أن معاوية رضى الله عنه كان رجلاً ذكياً مشهوراً بالعقل والدهاء، فلو أراد حمل الناس على سب على - حاشاه ذلك - أفكان يطلب ذلك من مثل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، وهو من هو فى الشجاعة والفضل والورع، مع عدم دخوله فى الفتنة أصلاً، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وتدييراً، فكيف بمعاوية.

٤ - أن معاوية - رضى الله عنه - انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما له، واجتمعت عليه الكلمة، ودانت له الأمصار بالملك، فأى نفع له فى سب على؟ بل الحكمة وحسن السياسة تقتضى عدم ذلك، لما فيه من تهدئة النفوس، وتسكين الأمور، ومثل هذا لا يخفى على معاوية.

٥ - إنه كان بين معاوية - رضى الله عنه - بعد استقلاله بالخلافة وأبناء على من الألفة والتقارب، ما هو مشهور فى كتب السير والتاريخ^(١)، ومن ذلك أن الحسن والحسين وفدا على معاوية فأجازهما بمائتى ألف. وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلى فقال له الحسين رضى الله عنه: ولم تعط أحداً أفضل منا^(٢)، ودخل مرة الحسن على معاوية فقال له: مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، وأمر له بثلاثمائة ألف^(٣). وهذا مما يقطع الكذب مما يدعى فى حق معاوية من حملة الناس على سب على، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والاحتراف والتكريم، وبهذا يظهر الحق فى هذه المسألة، وتتجلى الحقيقة^(٤)، كما أن المجتمع فى عمومته مقيد بأحكام الشرع حريص على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذى^(٥)، وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة رضى الله عنها - مرفوعاً: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضلوا إلى ما قدموا»^(٦).

(١) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٦).

(٢) البداية والنهاية (١٣٩/٨).

(٣) البداية والنهاية (١٤٠/٨).

(٤) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٧).

(٥) صحيح ابن حبان رقم (٤٧)، صححه الألبانى فى الصحيحة رقم (٣٢٠).

(٦) البخارى رقم (٦٥١٦).

خامساً : معاوية وسم الحسن بن علي؟

ذكرت بعض الروايات أن الحسن بن علي تُوفى متأثراً بالسم الذي وضع له، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحو زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث بن قيس أمير كندة، فهذه أم موسى سرية على تتهم جعدة بأنها دست السم للحسن، فاشتكى منه شكاة، فكان يوضع تحته طست^(١)، وترفع أخرى، نحواً من أربعين يوماً^(٢)، وهذه رواية إسنادها لا يصح وهي ضعيفة^(٣)، وحاول البعض من الإخباريين والرواة أن يوجد علاقة بين البيعة ليزيد و وفاة الحسن، وزعموا أن يزيد بن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قيس أن سُمى حسناً فإني سأ تزوجك، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسأله الوفاء، فقال: إنا والله لم نرضك له أفرضاك لأنفسنا؟^(٤)، وفي سندها يزيد بن عياض بن جعدية، كذبه مالك وغيره^(٥)، وقد وردت هذه الروايات في كتب أهل السنة بدون تمحيص، مع العلم أن أسانيد تلك الروايات أسانيداً ضعيفة^(٦).

١ - قال ابن العربي: فإن قيل: دس على الحسن من سمّه، قلنا: هذا محال من وجهين: أحدهما: أنه ما كان ليُتقى من الحسن بأس وقد سلم الأمر، الثاني: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بيّنة على أحد من خلقه في زمن متباعد، ولم تثق فيه بنقل ناقل، بين أيدي قوم ذوى أهواء، وفي حال فتنة وعصبية، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغي، فلا يقبل منها إلا الصافي، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم^(٧).

٢ - وقال ابن تيمية: وأما قوله: معاوية سمّ الحسن، فهذا ممن ذكره بعض الناس، ولم يثبت ذلك بيّنة شرعية، أو إقرار معتبر، ولا نقل يجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم^(٨). وقد جاء عن ابن تيمية في رده عن اتهام معاوية بسمّ الحسن وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة، وكانت ابنته

(١) طست : إناء معلوم .

(٢) الطبقات، تحقيق السلمى (١/٣٣٨)، إسناده ضعيف .

(٣) المصدر نفسه (١/٣٣٨) .

(٤) تهذيب الكمال (٦/٤٥٣) .

(٥) تقريب التهذيب، ص (٦٠٤) .

(٦) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص (٣٩٣) .

(٧) العواصم من القواصم، ص (٢٢٠، ٢٢١) .

(٨) منهاج السنة النبوية (٤/٤٦٩) .

تحت الحسن، حيث قال: وإذا قيل إن معاوية أمر أباهما كان هذا ظناً محضاً، والنبي ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». ثم إن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين وقيل سنة إحدى وأربعين، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر بنته^(١). وهذا يدل على قدرة ابن تيمية على النقد العلمي القوي للروايات التاريخية.

٣- وقال الذهبي: قلت: هذا شيء لا يصح فمن الذى اطلع عليه^(٢).

٤- وقال ابن كثير: روى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سُمي الحسن وأنا أتزوجك بعده، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن، أفرضاك لأنفسنا؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأخرى^(٣).

٥- وقال ابن خلدون: وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، حاشا لمعاوية من ذلك^(٤).

٦- د. جميل المصري: وقد علق على هذه القضية بقوله: . . . ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد. . . ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعاً آنذاك، لأننا لا نلمس^(٥) لها أثراً في قضية قيام الحسن، أو حتى عتاباً من الحسين لمعاوية. وبالنسبة لسم الحسن رضى الله عنه، فنحن لا ننكر هذا، فإذا ثبت أنه مات مسموماً فهذه شهادة له وكرامة في حقه^(٦)، وأما اتهام معاوية وابنه فهذا لا يثبت من حيث السند، كما مر معنا، ومن حيث المتن، وهل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال - كما تذكر الروايات - حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالي تكون زوجة له، أليست جعدة ابنة أمير قبيلة

(١) المتقى من منهاج الاعتدال، ص (٢٦٦).

(٢) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص (٤٠)، اتهامات لا تثبت سليمان بن صالح الخراشي، ص (١٧٤).

(٣) البداية والنهاية (٤٣/٨). (٤) تاريخ ابن خلدون (٥٢٧/٢).

(٥) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص (٤٨٢)، مرويات خلافة معاوية، ص (٣٩٥).

(٦) منهاج السنة (٤٢/٤).

كندة كافة، وهو الأشعث بن قيس، ثم أليس زوجها وهو الحسن بن علي أفضل الناس شرقاً ورفعاً بلا منازعة، إن أمه فاطمة رضى الله عنها، وجده رسول الله ﷺ وكفى به فخراً، وأبوه علي بن أبي طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذا ما هو الشيء الذى تسعى إليه جعدة وتحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير؟^(١). إن هناك الكثير الذين هم أعداء للوحدة الإسلامية، وزادهم غيظاً وحنقاً ما قام به الحسن بن علي، كان اقتناعهم قوياً بأن وجوده حياً صمام أمان للأمة الإسلامية، فهو إمام ألفتها وزعيم وحدتها بدون منافس، وبالتالي حتى تضطرب الأحداث وتعود الفتن إلى ما كانت عليه فلا بد من تصفيته وإزالته، فالمتهم الأول فى نظرى هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ، الذين وجه لهم الحسن صفعه قوية عندما تنازل لمعاوية ووضع حداً للصراع، ثم الخوارج الذين قتلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم الذين طعنوه فى فخذه، وربما أرادوا الانتقام من قتلهم فى النهروان وغيرها^(٢).

سادساً : موقف معاوية من قتلة عثمان رضى الله عنهما :

كان من ضمن شروط الحسن فى صلحه مع معاوية ألا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء^(٣)، والذى يلاحظه المؤرخ أنه من ذلك ابرقت ترك الطلب بدم عثمان^(٤)، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان فى أيام على، وهى قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفات إلى الماضى، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل^(٥)، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحداً بذنوب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وقد تمّ بسط الأمن وحفظ الدماء فى عهد معاوية إلى حد كبير^(٦). وجاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية بن أبى

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (١٢٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٢٤). (٣) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (١٢٧).

(٤) الخلفاء الراشدون للتجار، ص (٤٨٢). (٥) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص (٣٤١).

(٦) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص (٣٤٩).

سفيان لما قدم بعد عام الجماعة المدينة دخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة بنت عثمان بن عفان وبكت ونادت أباه، فقال معاوية: يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا، لأن تكونى ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض الناس^(١). والذي يعتد به من كلام ابن قتيبة ما جاء عن العهود والمواثيق التي أبرمت بين معاوية والحسن وقضت بالصلح بين الناس، ووضع الحرب وحقن الدماء، وعدم تهيج النفوس، وإضافة إلى ذلك فإن السنوات الخمس التي احتضنت المعارك في الجمل وصفين والنهروان ومصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة في ذهن الخلفاء من بنى أمية ونوابهم في الأغلب، وأما انتصار بنى أمية لعثمان فكان حقيقة لا شبهة فيها^(٢).

سابعاً: مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه:

تحدثت معظم المصادر في مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، ومن هذه المصادر: ابن سعد^(٣)، وخليفة بن خياط^(٤) باختصار شديد، والبلاذرى^(٥)، واليعقوبى^(٦)، والمسعودى^(٧)، وأبو الفرج الأصفهاني^(٨) مطولاً، وابن الجوزى^(٩)، وابن الأثير^(١٠) مطولاً، والذهبي^(١١)، وابن كثير^(١٢)، وقد اعتمد الطبرى في خبر حجر بن عدى وأصحابه على أبى مخنف المؤرخ الشيعى المشهور، والذي ليس بثقة ولا يعتمد عليه عند علماء المسلمين من أهل السنة، فقد نقل الطبرى عنه ست عشرة رواية، وعموماً فإن خبر مقتل حجر بن عدى ورد في مصادر متعددة، ولم تنفرد الروايات الشيعية

(١) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٩)، السلطان لابن قتيبة، ص (٥٨).

(٢) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٧٠). (٣) الطبقات (٢١٧/٦) تحقيق إحسان عباس.

(٤) التاريخ، ص (٢١٣). (٥) أنساب الأشراف (٢٤٢/٤).

(٦) تاريخ اليعقوبى (٢٣٠/٢). (٧) مروج الذهب (١٢/٣).

(٨) الأغاني (١٣٣/١٧). (٩) المتظم (٢٤١/٥).

(١٠) الكامل في التاريخ (٤٨٨/٢). (١١) سير أعلام النبلاء (٤٦٢/٣).

(١٢) البداية والنهاية (٢٢٧/١١).

بسوق خبره، ولكن رواية أبي مخنف الساقط الاعتبار عند علماء أهل الجرح والتعديل أشارت إلى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبه بشتيم على وذمه، لذلك كان المغيرة لا يترك ذمّ علي في خطبته طوال فترة ولايته على الكوفة، ونص خطبته التي أغضبت حجر بن عدى كما أوردها أبو مخنف: اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه، وأجزه بأحسن عمله، فإنه عمل بكتابك، واتبع سنة نبيك ﷺ، وجمع كلمتنا وحقن دماءنا، وقُتل مظلوماً، اللهم فارحم أنصاره وأوليائه ومحبيه والطالبين بدمه، ويدعو علي قتلته^(١)، وكما نلاحظ من نص الخطبة أنه لم يرد فيها ذمّ علي، ومع ذلك فإن الرواية تشير أنّ هذه الخطبة تضمنت ذلك إلا إذا تأولت لعنه لقتلة عثمان بأنه ذم لعلي^(٢)، وبراءة علي من دم عثمان يعرفها القاضي والداني وقد أثبتتها في كتبي عن عثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم جميعاً. ومهما يكن من أمر فإن الباحث في مقتل حجر بن عدى رضي الله عنه، يلاحظ أن موقف حجر من أمير المؤمنين معاوية قد مرّ بمرحلتين:

- المرحلة الأولى: مرحلة المعارضة القولية (٤١ - ٥٠هـ):

كان حجر بن عدى الكندي، أبو عبد الرحمن الشهيد، له صحبة ووفادة، وفد مع أخيه هانيء بن الأديب، ولا رواية له عن النبي ﷺ، وسمع من علي وعمار^(٣)، وكان شريفاً، أميراً مطاعاً، أماراً بالمعروف، مقداماً على الإنكار، من شيعة علي رضي الله عنهما، شهد صفين أميراً، وكان ذا صلاح وتعبداً^(٤)، وكان رضي الله عنه من المعارضين للصلح الذي قام بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، غير أن هذه المعارضة لم يترتب عليها في هذه المرحلة أي فعل، بل اقتصر على الأقوال فقط^(٥)، وفي ذلك يقول البلاذري: . . . لم يزل حجر بن عدى منكرًا على الحسن ابن علي بن أبي طالب صلحه لمعاوية، فكان يعذله على ذلك ويقول: تركت القتال ومعك أربعون ألفاً ذوو نيات، وبصائر في قتال عدوك، ثم كان بعد ذلك يذكر معاوية فيعيبه، ويظلمه^(٦)، فكان هذا هجيره، وعادته^(٧).

(١) تاريخ الطبري (١٦٨/٦، ١٦٩).

(٢) أثر التشيع على الروايات، ص (٣٦٨ - ٣٧٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٦٢/٣).

(٤) المصدر نفسه (٤٦٣/٣).

(٦) أي: ينسبه للظلم.

(٥) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص (٤٢٢).

(٧) هجيره: دأبه وشأنه، القاموس المحيط، ص (٦٣٧).

- المرحلة الثانية : مرحلة المعارضة الفعلية:

هذه المرحلة بدأت في سنة ٥١ هـ حيث حصل في هذه السنة تدهور مفاجئ في علاقة حجر بن عدى مع زياد بن أبيه والى العراق، وقد ذكرت المصادر سببين في سبب تدهور هذه العلاقة:

أ - ما ذكر من إقدام المغيرة بن شعبة على الثناء على عثمان والترحم عليه، وذم على بن أبي طالب، وإقدام حجر بن عدى على مدح على بن أبي طالب، وذم عثمان بن عفان، وسكوت المغيرة عن حجر بن عدى، فلما مات المغيرة بن شعبة وتولى زياد بن أبيه، قال زياد في عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب مثلما كان يقول المغيرة، فقام حجر بن عدى وقال فيهما مثلما كان يقول للمغيرة، فكان ذلك سبب ابتداء المواجهة بين حجر وزياد^(١).

ب - ما ذكر من إطالة زياد الخطبة، وتأخير الصلاة، وقيام حجر بإنكار ذلك على زياد، فكان هذا سبب ابتداء المواجهة بينهما^(٢)، وهذان السببان يكدرهما ما يلي:

- أن سياسة المغيرة رضى الله عنه مع أهل الكوفة اتسمت بالعمو والصفح، وليس بإثارة الأحقاد والإحن، والحجة في ذلك ما أخرجه البخارى من طريق زياد ابن علاقة قال: سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة حتى يأتكم أمير، فإنما يأتكم الآن، ثم قال: استغفروا لأمركم، فإنه كان يحب العفو^(٣). ثم قال: أما بعد فإنى أتيت النبي ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علىّ النصح لكل مسلم. فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إنى لناصح لكم^(٤)، ثم استغفر ونزل^(٥).

(٢) المصدر نفسه (١٦٩/٥).

(١) تاريخ الطبرى (١٦٩/٦).

(٣) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٢٤).

(٤) إشارة إلى أنه وفى بما بايع عليه رسول الله ﷺ، وكان صادقاً فى نصحه.

(٥) البخارى، صحيح البخارى مع الفتحة (١/١٦٨).

- أن ضم الكوفة إلى زياد كان في سنة ٤٩هـ، وهو ما صرح به فيل مولى زياد حيث قال: ملك زياد العراق خمس سنين، ثم مات سنة ثلاث وخمسين، وهذه الرواية التي تحدد تاريخ ضم الكوفة إلى زياد بن أبيه تعد أصح ما في الباب وحيث إن ولاية زياد على الكوفة كانت سنة ٤٩هـ، ولم يحدث الصدام بين حجر وأنصاره وزياد والى الكوفة لأن الحسن بن على رضى الله عنه مازال حيًا، ووجوده كان كفيلاً يردع تحركات المعارضين للصلح من أنصاره لأنه رضى الله عنه اشترط عليهم أن يحاربوا من حارب، ويسالموا من سالم، ولكن بعد وفاة الحسن رضى الله عنه عام ٥١هـ^(١).

تغير موقف بعض قيادات أهل العراق ومنهم حجر بن عدى من المعارضة القولية إلى الفعلية، فقد روى البلاذرى بإسناده إلى الشعبي، وغيره، قالوا: لما قدم زياد الكوفة - عام ٤٩هـ - بعث إلى حجر فقال: يا هذا، كنا على ما علمت، وقد جاء أمر غير ذلك، أمسك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريرى فهو مجلسك، فإياك أن تستترك السفلة أو تستفرك، إنى لو استخففت بحقك هان على أمرك، ولم أكلمك من كلامى هذا بحرف، فلما صار إلى منزله اجتمعت إليه الشيعة فقالوا: أنت شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر^(٢)، فلما شخص زياد إلى البصرة استخلف عمرو بن حريث على الصلاة والحرب، ومهران مولاه على الخراج، وأمر العمال بمكاتبة عمرو. . فكتب عمرو إلى زياد: إن كانت لك بالكوفة حاجة فالعجل، فإنى كتبت إليك وليس فى يدي منها مع حجر إلا القصر، فأخذ السير حتى قدم الكوفة، فبعث إلى عدى بن حاتم الطائى، وجرير بن عبد الله البجلي. . . فقال: اتتوا هذا الشيخ المفتون، فإنى خائف أن يحملنا من أمره على ما ليس من شأننا فأتوه. . وكلمه القوم، فلم يكلم منهم أحداً، فأتوا زياداً فقال: مهيم؟^(٣) فقال عدى: أيها الأمير، استذمه^(٤)، فإن له سناً، فقال: لست لأبى سفيان إذاً، ثم أرسل إليه الشرط فقوتلوا^(٥)، وجاء فى رواية أخرى: لما

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٢٥).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤٢٨)، أنساب الأشراف (٤/٢٤٦).

(٣) مهيم: كلمة استفهام، أى ما وراءك؟

(٤) استذمه: لا تخضر ذمته. (٥) أنساب الأشراف (٤/٢٤٦، ٢٤٧).

قدم زياد الكوفة أميراً^(١) أكرم حجر بن الأديب^(٢)، وأدناه، وشفَّعه، فلما أراد الانحدار إلى البصرة^(٣) دعاه فقال له: يا حجر إنك قد رأيت ما صنعت بك، وإنى أريد البصرة، فأحب أن تشخص معي، فإنى أكره أن تتخلف بعدى، فعسى أن أبلغ عنك شيئاً فيقع فى نفسى، وإذا كنت معى لم يقع فى نفسى منك شىء، فقد علمت رأيك فى على بن أبى طالب، وقد كان رأى فيه قبلك على مثل ذلك، فلما رأيت الله صرف الأمر إلى معاوية، لم اتهم قضاء الله ورضيت به، وقد رأيت إلى ما صار أمر على وأصحابه، وإنى أحذرك أن تركب أعجاز أمور هلك من ركب صدورها^(٤). والمقصود من كلام زياد أنه كان من خواص على رضى الله عنه، ولما رأى تنازل الحسن لمعاوية وإجماع الأمة عليه دخل فى الجماعة وحرص على وحدة الصف وحذر من الفتن، فقال له حجر: إنى مريض ولا أستطيع الشخوص. قال: صدقت، والله إنك لمريض الدين والقلب، مريض العقل، وإيم الله لئن بلغنى عنك شىء أكرهه لأحرض على قتلك، فانظر أو دع، فخرج زياد فلحق بالبصرة، واجتمع إلى حجر قرأه أهل الكوفة، فجعل لا ينفذ لعامل زياد معهم أمر، ولا يريد شيئاً إلا منعه إياه، فكتب إلى زياد: إنى والله ما أنا فى شىء مع حجر وأصحابه، وأنت أعلم، فركب زياد بغاله حتى اقتحم الكوفة، فلما قدمها تغيب حجر، فجعل يطلبه فلا يقدر عليه^(٥). أما تفاصيل المواجهة بين شرطة زياد وحجر بن عدى وأنصاره، فقد انفرد أبو مخنف من بين المصادر التى وقفت عليها بإيراد تفاصيلها^(٦)، كذلك انفرد أبو مخنف بإيراد تفاصيل مهمة عن شهادة أهل الكوفة على حجر وأصحابه^(٧).

١ - قضاء معاوية رضى الله عنه فى حجر رضى الله عنه وأصحابه:

نظراً لخطورة قضية حجر بن عدى وحساسيتها، فقد وافق زياد بن أبيه على شرط حجر بن عدى عند استسلامه، وهذا الشرط هو إحالة قضية حجر ومن معه

(١) وذلك سنة ٤٩ هـ .

(٢) الأديب : لقب عدى والد حجر .

(٣) وذلك سنة ٥١ هـ .

(٤) هذا تحذير من زياد لحجر يدل على رغبته على حسم مادة الفتنة، ولذلك حرص على أخذ أصحابه معه إلى البصرة.

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٧٠ ، ٢٧١) .

(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٧٧-١٨٣) .

(٧) المصدر نفسه (٦/ ١٨٤-١٨٦) .

إلى معاوية ليحكم فيها^(١)، وقبل الحديث عن حكم معاوية في حجر وأصحابه، ينبغي التذكير بالتهم الموجهة إليهم، وهذه التهم كما وردت عن أبي مخنف هي: ... إن حجراً جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر، وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب^(٢)، والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربيه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رءوس أصحابه، وعلى مثل رأيه وأمره^(٣)، أما قضاء معاوية رضى الله عنه في حجر رضى الله عنه، وأصحابه فإنه لم يقتلهم على الفور، ولم يطلب منهم البراءة من على رضى الله عنه كما تزعم بعض الروايات^(٤)، بل استخار الله سبحانه وتعالى فيهم، واستشار أهل مشورته، ثم كان حكمه فيهم أن قتل بعضهم، واستحى بعضهم، والحجة في ذلك ما يرويّه صالح بن أحمد بن حنبل^(٥) بإسناد حسن قال: حدثني أبي^(٦)، قال: حدثنا أبو المغيرة^(٧)، قال: حدثنا ابن عياش^(٨)، قال: حدثني شرحبيل بن مسلم^(٩)، قال: لما بُعث بحجر بن عدى بن الأدبر وأصحابه من العراق إلى معاوية ابن أبي سفيان، استشار الناس في قتلهم، فمنهم المشير، ومنهم الساكت، فدخل معاوية منزله، فلما صلى الظهر قام في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم جلس على منبره، فقام المنادى، فنادى: أين عمرو بن الأسود العنسى^(١٠)، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا إنا بحصن من الله حصين لم نؤمر بتركه، وقولك يا أمير المؤمنين في أهل العراق ألا وأنت الراعى ونحن الرعية، ألا وأنت أعلمنا بدائهم وأقدرنا على دوائهم، وإنما علينا أن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٨٧، ١٨٨).

(٢) المقصود به على بن أبي طالب رضى الله عنه، وهى كنيته.

(٣) تاريخ الطبرى (٦/١٨٨). (٤) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٣٠).

(٥) قال عنه الذهبى: صدوق ثقة، السير (١٢/٥٢٩).

(٦) أحمد بن محمد بن حنبل، ثقة، حافظ، فقيه، حجة.

(٧) عبد القدوس بن الحجاج الخولانى.

(٨) إسماعيل بن عياش العنسى، الحمصى، صدوق.

(٩) شرحبيل بن مسلم الخولانى، الشامى، من شيوخ الشام.

(١٠) مخضرم، ثقة عابد، من كبار التابعين، مات فى خلافة معاوية.

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾ فقال معاوية: أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم، ورمى بها ما بين عيني معاوية. ثم قام المنادى فنادى: أين أبو مسلم الخولاني، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فلا والله ما أبغضناك منذ أحييناك، ولا عصيناك منذ أطعناك، ولا فارقناك منذ جامعناك، ولا نكثنا بيعتنا منذ بايعناك، على عواتقنا إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبناك، وإن سبقناك نظرناك، ثم جلس. ثم قام المنادى فقال: أين عبد الله بن مخرم الشرعبي؟^(١)، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وقولك يا أمير المؤمنين في هذه العصابة من أهل العراق، إن تعاقبهم فقد أصبت، وإن تعفُ فقد أحسنت، فقام المنادى فنادى: أين عبد الله بن أسد القسري؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، رعيتك، وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا أنفسهم العقوبة، وإن تعف فإن العفو أقرب للتقوى يا أمير المؤمنين، ولا تطع فينا من كان غشوماً ظلوماً، بالليل نؤوماً، عن عمل الآخرة سؤوماً^(٢). يا أمير المؤمنين، إن الدنيا قد انقضت أوتادها، ومالت بها عمادها، وأحبها أصحابها، واقترب منها ميعادها، ثم جلس، فقلت^(٣) لشرحبيط: فكيف صنع؟ قال: قتل بعضاً واستحى بعضاً، كان فيمن قتل حجر بن عدى بن الأديب^(٤)، وكان حجر رضى الله عنه قبل قتله قال: يا قوم دعوني أصلى ركعتين، فتركوه فتوضأ، وصلى ركعتين، نطول، فقيل له: طوَّلت، أجزعت؟ فقال: ما صليت صلاة أخفّ منها، ولئن جزعت، لقد رأيت شيئاً مشهوراً، وكفناً منشوراً، وقبراً محفوراً، وكانت عشائهم قد جاؤوهم بالأكفان، وحفروا لهم القبور.

ويقال: بل معاوية الذي فعل ذلك. وقال حجر: اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل العراق شهدوا علينا وإن أهل الشام قتلونا. فقيل له: مدّ عنقك. فقال: إنَّ ذاك لدم ما كنت لأعين عليه^(٥)، وجاء في رواية: لما أتى معاوية بحجر،

(١) شامى مخضرم، يروى عن أبي الدرداء رضى الله عنه.

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٣٤)، نقلاً عن تاريخ دمشق (٢٧١/٤).

(٣) القائل هو إسماعيل بن عياش.

(٤) أحمد بن حنبل: المسائل، رواية ابنه صالح (٣٢٨/٢ - ٣٣١).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤٦٥/٣).

قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: أو أمير المؤمنين أنا؟ اضربوا عنقه فصلّى ركعتين، وقال لأهله: لا تطلقوا عنى حديدًا، ولا تغسلوا عنى دمًا، فإنى ملاق معاوية على الجادة^(١). وقد علق ابن العربي على مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه فقال: . . وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى فى الأرض فسادًا^(٢)، وقد اعتمد معاوية رضى الله عنه فى قضائه على قوله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشقَّ عصاكم^(٣)، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»^(٤)، وقوله ﷺ: «إنه ستكون هنات^(٥)، وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهى جميع، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»^(٦). ومما يجدر التذكير به فى هذا المقام أن معاوية رضى الله عنه لم يكن ليقضى بقتل حجر بن عدى رضى الله عنه لو أن حجرًا اقتصر فى معارضته إلى الأقوال فقط، ولم ينتقل إلى الأفعال، ولنا فى خبر المسور بن مخرمة وغيره مما مرّ معنا دلالة على ذلك^(٧).

٢ - موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه:

بالغت الروايات فى ذكر موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى، حيث ذهب بعض الروايات إلى الزعم بتهديد عائشة لمعاوية بالقتل حين زارها ٥١هـ، وكذلك التهديد بمحاربة معاوية^(٨). وهذه الروايات لم يصح منها شىء فى حق أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وأما حقيقة موقفها فعن ابن أبى مليكة: إن معاوية جاء يستأذن على عائشة، فأبت أن تأذن له، فخرج غلام لها يقال له: ذكوان^(٩)، قال: ويحك، أدخلنى على عائشة فإنها قد غضبت علىّ، فلم يزل بها غلامها حتى أذنت له، وكان أطوع منى عندها، فلما دخل عليها. قال: أمتاه فيما وجدت علىّ يرحمك الله؟ قالت: . . . وجدت عليك فى شأن حجر وأصحابه

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٤٦٦).

(٢) يشق عصاكم: يفرق جماعتكم.

(٣) صحيح صحيح مسلم بشرح النووى (١٢/٢٤٢).

(٤) هنات: جمع هنة، والمراد بها هنا الفتن والأمر الحادثة شرح صحيح مسلم (١٢/٢٤١).

(٥) صحيح مسلم، بشرح النووى (١٢/٢٤١).

(٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٣٥).

(٧) المصدر نفسه، ص (٤٣٨) مثل ما ورد فى تاريخ الطبرى.

(٨) أبو عمرو مولى عائشة ثقة، توفى فى المدينة سنة ٦٣هـ.

أنك قتلتهم، فقال لها: . . . وأما حجر وأصحابه فإنى تخوفت أمراً، وخشيت فتنة تكون، تهراق فيها الدماء، وتستحل فيها المحارم، وأنت تخافينى، دعينى، والله يفعل ما يشاء، قالت: تركتك والله، تركتك والله، تركتك والله^(١)، وجاء فى رواية أخرى: لما قدم معاوية دخل على عائشة، فقالت: أقتلت حجراً؟ قال: يا أم المؤمنين، إنى وجدت قتل رجلٍ فى صلاح الناس، خير من استحيائه فى فسادهم^(٢).

٣ - ندم معاوية على قتل حجر بن عدى:

جاء فى رواية: . . . أن عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية فى حجر وأصحابه، فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبى سفيان؟ قال: غاب حين غاب عنى مثلك من حلماء قومي^(٣)، قال الذهبي: يعنى أنه ندم^(٤). ومع أن قتل حجر رضى الله عنه وإن ذكر له من الأعدار والمبررات ما ذكر، ففى الحقيقة كانت غلطة من معاوية، وكان ينبغى أن يتسع حلمه لصحابى من صحابة رسول الله ﷺ، وقد ندم معاوية ندماً كبيراً على قتل حجر، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته^(٥)، وقد روى أنه قال عند موته: يوم لى من ابن الأديب طويل - ثلاث مرات - يعنى حجراً^(٦).

٤ - موقف مالك بن هبيرة السكونى رضى الله عنه:

لم يقبل معاوية رضى الله عنه شفاعة مالك بن هبيرة السكونى فى حجر بن عدى، فجمع مالك قومه وسار ليخلصه وأصحابه، فلقى القتلة وسألهم، فقالوا: مات القوم. وسار إلى عدى فتيقن قتلهم فأرسل فى أثر القتلة فلم يدركهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها فى نفسه، وكأنى بها قد طفئت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حرباً فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه^(٧)، ومالك بن هبيرة السكونى صحابى جليل وكان معاوية رضى الله عنه ولأه حمص وكان يقول فيه: ما أصبح عندى من العرب أوثق فى نفسى نصحاً بجماعة المسلمين وعامتهم

(١) تاريخ دمشق (٤/٢٧٣، ٢٧٤) نقلاً عن مرويات معاوية، ص (٤٤٠).

(٢) تاريخ دمشق (٤/٢٧٣) نقلاً عن مرويات معاوية، ص (٤٤٠).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/١٩٥). (٤) سير أعلام النبلاء (٣/٤٦٥).

(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٦). (٦) تاريخ الطبرى (٦/١٩٦).

(٧) تاريخ ابن خلدون (٣/١٧).

من مالك بن هبيرة^(١). وقد كان يسع معاوية غير القتل من العقوبات، كالسجن، أو تفريق حجر وجماعته، أو يمن بهم على عشائرتهم^(٢).

٥ - ما قيل في حجر بن عدى من رثاء:

قالت هند ابنة زيد بن مخزومة الأنصارية في رثاء حجر:
ترفع أيها القمير المنير تبصّر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كم زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد بها محولا كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر بن عدى تلقاك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أدرى عديا وشيخاً في دمشق له زئير
إلى أن قالت:

ألا ياليت حجراً مات موتاً ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هلك يصير^(٣)

وفيما عدا قضية حجر وأصحابه، فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته، والتي لخصها هو نفسه في جمل يسيرة حين قال: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أصنع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا شدوها أرختها، وإذا أرخوها شددتها^(٤). وهى سياسة حكيمة تفسح المجال أمام القول إذا ما ظل في حدود لا يتعداها، فحيث يكفى المال عن اللسان يعتمده، ولا يضع السوط حيث يكفى اللسان، ولا يضع السيف حيث يكفى السوط^(٥)، وقد قيل: بأن سليم مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية: اسكت ما أدرك صاحبك شيئاً قط بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني^(٦).

(١) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٦٧١)، الطبقات الكبرى (٧/ ٤٢٠).

(٢) القرأء ودورهم في الحياة العامة، ص (١٩٥). (٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٦).

(٤) السلطان لابن قتيبة، ص (٥١).

(٥) السلطة والمعارضة في الإسلام، زهير هوارى، ص (٢٦٢). (٦) السلطان لابن قتيبة، ص (٥٣).

المبحث الثاني

مباشرة معاوية للأمور بنفسه

وحرصه على توطيد الأمن في خلافته

أولاً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه:

ومن القواعد التي قامت عليها سياسة معاوية الداخلية مباشرة الأمور بنفسه، وكان رضى الله عنه يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة في دولته، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره، فإنه لم يكن يكتفى بذلك بل كرّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين^(١).

١ - مجلس معاوية في يومه:

كان معاوية رضى الله عنه، يظهر في اليوم واللييلة خمس مرات، فكان إذا صلى الصبح جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه، فيقرأ جزأه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلى أربع ركعات، ويخرج إلى مجلسه، فينادى بخاصته، فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراءه، فيكلمونه فيما يريدون من يومهم، ثم يؤتى بالغداء الأصغر، وهو فضل عشاء الليل، . . ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله، وإذا أراد ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسى، ويسند ظهره إلى المقصورة، ويقوم الحراس، فيقدم إليه الضعيف والإعرابى والصبى والمرأة فيقول: ظلّمت، فيقول: أعزّوه، ويقول: عدى علىّ فيقول: ابعثوا معه، ويقول: صنّع بى، فيقول: انظروا له، حتى لم يبق أحد دخل فجلس على السرير، ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلنى أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين، أطال الله عمره؟ فيقول: بنعمة من الله، فإذا استوا جلوساً قال: يا هؤلاء إنما سُميتم أشراقاً، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا حاجة من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول: غاب فلان عن أهله، فيقول:

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٧).

تعاهدوهم وأعطوهم، واقضوا حوائجهم واخدموهم. ويؤتى بالغداء ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقال له: اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده، فيأكل لقمتين أو ثلاثاً، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه بأمره، فيقال: يا عبد الله أعقب، فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء، وينصرف الناس، ويدخل منزله، فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلى^(١) ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة، فإن كان الوقت شتاء أتاهم بزاد الحاج، من الأخبصة اليابسة والخشكبالج^(٢)، والأقراص المعجونة بالسكر واللبن من دقيق السميد، والكعك المسمن، والفواكه اليابسة، وإن كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة ويدخل عليه وزراه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم، ويجلس إلى العصر، ثم يخرج فيصلى العصر ثم يدخل منزله، فلا يطعم فيه طامع حتى إذا كان في آخر وقت العصر، خرج فجلس على سريره، ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منها مقدار ما ينادى بالمغرب فيصليها، ثم يصلى أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة خمسين آية، يجهر تارة ويخافت أخرى. ثم يدخل منزله فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلى ثم يؤذن للخاصة، وخاصة الخاصة، والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويسمر ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياساتها، وسير الأمم وحروبها، ومكائدها وسياساتها لرعيته، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطرف الغربية من عند نسائه؛ من الخلواء وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكتلوا بحفظها وقراءتها، فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار، فيخرج ثم يصلى الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا كل يوم وليلة، وقد تبعه في ذلك، عبد الملك بن مروان وغيره، فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه السياسة، ولا التأنى للأمور، ولا مداراة الناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم^(٣).

(١) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص (٣٠٩).

(٢) الخشكبالج: نوع من الحلوى.

(٣) الشهب اللامعة، ص (٣١٠، ٣١١)، مروج الذهب (٣/ ٢٢٠، ٢٢٢).

٢ - الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

أ- ديوان الرسائل: هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه، وموثيقه إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية وإلى البلدان الخارجية التي لها علاقة بالدولة الإسلامية^(١). ومن أشهر من أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة في هذا الديوان في عهد معاوية عبد الله بن أوس الغساني، وزمل بن عمرو العذري، واستمر هذان الكاتبان في خلافة يزيد الأول^(٢)، وكانت وسيلة الرسائل في الاتصال بالولاة، وقادة الجند، والقضاة، وزعماء القبائل تابعة لمعاوية وتحت إشرافه المباشر.

ب- ديوان الخاتم: أنشأ معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة، فلا تطلع عليها عين جاسوس، ولا تصل إليها يد خائن^(٣)، وكان من أغراض هذا الديوان تحاشي التزوير، ومنع حدوث التلاعب، في الكتب التي يصدرها الخليفة، ثم أصبح الديوان بمثابة سجل للكتب الصادرة، وصارت الدولة تعتمد عليه في تدقيق الأوامر، والمراسلات التي تتعلق بالصرف والحسابات، بين مقر الخلافة والأقاليم الإسلامية الأخرى^(٤)، كما أنه كان يقوم بالإشراف على تدقيق الدواوين الأخرى، وبيان الأخطاء التي تقع فيها، وهذا الديوان يختلف عن ختم الرسول ﷺ، وختم الخلفاء الراشدين، فختم الرسول ﷺ يعني التوقيع بالختم، بينما نراه في عهد معاوية، وعصر الدولة الأموية بمثابة جهاز للفحص والتدقيق في الأعمال الصادرة عن الدواوين الأخرى، وقد تقلد الخاتم الكبير لمعاوية، عبد الله بن محصن الحميري، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمر بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد ابن أبيه، وهو على العراق، ففرض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، فأمر عمرًا بردها وحبسها، فأداها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وخزم الكتب^(٥)، ولم تكن

(١) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص (١٢٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٥٦). (٣) الدولة الأموية المفتري عليها، ص (٤٣٣).

(٤) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص (١٧٠).

(٥) تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر، ثم يوضع خاتم الخلافة.

تخزم^(١)، وفى الحقيقة فإن تأسيس ديوان الخاتم أمّلته ظروف اتساع الدولة الإسلامية فى عهد معاوية رضى الله عنه، وحاجة الخليفة إلى نظام اتصال آمن وسرى لمتابعة عماله وقواده ورجال دولته^(٢).

ج- ديوان البريد: يذكر المؤرخون أن معاوية بن أبى سفيان أول من أدخل نظام البريد فى الدولة الإسلامية، وأصدر أوامره بوضع الخيول فى عدة أماكن، وقام بتنظيمه^(٣)، وتشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم^(٤)، وكانت أعماله فى العصر الأموى واسعة ومتشعبة، نظراً لسعة رقعة الدولة الإسلامية، وقد قام الخلفاء الأمويون بتحسين طرق المواصلات التى يسير عليها صاحب البريد، وكانت تلك الطرق واضحة ومعلومة، والدليل على تحسين هذه الطرق هو سرعة وصول الأخبار إلى مقر الخلافة بالشام^(٥)، ولم تكن خدمات البريد مقصورة على ما يتعلق بالدولة، بل كان فى بعض الأوقات يحمل رسائل الناس من بلد إلى آخر^(٦)، وكانت الدولة فى عهد معاوية لا تستغنى عن البريد فى حالات السلم، والحرب، وكان موظف البريد من أهم أعوان الخليفة، وقد ذكرت بعض المصادر أسماء بعض من اشتغل مع معاوية فى ديوان البريد وهما: نصر بن ذبيان، والكميت، كانا على البريد فى أيام معاوية واستخدما فى نقل الأخبار بين الشام والحجاز^(٧)، وكانت أهم وسائل النقل: البغال^(٨)، والخيول^(٩): ويعتبر معاوية مؤسس نظام البريد فى الإسلام، حيث كانت الرسائل ترسل قبل ذلك من قبل الخليفة إلى الجهة التى يراد إرسالها إليها، عن طريق رسول يحملها وينطلق بها وحده، حتى يوصلها إلى الجهة المقصودة، فكانت بذلك الرسائل تستغرق مدة طويلة حتى تصل إلى محلها. أما نظام البريد الذى استخدمه معاوية اقتباساً من البيزنطيين فقد كان يقتضى أن تقسم الطرق إلى مسافات، يوضع فى نهاية كل

(١) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢٨٧)، مرويات خلافة معاوية، ص (٧٥).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٧٦). (٣) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٧٤).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٧٤). (٥) المصدر نفسه، ص (١٧٥).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٧٥). (٧) المصدر نفسه، ص (١٧٦).

(٨) المصدر نفسه، ص (١٧٦).

(٩) العيون والحدائق (٨٢/٣)، إدارة بلاد الشام، ص (١٧٦).

مسافة دواب (خيل) مهيأة لحمل رسائل الخليفة إلى الجهات المختلفة، تسلم الكتب والرسائل إلى صاحب البريد، وينطلق بها مسرعاً حتى إذا بلغ نهاية المسافة سلمها لمن بعده، وتظل الرسالة تنطلق من مسافة إلى مسافة حتى تصل إلى الجهات المرسله إليها في أقصر مدة، وأما مقدار المسافة الواحدة، فكان أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، وبذلك يكون طول المسافة اثني عشر ميلاً، أي عشرين كيلو متراً تقريباً، وهذه المسافة تسمى بريداً، وبهذه الطريقة تصل الرسالة بأكبر سرعة، دون إجهاد لصاحب البريد، حيث إن المسافة يمكن قطعها بسهولة، وتناوب أصحاب البريد إذا كان سيقطع المسافة وحده، وهكذا يوفر هذا النظام الراحة لأصحاب البريد، واختصار الوقت^(١)، يقول أبو هلال العسكري: أول من وضع البريد في توصيلها ليوفر الزمن الذي يستريحه صاحب البريد في الإسلام: معاوية ابن أبي سفيان، وأحكم أمره عبد الملك^(٢).

د - نظام الكتبة: كان هناك كاتب لديوان الرسائل، وآخر لديوان الخراج، وثالث لديوان الجند، ورابع لديوان الشرطة، وخامس لديوان القضاء، وكان في عهد الأمويين أكبر دواوين الدولة، ويقوم الموظفون فيه بنسخ أوامر الخليفة، وإيداعها ديوان الخاتم، بعد أن تخزم وتختم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب الديوان^(٣)، وظل ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولة، منذ أنشأه معاوية، وحتى أواسط العهد العباسي^(٤)، وكانت هذه الدواوين تقوم بأعمال وزارة المالية (ديوان الخراج) ووزارة الدفاع (ديوان الجند) ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة) ووزارة العدل (ديوان القضاء). كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشيف، وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يكتب في العراق باللغة الفارسية، وفي الشام ومصر باللغة الرومية، وظل كذلك حتى عربّه عبد الملك بن مروان^(٥).

ثانياً : حرصه على توطيد الأمن في خلافته:

ومن القواعد التي بنى عليها معاوية سياسته الداخلية توطيد الأمن في ربوع العالم الإسلامي، وقد اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف:

- (١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٠).
- (٢) الأوائل، ص (٢٣٧).
- (٣) تاريخ الإسلام (١/ ٤٥٨).
- (٤) المصدر نفسه (١/ ٤٥٩).
- (٥) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٢).

١- الحاجب: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحاجب في الإسلام، لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه^(١)، وكان بعض المظاهر الملكية له ما يبرره في هذه الحقبة التاريخية، فقد عبر ابن خلدون على احتجاج الخلفاء عن الناس، على النحو التالي: كان أول شيء بدأ به في الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لما كان يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب^(٢)، وما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود العامل الأمني وراء اتخاذ معاوية بعد محاولة اغتياله التي دبرها الخوارج: أمر عند ذلك بالمقصورات، وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد^(٣)، وقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون في الشام قريباً من أعدائهم الموثورين من الروم، فضلاً عن أعدائهم الموثورين من الشيعة والخوارج المتفرقين في البلاد، وكانوا يرون أنه لا بد لهم لاستقرار الدولة الإسلامية التي قتل ثلاثة من خلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز^(٤)، وقد ذكر المؤرخون أسماء من مواليه شغلوا له وظيفة الحاجب، وهم سعد، وأبو أيوب، وصفوان^(٥)، وكان يشترط في الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكي يتمكن أن يعرف من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم، فقد رويت أخبار كثيرة تؤكد ذلك، فمعاوية بن أبي سفيان قال لحصين بن المنذر، وكان يدخل عليه في أخريات الناس:

يا أبا ساسان، كأنه لا يحسن أذنك؟ فأنشأ يقول:

وكل خفيف الساق يسعى مشمرًا إذا فتح البواب بابك أصعبًا
ونحن الجلوس الماكثون رزانة وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا^(٦)

(١) إدارة بلاد الشام في العهد الراشدي والاموي، ص (١٠٢).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٤٩/٢ - ١٥٠). (٣) تاريخ الطبري (٦/٦٥).

(٤) الدولة الأموية المقترى عليها، ص (٢٧١).

(٥) إدارة بلاد الشام في العهد الراشدي، ص (١٠٣)، البداية والنهاية (١١/٤٦٥).

(٦) البيان والتبيين (٢/٩٠)، إدارة بلاد الشام، ص (١٠٧).

وعندما دخل شريك الحارثي على معاوية قال له: من أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، مارأيت لك هفوة قبل هذه، مثلك ينكر مثلى من رعيته، فقال له معاوية: إن معرفتك متفرقة، أعرف وجهك إذا حضرت الوجوه، وأعرف اسمك فى الأسماء إذا ذكرت، ولا أعلم أن ذلك الاسم هو هذا الوجه، ما ذكر لى اسمك تجتمع معرفتك^(١)، فالحاجب يخبر الخليفة، والخليفة هو الذى يأذن أو لا يأذن. وذات يوم وقف الأحنف بن قيس، ومحمد بن الأشعث بباب معاوية الأول، فأذن للأحنف، ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع فى مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله، فلما رآه معاوية غمه ذلك، وأحنقه فالتفت إليه فقال: والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وأنا كما نلى أموركم كذلك نلى آدابكم، ولا يزيد متزيد فى خطوة إلا لنقص يجده فى نفسه^(٢).

٢- الحرس: كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ الحرس فى الدولة الإسلامية، خوفاً من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله، فقد أمر بالمقصورات فى الجوامع وكان لا يدخلها إلا ثقة حراسه^(٣)، وكما يبدو أن معاوية لم يكتف باتخاذ الحرس، بل اتخذ المقاصير زيادة فى التشدد، وذلك لحماية نفسه من أى اعتداء قد يقع عليه^(٤) وقد ذكرت كتب التاريخ أسماء رؤساء الحرس فى عهد معاوية وهم: المختار أبو المخارق^(٥)، ويزيد بن الحارث العبسى^(٦).

٣- الشرطة: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين، والدفاع عن الخليفة، وهى غير مسئولة عن صد أى هجوم خارجى عن الدولة^(٧)، وقد قام معاوية بتنظيمها وتطويرها فى الشام، وقد ذكر المؤرخون أربعة أسماء من الذين عينهم على رئاسة الشرطة وهم: قيس بن حمزة الهمداني، زميل بن عمرو العذرى، الضحاك بن قيس الفهرى، ويزيد بن الحر العنسى^(٨). والشرطة لا يقتصر وجودها على عاصمة الخلافة فقط بل فى الولايات الإسلامية الأخرى، وهم يتبعون الولاة فهم الذين يختارونهم ويعينونهم، وكان

(١) عيون الأخبار (٩٠/١).

(٢) العقد الفريد (٦٨/١)، إدارة بلاد الشام، ص (١٠٨).

(٣)، (٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين، ص (١١١). (٥) البداية والنهاية (١١/٤٦٥).

(٦) إدارة بلاد الشام فى العهدين، ص (١١٧)، العقد الفريد (٤/٣٦٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (١١٥). (٨) المصدر نفسه، ص (١١٧).

وجودها مهمًا للدولة والمجتمع، فالدولة تعتمد عليها في قمع المتمردين، وفي القضاء على الثورات، والاضطرابات، وربما كانت تحمل محل الجند في حالة غيابهم واشتراكهم في الغزوات، وهى للمجتمع، لأنها تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهى الجهة الوحيدة المسئولة عن حماية أرواح الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض. وقد كلف الخلفاء الأمويون رؤساء الشرطة بأعمال شتى خارج بلاد الشام وداخلها: فالضحاك بن قيس كلفه معاوية بإبلاغ وصيته لابنه يزيد، وأخذ البيعة له^(١).

٤ - حسن اختيار الرجال والأعوان: فقد وفق معاوية -رضى الله عنه- فى اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولايتهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عمرو بن العاص السهمى، والمغيرة بن شعبة الثقفى، وزباد بن أبيه الثقفى، ويزيد بن الحر العبسى، والضحاك بن قيس الفهرى، وعبد الله بن عامر بن كرز، وغيرهم من القادة المقاتلين أمثال المهلب بن أبى صفرة، وعقبة بن نافع الفهرى، ومالك بن هبيرة، وجنادة بن أمية الأزدى وآخرين، وكان عمرو بن العاص يقول: أنا للبيهة، ومعاوية للأناة، والمغيرة للمعضلات، وزباد لصغار الأمور وكبارها^(٢). وقد ساهم هؤلاء فى إدارة الدولة وفتوحاتها والتصدى لأعدائها، فكان لهم دور كبير ومتميز فى ترسيخ وتوطيق وتثبيت الأمن ودعائم الخلافة الأموية^(٣).

٥ - استخدام المال فى تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب: فقد اعتبر معاوية من أجواد العرب؛ لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء، وجاد بالمال مع المداراة، وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال^(٤).

٦ - اتباع سياسة الشدة واللين فى الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال: وظهرت هذه السياسة بشكل واضح بعد توطيد دعائم الخلافة الأموية، وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه فى ذلك وقال: إنه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس بسياسة

(١) إدارة بلاد الشام، ص (١٢٣)، الأخبار الطوال، ص (٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) أنساب الأشراف (١٣١/٤).

(٣) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص (١٠٠).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٠٠).

واحدة، إنا إن نشد جميعاً نهلك الناس ونحرجهم، وإن نلن جميعاً نبظهم، ولكن تلين وأشد، وتشد وألين^(١)، ويؤكد هذه السياسة ما نسب إلى معاوية رضى الله عنه من أقوال مثل: لا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، فإذا لم أجد من السيف بدأ ركبته، أى استعملته^(٢)، وقوله المشهور: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إن جبدوها أرسلتها، وإن خلوها جذبتها^(٣).

٧ - اتباع سياسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيته: لم يستطع معاوية رضى الله عنه اتباع سياسة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم الراشدة، ولا شك فى أن كثرة الأموال بعد اتساع الدولة الإسلامية جعلت كثيراً من المسلمين يتطلعون إلى التمتع بالخيرات، التى أخذت تندفق عليهم. وقد أعرب معاوية عن ذلك بشكل واضح وقال للمسلمين: . . غير أنى سلكت طريقاً لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم^(٤).

٨ - اتخاذ سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته. وجعل الناس يميلون إليهم: كان معاوية بن أبى سفيان يقول: أحب الناس إلى أشدهم تحيباً لى إلى الناس^(٥)، وأتبعه بعد ذلك الخلفاء الأمويون باستمالة عشرات الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال، فأشادوا بهم وبحقهم فى الخلافة وصلاحهم لها، ووجوب طاعتهم ونصرتهم، نظراً لأن الشعر كان أهم وسيلة إعلامية فى ذلك العصر^(٦)، ومن الأشعار التى قيلت فى هذا الاتجاه ما قاله الأخطل:

تَمَّتْ جندودهم والله فضلهم وجد قوم سواهم خامل نكد
وأنتم أهل بيت لا يُوازُنهم بيت إذا عدتِ الأحساب والعدد^(٧)

وقد اهتم معاوية بفن الدعاية والإعلام، وأوكله إلى عدد من الرجال يهتمهم أمره ويؤيدونه، فكان يكثر إعطيات الشعراء، وكذلك شيوخ القبائل، لكسبهم فى

(١) أنساب الأشراف (٨٤/٤).

(٢) أنساب الأشراف (٢١/٤).

(٣) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص (١٠٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٤٨/٣).

(٥) المصدر نفسه، ص (١٠٢)، تاريخ الطبرى (٢٥٥/٦).

(٦) التطور والتجديد فى الشعر الأموى، شوقى ضيف، ص (١٣٤).

صفه، ويعطى مجالاً واسعاً لولائه لكي يحققوا بعض المكاسب السياسية والإعلامية والأمنية، فقد كتب زياد والى البصرة فى عهد معاوية خمسمائة من مشايخها، وأعيانها فى صحبته، ورزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة^(١)، فقال فيه حارثة بن بدر الغدانيّ:

ألا من مبلغ عنى زياداً فنعم أخو الخليفة والأمير
فأنت إمام معدلةٍ وقصد وحزم حين تحضرك الأمور
أخوك خليفة الله بن حرب وأنت وزيره نعم الوزير^(٢)

وكان معاوية رضى الله عنه يحرص على امتصاص غضب الشعراء بحلمه وعفوه، فعندها هجا يزيد بن مفرغ الحميرى بنى زياد، عندما كان مع عباد بن زياد بسجستان، فاشتغل عنه بحرب الترك، فاستبطأه، فأصاب الجند مع عباد ضيق فى أعلاف دوابهم، فقال ابن مفرغ:

ألا ليت اللحي عادت حشيشاً فنعلفها خيول المسلمين
وكان عباد بن زياد عظيم اللحية، فأنهى شعره إلى عباد وقيل: ما أراد غيرك، فطلبه عباد، فهرب منه، وهجاه بقصائد كثيرة، فكان مما هجاه به قوله:

إذا أودى معاوية بن حرب فسبر شعباً قعبك بانصداع
فأشهد أن أمك لم تباشر أبا سفيان واضعة القناع
ولكن أمراً فيه لبس على وجل شديد وارتباع
وقوله:

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عَفُّ وترضى أن يقال أبوك زان
فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأثان^(٣)

ولما هجا ابن المفرغ عباداً فارقه مقبلاً إلى البصرة، وعييد الله يومئذ وافد على معاوية، فكتب عباد إلى عبيد الله ببعض ما هجاه به، فلما قرأ عبيد الله الشعر

(٢) المصدر نفسه (٦/١٣٩).

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٣٩).

(٣) المصدر نفسه (٦/٢٣٦).

دخل على معاوية، فأنشده إياه، واستأذنه فى قتل ابن مفرغ، فأبى عليه أن يقتله، وقال: أدبه ولا تبلغ به القتل^(١) . . . ووقع ابن مفرغ بين يدى عبید الله . . فأمر به فسقى دواء، ثم حمل على حمار عليه إكاف فجعل يطاف به وهو يسلم فى ثيابه^(٢).

وقال ابن مفرغ لعبید الله:

يغسل الماء ما صنعت وقولى راسخ منك فى العظام البوالى
ثم حمله عبید الله إلى عباد بسجستان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية، فأرسل رسولاً إلى عباد، فحمل ابن مفرغ من عنده حتى قدم على معاوية، فقال فى طريقه:

عَدَسٌ ما لِعَبَّادِ عَلَيْكَ إِمارَة نَجوتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيق
لِعَمْرَى لَقَدْ نَجَاكَ مِنْ هَوَّةِ الرَّدَى إِمَامٍ وَحَبْلٍ لِلْأَنامِ وَثِيق
سَأشْكُرُ ما أوتيتِ مِنْ حَسَنِ نِعْمَة ومثلى بِشكرِ المَنعمينِ حَقِيق

فلما دخل على معاوية بكى، وقال: ركب منى ما لم يركب من مسلم على غير حدث ولا جريرة . . . وبعد حوار مع معاوية قال له معاوية: اذهب فقد عفونا لك عن جرمك، أما لو إيانا تعامل لم يكن مما كان شىء، فانطلق وفى أى أرض شئت فانزل. فنزل الموصل، ثم إنه ارتاح إلى البصرة، فقدمها، ودخل على عبید الله فأمنه^(٣). فقد كان معاوية رضى الله عنه يحرص على كسب الشعراء لصفه، والتجيب إليهم وإكرامهم وعدم محاولة الإساءة إليهم، فقد كانوا أقرب الشبه بالفضائيات فى الوقت الحاضر.

٩ - جهاز المخابرات: كانت الأجهزة الأمنية الداخلية والخارجية فى عهد معاوية قوية جداً، وكانت قدرتها على جمع المعلومات فائقة، وكان معاوية رضى الله عنه يشرف على جهاز المخابرات بنفسه، وكان له جهاز سرى مربوط به لمراقبة الولاة والرعية، فلم يكن فى قطر من الأقطار، ولا ناحية من النواحي عامل أو أمير

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/٢٣٦).

(٣) المصدر نفسه (٦/٢٣٨).

جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، بل وصلت عيونه حتى في البلاط البيزنطي،
وإليك ما يدل على ذلك:

أ - اطلاعه على المراسلات التي بين الحسين وأهل العراق: لما توفي الحسن بن علي
اجتمعت الشيعة في دار سليمان بن صرد، وكتبوا إلى الحسين كتاباً بالتعزية في
وفاة الحسن، وقالوا في كتابهم: إن الله قد جعل فيك أعظم الخلق ممن مضى،
ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، المسرورة بسرورك، المنتظرة
لأمرك، فرد الحسين على كتابهم: إنني لأرجو أن يكون رأى أخى في المواعدة،
ورأى في جهاد الظلمة رشداً أو سداداً، فالصقوا بالأرض وأخفوا الشخص،
واكتموا الهوى، واحترسوا في الأضناء ما دام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث
وأنا حتى يأتكم رأى إن شاء الله^(١). ولقد أشارت تلك الرسائل المتبادلة بين
الحسين وأهل الكوفة مخاوف بني أمية في المدينة، فكتبوا إلى معاوية يستثيرونه
بشأن الحسين: فكتب إليهم بأن لا يتعرضوا له مطلقاً^(٢)، وكان معاوية على معرفة
بتلك الرسائل والعلاقات الوثيقة التي تربط بين الحسين وبين الكوفيين، ولهذا فقد
طلب معاوية من الحسين أن يتقى الله عز وجل، وأن لا يشق عصا المسلمين
ويذكره بالله في أمر المسلمين^(٣)، ولقد كان موقف الحسين واضحاً وإعلانه صراحة
بقوله: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا^(٤)، وظل الحسين رضى
الله عنه ملتزماً ببيعته وطاعته طوال عهد معاوية^(٥)، رضى الله عنه.

ب - قصة معاوية مع المسور بن مخرمة: فقد صرح معاوية المسور وقال له: يا
مسور ما فعل طعنك على الأئمة^(٦)، ففيه معرفة معاوية ما يقول كبار الشخصيات
في المجتمع الإسلامي فيه.

ج - قصة الأسير المسلم عند البيزنطيين، الذي لطم وجهه بين يدي ملك الروم
وقوله الأسير: وا إسلاماه أين أنت يا معاوية؟ فوصل ذلك الخبر إلى معاوية^(٧).
هذه بعض الشواهد التي تدل على قوة جهاز المخابرات التابع للدولة الأموية.

(١)، (٢) أنساب الأشراف (١٥٢/٣)، مواقف المعارضة، ص (١٧٩).

(٣) أنساب الأشراف (١٥٢/٣)، مواقف المعارضة، ص (١٨٠). (٤) الأخبار الطوال، ص (٢٢٠).

(٥) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٤٦٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (١٥١/٣) إسنادها صحيح.

(٧) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص (٤٨٩).

د- وضع بعض أتباع على رضى الله عنه بالكوفة تحت المراقبة لم يدخل زياد فى طاعة معاوية بسهولة، وامتنع فى بداية أمره عن طاعته، وتحصن ببلاد فارس واستطاع معاوية بعد أخذ ورد إقناع زياد فى دخوله طاعته، وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله، وسأل زياد معاوية أن يسمح له فى نزول الكوفة، فأذن له، فشخص إلى الكوفة، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه، فكتب معاوية إلى المغيرة: **مُرْ زياداً وسليمان بن سرد، وحجر بن عدى، وشبّ بن ربعى، وابن الكواء، وعمر بن الحمق بالصلاة فى الجماعة، فكانوا يحضرون معه فى الصلاة^(١)**، فقد كان هذا إجراء احتياطياً من معاوية حتى يكون هؤلاء القوم تحت ناظرى والى الكوفة باستمرار، وذلك أن صلح الحسن ومعاوية يوجد له معارضون، ولا يستبعد التفاهم حول بعض رجالات على - رضى الله عنه - حسماً منه لمادة الفتنة^(٢).

١٠ - الاهتمام ببناء الجيش الإسلامى: كان لمعاوية بعد نظر سياسى تمثل فى بناء جيش قوى منذ أن كان والياً على الشام، وتمحور دور هذا الجيش فى استتباب الأمن داخل الولاية، ومن ثم القيام بعمليات توسع خارجية قبل وبعد نياله الخلافة،^(٣) تمثلت فى حركة الفتوحات فى عصره، وهذا سيأتى تفصيلها فى محله بإذن الله تعالى.

١١ - سياسة الموازنات: على الرغم من نفوذ الكلبيين فى الدولة الأموية، فإن المعادلة لم تكن قائمة على التحالف الأموى - الكلبي، ولكنها اتخذت فى عهد معاوية رضى الله عنه منحىً توازانياً ما بين كلب وفهر بصورة خاصة، وقحطان وقيس بصورة عامة، فإذا كان الكلبيون قد حملوا عبء الدفاع المسلح عن الدولة، مؤثرين الإقامة فى جنوب الشام (جند الأردن)، فإن الفهريين كان لهم الدور السياسى والإدارى البارز فضلاً عن الدور العسكرى، حيث شارك زعيمهم الضحّاك بن قيس فى صفين، وكان بالإضافة إلى ذلك فى طليعة الذين اعتمد عليهم معاوية فى حضّ الناس على البيعة ليزيد^(٤)، وقد ارتفع الضحّاك فى السياسة الأموية، وفى أعقاب الدور الأمنى الذى شغله فى عهد معاوية كقائد

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (١٧٥).

(١) الكامل فى التاريخ (٤٥٨/٢).

(٣) الدولة الأموية، د. فرست مرعى الدهوكى، ص (٦٤).

(٤) الطبقات (٢٢/٦).

على شرطته^(١)، والدور السياسي في عهد يزيد، كعامل له على دمشق، مما هياه من خلال هذا الموقع الهام، لدور أكثر خطورة بعد وفاة معاوية الثاني الذي أوصى بأن يصلح الضحاك بالناس بدمشق^(٢)، وهكذا نجح مؤسس الدولة الأموية في الإمساك بزمام الأمور من خلال الموازنة بين القبائل الشامية الكبرى، ولم يدع لأى منها مجالاً بأن تتجاوز حدودها المرسومة لها في الدولة، بما في ذلك القبيلة الكلبية الأثيرة. وقد اتسعت دائرة هذه السياسة، لتصبح ظاهرة من ظواهر عهد معاوية رضى الله عنه، حيث نجح معاوية في تحقيق التوازن المنشود داخل قريش (المهاجرة، وغير المهاجرة)، فضلاً عن التوازن داخل الأسرة الأموية (بنو حرب، وبنو العاص)، واحتواء الثقفين بعد منحهم إدارة العراق الذى ارتبط تاريخه أو كاد بهذه الأسرة، إلى آخر هذه التوازنات المتقنة التى ضبطها معاوية رضى الله عنه^(٣).

١٢- سياسته مع الأسرة الأموية: لم يأت معاوية رضى الله عنه للخلافة بدعم مادي أو معنوي من الأسرة الأموية، وإنما أتاه الدعم من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت وراءه، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز في إدارة الدولة في عهده من الناحية الإدارية أو من الناحية العسكرية، نلاحظ ذلك من خلال استعراض أسماء ولاة وقادة معاوية الذين استعان بهم^(٤)، إلا أن معاوية لم يجاف أسرته جفاءً تاماً، بل استعان بأفراد منها واضعاً نصب عينيه هدفين:

أ- الاستعانة بالأكفاء منهم.

ب- الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية^(٥)، وقد استطاع معاوية تحقيق وحدة الصف الأموي بما كان يملك من صفات ومؤهلات قيادية فذة^(٦).

هذه هى أهم الوسائل التى اتخذها معاوية لتوطيد الأمن في دولته رضى الله عنه.

(١) مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، جمهرة النسب، ابن الكلبي (٤٧١/١).

(٢) الطبقات (٣٩/٦)، مؤتمر الجابية، ص (٣٥).

(٣) مؤتمر الجابية، ص (٣٦).

(٤) سيأتى الحديث عن اسمائهم بإذن الله عند التحدث عن الولاة.

(٥) الدولة الأموية، فرست مرعى، ص (١٧٩).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٨٠).

المبحث الثالث

حياة معاوية في المجتمع واهتماماته العلمية

أولاً: حياة معاوية في المجتمع:

١ - بين معاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهما: قال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ألتُ أنصح الناس لك؟ قال: بذلك نلتَ ما نلتَ^(١).

٢ - مشاجرة في مجلس معاوية: عن جويرية بن أسماء، أن بسر بن أبي أرطاة نال من علي عند معاوية وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعلاه بعضاً فشجه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربتته، وأقبل على بسر فقال: تشتم علياً وهو جده، وابن الفاروق على رؤوس الناس، أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك، ثم أرضاهما جميعاً^(٢).

٣ - أنا أحق بهذا منك: قال معاوية: ما من شيء أحب إليّ من عين خراة في أرض خوّارة! فقال عمرو بن العاص: ما من شيء أحب إليّ من أن أبيت عروساً بعقيلة من عقائل العرب، فقال وردان مولى عمرو بن العاص: ما من شيء أحب إليّ من الإفضال على الإخوان، فقال معاوية: أنا أحق بهذا منك، قال: ما تجب فافعل^(٣).

٤ - نعى إلى نفسه: كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب زرّ بن حبيش - أو أيمن بن خُرَيْم - كتاباً لطيفاً ورمى به إلى الكتب وفيه:

إذا الرجال ولدت أولادها واضطربت من كبر أعضادها
وجعلت أسقامها تعتادها فهي زروع قد دنا حصادها

فلما وردت الكتب عليه فقرأ هذا الكتاب، قال: نعى إلى نفسه^(٤).

(٢) المصدر نفسه (٦/٢٥٣).

(١) تاريخ الطبري (٦/٢٥٣).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٦/٢٥٤).

٥ - نصيحة معاوية لشاعر من بنى أمية: قال معاوية رضى الله عنه، لعبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص: يا ابن أختى، إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء؛ فتعزّ الشريفة^(١)، والهجاء فتعر كريماً، وتستشير لثيماً، والمدح فإنه طعمة الوقاح، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك^(٢).

٦ - لا تقل دارى فى البصرة، ولكن قل: البصرة فى دارى: ذكر أن رجلاً سأل معاوية أن يساعده فى بناء دار باثنى عشر ألف جذع من الخشب. فقال له معاوية: أين دارك؟ قال: بالبصرة. قال: وكم اتساعها؟ قال: فرسخان فى فرسخين، قال: لا تقل دارى بالبصرة، ولكن قل: البصرة فى دارى^(٣).

٧ - علمت أن أكله سيورته داءً: ذكر أن رجلاً دخل بابن معه، فجلسا على سماط معاوية، فجعل ولده يأكل أكلاً ذريعاً، فجعل معاوية يلاحظه، وجعل أبوه يريد أن ينهائه عن ذلك فلا يفطن، فلما خرجا لأمه أبوه وقطعه عن الدخول، فقال له معاوية: أين ابنك التلقامة؟^(٤) قال: اشتكى. قال: قد عملت أن أكله سيورته داءً^(٥).

٨ - وإنك لتلحظ الشعرة فى لقمتى: روى أن معاوية قال للأعرابي: ارفع الشعرة من لقمتك، فقال: وإنك لتلحظ الشعرة فى لقمتى، والله لا أكلت معك طعاماً^(٦).

٩ - إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها: نظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة، فجعل يزدريه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها^(٧).

١٠ - يا بنية، إنه زوجك الذى أحله الله لك: تزوج عبد الله بن عامر هند بنت معاوية، فلماً أدخلت عليه بالخضراء، أرادها عن نفسه فتمنعت عليه وأبت أشد الإياء، فضربها فصرخت، فلماً سمع الجوارى صوتها صرخن وعلت أصواتهن،

(٢) تاريخ الطبرى (٦/٢٥٤).
(٤) التلقام، والتلقامة: كبير اللقم.
(٦) المنتخب والمختار، ص (٥٥٩).

(١) عرة: أساء إليه وساءه.
(٣) البداية والنهاية (١١/٤٥٣).
(٥) البداية والنهاية (١١/٤٥٣).
(٧) المصدر نفسه (١١/٤٥٣).

فسمع معاوية فنهض إليهن، فاستعلمهن ما الخبر، فقلن: سمعنا صوت سيدتنا فصحنا. فدخل فإذا هي تبكى من ضربه، فقال لابن عامر: ويحك مثل هذه تضرب في مثل هذه الليلة؟ ثم قال له: اخرج من ههنا، فخرج وخلا بها معاوية فقال لها: يا بنية، إنه زوجك الذى أحله الله لك، أو ما سمعت قول الشاعر:

من الخَصِرَاتِ^(١) البيض أماً حرامها فصعب وأماً حلها فذلول

ثم خرج معاوية من عندها، وقال لزوجها: ادخل فقد مهدت لك خلقتها ووطأتها، فدخل ابن عامر، فوجدها قد طابت أخلاقها، ففضى حاجته منها.^(٢) رحمهم الله تعالى.

١١ - هل يصح قول معاوية: إن الكريم طروب: عن محمد بن عامر، قال: لام معاوية عبد الله بن جعفر على الغناء، فدخل يوماً على معاوية ومعه بُديح^(٣)، ومعاوية واضع رجلاً على رجل، فقال عبد الله لبديح: إيه^(٤) يا بديح، فتغنى، فحرك معاوية رجله، فقال عبد الله: مه يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: إن الكريم طروب^(٥). هذا الخبر أورده البلاذرى^(٦) بنحوه، وأورده ابن عبد ربه^(٧)، مع بعض الزيادات المنكرة^(٨)، وهذه الرواية الضعيفة يردّها ما أخرجه الطبرانى بإسناد حسن، من طريق كيسان مولى معاوية قال: خطب معاوية الناس فقال: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ نهى عن تسع، وأنا أنهاكم عنهن: النوح، والشعر، والتبرج، والتصاوير، وجلود السباع، والغناء، والذهب، والحُرّ، والحريز^(٩). وكان -رضى الله عنه - ينهى عن الاستماع إلى الغناء وينكر ذلك على من يعرف به، وكان عامله على المدينة ابن الحكم شديداً على أهل الدعارة والفسوق، فكانوا يهربون من المدينة أثناء ولايته^(١٠).

(١) الخصرات: جمع خَصْرَة من الخصر، وهو شدة الحياء.

(٢) البداية والنهاية (٤٦٤/١١). (٣) بديح المليح، من موالى عبد الله بن جعفر.

(٤) إيه: كلمة استزادة واستلطاف، الفيروز أبادى، القاموس (١٦٠٤).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٨٢).

(٦) أنساب الأشراف (٢٧/٤)، مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣).

(٧) العقد الفريد (٢١/٦، ٢٢)، مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣).

(٨) مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣). (٩) المعجم الكبير (٣٧٣/١٩)، إسناده حسن.

(١٠) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (٩٤).

١٢ - قضاء ديون السيدة عائشة رضى الله عنها: كان معاوية -رضى الله عنه- يهتم بالسيدة عائشة ويقضى عنها ديونها، فعن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشرة ألف دينار^(١). وقال عروة: بعث معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمست حتى فرقتها^(٢).

١٣ - الاهتمام بحوائج الناس: كان معاوية -رضى الله عنه- يشفق على نفسه أن يكون احتجابه أحياناً عن المسلمين ذنباً يحاسب عليه، فلما سمع حديث النبي ﷺ: «من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره»، جعل معاوية على حوائج الناس رجلاً يبلغه بها، كى لا يغيب عنه شيء منها^(٣)، وكان عامله على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة، يكتب إلى أمير المؤمنين^(٤).

١٤ - تأثر معاوية رضى الله عنه بموت الصالحين: حين توفي ابن لعبنة بن أبي سفيان، وجاء ناس إلى معاوية يعزونه فيه قال: إن موت غلام من آل أبي سفيان قبضه الله، ليس بمصيبة، إنما المصيبة كل المصيبة لموت أبي مسلم الخولاني وكريب ابن سيف الأنصارى^(٥).

١٥ - اهتمام معاوية بالمساجد والعيون: اهتم معاوية بن أبي سفيان بالمسجد الحرام وأمر بتوسعته، وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال، وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف، واهتم بالمسجد الأقصى، وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة فى المسجد الجامع بالفسطاط عام ٥٣هـ، وطلا جدرانه بالجص وزخرف بنيانه، وبنى له أربع منارات شامخة، وفرشه بالحصير. وأخذ أهل مصر ببيان المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم فى الليل فى وقت واحد^(٦)، ووسع المغيرة بن شعبة المسجد الجامع بالكوفة، ثم قام زياد بن أبيه فبناه وزاد فيه، وأحكمه وفرشه بالحصى، وكان يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثمانى

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣/١٥٤).

(٣) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٢٧٣)، نقلاً عن البداية والنهاية.

(٤) تاريخ الطبرى (٦/٢٥٤).

(٥) تاريخ دمشق (١/٢٢٧) نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٣).

(٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٧).

عشرة مئة درهم، واتخذ فيه مقصورة جددها خالد بن عبد الله القسرى أثناء ولايته على العراق، ثم قام عبيد الله بن زياد وزاد في المسجد الجامع وفرشه بالحصى^(١)، وزاد زياد بن أبيه في المسجد بالبصرة زيادة كبيرة، وبناء بالأجر والجص، واستعمل الأساطين في البناء، وسقفه بالساج وبنى منارته بالحجارة، وبنى في البصرة المساجد الكثيرة، ثم قام عبيد الله بن زياد فزاد في المسجد الجامع^(٢)، واهتم معاوية بالمرافق العامة في الدولة الإسلامية، وحرص على توفير مياه الشرب في المدينة، وأجرى في الحرم المكي عيوناً^(٣)، وأنشأ آبار المياه على الطرقات، فربط بين أجزاء مملكته ربطاً محكماً^(٤).

١٦ - سباق الخيل في عهد معاوية رضى الله عنه: ويعد معاوية رضى الله عنه من أوائل الخلفاء الذين أرسوا تقاليد سباقات الخيل في تاريخنا الإسلامى، حيث كان يقيم سباق الخيل في دمشق، حيث يشترك فيه فرسان من جميع أطراف الدولة، وكان هؤلاء يدخلون الحلبة وهم يقولون الشعر فى الفخر بأنفسهم وخيلهم، وعند انتهاء السباق كان الخليفة يقدم جوائز ثمينة للفائزين^(٥).

١٧ - إطعام الحجاج والصائمين: جعل أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه دار المراحل بمكة، والتي كان يطبخ فيها طعام الحجاج، وطعام الصائمين من الفقراء فى شهر رمضان المبارك^(٦)، وفقاً فى سبيل الله.

١٨ - الله أقدر عليك منك عليه: رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً له، فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سواء لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟ والله لقد منعتنى القدرة من الانتقام من ذوى الإحن، وإن أحسن من عفا لمن قدر^(٧). فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه لابنه

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٧)، فتوح البلدان، ص (٣٩٩ - ٣٤٠).

(٢) فتوح البلدان، ص (٤٢٦، ٤٢٧)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٨).

(٣) أخبار مكة (٢/٢٢٧) الأزرقى، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤١).

(٤) الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمى، ص (٢٥).

(٥) التربية والثقافة العربية الإسلامية فى الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الاستناد إلى

مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ص (٩٤)، الرفق بالحيوان د. سلامة الهرفى ص (٤٩).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص (٢٦).

(٧) البداية والنهاية، (نقلًا عن التاريخ الإسلامى (١٧/٢٣)).

يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم. العفو عند المقدرة، هذا الخلق الذى يعتبر من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمة، ولقد ذكره بقدره الله - جل وعلا - عليه ليحط من تعاضمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده^(١).
ثانياً: اهتماماته العلمية:

كان معاوية رضى الله عنه يشجع الولاة والعلماء وأبناء الأمة على إيجاد نهضة ثقافية حضارية، وشهد عصره نهضة فى التفسير وعلوم القرآن والفقه والعقيدة، وتآلق فيه نجم عديد من العلماء الذين ظل المسلمون بعد ذلك يأخذون من علومهم، ويستشهدون بأقوالهم واجتهاداتهم، كابن عباس وأبى هريرة، وابن عمر، وغيرهم وكانت العلوم الرئيسية هى القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه واللغة العربية، واهتم معاوية رضى الله عنه بغيرها من العلوم أيضاً، منها:
١ - اهتمام معاوية بالتاريخ:

كان معاوية رضى الله عنه الراعى الذى عمل على أول تدوين باللغة العربية للتاريخ بمعناه العام، لا على أنه المغازى النبوية وقصص الأنبياء، ولا على أنه الأنساب، وأيام العرب، ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة، وسير الملوك والحروب، وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة على الملوك^(٢)، فقد كان ينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والآثار وأنواع السياسات^(٣)، وقد استدعى معاوية عبيدة ابن شرية - وهو أحد علماء التاريخ البارزين فى بلاد اليمن - إلى دمشق وسأله عن أخبار القدماء وملوك العرب والعجم، وأمر معاوية كتابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد الله بن شرية؛ كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين^(٤)، ولم يكن عبيدة هذا هو العالم الوحيد الذى استقدمه معاوية إلى دمشق فكتب عنه روايات

(١) التاريخ الإسلامى (٢٤/١٧).

(٢) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٥٤)، التاريخ العربى (٩٥/١).

(٣) مروج الذهب (٤١/٢)، الدولة الأموية، ص (٤٥٥).

(٤) مروج الذهب (٨٥/٢)، الدولة الأموية، ص (٤٥٥)، التعليم فى العصر الاموى، انتصار السبتي، ص (١١٧).

وصيرها كتبًا، بل أن كثيرًا من الإخباريين أهل الدراية بأخبار الماضين، وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين وفدوا على معاوية أيضًا^(١)، والدرس البالغ الأهمية يظهر في أهمية التاريخ للسلاسة والحكام والملوك والزعماء، فالسياسى المستوعب لحركة التاريخ وسننه ينجح فى ميدان عمله أكثر من غيره، فهناك علاقة متينة بين التاريخ والسياسة.

٢ - اهتمام معاوية بالشعر واللغة:

كان معاوية رضى الله عنه يدرك أهمية الشعر، تواقًا له، ولم يغب عن حسه أهميته فى الدعاية السياسية للدولة، وكان يهتم بتربية أبنائه وأبناء أخيه على تعلم ومعرفة وتذوق الشعر، فقد كتب إلى زياد: أن أوفد إلى ابنك، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شيء إلا نفذ منه، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئًا، فقال له: ما منعك من تعلم الشعر، فقال: يا أمير المؤمنين إنى كرهت أن أجمع فى صدرى مع كلام الرحمن كلام الشيطان، فقال معاوية: اغرب؟ فوالله ما منعنى فى الفرار يوم صفين إلا ابن الاطنابة حيث قال:

أبت لى عفتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الريح
 وإعطائى على الإعدام مالى وإقدمى على البطل المشيخ
 وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريخى^(٢)

ثم كتب إلى أبيه أن روه الشعر، فرواه حتى كان لا يسقط عنه شيء منه^(٣)، وكان معاوية رضى الله عنه يتمثل بهذه الأبيات كثيرًا:

فما قتل السفاهة مثل حلم يعوذبه على الجهل الخليم
 فلا تسفه وإن ملئت غيظًا على أحد فإن الفحش لوم
 ولا تقطع أخًا لك عند ذنب فإن الذنب يغفره الكريم^(٤)

(١) التاريخ العربى والمؤرخون (٩٥/١)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٥٥).

(٢) البداية والنهاية (٤٢٦/١١) .

(٣) الدولة الاموية المفترى عليها، ص (٤٥٧).

(٤) البداية والنهاية (٤٤٢/١١) .

ومن اهتمام معاوية بالشعر حفظه له، فقد دخل ذات يوم على معاوية في مجلسه ابن أبي محجن الثقفي، فقال له معاوية: أبوك الذي يقول:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تُروى عظامي بعد موتي عروقتها
ولا تدفنتي بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أدوقها

فقال ابن أبي محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره، قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تسأل الناس: مالي وكثرته وسائل القوم ما حزمي وما خلقي
القوم أعلم أنى من سرااتهم إذا تطيش يد الرعدة الفرق
قد أركب الهول مسدولاً عساكره وأكتم السرّ فيه ضربة العنق
وهو القائل:

إن يكن وليّ الأمير فقد طاب منه النجل والأثر
فيكم مستيقظ فهم قُلُقُلانٌ حَيَّةٌ ذكرُ
أحمد الله إليك فما وصلة إلا استنبت^(١)

وكان الشاعر مسكين الدارمي من المقربين من معاوية وابنه، فقد ساء، معاوية عنه عطار بن حاجب، وقال له: ما فعل الدارمي الصبيح الوجه، الفصيح اللسان - يعني مسكيناً؟ فقال: صالح يا أمير المؤمنين، قال: أعلمه أنى قد فرضت له، فله شرف بالعطاء وهو في بلاده، فإن شاء أن يقيم بها أو عندنا فليعمل، فإن عطاء سيأتيه، وبشره بأنى قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خندف^(٢)، وهذا الشاعر هو القائل في معاوية رضى الله عنه:

إليك أمير المؤمنين رحلتها تُشير القطا ليلاً وهن هجود
على الطائر الميمون والجدّ صاعد لكل أناس طائر وجدود
إذا المنبر الغربي خلّى مكانه فإن أمير المؤمنين يزيد^(٣)

(٢) تاريخ دمشق (٢٠/٣٩، ٤٠).

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/٤٢٤).

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/٥٤٤).

ويقال إن معاوية أمر مسكين الدارمي أن ينظم قصيدة في البيعة ليزيد، وبعد أن أنشد قصيدته - وكان بنو أمية وأشرف الناس حاضرين - لم يتكلم أحد من بنو أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة. . ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته^(١)، ويعتبر مسكين الدارمي من شعراء عهد معاوية، ومن ترك أبياتاً جميلة منها قوله:

وإذا الفاحش لاقى فاحشاً	فهناكم وافق الشن الطبق
إنما الفُحُشُ ومن يعتاده	كغراب السوء ما شاء نعق
أو حمار السوء إن أشبعته	رمح الناس وإن جاع نهق
أو غلام السوء إن جوعته	سرق الجار وإن يُشبع فسق
أو كغَيْرِي رَفَعَتْ مِنْ ذَيْلِهَا	ثم أرخته ضِراراً فأمزق
أيها السائلُ عمنَّ قد مضى	هل جديد مثل ملبوس خَلَقَ ^(٢)

وهو القائل:

نارى ونارُ الجارِ واحدة	وإليه قبلى تُنزلُ القِدرُ
ما ضرَّ جاراً لى أُجاره	ألاً يكون لبابه سترُ
أعمى إذا ما جارتى برزت	حتى يغيب جارتى الخدر ^(٣)

وكان معاوية -رضى الله عنه- يستنكر اللحن فحين أرسل زياد بن أبيه والى العراق ابنه عبيد الله إلى معاوية بن أبي سفيان لحن في كلامه، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت ولكن قوم من لسانه^(٤)، ولما ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في ميراث، فقال: أن أبونا لما مات وثب أخينا على مال أبانا فأكله، فأفأ زياد فقال: الذى أضعت من لسانك أضرتُّ عليك مما أضعت من مالك^(٥)، وقد برز في البصرة في عهد معاوية كثير من النحويين فكان أبو الأسود الدؤلى أول من وضع أساس

(١) الأغاني للأصفهاني نقلاً عن الحياة العلمية في العراق، ص (١١٠).

(٢) الشعر والشعراء (٥٤٤/١) . (٣) المصدر نفسه (٥٤٥/١) .

(٤) البيان والتبيين (٢/٢١٠)، الحياة العلمية في العراق، ص (١١٠).

(٥) البيان والتبيين (٢/٢٢٢).

النحو في البصرة، وكان أول من استنَّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، فكان سراة الناس يلحنون وكذلك وجوه الناس، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحرف الجر والرفع والنصب والجزم^(١)، وألف كتاباً في النحو^(٢)، وكان شاعراً، ومن أشهر أبياته قوله:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام وذى الظنا كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا أبداً وأنت من الرشاد عديم
أبدأ بنفسك فأنهها عن غيرها فإذا انتهت عنه، فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويهتدى بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم^(٣)

وله في الزهد المبرأ من الكسل كقوله:

وإذا طلبت من الحوائج حاجة فداع الإله وأحسن الأعمال
فليعطيك ما أراد بقدرة فهو اللطيف لما أراد فعالا
ودع العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقلب الأحوال^(٤)
٣ - اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية:

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم، وكان لابد - للإفادة من ذلك التراث - من ترجمته ونقله إلى العربية، بعد أن غدا تراثاً تقليدياً تداولته أيدي الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية^(٥)، وقد كان بعض هذه الترجمات حافظاً على الاهتمام بالعلوم التجريبية، وربما كان العكس صحيحاً أحياناً. . ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه

(١) طبقات النحويين، الزبيدي، ص (٢١)، الحياة العلمية في العراق، ص (١٠٤).

(٢) الشعر والشعراء (٧٢٩/٢). (٣) الأدب الإسلامي وتاريخه، عابد الهاشمي (١٧/٢).

(٤) المصدر نفسه (١٧/٢)، ديوان أبي الأسود الدؤلي.

(٥) تاريخ سوريا، فيليب حتى، (١٣٢/١)، الدولة الأموية، شاهين، ص (٤٥٩).

إمكانات الأفراد العاديين، ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة -على نحو ما سنرى بإذن الله- كانت بداياتها في عهد معاوية، فقد كان سابقاً إلى رعاية العلوم وأهلها؛ فأنشأ بيتاً للحكمة، أى مركز للبحث ومكتبة، واستمر المروانيون يعنون بهذا البيت حتى فى أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به^(١).

ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أثال النصرانى طبيب معاوية فى نقل بعض معارف الطب إلى العربية، على أن بداية الجهود الحقيقية فى الترجمة بدأت مع خالد بن يزيد أول من عنى بنقل الطب والكيمياء إلى العربية^(٢)، فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانيين ممن درسوا بمدرسة الأسكندرية فى مصر وتفصحوا بالعربية كذلك، فطلب منهم نقل كثير من الكتب من اللسان اليونانى والقبطى إلى اللسان العربى، وكان هذا أول نقل فى الإسلام^(٣)، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس فى الطب، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية، وهو أول من أعطى الترجمة والفلسفة، وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة، وترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء، والحروب والآلات والصناعات، وهو أول من جمعت له الكتب وجعلها فى خزانة الإسلام، ففى دمشق أنشئت أول دار للكتب فى العالم الإسلامى^(٤). وقد ظهرت دلائل كثيرة تدل على تزايد عدد المشتغلين فى الطب فى عهد معاوية بحيث أصبحت النسبة طبيياً لكل خمسمائة وأربعة وثلاثين فرداً، وهذه النسبة تم أخذها مما أورده ابن كثير من أن زياد بن أبيه والى البصرة حينما طعن فى يده جمع مائة وخمسين طبيياً ليداووه^(٥)، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفاً تقريباً^(٦).

(١) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (٣٤٨).

(٢) عيون الأبناء فى طبقات الأطباء، ابن أبى أصيبعة، ص (١٧١٧).

(٣) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٦٠).

(٤) خطط الشام (٤/٢٣، ٢٤)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٦٠).

(٥) البداية والنهاية (١١/٢٦١).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٥٥).

المبحث الرابع

الخوارج فى عهد معاوية

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم فى معركة صفين، وكانوا قبلها من أشد أنصار على بن أبى طالب رضى الله عنه وحضروا معه موقعة الجمل وصفين، ولكنهم انشقوا عليه بعدها، ورفضوا التحكيم، وحاول على إقناعهم وردهم إلى الجماعة ولكنهم تشبثوا بموقفهم، وبالغوا فى شقاقهم وتطرفوا، حتى عاثوا فى الأرض فساداً، مما جعل علياً يقاتلهم ويقضى على معظمهم فى معركة النهروان، وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج، لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام، وعلى جماعة المسلمين، أما هم فيسمون أنفسهم الشراة، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى، على أن لهم الجنة يشيرون بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ [التوبة: ١١١]. ويسمون المحكمة، لأنهم قالوا: لا حكم إلا لله، وكان يطلق عليهم أيضاً الحرورية، نسبة إلى قرية حروراء التى انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على على^(١)، ولما كان سبب خروجهم هو قبول على التحكيم بينه وبين معاوية رضى الله عنهما، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية فى الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة^(٢)، المبدأ الأول: أن الخلافة ليست وفقاً على قريش كما يذهب أهل السنة^(٣)، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلاً لها -حتى ولو كان عبداً حبشياً- ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين، وأنه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها، أو يقبل التحكيم، وفى ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبى بكر وعمر، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته فى شرطها الأول، ثم تبرؤوا منه وكفروه فى بقية عهده، وأما على فقد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته بل كفروه^(٤)، وكذلك لم

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٤).

(٢) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء، ص (٥٧).

(٣) الدولة الأموية فى المشرق، محمد النجار، ص (٨٧). (٤) مقالات الإسلاميين (١/١٥٦-١٨٩).

يعترفوا بخلافة معاوية وبنى أمية^(١)، وكفروهم، كما كفروا عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري. وعلى الجملة كفروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين، واعتبروا دارهم دار كفر، وأباحوا أموالهم ودماءهم، حتى قتل أطفالهم^(٢). المبدأ الثاني الذى قامت عليه نظرية الخوارج: هو وجوب الخروج على الإمام الجائر^(٣)، وهنا وجه الخطورة فى حركتهم كلها، فلو اقتصرنا على الخلاف النظرى فى رأى، أو الجدل بالحجة والبرهان، لكان الأمر أهون، ولكنهم شهروا السلاح فى وجه مخالفينهم، بدءاً من على بن أبى طالب رضى الله عنه، وحاولوا فرض آرائهم ومذهبهم بالقوة، كما تطرفوا إلى أبعد حد فى الرأى والمذهب، فقد تطرفوا فى اللجوء إلى القوة والعنف، وكبدوا الأمة وأنفسهم خسائر فادحة، وعكروا صفو الدولة الأموية، وكانوا من أشد مناوئها^(٤)، وقد تحدثت عن الخوارج بنوع من التفصيل فى كتابى «أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب شخصيته وعصره»^(٥)، وذكرنا قبل قليل أن خطورة حركة الخوارج تكمن فى لجوئهم إلى الثورة والعنف، ولشدة إيمانهم بمبادئهم فقد ضحوا فى سبيلها بأرواحهم، وأبدوا كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام فى حروبهم مع الدولة الأموية، وكانوا أشبه بالفرق الانتحارية، فكثيراً ما كانت أعداد قليلة منهم تهزم جيوشاً جرارة للدولة، ولو أن هذه الشجاعة والإقدام والتضحية اتجهت اتجاهاً سليماً، ووحد الخوارج جهودهم مع جهود الدولة فى محاربة أعداء الإسلام لربما تغير وجه التاريخ الإنسانى كله بشكل جذرى، والحقيقة أنهم لم يكونوا طلاب دنيا، ولم يجروا وراء المادة، وإنما أخلصوا للفكرة التى آمنوا بها وملكت عليهم جوانب حياتهم^(٦)، وأفنوا أنفسهم، وكلفوا الأمة الكثير من الجهد والوقت والمال والأرواح، وإذا كان الخوارج قد خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب وكفروه وحاربوه، فسيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف، وبغضهم لها أشد، فقد شهروا السلاح فى وجهها من أول لحظة، فثاروا على معاوية رضى الله عنه قبل أن يغادر الكوفة عام ٤١هـ^(٧).

(١) الدولة الأموية فى المشرق، ص (٨٧).
(٢) مقالات الإسلاميين (١/١٥٩ - ١٨٩).
(٣) النظريات السياسية الإسلامية، ص (٥٧).
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٥).
(٥) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على، ص (٦٣٣).
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٨).
(٧) المصدر نفسه، ص (٤٥٨)، تاريخ خليفة ص (٢٠٣، ٢٠٤).

أولاً: حركات الخوارج فى الكوفة:

١ - حركة فروة بن نوفل الأشجعى: قال الطبرى فى حوادث عام ٤١هـ: وفيها خرجت الخوارج - التى اعتزلت أيام على عليه السلام بشهرزور -^(١) على معاوية^(٢)، وقال: حدثت عن زياد، عن عوانه، قال: قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة، فقالت الحرورية^(٣)، الخمسمائة الذين كانوا اعتزلوا بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعى - : قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منا، أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله، وإن أصبنا كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهر^(٤)، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، وأخذت أشجع صاحبهم فروة بن نوفل - وكان سيد القوم - واستعملوا عليهم عبد الله بن أبى الحر^(٥) - رجلاً من طيء - فقاتلوهم فقتلوا^(٦). وفروة بن نوفل الأشجعى هو القاتل قبيل معركة النهروان: والله ما أدرى على أى شىء نقاتل علياً، لا أرى إلا أن انصرف حتى تنفذ لى بصيرتى فى قتاله أو اتباعه، وانصرف فى خمسمائة فارس^(٧). وذكر ابن حجر رواية هامة تبين موقف معاوية رضى الله عنه من الخوارج بعد توليه الخلافة، وفيما يلى نص رواية ابن حجر: . . . فرجع الناس فبايعوا معاوية، ولم يكن

(١) شهرزور: كورة واسعة تقع بين إربل وهمذان، أهلها أكراد، وهى فى العراق اليوم: معجم أماكن الفتوح، ص (٧٤١).

(٢) تاريخ الطبرى (٦/٨١).

(٣) الحرورية: هم الخوارج، وحروراء قرية بظاهر الكوفة، نزل فيها الخوارج الذين خالفوا علياً رضى الله عنه، فنسبوا إليها، معجم البلدان (٢/٢٤٥).

(٤) تاريخ الطبرى: (٦/٨١).

(٥) كان ممن اعتزل قتل على يوم النهروان، أنساب الأشراف (٤/١٦٤).

(٦) أنساب الأشراف (٤/١٦٤). (٧) مرويات خلافة معاوية، ص (١٨٢) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

لمعاوية هم إلا الذين بالنهروان^(١)، فجعلوا يتساقطون عليه فيبايعونه، حتى بقي منهم ثلاثمائة أو نيف^(٢)، وهم أصحاب النخيلة^(٣).

٢- حركة المستورد بن علفة التيمي^(٤): تحدث الطبرى فى تاريخه عن حركة المستورد بن علفة التيمي بإسهاب وتفصيل بعكس أكثر المصادر التى تناولت هذا الحدث، حيث تحدث خليفة^(٥) بن خياط عن هذه الحركة باختصار شديد، وقد أطل الطبرى الحديث عن حركة المستورد بن علفة التيمي، ولعل ذلك إشارة منه لأهميتها، وأهمية هذه الحركة تعود إلى كون أصحابها يمثلون الامتداد الطبيعى لفكر خوارج النهروان الذين قاتلهم على رضى الله عنه، إذ أن معظم المنتسبين إلى هذه الحركة كانوا فى خندق واحد فى معركة النهروان، وهذا الأمر هو الذى دفع المغيرة ابن شعبة والى الكوفة إلى اللجوء إلى أنصار على رضى الله عنه، وخاصة الذين شاركوا فى معركة النهروان من أمثال معقل بن قيس الرياحى الذى كان أحد قادة على يوم النهروان^(٦)، وتكليفه قيادة الحملة المتوجهة لقتال الخوارج، لأن أنصار على رضى الله عنه هم أخير الناس بالخوارج وأشدهم عليهم، وما جاء من مرويات فى تاريخ الطبرى قدمت لنا تفاصيل هامة عن الحدث، منها:

أ- موقف الخوارج من استشهاد على رضى الله عنه، ويستفاد هذا من قول الخوارج: .. لا يقطع الله يميناً علت قذاله^(٧) بالسيف؛ قال: فأخذ الفوم يحمدون الله على قتله^(٨).

ب- أسباب خروجهم على جماعة المسلمين: ويستفاد هذا من قول الخوارج: فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا فى القعود، وولاتنا ظلمة، وسنة الهدى متروكة، وثأرنا الذين قتلوا إخواننا فى المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التى هى أهدي وأرضى وأقوم، ويشفى الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نقتل فإن فى مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة^(٩).

(١) أى الخوارج . (٢) النيف: من واحد إلى ثلاثة، القاموس المحيط، ص (١١١).

(٣) سمووا بذلك لأنهم قتلوا فى النخيلة، معجم البلدان (١٨٥/٢).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/٨٧ - ٩٢). (٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٨٩).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٠). (٧) القذال: مؤخرة الرأس، القاموس المحيط، ص (٧٧٤).

(٨) تاريخ الطبرى (٦/٨٨). (٩) المصدر نفسه (٦/٨٩).

ج - سياسة المغيرة بن شعبة رضى الله عنه مع الخوارج: ويستفاد هذا مما يلي: وأحسن في الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى ويقال له: إن فلاناً يرى رأى الشيعة، وإن فلاناً يرى رأى الخوارج، وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون^(١). وقال المغيرة لقبیصة بن الدمون: الصق لى بشیعة على، فأخرجهم مع معقل بن قيس، فإنه كان من رؤوس أصحابه، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون فاجتمعوا جميعاً، استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة، وأجرأ عليهم من غيرهم، وقد قاتلوا قبل هذه المرة^(٢). قال المغيرة: يا معقل بن قيس، إنى قد بعثت معك فرسان أهل مصر، أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا، وشهدوا عليها بالكفر، فادعهم إلى التوبة، وإلى الدخول فى الجماعة، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم^(٣).

د - حركة حيان بن ظبيان السلمى: ظهرت هذه الحركة عام ٥٨هـ، وكانت فى ولاية عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبى سفيان، ففى أثناء ولايته خرجت الطائفة الذين كان المغيرة بن شعبة حسبهم فى السجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد بن علفة، فظفر بهم فاستودعهم السجن^(٤)، فلما مات خرجوا من السجن، وقاموا بحركة مضادة للخلافة، وكان رئيسهم حيان بن ظبيان السلمى، فبعث إليهم والى الكوفة جيشاً فقتلوا الخوارج جميعاً^(٥).

ثانياً: حركات الخوارج فى البصرة:

١ - حركة يزيد الباهلى وسهم الهجيمى: فى عام ٤١هـ خرج فى ولاية عبد الله ابن عامر لمعاوية، يزيد بن مالك الباهلى، وخرج معه سهم بن غالب الهجيمى، فأصبحوا عند الجسر، فوجدوا عبادة بن قرص الليثى - أحد بنى بجر - وكانت له

(١) تاريخ الطبرى (١٩/٦).

(٢) مرويات خلافات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٩٢)، (تاريخ الطبرى (١٠٥/٦)).

(٣) تاريخ الطبرى (١٠٦/٦). (٤) المصدر نفسه (٣٢٦/٦).

(٥) البداية والنهاية (٣١٣/١١).

صحة - يصلى عند الجسر، فأنكروه فقتلوه، ثم سألوا ابن عامر الأمن فأمنهم، وكتب إلى معاوية: قد جعلت لهم ذمتك، فكتب إليه معاوية: تلك ذمة لو أخفرتها لا سُئلت عنها، فلم يزالوا آمنين حتى عزل ابن عامر^(١). وفى عام ٤٦هـ خرج سهم الهجيمى والخطيم وهو يزيد بن مالك الباهلى لما تولى زياد، فأما سهم فخرج إلى الأهواز فأحدث وحكم ثم رجع فاخفى وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه، وأما الخطيم فإن زياداً سيره إلى البحرين، ثم أذن له فتقدم، فقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو الباهلى^(٢): اضمنه، فأبى وقال: إن بات خارج بيته أعلمتك، ثم أتاه مسلم فقال: لم بيت الخطيم الليلة فى بيته فأمر به فقتل، وألقى فى باهلة^(٣).

٢ - حركة قريب الأزدي وزحاف الطائى: فى عام ٥٠هـ خرج قريب الأزدي وزحاف الطائى بالبصرة وهما ابنا خالة، وزياد بالكوفة وسمره^(٤) على البصرة، فأتيا بنى ضبيعة، فى سبعين رجلاً، وقتلوا منهم شيخاً، وخرج على قريب وزحاف شباب من بنى على وبنى راسب فرموهم بالنبل، وقتل عبد الله بن أوس الطاحى قريباً وجاء برأسه، واشتد زياد على المنبر فقال: يا أهل البصرة والله لتكفنتى هؤلاء أو لأبدأن بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوهم^(٥).

٣ - خبر عروة بن أديه الخارجى: فى سنة ٥٨هـ اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، وفى الحرب جماعة أخرى، وممن قتل منهم صبراً عروة بن أديه أبى بلال مرداس بن أديه^(٦)، وكان سبب قتله أن ابن زياد قد خرج فى رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع إليه الناس وفيهم عروة، فأقبل على ابن زياد يعظه، وكان مما قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠].

(٢) عمرو الباهلى والد قتيبة الفاتح الكبير .

(١) الكامل (٢/ ٤٥٤).

(٣) الكامل (٢/ ٤٧٧).

(٤) سمره بن جندب الفزارى صحابى، مات بالبصرة سنة ٥٨هـ، الاستيعاب (٢/ ٦٥٣).

(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٠).

(٥) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٢).

فلما قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يقل ذلك إلا ومعه جماعة، فقام وركب وترك رهانه. فقيل لعروة: ليقتلنك، فاخترتني، فطلبه ابن زياد فهرب وأتى الكوفة فأخذ وقدم به على ابن زياد فقطع يديه ورجليه^(١). ثم دعا به فقال: كيف ترى؟ قال: أرى أنك أفسدت دنيای وأفسدت آخرتك، فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها^(٢) بسبب اعتناقها مذهب والدها^(٣). وذكر المبرد في كتابه الكامل في اللغة سببين هاميين كان لهما أثر كبير في مقتل عروة بن أدية، الأول: تكفير هذا الخارجي لعثمان وعلى رضی الله عنهما، والثاني: إقدامه على مساعدة أخيه مرداس بن أدية على الخروج^(٤).

٤ - حركة مرداس بن أدية: وفي عام ٥٨ هـ خرج مرداس بن أدية بالأهواز، وكان ابن زياد قبل ذلك حبسه فيمن حبس من الخوارج، فكان السجنان يرى عبادته، واجتهاده، وكان يأذن له في الليل، فينصرف، فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن، وكان صديق لمرداس يسامر ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج فعزم على قتلهم، إذا أصبح، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبرهم، وقال: أرسلوا إلى أبي بلال في السجن فليعهد فإنه مقتول، فسمع ذلك مرداس، وبلغ الخبر صاحب السجن، فبات بلبلة سوء إشفافاً من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع، فلما كان الوقت الذي كان يرجع فيه إذا به قد طلع، فقال له السجنان: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: نعم، قال: ثم غدوت! قال: نعم، لم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب بسببي، وأصبح عبيد الله فجعل يقتل الخوارج، ثم دعا مرداس، فلما حضر وثب السجنان - وكان ظئراً^(٥) لعبيد الله - فأخذ بقدمه، ثم قال: هب هذا، وقص عليه قصته، فوهبه له وأطلقه^(٦). وقد أشار البلاذري إلى أن عزم عبيد الله بن زياد على قتل من في السجن من الخوارج كان بسبب إقدام بعضهم على قتل أحد الحراس^(٧). ثم أن مرداس خاف ابن زياد فخرج في أربعين

(١) الكامل في التاريخ (٢/٥١٧).

(٢) أنساب الأشراف (٤/٣٨٧، ٣٨٨)، تاريخ الطبري (٦/٢٣٠).

(٣) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٠٤).

(٤) الكامل في اللغة (٣/١٠٩٨)، نقلاً عن مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص (٢٠٥).

(٥) أي زوج مرضعته، لسان العرب (٤/٥١٥).

(٦) تاريخ الطبري (٦/٢٣١).

(٧) أنساب الأشراف (٤/١٨١).

رجالاً إلى الأهواز، فكان إذا اجتاز به مال لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثم يرد الباقي، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشاً عليهم أسلم ابن زرعة الكلابي سنة ستين، وقيل: أبو حصين التميمي، وكان الجيش ألفي رجل، فلما وصلوا إلى أبي بلال ناشدهم الله أن يقاتلوه فلم يفعلوا، ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة، فقالوا: أتردونا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحاب أسلم رجلاً من أصحاب أبي بلال فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدأكم بالقتال. فشد الخوارج على أسلم وأصحابه شدة رجل واحد فهزموهم فقدموا البصرة، فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت في ألفين، لا خيرَ فيك. فقال: لأن تلومني وأنا حي خير من أن تنسى عليّ وأنا ميت، فكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به: أما أبو بلال ورائك! فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم فانتهوا^(١). فهذه أهم حركات الخوارج في عهد معاوية.

ثالثاً: أهم الدروس والعبر والقوائد:

أهم الدروس والعبر والقوائد في محاربة معاوية للخوارج:

١ - إن الناظر في سلوك الخوارج زمن معاوية يجد أن خروجهم في ذلك العهد كان يستهدف إزعاج نظام حكم بنى أمية وإضعافه، دون أن يكون لهم أمل في القضاء عليه^(٢).

٢ - كانت بعض هذه الحركات مقتصرة على المجموعات المنسحبة من التهران والتي ظلت مشتتة في الأرياف، وعدم وجود ما يشير إلى مشاركة الخوارج المقيمين في الكوفة فيها، وهو ما يؤكد عدم حصول تحوّل في موقف هؤلاء رغم التغيير الذي طرأ على السلطة^(٣).

٣ - ومن الملاحظات ما يخصّ الكوفيين الذين أبدى العديد منهم حماساً في محاربة الخوارج، وإذا كنا نعتقد أن تهديدات معاوية وعداء بعض الكوفيين للخوارج بسبب موقفهم من عليّ قد لعبت دوراً في دفع هؤلاء إلى المشاركة في قمع الثائرين، فإننا لا نستبعد أن تكون الرغبة الملحة في إنهاء الحروب والانقسامات

(١) الكامل في التاريخ (٥١٨/٢).

(٢) الخوارج في العصر الأموي، نايف معروف، ص (١٣٠).

(٣) حركة الخوارج، لطيفة البكاي، ص (٦٠).

والعودة إلى الوحدة قد ساهمت بدورها في دفع الكوفيين إلى مساعدة معاوية في القضاء على هؤلاء المعارضين، رغم يقينهم أنهم سيفقدون مع الحكم الجديد امتيازاتهم، وسيفقد مصرهم المكانة التي كان يتمتع بها في خلافة علي^(١).

٤ - كان معاوية رضى الله عنه على وعى تام بحقيقة المعارضة الخارجية وموقفها من السلطة، ومن شخصه بالذات، ولذلك لم يعمل على جلب الخوارج إلى صفه، وقرّر منذ اللحظة الأولى التصدى لهم بالقوة^(٢).

٥ - لم يتردد المغيرة بن شعبه في محاربة الخارجين على السلطة بالشرطة والجيش، ولم يقتصر استعمال القوة على الثائرين، بل شمل حتى الذين بلغه أنهم ينوون الخروج مثل معين بن عبد الرحمن المحاربي، وحيان بن ظبيان السلمى وغيرهما، وهو ما يدل على أن المغيرة كان يقوم بمراقبة تحركات الخوارج داخل المصر، ويتجسس عليهم وينزل عقوباته بهم تبعاً لما يصله عنهم من أخبار^(٣).

٦ - أهم وأخطر ما قام به المغيرة رضى الله عنه هو استعماله أنصار على رضى الله عنه ضد الخوارج، مستفيداً من العداوة التي كانت بينهم، وهو عمل استفادت منه الدولة الأموية على المدى القريب والبعيد، فعلى المدى القريب، حاصر المغيرة بأعماله الفكر الخارجى فى الكوفة، وأسكت المعارضين الموجودين فيها دون أن يكلف الدولة خسارة تُذكر،.. فضلاً عن أنه شغل الكوفيين عن معارضة الدولة الأموية وأعطاهما بذلك الفرصة لتدعيم نفوذها^(٤). أما على المدى البعيد فقد عمق المغيرة الهوة بين الخوارج والشعبة، وأبعد إمكانية التقارب بين هاتين الحركتين لفترة طويلة، مجنباً بذلك الدولة الأموية خطر مواجهة معارضة موحدة وقوية، غير أن ما قام به المغيرة تجاه المعارضة فى الكوفة لم يكن سوى تطبيق لأوامر الخليفة نفسه مع بعض الاجتهادات التي رأى أنها تخدم الدولة أكثر^(٥). . . . وأما أنصار أمير المؤمنين على رضى الله عنه وخاصة الزعماء منهم، فقد عملت الدولة الأموية على تقريبهم وكسبهم، ولذلك سلك المغيرة سياسة اللين معهم وهو ما ضمن الهدوء فى الكوفة طيلة ولايته عليها^(٦).

(٢) المصدر نفسه، ص (٦٦).

(٤) المصدر نفسه، ص (٦٥).

(٦) المصدر نفسه، ص (٦٦).

(١) حركة الخوارج، لطيفة البكاي، ص (٦٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٦٦).

٧- مع تولى زياد البصرة تصاعدت عمليات القمع ضد الخوارج، فبالإضافة إلى القتل كان زياد يمثل بالمقتولين فيصلبهم في الأماكن العامة، أو في دورهم، وقد شمل التمثيل الخارجيين من الرجال والنساء، ورغم أن التمثيل يعد من الأعمال البشعة التي نهى رسول الله ﷺ عن القيام بها حتى مع الكفار، فإن زياداً استعمله مع المسلمين رجالاً ونساءً ليروع بقية السكان ويلزمهم الهدوء، ولم تكن العقوبات المسلطة على الخوارج مقتصرة على القتل والتمثيل والتسيير والإقامة الجبرية، بل شملت كذلك العطاء، وقد تجاوز زياد في هذا المجال من سبقه من الحكّام، إذ قام بشطب أسماء الخوارج من سجلات الديوان^(١).

٨- أقحم زياد بأعماله العنف في سياسة الدولة وجعله إحدى ركائزها، واعتبر أن مصلحتها تقتضى استعماله ضدّ كل الذين يرفضون الخضوع لسلطتها^(٢).

٩- أدت سياسة زياد - العنيفة - إلى إخماد تحركات الخوارج، وفرضت هبة الدولة على الجميع، وحوّلت القبائل إلى طرف له دور في سياستها، ومنحتها مهمة توفير الأمن داخل مصر، بعد أن كانت مهامها تقتصر على دفع الدية والتأطير العسكرى، إلا أنها أضعفت التضامن القبلي، وأفقدت القبيلة القدرة على حماية أبنائها الخارجيين على السُّلطة وأجبرتها على القبض عليهم ومعاقتهم أحياناً، ولئن نجح زياد في إخماد تحركات المعارضين وزرع الرعب في نفوس بقية سكان العراق، وتحويلهم من مقاتلة يتمتعون بقدر كبير من الحرية إلى رعية خاضعة كلياً لأجهزة الدولة، فقد فشل في خنق إرادة الخروج لدى قسم كبير من الخوارج، وهو ما يفسر عودة الانتفاضات في ولاية ابنه عبيد الله^(٣).

١٠- تجاوز عبيد الله بن زياد والده في قمع الخوارج، بفرضه العقوبات على الجميع، المعلن والمسر على حدّ السواء، وإذا كان القتل هو عقوبته المفضلة، فقد كان يعتمد أحياناً إلى سجن البعض منهم، كما كان يسمح أحياناً أخرى وتحت تأثير رجال القبائل بإطلاق سراح البعض الآخر، مع فرض الإقامة الجبرية عليهم، وتكليف من يقوم بعملية المراقبة التي كانت غالباً ما تنتهى بقتلهم لمخالفتهم الأوامر. . ولم يكن

(١) صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحى شعبان، ص (٩٩)، الخوارج، لطيفة البكّاي، ص (٧٠).

(٢)، (٣) حركة الخوارج، لطيفة البكّاي، ص (٧١).

ابن زياد ينتظر خروج الحرورية عليه بل كان يبحث عنهم مستعملاً كل الوسائل بما فى ذلك تشجيع السكان بالمال لتتبع تحركات أبناء قبائلهم، ونقلها إليه أو إلى أعوانه، وقد أدت هذه الطريقة إلى إلقاء القبض على العديد ممن يحمل هذا الفكر أو يتعاطف معه أو يُشبهه فيه ذلك، ولكنها فسحت فى الوقت نفسه المجال أمام الوشاية، وتلفيق التهم بالباطل^(٤)، فأججت بذلك الحزازات القبلية القديمة، وخلقت خلافات جديدة بين القبائل^(٥).

١١ - كانت السمات العامة لحركات الخوارج فى خلافة معاوية رضى الله عنه كالتالى:

- أ- اتسمت بالعشوائية والارتجال وقلة التنظيم.
- ب- كانت أشبه ما تكون بعمليات انتحار جماعى، لأنهم يخرجون بفئات قليلة لا تلبث أن تتأصل.
- ج- افتقارهم إلى قيادة واعية ومحكمة تستطيع استئثار شجاعتهم وفروسياتهم لتحقيق أهدافهم.
- د- تكرارهم لأخطاء بعضهم، وعدم استفادة كل حركة من تجربة سابقتها.
- هـ- استبعادهم لأسلوب الحوار والمناظرة فى عودتهم، ومحاولة فرض فكرهم على المجتمع المسلم بالقوة.
- و- اختلاط الدوافع الدينية التى دعيت للخروج - بزعمهم - مع دوافع العصبية الجاهلية فى حركاتهم، والتمثلة بخروج بعضهم ثأراً لمن قتل من أصحابهم.
- ز- شعورهم بالغرابة داخل المجتمع المسلم، ونفورهم منه، واقتناعهم أن قتال أهل القبلة أولى من جهاد الكفار.
- ح- عدم بحثهم عن أرض جديدة لنشر دعوتهم، واقتصرهم على بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة والبصرة.
- ط- سلوكهم طريقة منكورة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى طريقة الاستعراض، ومرد ذلك إلى الجهل بالدين وقلة العلم، لأن كثرة العبادة ليست

(٢) المصدر نفسه، ص (٧٤).

(١) حركة الخوارج، ص (٧٤).

دليلاً على فقه الرجل، وإلا لكان الخوارج أفقه أهل زمانهم^(١)، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(٢).

ى - وافتقارهم لطول النفس والصبر في مشروعهم التغييرى .

١٢ - شفاعة أبى بكره الثقفى لبعض الخوارج عند معاوية ونصيحته له: فى عام ٤١هـ وثب حمران بن أبان على البصرة، فأخذها وتغلب عليها، فبعث معاوية إليه جيشاً ليقتلوه ومن معه، فجاء أبو بكره الثقفى إلى معاوية، فسأله فى الصفح عنهم والعفو، فعفا عنهم وأطلقهم، وولّى على البصرة بسر بن أبى أرطأة^(٣) . . وقد قال معاوية لأبى بكره: هل من عهد تعهده إلينا؟ قال: نعم، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيّتك وتعمل صالحاً، فإنك قد تقلّدت عظيمًا، خلافة الله فى خلقه، فاتق الله، فإن لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، وأوشكت أن تبلغ المدى، فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عمّا كنت فيه، وهو أعلم به منك، وإنما هى محاسبة وتوقيف، فلا تُؤثرن على رضا الله شيئاً^(٤).

١٣ - استخدام العواطف فى حرب الخوارج: خرج حوثره بن وداع بن مسعود الأسدى على الدولة الأموية، فدعا معاوية أبا حوثره فقال له: اخرج إلى ابنك فلعله يرق إذا رآك، فخرج إليه وكلمه وناشده وقال: ألا أجيئك بابنك، فلعلك إذا رأيته كرهت فراقه؟ فقال: أنا إلى طعنة بيد كافر برمح أتقلب فيه ساعة أشوق منى إلى ابنى. فرجع أبوه فأخبر معاوية بقوله، فسير معاوية إليهم عبد الله بن عوف الأحمر فى ألفين، وخرج أبو حوثره فيمن خرج فدعا ابنه إلى البراز، فقال: يا أبة لك فى غيرى سعة. وقتلهم ابن عوف وصبروا، وبارز حوثره عبد الله بن عوف فطعنه ابن عوف فقتله وقتل أصحابه إلا خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك فى جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين، ورأى ابن عوف بوجه حوثره أثر السجود، وكان صاحب عبادة، فندم على قتله، وقال:

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢١٠).

(٢) البخارى مع الفتح (٢٠٣/١٢).

(٣) المصدر نفسه (١٥٠/١١).

(٤) البداية والنهاية (١٤٩/١١).

قتلت أخوا بني أسدِ سفاهاً
 قتلتي مصلياً محياً ليل
 قتلتي أخوا تُقي لأنال دنيا
 فهب لي توبة يا رب واغفر
 لعمراً أبي فما لُقيتُ رُشدى
 طويل الحزن ذا برٍ وقصد
 وذاك لشِقوتى وعِثارِ جدى
 لما قارفت من خطأٍ وعمد^(١)

رابعاً: من قصائد الخوارج فى عهد معاوية رضى الله عنه:

١ - ما قاله معاذ بن جوين بن الحصين فى سجن المغيرة بن شعبة:

ألا أيها الشارون قد حان لا مرىء
 أقمتهم بدار الخاطئين جهالة
 فشُدُّوا على القوم العُدَّةِ فإنما
 ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى
 فىا ليتنى فىكم على ظهر سابح
 ويا ليتنى فىكم أعادى عدوكم
 يعزّ على أن تخافوا وتُطردوا
 ولما يفرق جمعهم كلُّ ماجد
 مُشبحاً بنصل السيف فى حمس الوغى
 وعزّ على أن تصابوا وتُنقصوا
 ولو أننى فىكم وقصدوا لكم
 فىا ربّ جمع قد فللتُ وغارة
 شرى نفسه لله أن يترحلاً
 وكل امرىءٍ منكم يُصادُ ليُقتلا
 أقامتكم للذبح رأياً مضللاً
 إذا ذكرت كانت أبرُّ وأعدلا
 شديد القُصيرى دارعاً غيرَ أعزلا
 فىسقىنى كأس المنية أو لا
 ولما أُجرّد فى المُحلّين مُنصلاً
 إذا قلت قد ولّى وأدبر أقبلا
 يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
 وأصبح ذا بتٍ أسيراً مكبلاً
 أثرت إذا بين الفريقين قَسْطُلا
 شهدت وقرنٍ قد تركت مُجدلاً^(٢)

٢- ما قال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة عندما انتصر مرداس أبو بلال بن أدية من

بنى ربيعة، وكان فى أربعين رجلاً على جيش لعبيد الله بن زياد، حيث قال:

ألفاً مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بأسك^(٣) أربعونا

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٥٠)

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٤٥٠) .

(٣) أسك: بلد فى نواحى الأهواز: معجم البلدان (١/ ٥٣)

كذبتُم ليس ذاك كما زعمتم ولكنَّ الخوارج مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصروننا^(١)

وفى رواية أخرى نسبت قصيدة إلى عيسى بن فاتك قال فيها:

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجُرد العتاق مسومينا^(٢)
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجعائل يقتلوننا^(٣)
بقية يومهم حتى أتاهم سوادُ الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم بأن القوم ولوا هاربينا
ألَّفنا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعونا^(٤)

(١) تاريخ الطبرى (٦ / ٢٣١، ٢٣٢) . .

(٢) الجرد العتاق: الخيل الجياد الكريمة، مسومين: معلمين .

(٣) ذوو الجعائل: جنود بنى أمية المأجورون .

(٤) أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (٢٢٠) تقلا عن تهذيب الكامل (١/١٠٥) .

المبحث الخامس

النظام المالى فى عهد معاوية رضى الله عنه

أولاً: مصادر دخل الدولة :

١- الزكاة: وهى أهم مكونات النظام المالى الإسلامى، وذلك لكونها ثابتة بالكتاب والسنة، إذ يقول عنها سبحانه: ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، كما أجمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة، ومن ذلك اتفاق صحابة رسول الله ﷺ على قتال مانعيها فى عهد أبى بكر الصديق^(١)، وقد أسند إلى السلطان مهمة تحصيلها وإنفاقها، فقد كان رسول الله يجمعها ويقوم على تفريقها، وكذلك فعل أبو بكر وعمر، أما فى عهد عثمان لما كثرت الأموال فقد رأى أن يفوض الممولين فيما يتعلق بالأموال الباطنة كالوكلاء عن الإمام^(٢)، أما الأموال الظاهرة كالزروع والمواشى ونحوها، فقد استمرت الدولة فى جبايتها وإنفاقها، وقد ورد عن أبى بكر وعثمان بن عفان أنهما كانا يأخذان زكاة المال من عطاء الرجل^(٣). ثم اختلف بعد مقتل عثمان هل تدفع الزكاة إلى الولاة أم لا^(٤)، وهذا الخلاف بشأن الأموال الباطنة، أما الأموال الظاهرة فظلت تحصلها الدولة، وهذا يدل على سبب نقص حصيلة الزكاة بشكل عام فى العصر الأموى، لامتناع جماعة من الناس عن دفعها للولاة، وتفريقها بمعرفتهم، عدا عهد عمر بن عبد العزيز الذى ما إن سمع الناس بولايته حتى سارعوا إلى دفعها للدولة^(٥). كما أعاد كذلك أخذ الزكاة من العطاء^(٦)، أى بالخصم عند المنبع، وهكذا يعكس تعاضم دور الزكاة كأحد مكونات الإيرادات العامة إبان عهد عمر بن عبد العزيز، ولا يعنى

(١) المغنى والشرح الكبير (٢/٤٣٤)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٤).

(٢) بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع للكسانى، ك الزكاة (٢/٨٢٠).

(٣) الأموال، لأبى عبيد القاسم بن سلام، ص (٣٧٢، ٣٧٣). (٤) المصدر نفسه، ص (٥٠٤ - ٥١١).

(٥) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٠٤)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٥)،

عصام الجفرى.

(٦) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى، ص (٤٢٦).

هذا إغفال دورها الهام طيلة العصر الأموي، فبالرغم من عدم توافر أرقام عنها إلا أن الدلائل تشير إلى كبر أهميتها، وذلك لأنها كانت تحصل من قطاعين رئيسيين من قطاعات الاقتصاد الأموي، هما الزراعة وقطاع التجارة خاصة في ظل نظام العشور^(١)، ومنها أيضاً وجود ديوان خاص يسمى ديوان الصدقات^(٢)، وهو الديوان الذي يتولى النظر في أمور الزكاة والصدقات التي تجبى من القادرين والتمكين مالياً ل يتم توزيعها على مستحقيها في الوجوه الشرعية التي ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة^(٣)، وأشار إليه الجهشيارى أول مرة في خلافة هشام بن عبد الملك، ويذكر أن إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب كان يتقلد ديوان الصدقة للخليفة هشام بن عبد الملك.

وقد يعود عدم وجود أرقام عن حصيلة الزكاة لعدم تسجيل مقادير تلك الصدقات، إذ كانت تدفع جميعها أو معظمها في الحال إلى مستحقيها^(٤)، وبصفة عامة يمكن القول إن نظام الزكاة كان مطبقاً في العهد الأموي وفقاً للأسس الشرعية الخاصة به، وأن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كان في عهد عمر بن عبد العزيز حيث وثق الشعب في الدولة نتيجة حرصها على تطبيق الإسلام كواقع عملي، فسارع إلى دفع الزكاة إليها، وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيف لتكاليف جباية الزكاة وزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نمواً ملحوظاً في حصيلة الزكاة^(٥).

٢- الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة، وهي ضريبة على الذمي المستوفى لشروطها مقابل الدفاع عنه، وكانت تمثل أحد الموارد الثابتة للدولة الأموية، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. وهي ثابتة في السنة لما قاله المغيرة بن شعبة لترجمان عامل كسرى: .. فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو

(١) الخراج، ص (٢٧١، ٢٧٢).

(٢) النظم الإسلامية، أنور الرفاعي، ص (٨٢، ٨٣).

(٣) الدواوين في العصر الأموي، نجم المسعودي، ص (٦١).

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٦٦).

(٥) المصدر نفسه، ص (٦٦).

تؤتوا الجزية^(١). وهى ثابتة أيضاً بالإجماع^(٢). ولم يصف الأمويون شيئاً يذكر بالنسبة لتنظيم الجزية، ويمكن القول بأن جبايتها خضعت لما استقر عليه تنظيمها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمن حيث ضوابطها تمثلت فى: تحديد الشريحة التى تؤخذ منها الجزية متمثلة فى الذكور العقلاء البالغين^(٣)، ثم تحديد الفئات المعفاة منها: وهم: الصبيان والنساء، المرضى المزمنون، العبيد، المجانين، العميان، الشيوخ، الرهبان الذين لا مورد لهم^(٤)، وكذلك مراعاة مستوى دخل الممول يساراً وإعساراً، حيث كانت تفرض على الفرد الغنى (٤٨) درهماً سنوياً، وعلى المتوسط (٢٤) درهماً سنوياً، وعلى ما دون ذلك (١٢) درهماً سنوياً بشرط أن يكون ذا حرفة^(٥)، وأما عن تصنيفها فىمكن تقسيم الجزية وفق المعيارين التاليين:

أ- معيار المسئولية: وطبقاً له تنقسم الجزية إلى فردية وجماعية، فالجزية الفردية هى التى تفرض على كل ذمى مستوف لشروطها فى صورة مبلغ محدد يسقط عنه حالة إسلامه، أما الجماعية أو المشتركة فكانت تتم بوضع مبلغ إجمالى معين على أهل القرية أو المدينة، ثم يتولون هم توزيعه بين أفرادهم، ومثالها من عهد النبى ﷺ صلحه ﷺ لأهل أذرح على مائة دينار فى كل رجب^(٦)، وكان غالب الجزية فى العصر الأموى من هذا النوع^(٧).

ب- معيار النقدية والعينية: وطبقاً له انقسمت الجزية إلى ثلاثة أقسام: جزية نقدية، جزية عينية، جزية مشتركة، وكانت جميع أصناف الجزية معمولاً بها فى العصر الأموى، ولم يوجد ما يشير إلى الخروج عن ذلك، وخاصة أن الشريعة الإسلامية تقتضى بالالتزام بعقود الصلح، والوفاء بها، لكن هذا لم يمنع من خروج بعض الولاة أحياناً عن الضوابط الشرعية^(٨)، وبالنسبة لحجم غلة الجزية ونسبتها إلى إجمالى الإيراد الكلى للدولة فهذا مما يصعب تحديده، لكن هناك

(٢) المغنى، ك الجزية (١٠/٥٦٧).

(١) فتح البارى (٦/٣١٧).

(٤) الأحكام السلطانية، ص (١٤٤).

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٦).

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٧١).

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٧).

(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٧).

(٨) المصدر نفسه، ص (٦٨) ومن أراد التوسع فليظنر: تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٩٤).

مؤثرات تدل على عظم حجم إيراد الجزية وهو ما يتضح من الدور الكبير الذى قامت به الدولة الأموية فى نشر الإسلام فى بلدان كثيرة تم فتحها وفرض الجزية على من لم يسلم من أهلها^(١).

٣- الخراج : كبقية المصادر المالية للدولة التى كان لعمر بن الخطاب الريادة فى تنظيمها، فقد استفادت الدولة الأموية من تنظيم عمر له، إذ سارت فى أغلب أقاليمها عليه، إلا ما طرأ من تعديلات سوف يتم التعرض لها^(٢)، وللخراج معنى خاص: وهو إيراد الأراضى التى افتتحها المسلمون عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام، كما فعل عمر بأرض السواد من العراق والشام^(٣)، والخراج كما قال ابن رجب الحنبلى: لا يقاس بإجارة ولا ثمن، بل هو أصل ثابت بنفسه لا يقاس بغيره^(٤)، وكان للخراج أهمية كبرى بالنسبة للدولة الأموية، وكانت غلة الخراج فى منطقة السواد على سبيل المثال فى عهد ابنه عبيد الله سنة ٥٤هـ - ٦٦هـ بلغت ١٣٥ مليون درهم^(٥)، وأما منطقة الجزيرة والشام: فقد استمر الخراج فى هذه المنطقة وفقاً لما وضعه معاوية بن أبى سفيان، الذى فرض ضرائب على أهل المدن ذات شقين، شق منه جزية والآخر خراج وهو كما يلي:

أ - على أهل قنسرين حوالى مليون وخمسمائة ألف درهم.

ب - على الأردن ستمائة ألف درهم.

ج - على فلسطين حوالى ستمائة ألف درهم^(٦).

وقد حدثت بعض الانحرافات فى تحصيل الخراج فى عدة صور أهمها:

- فرض الخراج على أرض مستثناة منه بنص عقود الصلح^(٧)، فقد حدث ذلك

فى عهد يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤) حيث فرض الخراج على أرض السامرة^(٨)، بالأردن وفلسطين.

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧١). (٢) المصدر نفسه، ص (٧٣).

(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٤، ٢٥) اقتصاديات الحرب، ص (٢١٥).

(٤) الاستخراج لأحكام الخراج، ص (٤٠)، اقتصاديات الحرب، ص (٢١٥).

(٥) الأحكام السلطانية، ص (١٧٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٤).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٦). (٧) فتوح البلدان، ص (١٦٢، ١٦٣).

(٨) السامرة: قوم من اليهود وهم صفان: الدستان والكوشان، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٨).

- استخدام العنف فى تحصيل الخراج، فى بعض الأقاليم - باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز، حيث استخدمت الشدة فى تحصيل الإيرادات بأنواعها^(١).

- تحميل نفقات جباية الخراج على الممول، ومن تلك النفقات قيمة الورق الذى يكتب عليه مقادير الخراج، قيمة إيجار المستودعات التى يتم تخزين حصيلة الخراج العينية فيها، أجرة الجابى الذى يقوم بالجباية وبقية نفقات تحصيل الخراج^(٢)، وقد حدث ذلك خاصة فى إقليم العراق وكان قبل عهد عمر بن عبد العزيز، فلما ولى الخلافة أبطلها ثم عادت بعد موته^(٣)، وكان للخراج فى عهد الدولة الأموية ديوان خاص به، يسمى ديوان الخراج: وهو الذى يتولى النظر فى جباية ضريبة الخراج، ويقوم بجمعها وتسجيلها، ووضع تقديرات لها، لأنها أعظم واردات الدولة^(٤)، وكان الأمويون قد فصلوا بين الولاية والجباية وعينوا مسئولين عنها لكى يحصروا المسئولية، وقد ذكرت المصادر قائمة بأسماء الذين أسندت إليهم مهمة الجباية والإشراف على أعمال الديوان، فمعاوية رضى الله عنه عين على خراج دمشق: سرجون ابن منصور^(٥)، وعلى خراج فلسطين: سليمان المشجعى^(٦)، وعلى خراج حمص ابن أثال النصرانى^(٧)، وفى خلافة يزيد بن معاوية استمر على الديوان: سرجون بن منصور، كما بقى عليه طوال حكم معاوية الثانى، ومروان بن الحكم، وعبد الملك، حتى عزله^(٨). وقد أولى معاوية رضى الله عنه ولاته فى الأقاليم؛ الأرض ومن عليها عناية متزايدة، فاستصلح البطائح وهى أرض واسعة مغمورة بالمياه، بقطع القصب وعلب الماء بالمسنيات مما أدى إلى عمارة البلاد وزيادة الوارد العام بمقدار خمسة آلاف ألف درهم، وراعى معاوية حالة السكان وسعى لتطمينهم والتخفيف عن كاهلهم بمجموعة من الإجراءات يتعلق بعضها بضريبة الخراج ذاتها، وبعضها الآخر يتعلق بالقائمين على الضريبة^(٩). ومن ناحية أخرى، فقد عمل

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٨٦، ١٨٧)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٨).

(٣) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى، ص (٤٥٦).

(٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٧٧).

(٥) الجهشيارى، ص (٢٤). (٦) الجهشيارى، ص (٢٦)، إدارة بلاد الشام، ص (١٧٨).

(٧) تاريخ يعقوبى (٢/٢٢٣). (٨) إدارة بلاد الشام فى العهد الراشدى والأموى، ص (١٧٨).

(٩) الخراج د. غيداء خزانة كاتبى، ص (٢٣٩).

معاوية على إنصاف دافعى الضريبة باختيار عماله ومتابعته لهم، وإن كانوا من المقربين، فقد عزل ابن أم الحكم وهو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى - وهو ابن أخته - لأنه اشتد فى أمر الخراج ولم يقبل من عامل خراجه جباية الخراج قبل مواعده الموجود^(١). وفى الفترة الأموية تكثر الإشارة إلى استعمال الأعاجم فى الخراج، وصلاتهم لذلك لأسباب عبر عنها زياد بن أبيه بوضوح منها: معرفتهم بأمور الخراج ودورهم فى إعمار الأرض^(٢)، حيث يقول: وينبغى أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج^(٣)، ودعا زياد إلى مراعاة الدهاقين والإحسان إليهم: أحسنوا إلى الدهاقين^(٤)، فإنكم لن تزالوا سمناً ما سمنوا^(٥).

٤ - العشور: هى الأموال التى يتم تحصيلها على التجارة التى تمر عبر حدود الدولة الإسلامية سواء داخلية أو خارجة من أرض الدولة، وهى أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية فى العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له العاشر أى الذى يأخذ العشور^(٦)، وأول من وضعها فى الإسلام هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد فرضها على الحربى بنسبة العشر، وعلى الذمى نصف العشر، وعلى المسلم ربع العشر^(٧)، وقد استمر هذا النظام فى العهد الأموى وفق القواعد التالية:

أ - إعفاء الحد الأدنى لرأس المال، والذى قدر بالنسبة للمسلم بمائتى درهم^(٨)، أما بالنسبة للحربى والذمى فقد اختلف فيه^(٩).

ب - لا تحصل العشور إلا مرة واحدة فى السنة .

ج - يشترط لتحصيل العشر من النعم التى للمسلم أن تكون سائمة .

(١) الخراج د. غيداء، ص (٢٣٩).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٦٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٦٢).

(٤) الدهاقين: جمع دهقان والدهقان: شيخ القرية العالم بالزراعة، وما يصلح للأرض من شجر .

(٥) الضرائب فى السواد فى العصر الأموى للدورى، ص (٤٨)، الخراج، ص (٢٦٣).

(٦) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧١)، اقتصاديات الحرب، ص (٢٢٣).

(٧) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٧٥، ٤٧٦).

(٨) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٦).

(٩) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٧٧).

د - لا تؤخذ العشور من عبد ولا مكاتب ولا مضارب ولا بضاعة، وإنما من رب المال نفسه^(١).

هـ - أن يكتب للتاجر سند بالمبلغ الذى دفعه، وبمقتضاه لا تأخذ منه العشور إلا فى السنة التالية^(٢).

و - أن لا يتم تفتيش التاجر ولا تعنيفه^(٣).

ز - أن من ادعى ديناً يستغرق ما معه من التجارة، صدق إن كان مسلماً، وإن ارتاب فى أمره استحلفه (على خلاف ذلك)^(٤)، وأما الذمى فأقرب الأقوال فيه أن يشهد له شاهدان من المسلمين حتى يعفى^(٥).

ح - أن العشور التى تأخذ من المسلمين هى الزكاة فلا يجمع على المال زكاة وعشور^(٦).

ط - أن غير المسلم إذا مر بما يوصف بالمالية عندهم وليس بمال عند المسلمين كالخمر والخنزير ونحوهما، يقومه أناس من غير المسلمين، ويضاف إلى قيمة ما معه من تجارة ويؤخذ منه العشور^(٧). وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن العشور كانت تشكل جزءاً مهماً فى إيرادات الدولة، من ذلك ما لمسّه ابن الزبير من نقص فى مواد الدولة حينما منع تحصيل العشور لمدة عام واحد مما حمله على التراجع على ذلك القرار^(٨).

٥ - الصوافى: هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من أرض الفىء كما فعل رسول الله ﷺ أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس، أو باستطابة نفوس الغائبين، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه^(٩).. ثم أقطعت أجزاء منها إلى بعض

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٤).

(٢) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٧٥)، التطور الاقتصادى، ص (٨٠).

(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٠).

(٤) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٨٠، ٤٨١).

(٥) المرجع السابق، ص (٤٧٩)، التطور الاقتصادى، ص (٨٠).

(٦) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٣).

(٧) المصدر نفسه، ص (٢٧٣).

(٨) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٠). (٩) الأحكام السلطانية، ص (١٩٢).

من كان يتولى استثمارها، على أن يؤدي لبیت المال ما عليها، وأول من أقطع عثمان بن عفان رضی الله عنه^(١)، وذلك بدافع زيادة غلتها، وقد اشترط على من يقطعه إياها حق الفیء^(٢)، فبلغت غلتها آنذاك خمسين مليون درهم^(٣)، وانتبه معاوية بن أبي سفيان للصوافي في وقت مبكر، وكتب إلى الخليفة عثمان سألته أن يقطعه إياها، ليقوى بها على ما وصف في كتابه؛ يقول ابن عساکر: حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها. ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له، وسألته أن يقطعه إياها ليقوى بها على ما وصف له، وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج، فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً^(٤)، يضاف إلى تلك المزارع، مزارع وأراضى بنى فوقها الذين لا وراث لهم، فأخذ معاوية ما يليهم^(٥). ولما أفضى الأمر إليه، جعل هذه الأراضى حيساً^(٦) على فقراء أهل بيته والمسلمين^(٧).

وأشار المؤرخ الشيعي اليعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضى، وضياح الملوك في الشام والجزيرة واليمن والعراق خالصة لنفسه عندما أفضى الأمر إليه^(٨) فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته، واعتبر بذلك: أول من كانت له الصوافي في جميع أرجاء الدنيا^(٩)، وهذه الإشارة من اليعقوبي تلفت الانتباه إلى الالتباس الواضح في لغتها، فقد ذكرت صوافي في الجزيرة واليمن علماً بأن عمر بن الخطاب كان قد أصفى مجموعات خاصة في أراضى السواد وأراضى الشام لم يدخل فيها صوافي الجزيرة واليمن^(١٠). كما أشار اليعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضى خالصة لنفسه، فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته. وبمقارنة هذا

(٢) الأحكام السلطانية، ص (١٩٣).

(١) فتوح البلدان، ص (٢٧٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٣).

(٤) تهذيب تاريخ دمشق (١/١٨٤)، الخراج د. غيداء، ص (٣٠٧).

(٥) الخراج، د. غيداء، ص (٣٠٧). (٦) الحيس: الوقف.

(٧) تهذيب تاريخ دمشق (١/٨٤)، الخراج، غيداء، ص (٣٠٧).

(٨) تاريخ اليعقوبي (٢/٢٣٢ - ٢٣٤). (٩) المصدر نفسه (٢/٢٣٤).

(١٠) المعرفة والتاريخ (١/٤٣٤)، الخراج، غيداء، ص (٣٠٧).

النص، بنص ابن عساكر عن الموضوع نفسه، يظهر مدى المبالغة في تلك الرواية، يقول ابن عساكر عن تلك الأراضي: فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقرها على حالها، ثم جعل من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين، أى أن معاوية لم يتصرف فيها ابتداء بل تركها على حالها. (١) ولكن يبدو أن هناك ضرورات سياسية نشأت في الشام دفعت الدولة إلى اتخاذ ضرب جديد من التنظيم والسعى لخدمة مصالح الدولة، ومن هذه الضرورات محاولة إقامة توازن قبلى في بلاد الشام بين اليمانية وبين القيسية، ولذلك أقطع معاوية إقطاعات واسعة في هذا المجال (٢)، ولقد أسئ فهم هذا الإجراء، وفسر بعض المؤرخين كاليقوبى، موضوع مصالح الدولة بأنه يعنى مصالح الأسرة الأموية وبالتحديد معاوية (٣)، ولا شك أن معاوية استخدم هذه الأموال في تثبيت دعائم الدولة، وحفظ وحدة الأمة، فكان يتصرف وفق ما يراه مناسباً للمصالح العام (٤)، ولا يمنع ذلك الإحسان إلى أسرته والمقربين إليه بالمعروف، وقد أمر معاوية بإعادة مسح للصوافى في أمصار الدولة الأموية، وأضاف أراضى واسعة بعد العثور على سجل الضياع الساسانية (٥) التى أصبحت تحت تصرف معاوية المباشر فكان يسد منها بعض حالات العجز في النفقات العامة، فقد بلغ غلة صوافيه بالعراق وما يتبعه مائة مليون درهم (٦)، وكذلك فعل بصوافى أرض الشام والجزيرة واليمن حتى فدك اصطفاها لنفسه ثم أقطعها لمروان بن الحكم (٧)، وظلت كذلك طيلة العهد الأموى، باستثناء عصر عمر بن عبد العزيز الذى أعادها للملكية العامة وشجع القطاع الخاص على استثمارها (٨)، كما رد فدك لبيت المال ووضع ما يأتى منها فى أبناء السبيل، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده (٩)، كما أمر باستثمار أراضى الصوافى حين كتب إلى واليه على العراق: انظر ما قبلكم من

(١) الخراج، غيداء، ص (٣٠٨).

(٢) المصدر نفسه، ص (٣٠٩)، دراسات فى حضارات الإسلام، ص (٤٦).

(٣) الخراج، ص (٣١١) غيداء خزنة كاتبى.

(٤) المصدر نفسه، ص (٣١١).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٦).

(٦) الإدارة فى العصر الأموى، نجدة خمائش، ص (١٩٧).

(٧) فتوح البلدان، ص (٤٦).

(٨) المصدر نفسه، ص (٤٦)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٢).

(٩) فتوح البلدان، ص (٢٤ - ٤٨).

أرض الصافية، فأعطوه حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فامنحها فإن لم ترزع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين، ولا تبتزن قبلك أرضاً^(١)، ونلاحظ من هذا النص اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر الصوافى مما يدل على أهميته فى موارد الدولة. . لكن أمر الصوافى عاد إلى ما كان عليه الأمر بعد عهد عمر بن عبد العزيز^(٢).

٦ - خمس الغنائم : تعرّف الغنيمة: ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذه عنوة^(٣)، وقد نص عليها القرآن الكريم، وفى العصر الأموى ازدادت حركة الفتوحات وبالتالى زادت الغنائم كأحد موارد بيت المال، وقد اتبع الأمويون نفس النهج العمري بالنسبة للغنائم والأراضى المفتوحة، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين وترك الأرض فيئاً لمجموع المسلمين مع ضرب الخراج عليها^(٤)، هذه أهم المصادر المالية للدولة مع وجود مصادر أخرى كنظام خمس الركاز، ومال من لا وارث له، إذ ظل فى العصر الأموى على ما كان عليه عهد رسول الله والخلفاء الراشدين، إضافة إلى أن نسبة هذين العنصرين بسيطة جداً بالنسبة لغيرهما من المصادر^(٥).

ثانياً: النفقات العامة:

١ - النفقات العسكرية:

حملت الدولة الأموية على عاتقها مهمة مواصلة نشر الإسلام فى أرجاء المعمورة، ولذلك اتسعت الدولة الإسلامية فى العصر الأموى اتساعاً كبيراً، وقد تم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه من فتن وقلقل داخلية تتطلب أموالاً طائلة لإخمادها، وتتضح معالم النفقات العسكرية فى العصر الأموى من خلال نفقات الجند والصناعات الحربية^(٦).

أ - رواتب الجند: ويشرف عليها ديوان الجند، وتجمع المصادر على أن أول من وضعه ورتبه هو الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠هـ^(٧)، وقد بقى هذا الديوان على

(١) واسط فى العصر الأموى، ص (٤٠٦).

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٢).

(٣) الخراج، يحيى القرشى، ص (٥٨).

(٤) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢١).

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (٩٧).

(٧) طبقات ابن سعد (٢١٣/١)، تاريخ يعقوبى (١٤٣/٢).

الأساس نفسه حيث تحفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم، وأنسابهم ومقدار أعطياتهم^(١)، وقد عمل معاوية بن أبي سفيان على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد في أعطياتهم، بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية في الدولة، وكان أمير المؤمنين معاوية يتفقد أحوال القبائل، كجزء من سياسته في حفظ التوازن بين قبائل اليمن والقبائل القيسية، وكان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية، فيقال: سموهم فيكتب، ويقال: نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه وعياله، فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان^(٢)، وكان للجنود ديوان مركزي في دمشق في حين وجدت دواوين فرعية في مراكز الولايات: كالكوفة والبصرة والفسطاط^(٣)، وكان سلم رواتب الجند في عهد معاوية كالاتي:

على درجات: شرف العطاء والمرتب ٢٠٠٠ درهم، عطاء العرب فئة (أ) ٣٠٠ درهم، فئة (ب) ١٠٠٠ درهم، فئة (ج) ١٥٠٠ درهم، وأدخل الموالى في العطاء^(٤)، وكانت نفقات رواتب الجند في عهد معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه كالاتي:

- في منطقة مصر: كان عدد المسجلين في الديوان ٤٠٠٠٠ جندي منهم أربعة آلاف مسجلين بشرف العطاء^(٥)، وبالتالي يكون مجمل عطائهم ٨٠٠٠٠٠٠٠ درهم، أما بقية المسجلين في الديوان فكان عددهم ٣٦٠٠٠ جندي وعلى فرض أن عطاء الجندي سنوياً هو ٣٠٠ درهم يصبح إجمالي عطائهم ١٠٨٠٠٠٠٠٠ درهم^(٦).

- في منطقة الشام: كان عدد الجند المسجلين في ديوان الشام ستين ألف جندي، كان الدخل السنوي لكل جندي ألف درهم، أما إجمالي نفقات جند الشام فبلغ ستين مليون درهم^(٧).

(١) الترتيب الإدارية للكنتاني (٢٢٥/١) الدواوين في العصر الأموي، ص (٣٧).
(٢) حسن المحاضرة للسيوطي (٦٥/١)، الدواوين في العصر الأموي، ص (٣٧).
(٣) الجيش والأسطول الإسلامي في العصر الأموي، ص (٥٣٥).
(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٩٨).
(٥) ديوان الجند للسلمي، ص (١٤٩)، التطور الاقتصادي، ص (٩٩).
(٦) الخطط للمقرئزي (١٢٨/١).
(٧) الخراج والنظم المالية للريس، ص (٩٤).

- فى العراق نأخذ مثلاً ديوان البصرة: حيث بلغ عدد المسجلين به ثمانين ألف مقاتل^(١)، وبلغت مرتباتهم فى عهد زياد ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم، فإذا أخرجنا منهم نسبة ١٠٪ مسجلين فى شرف العطاء، (قياساً على ديوان مصر) يكون المتبقى ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم، وعليه يكون متوسط الدخل للجندى فى ديوان البصرة حوالى ٢٧٨ درهماً ويمكن قياس بقية منطقة العراق على هذا^(٢).

وقامت الدولة الأموية بتطوير ديوان الجند، وهو الجهة المسؤولة عن نفقات ورواتب الجند وكان من أبرز صور هذا التطوير ما يلى:

* قام مندوب معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه المكلف بتوزيع عطاء المدينة بدفع عطاء كل رجل فى يده مباشرة، وكان النظام السابق هو أن يدفع العطاء إلى العرفاء. لكن هؤلاء العرفاء لم يكونوا يغيبون غائباً ولا يميئون ميئاً^(٣).

* وفى عهد معاوية قام واليه على العراق زياد بن أبيه، بتخفيض النفقات الإدارية لديوان الجند، حيث اختصر عدد العرفاء المسئولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريف واحد^(٤).

ب- نفقات الصناعات الحربية: على الرغم من عدم وجود أرقام محددة فى نفقات الدولة على الصناعات الحربية، إلا أن هناك ما يدل على اتجاه هذه النفقة نحو التزايد، فقد كان اهتمام الدولة الأموية منصباً على تطوير سلاح البحرية، وقد بلغ عدد قطع الأسطول البحرى الإسلامى فى بداية تكوينه مائتى مركب^(٥)، ثم تطور على يد الدولة الأموية ليبلغ فى عهد سليمان بن عبد الملك ألف وثمانمائة سفينة كبيرة^(٦).

٢- النفقات الإدارية :

تقسم هذه النفقات إلى قسمين: رواتب الموظفين ونفقات المستلزمات الإدارية، وكانت هذه الأخيرة ضئيلة للغاية، ومتمثلة فى الشموع وأوراق الكتابة، وغيرهما

(١) الحياة الاقتصادية فى صدر الإسلام، بطاينة نقلاً عن التطور الاقتصادى، ص (٩٩).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٠٠).

(٣) ديوان الجند للسلمى، ص (١٦٩)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٠٢).

(٤) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٣٢٠).

(٥) تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص (١١٥، ١١٦).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٠٦).

من الأدوات البسيطة التي لا تشكل شيئاً يذكر بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم ومع ذلك فقد تميز عهد عمر بن عبد العزيز بالحساسية للمال العام، فكانت هذه النفقات في عهده أقل من غيره من العهود^(١)، وسنركز الحديث عن رواتب الموظفين، ويبدو أن رواتب الموظفين كانت متروكة إلى والى الإقليم، يحدد لنفسه ولعماله رواتبهم حسب ما يرى، وقد ساعدت هذه اللامركزية على ظهور مرتبات كبيرة نسبياً، إذا ما قورنت بالمرتبات في عهد عمر بن الخطاب وبمتوسط مستوى المعيشة المتواضع نسبياً في الدولة الأموية؛ حيث بلغ مرتب والى العراق زياد بن أبيه خمسة وعشرين ألف درهم شهرياً^(٢)، وظهرت أيضاً إلى جانب المرتبات الكبيرة مخصصات إضافية، فهذا زياد بن أبيه يجعل لأحد الولاة التابعين لإدارته مائة ألف درهم سنوياً عدا مرتبه^(٣).

وهذه بعض النماذج من رواتب الموظفين خلال فترات من العصر الأموي، يمكن اعتبارها مؤشراً على مستوى رواتب ومكافآت موظفي الدولة، وذلك لعدم العثور على معلومات تفصيلية عنها.

أ- كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العصر الأموي وطرفاً من العباسي حتى عهد المأمون هو ٣٦٠٠ درهم سنوياً، وكان حدها الأدنى ٧٢٠ درهماً سنوياً^(٤).

ب- يرجح أن أكبر مرتب لصاحب الشرطة في العصر الأموي بلغ مائة ألف درهم سنوياً^(٥).

ج- مرتبات القضاة كانت عبارة عن رزق يجرى عليهم من بيت المال ليتفرغوا للقضاء^(٦)، وكان حده الأدنى ألفاً ومائتي درهم سنوياً^(٧)، وأما الحد الأقصى فقد بلغ ثلاثة آلاف درهم سنوياً^(٨).

-
- (١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٠٦).
(٢) الإدارة في العصر الأموي، ص (٣١٠).
(٣) المصدر نفسه، ص (٣١٠).
(٤) المصدر نفسه، ص (٣١٠).
(٥) المصدر نفسه، ص (٣١٨).
(٦) المصدر نفسه، ص (٣٣١).
(٧) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٠٧).
(٨) فتوح مصر وأخبارها، ص (٢٣٦).

٣ - مصارف الزكاة:

حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠].

٤ - مصارف الفراء:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَا أَنفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ... ﴾ [الحشر: ٧].

٥ - معظم مصارف المشور:

التي تأخذ من المسلمين هي نفقات تحويلية لأنها تعتبر في حقهم زكاة فتصرف في مصارف الزكاة.

٦ - نفقات الضمان الاجتماعي:

تطورت نفقات الضمان الاجتماعي في الدولة الأموية فكانت في صورة عينية، وكمثال على ذلك ما ورد من أن الفقراء في إقليمي الحجاز والعراق خلال الفترة (٤٥٥هـ - ٥٥٣هـ) كانوا يحملون بطاقات محددة لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد منهم من المعونة العينية^(١)، ثم أصبحت في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١هـ) مزيجاً من النفقات النقدية والعينية، وكمثال على المعونات النقدية قضاء دين من أذان في غير سفه، ولا سرف، وتزويج الرجل الذي ليس له مال وله رغبة في الزواج^(٢)، ومثال النفقات العينية، أنه أمر لكل أعمى بقائد، ولكل خمسة من اليتامى بخادم^(٣)، وشملت في عهده نفقات الضمان الاجتماعي إلى غير المسلمين^(٤)، ثم تطور الأمر حتى مثلت نفقات الضمان الاجتماعي بنداً محدداً من بنود النفقات العامة للدولة، ومثال ذلك: يوجد ضمن بنود النفقات العامة السنوية

(٢) الأموال لأبي عبيد، ص (٢٣٤، ٢٣٥).

(١) الإدارة في العصر الأموي، ص (٣٣٥).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (١٨٣).

(٤) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص (٤٣٣).

فى إقليم العراق خلال الفترة (١٢٠ - ١٢٦هـ) مبلغ عشرة آلاف درهم^(١)،
مخصصاً لبيوت رعاية الأحداث^(٢)، والعواتق^(٣).

ثالثاً : اهتمام الدولة بالزراعة :

مع بداية الدولة الأموية ظهرت الملكيات الزراعية الكبيرة، وذلك نتيجة لدخول
الولاة والخلفاء فى هذا الميدان، ولذلك اهتموا بإحياء الأرض الموات من أراضى
الصوافى وغيرها، من الأراضى المفتوحة الخصبة، وبالذات إقليم العراق وما
شابهه، وقد ساعدهم فى ذلك حجم السيولة التى يملكونها، فقد أحيا والى
معاوية رضى الله عنه على خراج العراق أرضين من البطائح لمعاوية، حيث قام
بقطع الماء عنها وتجفيفها وزراعتها، وقد بلغت غلتها خمسة ملايين درهم^(٤)، وهذا
مما يدل على عظم مساحتها، ولم يكن معاوية رضى الله عنه يجعل ريعها كله
داخلاً فى نفقاته الخاصة، وإنما كان يُتدارك منها شىء من النقص فى النفقات
العامة^(٥)، ولم يدخل تلك الأرضين فى ملكه يتوارثها من بعده، بدلالة أن الأرض
التى أحياها الحجاج فيما بعد لعبد الملك هى نفس الأرض التى أحياها معاوية
رضى الله عنه، إلا أنها عادت مواتاً لغلبة الماء عليها^(٦). ومن الناحية الشرعية فإن
إحياء الأرض بصفة عامة مباح، بل هو سبب من أسباب الملك لها، وذلك استناداً
إلى الأحاديث الواردة فى ذلك، وهى إباحة عامة يستوى فيها الحاكم، والمحكوم،
إلا أنه فى حق الحاكم ينبغى أن تكون هناك قيود إضافية لعل من أبرزها:

- عدم استغلال الحاكم لسلطته ومكانته، وإنما يدخل فى عملية الإحياء كأى
فرد من أفراد الشعب.

- عدم استخدام أموال المسلمين فى عملية الإحياء، بل يقوم بإحيائها من ماله
الخاص.

(١) الأحكام السلطانية للمواردى، ص (١٧٥، ١٧٦).

(٢) حدائق السن: كناية عن الشباب وأول العمر، لسان العرب مادة حدث (٢/٧٩٦).

(٣) العواتق: جمع عاتق وقيل: هى البكر التى لم تبين عن أهلها وقيل: هى التى بين التى أدركت وبين التى
عنست.

(٤) فتوح البلدان، ص (٢٩١)، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص (١٨٧).

(٥) الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بطاينة، ص (١٣٥).

(٦) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس، ص (٢١٤).

- ألا يترتب على تملكه للأرض بطريق الإحياء ضرر على المسلمين، الأفراد أو جماعة المسلمين، وكذا من له ذمة^(١)، وقد ساهم الإقطاع - أى الإقطاع بقصد الإحياء والإعمار - فى تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة، فقد أقطع معاوية رضى الله عنه بعض إخوته الجزيرة التى بين النهرين، فأرسل زياد بن أبيه الماء، فلما نظر إلى المقطوعة له ظن أنها بطيحة، فاشتراها منه زياد بمائتى درهم، وقد أقطع زياد بعد ذلك من تلك الأرض غيره، مما يدل على عظم حجمها، حتى أنه أيضاً حفر لها أنهاراً وليس نهراً واحداً^(٢)، وأقطع زياد بن أبيه مرةً مائة جريب^(٣) على نهر الأبله فحفر لها نهراً فسمى باسمه، كما أقطع أيضاً كل بنت من بناته - أى بنات زياد - ستين جريباً^(٤). واستمرت الملكيات الزراعية بالتوسع مع مجيء الخلفاء الأمويين بعد معاوية رضى الله عنه، ولم ينحصر الإقطاع للأراضى على الأسرة الأموية وبعض وجهاء قریش، وإن كان هو الغالب^(٥)، إذ كانت هناك إقطاعات لعامة الشعب، ومثال ذلك أن زياداً كان يقطع الرجل القطيعة ويتركه ستين فإن لم يعمرها أخذها منه^(٦)، وقد كانت تقدر مساحات تلك الاقطاعات بين (٦٠ - ١٠٠ جريب)^(٧)، وقد كانت إقطاعات الدولة الأموية من الصوافى أو من الأراضى الموات.

ولكن بصفة عامة يؤخذ على الإقطاع فى العصر الأموى عنصر المحاباة، إذ أن أصحاب الملكيات الكبيرة كانوا إما من الأسرة الأموية أو من أشرف قریش، وبحث الدولة عن أصحاب السيولة النقدية القادرين على استثمار تلك الأراضى، وترتب على ذلك السلوك تركز الثروة الكبيرة فى أيدي قلة من أفراد المجتمع^(٨)، كانت الزراعة فى العصر الأموى تعتمد بصفة رئيسية على مياه الأنهار، ولذا نجد أن مراكز الإنتاج الزراعى الرئيسية كانت هى العراق ومصر والشام، وبالذات حول

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى. (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٧٨).

(٣) المقصود به هنا: وحدة المساحة. (٤) معجم البلدان (١/٤٣٥)، التطور الاقتصادى، ص (١٨٠).

(٥) أرض الصوافى للمصرى، ص (١٢٢).

(٦) تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على، ص (١٩٠، ١٩١).

(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٨٨).

(٨) تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على، ص (١٩٠، ١٩١).

الأنهار^(١)، وكان للقطاع الخاص دوره فى تطوير الزراعة فى العهد الأموى، وقد قام القطاع الخاص باستصلاح أراضى زراعية جديدة بمساحات واسعة، ومثال ذلك أراضى البطائح التى كانت منذ عهد الفرس وحتى عهد الدولة الأموية أراضى مغمورة بالمياه، وبدأت من بداية الدولة الأموية حركة استصلاحها بحجز المياه عنها وتجفيفها، وقد خرجت منها أراضى واسعة وخصبة وفيرة الإنتاج^(٢)، وقد توسعت الملكيات الزراعية الخاصة، وترتب عليها زيادة فى الإنتاج الزراعى، مما أدى إلى وجود أراضى بعيدة عن مصدر الرى وهو النهر الأساسى، فحدث تطور فى تقنية الرى حيث ظهرت حركة حفر الأنهار والقنوات الفرعية وفق طرق هندسية تسمح لتلك الأراضى بالاستفادة من ماء النهر دون أن يؤدى ذلك إلى إغراقها، وقد توسع القطاع الخاص فى حفر هذه الأنهار والقنوات، فحدثت تنمية زراعية نتيجة استفادة الأراضى التى كانت تمر بجوارها تلك الأنهار والقنوات الفرعية^(٣)، وقد تم نقل التقنية الزراعية من البلاد المفتوحة حديثاً إلى مراكز الإنتاج الزراعى الرئيسية فى الدولة الأموية^(٤) إلا أن القطاع الزراعى تعرض للتدهور فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية بسبب عوامل متعددة منها:

١- الاضطراب السياسى، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية، ويبدأ هذا الاضطراب مع مجئ يزيد بن معاوية، ومعاوية الثانى، ومروان بن الحكم... إلخ.

٢- تركز الثروة فى يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالى^(٥)، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أى حدوث كساد اقتصادى بالمنطقة.

٣- إعادة ضريبة النيروز والمهرجان التى روى أنها بدأت مع عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه^(٦)، وكان السبب فى إعادتها أن الناس اعتادوا دفعها على الرغم من منع الإسلام لها^(٧)، فأراد معاوية رضى الله عنه سحب مبالغها من غير

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٨٨).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٩٠).

(٣) الإدارة فى العصر الأموى، ص (١٥١).

(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٩١).

(٥) المصدر نفسه، ص (١٩٦).

(٦) تاريخ يعقوبى (٢/٢١٨).

(٧) مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى، ص (٣١).

المسلمين من الدهاقنة المستولين عن الجباية، حتى لا يكونوا مراكز ثروة يتقوون بها ضد الدولة الإسلامية، وكان ينفقها رضى الله عنه فى مصالح الأمة الإسلامية، لكن الدهاقنة والأمراء المحليين أخذوا فيما بعد فى ابتكار ضرائب إضافية عديدة^(١)، أرهقت كاهل المزارعين، بالإضافة إلى ما صاحب تلك الضرائب من عنف فى الجباية^(٢).

٤- إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث فى عهد الحجاج من أن بثوقاً انبثقت على الأرض المحيية من أرض البطائح فلم يعمل الحجاج - بوصفه والى المنطقة - على سد تلك البثوق مضارة لأهلها (لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث فى الخروج عليه). فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات^(٣).

٥ - معاناة الدولة الأموية فى بداية نشأتها من مجموعة من المهاجرين الذين قدموا إلى إقليم العراق، وكانوا يعانون من البطالة، حيث لم يكونوا مسجلين بالعتاء، وليس لديهم أراض يقومون بزراعتها، فبدلاً من أن يقوموا بالعمل فى مجال من المجالات الأخرى قامت فئة منهم بإحداث بثوق فى نظام الرى، فأدى ذلك إلى تخريب المزارع وإغراقها، فلما ولى زياد العراق قام بالقضاء على مثل تلك الأعمال^(٤).

٦ - حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالى والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والى العراق - الحجاج بن يوسف - إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه^(٥). ونتيجة لتلك العوامل وغيرها، فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعى العام فى المنطقة الشرقية من

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (١٨٦، ١٨٧).

(٢) الأحكام السلطانية للمواردى، ص (١٧٥).

(٣) إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية خيرى، ص (٨٦).

(٤) المصدر نفسه، ص (٨٦).

(٥) الخراج والنظم للريس، ص (٢١٩)، الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الأموية، ص (٧١).

الدولة الأموية^(١). ومع ذلك فقد كانت هناك مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال هذه الفترة، وكان من أبرزها ما يلي:

أ- إنشاء زياد بن أبيه جسراً يمنع طغيان الماء على الكوفة^(٢) مما وفر الفرصة لاستغلال أراضي كانت تعطل فترة من السنة نتيجة فيضان الماء عليها، ويتنظر حتى تنتهي فترة الفيضان، وتجف الأرض حتى يمكن إعادة زراعتها مرة أخرى، كما أعطى هذا المشروع فرصة إدخال زراعة النباتات المعمرة إلى تلك الأراضي بدلاً من افتقار الزراعة فيها إلى المحاصيل الموسمية، وبلغ من أهمية هذا الجسر أن الولاة ظلوا يتعاهدونه طيلة فترة العصر الأموي^(٣).

ب - عملية نقل الأيدي العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية في الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- نقل زياد خمسين ألف أسرة من البصرة والكوفة من ذوى الخبرة الزراعية المشهورة إلى خراسان لتعميرها^(٤).

هذا وقد كانت الدولة الأموية تتولى مسئولية إقامة منشآت الري الكبرى والعمل على صيانتها وتطهيرها، كحفر الآبار ومجارى الأنهار، وسد البثوق (التصدع)، وفتح البريدات (مفاتيح الماء)، وإقامة المسنيات (السدود)، أما أصحاب الأراضي فكانوا يشاركون أحياناً في تطهير الأقينية الكبيرة، وكذلك الأمر فإنه كان يقع على عاتقهم، بطبيعة الحال، مسئولية إقامة الأقينية ووسائل الري داخل ممتلكاتهم الخاصة^(٥). وقد حاول الحكام الأمويون استغلال ما أمكنهم من الأراضي، فعملوا على توسيع نطاق الأراضي الزراعية، وبخاصة تجاه بداية الشام، عن طريق استصلاحها وتأمين المياه، ووسائل الري لها^(٦)، حتى إن قصور الأمويين في

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٩٨).

(٢) الإدارة في العصر الأموي، ص (٢٤٧).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٤٧).

(٤) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي للدوري، ص (٢٧).

(٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، عاطف رجال، ص (١٣٥).

(٦) التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام، ص (٨٢).

الصحراء كانت مراكز مهمة للاستثمار الزراعي حيث أقيمت حولها منشآت الري، من قنوات وصهاريج، ومجاري وتوسعوا بذلك في استصلاح الأراضي بواسطة توفير الري لها^(١)، وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان يبدى اهتماماً كبيراً بتنمية الزراعة ورفع مستوى إنتاجها، فكان يولى عنايته لتطوير وسائل الري، وإخصاب الأراضي عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين^(٢)، كما أن يزيد بن معاوية كان يلقب بالمهندس نظراً لخبرته الهامة في الشؤون الزراعية، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الري والعناية بها، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه بنهر يزيد، وكانت هذه القناة في الأساس رافداً صغيراً بالكاد يروى ضيعتين بالغوطة، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار، وبعمق ستة أشبار كذلك، الأمر الذي أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها، بحيث أصبحت تكفي لري أراض واسعة في الغوطة^(٣)، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها^(٤)، وكانت غالبية الأراضي في بلاد الشام تعتمد في ريها على مياه الأمطار التي تتساقط عليها خلال الفترة الممتدة بين تشرين الأول ونيسان، إلا أن أراضي واسعة^(٥) كانت تروى سيحاً، أي من المياه الجارية على سطح الأرض حيث تأتي من مياه بعض الأنهار ومن مياه العيون في الجداول والقنوات، وكذلك فإن قسماً آخر من الأراضي كانت تروى بواسطة الآلات التي ترفع المياه من منخفضات بعض الأنهار إلى سواقي أعلى لري الأراضي التي يعلو مستواها عن مجاري الأنهار، أو التي ترفع المياه من الآبار والخزانات^(٦)، وتعتبر مياه العيون مهمة في ري المزروعات، حيث كانت تروى قسماً كبيراً من الأراضي في أنحاء الشام^(٧)، وكانت الغلات والمزروعات

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٣٦).

(٢) النزعات المادية، حسين مروة (٤٧٦/١)، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص (١٣٦).

(٣) تهذيب تاريخ دمشق (٢٤٥/١ - ٢٤٦).

(٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٤١).

(٥) مفاتيح العلوم للنخوارزمي، ص (٤٦)، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص (١٤١).

(٦) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٤١).

(٧) المصدر نفسه، ص (١٤٣).

المتوافرة: القمح والشعير والرز والزيتون، والنخيل والعنب والتين والفواكه والقطن، وقصب السكر، والبقول، والسمن، والرياحين، وغير ذلك^(١).

رابعاً: اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية:

يتوسط موقع الدولة الأموية بين دول الشرق الأقصى من ناحية مثل الصين والهند ونحوهما وبين الدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ومعنى ذلك - بالضرورة وطبقاً لمعايير ذلك العصر - أن أهم علاقاتها التجارية ارتبطت بهاتين الدولتين^(٢)، وبعد تولى معاوية الخلافة استقرت الأمور وبدأت حركة التجارة الداخلية تزدهر كما كانت عليه قبل ذلك، واهتم معاوية بمصالح التجار وعمل على توسيع نطاق التجارة، وتميز أهل الشام في حرفة التجارة، وفتحوا علاقات تجارية مع غربي أوروبا واستفادوا من الأسطول الإسلامي، ومن بين العوامل التي ساعدت على نشاط حركة التجارة الثراء العريض الذي نعمت به طبقة الحكام وحاشيتهم، حيث نما في نفوسهم حب البذخ والرفاهية، وبالتالي توافر عندهم الميل والحاجة إلى اقتناء المتوجات الكمالية، فأقبلوا على شراء السلع التجارية الباهظة الثمن، مما زاد في فعالية التجار وازدهار التجارة^(٣)، وكان الأمويون يقومون بدور كبير في عالم التجارة وخصوصاً أن الخليفة معاوية -رضى الله عنه- والده كان من كبار تجار قريش، كما أن معاوية نفسه لما كان والياً في عهد عثمان بن عفان على بلاد الشام كان يرسل بقوافله التجارية من الشام إلى حاضرة الجزيرة العربية^(٤).

وكان التجار يحتلون مكانة اجتماعية عالية في العصر الأموي، وكانوا يقومون بتأسيس الشركات في سبيل زيادة فعالية التجارة، حيث كانوا يساهمون في الشركة بتقديم المال وممارسة العمل كذلك، أو بواحد منهما، فإذا أقدم صاحب المال على تقديم ماله لآخر ليتاجر به لقاء حصة من الربح يتفق عليها، فيسمى ذلك الاتفاق بالمضاربة^(٥). وقد ازدهرت شركات المضاربة وأصبحت وسيلة مهمة في مجال العمل التجاري^(٦)، وكانت تجارة الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط، وقد

(١) تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، ص (١٤٧ - ١٥٦).

(٢) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٠٥).

(٣) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٦٨).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٧٢).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٧٤).

أصبحت عاصمة الدولة دمشق مركزاً تجارياً مهماً يعود إلى الظروف السياسية الجديدة التي نشأت، فغيرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عما كانت عليه سابقاً في العصر البيزنطي، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ومحطاً للتجارة الشرقية^(١)، وبالتالي مركزاً لتوزيع البضائع إلى الجهات المختلفة، بعد أن كانت القوافل المحملة بالبضائع الشرقية تتجه مباشرة إلى إنطاكية على ساحل الشام الشمالي، وهكذا كان لأهمية تجارة دمشق التي تتكدّس في أسواقها البضائع المتنوعة المنتجة محلياً والمستوردة أن قال ياقوت بأنه يستحيل أن يطلب شيء في أسواق دمشق غير موجود، حتى إن السلع الغالية الثمن التي تستورد من جميع أنحاء العالم المتمدن موجودة فيها^(٢). ثم إن دمشق كانت بحكم موقعها الجغرافي المتاخم للبادية المركز التجاري الهام الذي يقصده البدو والمقيمون في الصحراء^(٣)، وقد اشتهرت مدن الشام كحلب والرصافة، وحمص، والرملة والقدس وإنطاكية بأهميتها التجارية، ونشاط أسواقها^(٤)، وكانت عاصمة الشام، محط رحال القوافل التجارية الآتية من الشرق، ولا شك أن الكوفة والبصرة والموصل، ومدن الحجاز، ونجد وغيرها قد ازدهرت حركة التجارة فيها أيضاً إلا أن مدن الشام كانت تزدهر فيها التجارة أكثر من غيرها، حيث إنها تعتبر مراكز تجارية كبرى وأسواقاً هامة، كما أن الأسواق الموسمية التي كانت تقام في بعض المدن، تعرض فيها البضائع المتنوعة بكثرة، كانت توفر مجالاً أوسع لتأمين كل متطلبات واحتياجات سكان المدن والقرى كذلك، بالإضافة إلى أن هذه الأسواق كانت مناسبة هامة للتجار الذين يأتون إليها من أماكن مختلفة تستفيد من كل ذلك. وقد كان من هذه الأسواق التي كانت قائمة في العصر البيزنطي واستمر قيامها في العصر الأموي سوق بصرى الذي كانت تطول مدة إقامته، حيث كان يستمر من ثلاثين إلى أربعين يوماً، وكذلك فقد كان هناك سوق أذرعات الذي استمر قيامه حتى ما بعد العصر الأموي^(٥).

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص (١٨٣).

(٢) معجم البلدان (٤٦٥/٢).

(٣)، (٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص (١٨٣).

(٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٨٧).

وأما بالنسبة للتجارة الخارجية فى عهد معاوية رضى الله عنه وابنه، فقد ازدهرت التجارة مع الدولة البيزنطية، وازدادت نمواً وقوة، وقد ساهمت عدة عوامل فى هذا الازدهار منها :

١- كثرة الاضطرابات والحروب فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئى، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب.

٢- الاستقرار الأمنى فى الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر فى المشرق إلى إقليم الشام، بحثاً عن فرص استثمار تجارية آمنة.

٣- الاعتماد الكلى لكل من الدولتين على الأخرى فى مجال هام وحيوى بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على أوراق البردى، كانت الدولة الأموية تعتمد كلياً فى حجم النقد الذهبى داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية.

ومن العلامات التى تدل على ازدهار التجارة بين الطرفين فى عهد معاوية ومن بعده ما يلى :

أ- كمية الدينانير الذهبية البيزنطية التى كانت موجودة فى داخل الدولة الأموية وتتم بها عمليات التداول الداخلية .

ب- استمرار مصانع إنتاج البردى فى مصر فى إنتاجه على النهج البيزنطى للتصدير حتى عهد عبد الملك بن مروان^(١).

خامساً : الحرف والصناعات :

تأثرت الحرف والصناعات فى العصر الأموى بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما تأثرت الصناعات والحرف بطبيعة الاقتصاد الأموى، حيث كان النشاط الزراعى هو النشاط الرئيسى فيه، فظهرت وتطورت صناعات تعتمد فى موادها الخام على القطاع الزراعى، مثل صناعة النسيج وصناعة المعاصر والمطاحن، كما واكبت الصناعة حركة التطور العمرانى بالدولة الأموية، فظهرت وتطورت صناعة مستلزمات البناء، إضافة

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٠٩).

إلى تأثر الصناعة بالجو العسكرى السائد فى معظم فترات العصر الأموى، حيث تطورت صناعة السفن التجارية^(١)، وقد اهتمت الدولة الأموية ببناء أسطول حربى، ليوقف فى وجه الأسطول الحربى البحرى البيزنطى، والذى كان يهدد سلامة الشواطئ الغربية للدولة الإسلامية، فتطورت صناعة السفن الحربية فى العصر الأموى بشكل كبير ومتلاحق، فقد كان الإنتاج فى بداية العصر الأموى مقتصرًا على السفن، التى كانت تنفرد مصر بصنعها حتى عام ٤٩ هـ، حيث أمر معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام بمدينة عكا، وقد استقدم من مصر الخبراء للاستفادة منهم فى دار الصناعة الجديدة، والتى تميزت بسهولة حصولها على الأخشاب من جبال لبنان^(٢). ثم تطورت هذه الصناعة، فأُنشئت فى مصر منطقة صناعية جديدة، خاصة بصناعة السفن الحربية، وذلك عام (٥٤ هـ)^(٣). واستمرت الدولة الأموية فى تطوير صناعة السفن فيما بعد عهد معاوية رضى الله عنه وقد أصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكانى، كما أصبحت مناطق جذب وتوطن صناعى، فأصبحت أماكن استثمار خصبة، حيث أنشئت فيها الفنادق، والمطاحن، ونحوها من الأنشطة الأخرى، وساعد على نمو وتطور هذه الصناعة، ما اتسمت به منذ بداية نشأتها، من دقة التنظيم.

ومن صور هذه الدقة ابتكار وظيفة المشرف العام على دار الصناعة ويسمى متولى الصناعة، ومن أبرز مهامه جمع الطاقات البشرية الفنية العاملة فى هذا المجال من نجارين وحدادين وعمال ونحوهم، سواء من الأقاليم المجاورة للصناعة، أو من مختلف أقاليم الدولة، ومن مهامه أيضًا توفير الأدوات الخام، مثل الأخشاب والمسامير وغيره من مستلزمات دار الصناعة، وعليه يمكن القول إن التنظيم كعنصر من عناصر الإنتاج فى العصر الحديث ترجع جذوره إلى القطاع العام الصناعى فى العصر الأموى، أو (متولى الصناعة). ومن صور دقة تنظيم هذه الصناعة، الاهتمام بتحديد أجور العمال، وتوفير الكميات الغذائية اللازمة

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٣٥).

(٢) خطط الشام (٣٧/٥)، النظم الإسلامية، إبراهيم العدوى، ص (٣٥٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٣٩).

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، ص (١٦٦).

لهم، كما حرصت الدولة على توفير سبل الراحة للعاملين في هذه الصناعة، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلم يقع على العامل، وتوفير وحدات سكنية للعمال، والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة، وكذا وحدات لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة^(١)، ونتج عن ذلك كله تطور هائل في حجم الأسطول البحري إبان العهد الأموي^(٢).

لقد كانت الدولة البيزنطية متفوقة على الدولة الإسلامية الأموية في ميادين البحر، فاتخذ معاوية الوسائل المناسبة لإضعافها ثم القضاء عليها فيما بعد. وفي هذا الأمر درس عظيم لقادة الأمة في معرفة عوامل قوة العدو، وجوانب تفوقه ثم السعى للوصول لنقطة تساوي ثم تفوق على الخصوم، سواء في الميادين العسكرية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو الإعلامية، وما نلاحظه الآن القوى العسكرية الهائلة التي تميز بها عدونا سواء على مستوى السلاح الجوي أو النووي والذري، فواجب على الأمة أن تسعى لإيجاد حلول حتى تستطيع أن تقاوم أعداءها وعلى علماء الأمة ومفكريها ألا يخضعوا للضغوط النفسية والسياسية والإعلامية التي يمارسها الأعداء علينا، وعليهم أن يبينوا أحكام الله في امتلاك ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل. إن استمرار الأعداء في امتلاك الأسلحة الرادعة والتي لها قدرة بإذن الله على حسم المعارك العسكرية، جعلهم يتجبرون ويتغترون ويعملون على إفساد عقائدنا وثقافتنا وديننا، ويستولون على خيراتنا وثرواتنا مما يوجب علينا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، فلذلك وجب علينا أن نسعى لامتلاك الأسلحة الرادعة لكي نحمل بها أمننا وديننا ونقيم العدل وندفع الظلم عن البشرية.

ومن الصناعات التي اشتهرت في العهد الأموي، صناعة السفن التجارية، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية، ومع ذلك كانت مناطق تصنيعها مختلفة، فقد اقتصت منطقة البحرين أكثر من غيرها بإنتاج السفن التجارية، في حين كانت مصر، وعكا، وتونس مواطن تصنيع السفن الحربية، وساعد البحرين على ذلك وقوعها على الخليج العربي، والذي كان يعد من أهم

(١) النظم الإسلامية للعدوى، ص (٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٤١).

طرق المواصلات التجارية البحرية بين الشرق والغرب، وكذا ما اكتسبه أهلها من خبرة ملاحية نتيجة احتكاكهم بشعوب لديها خبرات ملاحية كشعوب الهند، والصين^(١). ولم تقتصر صناعة السفن على البحرين، بل امتدت إلى مدينة واسط بالعراق وقد تطورت هذه الصناعة في عهد ولاية الحجاج بصفة خاصة^(٢)، فقد أدخل تحسينات على صناعة السفن التجارية لتستطيع السير فى عرض البحر، فأمر بتكبير حجمها، واستخدام المسامير لتقويتها، والاهتمام بهيكلها العظمى^(٣)، وكانت السفن التى تصنع فى واسط تسمى الواسطية، وكانت تنتج مدينة واسط القوارب الصغيرة، والتي كانت تستخدم للنزهة والسفر ونقل السلع التجارية بين واسط والبصرة لضحالة الطريق النهري بينهما وعدم قدرة السفن على السير فيه^(٤)، ولم تكن مراكز إنتاج السفن الشرقية بالدولة الأموية متخصصة فى إنتاج السفن التجارية فقط، وإن كان هو الغالب عليها، بل كان لديها القدرة المزدوجة، فقد قام الحجاج أيضاً ببناء قوة عسكرية بحرية بالخليج العربى وبحر الهند^(٥).

سادساً: شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية :

أثار بعض المؤرخين شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية رضى الله عنه، وذكروا عدة مصارف وسموها بأنها جائرة وغير شرعية منها:

١- التفريط فى خراج بعض الأقاليم والتفرقة فى العطاء:

أ- إعطاء مصر طعمة لعمر بن العاص: تتعدد الروايات التى تنص على أن معاوية أعطى مصر طعمة لعمر بن العاص لقاء تأييد الأخير له فى حربه ضد على ابن أبى طالب رضى الله عنه، وجل هذه الأخبار تحوى روحاً عدائية لعمر ومعاوية وتصور اتفاقهما على حرب على، كما لو كانت مؤامرة دنيئة أو صفقة مريبة، خان فيها الرجلان ربهما، ودينهما، وتاريخهما مقابل عرض زائل أو نصر

(١) البحرين فى صدر الإسلام، عبد الرحمن نجم، ص (٨٤).

(٢) العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ص (١٠١).

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٤٢).

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفى، ص (٥٩) هزاع الشمري .

(٥) واسط فى العصر الأموى، ص (٢٤٣).

سريع، وكأنه من المستحيل أن يبذل ابن العاص نصرة لفضية اجتمع حولها آلاف الرجال في الشام وغيرها - وهي الطلب بدم عثمان - إلا إذا نال ولاية مصر وخراجها لنفسه، وبعض هذه الروايات تحوى سبباً لهذين الصحابين، كأن تزعم أن عمرو فضل ولاية مصر على حسنى الآخرة وصرح بذلك فقال: إنما أردنا هذه الدنيا^(١)، أو أنه قال لمعاوية: لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك^(٢)، أو قوله: إنما أبايعك بها ديني (أى بمصر)^(٣)، أو قوله لمعاوية: ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها، فيأني أعلم أن على بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده^(٤)، إلى غير ذلك من الروايات^(٥)، وهكذا روايات باطلة وموضوعة عند المسعودى وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة وغيرها تمسخ عمرو بن العاص إلى رجل مصالح، وصاحب مطامع وراغب دنيا، وقد تأثر بالروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة مجموعة من الكتاب والمؤرخين، فأهواوا بعمرو إلى الخضيض، كالذى كتبه محمود شيت خطاب^(٦)، وعبد الخالق سيد أبو رابية^(٧)، وعباس محمود العقاد الذى يتعالى عن النظر فى الإسناد، ويستخف بقارئه، ويظهر له صورة معاوية وعمرو رضى الله عنهما بأنهما انتهزيان، صاحباً مصالح، ولو أجمع الناقدون التاريخيون على بطلان الروايات التى استند إليها فى تحليله، فهذا لا يعنى للعقاد شيئاً، فقد قال بعد أن ذكر روايات ضعيفة، واهية، لا تقوم بها حجة: . . . وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا فى صدق هذا الحوار، وصحة هذه الكلمات، وما ثبت نقله، ولم يثبت منه سنده، ولا نصه، فالذى لا ريب فيه، ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه: أن الاتفاق بين الرجلين، كان اتفاق مساومة، ومعاونة على الملك، والولاية، وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذى آل إلى كل منهما، ولولاه لما كان بينهما اتفاق^(٨).

(١) الدولة الأموية المفترى عليها نقلاً عن الكامل فى التاريخ .

(٢) الإمامة والسياسة (١/٩٨) .

(٣) العقد الفريد (٤/٣٤٥) .

(٤) مروج الذهب (٣/٢٩) .

(٥) وقعة صفين، ص (٢٣٧) سلسلة هذه الروايات كلهم من الشيعة الروافض .

(٦) سفراء النبى ﷺ، ص (٥٠٨) .

(٧) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابية، ص (٣١٦) .

(٨) عمرو بن العاص للعقاد، ص (٢٣١، ٢٣٢) .

وهناك عدة دلائل ترد على الروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة التي لاقت رواجاً واستقراراً في تشويه عمرو بن العاص ومعاوية بالظلم والبهتان، منها ما عرف من صحة إسلام وتقوى معاوية وعمرو، وتاريخهما المضى في خدمة دين الله منذ أسلما^(١)، ففي معاوية يكفى دعاء رسول الله ﷺ عندما قال: «اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهد به»^(٢)، وقوله ﷺ: «اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب، ووقه العذاب»^(٣)، وأما عمرو بن العاص رضى الله عنه فقد شهد له رسول الله ﷺ بالإيمان حيث قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»^(٤) وفي حديث آخر قال: «ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام»^(٥)، وقول رسول الله ﷺ: «وصدق عمرو، إن لعمرو عند الله لخيراً كثيراً»^(٦).

- كانت بيعة عمرو لمعاوية في عهد على بن أبي طالب بدم عثمان، فقد كان تأثير عمرو بمقتل عثمان عظيماً، فعندما سمع خبر مقتل عثمان... ارتحل راجلاً يبكي، ويقول: يا عثماناه: أنعى الحياء والدين... حتى قدم دمشق^(٧)، فقد كان من أقرب أصحابه، وخلانته، ومستشاريه، وكان يدخل في الشورى - في عهد عثمان - من غير ولاية، ومضى إلى معاوية - رضى الله عنهما - ليتعاوننا معاً على الاقتصاص من قتلة عثمان والثأر للخليفة الشهيد^(٨)، لقد كان مقتل عثمان كافياً لأن يحرك كل غضبه على أولئك المجرمين السفّاكين، وكان لابد من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرّؤوا على حرم رسول الله، وقتلوا خليفته على أعين الناس، وأى غرابة أن يغضب عمرو لعثمان؟ وإن كان هناك من يشك في هذا الموضوع، فمداره على الروايات المكذوبة التي تصور عمراً؛ كلُّ همه السلطنة والحكم^(٩).

(١) الدولة الأموية حمدي شاهين، ص (٤١٦).

(٢) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/٢٣٦).

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٢٣٨) رقم (١٥٥).

(٥) الطبقات (٤/١٩١)، السلسلة الصحيحة (١/٢٤٠) رقم (١٥٦).

(٦) المستدرک (٣/٤٥٥) صححه الحاكم وقال الذهبي: صحيح إسناده حسن.

(٧) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص (٤٨١).

(٨) عمرو بن العاص، للغضبان، ص (٤٨٩، ٤٩٠). (٩) المصدر السابق، ص (٤٩٢).

- ومن الدلائل على بطلان فرية إعطاء مصر طعمة لعمر بن العاص، ما ذكره أبو مخنف أحد رواة الفرية السابقة، أن دفع معاوية جيشه إلى فتح مصر وأخذها من يد أنصار على بن أبي طالب سنة ٣٨هـ - وكان عمرو قائده في هذه الحملة - أنه كان يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب على لعظم خراجها^(١) . . فكيف يهب معاوية ذلك الخراج كله لعمر بن العاص وهو في مسيس الحاجة إليه؟.

- ومن الدلائل أيضاً: أن معاوية كتب بعد استخلافه إلى عامله على خراج مصر - وردان - أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً، فرد عليه: كيف وفي عهدهم أن لا يزداد عليهم؟^(٢) ولم يل وردان خراج مصر لمعاوية إلا في ولاية عمرو بن العاص لأن من ولوا مصر بعد موت عمرو - وهم عتبة بن أبي سفيان وعقبة بن عامر ومسلمة بن خالد - كانوا يتولون صلاتها وخراجها، وهذه الرواية صريحة قاطعة في الدلالة على اهتمام معاوية بزيادة حصيلة الخراج في مصر، وفي ولاية عمرو بن العاص عليها، وهذا الاهتمام لا معنى له إلا إذا كان فائض الخراج في مصر يحتمل إلى معاوية في دمشق ليواجه به وجوه الإنفاق المتنوعة^(٣) . كما أن معاوية لم يكن يستحل أن يتنازل عن خراج مصر - وهي من أغنى أقاليم الدولة الإسلامية آنذاك - لفرد واحد وهو يعلم أنه حق الأمة كلها، وأنه لا يملك التنازل عنه، وقد روى ابن تيمية عن عطية بن قيس قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطبنا يقول: إن في بيت مالكم فضلاً بعد أعطياتكم وإني قاسمه بينكم، فإن كان يأتينا فضل عاماً قابلاً قسمناه عليكم، وإلا فلا عتبة على، فإنه ليس بمالي وإنما هو مال الله الذي أفاء عليكم^(٤)، وإذا أضفنا إلى ذلك ما نعرفه من تنافس الأمصار الإسلامية مع بعضها، ووجود معارضة للأمويين في مصر كانت حديثة العهد منذ تبعية مصر لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه حتى دخلها عمرو بن العاص سنة ٣٨هـ، لازددنا يقيناً أن أهلها لم يكونوا يقبلون ما يزعمه الرواة حول إعطائها طعمة لابن العاص.

(١) تاريخ الطبرى (٩/٦) .

(٢) فتوح البلدان، ص (٢١٩).

(٣) الأمويون والفتى، ص (٦٧، ٦٨)، فهمى عبد الجليل .

(٤) منهاج السنة النبوية (٣/١٨٥) .

وعلى ذات السبيل نذكر أن من رجال مصر من بذل في سبيل نصرة معاوية مثلما بذل عمرو بن العاص، إن لم يفقه، كمعاوية بن حديج وأصحابه من العثمانية، وهؤلاء لا يقبلون بحال أن يمتاز عمرو عليهم كل هذا الامتياز، وقد مر بنا فيما مضى أن معاوية بن حديج هذا قد أرجع ابن أخت معاوية - عبد الرحمن بن أم الحكم - الذى ولاه معاوية مصر، من قبل أن يدخلها، ورفض أن يتولى إمارتهم ورده إلى الشام على نحو غير كريم، فما استطاع معاوية أن يغضب بن حديج^(١).

ب- التنازل عن خراج (دارابجرد) للحسن بن على: زعم بعض المؤرخين أن معاوية تنازل للحسن بن على رضى الله عنهما عن خراج (دارابجرد) وأن يعطيه مما فى بيت مال الكوفة مبلغ خمسة آلاف ألف درهم مقابل تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وأن الحسن قد أخذ ما فى بيت مال الكوفة ولكنه لم يستطع الحصول على خراج (دارابجرد)، إذ إن أهل البصرة قد منعه منه، ويزعمون أن ذلك كان بتحريض معاوية أو بمبادرة من البصريين، على أن هذه الرواية تغض من شأن الحسن ومعاوية معاً وتجعلهما فى موقف التواطؤ على أكل أموال المسلمين بالباطل^(٢)، وهذا باطل ولا يصح. والصحيح مثبت فى البخارى بأن الحسن قال لوفد معاوية؛ عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لى بهذا؟ قالوا: نحن لك به^(٣)، فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بنى عبد المطلب، يريد الحسن أن لا يطالبهم بها معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه قادم^(٤)، وذكر ابن أعمش أن الحسن قال: أما المال فليس لمعاوية أن يشترط لى فىء المسلمين^(٥). والمعلوم أن جباية الخراج من مهام الدولة، ولا علاقة مباشرة بين الحسن وأهل البصرة فى هذا الجانب، ولكن الرواية أشارت إلى أن خراج دار ابجرد لم يكن فى الأموال التى صُيرت إلى الحسن^(٦)، وروى أن الحسن قال لمعاوية: إن على عدات وديوناً، فأطلق له من بيت المال نحو أربعمائة ألف أو أكثر^(٧)، وذكر

(١) الدولة الأموية المفتى عليها، ص (٤١٧).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤١٧)، تاريخ الطبرى (١٦٥/٦). (٣) البخارى، ك: الصلح رقم (٢٧٠٤).

(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤). (٥) الفتوح (٢٩٣/٣).

(٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤). (٧) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص (٧).

ابن عساكر: يُسَلَّم له بيت المال فيقضى منه ديونه ومواعيده التي عليه، ويتحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته^(١)، وذهب بعض المؤرخين إلى أن إبقاء ما في بيت المال معه (خمسة ملايين درهم)، استبقاه لأولئك المحاربين الذين كانوا معه، يوزَّعه بينهم، ويبقى لمعيشته له ولأهل بيته ولأصحابه^(٢). ولا شك أن توزيع الأموال على بعض الجنود يساعد في تخفيف شدة التوتر.

إن الذي جاء في رواية البخارى هو الذى أميل إليه، فالأمر لا يكون تجاوز طلب العفو عن الأموال التي أصابها الحسن وآله في الأيام الخالية. وأما الروايات التي تشير بأن يجرى معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليوني درهم في كل عام، ويفضل بنى هاشم في العطاء والصلوات على بنى عبد شمس^(٣)، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور أن إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفاً أمام مصالحه الخاصة^(٤). وأما حقه في العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشر معشار ما ذكرته الروايات^(٥).

جـ - التفرقة في العطاء: أول من سن ديوان العطاء في الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أما قبل ذلك في عهد رسول الله ﷺ، فكانت غنائم الحرب توزع على المسلمين فور انتهاء المعارك^(٦)، وقد أعطى رسول الله ﷺ المؤلفعة قلوبهم من غنائم حنين، وكان شيئاً كثيراً^(٧)، فتقرر بذلك أن تفضيل بعض الناس في توزيع الغنائم أمر مباح، وقد يكون مستحباً إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك^(٨)، وإن كان ذلك يزيد في غنائمهم عن بقية المسلمين، ثم كثرت بعد ذلك الغنائم المجلوبة إلى حاضرة المسلمين نتيجة اتساع نطاق الغزو زمن عمر بن الخطاب فاستشار أصحابه وانتهى أمره إلى تدوين ديوان العطاء ليكفل توزيعه على نحو معروف، وفضل أصحاب السابقة والقراية من النبی ﷺ على من عداهم^(٩).. ولما جاء

(١) تاريخ دمشق (٩٠/١٤).

(٢) الأخبار الطوال، ص (٢١٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٣).

(٤) الدولة الأموية المقترى عليها، ص (٤١٨).

(٥) الاستخراج لأحكام الخراج، ص (٢٦) ابن رجب الحنبلي.

(٦) الدولة الأموية المقترى عليها، ص (٤١٨).

(٧) المصدر نفسه، ص (٤١٨).

الأمويون فضلوا أهل الشام على من عداهم، فقد كانوا أنصارهم المخلصين، وهم عماد الجيوش المجاهدة سواء في الشمال في جهاد الروم أو في الغرب في فتوح إفريقية والأندلس، وهم المحافظون على سلامة الدولة وقمع مخالفيها، وكم استنجد بهم ولادة الأمصار حين خرج عليهم خارجون وعجز جند المصر في الدفاع عن أنفسهم ونظامهم، كما حدث في قتال ابن الأشعث^(١)، ومواجهة ثورة يزيد ابن المهلب زمن يزيد بن عبد الملك^(٢)، وكما حدث في انتفاض البربر الخوارج بإفريقية في عهد هشام^(٣).

٢- التوسع في إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار:

أنفق معاوية رضى الله عنه أموالاً كبيرة ليتألف بها قلوب الزعماء والأشراف ويوطد أركان الدولة الإسلامية التي قامت بعد فترات من الصراع والتطاحن، فقد رأى معاوية رضى الله عنه أن إراقة بعض المال خير من إراقة كثير من دماء المسلمين. . فأعطى هؤلاء الرجال المال يستميل به قلوبهم، وقلوب أتباعهم وأنصارهم، ويعلى به مكانتهم ويسد خلة من وراءهم، ولعله قد فهم من إعطاء الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم بعد فتح مكة ليستميلهم نحو الدين ويسيل سخائم نفوسهم، أنه يجوز أن يعطى أمثال هؤلاء الرجال ليتألف قلوبهم ويضمن ولاءهم، والولاء للدين والدولة يختلطان في فهم معاوية وبنى أمية حيث قامت دولتهم -فيما اعتقدوا- لنصرة الدين وجمع شمل أهله^(٤)، وأخيراً فإن كان معاوية مخطئاً في ذلك فما القول في هؤلاء السادة الذين قبلوا عطاياه وجوائزهم وفيهم من اشتهر بالتقوى والورع والخوف من الله تعالى؟ إن من الحق أن نقول: إن المجتمع الإسلامى في ذلك العهد كان يشهد تغيراً كبيراً عن زمن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين حتى صارت بعض فعالياته السياسية ترى أن من حقها التميز في العطاء^(٥).

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (٤٢٠).

(٢) المصدر السابق، ص (٤٢٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٢٠).

(٤) الأمويون والفتىء، ص (٧٢، ٧٣) فضلاً عن الدولة الأموية شاهين، ص (٤٢٢).

(٥) الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (٤٢٢).

٣- مظاهر الترف عند الأمويين:

هذا ويحتل الحديث عن ترف الأمويين وبذخهم مكانة واسعة عند مؤرخينا، والحق أنه كان عندهم لون من ألوان البذخ فى سكناهم وفى لباسهم وفى عطائهم ونفقاتهم، وقد لفت معاوية نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنهم إليه وهو بعد أحد ولاة الشام، يغدو فى موكب ويروح فى آخر، ولكن من الحق أيضاً ألا ننظر إلى حياة الأمويين بمعزل عن حياة المجتمع العربى والإسلامى آنذاك، فهى جزء منه، تتأثر به، كما تؤثر فيه، وفى ذلك العصر كان التطور الاجتماعى يتلاحق، ومظاهر الغنى واثيال الأموال والرغبة فى التمتع الحلال به تصبح أمراً ظاهراً يدفع الذوق العام والقيم الاجتماعية الحاكمة آنذاك إلى مزيد من التفتح والاتساع. . وأن هذه السمة الظاهرة لا تنفيها ورود أخبار مؤكدة فى زهد معاوية ورقة ثيابه^(١)، أو زهد عامله زياد ولباسه المرقوع^(٢)، فلا تناقض بين هذه الروايات وما عرف من التلبس بمظاهر الملك، بل هى دليل على نفوس عالية لا ترى الزهادة نقصاً ولا ترى التمتع حراماً^(٣)، وهكذا إذا نظرنا نظرة شاملة فى وجوه الإنفاق المالى فى ذلك العصر لا نجد مظاهر الترف والبذخ قصراً على بنى أمية؛ خلفائهم وولاتهم، فبعض بنى هاشم وبنى الزبير وغيرهم من معارضى الأمويين لم يكونوا أقل سماحة بالمال من بنى أمية ولا أكثر حرصاً عليه^(٤)، وإذا كان بنو أمية قد اقتصروا القصور فقد بنى رجال من أشرف العرب قصوراً كان لها ذكر وبهاء وكان العرب يعدون ذلك كرمًا، ويتفاخرون به، ويتوقعون مثله من كل شريف من أشرفهم وإن لم يكن حاكمًا^(٥).

والترف فى المجتمعات الإسلامية ظاهرة سلبية لها ما بعدها، إن بحجة الأمويين فى الإنفاقات المالية أدت إلى ظهور الترف ثم تعمق وتجدر فى الأمة حتى أصبح ترفاً مدمراً، ظهرت معالمه وآثاره فى سقوط بلاد الشام فى يد الصليبيين ثم سقوط بغداد فى يد المغول، وزوال الدولة العباسية، لذلك يكره الإسلام الترف ويحذر منه أشد التحذير: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. إنه كالحمض الأكال الذى ينخر فى جسم المادة فيذهب

(١) العواصم من القواسم، ص (٢١٧) تعليق محب الدين الخطيب .

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (٤٢٤).

(٣) الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (٤٢٤).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٢٤).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٢٥).

بصلابتها، فتصبح هشة سهلة القصف، أو تصبح لينة لا قوام لها فى الصدام، وقد كانت وفرة المال فى أيدى الناس هى الباب المؤدى إلى الترف بطبيعة الحال، ولكن هذا يفسر ولا يبرر، فإنه لا يوجد تبرير لمعصية الله، وقد جاء المال بوفرة نسبية على أيام عمر رضى الله عنه ولكنه تصرف بشأنه بمنع الفساد، فمنع الصحابة - رضوان الله عليهم - من الخروج من المدينة للضياع والتجارة حتى لا تتكون منهم طبقة تملك المال فى أيديها وتملك السلطان (الأدبى) على الناس، فيحدث التميز وتفسد الأحوال، فضلاً عن احتمال إصابتهم هم أنفسهم بالترف وهم هيئة المشورة إلى جانب الخليفة، فتفسد مشورتهم حين تترهل نفوسهم، وإلى جانب ذلك - وقبل ذلك - أخذ عمر رضى الله عنه نفسه وأهل بيته بالشدّة الحازمة، حتى لا يكونوا قدوة سيئة أمام الناس، فيفسد الناس، أما حين يترك المال بدون تصرف معين من ولى الأمر، يسمح بالنفع ويمنع الضرر، فإنه لا بد أن يؤدى إلى نتائج المحتومة حسب السنة الإلهية، لا لأن المال فى ذاته هكذا يفعل، ولكن لأن الجهد البشرى المطلوب لإصلاح الآفة لم يبذل، فتتفرد الآفة وحدها بالسلطان، وآفة المال الترف، وعلاجها فى يد ولى الأمر... بنشر روح الجد فى المجتمع وبياعاء القدوة من نفسه لبقية الناس. أما حين يترك فى أيدى الناس - بلا ضابط - مع وجود فئة تعمل جاهدة فى إفساد أخلاق المجتمع وروحه كما فعل الفرس، فالنتيجة هى ما قرره السنة الربانية التى جاء بيانها فى كتاب الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. والترف مُعد ككل آفة.. فحين لا يعالج، ولا يوقف فإنه ينتشر ولا بد.. وحين يكون مبتدؤه فى قصور الخلافة فأمره أسوأ، لأن الحكام دائماً قدوة، وقد كان الأمويون - برغم وجود الترف بينهم - أقل فساداً بالمال من العباسيين، لأنهم كانوا أكثر انشغالاً بتثبيت دولتهم من ناحية، وبالجهاد فى سبيل الله من ناحية أخرى، فأما العباسيون فبعد أن استتب لهم الملك أخذ الترف يسرى بينهم سريعاً، خاصة بفعل الحاشية الفارسية المفسدة المتعمدة للفساد. ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم فى التجارة العالمية إلى ملايين الدنانير، وشيئاً فشيئاً غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد ثم العواصم الإسلامية الأخرى^(١).

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ محمد قطب، ص (١٢٦، ١٢٧).

المبحث السادس

القضاء في عهد معاوية رضى الله عنه والدولة الأموية

يعتبر القضاء في العهد الأموي من الدرجة الثالثة بعد القضاء في العهد النبوي والقضاء في العهد الراشدي، لأن العصر الأموي كان زاهياً وفيه كثير من آثار العهد الراشدي، وكانت كثير من الأعمال امتداداً للعهد الراشدي، وخاصة في جانب الفتوحات الإسلامية، وانتشار الدعوة في المشرق والمغرب، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وازدهار الحضارة الإسلامية^(١).

أولاً: صلة العهد الأموي بالعهد الراشدي :

كان العهد الأموي وخصوصاً عهد معاوية امتداداً للعهد الراشدي في عدة جوانب، فبقى كثير من الصحابة إلى العهد الأموي، وشاركهم في العلم والفقه والقضاء وغيرها كبار التابعين، ثم صغار التابعين، كما بقى بعض قضاة العهد الراشدي يمارسون القضاء في العهد الأموي، وبعضهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث رحمه الله، وبقيت في العهد الأموي آثار التربية الدينية وسمو العقيدة، وآثار الإيمان، والالتزام بأهداب الدين، والتقيّد بالأحكام الشرعية، وظهر في العهد الأموي عدد كبير من المجتهدين الذين كانوا همزة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية، وكان العلماء والمجتهدون في العهد الأموي أساتذة لأئمة المذاهب التي ظهرت في العهد العباسي، وكان لهذه الصورة الفقهية الزاهية أثرها الكبير والمحمود على حسن سير القضاء والعدالة في العهد الأموي، وظهر التوسع بالاجتهاد، كما بدأت حركة تدوين العلوم الإسلامية، والانفتاح على الحضارات الأخرى، وترجمة الثقافات والعلوم من الأمم المجاورة^(٢).

ثانياً : تخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء، وفصل السلطات:

كان الخلفاء الراشدون يتولون القضاء بأنفسهم، ويفصلون في القضايا والدعاوى والمنازعات، وصدرت عنهم أفضية كثيرة، وكان الولاية في الأمصار يتمتعون بنفس

(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٥).

(١) تاريخ القضاء في الإسلام، ص (١٦٥).

السلطات والصلاحيات الممنوحة للخليفة لأنهم نواب عنه، إلا إذا قيدت سلطتهم ومنعوا من القضاء، وعين معهم القضاة للفصل بين الناس، ومن هؤلاء الولاة معاوية بن أبي سفيان الذى بقى والياً على الشام عشرين سنة، وكان يتولى القضاء والحكم بنفسه^(١)، ولما تولى معاوية الخلافة تخلى عن ممارسة القضاء، وعين القضاة فى حاضرة الدولة الإسلامية بدمشق وفوض إليهم السلطة القضائية، وخولهم الصلاحيات الكاملة فى الدعوى، وسار ولاته فى الأمصار على هذا النهج، وابتعد الولاة عن أعمال القضاء، وسار خلفاء بنى أمية على هذه الخطة طوال العهد الأموى، سواء فى عاصمة الدولة الأموية، وفى سائر الأمصار والمدن والولايات، وانقطعت صلة خلفاء بنى أمية عن القضاء الإسلامى إلا فى ثلاثة أمور:

١- تعيين القضاة مباشرة بالعاصمة دمشق.

٢- الإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم، ومتابعة شئونهم الخاصة فى التعيين والعزل، والرزق، وحسن السيرة، ومراقبة الأحكام القضائية التى تصدر عنهم، للتأكد من مطابقتها للحق والعدل، والشرع والدين، والالتزام بالسلوك القضائى القويم.

٣- ممارسة قضاء المظالم، وقضاء الحسبة، وقد أولى خلفاء بنى أمية أهمية خاصة ورعاية كاملة لقضاء المظالم حتى وقف على قدميه، وأصبح له جهاز كامل مستقل. ومن ذلك نرى أن القضاء فى العهد الأموى كان مستقلاً عن أى سلطة أخرى حتى سلطة الخليفة، أو الوالى الذى كانت سلطته تنتهى عند تولية القاضى أو عزله، دون أن يكون لهم تدخل فى أعمال القاضى واجتهاده وحكمه، وما على الخلفاء والولاة إلا تنفيذ الأحكام التى يصدرها القضاة^(٢). قال النبأى: ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدمه من ملاحظة القضاة، وبقي الرسم على حذو ترتبه زماناً^(٣). فقد كان معاوية رضى الله عنه أول خليفة امتنع من القضاء تماماً، ودفعه إلى غيره، فكان له قضاة فى قاعدة ملكه، فضلاً عن قضاته فى الأمصار^(٤).

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٦٦).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٧).

(٣) تاريخ قضاة الأندلس، ص (٢٤).

(٤) عبقرية الإسلام فى أصول الحكم، ص (٣٤٢).

ثالثاً: رزق القضاة :

من المعلوم أن عمر بن الخطاب هو الذى فصل القضاء عن الولاية، وهو أول من رتب أرزاق القضاة، وأماً أمير المؤمنين على وهو المعروف بالزهد والقناعة فقد قال لعامله على مصر فى شأن القضاة: . . . وافسح له فى البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس^(١)، واستمر الحال على ذلك فى العهد الأموى، فكانت تجرى على القضاة أرزاقهم من بيت المال^(٢)، مع التوسيع عليهم، واختلاف المقدار بحسب البلدان والظروف^(٣)، وروى الشعبى عن شريح أنه كان يأخذ على القضاء خمسمائة درهم كل شهر ويقول: أستوفى لهم، وأوفيههم، ويقول أيضاً: أجلس لهم على القضاء وأحبس نفسى ولا أرزق. ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة ٧٢هـ، وسأل عن شريح، فعلم أنه امتنع عن القضاء - فى عهده - ابن الزبير، فاستدعاه وقال له: وفقك الله، عُذْ إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذهما وقضى إلى سنة ثمان وسبعين^(٤)، وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجراً ويحتسبون أجرهم عند الله تعالى فى إقامة شرعه، منهم مسروق بن الأجدع القاضى والمفتى ت ٦٣هـ، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه فى القضاء، وقالت امرأة مسروق: كان مسروق لا يأخذ على القضاء رزقاً، وقال القاسم: كان مسروق يقول: لأن أقضى يوماً فأقول فيه الحق أحب إلى من أن أربط سنة فى سبيل الله^(٥).

رابعاً : تسجيل الأحكام والإشهاد عليها :

ظهر فى العهد الأموى لأول مرة تسجيل الأحكام القضائية التى يصدرها القاضى فى سجله، وديوان المحكمة ليرجع إليه القاضى عند الحاجة، وأول من سجل الأحكام سليم بن عنز التجيبى قاضى مصر فى عهد معاوية، لما تخاصم إليه أشخاص فى توزيع ميراث، فحكم بينهم، فغابوا مدة، واختلفوا وتناكروا

(١) القضاء ونظامه فى الكتاب والسنة، ص (٢٦٧).

(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٦٧).

(٣) المصدر نفسه (١٧٦، ١٧٧).

(٤) أخبار القضاة (٢/٢٢٧، ٣٩٧).

(٥) طبقات ابن سعد (٦/٨٢)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٧٨).

وتجادوا الحكم، وعادوا يطلبون فصل الخلاف ثانية، فتذكر القاضى قصتهم، وكاشفهم بها، فاعترفوا، فأعادوا الحكم بينهم، وطلب من كاتبه أن يُسجل الأحكام القضائية وكتب لهم كتاباً بقضائه، وأشهد عليه^(١). وقال الكندى: فكان سليم أول القضاة بمصر سجلاً سجلاً بقضائه^(٢)، وكان سليم - فيما وصل إلينا - أول من أشهد على الأحكام القضائية لتوثيقها، ومنع جحودها أو إنكارها، ثم توسع الأمر فى العهد العباسى^(٣).

خامساً : أعوان القضاة :

يحتاج القضاة عادة إلى أعوان يساعدهم فى حسن التقاضى وسير القضاء، منهم كاتب القاضى أو كاتب المحكمة، أو كاتب الضبط، وأول ما ظهر فى العهد الراشدى^(٤)، ثم شاع استعماله فيما بعد، وظهر أعوان جدد فى العهد الأموى بحسب الحاجة، وتطور الحياة، واتساع أعمال القاضى، وكثرة الدعاوى، ونذكر أهمهم:

١ - **المنادى**: وهو الذى يجلس عند القاضى، لبيان مكانة القاضى، ومعرفة، والمناداة على الخصوم، وكان يطلق عليه (الذى على رأس القاضى) أو (صاحب المجلس) وأول ما ظهر ذلك فى عهد شريح، قال وكيع: عن عمرو بن قيس الماضى، قال: رأيت رجلاً كان يقوم على رأس شريح، وكان إذا تقدم إليه خصمان، فيقول: أيكما المدعى فليتكلم، وروى وكيع أيضاً: كان شريح إذا جلس للقضاء لم يقم حتى يُنادى: هل من خصم أو مستثبت؟ أو مستفتى؟^(٥)

٢ - **الحاجب**: وهو الذى يقف على باب القاضى، ليحجب عنه الناس أثناء النظر فى الدعاوى، ويرتب دخول المتداعين عليه عند تراحمهم وتعددتهم، وقد يكون الحاجب هو المنادى الذى يقف على رأس القاضى، ويقوم بالعملين معاً، وقد يكون هو نفسه الجلواز (التابع للشرطى، أو أحد الشرطة القضائية)، وقد يكلفه القاضى القيام ببعض الأعمال فى المحكمة، أو أداء بعض المهمات

(٣) المصدر نفسه، ص (١٨٠).

(١)، (٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٨٠).

(٤) نظام الحكم فى الشريعة، ص (٢٥٩)، تاريخ القضاء، ص (١٨٠).

(٥) تاريخ القضاء، عرنوس، ص (١٢٨)، تاريخ القضاء، ص (١٨١).

خارجها^(١)، وذكر وكيع أن إبراهيم النخعي كان جلوازاً للقاضي شريح^(٢)، وكان على رأس شريح شرطى بيده سوط^(٣).

٣ - الترجمان أو المترجم: اتخذ القضاة الترجمان لكثرة الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام، وتعارفت هذه الشعوب واختلطت مع بعضها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] فإذا حصل نزاع أو اختلاف، أو دعوى، استعان القاضي بالترجمان الثقة المقبول لينقل أقوال الخصوم له^(٤).

سادساً: المراقبة والمتابعة:

إن تخلى الخلفاء والولاة عن ممارسة القضاء، والاقتصار على التعيين والعزل لم يمنع الخلفاء من مراقبة أعمال القضاة ومراجعة أحكامهم، ومتابعة الدعاوى والأقضية التي تصدر عنهم، لأن الخليفة هو المسئول عن القضاء، وجميع ما يخص الأمة والأفراد في سياسة الدين والدنيا، وتفويض القضاء للقضاة لا ينجى الخليفة من المسؤولية في الدنيا والآخرة، لذلك كان الخلفاء يراقبون أعمال القضاة، ويتابعون ما يصدر عنهم، فإن وجدوا فيه خللاً، أو انحرفاً، أو تقصيراً، تصدوا للتقويم والتصحيح^(٥)، وهذا ما نقلناه سابقاً عن النباهي قال: (ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهدده على سنن من تقدمه من ملاحظة القضاة، وبقي الرسم حذو ترتيبه زماناً)^(٦).

سابعاً: مصادر الأحكام القضائية في العهد الأموي:

اعتمد القضاة على المصادر نفسها التي جرى عليها القضاة في العهد الراشدي، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، والإجماع، والسوابق القضائية والاجتهاد مع الاستشارة، وكان الالتزام بالقرآن والسنة هو الأساس، وهو ما تلتزم به الخلافة، وتم عليه البيعة، وتطور الأمر في السوابق القضائية على الإشادة بقول الصحابة رضوان الله عليهم والتقيد غالباً بما صدر عنهم، لأنهم أقرب عهداً وصلة بمدرسة

(١) تاريخ القضاء في الإسلام، ص (١٨١). (٢) المصدر نفسه، ص (١٨١)، أخبار القضاة (٢/٢١٥).

(٣) تاريخ القضاء في الإسلام، ص (١٨١). (٤) المصدر نفسه، ص (٤٢٣).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٨٦).

النبوة، ونزول الوحي، وخصوصاً أفضية الخلفاء الراشدين، كما بدأ يظهر في هذا العهد أثر العرف والعادة على أفضية الحكام، نظراً لاختلاف الأعراف والعادات في أصقاع الخلافة الأموية المترامية الأطراف، فكان القضاة ينظرون في الأقوال والدعاوى والأيمان والتهم بحسب الأعراف التي تظلمهم وتحدد المراد من الألفاظ والمصطلحات^(١)، وكان الفقهاء والقضاة والخلفاء يحرصون على الثبت من نقل النصوص، وصحة الأحاديث للاعتماد عليها، وحذر معاوية رضى الله عنه من الاعتماد على الأحاديث المكذوبة، فخطب في وفد من قريش، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنه قد بلغنى أن رجلاً فيكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله، ولا تُؤثر عن رسول الله ﷺ، فأولئك جهالكم^(٢)، وكان القضاة يعينون من الخلفاء والولاة، وتطلق يد القضاة لا يتقيدون برأى اجتهادى معين من أحكامهم، إلا ما ورد في النصوص والإجماع، وإلى حد ما إلى السوابق القضائية وقول الصحابة، ولم تكن المذاهب الفقهية قد ظهرت، ولم تدون الأحكام، فكان الأمر راجعاً إلى القضاة أنفسهم، وبما يصلون إليه مع استشارة الفقهاء والعلماء والمجتهدين في كل مصر على حدة^(٣).

ثامناً: اختصاص القضاة، وتخصيص القضاء:

كان لاتساع الدولة الإسلامية في العهد الأموى، وكثرة الناس، وانشغال الخلفاء بالفتوحات، وإدارة الدولة، وإخماد الفتن الداخلية أن انصرفوا عن القضاء، وفوضوا جميع اختصاصاته إلى القضاة، وتنازلوا عن النظر في الجنايات والحدود، وكلفوا القضاة النظر فيها، وكان معاوية بن أبى سفيان أول من تنازل عن النظر في الجراح والقتل والقصاص إلى القضاة، فكتب إلى القاضى سليم بن عتر (قاضيه على مصر) يأمره بالنظر في الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، وكان سليم أول قاضٍ نظر في الجراح، وحكم بها، فكان الرجل إذا أصيب فجرح أتى إلى القاضى، وأحضر بيته على الذى جرحه، فيكتب القاضى بذلك الجرح قضاءه على عاقلة الجراح ويرفعها إلى صاحب الديوان، فإذا حضر العطاء اقتص من

(٢) أعلام الموقعين (١/٦٣).

(١) المدخل الفقهي (١/١٥٠).

(٣) تاريخ القضاء في الإسلام، ص (١٩٠).

أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، وينجم (يقسّط) ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على ذلك^(١)، وكان القاضى فى العهد الأموى عام النظر فى الحقوق والأموال، وأحكام الأسرة، والموارث والقصاص والحدود، ويظهر ذلك جلياً فى من سيرة القضاة وأقضيتهم التى ذكرها وكيع فى كتابه (أخبار القضاة) والكندى فى كتابه (الولاء والقضاة)^(٢). وفى العهد الأموى ضم إلى القاضى أعمال أخرى بعضها شبه قضائية، وبعضها إدارية، فمن أهم هذه الأعمال فى ذلك العصر، النظر فى أموال الأيتام، الإشراف على الأوقاف، الإفتاء^(٣).

تاسعاً: القضاة والأعمال المختلفة:

نظراً لما يتمتع به القضاة من الثقة، وما يتصفون به من العدل والنزاهة، والورع والتقوى، فقد أسند لهم الخلفاء فى العهد الأموى عدة أعمال هى:

١- الشرطة: تولى القضاة رئاسة الشرطة بالإضافة إلى أعمالهم القضائية، فجمعوا بين ولاية القضاء وولاية الشرطة، وذلك فى عدة مدن إسلامية، فقد روى وكيع أن معاوية عزل سعيد بن العاص عن المدينة سنة ثلاث وخمسين، ويقال سنة أربع وخمسين فى شهر ربيع، وأعادته مروان بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشرط مع القضاء وأخذ الناس بالشدة^(٤)، وقال الكندى عن مسلمة بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشرط مع القضاء، وكان شديداً صلباً فى ولايته، ولما ولى الشرط أخذ الناس بالشدة^(٥)، قال الكندى عن مسلمة بن مخلد أنه: قدم مسلمة الفسطاط، فعزل السائب بن هشام ابن كنانة العامرى عن شرطه، وولى عليها عابس بن سعيد، وعزل سليمان بن عنز عن القضاء وجعله إلى عابس، فجمع له القضاء والشرط، وهو أول من جمع له سنة ستين^(٦)، ولما تولى مسلمة سنة ٦٢هـ، بعد أن مكث والياً على مصر أكثر من

(١) نظام الحكم فى الشريعة، ص (٢٥٦)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٢).

(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٣). (٣) المصدر نفسه، ص (١٩٣، ١٩٤، ١٩٥).

(٤)، (٥) أخبار القضاة (١/١١٨).

(٦) تاريخ القضاء، عرنوس، ص (٢٦)، الولاء والقضاء، ص (٣١١-٣١٣).

١٥ سنة وليها سعيد بن يزيد الأزدي في رمضان سنة ٦٢هـ، فأقر عابس بن سعيد على القضاء والشُرط جميعاً، ولما جاء عبد الرحمن بن عتبة بن جَخدم النهري أميراً على مصر أقر عابساً على الشُرط والقضاء، وذكر الكندي أن مسلمة بن مخلد والى مصر عين عابس بن سعيد على شُرطته، ثم جمع له الشُرط والقضاء^(١)، وذلك في أول سنة إحدى وستين^(٢).

٢- الإمارة: استعمل بعض القضاة ولاة في بعض الأحيان، كما كان الخليفة أحياناً ينوب القاضى مكانه في الإمارة إذا خرج عن دمشق، وكان كثير من الولاة يستخلفون القاضى على إدارة الأمور، وتصريف شئون المصر أثناء غيابهم، أو خروجهم لمهمة، قال أبو زرعة: لما خرج معاوية إلى صفين استخلف القاضى فضالة بن عبيد على دمشق^(٣).

عاشراً: أسماء القضاة في عهد معاوية :

١- أشهر قضاة دمشق:

أ- فضالة بن عبيد: الذى ولاه معاوية القضاء فى الشام بترشيح أبى الدرداء رضى الله عنه، وبقي فضالة على القضاء حتى مات فى خلافة معاوية سنة ٥٣هـ، وحضر معاوية جنازته وحمل بجانب السرير، وكان معاوية يستخلفه على دمشق عندما يخرج منها^(٤)، وقضى فضالة بدرء الحد عندما أتاها رجل بسارق يحمل سرقة، فقال له فضالة: لعلك وجدتها، لعلك التقطتها، فقال له الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنه ليلقنه، قال: إى والله، أصلحك الله، وجدتها، فخلا سبيله، وأجاز الفقهاء تلقين المتهم فى الحدود، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ماعز^(٥).

ب- النعمان بن بشير بن سعد، أبو إدريس الأنصارى الخزرجى: الصحابى الذى ولى القضاء بالشام بعد فضالة، وتوفى سنة ٦٤هـ قتلاً بقرب حمص^(٦).

(١)، (٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٦).

(٣) قضاة دمشق لابن طولون، ص (٤١٣).

(٤) أخبار القضاة (٣/١٩٩-٢٠١)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٨).

(٥) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٩).

(٦) المصدر تفسير، ص (١٩٩).

٢ - قضاة المدينة :

أ- أبو هريرة الصحابي المشهور رضى الله عنه: قضى بالمدينة، لما رواه وكيع عن نعيم قال: شهدت أبا هريرة يقضى وأمر بالتسوية بين الخصوم، ورفض حبس مدين معسر، وحكم على قاذف بثمانين جلدة، وكان أبو هريرة يسكن المدينة حتى توفي فيها سنة ٥٩هـ^(١)، ولعله استقضى قبل عبد الله بن الحارث.

ب- عبد الله بن الحارث بن نوفل، أبو عبد الله بن نوفل بن الحارث: وهو أول قاض فى المدينة لوالها مروان بن الحكم فى خلافة معاوية، وكان أول ما قضى حقاً على آل مروان، فزاده ذلك عند مروان بن الحكم خيراً، وكان يقضى باليمين مع الشاهد، وتوفى سنة ٨٤هـ، وكان من صلحاء المسلمين وفقهائهم^(٢).

ج- أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ٩٤هـ): وهو من كبار التابعين، وكان يزعم عن نفسه أنه أفقه الناس، واستعمله سعيد بن العاص والى معاوية على قضاء المدينة، وكان يستحلف صاحب الحق مع الشاهد الواحد^(٣).

د- مصعب بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ٦٤هـ): استقضاه مروان بن الحكم سنة ٥٣هـ أو ٥٤هـ وضم إليه الشرط مع القضاء، وكان شديداً صلباً فى ولايته، ولما ولى الشرط أخذ الناس بالشدة فى جرائم القتل التى انتشرت فى المدينة^(٤)، ولما مات معاوية واستخلف يزيد استعمل على المدينة عثمان بن محمد بن أبى سفيان، فاستقضى طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو أحد الأجواد، ويقال له طلحة الجواد^(٥).

٣ - قضاة البصرة: تولى القضاة فى البصرة كثيرون، نذكر منهم: عميرة بن يثربى الضبى الذى استقضاه عبد الله بن عامر بن كُرَيْز عامل معاوية على البصرة، وكان عميرة يحكم بضممان العارية، وبقي فى القضاء حتى سنة ٤٥هـ، فعزله زياد

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٠)، أخبار القضاة (١/ ١١٠ - ١١٤).

(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

(٣) أخبار القضاء (١/ ١١٦)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

(٤) أخبار القضاء (١/ ١١٨)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

(٥) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

الذى ولى إمارة البصرة، وولى القضاء عمران بن حصين فاستعفاه بطلبه، وولى عبد الله بن فضالة ثم أخاه عاصم بن فضالة، ثم زرارة بن أوفى^(١).

٤ - قضاة الكوفة: كانت الكوفة من أنشط المدن العلمية وكانت مركز النشاط والحركة والعلم منذ أسست فى عهد عمر رضى الله عنه واتخذها على رضى الله عنه عاصمة، وكان من أشهر قضاة الكوفة شريح القاضى، فقد كان من عهد عمر واستمر فى القضاء طوال العهد الراشدى، ومدة طويلة فى العهد الأموى تزيد على خمس وثلاثين سنة، وتوقف (فى عهد بن الزبير) ثم عاد إلى القضاء حتى استعفى من الحجاج فأعفاه سنة ٧٨هـ^(٢). ومن قضاة الكوفة فى عهد معاوية رضى الله عنه، مسروق بن الأجدع الهمداني، ولى لمعاوية فى إمرة زياد القضاء، وكان من الفضلاء^(٣).

٥ - قضاة مصر: ومن أشهر قضاة مصر فى عهد معاوية سلّيم بن عتر التجيبى وهو أول من ولى القضاء بمصر فى أيام معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه سنة أربعين هجرية^(٤)، وعابس بن سعيد المرادى الذى عينه مسلمة بن مخلد على الشرطة، ثم عزل سلّيم بن عتر عن القضاء، وجعله إلى عابس فجمع له القضاء والشُرط^(٥). هؤلاء هم أشهر القضاة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

الحادى عشر: ميزات القضاء فى عهد معاوية والأموى عموماً:

من أهم ميزات وخصائص القضاء فى العهد الأموى الآتى:

١ - بقى القضاء فى العهد الأموى، كما كان فى العهد النبوى والعهد الراشدى، فى معالمه الأساسية، وتنظيمه الجوهري، ووسائله وأهدافه، وكان استمراراً لما سبق فى إقامة الحق والعدل، والنزاهة والموضوعية، مع مراعاة التطور والتوسع فى الخلافة الأموية.

(١) أخبار القضاة (٣/٢)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٤).

(٢) أخبار القضاة (١٨٤/٢)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٧).

(٣) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٧). (٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).

٢ - استعمل القضاة فى العهد الأموى وسائل الإثبات الشرعية نفسها المعمول بها فى العهد الراشدى، مع التوسع فى الفراسة، واستعمال الحيل على المتهم، لكشف الحق، والوصول إلى الصواب والعدل^(١).

٣ - ظهرت فى العهد الأموى مصادر جديدة للأحكام القضائية وهى العرف، وقول الصحابى، وإجماع أهل المدينة إحياناً، بالإضافة إلى المصادر الأصلية فى العهد النبوى وهى القرآن الكريم والسنة الشريفة، والمصادر الاجتهادية فى العهد الراشدى وهى: الإجماع، والقياس، والسوابق القضائية، والرأى^(٢).

٤ - كان الخلفاء يعينون القضاة فى الشام، وقد يرشحون بعض القضاة للأقاليم، وكان الولاية فى الأمصار يعينون القضاة، ويعزلونهم.

٥ - حرص الخلفاء والولاية على اختيار أحسن الناس لولاية القضاء، من العلماء والفقهاء والشرفاء وخيرة القوم، الذين تتوافر فيهم صفات القاضى الشرعية، ويخشون الله تعالى، ويلتزمون بالحق والشرع، ويقيمون العدل بين الناس.

٦ - طرأت تغييرات بارزة على القضاء فى العهد الأموى، وأضيفت لأول مرة، وهى:

أ- تسجيل الأحكام خوفاً من النسيان، ومنعاً للتجادد، ووضعها فى ديوان خاص.

ب- الإشراف على الأوقاف من أجل حسن تطبيقها.

ج- النظر فى أموال اليتامى ومراقبة الأوصياء.

د- ترتيب الدعاوى، واستعمال الرقعة لإدخال الخصوم والمناذاة على الناس بالترتيب.

هـ- وجود المساعدين للقضاة، وهم الأعوان، والحاجب والشرطى فى مجلس القضاة.

و- الاستعانة بالشرطة لتنفيذ الأحكام القضائية، وإجراءات الخصومة.

٧ - كان القضاة مجتهدين فى إصدار الأحكام القضائية، ولهم الحرية المطلقة فى استنباط الأحكام من القرآن والسنة ومقاصد الشريعة، وبقية المصادر، ولم يتقيدوا

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢١٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢١٤).

برأى الخلفاء، ولم يلتزموا بمذهب فقهي، ولكن هذا لم يمنعهم من مشاوره العلماء والفقهاء، ومشاركتهم في المجالس القضائية^(١).

٨- لم يتأثر القضاة بسياسة الحكام والخلفاء، وكان القضاة مستقلين في عملهم، ولم تؤثر عليهم الميول السياسية، والحركات الثورية، والخلافات الفكرية، والفتن الداخلية^(٢). هذا هي أهم ميزات القضاء في العهد الأموي.

الثاني عشر: خطاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى معاوية في القضاء:

كتب عمر إلى معاوية رضى الله عنهما: أما بعد، فإننى كتبت في القضاء كتاباً لم ألك ونفسى فيه خيراً، . . ثم إن عمر قال:

١ - الزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك، إذا تقدم إليك الخصمان، فعليك بالبينة العادلة، واليمين القاطعة فهو الطريق للقاضى الذى لا يعلم الغيب. فمن تمسك به سلم له دينه، ونال أفضل الحظ والثواب فى الآخرة^(٣). فمعنى اليمين القاطعة: القاطعة للخصومة والمنازعة^(٤).

٢ - وأذن الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه^(٥)، ولم يرد بهذا الأمر تقديم الضعيف على القوى، وإنما أراد الأمر بالمساواة، لأن القوى يدنو بنفسه لقوته، والضعيف لا يتجاسر على ذلك، والقوى يتكلم بحجته، وربما يعجز الضعيف عن ذلك. فعلى القاضى أن يدنى الضعيف ليساويه بخصمه حتى يقوى قلبه، وينبسط لسانه، فيتكلم بحجته^(٦).

٣ - وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تعاهده ترك حقه، ورجع إلى أهله، فربما ضيع حقه من لم يرفع به رأسه^(٧). قيل: هذا أمر بتقديم الغرباء عند الازدحام فى

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢١٣ - ٢١٥).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢١٥).

(٣) المبسوط للرخسى (٦٦/١٦)، تهذيب ابن عساكر (٣٠٦/٦).

(٤) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٤٦٥/٢).

(٥) المبسوط للرخسى (٦٦/١٦).

(٦) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٤٦٥/٢).

(٧) المصدر نفسه (٤٦٥/٢).

مجلس القضاء، فإن الغريب قلبه مع أهله، فينبغي للقاضي أن يقدمه في سماع الخصومة، ليرجع إلى أهله، وكان رسول الله ﷺ يتعاهد الغرباء. وقيل مراده: إن الغريب منكسر القلب، فإذا لم يخصه القاضي بالتعاهد عجز عن إظهار حجته، فيترك حقه، ويرجع إلى أهله، والقاضي هو السبب، لتضييع حقه، حين لم يرفع به رأسه.

٤ - وعليك بالصلح بين الناس، ما لم يستبن لك فصل القضاء^(١). وفيه دليل أن القاضي مندوب إليه أن يدعو الخصم إلى الصلح، خصوصاً في موضع اشتباه الأمر^(٢).

(١)، (٢) نظام الحكم في الشريعة (٢/٤٦٥).

المبحث السابع

الشرطة في عهد معاوية

شهد عهد معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه تطوراً كبيراً فى نظام الشرطة من جهة نموها وترسخها كمؤسسة رسمية على مستوى الدولة، وبصورة لم تُعرف من قبل، لقد أصبحت مؤسسة الشرطة مسئولة كاملة ومباشرة عن توفير الأمن وإقرار النظام فى جميع الأمصار الإسلامية، لقد أصبحت أهم قوة أمن يعتمد عليها معاوية وولاته لتحقيق الأمن الشخصى من جهة، وحفظ الأمن والنظام فى الداخل من جهة أخرى، يضاف إلى هذا كله، أن أصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموى، وحمايته من اعتداءات الفرق الأخرى المعارضة له كالخوارج والشيعية وغيرهما، التى كانت تعمل على إسقاطه بشتى السبل، وقد استعمل معاوية رضى الله عنه الشرطة كحرس خاص لحمايته شخصياً، ودونما شك أن المحاولة الفاشلة التى قام بها الخوارج لاغتيال معاوية، كان لها دور كبير فى دفع معاوية لاتخاذ قراره بالاعتماد على الشرطة كحرس خاص لضمان عدم تكرار المحاولة، وخصوصاً أن علياً وعمرو بن العاص قد تعرضا للمحاولة نفسها، قُتل على أثرها أمير المؤمنين على، وكان ذلك عام ٤٠هـ، ومنذ ذلك ومعاوية لا يخرج بدون حماية خاصة، وحتى أوقات الصلوات، كان يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه حماية له من الاعتداءات المحتملة من منائيه^(١).

أولاً: الشرطة فى العراق:

يعتبر المغيرة أول والٍ يعينه معاوية فى الكوفة، وقد استعان برجال الشرطة لغرض بسط الأمن، وعين صاحب شرطة عُرف بشراسته وقسوته، وكان يدعى قبيصة بن دمّون^(٢)، ومن الحوادث التى تبين مدى فعالية الشرطة فى حفظ الأمن والنظام ما أورده الطبرى حول صراع المغيرة مع الخوارج، وذلك حين أخبره

(١) تاريخ الطبرى (٦٥/٦)، الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٦).

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٧).

صاحب الشرطة باجتماعهم فى الكوفة لإثارة القلاقل والاضطرابات، فأصدر المغيرة أوامره إلى صاحب الشرطة بمحاصرة مكان الاجتماع، وبعد أن ألقى القبض عليهم أودعهم السجن. وفى البصرة، عين معاوية عبد الله بن عامر والياً عليها ثم عزله فى عام ٤٥هـ، وعين زياد بن أبيه والياً على البصرة. وقد تبين لزياد عند وصوله البصرة مدى التدهور الحاصل فى الأمن، فذكره وشدد عليه فى خطبه التى افتتح بها ولايته، جرياً على العادة فى ذلك الوقت فألقى خطبة طويلة سيأتى الحديث عنها بإذن الله، بين فيها أسلوبه الذى سوف يتبعه فى معالجة التدهور الأمنى.

ومن قراءة تلك الخطبة تبين أن زياد كان مصمماً على إقامة الأمن والنظام بغض النظر عن الوسيلة التى تحقق ذلك الهدف^(١)، ولو كانت بالعسف وخصوصاً حين يقول: وإنى أقسم بالله لأخذنّ السولى بالسولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: اتج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لى قناتكم^(٢)، ويروى البلاذرى كيف استتب الأمن فى البصرة فى عهد زياد، وذلك فى حادثة مفادها أن زياداً سمع جلبة وأصواتاً بين العامة، فسأل عن السبب فقبل له: إن بعض الناس قد استأجر من يحمى له بيته، وذلك نظراً لعدم وجود الشرطة، وانتشار السرّاق^(٣)، وفى اليوم التالى أمر زياد صاحب الشرطة بأن يقوم الشرطة بحراسة الطرقات بعد صلاة العشاء^(٤)، ويضيف البلاذرى أن الشرطة قد قتلت ما يقارب الخمسمائة نفر من لص ومتتهب للبيوت^(٥).

ويعتبر زياد أول من منع التجول وذلك بمنع العامة من الخروج من منزلهم ليلاً^(٦)، وكان يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ولا يرى إنساناً إلا قتله. فأخذ ليلة أعرابياً، فأتى به زياداً فقال: هل سمعت النداء؟ - يقصد نداء منع التجول ليلاً - قال: لا والله، قدمت بحلوبة^(٧) لى وغشيني الليل فاضطرتها إلى موضع، فأقمت لأصبح، ولا علم لى بما كان من الأمير، قال: أظنك والله صادقاً، ولكن فى قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه^(٨). ومثل هذا الفعل الظالم

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٨). (٢) تاريخ الطبرى (٦/١٣٥).

(٤) المصدر نفسه (٤/١٧١).

(٦) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٩).

(٨) تاريخ الطبرى (٦/١٣٨).

(٣) أنساب الأشراف (٤/١٧١).

(٥) المصدر نفسه (٤/١٧١).

(٧) الحلوب: ذات الحلوب.

لا تقرّه الشريعة مهما كانت التبريرات^(١). وعلى ما يبدو أن قتل البدو لم يكن لمجرد الرغبة في القتل ذاته، بل تمّ لإقناع أهل البصرة بجدية الوالى فى تنفيذ أوامره، وأن لا أحد منجى من العقوبة إذا خرق القانون، حتى لو كان بريئاً لا ذنب له، كما سبق وهدّد فى خطبته البتراء، لقد كان الهدف النهائى عند زياد إقرار هبة الدولة والحصول على طاعة العامة، ولو عن طريق الإرهاب، وبذلك تستقيم الأمور فى البصرة حيث ترى العامة أن الأمر لا هزل فيه ولا هوان فى تطبيق العقاب^(٢)، ولم يكن خافياً على زياد بن أبيه ضرورة إعادة تنظيم جهاز الشرطة حتى يتمكن من تحقيق سيطرة فعالة على الأوضاع الأمنية، لذلك عمل زياد على اتخاذ بعض الإجراءات التى تسمح له بفرض هيمنته، منها زيادة عدد الأفراد العاملين فى الشرطة فصعد عددهم^(٣) حتى وصل أربعة آلاف فرد، وعين اثنين فى منصب صاحب الشرطة بدلاً من واحد^(٤).

إن ارتفاع عدد رجال الشرطة إلى أربعة آلاف يدل على أمرين: أولهما: شدة الاضطراب الداخلى. الثانى: أن الشرطة كانت ترفد الجيش فى كثير من الأحيان^(٥). وبلغ من دقته فى عهده أنه قال: لو ضاع جبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه^(٦)، وترتب على ذلك ما قاله الطبرى: وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم فى العقوبة، وجرّد السيف، وأخذ بالظنّة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس فى سلطانه خوفاً شديداً، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتیه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدًا قبله، وأدرّ العطاء، وبنى مدينة الرزق^(٧)، وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد، استطاع أن يفرض النظام الأمنى حيث حقق للأمويين رغبتهم فى استقرار النظام والأمن فى كل من البصرة والكوفة، وحيث أصبحت الشرطة أهم قوة داخلية وأكثرها فاعلية^(٨).

(١) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢٣) نمر بن محمد الحميدانى.

(٢) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٠).

(٤) تاريخ الطبرى (١٣٨/٦).

(٥) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ والإسلام (٦٣٦/٢).

(٦) المصدر نفسه (١٣٩/٦).

(٨) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤١).

(٧) المصدر نفسه (١٣٨/٦).

ثانياً: الشرطة فى الأقاليم الأخرى:

عند مقارنة مصر مثلاً بغيرها من الأمصار الإسلامية كالبصرة مثلاً، نجد أن الشرطة لم تلعب الدور نفسه وذلك لبعده مصر عن الاضطرابات التى كان يحدثها عادة الخوارج وكذلك تذكر المصادر فى العادة حرص الولاة عند اختيار صاحب الشرطة، وقد عين مروان بن الحكم والى المدينة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف فى منصبى صاحب الشرطة والقضاء فى آن واحد - كما مرّ معنا - وكان ذلك فى عهد معاوية^(١). ويروى ابن سعد أن مصعباً كان شديداً على المذنبين والخارجين على القانون^(٢)، وقد طلب مصعب من الولى مروان بن الحكم أن يزوده بعدد كبير من أفراد الشرطة، إذا كان يريد الحفاظ على الأمن فى المدينة، حيث لم يكن عدد الشرطة المتوافر كافياً لهذه المهمة^(٣)، وأجابه مروان إلى طلبه وأرسل إليه مائتى شرطى، وظل مصعب فى منصب صاحب الشرطة حتى وفاة معاوية^(٤).

ثالثاً: واجبات الشرطة:

كان للشرطة فى الدولة الأموية مكانة مميزة بسبب الواجبات المهمة التى كانت تقوم بها هذه المؤسسة تجاه السلطة والمجتمع، ومن هذه الواجبات:

١ - حماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئتهم فى الداخل: أول من استخدم الشرطة لحمايته الشخصية من الاغتيال، الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية، الذى خاض صراعاً سياسياً - عسكرياً عنيفاً مع معارضيه من الخوارج وغيرهم، وكان الشرطة يحرسون معاوية بشكل دائم فى حله وترحاله، بل حتى وقت الصلاة كان هناك حارس يقف عند رأسه وهو يصلى فى المحراب، وعلى ما يبدو أن الخليفة كان يسير بين يديه صاحب الشرطة متقلداً كامل سلاحه، وكذلك تقوم الشرطة بتوفير الحماية للولاة فى الأمصار المختلفة، بالطريقة السابقة نفسها، وكما ذكر سابقاً أن زياد بن أبيه كان يستخدم الشرطة لأمنه الشخصى، وكان صاحب الشرطة هو المسئول الأول عن سلامة الولى^(٥). إن ظهور صاحب الشرطة فى

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣)، الطبقات (١٥٨/٥). (٢) الطبقات لابن سعد (١٥٨/٥).

(٣) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣)، الأغاني (٧٤/٥).

(٤) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣).

(٥) تاريخ الطبرى (١٣٨/٦)، الدولة الأموية فى العصر الأموى، ص (٧٩).

مقدمة موكب الخليفة أو الوالى فى الأماكن العامة ليس دليلاً فقط على الحماية، بل لإشعار العامة أيضاً بالهيمنة والسلطة، إلى جانب ذلك كانت الشرطة أداة بيد الخليفة والولاية لفرض سلطة الدولة على الذين يحاولون التمرد عليها أو معارضتها^(١)، وكانت تعين الخليفة على جمع المعلومات، فقد كان معاوية رضى الله عنه قد بلغ من اهتمامه فى الحصول على أخبار عماله ورعيته أن بثَّ عيونَه فى كل قطر وكل ناحية، فكانت تصله الأخبار أولاً بأول فانظمت له أمره، وطالت فى الملك مدته^(٢)، وحذا زياد بن أبيه حذو معاوية، ومما يحكى عنه: أن رجلاً كلمه فى حاجة له فتعرف عليه وهو يظن أنه لا يعرفه فقال: أصلح الله الأمير أنا فلان ابن فلان. فتبسم زياد وقال: أتتعرّف إلىّ وأنا أعرف منك بنفسك، والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البُرد^(٣) الذى عليك وهو لفلان. . فبهت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه^(٤).

٢ - معاقبة المذنبين والخارجين عن القانون: الشرطة بحكم كونها القوة الرئيسية المسئولة عن حفظ الأمن، والنظام داخل المدن، إضافة إلى واجبها فرض القانون، ولكن الأحوال الاجتماعية فى المدن الكبرى كانت تدفع الشرطة إلى اتخاذ إجراءات مشددة تجاه العامة. وقد بين زياد بن أبيه فى خطبته البتراء خطورة التجاوزات التى حدثت من الناس فقال: . . . من بيّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، . . . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قومًا، غرقناه، ومن حرّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتًا نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حيًّا^(٥) . . . من هذه الخطبة يتبين مدى التدهور الحاصل فى البصرة، من خلال طبيعة الجرائم التى كان يرتكبها بعض المنحرفين من أهلها قبل قدوم زياد، وحين انتهى من خطبته أمر صاحب الشرطة بحراسة الطرقات وقتل كل من يوجد خارج منزله ليلاً^(٦). ويروى البلاذرى أن زيادًا لم يتردد فى تنفيذ ما توعدّ به^(٧) حرفياً.

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٧٩).

(٢) المحاسن والمساوى، ص (١٤٣، ١٤٤) للبيهقى.

(٣) البرد: كساء مخطط يلتحف به . (٤) المحاسن والمساوى، ص (١٤٤).

(٥) تاريخ الطبرى (١٣٦/٦).

(٦) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٨٣)، أنساب الأشراف (٤/١٧٢).

(٧) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٨٣).

٣ - تنفيذ العقوبات الشرعية: من الواجبات التي كانت الشرطة تقوم بها، تنفيذ الحدود الشرعية، التي يأمر بها القضاة، ضد كل من يظهر منه فساد في المجتمع الإسلامي، والحدود الشرعية - كما هو معروف - مذكورة في القرآن الكريم، والسنة النبوية بينت ذلك. وكان الصحابة والتابعون رضوا الله عنهم لديهم غيرة وحرص على أوامر الدين وتنفيذها، ومن ذلك ما رواه الإمام مالك أن عبداً سرق ودياً^(١) فوجدوه، فاستعدى على العبد مروان بن الحكم^(٢)، فسجن مروان العبد، وأراد قطع يده، فانطلق سيد العبد إلى رافع بن خديج رضوا الله عنه، فسأله عن ذلك، فأخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا قطع في ثمر ولا كثر»^(٣)، فقال الرجل: فإن مروان بن الحكم أخذ غلاماً لي وهو يريد قطع يده، وأنا أحب أن تمشى معي إليه فتخبره بالذي سمعت من رسول الله ﷺ، فمشى معه رافع إلى مروان بن الحكم، فقال: أخذت غلاماً لهذا، فقال: نعم، فقال: ما أنت صانع به؟ قال: أردت قطع يده، فقال له رافع: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا قطع في ثمر ولا كثر» فأمر مروان بالعبد فأرسل^(٤).

ويستفاد من هذه اللمحة كذلك احترام الولاية والعمال للصحابة الكرام، وعدم التعرض لتصرفاتهم ما دامت منبثقة من الحرص على تنفيذ أمر الله ورسوله حتى وإن كانت داخلة ضمن مهام الوالي^(٥)، ومن مظاهر الغيرة على أوامر الدين وتغليب أمر الله على ما سواه، امتناع والي شرطة المدينة مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف رضوا الله عنهما من هدم دور بنى هاشم، ومن كان في حيزهم، ودور بنى أسد بن العزى، والشدة عليهم، وذلك لموالاتهم الحسين بن علي وابن الزبير، وامتناعهم عن بيعة يزيد، إذ قال مصعب لأمير المدينة عمرو بن سعيد^(٦): أيها الأمير إنه لا ذنب لهؤلاء ولست أفعل، فقال له الأمير: انتفخ سحرك يا ابن أم حريث، إلى سيفنا، فرمى إليه بالسيف وخرج عنه^(٧). وهذا الفعل يدل على قوة

(١) الودي: الواحدة ودية، وهي صغار النخل، الفائق في غريب الحديث (٥١/٤).

(٢) ولاية الشرطة في الإسلام ص (١٢٠).

(٣) الكثر: بفتح الكاف والمثلثة هو جمار النخل أى وعاء الطلع.

(٤) غريب الحديث (٢٤٧/٣).

(٥) ولاية الشرطة في الإسلام، ص (١٢١).

(٦)، (٧) نسب قريش ص (٢٦٨)، ولاية الشرطة في الإسلام، ص (١٢٢).

إيمان مصعب، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق^(١)، ومن واجبات الشرطة، مساعدة الجيش ضد أعداء الدولة^(٢)، وتنفيذ أحكام الإعدام، والتعذيب للمناوئين السياسيين وكل ما يتصل بالسجناء عند صاحب السجن^(٣)، وإن كانت الواجبات الأخيرة تتضح ملامحها في عهد الخلفاء الذين بعد معاوية أكثر.

رابعاً: قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة :

تعتبر الشرطة العمود الفقري للجهاز الأمني في الدولة الأموية، وكانت المهمة الرئيسية لهم حفظ الأمن الداخلي بالدرجة الأولى، ومع ذلك عرف العصر الأموي مؤسسات أخرى لعبت دوراً مشابهاً ومكملاً للشرطة وهذه المؤسسات هي :

١ - الحرس: استخدمت كلمة حرس في بدايات العصر الأموي لوصف كل من يقوم بمهمة الحراسة بغض النظر عن المكان أو الشخص الذي يحرسه، وفي العصر الأموي كان الحرس يمثلون تلك الفئة التي تقوم بمهمة حماية الخلفاء والولاة، وعلى ما يظهر أن معاوية كان أول خلفاء بني أمية يتخذ الحرس لحمايته الشخصية من احتمال الاعتداء عليه من قبل الخوارج وغيرهم، وفي خلافة معاوية استخدم الولاة الحرس، كقوة أمنية داخلية إلى جانب الشرطة، وقد استخدم زياد بن أبيه، خمسمائة رجل في قوات الحرس الخاصة به، وعين عليهم رجلاً من بنى سعد أطلق عليه صاحب الحرس^(٤)، ومنذ ذلك الحين وخلفاء بني أمية يعينون من يثقون به^(٥)، وخلاصة القول: أن مفهوم الشرطة يتسع إلى الدرجة التي يضم فيها نشاط الحرس تحت سلطته، في حين أن الحرس لا يدخلون ضمن الشرطة^(٦)، ويورد الجاحظ شطر بيت من الشعر: كأنه شرطى بات في حرس، للدلالة على التفرقة بين المؤسستين^(٧).

٢ - الحرس من غير العرب: عرف العرب، قبل قيام الدولة الأموية، بعض الألفاظ الأجنبية التي تطلق على الحرس الذين كانوا يحرسون بيت المال في

(٢) المصدر نفسه، ص (٩٧).

(١) الشرطة في العصر الأموي، ص (١٢٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (٩٧ - ١٠٩).

(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص (١٢٨).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٣٠).

(٥) الشرطة في العصر الأموي، ص (١٢٨).

(٧) الحيوان (٣/١٥٨)، الشرطة في العصر الأموي، ص (١٣٠).

البصرة^(١). وهذه الألفاظ هي الأساورة والسيابجة والزطّ، ويشرح البلاذري هذه الألفاظ فيقول إنّ الأساورة من الفرس، أما السيابجة والزطّ فينحدرون على ما يظهر من الهند^(٢)، ويتضح من تاريخ الخلافة الأموية أن الولاة كانوا يستخدمونهم لضرب الثورات التي تقوم بها المعارضة، بين حين وآخر، وكان يُطلق على هذه العناصر لفظ البخارية تبعاً لرواية البلاذري، أيضاً، أن والي خراسان عبيد الله بن زياد، أسر في إحدى المعارك عدداً كبيراً من أهل بخارى وجعل من البصرة مستقراً لهم، وأجرى لهم من الأعطيات ما كان يدفعه نفسه للقبائل العربية، وذلك حين أصبح والياً على العراق^(٣)، وقد استخدم عبيد الله هذه القوة الجديدة لمساندة قوة الشرطة للقضاء على ثورة الخوارج في العراق^(٤)، وأما ابن سعد فيذكر أن البخارية قد استعملوا أول الأمر كقوة أمنية، على يد والد عبيد الله حين كان والياً على العراق، ويضيف ابن سعد أن زياداً استخدم البخارية لمساعدة الشرطة في محاولتهم للقبض على حجر بن عدى^(٥) رضى الله عنه. ويشيد البلاذري بمهارة البخارية في الرمي بالقوس^(٦)، ويظهر من مراجعة المصادر التاريخية أن استعمال هذه الفرقة كقوة بشرية لم يكن مقتصرًا على الولاة، بل وجد أنهم كانوا يقومون بخدمة الأشراف، ففي مدينة البصرة مثلاً، كان أبناء عبد الله بن عامر والي العراق في السابق، يستخدمون البخارية كحرس خاص لحمايتهم الشخصية^(٧).

٣ - العرفاء: ونظراً لما يتمتع به العرفاء من مكانة لدى الولاة فإن بعضهم يستطيع من الأمور ما لا يقدر عليه غيره، نظراً لكون العريف مسئولاً عن مراقبة العامة وتبليغ السلطات عن الحركات المشبوهة أو عن الأفراد الذين يُشك في ولائهم للسلطة. . ولذلك لم يكن لهذا المنصب شعبية، إلا أن ذلك لم يمنع كبار القوم من توليه، إذ يورد ابن سعد في طبقاته أسماء كثيرة تولت مهام هذا المنصب^(٨).

(١) الشرطة في العصر الأموي، ص (١٣٠).

(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (١٣٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٦/٢١٩)، الشرطة في العصر الأموي، ص (١٣١).

(٥) طبقات ابن سعد نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص (١٣١).

(٦) الأنساب للبلاذري نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص (١٣١).

(٧)، (٨) المصدر نفسه، ص (١٣١).

٤ - صاحب الاستخراج أو العذاب : شهد العهد الأموي قيام جهة خاصة

مهمتها استخراج الأموال من الذين يختلسونها بحكم مناصبهم الرسمية، وكان يطلق على الشخص المكلف بمهمة تعذيب المختلسين لكي يقرؤا بمكان وجودها، لقب «صاحب الاستخراج»، ويروي ابن قتيبة أن هذه المهنة ظهرت في عهد زياد بن أبيه، الذي كان دائم التحذير لمن يعينهم لمساعدته في الإدارة، وكان لا يتردد في إعفائهم من مناصبهم إذا ظهرت منهم خيانة، ويكون العزل بعد إيقاع العقوبة بهم^(١)، ويورد كثير من المؤرخين حوادث تنصل بالولاة الذين استخدموا صاحب الاستخراج لاسترداد الأموال المختلسة من المختلسين، أو ممن ظهرت عليهم إمارات الخيانة أو ما شابه ذلك من أمور. من ذلك أن والى العراق عبيد الله بن زياد عزل من مساعديه رجلاً يدعى عبد الرحمن واستخلص منه مائتي ألف درهم^(٢)، كما استخلص مبلغ مائة ألف درهم اختلسها أحد العاملين في إدارته^(٣).

٥ - جهاز الحسبة: والمقصود هنا بالحسبة: المعنى الضيق، أى عملية الإشراف

على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها، وقد كان من مهام المحتسب في الدولة الأموية جباية ضرائب المبيعات وتحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة^(٤)، إضافة إلى مسئوليات السوق والتي من أبرزها^(٥):

أ- التأكد من دقة الأوزان، والمكاييل، والمقاييس المستعملة في عمليات السوق، منعاً لحدوث غبن في التعامل.

ب- التفقد المفاجئ لعيار الحبات، والمثاقيل لضمان عدم الإخلال بها.

ج- منع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع الأساسية .

د- منع حالات الاحتكار إن وجدت، وإجبار المحتكر على بيع ما احتكره.

ووفق هذا المفهوم نجد أن الحياة الاقتصادية في بداية الدولة الأموية كانت بسيطة،

وعليه فقد سار ولاة الأقاليم على نهج الخلافة الراشدة، فكان الولاة - كل في إقليمه - يباشر الحسبة بنفسه^(٦). لكن هذا لم يمنع من ظهور وظيفة العامل على

السوق في مدينة البصرة في عهد ولاية زياد بن أبيه (٤٥ - ٥٣هـ)^(٧). ويمكن

(١) عيون الأخبار (١/ ٥٥)، الشرطة في العصر الأموي، ص (١٣٤).

(٢) الشرطة في العصر الأموي، ص (١٣٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٣٤) نقلاً عن الأنساب للبلاذري .

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٢٣). (٥) الإدارة في العصر الأموي، ص (٢٢٣).

(٦) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٢٣). (٧) المصدر نفسه، ص (٢٢٤).

القول - من خلال التتبع - بأن نظام الحسبة كان موجوداً منذ بداية العصر الأموي، وإن لم يكن يحمل لفظ الحسبة، إنما دور المحتسب في تنظيم السوق كان متواجداً طوال العصر الأموي، وقد نما النظام وتطور بما يوافق تطور قطاع التجارة، والأسواق، فيلاحظ أنه في بداية الأمر كان الوالى يتولى بنفسه أعمال الحسبة ثم تطور الأمر لأن يكون هناك شخص معين وظيفته الإشراف على السوق، ثم تطور الأمر ليكون لهذا المعين أعوان يعينونه في عمله^(١).

٦- نظام المراقبة: ظهر هذا النظام فى دمشق فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما، فى عدة صور:

أ- إلزام بعض مناوئيه السياسيين بأداء الصلاة فى الجماعة فى مساجد معينة^(٢). ويشبه هذا الإجراء ما هو معمول به فى بعض الدول المعاصرة من إلزام المشبوهين بالتردد على مراكز الشرطة فى أوقات محددة^(٣).

ب - إسكان بعض مناوئيه فى مساكن خاصة أعدّها لهم فى دمشق وغيرها لتسهيل عليه مراقبتهم.

ج - إحكام المراقبة الشخصية على الأجانب الذين يدخلون دار الإسلام^(٤).

٧ - مؤسسة الدرك: والدرك فى الاصطلاح: مؤسسة تضم قوى الدولة العاملة فى سبيل الأمن خارج حدود المدن الكبيرة^(٥)، وفى الطبرى نص يفيد اهتمام زياد عام ٤٥هـ، أى أيام معاوية بالسُّبُل - أى الطرق - جاء فيه: قيل لزياد: إن السبيل مخوفة. فقال: لا أعانى شيئاً سوى المصر، حتى أغلب على المصر وأصلحه، فإن غلبنى المصر، فغيره أشد غلبة، فلما ضبط المصر تكفل ما سوى ذلك، فأحكمه^(٦). وكان يقول: لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه^(٧). وهذا لا يكون إلا إذا كان رجاله متمكنين من الطرق والسبيل^(٨). وقد طرح زياد نظرية أمنية مفادها التمكن أولاً من داخل الأمصار، ثم التوسع لما حولها من طرق وسبيل. هذه بعض الملامح والمعالم الكبيرة عن نظام الشرطة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموي، ص (٢٢٤).
(٢) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢٥).
(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٢٥).
(٥) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/٦٤٣).
(٦)، (٧) تاريخ الطبرى (٦/١٣٩).
(٨) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ (٢/٦٤٤).

المبحث الثامن

الولاية والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه

حاول معاوية رضى الله عنه طيلة فترة خلافته أن يجعل أسلوب حكمه فى وضع بين المركزية واللامركزية. فقد اتخذ من دمشق عاصمة للدولة، وغدت المركز الرئيسى الذى تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة، أما ترتيب أمور الولايات داخلياً فقد تركه معاوية رضى الله عنه للولاية ليقوموا به كل حسب خبرته وجدارته على أن يكونوا جميعاً مسئولين أمام معاوية رضى الله عنه مسئولية مباشرة، ومحاسبين على كل عمل يقومون به، ولعل من ضمن الأسباب التى حدت بمعاوية لأن يتخذ من دمشق عاصمة للدولة الأموية هو معرفته الجيدة بأهل الشام وثقته التامة فيهم وفى ولائهم له، فقد أمضى معاوية رضى الله عنه هناك قرابة عشرين عاماً أميراً على بلاد الشام، كان خلالها يتمتع خلالها بشعبية كبيرة بينهم، ولعلّ معاوية رضى الله عنه كان يشعر أن استمرار دولة الأمويين يعتمد فى درجة كبيرة على مدى المساعدة التى يقدمها إليه أهل الشام خاصة. كان معاوية رضى الله عنه يعى هذه المسائل جيداً ويعيرها جلّ انتباهه، لذلك حاول جهده منذ البداية أن يعمل على حفظ التوازن بين رجالات القبائل العربية المختلفة فى بلاد الشام وعلى درجة الخصوص القبائل اليمانية والقبائل القيسية^(١)، وقد عمل معاوية رضى الله عنه كل ما فى استطاعته لإيجاد التوازن بين مصالح الطرفين فى بلاد الشام، فقد كان فى خدمة معاوية رضى الله عنه رجالات من القيسية أمثال الضحّاك بين قيس الفهرى وحبیب بن مسلمة الفهرى، مثلما كان هناك رجالات من اليمانية أمثال مالك بن هبيرة السكونى، وشرحبيل بن سمط الكندى، وحسان بن بحدل الكلبي وغيرهم، كما أن معاوية رضى الله عنه حصل على مساعدات من كلا الطرفين إبان فترتى ولايته وخلافته، وكانوا يحاربون إلى جانبه فى جيش واحد وتحت إمرة واحدة^(٢)، وكانت سياسة معاوية تقوم على الاستعانة بأفراد من أقاربه أبناء البيت الأموى مثل: عنبسة بن أبى سفيان، وعتبة

(٢) المصدر نفسه، ص (٧٣).

(١) خلافة معاوية بن أبى سفيان، العقيلي، ص (٧٠).

ابن أبى سفيان، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان وسعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك^(١)، وعمرو بن سعيد بن العاص^(٢)، وغيرهم. كما حرص معاوية رضى الله عنه على اختيار أعوانه وولاته من ذوى التجارب الواسعة من المسلمين، كعبد الله بن عامر بن كريز، والمغيرة بن شعبة، والنعمان ابن بشير الأنصارى، ومسلمة بن مخلد الأنصارى^(٣)، وغيرهم. ولم تكن المحابة هى الأساس الأهم والأوحد فى انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ورأى أن يستفيد بجهودهم ومواهبهم ولاسيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام^(٤). ونلاحظ أن معاوية استعان بأهل الصحبة والكفاية والولاء ولاة على الأمصار، ومع أن معاوية رضى الله عنه اختار بعض أعوانه من أهل بيته، يوليهم الولايات إلا أنه كان يعاملهم بحذر شديد إلى أن يطمئن لهم، ويقتنع بمقدرتهم الإدارية فقد كان يختارهم أول الأمر لولاية مدن صغيرة كالطائف^(٥) مثلاً، فإذا ما أظهر أحدهم مقدرة إدارية، فإن معاوية -رضى الله عنه- يضم إليه مكة لتكون تحت إشرافه ثم يتبعها بالمدينة وعند ذلك يقال: هو قد حذق^(٦). وغنى عن البيان أن الطائف كانت مدينة مهمة فى ذلك الوقت حيث تتمركز فيها قبيلة ثقيف^(٧) القوية، وأن من يستطيع من الولاة أن يسيطر على الطائف - سياسياً واقتصادياً - فإن بقية المدن تسهل السيطرة عليها بعد ذلك. وتشير نجدة خمّاش إلى أن معاوية رضى الله عنه جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرّب فيها أبناء البيت الأموى على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرّج فى تلك الإدارة وفق خطوات مقرّرة^(٨). وقد اتبع معاوية رضى الله عنه أسلوباً مميّزاً فى معاملته لبنى أهله ممن يستعين بهم. فقد كان يحاول أن يجعلهم متفرقين عن بعضهم البعض، وذلك كى يتجنب أى تحالف ضده^(٩).

(١) البلاذرى أنساب الأشراف نقلاً عن خلافة معاوية للعقلى، ص (٧٣).

(٢) خلافة معاوية، ص (٧٣) نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ١٦٠).

(٣) خلافة معاوية، العقلى، ص (٧٤). (٤) الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم العدوى، ص (٧٤).

(٥) خلافة معاوية للعقلى، ص (٧٤). (٦) تاريخ الطبرى، خلافة معاوية للعقلى، ص (٧٥).

(٧) خلافة معاوية للعقلى، ص (٧٥). (٨) الإدارة فى العصر الأموى، ص (١٠٨، ١٠٩).

(٩) أنساب الأشراف (٤/ ٦٥، ٦٧)، خلافة معاوية، ص (٧٥).

وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه تمتع رعايا الدولة من غير المسلمين بمتهى التسامح والرفق، وحصلوا على امتيازاتهم بسهولة ويسر. فقد كانوا يعملون فى مختلف الوظائف الحكومية، ذلك أن معاوية رضى الله عنه أبقى على النظم البيزنطية والقبطية التى كان معمولاً بها فى الشام ومصر والمغرب. كما أبقى على النظم الفارسية فى العراق وخراسان. وكان ترك معاوية رضى الله عنه هذه النظم على حالتها بسبب نقص من كانوا يعرفون لغات ونظم إدارة البلاد المفتوحة من المسلمين فى أوائل العهد الأموى، وعلاوة على ذلك فقد كان طيب معاوية رضى الله عنه الخاص، ويدعى ابن أثال^(١) غير مسلم، وكذلك سريج (سرجون) بن منصور الرومى مستشاره المالى^(٢)، وابن مينا^(٣)، وابن النضير^(٤) مولاه من عماله على الصوافى، كانوا أيضاً من سلالة غير المسلمين، وأسلم بعضهم فيما بعد. وفضلاً عن ذلك ترك معاوية لرعايا الدولة من غير المسلمين أيضاً حرية تامة فى ممارسة طقوسهم الدينية، فاستجاب لطلب نصارى دمشق بعدم زيادة كنيسة يوحنا فى مسجد دمشق^(٥). كما رمم لهم كنيسة الرها (أديساً) التى كانت قد تهدمت من جراء الزلازل^(٦). كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط فى حارة الروم فى ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر ما بين عامى ٤٧هـ - ٦٨هـ^(٧). كما استعان معاوية رضى الله عنه بمهندسين وفنيين من غير المسلمين فى بناء قصر الخضراء بدمشق الذى اتخذه معاوية مقراً لإقامته فى فترة إمارته على بلاد الشام ثم فى فترة خلافته بعد ذلك. ويروى البلاذرى أنهم بنوه لمعاوية رضى الله عنه من الحجارة بعد أن كان قبل مبنياً باللبن والطين^(٨).

وكما كانت سياسة التسامح مع الرعايا غير المسلمين هى الطابع المميز لفترة خلافة معاوية رضى الله عنه كذلك نرى سياسة التعاطف والاهتمام المتزايد وحسن المعاملة تجاه الموالى من المميزات الأخرى فى عصر معاوية. فنجد معاوية رضى الله

(١) تاريخ يعقوبى (٢/ ٢٢٣).

(٢) تاريخ يعقوبى (٢/ ٢٩٧) المحن، ص (١٧١) لأبى العرب.

(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١٢٣).

(٤) الخلافة معاوية للعقلى، ص (٨٠).

(٥) الأمويون والبيزنطيون، ص (٢٩١).

(٦) فتوح مصر، ص (١٣٢)، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى للقرضاوى، ص (٢٠، ٢١).

(٧) أنساب الأشراف (٤ / ١٤٧).

عنه استعان بكثير من الموالي فى إدارة بعض شئون الدولة؛ فعين مولاه عبد الله بن درّاج على خراج الكوفة ومعونتها فى ولاية المغيرة بن شعبه^(١). وكان وردان مولاه على خراج مصر فى ولاية عتبة بن أبى سفيان^(٢)، وكان على حرسه رجل من الموالي يقال له المختار، وقيل رجل يقال له مالك ويكنى أبا المخارق مولى لحمير، وكان على حجابيه سعد مولاه^(٣). وكان يلى أمواله بالحجاز أيضاً. وهو الذى قال فيه معاوية: أغبط الناس عيشاً مولاي سعد، كان يتربع جدّة، ويتقيّط الطائف، ويشتو بمكة^(٤). واتخذ زياد بن أبى سفيان من مهران مولاه، حاجباً له وكتبه على الخراج فى العراق^(٥). وكان أبو المهاجر دينار مولى لمسلمة بن مخلد الأنصارى فتولى له إدارة شئون المغرب^(٦) فى سنة ٥٥ هـ.

وبالرغم من هذه الأمثلة نجد أن عباس محمود العقاد يشير إلى أن معاوية كان لا يلتفت إلى الموالي، وردّد ما سبقه إليه المستشرقون فى طعنهم فى تسامح معاوية رضى الله عنه مع الموالي، رغم ما تزخر به المؤلفات العربية القديمة من أمثلة على هذا التسامح^(٧). ومن ناحية أخرى، فقد ترك معاوية رضى الله عنه الإصلاحات الضرورية لعماله على الأقاليم ليقوم كل واحد منهم بواجبه تجاه الإقليم الذى يرى شئونه^(٨)، وقد أصبح التقسيم الإدارى للدولة فى عهده كالآتى: دمشق عاصمة للدولة، وقسم البلاد إلى ولايات يحكم كل ولاية منها وال من قبل الخليفة، وكان لكل سلطة غير محدودة فى الولاية التى يحكمها، وفى بعض الأحيان أطلقت الدولة للوالى سلطة التصرف كما يشاء، حتى كان بعضهم يقتل وينفى، ويسجن، ويشرد... وقد لاحظنا أن هذا الحكم المطلق لم يتكرر، بل كان دائماً محصوراً فى ولاية العراق، وذلك لما كان يحدث فيها من اضطرابات وفتن أكثر من غيرها، وكان الخليفة يختار لهذه الولاية ولاة مشهورين بالحزم والشدة، فكان زياد بن أبيه من أشهر ولاة معاوية، أما بقية الولايات فكانت تحكم بطابع الدولة المألوف، فالوالى

(١) خلافة معاوية للعقلى، ص (٨١).

(٢) الإدارة فى العصر الأموى، خماس، ص (٣٤٧).

(٣) أنساب الأشراف (٤/٥٤، ٦٣) خلافة معاوية، ص (٨٢).

(٤) معجم البلدان (٤/١٢) خلافة معاوية، ص (٨٢). (٥) تاريخ خليفة، ص (٢١٢).

(٦) خلافة معاوية للعقلى، ص (٨٢). (٧)، (٨) خلافة معاوية، ص (٨٢).

مقيّد بأوامر الخليفة، لا يقضى إلا بعد رأيه، ولا يفصل إلا بعد مشاورته، وكان الوالى يرجع إلى الخليفة فى كل ما يتصل بالمصالح العامة، فإذا كان الأمر خاصاً بولايته له أن يتصرف فيه بحسب ما يحقق المصلحة العامة، وإلا فهو مسئول أمام الخليفة عن كل تصرفاته، وكانت ولايات الدولة الكبرى فى عهد معاوية^(١)، دمشق العاصمة، والبصرة، والكوفة، والمدينة ومكة، ومصر وغيرها، أما ولاية الأمصار فى عهد معاوية فسوف نتحدث عنهم فى حديثنا عن كل إقليم بإذن الله تعالى.

أولاً: البصرة:

ومن أشهر ولايتها فى عهد معاوية:

١- بسر بن أرطأة رضى الله عنه: تولى الولاية عام ٤١ هـ وجاءت روايات لم تصل إلى درجة الصحة تشير إلى تعرض بسر لابنى زياد بن أبيه^(٢)، ثم عزل وعين بدله عبد الله بن عامر.

٢- عبد الله بن عامر رضى الله عنه (٤١ - ٤٤ هـ): ففى هذه السنة أى ٤١ هـ ولى معاوية عبد الله بن عامر البصرة، وحرب سجستان^(٣)، وخراسان^(٤). ولم يكن تعيين عبد الله بن عامر على البصرة لأسباب شخصية، لأنه لم ترد رواية صحيحة تؤكد ذلك، ولكن اختيار معاوية رضى الله عنه له كان نتيجة خبرته السابقة فى ولاية البصرة وحرب سجستان وخراسان أيام عثمان، فما كان من معاوية إلا أن أسند الأمن إلى أهله، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب^(٥)، وبعد أن أمضى ابن عامر ثلاث سنوات تمكن فيها من تثبيت الفتى فى سجستان وخراسان واستفاد المسلمون من خبرته العسكرية، ثم دعت الحاجة إلى تغييره، فعزله معاوية وولى الحارث بن عبد الله الأزدي البصرة فى أول سنة خمس وأربعين، فأقام بالبصرة أربعة أشهر، ثم عزله وولاها زياداً^(٦).

(٢) تاريخ الطبرى (١٢/٦).

(١) الدولة الأموية (٩٧/١) محمد سيد الوكيل.

(٣) سجستان: تقع حالياً جنوب غرب أفغانستان.

(٤) تشمل حالياً: شمال شرق إيران، وشمال غرب أفغانستان.

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٣٤).

(٦) تاريخ الطبرى (١٣٣/٦).

٣ - زياد بن أبيه (٤٥هـ - ٥٣هـ):

أ - نسبة: يعتبر نسب زياد المكنى بأبي المغيرة، من أكثر القضايا غموضاً في حياته، فقد كانت أمه أمة اسمها سمية^(١)، ولم يتفق المؤرخون من هو أبوه، وبالتالي هم مختلفون في ذكر نسبه فقد ذُكر اسمه في المصادر، تارة زياد بن سمية^(٢)، وتارة زياد ابن عبید^(٣)، ومرة زياد الأمير^(٤)، وأخرى زياد بن أبي سفيان^(٥)، وفي أغلب الأحيان عرف بابن أبيه^(٦)، وذلك لما وقع في أبيه من الشك^(٧).

ب - صلح زياد مع معاوية: كان زياد بن أبيه والياً على خراسان لأمير المؤمنين على رضى الله عنه وكان مخلصاً له غاية الإخلاص، وحاول معاوية أن يكسب زياد ويضمه إلى صفه في عهد على رضى الله عنه إلا أنه فشل في ذلك. وبعد مقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه وجد معاوية فرصة طيبة لإعادة النظر في مساعيه الهادفة إلى استمالة زياد بأقل التكاليف، واستخدم معاوية لغة التهديد والترغيب مع زياد عند تحصنه بقلعة عرفت باسمه فخافه معاوية وهو من أكثر الناس معرفة بصلابته، ولا شك أن اعتصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذى لم ينزل على حكم معاوية، ويدخل فيما دخل فيه الناس، إنما يدل على ثقته بنفسه أولاً، وبإمكانات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانياً، إلا أن هذه الأمور وحدها ليس كافية لمواجهة معاوية إذا ما لجأ إلى استخدام القوة، الأمر الذى دفع زياداً فى المرحلة التالية فى علاقته بمعاوية إلى تبديل موقفه الراض بموقف أكثر إيجابية، وبعد صلح الحسن حاول معاوية الاتصال بزياد وسمح للمغيرة بن شعبة أن يتدخل لحل هذا المشكل، واستطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح فى إقناع زياد ببيعة معاوية والدخول فى طاعته. وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما قدمه لمعاوية من خدمات، فقد كان من الصعب على معاوية أن يصل إلى زياد أو يوفق فى إخضاعه

(١) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة للرواضية، ص (٣١).

(٢) تاريخ الطبرى (١٣١/٦).

(٣) العواصم من القواصم، ص (٣١).

(٤) الطبقات (٧/٩٩)، زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٣١).

(٥) طبقات خليفة بن خياط، ص (١٩١).

(٦) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٣٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (٣٢)، الوافى بالوفيات (٣٢/١٥).

إلا بعد قتال عنيف، لا يدرى أحد من سيكون الرابع في مثل ذلك الموقف الخطير^(١)، وقد تمّ معاوية احتواء حركة اعتصام زياد بفارس، ولم يستعجل في الأمر، وابتعد عن استخدام القوة، وأعطى للزمن فرصته، واستعان بدهاية من دهاة العرب في إقناع زياد وهذا من حكمته^(٢) رضى الله عنه.

ج- حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه: قال الطبرى فى عام ٤٤هـ: فى هذه السنة استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبى سفيان فيما قيل^(٣)، وقال الطبرى: . . زعموا أن رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية فقال لزياد: إن لابن عامر عندى يداً، فإن أذنت لى أتيته، قال: على أن تحدثنى ما يجرى بينك وبينه، قال: نعم، فإذن له فأتاه، فقال له ابن عامر: هيه هيه أو ابن سمية يقبح آثارى، ويعرض بعمالى، لقد هممت أن أتى بقسامة^(٤) من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية، قال: فلما رجع سأله زياد، فأبى أن يخبره، فلم يدعه حتى أخبره فأخبر زياد معاوية، فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجهه دابته عن أقصى الأبواب، ففعل ذلك به، فأتى ابن عامر يزيداً، فشكا إليه ذلك، فقال له: هل ذكرت زياداً؟ قال: نعم، فركب معه يزيد حتى أدخله، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل، فقال يزيد لابن عامر: اجلس فكم عسى أن تقعد فى البيت عن مجلسه، فلما أطال خرج معاوية، وفى يده قضيب يضرب به الأبواب، ويتمثل:

لنا سياق^(٥) ولكم سياق قد علمت ذلكم الرفاق^(٦)

ثم قعد فقال: يا ابن عامر، أنت القائل فى زياد ما قلت، أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية، وإن الإسلام لم يزدنى إلا عزاً، وإنى لم أتكثر بزياد من قلة، ولم أتعزز به من ذلة، ولكن عرفت حقاً له فوضعت موضعه^(٧)، وقد اتهم معاوية رضى الله عنه عندما استلحق زياد بن أبيه إلى أبيه بأنه خالف أحكام الإسلام لأن الرسول ﷺ قال: «لا دعوة فى الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد

(١) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٧٥ - ٨١).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (١٧٣)، تاريخ الطبرى (٩٤/٦، ٩٥). (٣) تاريخ الطبرى (١٣١/٦).

(٤) تاريخ الطبرى (١٣١/٦) القسامة: هم القوم الذين يحلفون.

(٥) السياق: المهر، القاموس المحيط (١١٥٦).

(٦) تاريخ الطبرى (١٣٢/٦).

(٧) المصدر نفسه (١٣٢/٦).

للفراش^(١)، وللعاهر الحجر^(٢). وقد ردّ على هذا الاتهام الدكتور خالد الغيث في رسالته مرويات خلافة معاوية بقوله: . . أما اتهام معاوية رضى الله عنه باستلحاق نسب زياد، فإنى لم أقف على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك، هذا فضلاً عن أن صحبة معاوية رضى الله عنه، وعدالته ودينه وفقهه تمنعه من أن يرد قضاء رسول الله ﷺ لاسيما أن معاوية أحد رواة حديث: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»^(٣). ووجه التهمة إلى زياد بن أبيه بأنه هو الذى ألحق نسبه بنسب أبى سفيان واستدل برواية أخرجهما مسلم فى صحيحه من طريق أبى عثمان^(٤) قال: لما ادعى زياد لقيت أبا بكره فقلت له: ما هذا الذى صنعتم؟ إنى سمعت سعد بن أبى وقاص يقول: سمع أذناى من رسول الله ﷺ وهو يقول: «من ادعى أباً فى الإسلام غير أبىه، يعلم أنه غير أبىه فالجنة عليه حرام». فقال أبو بكره: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ^(٥).

قال النووى رحمه الله معلّقاً على هذا الخبر: . . فمعنى هذا الكلام الإنكار على أبى بكره، وذلك أن زياداً هذا المذكور هو المعروف بزياد بن أبى سفيان، ويقال فيه: زياد بن أبىه، ويقال: زياد بن أمه، وهو أخو أبى بكره لأمه. . . . لهذا قال أبو عثمان لأبى بكره: ما هذا الذى صنعتم؟ وكان أبو بكره رضى الله عنه ممن أنكر ذلك وهجر بسببه زياداً وحلف أن لا يكلمه أبداً، ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبى بكره حيث قال هذا الكلام، أو يكون مراده بقوله: ما هذا الذى صنعتم؟ أى هذا الذى جرى من أخيك ما أقبحه وأعظم عقوبته فإن النبى ﷺ حرم على فاعله الجنة^(٦). وبذلك يكون زياد هو المدعى. وفى حقيقة الأمر فإن مسألة استلحاق معاوية زياد هى مسألة اجتهادية ويذهب الكثير من المؤرخين بأن هناك دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية - جارية الحارث بن كلدة الثقفى -

(١) الفراش: لفظه يعبر بها عن المرأة غالباً وقد يعبر بها عن حالة الافتراش، والمراد لحوق حالة نسب الولد بمن له الاختصاص بالوطء كالزوج، والسيد فتح البارى (٣٦/١٢).

(٢) صحيح سنن أبى داود (٤٣٠/٢) للعاهر الحجر: أى للزانى الخيبة وحرمان الولد الذى يدعيه، وقد جرت عادة العرب أن تقول لمن خاب: له الحجر وبقية الحجر والتراب. فتح البارى (٣٧/١٢).

(٣) فتح البارى (٣٩/١٢).

(٤) أبو عثمان النهدى، معروف بكنتيته، مخضرم من كبار الطبقة الثانية ٩٥ م ت .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى (٥١/٢، ٥٢). (٦) شرح صحيح مسلم (٥٢/٢، ٥٣).

وكانت من البغايا ذوات الرايات - في الجاهلية - فعلفت منه زياد، وذكروا بأن أبا سفيان اعترف بنفسه بذلك أمام علي بن طالب رضى الله عنه وآخرين بعدما شب ونبع في عهد عمر بن الخطاب^(١)، وقال ابن تيمية بأن أبا سفيان كان يقول زياد من نطفته^(٢)، فلما كانت خلافة معاوية شهد لزياد بذلك النسب أبو مريم السلولى وهو صحابى كان يعمل في الجاهلية خمارةً بالطائف، وهو الذى جمع بين أبى سفيان وسمية، وكان ذلك أمراً مألوفاً آنذاك^(٣). ويبدو أن هذا النسب قد شاع أمره حتى لقد شهد بذلك أحد رجال البصرة لزياد قبل استلحاق معاوية إياه^(٤)، فهى دعوة قديمة إذن ولم تكن - كما يزعم الرواة - نتيجة مشورة المغيرة بن شعبة على معاوية كجزء من صفقة متبادلة بين معاوية وزياد أو غير ذلك من التفاصيل التى اخترعها الرواة^(٥).

وبعد عقود من السنين نجد الإمام مالك بن أنس - إمام أهل المدينة - يذكر زياداً فى كتابه الموطأ بأنه زيار بن أبى سفيان، ولم يقل زياد بن أبىه، وذلك فى عصر بنى العباس^(٦)، والدولة لهم والحكم بأيديهم فما غيروا عليه، ولا أنكروا ذلك منه، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلف الناس فيها، فمنهم من جوزها، ومنهم من منعها، فلم يكن لاعتراضهم عليها سبيل^(٧). وفى نسبة الإمام مالك لزياد إلى أبى سفيان فقه بديع لم يفتن له أحد، وهو أنها لما كانت مسألة خلاف ونقد الحكم فيها بأحد الوجهين لم يكن لها رجوع، فإن حكم القاضى فى مسائل الخلاف بأحد القولين يمضيها ويرفع الخلاف فيها والله أعلم^(٨). وأما تعارض هذا الاستلحاق مع نص الحديث الشريف، فمن اعتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زياداً لأن أنكحة الجاهلية كانت أنواعاً، وكان منها أن الجماعة يجامعون البغى، فإذا حملت وولدت ألحقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقه، فلما جاء الإسلام حرّم هذا النكاح، إلا أنه أقر كل ولد كان يُنسب إلى

(١) مروج الذهب (٣/١٤، ١٥)، الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٩٥).

(٢) الفتاوى (٢٠/١٤٨). (٣) الكامل فى التاريخ (٢ / ٤٧٠).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/١٣١، ١٣٢). (٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٩٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٦). (٧) العواصم من القواصم، ص (٢٥٤).

(٨) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص (١٤١) نقلاً عن العواصم، ص (٢٤٢).

أب من أى نكاح كان من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرّق بين شىء منها، فتوهم معاوية أنّ ذلك جائز له ولم يفرّق بين استلحاق فى الجاهلية، والإسلام^(١). وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخاً له ويقول: هو ابن أبى، ما دام ليس له منازع فى ذلك النسب. فالخارث بن كلدة (الذى كانت سمية جارية له) لم ينازع زياداً، ولا كان إليه منسوباً، وإنما كان ابن أمة بغى ولد على فراشه - أى فى داره - فكل من ادعاه فهو له، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه، فلم يكن على معاوية فى ذلك مغمز، بل فعل الحق على مذهب مالك، فإن قيل: فلم أنكر عليه الصحابة؟ قلنا: لأنها مسألة اجتهاد^(٢). والحوادث تثبت أن معاوية كان مقتنعاً بحق زياد فى ذلك، ولا بد أنه كان قد سمع من أبيه، ولهذا فإن معاوية كان مؤمناً بأن عمله لم يكن إلا عملاً موضوعياً وواجباً ضرورياً من باب وضع الشىء فى محله، ولا ريب أن هذا كان معروفاً عند الناس غير أن معاوية أراد أن يثبت^(٣).

د- خطبة زياد المعروفة بالبراء بالبصرة: لما تولى زياد ولاية البصرة، عام ٤٥هـ، خطب خطبة بترء^(٤)، لم يحمد الله فيها وقيل: بل حمد الله فقال: الحمد لله على أفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه، اللهم كما رزقتنا نعماً، فألهمنا شكراً على نعمتك علينا. أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفجر^(٥) الموقد لأهله النار، الباقي عليهم سعيها، ما يأتى سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش منها الكبير، كأن لم تسمعوا بأى الله، ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السرمد^(٦) الذى لا يزول. أتكونون كمن طرفت^(٧) عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكروا أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا به، من ترككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوقة، فى النهار المبصر، والعدد غير قليل، ألم تكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دلج^(٨) الليل وغارة

(١) الكامل فى التاريخ (٤٧١/٢).

(٢) إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية عبد الوهاب، ص (٦١). (٤) تاريخ الطبرى (١٣٤/٦).

(٥) الفجر: الانبعاث فى المعاصى والزنى، القاموس المحيط، ص (٥٨٤).

(٦) السرمد: الدائم، القاموس المحيط، ص (٣٦٧).

(٧) الطرفة: نقطة حمراء من الدم تحدث فى العين من ضربة وغيرها.

(٨) الدلج: السير من أول الليل، القاموس المحيط، ص (٣٤٢).

النهار، قربتم القرابة، وبعادتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغظون على المختلس^(١)، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عقاباً، ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالحلما، ولقد اتبعتم السفهاء، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس الريب^(٢)، حُرِّمَ على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدمًا وإحراقًا، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، لين فى غير ضعف، وشدة فى غير جبرية وعنفة، وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالولي^(٣)، والمقيم بالطاعن^(٤)، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد^(٥)، أو تستقيم لى قناتكم، إن كذبة المنبر تبقى مشهورة، فإذا تعلقتم على كذبة فقد حلت لكم معصيتي^(٦)، من بيئت^(٧) منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إلى، وإياى ودعوى الجاهلية^(٨)، فإنى لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرَّق قومًا غرقته، ومن حرَّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتًا نقتب عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفتته^(٩) حيًا، فكفوا عنى أيديكم وألستكم أكفف يدي وأذاي، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضريت عنقه. وقد كانت بينى وبين أقوام إحن^(١٠)، فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى، فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسانًا، ومن كان مسيئًا فلينزح عن إساءته، إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعًا، ولم أهتك له

(١) الخلس: الأخذ فى نُهْزةٍ ومخالطة، لسان العرب (٦/٦٥).

(٢) كنوساً فى مكانس الريب: استتروا فى موضع الريبة، لسان العرب (٦/١٩٨).

(٣) بمعنى واحد وهو: الصاحب والقريب والجار والحليف والشريك.

(٤) الطاعن: المسافر، لسان العرب (١٣/٢٧٠، ٢٧١).

(٥) المثل يُضرب فى الاستخبار عن الأمرين الخير والشر، أيهما وقع.

(٦) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٤٠). (٧) بيئت: أوقع به ليلاً، لسان العرب (٢/١٦).

(٨) دعوى الجاهلية: المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر.

(٩) عند الجاحظ: دفناه فيه حيًا، البيان والتبيين (٢/٢٣٠).

(١٠) الإحن: الأحقاد.

سترًا، حتى يبدى لى صفحته، فإذا فعل لم أنظره، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فرب مبئس بقدمنا سيسر، ومسرور بقدمنا سيبتس^(١). أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة^(٢)، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفىء^(٣) الله الذى حولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وُلينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا^(٤) بمناصحتكم، واعلموا أنى مهما قصرت ولو أتانى طارقًا بليل، ولا حابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إبانة^(٥)، ولا مُجمراً^(٦) لكم بعثًا، فادعوا الله بالصالح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذى إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم كان شرًا لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتونى أنفذ فيكم الأمر فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى. فقام عبد الله بن الأهمم فقال: أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب، فقال: كذبت، ذاك نبى الله داود عليه السلام^(٧). قال الأحنف: قد قلت فأحسنت أيها الأمير، والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نُثنى حتى نُبتلى، فقال زياد: صدقت^(٨).

وهذه الخطبة تعتبر من الخطب المشهورة فى التاريخ وعلى الرغم من كثرتها وكثرة المصادر التى أوردتها إلا أنها لم تأت بإسناد صحيح يجعل القارىء يطمئن إلى صحة ما ورد فيها، لاسيما أنها تحتوى على مأخذ عديدة، وتناقضات واضحة تقلل من صحة نسبة جميع ما جاء فيها إلى زياد، وقد نبه إلى هذه المآخذ والتناقضات الدكتور خالد الغيث^(٩) حفظه الله، منها:

- تحدثت الخطبة عن انتشار الفجور فى البصرة وكثرة بيوت الدعارة فيها، ويستفاد ذلك من قول زياد: .. من ترككم هذه المواخير المنصوبة، قوله: حرّم على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدمًا وإحراقًا^(١٠). وهذا الكلام المنكر عن حال

(١) تاريخ الطبرى (١٣٦/٦) .

(٢) ذادة: حماة ومدافعون .

(٣) الفىء: الغنيمة .

(٤) فيئنا: عطفنا وبرنا، لسان العرب (١/١٢٦).

(٥) إبانة: حينه، القاموس المحيط ١٥١٥ .

(٦) تجمير الجيش: هو حبس الأمير للجيش فى الثغر وعدم السماح بالعودة.

(٧)، (٨) تاريخ الطبرى (١٣٧/٦) . (٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٤).

(١٠) تاريخ الطبرى (١٣٥/٦)

البصرة عند قدوم زياد، يرده حقيقة ما كانت عليه البصرة منذ تأسيسها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث بنيت لتكون قاعدة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لمواصلة الفتح ونشر الإسلام فى ربوع البلاد المفتوحة، ومن أجل هذه الغاية استوطن البصرة أكثر من خمسين ومائة صحابى، حملوا على عواتقهم مهمة الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمور دينهم، فأنى لهذه المنكرات أن تنبت وتنتشر فى مجتمع عماده الصحابة والتابعون دون أن ينكروه، كذلك فإن وجود الخوارج فى البصرة وما عرف عنهم من الاستعجال والاندفاع فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دليل آخر على انتفاء وجود هذه المنكرات فى مجتمع البصرة وبالحجم الذى ورد فى خطبة زياد^(١).

- ومن التناقضات الواردة فى الخطبة: قول زياد: وإياى ودعوى الجاهلية، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه^(٢). مع أنه ذكر فى موضع آخر من الخطبة نقيض ذلك وهو قوله: وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى، والمقيم بالطاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم بالسقيم^(٣). وورد فى الخطبة قول زياد: إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه^(٤). لكنه عاد فى موضع آخر من الخطبة لينقض ما ذكره آنفاً فقال: لست محتجياً عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقاً بليل^(٥). وهذه التناقضات الواردة فى الخطبة يستغرب صدورهما من زياد مع ما عرف عنه من البلاغة والفصاحة، وهذا يقودنا إلى قضية أخرى وهى احتمال كون النص الذى بين أيدينا عن خطبة زياد عند مجيئه إلى البصرة عبارة عن أكثر من خطبة تم دمجها فى سياق واحد. ويؤيد ذلك ثناء عبد الله بن الأهمم والأحنف بن قيس على زياد بعد انتهاء الخطبة مع أن الخطبة تستوجب النقد وليس الثناء، لما فيها من تقديم حكم الجاهلية على حكم الله^(٦). وعن الشعبى قال: ما سمعت متكلماً قد تكلم فأحسن إلا أحسبت أن يسكت خوفاً أن يسىء إلا زياداً، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً^(٧). وهذا الثناء من الشعبى على زياد يقوى الشك حول خطبة زياد البتراء التى سبق الحديث عنها فى الرواية السابقة^(٨).

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٤).

(٥) المصدر نفسه (١٣٦/٦).

(٢)، (٣)، (٤) تاريخ الطبرى (١٣٥/٦).

(٧) المنتظم لابن الجوزى (٢١٢/٥).

(٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٦).

(٨) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٧).

هـ - استعانة زياد بصحابة رسول الله: استعان زياد بعدة من أصحاب النبي ﷺ، منهم عمران بن الحصين الخزاعي^(١)، ولاء قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفاري^(٢)، ولاء خراسان، وسمره بن جندب، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سمره، فاستعفاه عمران فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثي^(٣)، ثم أخاه عاصم بن فضالة^(٤)، ثم زرارة بن أوفى الحرشي^(٥)، وكانت أخته لبابة عند زياد^(٦).

و- من سياسة زياد في العراق: يعتبر زياد بن أبي سفيان عامل معاوية على البصرة والكوفة بعد عبد الله بن عامر والمغيرة بن شعبة، هو الذى قام بمعظم الإصلاحات الضرورية في ذلك الجناح الشرقى من الدولة الأموية وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة إدارية فائقة^(٧). وقد استن زياد عدة قوانين وتنظيمات وقام بكثير من الإصلاحات في البصرة أولاً (٤٥ - ٥٠ هـ) ثم في الكوفة بعد أن جمعت المدينتان تحت إمرته في ولاية واحدة وذلك منذ سنة ٥٠ هـ وحتى سنة ٥٣ هـ. فبنى دار الرزق في البصرة^(٨)، وهى شبيهة بمخزن المؤن فى أيامنا هذه، فكان الأهالى يتمنون منها، وعين أشخاصاً يشرفون عليها منهم: عبد الله بن الحارث بن نوفل، ورواد بن أبي بكر. كما عين الجعد بن قيس النمرى مشرفاً على السوق ومراقباً على أسعار المواد الغذائية فيه^(٩). وكان يعطى قروضاً للتجار إذا ما ارتفعت الأسعار كى يحثهم على المحافظة على سعر السلعة أو بزيادة بسيطة. وإذا ما تحقق ذلك وتوفرت الحاجات: ارتجع ماله^(١٠).

وترك زياد الناس في البصرة أحماساً، أما الكوفة فقد قسمهم إلى أرباع^(١١)، بدل الأسباع. واختار عريقاً لكل قسم يقوم بمهمة توزيع الأعطيات على أفراد عشيرته، كما أنه كان مسئولاً أمام زياد عما يحدث في ناحيته، فيقوم بإرسال

-
- (١) مات بالبصرة عام سنة ٥٢ هـ بالبصرة، أخرج له الستة، التقريب ٤٢٩ .
(٢) مات بمرو عام ٥٠ هـ، أخرج له البخارى والأربعة ابن حجر، التقريب ١٧٥ .
(٣) ابن حجر، التقريب ٣١٧ .
(٤) الإصابة (٥٧٤/٣) .
(٥) توفى وهو يصلى سنة ٩٣ هـ، التقريب لابن حجر ٢١٥ .
(٦) أنساب الأشراف (٤/٣٧٠) .
(٧) خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقلى، ص (٨٦) .
(٨) أنساب الأشراف (٤/٣١٤)، خلافة معاوية، ص (٨٧) .
(٩) خلافة معاوية، ص (٨٧) نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/٢١٢، ٢١٧) .
(١٠) أنساب الأشراف (٤/٢٣٧) .
(١١) تقسيم يتعلق بالقائل .

التقارير بما حصل فيها أولاً بأول إلى زياد، واستطاع أن يضبط الأمور في المدينتين برجال من أهلها، وأصدر زياد أوامره بالأل يدخل أو يخرج أحد من الكوفة أو البصرة بعد صلاة العشاء، وأوقع القصاص بالسارق وقاطع الطريق، فعم الأمن والطمأنينة بحيث إن المرأة كانت تنام وباب بيتها مفتوح، وإن الشيء ليسقط على الأرض فيظل ملقى دون أن يحركه أحد^(١). ونظم العطاء من الديوان فحذف منه أسماء الذين توفوا ومن كان غائباً عن قطره ومن كان عابثاً بالأمن، فكان إذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فملاؤا بيوتهم من كل حلو وحامض واستقبلوا رمضان بذلك، وإذا كان ذو الحجة أخرج أعطية الذرية^(٢). ويشير البلاذري إلى أنه: كان لكل عيّل جريبان ومائة درهم، ومعونة الفطر خمسون، ومعونة الأضحى خمسون^(٣)، واختار زياد حوالى خمسمائة رجل من أهل البصرة ليعملوا كحرس خاص له، وكذلك حماية الأماكن الهامة وأعطى لكل واحد منهم ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة درهم، وأسند قيادتهم إلى شيبان بن عبد الله السعدى^(٤)، وبني زياد مساجد عديدة، منها: مسجد بنى عدى، ومسجد بنى مجاشع، ومسجد الأساورة. وكان لا يدع أحداً يبني بقرب مسجد الجماعة مسجداً، فكان مسجد بنى عدى أقربها منه^(٥). ويذكر ابن الفقيه: إن زياداً بنى سبعة مساجد فلم يُنسب إليه شيء منها، وأن كل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فإنه من بناء زياد^(٦). وزاد زياد فى مسجد البصرة زيادة كثيرة، وبناه بالأجر والخص، وسقفه بالساج، وبني منارته بالحجارة^(٧).

وكان يهتم بنظافة المدينة ويعتبر الأفراد مسئولين على نظافة بيوتهم ويعاقب من يهمل ذلك، فقد كان يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أضحت برفع ما بين يدي فئاته من الطين، فمن لم يفعل أمر ذلك الطين فألقى فى مجلسه، وكان يأخذ الناس بتنظيف طرقتهم من القذر والكناسات، ثم أنه اشترى عبيداً ووكلهم فكانوا يلمونه^(٨). فهذه الرواية تشير إلى وجود موظفين مهمتهم

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية للعقبلى، ص (٨٨).

(٢) أنساب الأشراف (٢١٩/٤). (٣) خلافة معاوية، ص (٨٨) نقلاً عن أنساب الأشراف (٢٢١/٤).

(٤) خلافة معاوية، ص (٨٩)، أنساب الأشراف (٢٢١/٤).

(٥) مختصر كتاب البلدان، ص (١٩١). (٦) الإدارة فى العصر الأموى، ص (١٦٠).

(٧) فتوح البلدان، ص (٣٤٦، ٣٤٧)، خلافة معاوية، ص (٨٩).

(٨) أنساب الأشراف (٢٠٦/٤)، الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢١٤).

مراقبة النظافة من ناحية، كما تشير إلى أن زياداً تنبه إلى أن نظافة الطرق أمر يجب أن يتولاه أشخاص معينون فاشترى عبيداً وكل إليهم تنظيف الطرق من القدر والكناسات^(١). واهتم زياد بتقدم الزراعة وتنظيم طرق الري: فبنى السدود^(٢)، وحفر القنوات^(٣)، كما أنه كان يمنح المزارع قطعة من الأرض الزراعية، مساحتها ٦٠ جريباً ثم يدعه عامين فإن عمرها أصبحت له، وإلا استردها منه، وأعطاهم آخرين ينتظرونها^(٤). ولكي يسهل الاتصال بين ضفتي نهر الفرات، فقد أصلح زياد قنطرة الكوفة وأعاد بناءها باللبن والطوب المقوى، بعد أن كانت من أخشاب القوارب المتهالكة، وأصبحت تعرف بعد ذلك بجسر الكوفة^(٥).

وأما عن كيفية تصرف زياد في موارد بيت مال الولاية فيشير البلاذري إلى أن زياداً كان يجبي من كُور البصرة ستين ألف ألف، فيعطى المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ألف، ويعطى الذرية ستة عشرة ألف ألف درهم، وينفق من نفقات السلطان ألفي ألف، ويجعل في بيت المال للبيواتق والنواب ألفي ألف درهم، ويحمل إلى معاوية أربع آلاف (ألف) درهم، وكان يجبي من الكوفة أربعين ألف ألف، ويحمل إلى معاوية ثلثي الأربعة الآلاف ألف لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة. كما أن عبيد الله بن زياد، والذي خلف أباه على ولاية العراق حمل إلى معاوية ستة آلاف ألف درهم فقال معاوية: اللهم ارض عن ابن أخي^(٦).

٤ - ولاية سمرة بن جندب رضى الله عنه: عن جعفر بن سليمان الضبعي، قال: أقر معاوية سمرة بعد زياد ستة أشهر، ثم عزله، فكذبوا على سمرة وزعموا أنه قال: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبنى أبداً^(٧). هذا الخبر المنسوب إلى سمرة بأنه شتم معاوية خبر مكذوب على هذه الصحابي الكريم، وفي ذلك يقول ابن كثير: وهذا لا يصح عنه^(٨)، كما أن معرفة ميول

(١) الإدارة في العصر الأموي، ص (٢١٤).

(٢) فتوح البلدان، ص (٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٩).

(٣) فتوح البلدان، ص (٢٨٥، ٢٨٦).

(٤) خلافة معاوية للعقيلي، ص (٨٩).

(٥) فتوح البلدان، ص (٢٦١).

(٦) أنساب الأشراف (٤/٢١٨ - ٢١٩).

(٧) مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص (٢٦١).

(٨) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص (٢٦٢).

مصدر الخبر جعفر بن سليمان الضبيعي، والذي قال عنه ابن حجر: صدوق زاهد لكنه يتشيع^(١)، تبيين أثر التشيع في تشويه التاريخ الإسلامي^(٢).

٥- ولاية عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي:

قال الطبري: وفي هذه السنة - ٥٤هـ - كان عزل معاوية بن أبي سفيان لسمره بن جندب عن البصرة، واستعمل عبد الله بن غيلان^(٣).

٦- ولاية عبيد الله بن زياد خراسان ثم البصرة:

قال الطبري: وفي هذه السنة ولي معاوية عبد الله بن زياد خراسان^(٤)، وفي عام ٥٥هـ عزل معاوية ابن عمرو بن غيلان عن البصرة وولاهها عبد الله بن زياد^(٥)، وأوصى معاوية عبد الله بن زياد بهذه الوصية: إنى قد عهدت إليك مثل عهدي إلى عمالي، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندي، لا تبعن كثيراً بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخف عليك المؤونة وعلينا منك، وافتح بابك للناس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزم على أمر فأخرجه إلى الناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجع عن عليك وأنت تستطيع، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبونك على بطنها، وإن احتاج أصحابك إلى أن تواسيهم بنفسك فآسيهم^(٦). وفي رواية قال له: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئاً، فإن في تقواه عوضاً، وق عرضك من أن تدنسه، وإذا أعطيت عهداً فوف به، ولا تبعن كثيراً بقليل، ولا تخرجن منك أمراً حتى تُبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك، وإذا لقيت عدوك فكن أكثر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطمعن أحداً في غير حقه، ولا تؤيسن أحداً من حق له. ثم ودعه^(٧).

ثانياً: الكوفة:

١- ولاية المغيرة بن شعبة رضى الله عنه (٤١هـ): الأمير أبو عيسى، ويقال: أبو

عبد الله، وقيل: أبو محمد، من كبار الصحابة أولى الشجاعة والمكيدة. شهد بيعة

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٦٢).

(٥) المصدر نفسه (٦/٢١٧).

(٧) المصدر نفسه (٦/٢١٤).

(١) تقريب التهذيب، ص (١٤٠).

(٣)، (٤) تاريخ الطبري (٦/٢١٢).

(٦) المصدر نفسه (٦/٢١٣).

الرضوان، كان رجلاً طويلاً مهيباً، ذهبت عينه يوم اليرموك وقيل يوم القادسية^(١). وكان يقول: أنا آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ، لما دفن رسول الله ﷺ في القبر، فألقيت خاتمي، فقلت: يا أبا الحسن، خاتمي، قال: انزل فخذ، قال: فمسحت يدي على الكفن ثم خرجت^(٢).

وله مواقف في الدهاء والمكر والكيدها، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يردّه، فقال دهقانهم^(٣): إن فعلتم ما أمركم لم يردّه علينا. قالوا: مُرنا. قال: تجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول: إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إلى. قال: فجمعوا له مائة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك، فدعا المغيرة، فسأله، قال: كذب، أصلحك الله، إنما كانت مائتي ألف، قال: ما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة. فقال عمر للعلاج: ما تقول؟ قال: لا والله لأصدقنك ما دفع إلى قليلاً ولا كثيراً، فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ قال: الخبيث كذب علي، فأحببت أن أخزيه^(٤).

وعن الشعبي: سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يخرج من باب إلا بمكر، لخرج من أبوابها كلها^(٥)، وقال الشعبي: والدهاة أربعة: معاوية وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد^(٦). وكان المغيرة بن شعبة من أنصار التعدد فكان يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان^(٧). فهو يدعو للزواج من ثلاث أو أربع.

وقد استعمل معاوية المغيرة على الكوفة عام ٤١هـ^(٨)، وقام بجهود عظيمة في قتال الخوارج، ووجد وقتاً كافياً قام فيه بتوسيع مسجد الكوفة فجعله يتسع لأربعين ألفاً من المصلين^(٩). وبقي في الولاية إلى عام ٤٩هـ وقيل ٥٠هـ، وهو الراجح وعندما مات ضم معاوية الكوفة إلى زياد، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة^(١٠).

-
- (١) سير أعلام النبلاء (٢١/٣).
(٢) المصدر نفسه (٢٦/٣).
(٣) الدهقان: القوى على التصرف، رئيس الإقليم.
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٦/٣).
(٥) المصدر نفسه (٣٠/٣).
(٦) البداية والنهاية (٢٢/١١).
(٧) سير أعلام النبلاء (٣١/٣).
(٨) تاريخ الطبري (٨٢/٦).
(٩) خلافة معاوية للعقيلي، ص (٨٥).
(١٠) تاريخ الطبري (١٥٠/٦).

٢- ولاية زياد بن أبيه على الكوفة: كان زياد على البصرة وأعمالها إلى سنة خمسين، فمات المغيرة بن شعبه بالكوفة وهو أميرها، فكتب معاوية إلى زياد بعهدة على الكوفة والبصرة، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة، فاستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وشخص إلى الكوفة، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة^(١). وقد تحدثنا عن سياسة زياد فيما سبق بالعراق وقد وصفه الذهبي فقال فيه: .. كان من نبلاء الرجال، رأيًا، وعقلًا، وحزمًا، ودهاءً، وفطنة، وكان يضرب به المثل في الثبل والسؤدد، وكان كاتبًا بليغًا كتب للمغيرة، ولابن عباس وناب عنه بالبصرة^(٢). وقال الشعبي: ما رأيت أحدًا أخطب من زياد^(٣). وقال فيه ابن حزم: لقد امتنع زياد وهو فقعة القاع^(٤)، لا نسب له ولا سابقة، فما أطاقه معاوية إلا بالمدارة، ثم استرضاه وولاه^(٥). وقال أبو الشعشاء: كان زياد أفتك من الحجاج لمن يخاف هواه^(٦)، وعندما استقر أمره بالعراق وتمكن منها، كتب زياد إلى معاوية: قد ضببت لك العراق بشمالي ويميني فارغة، فاشغلها بالحجاز... فلما بلغ ذلك أهل الحجاز أتى نفر منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، فذكروا ذلك له، فقال: ادعوا الله عليه فيكفيكموه، فاستقبل القبلة، واستقبلوها فدعوا ودعا، فخرجت طاعة^(٧) على أصبعيه، فأرسل إلى شريح^(٨) - وكان قاضيه - فقال: حدث بي ما ترى، وقد أمرت بقطعها، فأشر على، فقال له شريح: إنني أخشى أن يكون الجراح على يدك، والألم على قلبك، وأن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله عز وجل أجذم^(٩) وقد قطعت يدك كراهية للقائه، أو أن يكون في الأجل تأخير، وقد قطعت يدك فتعيش أجذم وتعبير ولدك، فتركها، وخرج شريح فسأله، فأخبرهم بما أشار به، فلاموه وقالوا: هل أشرت عليه بقطعها، فقال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن»^(١٠). وقد مات زياد سنة ثلاث وخمسين^(١١).

- (١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦ / ١٥٠).
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه (٣/٤٩٦).
(٧) الطاعون: الوباء.
(٨) شريح الكندى: مختلف فى صحبته، ولى القضاء فى عهد عمر حتى عصر عبد الملك، توفى سنة ٧٨هـ.
(٩) الأجذم: المقتوع اليد، أو الذاهب الأنامل.
(١٠) صحيح الأدب المفرد للألبانى ١١٣.
(١١) تاريخ الطبرى (٦/٢٠٦).

٣- ولاية عبد الله بن خالد بن أسيد: عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص، ولى فارس لزياد، ثم^(١) استخلفه زياد على الكوفة عند مماته، وهو الذى صلى على زياد.

٤- ولاية الضحاك بن قيس الفهري: وفى سنة ٥٥ هـ عزل معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة، وولاه الضحاك بن قيس الفهري^(٢).

٥ - ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى (٥٨ هـ): وفى سنة ٥٨ هـ ولى معاوية الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبى سفيان، وعزل عنها الضحاك بن قيس^(٣).

هذا وقد قام معاوية رضى الله عنه بعزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحد أهل الذمة، ودليل ذلك ما أخرجه أحمد بن حنبل، بإسناد صحيح، قال: حدثنى هارون بن معروف قال: حدثنا سفيان، عن مطرف، قال: أخبرنى ابن سعيد قال: . . ثم إن ابن الحكم عزل حين قتل ابن صلوبا^(٤).

٦ - ولاية النعمان بن بشير رضى الله عنه (٥٩ - ٦٠ هـ): وفى سنة ٥٩ هـ عزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة، واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصارى^(٥). فهؤلاء هم ولاة الكوفة فى عهد معاوية رضى الله عنه.
ثالثاً: المدينة النبوية:

تعتبر المدينة من أهم الولايات للنفوذ الروحى والدينى على الدولة الأموية بسبب وجود الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار، ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يبايع أهل المدينة، إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يطيعهم الناس ويسيروا برأيهم^(٦)، وقد دخلت المدينة فى سلطان معاوية رضى الله عنه بعد عام الجماعة سنة ٤١ هـ، وقد حرص معاوية على زيارتها منذ بيعته فقدم المدينة وتلقته رجال من

(١) نسب قريش للزبيرى، ص (١٨٧). (٢) تاريخ الطبرى (٦/٢١٨).

(٣) المصدر نفسه (٦/٢٢٦).

(٤) التاريخ الكبير للبخارى (٦/٥٣٣)، العلل ومعرفة الرجال (٢/٢٤، ٢٥)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٢٧).

(٥) تاريخ الطبرى (٦/٢٢٣). (٦) التاريخ الإسلامى، العهد الأموى، محمود شاکر ص (٩٠).

وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذى أعزّ نصرك وأعلى أمرك، فما ردّ عليهم جواباً حتى دخل المدينة، فقصد المسجد، وعلا المنبر، فحمد الله وأثنى عليه فقال: . . . ولقد رمت نفسى على عمل ابن أبى قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك، وحاولتها على مثل سنيان عثمان، فأبت على، وأين مثل هؤلاء ومن يقدر على أعمالهم، هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. . . غير أنى سلكت بها طريقاً لى منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم، فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه قد جعلته دُبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله، فارضوا منى ببعضه؛ وإياكم والفتنة، فلا تهموا بها، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة^(١).

ونلاحظ فى هذه الخطبة حرص معاوية رضى الله عنه على أن يكسب ودهم ويحافظ على عهده لهم، ما حافظوا على بيعتهم له^(٢). وقد هدأت المدينة بعد بيعة معاوية وأخلدت إلى السكينة، وانصرف أهلها إلى أعمالهم، وانقطع أهل العلم إلى رواية ما حفظوه من حديث رسول الله ﷺ وأغدق معاوية الأموال على سراة الناس لاستمالتهم وكان كرم هؤلاء يسع الكثير من أجل المدينة^(٣). وكان معاوية عند عهده لأهل المدينة وفيّاً بالسياسة التى رسمها فى خطبته عند زيارة المدينة، وكان يقدم من الترغيب أكثر مما يعلن من التهيب، وكان إكرامه لرجال المدينة إكراماً يفوق كل وصف، وما قصده أحد فى طلب إلا أعطاه. لقد كان يخصص وجهاء القوم، ولكن هؤلاء كانوا موزعين لعطايا معاوية، كلما كثرت عطايا معاوية كثر إنفاقهم على أهل المدينة^(٤)، فقد روى أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدين الذى كانت تعطيه الناس^(٥)، وبعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف، ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادماتها: لو اشترت لنا من ذلك بدرهم لحماً؟ فقالت: ألا ذكّرتنى^(٦).

(١) البداية والنهاية (٤٣٢/١١).

(٢) المدينة فى العصر الأموى محمد شرّاب، ص (٧٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٧٣).

(٤) تذكرة الحفاظ ترجمة ١٣، سير أعلام النبلاء (٣/١٥٤).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/١٥٤).

وأما ولاية المدينة فهم:

١- مروان بن الحكم (٤٢ - ٤٩هـ): فى عام ٤٢هـ ولى معاوية مروان بن الحكم المدينة، فاستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل^(١).

٢- ولاية سعيد بن العاص رضى الله عنه (٤٩ - ٥٤هـ): فى سنة ٤٩هـ عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة فى شهر ربيع الأول، وأمر فيها سعيد بن العاص على المدينة فى شهر ربيع الآخر وقيل فى شهر ربيع الأول^(٢).

٣- ولاية مروان بن الحكم الثانية: (٥٤ - ٥٧هـ): فى عام ٥٤هـ عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل عليها مروان بن الحكم^(٣).

٤- ولاية الوليد بن عتبة بن أبى سفيان: استعمل معاوية على المدينة حين صرف عنها مروان، الوليد بن عتبية بن أبى سفيان^(٤)، وكان ذلك عام ٥٧هـ^(٥).

* وفاة أبى هريرة رضى الله عنه بالمدينة ٥٨هـ وقيل: ٥٩هـ:

توفى أبو هريرة رضى الله عنه فى عهد معاوية وقد تعرض للهجوم الشرس من قبل أعداء السنة النبوية بسبب خدمته لها، فرأيت من المناسب أن أترجم لأبى هريرة وأتعرض للشبهات المثارة حوله وبيان بطلانها وزيفها.

أ - التعريف به: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى، كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن واشتهر أبو هريرة بكنيته، حتى غلبت على اسمه فكاد ينسى، وسئل أبو هريرة: لم كنيت بذلك؟ قال: كنيت أبا هريرة لأنى وجدت هرة فحملتها فى كمي، فقيل لى: أبو هريرة. وكان يرعى غنم أهله فى صغره، ويداعب هرتة وكان يقول: لا تكنونى أبا هريرة، فإن النبى ﷺ كنانى أبا هر، والذكر خير من الأئشى^(٦).

ب- إسلامه: هاجر أبو هريرة من اليمن إلى المدينة ليالى فتح خيبر، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وكان قد أسلم على يد الطفيل بن عمرو فى اليمن، ووصل المدينة وصلى الصبح خلف سباع بن عرفطة الذى كان قد استخلفه رسول الله ﷺ

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧).

(٢) المصدر نفسه (٦/ ١٤٨).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢١٠).

(٤)، (٥) المصدر نفسه (٦/ ٢٢٥).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٤).

على المدينة أثناء غزوة خيبر^(١). وقد لازم أبو هريرة النبي ﷺ إلى آخر حياته، وقصر نفسه على خدمته، وتلقى العلم الشريف منه، فكان يدور معه ويدخل بيته، ويصاحبه في حجه وغزوه، ويرافقه في حله وترحاله، في ليله ونهاره، حتى حمل عنه العلم الغزير الطيب، فكانت صحبته أربع سنوات، وقد اتخذ الصفة مقاماً له، وخدم الرسول ﷺ على ملء بطنه، وجعله رسول الله ﷺ عريف أهل الصفة، فقد كان أعرف الناس بهم وبمراتبهم^(٢).

ج- دعوته لأمه للإسلام: قال أبو هريرة رضى الله عنه: كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة، فدعوته يوماً فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكى، قلت: يا رسول الله إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى علىّ، فدعوته اليوم فأسمعتنى فىك ما أكره، فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة، قال رسول الله ﷺ: اللهم اهد أم أبى هريرة، فخرجت مستبشراً بدعوة رسول الله ﷺ، فلما جئت إلى الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمى خشف قدمى فقالت: مكانك يا أبأ هريرة وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب، ثم قالت: أبأ هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكى من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً. قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: اللهم حبب عبيدك هذا - يعنى أبأ هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين. فما خلق مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحببى^(٣).

د- عبادة أبى هريرة رضى الله عنه وأسرته: كان أبو هريرة رضى الله عنه ورعاً، ملتزماً سنة الرسول ﷺ، يحذر الناس فى الانغماس فى ملذات الدنيا، وشهواتها،

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٤٢٥).

(٢) حلية الأولياء (١/٣٧٦)، السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، ص (٤١٢).

(٣) مسلم رقم ٢٤٩١، بر الوالدين، أم حفص الشويحى، ص (٣٥).

ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا يفرق في ذلك بين غنى ولا فقير، أو بين أمير وحقير، وأخباره في هذا الصدد كثيرة، وكان يخشى الله كثيراً في السر والعلن، ويذكر الناس به، ويحثهم على طاعته^(١)، وكان عابداً، يصوم النهار ويقوم الليل، ويتناوب قيامه هو وزوجته، وابنته^(٢)، وكان يهتم بعمران بيته بعبادة الله تعالى، فعن أبي عثمان النهدي قال: تضيّفت أبا هريرة سبعاً، فكان هو وامراته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً: يصلى هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلى هذا ثم يوقظ هذا.^(٣) فبيت أبي هريرة إشراقه مضيئة تبين لنا بيوت المسلمين في ذلك العهد، فهو بيت عامر بالصلاة طوال الليل، فأين تجد الشياطين لها مكاناً في هذا البيت؟ إنها تربية عالية على التقوى والعمل الصالح من الحافظ الكبير والعالم الرباني أبي هريرة رضى الله عنه، واستجابة كريمة من امرأة طاهرة زكية، وخادم صالح مطيع. إن أبناء الدنيا حينما يكلفون خدمهم بعمل كبير، فإنما يكلفونهم بأعمال الدنيا، ويرون أنه لا مصلحة لهم بتكليفهم بعمل الآخرة، أما أبناء الآخرة فإنه من كمال سرورهم أن يروا خدمهم يجتهدون في أعمال الآخرة، لأنهم يكسبون بذلك أجراً على حسن توجيههم^(٤).

هـ- فقره وعفاهه: كان أبو هريرة أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد حتى أنه كان يلصق بطنه بالخصى من الجوع، يطوى نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم صلبه^(٥)، قال سعيد بن المسيب - رحمه الله - : رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق، ثم يأتى أهله فيقول: هل عندكم من شىء؟ فإن قالوا: لا قال: فإنى صائم^(٦)، وكان قنوعاً راضياً بنعم الله، فإذا أصبح لديه خمس عشرة تمره أفطر على خمس، وتسحر على خمس، وأبقى خمس لفطره^(٧)، وكان كثير الشكر لله، كثير الحمد والتسبيح والتكبير على ما أتاه الله من فضل وخير^(٨).

(٢) البداية والنهاية (١١/٣٧٨).

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٤٣٨).

(٤) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٩/٢١٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/٦٠٩).

(٦) حلية الأولياء (٣/٣٣٨١).

(٥) السنة قبل التدوين، ص (٤١٣).

(٧) البداية والنهاية (١١/٣٨٥).

(٨) تاريخ الإسلام (٢/٣٣٥)، سير أعلام النبلاء (٢/٤٣٩، ٤٤٠).

و- حلمه وعفوه: كانت عند أبي هريرة زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع يوماً السوط ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به، ولكن سأبيعك ممن يوفيني ثمنك أحوج ما أكون إليه، اذهبى فأنت حرة لله عز وجل^(١)، وهكذا يوازن أبو هريرة رضى الله عنه بين قدرته على تلك الخادمة وقدرة الله تعالى عليه، فيفضل اتقاء سخط الله سبحانه وتعالى وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلاً من إساءتها، بإعتاقها لوجه الله عز وجل، وبهذا يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة: خشية الله تعالى، والعمو عن المسيء، والإحسان إليه، وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة رضى الله عنهم للحياة الآخرة واستحضارهم رقابة الله تعالى وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه^(٢).

ز- ولايته على البحرين فى عهد عمر رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ قد أرسل أبا هريرة مع العلاء الحضرمى إلى البحرين، لينشر الإسلام، ويفقه المسلمين، ويعلمهم أمور دينهم، فحدث عن رسول الله ﷺ وأفتى الناس، وفى عهد عمر رضى الله عنه استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله وعدو كتابه، ولكنى عدو من عاداهما، قال: فمن أين هى لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة رقيق لى، وأعطية تابعت على. فنظروا فوجدوا كما قال^(٣)، وقد قاسمه عمر رضى الله عنه مع جملة من قاسمهم من العمال، وكان أبو هريرة يقول: اللهم اغفر لأمير المؤمنين^(٤)، وبعد ذلك دعاه عمر ليوليه، فأبى، فقال: تكره العمل وقد طلب العمل من كان خير منك، يوسف عليه السلام، فقال: يوسف نبى ابن نبى، وأنا أبو هريرة ابن أميمة وأخشى عملكم ثلاثاً واثنتين، فقال: فهل قلت خمساً، قال: لا. أخاف أن أقول بغير علم وأقضى بغير حلم، وأن يضرب ظهري، وينزع مالى، ويشتم عرضي^(٥).

ح- اعتزاله الفتن: كان أبو هريرة يوم حصار عثمان رضى الله عنه عنده فى الدار مع بعض الصحابة وأبنائهم، الذين جاءوا ليدفعوا الغوغاء عنه، وقد حفظ ولد

(١) البداية والنهاية (٣٨٥/١١). (٢) التاريخ الإسلامى للحميدى (٢٣/١٧).

(٣) البداية والنهاية (٣٨٧/١١). (٤) طبقات ابن سعد (٤/٦٠)، السنة قبل التدوين، ص (٤١٦).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤٤١/٢)، السنة قبل التدوين، ص (٤١٦).

عثمان له يده واحترموه حتى أنه لما مات أبو هريرة كانوا يحملون سريره حتى بلغوا البقيع^(١)، وقد اعتزل أبو هريرة رضى الله عنه الفتن بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه^(٢).

ط- مَرَحِه وَمَرَاخِه: كان أبو هريرة رضى الله عنه حسن المعشر، طيب النفس، صافى السريرة، كان يحب الفكاهة والمزاح، ومع هذا كان يعطى كل شيء حقه، فقد نظر إلى الدنيا بعين الراحل عنها، فلم تدفعه الإمارة إلى الكبرياء، بل أظهرت تواضعه، وحسن خلقه، فرجما استخلفه مروان على المدينة، فركب حمراً قد شدَّ عليه برذعة وفي رأسه خلبة من ليف، يسير فيلقى الرجل، فيقول: الطريق قد جاء الأمير^(٣). ويمر أبو هريرة في السوق، يحمل الحطب على ظهره - وهو يومئذ أمير لمروان - فيقول لثعلبة بن أبي مالك القرظي: أوسع الطريق للأمير يا ابن مالك، فيقول: يرحمك الله يكفي هذا!! فيقول أبو هريرة: أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه^(٤). وكان يحب إدخال السرور إلى نفوس الأطفال، فقد يراهم يلعبون بالليل لعبة الأعراب، فلا يشعرون به حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجليه كأنه مجنون فيفزع الصبيان منه ويفرون^(٥)، هاهنا وهاهنا يتضحكون^(٦). قال أبو رافع: وربما دعاني أبو هريرة إلى عشاءه في الليل، فيقول: دع العُراق للأمير - يعنى قطع اللحم - فانظر فإذا ثريد بزيت^(٧).

ي- حياته العلمية: صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ أربع سنوات، وسمع منه كثيراً، وشاهد دقائق السنة، ووعى تطبيق الشريعة، وكان همه طلب العلم، وأمله التفقه في الدين^(٨)، وكان حفظ أبي هريرة الخارق من معجزات النبوة^(٩)، فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ألا تسألني من الغنائم التي يسألني أصحابك؟ قلت: أسألك أن تعلمني مما علمك الله، فنزع نمرة كانت على ظهري، فبسطها بيني

(١) الكامل في التاريخ (٢/٥٢٣).

(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤١٧).

(٣) طبقات ابن سعد نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص (٤١٨).

(٤)، (٥) البداية والنهاية (١١/٣٨٦).

(٦) البداية والنهاية (١١/٣٨٨) في الحاشية.

(٧) البداية والنهاية (١١/٣٨٨).

(٨) السنة قبل التدوين، ص (٤٢٠).

(٩) سير أعلام النبلاء (٢/٥٩٤).

وبينه، حتى كأني أنظر إلى النمل يدب عليها، فحدثني حتى إذا استوعبت حديثه، قال: اجمعها فصرّها إليك. فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدثني^(١).

وكان يقول رضى الله عنه: إنكم تقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدثون مثله، وإن إخواني من المهاجرين يشغلهم الصَّفْق في الأسواق، وكان إخواني من الأنصار يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأ مسكيناً من مساكين الصفة، ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطنى فأحضر حين يغيبون، وأعى حين ينسون، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه يوماً: إنّه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى جميع مقالتي، ثم يجمع إليه ثوبه، إلا وعى ما أقول. فبسطت ثوبه علىّ، حتى إذا قضى مقالته، جمعتها إلى صدرى. فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ من تلك شيئاً^(٢)، وفي رواية: إنه حدثنا يوماً فقال: من يبسط ثوبه حتى أقضى مقالتي، ثم قبضه إليه، لم ينس شيئاً سمع منى أبداً. ففعلت فوالذى بعثه بالحق، ما نسيت شيئاً سمعته منه^(٣). وعن أبي هريرة، قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من نفسه^(٤).

وكان أبو هريرة حافظاً متقناً، ضابطاً لما يروى، دقيقاً في أخباره، فقد اجتمعت فيه صفتان عظيمتان تكمل إحداهما الأخرى، الأولى: سعة علمه وكثرة مروياته، والثانية: قوة ذاكرته وحسن ضبطه. وهذا غاية ما يتمناه أولو العلم^(٥). ويذكر لنا أبو الزعيزعة كاتب مروان ما يثبت إتقانه وحفظه فيقول: دعا مروان أبا هريرة فجعل يسأله، وأجلسني خلف السرير، وجعلت أكتب عنه، حتى إذا كان رأس الحول، دعا به، فأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا آخر^(٦). ولم يكن أبو هريرة راوية للحديث فقط، بل كان من رؤوس العلم في زمانه، في القرآن والسنة والاجتهاد، فإن صحبته وملازمته لرسول الله ﷺ أتاحت له أن يتفقه في الدين، ويشاهد السنة العملية، عظيمها

(١) سير أعلام النبلاء (٥٩٤/٢) رجاله ثقات .

(٢) مسلم رقم ٢٤٩٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٩٥/٢)، مسلم رقم ٢٢٩٤ .

(٤) سير أعلام النبلاء (٥٩٦/٢) إسناده صحيح .

(٥) السنة قبل التدوين، ص (٤٢٧) .

(٦) سير أعلام النبلاء (٥٩٨/٢) .

ودقيقها، فتكونت عنده حصيلة كثيرة من الحديث الشريف. كل ذلك هياً أبا هريرة لأن يفتى المسلمين في دينهم نيقاً وعشرين سنة والصحابة كثيرون آنذاك^(١).

ك- أصح الطرق عن أبي هريرة في الحديث عن رسول الله: حكى عن ابن المدينى أن من أصح الأسانيد إطلاقاً حماد بن يزيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة^(٢)، وأصح ما روى من الحديث عن أبي هريرة ما جاء عن:

- الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.
- أبو الزناد عن الأعرج - عبد الرحمن بن هرمز - عن أبي هريرة.
- مالك عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.
- سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.
- معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.
- معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة^(٣).

* الرد على الشبه التي أثيرت حول أبي هريرة رضى الله عنه:

كتب بعض أهل الأهواء قديماً فى الطعن فى أبي هريرة، وتابعهم فى هذا العصر بعض المستشرقين أمثال (جولد تسهير) و(شبرنجر) فى الطعن فى أبي هريرة رضى الله عنه بالظلم والبهتان، وكتب عبد الحسين شرف الدين العاملى الشيعى كتاباً تحت عنوان (أبو هريرة) وافترى فيه على أبي هريرة افتراءات يندى لها جبين العلم وتخز ضمير العلماء، وتجرح الحق، ولا تلتقى معه، حتى انتهى إلى تكفير أبي هريرة^(٤)، وقد استقى من هذا الكتاب أبو رية صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية. فكان أشد على أبي هريرة من أستاذه وأكثر ضلالاً وزيفاً، وأهم هذه الشبهات التي ألصقت بأبي هريرة رضى الله عنه:

أ- عمر وأبو هريرة رضى الله عنهما: اتهم عبد الحسين شرف الدين وأبو رية^(٥) أبا هريرة بأنه سرق عشرة آلاف دينار حينما ولى البحرين لعمر، فعزله وضربه

(١) السنة قبل التدوين، ص (٤٢٨).

(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤٣٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٣٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٣٧).

(٥) أبو هريرة لعبد الحسين، ص (١٤، ١٥)، أضواء السنة المحمدية، ص (١٩٢).

بالدرة حتى أدماه، لقد ذكرت جميع الروايات المعتمدة أن عمر رضى الله عنه قاسمه ماله، كما قاسم غيره من الولاة^(١)، وليس فيها أنه ضربه حتى أدماه، وكان أبو هريرة يقول: اللهم اغفر لأمير المؤمنين فلم يحقد على عمر رضى الله عنه مع أنه يعلم أن ما قاسمه إياه إنما هو عطاياه وأسهمه وغلة رقيقه، ولو أن عمر شك فى أمانة أبى هريرة بعض الشك لحاكمه وعاقبه العقوبة الشرعية، ولكنه عرف فيه الأمانة والإخلاص فعاد إليه بعد حين يطلبه للولاية فأبى أبو هريرة قبولها كما أسلفنا. هذا وجه الحق الذى أخفاه عبد الحسين وأبو رية، فعبد الحسين نقل رواية واحدة عن العقد الفريد لابن عبد ربه^(٢)، حيث وجد فيها ما يوافق هواه واكتفى أبو رية بالنقل عن عبد الحسين من غير أن يشير إلى المصدر ومن غير بحث أو مقارنة وتمحيص^(٣). وهذا يدل على حرصهم على التزوير والإخلال بالأمانة العلمية.

ب - هل تشيع أبو هريرة للأمويين؟ ووضع أحاديث فى ذم على وأبنائه؟ وقد اتهمه عبد الحسين بأنه دعاية الأمويين فى سياستهم، فتارة يفتت الأحاديث فى فضائلهم.. وتارة يلفق أحاديث فى فضائل الخليفين نزولاً على رغائب معاوية وفتته الباغية^(٤). وجمع أبو رية فى هذا الموضوع كل شتائم كتب الشيعة فى أبى هريرة ونبش الأكاذيب والافتراءات على صحابة رسول الله واعتمد الكتب التى لم يعرف مؤلفوها بالصدق ولا بالتمحيص فى الرواية أو التى عرف مؤلفوها بالبغض القاتل لأبى هريرة، والعقيدة التى ندين بها أن أبا هريرة رضى الله عنه كان محباً لآل بيت رسول الله ﷺ، روى فى فضائل الحسن والحسين أكثر من حديث^(٥)، ولم يناصب أهل البيت العداء قط ومشهور عنه أنه تمسك بسنة رسول الله ﷺ، فكان يحب من أحبه رسول الله ﷺ، ومن العجيب أن يدعى إنسان نهل عن العلم بفضله أن أبا هريرة يكره علياً وأهله رضى الله عنهم^(٦)، وقد كتب الأستاذ عبد المنعم صالح العزى كتابه القيم فى الدفاع عن أبى هريرة، وبين حبه لعلى

(١) تاريخ الإسلام (٢/٣٣٨)، حلية الأولياء (١/٣٨٠) البداية والنهاية (١١/٣٨٧).

(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤٣٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٣٩).

(٤) أبو هريرة لعبد الحسين، ص (٣٥).

(٥) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ص (٣٥٣، ٣٥٤).

(٦) البرهان فى تبرئة أبى هريرة من البهتان، ص (١٢٧).

وفاطمة رضى الله عنهما وبين بأنه يروى منقبة على يوم خيبر، عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه - ثم روى إعطاءه إياها^(١)، أفهذه رواية كاره لأمر المؤمنين على رضى الله عنه^(٢). وفى مناقب فاطمة رضى الله عنها يروى أبو هريرة قول النبي ﷺ: إن فاطمة سيدة نساء أمتي^(٣)، وروى أبو هريرة أحاديث فى حب الحسن بن على، وله معه وقائع وأخبار تدل على حب عظيم كان يكنه للحسن^(٤). ويروى لنا أبو هريرة صورة لوجه للحسن رضى الله عنه مع النبي ﷺ فيقول: لا أزال أحب هذا الرجل بعد ما رأيت رسول الله ﷺ، وهو يدخل أصابعه فى لحية النبي ﷺ، والنبي يدخل لسانه فى فمه، ثم قال: اللهم إني أحبه فأحبه^(٥). فلا غرابة بعد هذا الحب أن رأينا أبا هريرة يبكى يوم يموت الحسن ويدعو الناس إلى البكاء^(٦)، يقول: من حضر ذلك اليوم: رأيت أبا هريرة قائماً على المسجد يوم مات الحسن يبكى وينادى بأعلى صوته: يا أيها الناس، مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا^(٧)، ولم يكن حب الحسين بن على أقل ظهوراً عند أبي هريرة من حب الحسن، إذ ينقل لنا حادثة أخرى للنبي ﷺ فيقول: ما رأيت الحسين بن على إلا فاظت عيني دموعاً، وذاك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فوجدني فى المسجد، فأخذ بيدي واتكأ على، فانطلقت معه حتى جاء سوق بنى قينقاع، قال: وما كلمنى فطاف ونظر، ثم رجع ورجعت معه فجلس فى المسجد واحتبى، وقال لى: ادع لى لكاع، فأتى حسين يشتد حتى وقع فى حجره ثم أدخل يده فى لحية رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يفتح فم الحسين فيدخل فاه فيه ويقول: اللهم إني أحبه فأحبه^(٨). والقصة هذه رواها البخارى وفيها أنه الحسن لا الحسين، لكن الحاكم أشار إلى أن كلا الروايتين محفوظة واردة، وذلك محتمل، لأن فيها ذكر الرجوع إلى المسجد^(٩)، ولقد أثبت عبد المنعم العزى فى كتابه أقباس

(١) مسلم . (٢) الأدلة الباهرة على نفي البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة ص ١٣٣ .

(٣) التاريخ الكبير للبخارى (٢٣٢/١) بسند موصول .

(٤) الأدلة الباهرة، ص (١٣٤) .

(٥) المستدرک (١٦٩/٣) بسند صحيح .

(٦) الأدلة الباهرة، ص (١٣٥) .

(٧) التهذيب (٣٠١/٢) .

(٨) المستدرک (١٧٨/٣) .

(٩) الأدلة الباهرة على نفي البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، ص (١٣٥) .

من مناقب أبي هريرة بالدلائل القطعية الكافية اعتداد أبناء علي رضي الله عنهم بحديث أبي هريرة، وروايتهم عنه، ورواية كبار فرسان علي وأمرأه جنده، الذين قاتلوا معه في معارك الجمل وصفين والنهروان عن أبي هريرة، ورواية جمهرة من التابعين عنه ممن لاقوا علياً رضي الله عنه ورووا عنه، ورواية عدد كبير آخر من جماهير الشيعة والكوفيين ومحبي ذرية علي من طبقة أتباع التابعين والطبقة التي تليهم لحديث أبي هريرة، واستعماله له، واستدلالهم به، وتدوينه في كتبهم^(١).

إن الحقيقة العلمية التاريخية تقول: لا يوجد أي دليل يعتمد عليه في تشيخ أبي هريرة للأمويين، أو محاربهه وعداوته لعلی وأبنائه، وإنما ظلم وافتراء واختلاق على الحقيقة، وإنما ما نسب إليه من أحاديث في مدح الأمويين، إنما هي ضعيفة وموضوعة عليه وأهل الخبرة في هذا الشأن بينوا الكذابين والواضعين لها^(٢).

وأما دعوى كون الدولة الأموية وضعت أحاديث لتعمم بها رأياً من آرائها، فهذه دعوى لا وجود لها إلا في خيال الكذابين، فما روى لنا التاريخ أن الحكومة الأموية وضعت أحاديث، ونحن نسأل من زعم ذلك أين هي تلك الأحاديث التي وضعتها الحكومة؟ إن علماءنا اعتادوا ألا ينقلوا حديثاً إلا بسنده، وها هي أسانيد الأحاديث الصحيحة محفوظة في كتب السنة، ولا نجد حديثاً واحداً من آلافها الكثيرة في سنده عبد الملك أو يزيد أو الوليد أو أحد عمالهم كالحجاج وخالد القسري وأمثالهم، فأين ضاع ذلك في زوايا التاريخ لو كان له وجود؟ وإذا كانت الحكومة الأموية لم تضع بل دعت إلى الوضع، فما الدليل على ذلك؟^(٣)، وأما ما زعمه عبد الحسين وأبو رية بأن أبا هريرة كذب على رسول الله إرضاء للأمويين ونكاية بالعلويين^(٤)، فأبو هريرة من كل هذا براء، ولكنهما أوردا أخباراً ضعيفة وموضوعة لا أصل لها^(٥)، وكل ما كان في هذا الشأن وما جاءنا من هذه الأخبار الباطلة إنما كان عن طريق أهل الأهواء الداعين إلى أهوائهم، المتعصبين لمذاهبهم،

(١) أقباس من مناقب أبي هريرة، عبد المنعم العزى، ص (١٢٧ - ١٤٩).

(٢) البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، ص (١٢٨).

(٣) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص (٢٠٣).

(٤) أبو هريرة عبد الحسين، ص (٣٥)، أضواء على السنة، ص (١٩٠).

(٥) السنة قبل التدوين، ص (٤٤١).

فتجرؤوا على الحق، ولم يعرفوا للصحبة حرمتها، فتكلموا فى خيار الصحابة واتهموا بعضهم بالضلال والفسق، وقذفوا بعضهم بالكفر وافتروا على أبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم^(١). ولقد كشف أهل الحديث عن هؤلاء الكذبة، وكشف الله بهم أمر هذه الفرق وأماط اللثام عن وجوه المستترين وراءها فكان أصحاب الحديث هم جنود الله عز وجل، بينوا حقيقة هؤلاء، وأظهروا نواياهم وميولهم، فما من حديث أو خبر يطعن فى صحابى أو يشكك فى عقيدة، أو يخالف مبادئ الدين الحنيف إلا بين جهاذة هذا الفن يد صانعه، وكشفوا عن علته، فادعاء هؤلاء مردود حتى يثبت زعمهم بحجة صحيحة مقبولة، وكيف نتصور معاوية يحرض الصحابة على وضع الحديث كذباً وبهتاناً وزوراً، ليطعنوا فى أمير المؤمنين على رضى الله عنه^(٢)، وقد شهد علماء الأمة من الصحابة والتابعين على عدالة معاوية، وقد بين مواقفه من أمير المؤمنين على رضى الله عنه ولم يذكر فى مصدر موثوق به ما يدل على أن علياً رضى الله عنه كذب أباً هريرة أو نهاه عن الحديث، ولكن بعض أعداء أبى هريرة يستشهدون برواية مكذوبة عن أبى جعفر الإسكافى، وهى أن علياً لما بلغه أبو هريرة قال: ألا إن أكذب الناس - أو قال أكذب الأحياء على رسول الله - أبو هريرة الدوسى^(٣). فهذه رواية مردودة لا تقبلها عن الإسكافى، لأنه شيعى محترف، ومعتزلى ناصب أهل الحديث العداء^(٤)، وقد رد ابن قتيبة على جميع ما ألصقوه بالإمام على طعنًا فى أبى هريرة^(٥).

ج- كثرة حديثه: أخذ النظام المعتزلى على أبى هريرة كثرة حديثه وتابعه بعض المعتزلة قديماً ومنهم بشر الميسى، وأبو القاسم البلخى، وقد ردّ ابن قتيبة على النظام فى كتابه (تأويل مختلف الحديث)، ولقيت هذه الشبهة صدى فى نفوس بعض المتأخرين كعبد الحسين شرف الدين الشيعى الذى سود صفحات كثيرة من كتابه (أبو هريرة)^(٦)، يشكك فى مروياته ويستكثرها، ويوهم القارىء أن ما رواه أبو هريرة أكثر مما رواه الصحابة الذين اشتغلوا بأمر الدولة وسياستها، ويشير هذه

(١) العواصم من القواصم، ص (١٨٢، ١٨٣)، السنة قبل التدوين، ص (٤٤٣).

(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٤).

(٣) شرح نهج البلاغة (١/٤٦٨). (٤) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٣).

(٥) تأويل مختلف الحديث، ص (٢٧، ٥١) وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص (٤٦٠).

(٦) أبو هريرة، ص (٤٥) وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص (٤٤٦).

الشبهة نفسها أبو رية في كتابه أضواء على السنة المحمدية^(١)، ويستشهد هؤلاء جميعاً بأخبار ضعيفة أو موضوعة أحياناً، وبتأويلات وموازنات باطلة أحياناً أخرى، وتلتقى أهواء هؤلاء بأهواء بعض المستشرقين أمثال «جولد تسيهر» الذى استكثر أيضاً مرويات أبي هريرة^(٢)، وخالصة أقوالهم، أن أبا هريرة تأخر إسلامه، وروى عن رسول الله ﷺ (٥٣٧٤) حديثاً، وهى أكثر كثيراً مما رواه الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة الذين سبقوه إلى الإسلام^(٣)، ومن الخطأ الفاحش أن يقارن الخلفاء الراشدون وأبو هريرة فى مجال الحفظ وكثرة الرواية لأسباب عديدة منها:

- صحيح أن الخلفاء الراشدين الأربعة رضى الله عنهم سبقوا أبا هريرة فى صحبتهم وإسلامهم، ولم يرو عنهم مثل ما روى عنه، إلا أن هؤلاء اهتموا بأمر الدولة، وسياسة الحكم، وأنفذوا العلماء والقراء والقضاة إلى البلدان، فأدوا الأمانة التى حملوها، كما أدى هؤلاء الأمانة فى توجيه شئون الأمة، فكما لا نلوم خالد ابن الوليد على قلة حديثه عن الرسول ﷺ لانشغاله بالفتوحات، لا نلوم أبا هريرة على كثرة حديثه لانشغاله بالعلم^(٤).

- انصراف أبى هريرة إلى العلم والتعليم، واحتياج الناس إليه لامتداد عمره، يجعل الموازنة بينه وبين غيره من الصحابة السابقين أو الخلفاء الراشدين غير صحيحة، بل هى خطأ كبير^(٥)، وكون أبى هريرة رضى الله عنه أكثر رواية من السيدة عائشة رضى الله عنها لأنها كانت تفتى الناس فى دارها، وأما أبو هريرة، فقد اتخذ حلقة له فى المسجد النبوى، كما كان أكثر احتكاكاً بالناس من السيدة أم المؤمنين عائشة بصفته رجلاً، كثير الغدو والرواح، وأضيف إلى هذا أن السيدة عائشة كان جل همها موجهاً نحو نساء المؤمنين، وكان يتعذر دخول كل إنسان عليها^(٦). إن نظرة مجردة عن الهوى تدرك أن ما روى عن أبى هريرة من الأحاديث لا يثير العجب والدهشة، ولا يحتاج إلى هذا الشغب الذى اصطنعه

(١) أضواء على السنة المحمدية، ص (١٦٠) وما بعدها.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية - مادة حديث نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص (٤٤٧).

(٣) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٧). (٤) المصدر نفسه، ص (٤٥٠).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٥١). (٦) المصدر نفسه، ص (٤٥١).

أهل الأهواء وأعداء السنن، وإن ما رواه عن رسول الله ﷺ، سواء أسمعته منه أم من الصحابة لا يشك فيه لقصر صحبته، بل إن صحبته تحمل أكثر من هذا، لأنها كانت في أعظم سنوات دولة الإسلام دعوة ونشاطاً، وتعليماً وتوجيهاً في عهد رسول الله ﷺ (١).

- كثرة ملازمته للنبي ﷺ: فقد صحب النبي ﷺ أربع سنين، فعن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله، ما حدثت حديث ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيْنُوا فَأُولَٰئِكَ تَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]. إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون (٢).

- دعاء النبي ﷺ له في الحفظ: فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله إنى أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه، قال: ابسط رداءك. فبسطه، قال: فغرف بيديه ثم قال: ضمه. فضمته فما نسيت شيئاً بعده (٣).

- كثرة تلامذته والناقلين عنه: فكان عدد تلامذته قريباً من ثمانمائة (٤).

- تأخر وفاته: فقد قيل: ٥٨هـ وقيل: ٥٩هـ. ثم إن هذه الأحاديث المنقولة عنه تنقسم إلى ما يلي:

* ما كان ضعيف السند لا يصح عن أبي هريرة .

* ما كان مكرراً.

* ما كان له أكثر من إسناد.

* ما رواه عن أكابر الصحابة كالعشرة وأمهات المؤمنين وغيرهم

(١) السنة قبل التدوين، ص (٤٥٢).

(٢) البخارى رقم ١١٩، مسلم رقم ١٦٠ .

(٤) حقة من التاريخ، ص (٢٢٣)، سير أعلام النبلاء (٢ / ٥٧٩).

* ما كان موقوفاً عليه من كلامه^(١). وقد اتفق البخارى ومسلم على إخراج ثلاثمائة وستة وعشرين حديثاً، وانفرد البخارى بثلاثة وتسعين، وانفرد مسلم بثمانية وتسعين، ثم إن جُلَّ الأحاديث التى رواها أبو هريرة لم ينفرد بها عن رسول الله ﷺ بل شاركه فى روايتها غيره من الصحابة^(٢)، وأما اعتراض الشيعة على مروياته، فإن جابر بن يزيد الجعفى روى عن محمد الباقر رضى الله عنه سبعين ألف حديث، وعن باقى الأئمة مائة وأربعين ألف حديث^(٣)، وروى أبان ابن تغلب عن جعفر الصادق رضى الله عنه ثلاثين ألف حديث^(٤)، وروى محمد ابن مسلم عن الباقر ثلاثين ألف حديث، وعن الصادق ستة عشرة ألف حديث^(٥). وهذا يبين تناقضهم.

وقد شهد لأبى هريرة الصحابة والتابعون وجهابذة العلم بقوة الحفظ وحضور الذاكرة^(٦). فقد قال ابن عمر: يا أبا هريرة كنت ألزمتا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه^(٧)، وقال الشافعى: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره^(٨). وقال الذهبى:.. سيد الحفّاط الأثبات^(٩)، وقال أيضاً: وأبو هريرة إليه المنتهى فى حفظ ما سمعه من رسول الله ﷺ وأدائه بحروفه^(١٠).

وقد دافع الكثير من العلماء عن أبى هريرة وردوا الشبهات التى ألصقت به ومن الكتب المعاصرة التى نسفت الأباطيل التى اتهم بها أبا هريرة، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب^(١١)، وموقف المدرسة العقلية من السنة النبوية^(١٢).

ل- بكاء أبى هريرة فى مرض موته ووصية معاوية بورثته: لما حضر أبو هريرة الموت بكى فقليل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكى دنياكم هذه، ولكن أبكى على بعد

(١) حقبة من التاريخ، ص (٢٢٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٢٣).

(٣) خاتمة وسائل الشيعة، ص (١٥١).

(٤) رجال الكشى، ص (٩).

(٥) مشيخة الصدوق، ص (٦).

(٦) موقف المدرسة العقلية من السيرة النبوية، الأمين الصادق (٧٤/٢).

(٧) سير أعلام النبلاء (٦٠٣/٢ - ٦٠٤) رجاله ثقات إسناده صحيح.

(٨) المصدر نفسه (٥٩٩/٢).

(٩) المصدر نفسه (٥٧٨/٢).

(١٠) المصدر نفسه (٦١٩/٢).

(١١) العصرانيون، محمد حامد الناصر، ص (١١٥).

(١٢) موقف المدرسة العقلية (٧٤/٢).

سفرى وقلة زادى، وإنى أصبحت فى صعود مهبط على جنة ونار، لا أدرى إلى أيهما يُؤخذ بى^(١). وجاء فى رواية: وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان والى المدينة وفى القوم ابن عمر وأبو سعيد الخدرى وخلق، وكانت وفاته فى داره بالعقيق، فحمل إلى المدينة، فصلّى عليه ثم دفن بالبقيع - رحمه الله ورضى الله عنه - وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبى هريرة، وكتب إليه معاوية أن انظر ورثته فأحسن إليهم، واصرف إليهم عشرة آلاف درهم، وأحسن جوارهم، وأعمل إليهم معروفًا، فإنه كان ممن نصر عثمان، وكان معه فى الدار^(٢).

* هل أراد معاوية أن ينقل منبر رسول الله من المدينة إلى الشام؟

ذكر الطبرى فى تاريخه فى أحداث عام ٥٠ هـ بأن معاوية أمر بمنبر رسول الله ﷺ، أن يحمل إلى الشام فحرّك فكسفت الشمس حتى رُئيت النجوم بادية يومئذ، فأعظم الناس ذلك، فقال: لم أرد حملهُ، إنما خفت أن يكون قد أرض^(٣)، فنظرت إليه، ثم كساه يومئذ^(٤)، وجاء فى رواية أخرى: قال معاوية: أنى رأيت أن منبر رسول الله وعصاه^(٥)، لا يتركان بالمدينة، وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلما قدم طلب العصا وهى عند سعد القرظى، فجاء أبو هريرة وجابر بن عبد الله، فقالا: يا أمير المؤمنين، نذكرك الله عز وجل ألا تفعل هذا، فإن هذا لا يصح، تُخرج منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه، وتخرج عصاه من المدينة. فترك ذلك معاوية، ولكن زاد فى المنبر ستّ درجات، واعتذر إلى الناس^(٦). وقد تحدّثت الروايات السابقة عن القضايا التالية:

١ - عزم معاوية رضى الله عنه على نقل منبر رسول الله، وعصاه إلى الشام: فقد ذكره الزبير بن بكار^(٧)، واليعقوبى وابن الجوزى^(٨)، دون أن يشيروا إلى خبر

(١) البداية والنهاية (٣٨٤/١١) . (٢) المصدر نفسه (٣٨٩/١١) .

(٣) أى: أصابته الأرضة وهى دويبة تأكل الخشب القاموس المحيط، ص (٨٢٠).

(٤) تاريخ الطبرى (١٥٥/٦) . (٥) كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخطب توكأ على عصا .

(٦) البداية والنهاية (٢١٤/١١)، تاريخ الطبرى (١٥٥/٦).

(٧) فتح البارى (٤٦٣/٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٣٨٨).

(٨) المنتظم (٢٢٧/٥) .

العصا، أما ابن الأثير^(١)، وابن كثير^(٢)، فقد أورد خبر المنبر والعصا، هذا وقال الدكتور خالد الغيث: ولم أقف على رواية صحيحة تؤكد مزاعم الواقدي هذا فضلاً عن أن دين معاوية، وعدالته، وصحبته لرسول الله ﷺ تمنعه من حمل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام وهو يعلم قوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٣). هذا وقد أورد عبد الرزاق^(٤) خبر قدوم معاوية رضى الله عنه المدينة وزيادته درجات المنبر دون الإشارة إلى إرادة معاوية نقل المنبر إلى الشام، أو أخذ العصا، وزيادة معاوية رضى الله عنه للمنبر وكسوته تعد من مناقب معاوية التي حاول بعض الأخباريين طمسها وتشويهها^(٥).

٢- خبر ربط كسوف الشمس بتحريك المنبر: فقد ذكره عبد الرزاق والزيبر بن بكار^(٦)، وابن الجوزي^(٧)، وابن الأثير^(٨)، وابن كثير^(٩)، بينما ذهب اليعقوبى^(١٠) الشيعى إلى حدوث زلزلة عند تحريك المنبر، وهذا الخبر لم يرد بإسناد صحيح، هذا فضلاً عن أن كسوف الشمس على افتراض حدوثه، فإنه لم يكن نتيجة لتحريك المنبر ليس إلا، وقد حصل ما يشبه ذلك فى عهد الرسول ﷺ، حيث أخرج البخارى من طريق المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا، وادعوا الله»، وعن أبى بكره رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده»^(١١).

٣- اتهام معاوية رضى الله عنه بىغض أهل المدينة (الأنصار): لكونهم قتلة عثمان ابن عفان رضى الله عنه، هذا الخبر أوردته ابن الأثير^(١٢)، وهو خبر ضعيف

(٢) البداية والنهاية (١١/٢١٤).

(٤) المصنف (٣/١٨٣).

(٦) فتح البارى (٢/٤٦٤).

(٨) الكامل (٢/٤٨٢).

(١٢) الكامل (٢/٤٨٢).

(١) الكامل فى التاريخ (٢/٤٨٢).

(٣) البخارى، صحيح البخارى مع الفتح (٤/١١٩).

(٥) مرويات خلافت معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٨٩).

(٧) المنتظم (٥/٢٢٨).

(٩) البداية والنهاية (١١/٢١٤).

(١٠)، (١١) البخارى: صحيح البخارى مع الفتح (٢/٦١٢).

الإسناد^(١). وقد بينت موقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وكيف أن كعب بن مالك الأنصاري حث الأنصار على نصرته عثمان رضى الله عنه، وقال لهم: يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين، فجاءت الأنصار عثمان، ووقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت الأنصاري رضى الله عنه، وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنا أنصار الله مرتين^(٢). فرفض القتال، وقال: لا حاجة لى فى ذلك، كفوًا^(٣). وأما زعمهم أن معاوية يبغض الأنصار رضى الله عنهم لكونهم قتلة عثمان رضى الله عنه، فمردود بما ورد من حقيقة موقف الأنصار من عثمان رضى الله عنه، كما أن تقريب معاوية للأنصار وتوليته إياهم فى مناصب هامة وحساسة يرد هذه الفرية، ومن الشواهد على ذلك:

١- توليته فضالة بن عبيد الأنصاري رضى الله عنه قضاء دمشق^(٤)، وتوليته إياه منصب أمير البحرية الإسلامية فى مصر^(٥).

٢- تعيينه النعمان بن بشير الأنصاري رضى الله عنه أميراً على الكوفة^(٦).

٣- تعيينه مسلمة بن مخلد الأنصاري رضى الله عنه أميراً على مصر والمغرب معاً^(٧).

٤- تعيينه رويغ بن ثابت الأنصاري رضى الله عنه أميراً على طرابلس^(٨).
رابعاً: مكة:

- ولاية خالد بن العاص بن هشام رضى الله عنه: ولى معاوية - فى سنة ٤٢هـ - مكة خالد بن العاص بن هشام^(٩)، وبعد أن سمى الطبرى من ولى مكة فى سنة ٤٢هـ وسنة ٤٣هـ نجده بعد ذلك يسكت عن تسمية عمال مكة^(١٠)، ويكتفى

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٩٠).

(٢) فتنة مقتل عثمان للغان الملحق ص (٢٠٠) إسناده حسن لغيره .

(٣) مرويات خلافة معاوية ص (٣٩١) فتنة مقتل عثمان (١/١٦٢).

(٤) الاستيعاب (٣/١٢٦٢)، الإصابة (٥/٣٧١) . (٥) رياض النفوس للمالكي (١/٨٠).

(٦) مرويات خلافة معاوية ص (٣٩١) نقلا عن تاريخ الطبرى . (٧) المصدر نفسه، ص (٣٩٢).

(٨) الاستيعاب (٢/٥٠٤) . (٩) تاريخ الطبرى (٦/٨٧).

(١٠) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٧٨).

بعبارة: وكانت الولاة والعمال على الأمصار فى هذه السنة من تقدم ذكره قبل^(١)،
أو عبارة نحوها وقد تابعه كل من ابن الجوزى^(٢)، وابن الأثير^(٣).

خامساً: ولاة الطائف:

لم يذكر الطبرى أسماء ولاة الطائف، لكن وردت عنده رواية تفيد تولى بعض
بنى حرب الطائف، وفيما يلى نص هذه الرواية: وكان معاوية إذا أراد أن يولى
رجلاً من بنى حرب ولاة الطائف، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاة مكة معها،
فإن أحسن الولاية، وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى
الطائف رجلاً قيل: هو أبى جاد^(٤)، فإذا ولاة مكة قيل: هو فى القرآن، فإذا ولاة
المدينة قيل: هو قد حذق^(٥). أما بالنسبة لمن ولى الطائف من بنى حرب فإن رواية
الطبرى تسكت عن تسميتهم، لكن ورد عند البلاذرى ما يفيد تولية عنبسة بن أبى
سفيان بن حرب وعتبة بن أبى سفيان بن حرب على الطائف^(٦).

سادساً: مصر:

١- ولاية عمرو بن العاص رضى الله عنه: ولى معاوية عمرو بن العاص على
مصر عام ٤١هـ^(٧). وهذا من باب وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، فعمرو
فاتح مصر وواليتها على عهد عمر وعثمان رضوان الله عليهم، وهو أقرب الناس
لتولى هذه الولاية الهامة^(٨). وقد تكاثرت الروايات الموضوعة والضعيفة فى العلاقة
بين عمرو ومعاوية رضى الله عنهما، واشتمل على مغامز خفية ومعلنة على
الرجلين، وتشير بعضها إلى أن معاوية قد أعطى ولاية مصر لعمرو بن العاص
مكافأة له نظير وقوفه إلى جانبه أثناء الفتنة التى أعقبت استشهاد عثمان بن عفان
رضى الله عنه، وهذا الأمر قد بيته فى كتابى عن على بن أبى طالب رضى الله

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٧٨) نقلاً عن تاريخ الطبرى (٢) المنتظم (١٩٣/٥ - ٢٠٦).

(٣) الكامل فى التاريخ نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص (٣٧٨).

(٤) هو أبى جاد: فى أول الأمر.

(٥) تاريخ الطبرى، مرويات خلافت معاوية، ص (٢٧٩).

(٦) أنساب الأشراف (٣٩/٤)، مرويات خلافة معاوية، ص (٢٧٩).

(٨) المصدر نفسه، ص (٢٨٢).

(٧) مرويات خلافة معاوية (٢٨١، ٢٨٢).

عنه بأن وقوف عمرو بن العاص مع معاوية في المطالبة بالتعجيل بتطبيق القصاص على قتلة عثمان لم يكن تضامناً من عمرو مع شخص معاوية بل كان نابغاً من اجتهاد عمرو الشخصي في هذه المسألة، حيث رأى رضى الله عنه الأخذ بالقَوَد من قتلة عثمان على الفور، فكان هذا الاجتهاد من عمرو بن العاص متطابقاً مع اجتهاد معاوية في القضية نفسها^(١). وقد كانت ولاية عمرو بن العاص على مصر ذات صلاحيات واسعة بسبب ما كان يتمتع به من مقدرة إدارية فائقة، وقابليات سياسية وعسكرية متميزة، فقد واصل فتوحات الشمال الإفريقي ونظم أمر العطاء والإعمار والبناء والزراعة والرى بمصر وقد بقى عمرو في ولاية مصر^(٢) حتى وفاته عام ٤٣ هـ.

- وصيته عند موته: يروى ابن شماسة المهري وصية عمرو بن العاص لحظة احتضاره فيقول: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت^(٣)، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرُّك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرُّك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إنى كنت على أطباق ثلاث^(٤). لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منى، ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، لو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبائعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن اشترط، قال: تشتط بماذا؟ قلت: أن يغفر لى، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟^(٥)، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملاً عينى منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما

(١) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبرى، ص (٢٨٢).

(٢) مصر فى العصر الأموى، عدنان أحمد الجنالى، ص (٤٩، ٥٠).

(٣) فى سياقة الموت: أى: حال حضوره. (٤) أى: على ثلاث أحوال.

(٥) أى يسقطه ويمحو أثره، وصايا وعظمت قيلت آخر الحياة للحموى، ص (٧٠).

أطقت، لأنى لم أكن أملاً عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة^(١).

وجاء فى رواية: ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء، فلا أدرى على أم لى، فإذا مت فلا تبكين على باكية، ولا تتبعنى مادحاً ولا ناراً، وشُدُّوا على إزارى فإنى مخاصم، وشنُّوا على التراب شناً، فإن جنبى الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبى الأيسر، ولا تجعلن فى قبرى خشبة ولا حجراً، وإذا وارىتمونى فاقعدوا عندى قدر نحر جذور وتقطيعها، أستأنس بكم^(٢). وقد روى مسلم هذا الحديث فى صحيحه: كى أستأنس بكم لأنظر ماذا أراجع به رسل ربى عز وجل^(٣)، وفى رواية: أنه بعد هذا حوّل وجهه إلى الجدار وجعل يقول: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك. وفى رواية: أنه وضع يده على موضع الغلّ من عنقه، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم لا قوى فأنتصر، ولا برىء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت، فلم يزل يُردّها حتى مات رضى الله عنه^(٤).

٢ - ولاية عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه: كانت وفاة عمرو ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين، واستخلف ابنه عبد الله على صلاتها وخراجها،^(٥) وبعد وصول خبر وفاة عمرو بن العاص إلى معاوية قام بتعيين أخيه عتبة على مصر وذلك فى شهر ذى القعدة من سنة ثلاث وأربعين^(٦). أى أن ولاية عبد الله بن عمرو على مصر لم تزد على شهرين وهى الفترة التى استغرقتها وصول خبر وفاة عمرو إلى معاوية، واتخاذها لقرار تعيين الوالى الجديد^(٧). وقد وصف الذهبى عبد الله بن عمرو بقوله: الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله وابن صاحبه أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمن... وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنة أو نحوها، وقد أسلم قبل أبيه فيما بلغنا، ويقال: كان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبى ﷺ بعبد الله^(٨)، وقد ورث عبد الله من أبيه قناطير مقنطرة من الذهب فكان من ملوك الصحابة^(٩).

(١) مسلم رقم (١٢١).

(٢) مسلم رقم (١٢١).

(٣) البداية والنهاية (١١/١٦١).

(٤) المصدر نفسه، ص (٥٧).

(٥) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٨٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (٥٧).

(٧) سيرة أعلام النبلاء (٣/٨٠).

(٨) المصدر نفسه، ص (٥٧).

٣ - ولاية عتبة بن أبى سفيان: ولد على عهد رسول الله ﷺ وواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الطائف وصدقاتها ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو ابن العاص، وكان فصيحاً خطيباً، يقال: إنه لم يكن فى بنى أمية أخطب منه. خطب أهل مصر يوماً وهو وال عليها فقال: يا أهل مصر خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تأتونى، وذم الباطل وأنتم تفعلونه، كالحمار يحمل أسفاراً يثقله حملها، ولا ينفعه علمها، وإنى لا أداوى داءكم إلا بالسيف، ولا أبلغ السيف ما كفانى السوط، ولا أبلغ السوط ما صلحتم بالدرّة، وأبطئ عن الأولى إن لم تسرعوا إلى الآخرة، فالزموا ما ألزكم الله لنا تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وهذا يوم ليس فيه عقاب، ولا بعده عتاب. (١) وجاء فى رواية: . . . لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل، فناده المصريون من جنات المسجد سمعاً، سمعاً، فناداهم عدلاً عدلاً (٢). وقد قام عتبة ببناء دار الإمارة بعد أن خرج مرابطاً فى الاسكندرية (٣)، وكان عتبة قد اتخذ لأولاده مؤدباً، يعلمهم ويربيهم، فقد عهد لعبد الصمد بن عبد الأعلى ليكون مؤدباً لولده (٤)، ووجه مؤدب أولاده بتتبع أساليب التشويق وتحيب دراسة كتاب الله إلى نفوسهم فقال له: علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه (٥)، وجاء فى رواية: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بنى إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روه من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء وجنبهم محادثة النساء، وتهدهم بى، وأدبهم دونى، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تتكل على عذرى، فإنى قد اتكلت على كفايتك، وزد فى تأديهم أزدك فى برى إن شاء الله (٦).

(١) الاستيعاب رقم (١٩٢٣).

(٢) النجوم الزاهرة (١/١٢٤)، مصر فى العصر الأموى (٨٢).

(٣) مصر فى العصر الأموى، ص (٨٢)، النجوم الزاهرة (١/٣٤).

(٤) مكانة المعلم فى التراث العربى للزبيدى، ص (١٠٦). (٥) البيان والتبيين للجاحظ (٧٣/٢).

(٦) عيون الأخبار (٢/٥) (٢/٦٦)، البيان والتبيين (٧٣/٢، ٧٤).

يتضح من هذه الوصية حرص الولاة الأمويين على تعليم أبنائهم القرآن الكريم والحديث والشعر وغيرها إضافة إلى التأكيد على الجانب التربوي وتزويدهم بالآداب والأخلاق الحسنة، كما أنهم يمنحون المؤدبين صلاحيات واسعة، ويكرمونهم^(١).

٤ - ولاية عقبة بن عامر الجهني رضى الله عنه: (٤٥هـ - ٤٧هـ): أغفل الطبرى ذكر ولاية عقبة بن عامر الجهني على مصر، وتابعه ابن الجوزى، وابن الأثير وابن كثير، مع أن ولايته على مصر قد أثبتتها المصادر التاريخية المختصة بالديار المصرية^(٢)، وهى مقدمة على غيرها فى هذا المقام^(٣)، كما أثبتها له ابن عبد البر^(٤)، وابن حجر^(٥)، وكان عالماً مقرئاً، فصيحاً فقيهاً فرضياً، شاعراً كبير الشأن، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فقال له عمر بن الخطاب: اعرض على فقراً. فبكى عمر، وكانت له صحبة وباع رسول الله على الهجرة وأقام معه، وكان من أهل الصفة وكان من الرماة المذكورين، مات سنة ٥٨هـ^(٦).

٥ - ولاية مسلمة بن مُخلد الأنصارى (٤٧هـ - ٦٢هـ): هو مسلمة بن مُخلد الأنصارى الخزرجى، الأمير، نائب مصر لمعاوية يكنى أبا معن، وقيل أبو سعيد، وقيل أبو معاوية له صحبة ولا صحبة لأبيه^(٧). قال مجاهد: صليت خلف مسلمة بن مُخلد، فقرأ سورة البقرة، فما ترك أوأً ولا ألفاً^(٨). قال الليث: عزل عقبة بن عامر عن مصر فى سنة سبع وأربعين فولىها مسلمة حتى مات زمن يزيد^(٩)، وقد توفى سنة ٦٢هـ فى ذى القعدة بالأسكندرية^(١٠)، وكانت له جهود فى الفتوحات بالشمال الأفريقى يأتى ذكرها بإذن الله تعالى، وكان المغرب كله تابعاً له^(١١).

هذه هى أهم الولايات والولاة فى عهد معاوية رضى الله عنه، ويمكن تلخيص صلاحيات الولاة بالولايات على الإجمال، كتعيين الموظفين، وتشكيل مجالس شورى، إنشاء الجيوش وتجهيزها بالنسبة للولايات القريبة من حركة الفتح الإسلامى، كمصر والبصرة، والحفاظ على الأمن الداخلى، والإشراف على الجهاز القضائى بالولاية، والنفقات المالية، ومراقبة الأوضاع بالولاية وغير ذلك من الصلاحيات.

(١) التعليم فى العصر الأموى، ص (٦٦) السبتي.

(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨٧).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٨٧)، وولاة مصر، والنجوم الزاهرة. (٤) الاستيعاب رقم الترجمة (١٨٩٨).

(٥) الإصابة (٤/٥٢١). (٦) سير أعلام النبلاء (٢/٤٦٨).

(٧) المصدر نفسه (٣/٤٢٤). (٨)، (٩) المصدر نفسه (٣/٤٢٥).

(١٠) المصدر نفسه (٣/٤٢٦). (١١) مصر فى العصر الأموى، ص (٨٣).

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه

نريد أن نسجل حركة الانسحاق الإسلامى فى الأرض، التى تمت فى عهد بنى أمية منذ عهد معاوية رضى الله عنه، لندحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهد الخلفاء الراشدين، فحركة الفتح الإسلامى التى قامت فى عهد الخلافة الراشدة وبنى أمية ليست مجرد توسع فى الأرض، ولا يجوز النظر إليها بهذا الاعتبار، إنما هى أكبر حركة (هداية) للناس فى التاريخ وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور، وقد يبدو هذا الكلام فى حس المثقفين - لأول وهلة - مجرد تشابه مع دعوى كل (دولة عظمى) أنها نشرت الحضارة فى الأرض، وأن حركتها التوسعية كانت من أجل نشر تلك الحضارة، فلننظر إذن فى تاريخ (الإمبراطوريات) فى القديم والحديث: الإمبراطورية الفرعونية، والإمبراطورية الآشورية، الإمبراطورية الفينيقية، والرومانية، والفارسية، والهندية، والصينية، والبريطانية، والفرنسية، والأمريكية، والروسية،... إلى آخر تلك الإمبراطوريات الجاهلية التى يعج بها تاريخ الأرض، كيف قامت أولاً؟ وما نشرت فى الأرض؟، فأما قيامها على التسلط بالقوة، وقهر الآخرين وإذلالهم، وإخضاعهم لسيطرة الدولة الأم، وتحويلهم خدماً لتلك الدولة الأم، يمدونهم بالرجال المقاتلين، ويمدونهم بمختلف الخيرات، لتنتفش هى وتشعب وتتخم على حساب الجائعين المقهورين الأذلاء، فهذا أمر لا يحتمل المرء^(١)، وأما الذى نشرته فى الأرض فلا شك أنها نشرت بعض الخير، إلى جانبه كثيراً من الفساد، لأن حياتها هى ذاتها - وهى لا تهتدى بمنهج ربانى - لا تشتمل إلا على بعض الخير والكثير من الفساد، وكل إناء ينضح بما فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه، وأما الحضارة الغربية اليوم، ففضائع الاستعمار الذى صاحب تلك الحضارة من احتلال أراضى الشعوب ونهب خيراتها وإذلال أهلها خير شاهد على فسادها، كما أن آخر إفرازات هذه الحضارة الذى يسمى النظام العالمى الجديد، إن هو إلا نوع جديد من الطغيان تمارسه الدول القوية على الدول الضعيفة، ومن أبرز مآثره التخطيط للتحكم فى الدول المنتجة

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٨، ١١٩).

للبترول لحساب الدول الغربية القوية المتحكمة، وذلك باستنزاف هذا البترول فى مدة أقصر، وطرحه فى الأسواق بسعر أقل، لكى تزداد الدول الطاغية غنى ويزداد الفقراء فقراً وذلك وظيفياً باسم (النظام العالمى الجديد). ومن مآثره كذلك إمداد إسرائيل بكل وسائل العدوان وحرمان الدول العربية من إمكانية صد العدوان. وأما أصحاب الرسائل السماوية السابقة من اليهود والنصارى فماذا نشروا فى الأرض؟ فأما اليهود فقد حولوا دينهم إلى عصبية خاصة ببنى إسرائيل، لا يحبون نشره فى الأرض لكى يبقى الإله خالصاً لهم لا يشاركهم فيه أحد من الناس، وأما النصارى فممنذ بولس وهم يسعون إلى نشر دينهم على نطاق واسع فأى شىء نشروه؟، لقد نشروا بادية ذى بدء ديناً وثنياً بدلاً من الدين الربانى الذى أنزله الله على عيسى ابن مريم. ديناً يعبد فيه عيسى وروح القدس جبريل عليه السلام مع الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. ونشروا ديناً يدعو إلى الرهبانية، وإهمال الحياة الدنيا واحتقار الجسد ودوافعه فنشأ عنه تعطيل دفعة الحياة وإهمال عمارة الأرض، ثم نشأ عنه رد فعل أسوأ وهو انكباب على لذائذ الجسد وماديات الحياة^(١)، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، ونشأ مع ذلك الدين نظام كهنوتى يتمثل فى الكنيسة ورجالها على رأسهم البابا يمارس ألواناً من الطغيان البشع فى جميع نواحي الحياة، ويعادى الفكر ويحجر على العقل، ويضطهد العلماء ويمنعهم من البحث العلمى التجريبي أو النظرى، فتأخرت الحياة فى كل جانب، ثم حدث رد فعل أسوأ، تمثل فى الإلحاد وإقامة الحياة على مبعده من الدين، بل فى عداء مع الدين، وهكذا تحولت رسالة السماء على يد الكنيسة إلى غير ما نزلت من أجله، ونشرت الفساد بدلاً من الإصلاح، سواء فى الفترة التى كانت تمارس سلطانها على

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٩).

الناس، أو في الفترة انقلب فيها الناس على سلطانهم ورفضوا الخضوع للدين^(١)، وفي مقابل ذلك كان الانسحاق الإسلامي في الأرض فريداً في التاريخ، شيئاً غير التوسع (الإمبراطوري) الذي مارسه الجاهليات القديمة والحديثة، وغير الطغيان المفسد الذي مارسه النصرانية المحرفة وهي تتوسع في الأرض، في تلك الحركة الفريدة في التاريخ كان المسلمون ينشرون الهدى في مكان الضلال، والنور في مكان الظلام، والعبودية الصحيحة في مكان العبوديات الزائفة للحكام والكهنة والأوثان، ويحررون المستعبدين في الأرض، ويردون إليهم إنسانيتهم الضائعة، ويرفعونهم إلى المكان اللائق بالإنسان، وكانوا ينشرون قيماً من العدل والأخوة والتسامح والتكافل لا عهد للبشرية بها من قبل، ولا رأتها من بعد في غير الإسلام، وينشرون حضارة حقيقية شاملة شامخة، لا يستأثرون بها لأنفسهم، بل يفتحون أبوابها لكل مسلم في الأرض، بل يستظل بظلها النصراني في الأندلس وشرق أوروبا، واليهود في مختلف بلاد العالم الإسلامي، والوثنيون عباد البقر في الهند، وكل من أراد أن يتعلم أو يمارس الحياة دون عدوان^(٢). لم ينهب المسلمون خيرات البلاد المفتوحة، ولم يستذلوها ليتمتعوا بالسلطان، ولم يحافظوا عليها متأخرة متدنية ليبرروا استمرار سيادتهم عليها واستعلاءهم على أهلها. . إنما دعوهم أولاً إلى الخير - وهو الإسلام - فإن استجابوا فهم إخوة في الدين. . وإن أبوا طلبوا منهم جزية تدل على عدم مقاومتهم للخير المنزل من السماء أن يصل إلى قلوب الناس صافياً بلا غش، فإن أبوا هذا وذاك فعندئذ يقع القتال، لا لإكراه أحد على اعتناق الإسلام، إنما لإزالة مراكز القوى التي تمنع الحق أن يصل إلى الناس على حقيقته. . فإذا أزيلت مراكز الطغيان، وزال تأثيرها على النفوس، ترك الناس أحراراً في ظل الإسلام، يعتنقون ما يشاءون^(٣).

إن حركة الفتح الإسلامي: دوافعها وخصائصها، وآثارها الواقعة لهدى فصل أساسي في كتابة التاريخ الإسلامي، لا بد أن يعالج باستفاضة لدحض مزاعم المستشرقين ومن يتلمذ عليهم من بعض المؤرخين العرب وغيرهم. . وإن كنا نورده هنا من زاوية معينة: هي دلالتها على مدى عمق الوجود الإسلامي في نفوس الأمة التي تتحرك به، ولن تتحرك به أمة هذه الحركة الواسعة السريعة الفعالة المؤثرة

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢١).

(١)، (٢) كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟، ص (١٢٠).

وهي نفسها خاوية منه أو غير ممتلئة به حتى أعماقها^(١). وأول ما يسقط من دعاوى المغرضين في هذا الشأن - لفرط هشاشته - قول من قال إن الدوافع الاقتصادية هي التي دفعت حركة الفتح الإسلامي! إن الذي تحركه الدوافع الاقتصادية لا يخرج ليدعو الناس - أول ما يدعوهم - إلى الإسلام، فإن أسلموا ألقى سلاحه وعانقهم كما يعانق الأخ أخاه، وأخذ يعلمهم تعاليم الإسلام ليشاركوه في الخير الرباني الذي هداه الله إليه، فأصحاب هؤلاء الفرية يفترون الكذب على التاريخ^(٢)، وتسقط الدعاوى الأخرى تبعاً وتبقى حقيقة مهمة هي أن هذه الحركة لا يمكن أن تأخذ صورتها التي أخذتها بالفعل، إلا أن تكون صادرة عن أمة ممتلئة بهذا الدين حتى أعماقها، حريصة عليه، مؤمنة به، راغبة فيه، راغبة في نشره في آفاق الأرض، فالقوة وحدها لا تفسر ما حدث في هذه الحركة من العجائب، فكم استخدمت القوى الطاغية في الأرض قوتها للتوسع في الأرض، فلم تصنع ما صنعتها الحركة الإسلامية. إن السيف، يمكن أن يفتح الأرض، ولكنه لا يفتح القلوب، والذي حدث في حركة الفتح الإسلامي لم يكن مجرد التوسع في الأرض، إنما كان فتح القلوب لتعتنق الإسلام، وكان - في كثير من الأقطار - اتخاذ لغة الدين لغة رسمية، ونسيان الشعوب المفتوحة ما كانت تستعمله من قبل من اللغات، حتى الذين بقوا على دينهم بغير إكراه لو لم يكن الفاتحون مسلمين حقاً، بمعنى الإيمان بهذا، وممارسته في عالم الواقع والتمكن منه عقيدة وسلوكاً وحركة، ما حدثت هذه العجائب في الفتح الإسلامي.

وأمر آخر يتعلق بهذه القوة ذاتها إنها في غالب الأحيان لم تكن هي الأكبر عدداً وعدة وخبرة حربية... إنما كان العدد والعدة والخبرة في الجانب الآخر، جانب الذين انهزموا أمام قوة المسلمين، فلو لم يكن هناك عنصر آخر غير مادي - في جانب الفاتحين - ما تمكنوا من التغلب على أعدائهم الذين يفوقونهم في فنون الحرب، كما يفوقونهم في العدد والعدة سواء، ذلك العنصر هو العقيدة الحية التي تملأ القلوب، وهذه هي الدلالة التي نركز عليها هنا في وجه الدعاوى التي تقول: إن انحرافات بنى أمية قضت على هذا الدين وهو بعد في المهدي. وتلك نقطة ينبغي أن نقف عندها طويلاً حتى نقومها في نفوس الدارسين، ينبغي أن نلغي من حسهم ذلك الإيحاء الخبيث بأن الإسلام قد انتهى بعد الخلافة الراشدة ولم يعد له وجود،

(١)، (٢) كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟، ص (١٢١).

ويكون ذلك بعرض الواقع الإسلامى بأمانة كاملة ودقة كذلك . . . وستبين لنا بالحساب، حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات أن الحصيلة المتبقية ضخمة جداً رغم وجود الانحراف. ويكون هذا بالتالى فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الدين وضخامته، وأصالة جذوره فى التربة وتعمقها، بحيث تبقى هذه الحصيلة الضخمة، وتبقى تلك الحيوية، التى تسعى لنشر الدين فى الأرض بكل الإصرار والتدفق والحماسة التى قام بها المسلمون فى العهد الأموى بالذات^(١).

وأما ما حدث من الهبوط عن مستوى الذروة فقد حدث ولا شك على درجات متفاوتة فى بعض أفراد المجتمع، أو قل إن شئت فى كثير منهم، وهذا لا يعتبر فى ذاته انحرافاً إنما هو الأمر المتوقع بعد غياب شخص الرسول ﷺ عن ذلك المجتمع، وبعد زوال أثر النشأة الجديدة من نفوس الناس، فنحن الآن لسنا فى العهد الذى شهد التحول العظيم من الجاهلية إلى الإسلام، إنما العصر الذى يليه، ولكن فلنذكر جيداً تركية رسول الله ﷺ لذلك الجيل من الناس: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٢). فنحن إذن ما زلنا مع القرون المفضلة، وليس بعد شهادة رسول الله ﷺ شهادة بشر^(٣)، صحيح أننا الآن مع المستوى العادى للإسلام، ولكن ذلك المستوى رفيع فى ذاته، وإن لم يكن على مستوى الذروة التى وصل إليها الجيل الفريد، وأنه يحقق للناس من الخير حين يلتزمون به ما لا يحققه نظام آخر^(٤)، والحق أنه قد بقى فى مجتمع بنى أمية أفراد على المستوى الرائع، بل لم يخل جيل من أجيال المسلمين كلها - حتى فى عصور الانحطاط - من نماذج متفرقة على ذلك المستوى الرفيع، إنما الملاحظ أن كثافة تلك النماذج فى مجتمع الذروة كانت فذة بصورة غير عادية، ثم ظلت تخف تدريجياً مع مرور الزمان^(٥).

إن استئناف حركة الجهاد فى عهد معاوية لم يكن بدعة على سياسته، فقد استمد كثيراً من الشهرة العريضة والمكانة العريضة من كفايته كوال على بلاد الشام وهى جبهة واسعة من جبهات الجهاد، ومن شهرته كمجاهد موفق فى البر والبحر منذ عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، وكان له فتوحاته الكبرى فى الساحل الشمالى للشام، كما أن له الفضل - بعد الله - فى تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم فى البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة فى تاريخ

(٢) البخارى.

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢٢).

(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (١٢٣).

(٣) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢٣).

المسلمين^(١)، فالجهاد فى سبيل الله أصل فى حياة المسلمين فى عهد الدولة الأموية، ولم تكن الغنائم هى الدافع الرئيسى للقيادة الإسلامية نحو الفتح والجهاد، وإن وجد لدى بعض الأفراد وهؤلاء لا يخلو منهم جيش حتى على عهد رسول الله ﷺ ﴿مَنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢] وغيرها، ولكن هذا بالطبع لا يمثل وجهة نظر المسلمين فى فتوحاتهم، ولا يمثل القيادة الفكرية التى كان يتبناها الخليفة والقادة وينفذها الجند، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيها العام^(٢)، ومما يدل على ذلك مشاركة كبار الصحابة فى ذلك الوقت فيها وحثهم المسلمين على الجهاد فى سبيل الله. وحوادث الجهاد وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك: فجبهة الروم مثلاً وهى التى كانت مثار الشجاعة ومرتع البطولة ما كانت تدر الربح الكثير بل كان بيت المال يئن منها، لأن حملاتها ما كانت تنتهى إلى تقدم^(٣)، خاصة إذا ذكرنا الحملات الثلاث الكبرى التى توجهت إلى القسطنطينية وتكلفت نفقات باهظة^(٤). لقد أعطى المجاهدون المسلمون فى العهد الأموى صوراً رائعة للتضحية والبطولة والتجرد وإخلاص النية لله فى جهادهم، سواء كانوا من القادة أو الأمراء أو من عامة الجند، أو من جماعات العلماء والزاهدين والربانيين الذين فهموا عبادة الجهاد، ومارسوا ذلك على نحو مثير للإعجاب ودافع إلى التأسى، وقد توزعت صور الإخلاص والتضحية هذه على جميع جبهات القتال، وفى جميع مراحل الجهاد، مما يدل دلالة واضحة على عمق التوجه الإسلامى للفتوحات فى العهد الأموى، وينفى الغيب الذى يثيره المنحرفون عن بنى أمية على أنصع منجزاتهم وأحراها بالفخر والإعزاز، ومما لا شك فيه إسلامية الفتوح فى العهد الأموى^(٥)، وقد كانت الحصيلة النهائية والحصيلة التاريخية لحركة الفتوح لذلك العصر، امتداد عالم الإسلام إلى آفاق بعيدة وكسب - عبر امتداده هذا - الأرض والإنسان، كما أنه حمى وعزز فى الوقت نفسه منجزات الموجة الأولى فى حركة الفتح التى قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هى التى بدأت فى عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكى تبلغ أقصى اتساعها فى عهد الوليد^(٦).

(١) الدولة الأموية حمدى شاهين، ص (٢٣٩).

(٢) الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين، ص (٧٨).

(٣) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (٣٤٦). (٤) المصدر نفسه، ص (٣٤٦).

(٥) الدولة الأموية المقترى عليها.

(٦) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ، عماد الدين خليل، ص (٩٢، ٩٣).

المبحث الأول

حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية

كان معاوية رضى الله عنه يرى أن الخطر الأكبر من وجهة نظره الدولة البيزنطية، وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها فى الشرق - الشام ومصر - إلا أن جسم الدولة ما زال سليماً لم يمس، فعاصمتها باقية، وممتلكاتها فى آسيا الصغرى وأوروبا وشمال إفريقيا ما زالت شاسعة وإمكاناتها كبيرة، وقدرتها على المقاومة هائلة، وهى لم تكف بعد عن مناوأة المسلمين، وباختصار فهى العدو الرئيسى والخطر الأكبر المائل أمام المسلمين، وكان معاوية رجل المرحلة وقادراً على فهم وتقدير هذا الخطر، وعلى مواجهته، أيضاً، فقد كان موجوداً بالشام منذ مطلع الفتوحات فى عهد أبى بكر الصديق، وأصبح والياً عليه ولمدة عشرين سنة تقريباً، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسى مع الدولة البيزنطية، فطول إقامة معاوية رضى الله عنه بالشام، أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم، لكل ذلك فليس غريباً أن نرى معاوية يولى حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه، ويرسم لنفسه نحوها سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمويين إلى نهاية دولتهم، وقد كان من أهدافه الرئيسية الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية^(١).

أولاً: معاوية والقسطنطينية:

بعد أن أستقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١هـ خليفة للمسلمين بدأ فى تطوير الأسطول البحرى ليكون قادراً على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الروم ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين، فبعد أن قضى معاوية على حركات الردة أو الجراجمة الذين استخدمهم الروم وسيلة لرصد حركات الدولة الإسلامية، ونقاط ضعفها، وإبلاغ الروم عنها متخذين من مرتفعات طوروس وجبل اللكام مقرأً لهم^(٢)، بدأ الخليفة نشاطه البحرى بإرسال حملات بحرية استطلاعية منها

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤١).

(٢) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (٥١).

حملة فضالة بن عبيد الأنصاري^(١)، للوقوف على تحركات الروم وجلب المعلومات الدقيقة عنهم لمنعهم من استخدام جزر قبرص، وأرواد^(٢)، ورودس ذوات الخدمة التعبوية والعسكرية في عملياتهم ضد الأسطول الإسلامي وقد باشر أعماله الاستطلاعية بإحدى الشواطئ وهي شاتية بسر بن أبي أرطأة في البحر عام ٤٣هـ^(٣)، وأعقبها بشاتية مالك بن عبد الله بأرض الروم سنة ٤٦هـ وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري بحراً، وحملة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر في البحر سنة ٤٨هـ، وصائفة بن عبد الله بن كرز الجلي، وحملة بن عبد الله بن يزيد بن شجر الرهاوي، وشاتية بأهل الشام في سنة ٤٩هـ^(٤)، وكان نظام الشواطئ والصوائف مستمراً. فقد وضع معاوية أمامه هدفاً واضحاً وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيداً للاستيلاء عليها، ولعل معاوية رضى الله عنه كان يرمى إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاتها بالاستيلاء على عاصمتها. فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيقة هي مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال، وفيها العقول المفكرة، فإذا سقطت في يده فإن هذا سيؤدى إلى شلل كامل في الدولة كلها، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس، فبعد سقوط المدائن عاصمتهم في أيديهم أصابهم الارتباك ولاحقهم الفشل، ولم تقم لهم قائمة وزالت دولتهم، فإذا استطاع إسقاط عاصمة البيزنطيين فسيكون ذلك نذيراً بإسقاط الدولة، ويستريح من خصم عنيد وعدو رئيسي، لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه، وليس من المبالغة القول إن الدولة البيزنطية ظلت على قيد الحياة مدة تقرب من ثمانية قرون، وهي مدينة ببقائها لعاصمتها القسطنطينية، فمناعة المدينة وصمودها أمام محاولات الأمويين المستمرة لفتحها، حال دون ذلك، وبالتالي حال دون سقوط الدولة والدليل على هذا أنه عندما استطاع السلطان العثماني محمد الفاتح فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها في سنة ٨٥٧هـ - التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م كان إيذاناً بسقوط الدولة البيزنطية وزوالها من الوجود^(٥).

(١) العلاقات العربية البيزنطية، ص (٥١) نقلاً عن الأمويين والبيزنطيين.

(٢) أرواد: جزيرة قرب القسطنطينية، ياقوت الحموي، معجم البلدان (٢٠٧/١).

(٣) مواقف حاسمة، ص (٣١)، محمد عبد الله عنان.

(٤) النجوم الزاهرة (١/١٣٤)، العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص (٥١).

(٥) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٤٤).

ثانياً: التخطيط الاستراتيجي عند معاوية للاستيلاء على القسطنطينية:

حرص معاوية رضي الله عنه أن يكون زمام المبادرة دائماً في يده، لأنها هي التي تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقبوات والعتاد، وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل مصر والشام، وقد سار في تحقيق هذا الهدف في عدة اتجاهات:

١ - الاهتمام بدور صناعة السفن في مصر والشام، واختيار أمهر الصناع للعمل فيها والإغداق عليهم بالأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم بالعمل^(١)، فقد أدرك معاوية - رضي الله عنه - بحسه العسكري وفكره العبقري أن معارك المسلمين مع الروم، ستعتمد أساساً على الأسطول البحري، وزاد هذا الإحساس عمقاً في قلب معاوية ونفسه تكتل الروم وإعدادهم أكثر من خمسمائة سفينة في معركة ذات الصواري لقهر الأسطول الإسلامي، ومع أن الروم باءوا بفشل ذريع في هذه المعركة، إلا أنهم لم يكفوا عن الإعداد ولم يتتهوا عن تجميع قواتهم لمواجهة قوة المسلمين في البحر، لقد كانوا يظنون أن قوة المسلمين البحرية يمكن القضاء عليها لأنها ما زالت في دور التكوين، ولكنهم فوجئوا بهزيمتهم المنكرة في ذات الصواري، فتوقعوا بعد ذلك أن تكون المعركة القادمة على أسوار العاصمة القسطنطينية فراخوا يستعدون لذلك^(٢)، وقد أدى التعاون بين مصر والشام في صناعات السفن إلى الوصول إلى نتائج ممتازة، ففي الشام كانت تتوافر أخشاب الصنوبر القوى والبلوط والعرعر التي تصلح لبناء السفن. وفي مصر كانت توجد الأخشاب التي تصلح لعمل الصواري، وضلوع جوانب السفن، وخشب الجميز واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاديف^(٣)، وكذلك استغل معاوية معدن الحديد الذي كان متوافراً في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفئوس، كما كان يتوافر في مصر مادة القطران اللازمة لقلفطة السفن، ونبات الدقس الذي كانت تصنع منه الحبال، وباختصار فقد أدى التعاون المصري الشامي إلى ازدهار البحرية الإسلامية التي ازدادت أهميتها بعد أن أمر معاوية عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن

(٢) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/١٥٤).

(١) العالم الإسلامي في الأموي، ص (٢٤٥).

(٣) تاريخ الدولة العربية، ص (٣١٢).

في جزيرة الروضة عام ٥٤هـ^(١). وذلك على أثر غارة شنها البيزنطيون على مصر^(٢).

٢- تقوية الثغور البحرية في مصر والشام: فقد أثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المجاهدة بما يجعلها قواعد تنقل منها الجنود بحراً إلى أى مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظاماً عرف بالرباط، وهو ما يقصد به الأماكن التي تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو، واعتنى بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط بالجهاد، إذ اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين على إعزاز الإسلام ونصرته^(٣)، وتدرج معاوية رضى الله عنه في تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه في كل أعماله التي اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع، فأعد الرباط لتكون حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل البيزنطية، ولتكون ملجأً يحتمى بها الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية في المياه الإقليمية، فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم، ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرجاً للمراقبة، ثم لم يلبث أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات^(٤)، وتعتبر سياسة منح الإقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة في سلم السياسة البحرية الدفاعية التي رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر في عهد عثمان، إذ أتم بفضل هذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التي أخذ ينشئ فيها أساطيله، وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالي بعلبك وحمص وأنطاكية عام ٤٢هـ إلى صور وعكا وغيرهما من المدن بسواحل الأردن، كذلك أصلح معاوية رضى الله عنه حصون هاتين المدينتين ولاسيما عكا التي خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص، وبسط معاوية رضى الله عنه اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية^(٥).

٣- الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط: وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرص - كما سبق ذكره - ثم استولى على جزيرة أخرى هامة وهي

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٤٦).

(٢) كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص (٣٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (٦٨).

(٥) المصدر نفسه، ص (٧٠).

رودس وأمر ببناء حصن بها، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها، وجعلها رباطاً يدفعون منه عن الشام، وأثر معاوية أن يحيط المسلمين في رودس بالجو الإسلامى الدينى، ويعلى راية الإسلام بين أهاليها، فأرسل إليها فقيهاً يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن^(١). وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجه وسد منافذه الرئيسية في وجه السفن البيزنطية، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين، وعمل على تحقيق ذلك في الاستيلاء على جزيرة (كريت) إذ تسيطر هذه الجزيرة تماماً على بحر إيجه، الذى يشبه طرفه الجنوبي فوهة قربة تمتد جزيرة (كريت) عبرها، بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلاً وتقسم الجزيرة هذه فتحة إلى مدخلين يتحكم في كل منهما، وأرسل معاوية جنده الذى استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام على أن جنادة بن أمية الأزدي لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها، وهكذا وجه معاوية رضى الله عنه أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط، وأوقفهم على أهمية جزره، فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها، وطرق باب غيرها ومهد الطريق لمن يأتى بعده من الخلفاء الأمويين، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين أنفسهم سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل فى تاريخها، وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها، ولكن تراث معاوية فى تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحرى على البيزنطيين^(٢).

٤ - كان من الضرورى لكى تؤتى هذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية، التى تشكل مناطق الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، ضد غارات البيزنطيين من ناحية ولتكون سنداً للقوات الزاحفة على القسطنطينية من ناحية ثانية، ذلك لأن المسلمين فى فتوحاتهم الأولى فى عهد الخلفاء الراشدين، وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية، ثم وقفت أمامهم سلسلة جبال طوروس تحول دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية، وكان

(٢) المصدر نفسه، ص (٨١).

(١) الأمويون والبيزنطيون، ص (٨٢).

البيزنطيون عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المسلمين قد قاموا بتخريب المناطق الواقعة شمال حلب وإنطاكيا لئلا يستفيد منها المسلمون، كما خربوا معظم الحصون فيما بين الأسكندرونة وطرسوس^(١)، فرأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها، فاهتم أولاً بمدينة أنطاكيا التي كانت معرضة دائماً للإغارات البيزنطية المفاجئة، واتبع في تعميرها السياسة التي سار عليها إزاء المدن الساحلية للشام، وأغرى الناس على الإقامة بأنطاكيا، بأن منحهم إقطاعات من الأرض، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم وأخذ معاوية يوالى تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الأسكندرونة وطرسوس أثناء غاراته على أراضي البيزنطيين حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى. ولإحكام سيطرته على المعازل الهامة الواقعة في مناطق التخوم الإسلامية البيزنطية، استولى على سميساط وملطية، كما جدد حصوناً أخرى مثل مرعش والحدث، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطى الهام وأعاد تحصينه^(٢)، ولكي تكون الحركة مستمرة وتكون مناطق الحدود ميداناً عملياً لتدريب جند المسلمين، وتعويدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة دأب معاوية على الغزو المستمر، وأصبح هذا النشاط العسكرى يعرف بغزوات الصوائف والشواتى^(٣)، فلا تكاد تمر سنة وإلا ونجد ذكراً عند الطبرى وغيره لغزو فى البر أو البحر كأن يقول: وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم^(٤)، وكانت هذه الغزوات تنطلق إلى بلاد الأعداء وتخرّب تحصيناتهم وتغنم وتعود، وكان تكرار هذه الغزوات يشكل ضغطاً على الدولة البيزنطية ويهرق أعصابها وينهك قواها^(٥)، وقد برز فى هذه الحملات المستمرة عدد من كبار القادة المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم فى ميدانها وأتقنوا فن الحرب، مثل عبد الله بن كرز البجلي، ويزيد بن شجرة الرهاوى، ومالك بن هبيرة السكونى، وجنادة بن أمية الأزدي، وسفيان بن عوف، وفضالة بن عبيد^(٦)، ومالك بن عبد الله الخثعمى، الذين

(١) فتوح البلدان، ص (١٩٤) البلاذرى، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٧).

(٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١١٠)، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٧).

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨). (٤) تاريخ الطبرى (٦/٢٢٥).

(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

أطلقوا عليه مالك الصوائف لعلو كعبه فى الميدان الحربى فى آسيا الصغرى^(١)، وهؤلاء القادة أبلوا بلاءً حسناً فى الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة الله^(٢)

ثالثاً: الحصار الأول للقسطنطينية:

بعث معاوية رضى الله عنه سنتى ٤٧ - ٤٨ هـ سرايا من قواته لتغيير على الأراضى البيزنطية لتمهد الطريق فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية. فتمكن مالك بن هبيرة السكونى من قضاء الشتاء فى الأراضى البيزنطية^(٣)، ولقد شهدت سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م أول حصار إسلامى لمدينة القسطنطينية ذلك أن نجاح قوات المسلمين فى توغلهم فى الأراضى البيزنطية بالإضافة إلى الصراعات الداخلية التى واجهها الإمبراطور قسطنز الثانى نتيجة تمرد اثنين من قادته هما سيليوس وميزيريوس^(٤)، كل ذلك ساعد معاوية رضى الله عنه على أن يبعث قواته فى البر والبحر بقيادة كل من فضالة بن عبيد الليثى وسفيان بن عوف العامرى يساعدهما يزيد بن شجرة الرهاوى، تجاه القسطنطينية^(٥)، ووصل الأسطول الإسلامى إلى خلكيدونية- ضاحية من ضواحي القسطنطينية على البر الآسيوى - وحاصرها توطئة لاقتحامها فى محاولة لاختراق المدينة من تلك الناحية، ولكن انتشار مرض الجدري وفتكه بكثير من جند المسلمين علاوة على حلول الشتاء القارص جعل ظروف الجيش المحاصر صعبة للغاية، فما كان من فضالة بن عبيد الليثى، قائد الجيش البرى إلا أن استنجد بمعاوية طالباً منه أن يمدّه بقوات إضافية، فأرسل معاوية رضى الله عنه مدداً من الجيش يضم بين أفرادها مجموعة من الصحابة، أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو أيوب خالد بن يزيد الأنصارى، رضى الله عنهم^(٦)، وكان القائد العام لهذه الفرقة هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وعندما وصل يزيد بقواته إلى خلكيدونية انضم إلى الجيش المرابط هناك، وزحفوا جميعهم نحو القسطنطينية وعسكروا خلف أسوارها ضاربين عليها

(١) الأمويون والبيزنطيون نقلاً عن العالم الإسلامى، ص (٢٤٨).

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/١٤٥) خلافة معاوية للعقلى، ص (١٠٨).

(٤) يشير إبراهيم العدوى إلى أن الإمبراطور قتل وجيء بانه قسطنطين الرابع.

(٥) تاريخ الطبرى (٦/١٤٨). (٦) المصدر نفسه (٦/١٤٨).

الحصار حوالى ستة أشهر (من الربيع إلى الصيف) وكان يتخلل هذا الحصار اشتباكات بين قوات الفريقين، وأبلى يزيد فى هذا الحصار بلاءً حسناً وأظهر من دروب الشجاعة والنخوة والإقدام ما حمل المؤرخين على أن يلقبوه بـ(فتى العرب)^(١). وكادت القوات الإسلامية أن تحرز انتصاراً لولا أنها واجهت صعوبات جمة منها: الشتاء الغزير المطر والبرد القارص مما أدى إلى نقص الطعام والأغذية، وتفشى الأمراض بينهم، كما كان لمناعة أسوار القسطنطينية أثرها فى تراجع المسلمين وإجبارهم مرة أخرى على العودة إلى بلاد الشام^(٢)، كما كانت النار التى فتحتها المتحصنون بها على جيش المسلمين من أهم الأسباب التى عوقت قدرتهم على فتحها، فقد أحرقت النار كثيراً من سقى المسلمين^(٣)، ويعد غزو القسطنطينية من دلائل النبوة حيث أخبر به نبينا محمد ﷺ حيث قال: «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»^(٤)، وقد اشترك فى غزو القسطنطينية عدد من كبراء الصحابة رضوان الله عليهم، طلباً للمغفرة التى بشر بها رسول الله ﷺ^(٥).

رابعاً: وفاة أبى أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية:

هو خالد بن زيد بن كليب، أبو أيوب الأنصارى الخزرجى، شهد بدرًا والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع على رضى الله عنه قتال الخوارج، وفى داره كان نزول رسول الله ﷺ، حين قدم المدينة مهاجراً من مكة فأقام عنده شهراً حتى بنى المسجد ومساكنه حوله، ثم تحول إليها^(٦)، وقد وفد أبو أيوب على عبد الله بن عباس لما كان والياً على البصرة فى عهد على، فبالغ فى إكرامه، وقال: لأجزينك على إنزالك النبى ﷺ عندك، فوصله بكل ما فى المنزل فبلغ ذلك أربعين ألفاً^(٧)، وجاء فى رواية لما أراد الانصراف خرج له عن كل شىء بها، وزاده تحملاً وخدمًا كثيراً، وأعطاه أربعين ألفاً، وأربعين عبداً، إكراماً له لما كان أنزل رسول الله ﷺ

(١) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٦٤)، خلافة معاوية، ص (١٠٩).

(٢) الكامل فى التاريخ (٦/ ٤٨٠)، خلافة معاوية للعقلى، ص (١١٠).

(٣) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ٥٩).

(٤) البخارى، صحيح البخارى مع فتح البرى (٦/ ١٢٠).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٢٠).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٤).

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٢٥١).

فى داره، وقد كان من أكبر الشرف له^(١). وهو القائل لزوجته أم أيوب حين قالت له: أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ - أى فى حديث الافك - فقال لها: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله. فقال: والله ليهى خير منك فأنزل الله^(٢) ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. وقد آخى رسول الله ﷺ بين أبى أيوب ومصعب بن عمير^(٣) - رضى الله عنهما - صاحب الفتح السلمى الكبير بالمدينة المنورة.

وكانت وفاته ببلاد الروم قريباً من سور قسطنطينية، وكان فى جيش يزيد بن معاوية وإليه أوصى وهو الذى صلى عليه^(٤).

وقد جاء فى رواية: أغزى أبو أيوب، فمرض، فقال: إذا مت فاحملونى، فإذا صافقتم العدو، فارموني تحت أقدامكم. أما إنى سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»^(٥)، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية، وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نبش، لأضرب بناقوس فى بلاد العرب^(٦). وبعد مجىء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانة أبى أيوب الأنصارى عظيمة فى الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينياً فى مسجد أبى أيوب، حيث يتقلدون سيقاً للرمز إلى السلطة، التى أفضت إليهم. وكان لأبى أيوب رضى الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولى الله الذى تهوى إليه القلوب المؤمنة وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله، فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أن له مكانة مرموقة بين المجاهدين واعتبروا ضيافته لرسول الله وجهاده فى سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره^(٧).

وقد ترك أبو أيوب رضى الله عنه فى وصيته بأن يدفن فى أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فىكون بين صفوفهم حتى وهو فى نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل فى أرض العدو حياً وميتاً، وكأنما لم يكفه

(١) البداية والنهاية (٢٥٢/١١). (٢) سيرة ابن هشام (٣٠٢/٢)، البداية والنهاية (٢٥٢/١١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٠٥/٢). (٤) البداية والنهاية (٢٥٢/١١).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤١٢/٢) إسناده قوى. (٦) المصدر نفسه (٤١٢/٢).

(٧) الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى، حسين المصرى، ص (١٢).

ما حقق في حياته فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق^(١). ومن الغريب ما نراه في حياتنا من حرص بعض المسلمين إذا مات خارج بلده أن يوصى أهله بإرجاعه ودفنه في أرضه، والأرض أرض الله والبلاد بلاد الله. وقد مدحه شعراء الأتراك في أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندي يشير إشارة لامية إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهداً ومجاهداً ومكابداً بحروبه ما كابدا
حتى أتى بصلابة ومهابة في آخر الغزوات هذا المشهدا
قد مات مبطوناً غريباً غازياً فعدا شهيداً قبل أن يستشهدا

كان أبو أيوب رضى الله عنه عندما خرج في غزوة القسطنطينية قد تقدمت به السن وأصبح شيخاً كبيراً وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾ [التوبة: ٤١] لا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلاً^(٢)، وكان أبو أيوب رضى الله عنه يعلم الناس الفهم الصحيح لآيات الله ومفاهيم الإسلام، فعن أبي عمران التجيبى قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - يعنى الجماعة الذين غزوا من المدينة - والروم ملصقو ظهورهم بحائط القسطنطينية، فحمل رجل على العدو فقال الناس مه، مه لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلم نقيم فى أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية^(٣). فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، وإن الهلاك الحقيقى هو هلاك الآخرة بسبب التهاون فى واجبات الإسلام^(٤).

(١) الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى، ص (٦٨).

(٢) سكب العبرات للموت والقبر والسكرات (١/١٧٥).

(٣) سنن أبى أيوب رقم (٢٥١٢)، سنن الترمذى رقم (٢٩٧٢).

(٤) التاريخ الإسلامى (١٥/١٣).

خامساً: الحصار الثاني للقسطنطينية :

استطاع معاوية رضى الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملة المستمرة، والاستيلاء على جزر رودس وأرود اللتين سبقت الإشارة إليهما، وقد كان لجزيرة أرواد -والتي تسميها المصادر الأوروبية كزيكوس- أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامى فى حصاره الثانى للمدينة أو حرب السنين السابع ٥٤ - ٦٠هـ قاعدة لعملياته الحربية، وذلك أن معاوية أعد أسطولاً ضخماً، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية، وظل مرابطاً أمام أسوارها من سنة ٥٤هـ إلى سنة ٦٠هـ^(١)، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار، واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر، تتخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين من الصباح إلى المساء، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام، استمر هذا الوضع طيلة سبع سنوات^(٢)، حتى أرهقت البيزنطيين، وأذاقتهم ألوان الضنك والخوف، وأنزلت بهم خسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك لم تستطع اقتحام المدينة أو التغلب على حراسها المدافعين عن أسوارها^(٣).

وكانت العوامل التى ساعدت القسطنطينية على الصمود عديدة منها:

١ - استعمال البيزنطيين فى هذه المعارك ناراً سموها النار البحرية أو النار الأغرريقية، وهو عبارة عن مركب كيمائى مكون من النفط والكبريت، القار، وكان هذا المركب يشعل بالنار وتقذف به المراكب فيشعل فيها النار، والعجيب أنه كان يزداد اشتعالاً إذا لامس الماء. ومخترع هذا المركب الكيمائى الفتاك، الذى فتك بالعديد من سفن المسلمين وجنودهم هو مهندس سورى الأصل اسمه كالينكوس، كان فى أوائل الأمر فى خدمة المسلمين ثم هرب إلى القسطنطينية، ووضع خبرته فى خدمة البيزنطيين^(٤). وكان هذا السلاح الجديد من أهم العوامل التى ساعدت البيزنطيين على الصمود والاستمرار فى الدفاع عن العاصمة. وظل هذا السلاح

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٠ إلى ٢٤٠). (٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٣٥١، ٢٥٢).

(٣)، (٤) الأمويون والبيزنطيون ص (١٧٦)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص (٢٥٢).

سراً خفياً، لا يعرفه إلا المتخصصون فى صناعته، وكان الأباطرة يمدون حلفاءهم بهذا السلاح دون أن يطلعوهم على سره، ومرت أربعة قرون، وهو سلاح غامض لم يعرف كنهه سوى مخترعه، وفى القرن العاشر المسيحى، الرابع الهجرى، عرف الباحثون سر هذه النار، وبنوا العناصر التى تكونت منها، والوسائل التى يمكن إخمادها بها، وتطور هذا السلاح حتى كان منه ما يشبه المفرقات، وكانت تلقى على الأعداء بواسطة المجانيق، أو أنابيب نحاسية تقذف من السفن، وكان لها صوت مدو يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف، وشغل هذا الاختراع عقول العلماء المسلمين، فراحوا يبحثون ويفكرون، حتى عرفوا سره فى مطلع القرن الحادى عشر المسيحى، الخامس الهجرى، وأدخلوا عليه تعديلات جعلته أشد فتكاً، وأقوى أثراً من النار الإغريقية. واستخدم المسلمون هذا السلاح الفتاك فى حروبهم مع الصليبيين بأرض الشام، وكان وقعه شديداً على الصليبيين، ونشر فيهم الرعب والفرع، ومن ذلك الحين عرفت هذه النار (بالنار الإسلامية^(١))، يقول الدكتور إبراهيم العدوى: إن الأعداء عجزوا عن معرفة هذا السلاح الجديد الذى احتضنه المسلمون، وظل استخدام النار الإسلامية سائداً حتى القرن الرابع عشر المسيحى، الثامن الهجرى حيث دخلت عليها تطورات وتعديلات كثيرة، أدت أخيراً إلى صناعة البارود. ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير فى أساليب الحرب التى عرفها العالم الحديث وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفى الأيدي أمام أى سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم^(٢). ونسأل الله تعالى أن يوفق المسلمين لايجاد حل للتفوق العسكرى الأمريكى والغربى عليهم.

٢ - السلسلة الحديدية الضخمة، الحاجزة ما بين القرن الذهبى ميناء القسطنطينية وبين الشاطئ الآسيوى، حيث كان يتم إقفالها فى حالات الحرب أو التهديد بالحصار^(٣).

٣ - الموقع الجغرافى الفريد الذى وصفه المؤرخ بينز بأنه (استقر على شبه الجزيرة البارز من أوروبا، والذى يكاد يلاقى الشاطئ الآسيوى، وفى وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية فى بقعة يحميها مدّ مرمرة العنيف من الهجمات البحرية.

(١) الأمويون (٦٥/١) محمد سيد الوكيل.

(٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٧٨).

(٣) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (١٦٧).

٤ - الأسوار الداخلية والخارجية الضخمة والمزودة بعدد كبير من أبراج المراقبة التي كان لها دور في كشف التحركات المعادية وإبطال عنصر المفاجأة فيها .

٥ - ضعف التجربة الأموية في حرب الحصار للمدن المتداخلة مع مياه البحر، مثل القسطنطينية، حيث تطلب ذلك أسلحة متطورة بأساليب جديدة في القتال، لم تكن في متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين^(١).

٦ - دبلوماسية الدولة البيزنطية والإسلامية: لقد تظاهرت عدة عوامل ساهمت في منع سقوط القسطنطينية منها: مناعة المدينة الطبيعية وقوة تحصيناتها، والنار الإغريقية، وشدة الطقس وقسوته، والتيارات المائية الشديدة الانحدار الآتية من البحر الأسود لتحول دون استيلاء المسلمين على المدينة، رغم صبرهم وبسالتهم وتحملهم المشاق وفي النهاية دعت الظروف الداخلية في كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار، فدخلوا في مفاوضات انتهت بعقد صلح بينهما، عاد بمقتضاه الجيش الإسلامي والأسطول إلى الشام. . ففيما يتعلق بالدولة الأموية أدرك معاوية أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف، ولما كانت سنة قد كبرت، وأحس بدنو أجله، رأى من المصلحة أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول المدينة تحسباً لأي مشاكل قد تواجه ابنه وخليفته يزيد بعد موته، فيكون وجود هذا الجيش عنده ضرورياً لضبط الأمور داخلياً، كذلك كانت الدولة البيزنطية تواقفة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها، فقد أرهقها وأنهاك قواها، ولذلك يقال: إنها أرسلت إلى دمشق رجالاً يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين، وأكثرهم ذكاء وفطنة، وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي وأبدي فيها من الإجلال للدولة الإسلامية، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه، ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين، وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة براً وبحراً أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام، وتركت عاصمة البيزنطيين تن من جراحها المثخنة^(٢).

سادساً: العلاقات السلمية بين الدولتين:

رغم أن الطابع العام الذي ميز العلاقات بين الدولة الإسلامية والبيزنطية في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي كان عسكرياً نتيجة لحركة الجهاد واستمرارها في العهد

(١) امن دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (١٦٨).

(٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٧٥)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٥٣).

الأموى من حملات الصوائف والشواتى طوال السنة تقريباً، وكذلك الدور الجهادى الذى كانت تؤديه مدن الثغور، إلا أن هذا لا يعنى أن الطابع السلمى - المتمثل فيما جرى من مفاوضات ومداولات - كان مفقوداً فقد اتخذت العلاقات السلمية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية فى العهد الأموى أشكالاً مختلفة منها المراسلات، وتبادل الخبرات، والمناظرات فى المجالات الثقافية، وتبادل الأسرى والسفراء^(١).

١- المراسلات: فقد تم مراسلة قيصر الروم من قبل معاوية فى فترة الفتنة وتوصل معه إلى عقد صلح على أن يؤدى معاوية له مالاً وأن يأخذ كل طرف رهناً من الطرف الآخر^(٢)، وارتهن معاوية منهم رهناً فوضعهم بيعلبك، ثم إن الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم، وخلوا سبيلهم وقالوا: وفاء بغدر خير من غدر بغدر^(٣)، والمهم أن مثل هذه الحوادث يجب أن تُقدَّر بقدرها فلا يجوز للدولة الإسلامية - فى الأصل - أن تنهاون وتتكاسل عن الأخذ بأسباب القوة حتى تصل إلى مرحلة من الضعف تمكّن الأعداء منها أو يطمع فيها الطامعون، بل الأصل فى دولة الإسلام أن تكون دولة قوية يهابها الأعداء، فإذا مرت بها فترة ضعف أو احتاجت إلى دفع ضرر عليها بمال أو نحوه فذلك يدخل من باب (الضرورات) وليس حكماً عاماً (وما أبيض للضرورة يُقدَّر بقدرها) كما قرر الفقهاء^(٤)، فلا ينبغى عقد صلح دائم مع العدو بدفع المال إليه، بل يجب أن يكون الصلح والدفع لفترة ضعف المسلمين أو حالة الضرورة، مع العمل الجاد على رفع حالة الضعف وبناء قوة الأمة وقدراتها المطلوبة بكل جدية وعزم، فإذا زالت يجب على المسلمين أن يمتنعوا من عقد أى معاهدة فيها ذلة أو مفسدة لهم، والخلاصة: إنه يجوز للدولة الإسلامية عقد معاهدة اضطرارية تُقدَّر بقدرها وتنتهى بانتهاء حالة الضرورة التى عُقدت من أجلها^(٥).

لم تقتصر المراسلات على الجانب العسكرى فقط، ولكن رويت بعض المراسلات التى تتناول المناظرة فى الجوانب العلمية والأمور العامة، فقد كتب قيصر الروم إلى

(١) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٢٢، ١٢٣). (٢) المصدر نفسه، ص (١٢٣).

(٣) فتوح البلدان، ص (١٦٣) للبلاذرى، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص (٢٣٩).

(٤) الأشباه والنظائر ابن نجيم، ص (٨٦).

(٥) العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص (٢٤٠).

معاوية: سلام عليك أما بعد: فأنبئني بأحب كلمة إلى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة، وعن أربعة أشياء، فيهن روح ولم يرتكضن في رحم، وعن قبر يسير بصاحبه، ومكان في الأرض لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة وغير ذلك من الأسئلة، فكتب إليه معاوية: أما أحب كلمة إلى الله، فلا إله إلا الله لا يقبل عملاً إلا بها، وهي المنجية، والثانية سبحان الله صلاة الخلق، والثالثة الحمد لله كلمة الشكر والرابعة الله أكبر، فواتح الصلوات والركوع والسجود، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله. والأربعة فيهن روح ولم يرتكضن في رحم فآدم وحواء وعصا موسى والكبش، والموضع الذي لم تصله شمس إلا مرة واحدة، فالبحر حين انفلق لموسى وبني إسرائيل، والقبر الذي سار بصاحبه، فبطن الحوت الذي كان فيه يونس^(١).

٢- تبادل الخبرات: وفي مجال تبادل الخبرات حاول كل من العرب والروم الاستفادة من خبرات الطرف الثاني في مجالات الحياة كافة، معتمدين على الاقتباس تارة، والإبداع تارة أخرى، على أن ما أخذه المسلمون من الروم في هذا المجال لم يكن مجرد اقتباس، بل طُور كثيراً بأن أضيف إليه أحياناً وشذب في أحيان أخرى، حتى أصبح يتمشى مع روح الدين الإسلامى، ويتمثل ذلك في معالم النهضة العمرانية المتمثلة في اهتمام الأمويين بالمساجد والتوسع في إقامتها^(٢)، وقد استخدم معاوية عدداً من الروم ممن كانوا في الإدارة البيزنطية في بلاد الشام قبل فتحها، كتاباً في الأمور الإدارية، حيث عين سرجون بن منصور الرومى كاتباً له، كما استخدم ابن أثال النصرانى طبيباً له^(٣)، وكان معاوية رضى الله عنه متسامحاً مع النصارى حتى شهد له بروكلمان بهذا التسامح: «واختلطوا بالمسيحية اختلاطاً بعيداً»... وفي بلاط معاوية لعب سرجون بن منصور النصرانى دور المستشار المالى المتنفذ، وحفظ النصارى للخليفة معاوية هذا التسامح وأخلصوا له، وأعظموه إعظاماً، لاتزال تقع عليه في الروايات النصرانية، وحتى في كتب التاريخ الإسبانية^(٤).

(١) عيون الأخبار (١/١٩٨، ١٩٩)، الحدود العربية البيزنطية (٢/٣٨٧) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموى، ص (١٢٦).

(٢) التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص (١٣٢).

(٣) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموى، ص (١٣٢).

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن العلاقات العربية - البيزنطية، ص (١٤٠).

٣- تأثر الدولة البيزنطية بالتسامح الإسلامى: يذكر العدوى: إن انعكاس التسامح الدينى مع النصارى ظهر تأثيره على الدولة البيزنطية، إذ من المعروف، أنها كانت تضطهد رعاياها من أصحاب المذاهب الأخرى وتعاملهم معاملة قاسية وتعتبرهم هراطقة، وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين فى التبعية لها، اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياستها، وجعلت من نفسها صاحبة الحق فى رعاية المسيحيين فى بلاد الشام^(١)، وكان معاوية رضى الله عنه يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة ويستمع إلى جدلهم الدينى ومناقشاتهم المختلفة^(٢)، وبهذا ضربت الدولة الإسلامية الأموية مثلاً سامياً، يدل على عظمة الرسالة الإسلامية ومدى التسامح الدينى تجاه رعاياها من غير المسلمين وابتعادها عن التعنت والتعصب الدينى الذى يتهمهم به قسم من المستشرقين^(٣).

٤- آداب السفراء: لم يكن نظام الموفدين والسفراء مقتصرًا على العهد الأموى بل له امتداداته من عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، فكان السفير يختار وفق مواصفات خاصة تتمثل فى قوة شخصيته ونباهته ورجاحة عقله، وكان السفير من كلتا الدولتين، يزود بخطاب يحمل تعريفاً بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسمياً باسم دولته^(٤). ولم يكن الموفدون والسفراء مدار اهتمام الدولة الإسلامية الأموية فقط، بل اهتم الروم كذلك بسفرائهم أيضاً، فكانوا يختارونهم من رجال الدين الدهاء العارفين بأمر دينهم وأصحاب القدرة على النقاش والجدال، وفصيحى اللسان، وعارفين بالعربية إضافة إلى لغتهم الأصلية^(٥)، وكان الخلفاء والملوك يهتمون بالسفراء والمبعوثين، ويستقبلون فى قصور الخلفاء وتسمع آراؤهم فيها، فحين سأل معاوية رسول البيزنطيين، بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء، أبدى عليه ملاحظاته قائلاً: أما أعلاه فللعصافير، وأما أسفله فللفار وعندما أدرك معاوية صحة انتقاد السفير وصواب رأيه جعل يعيد بناء قصره بالحجارة^(٦).

(١) العلاقات العربية - البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٤٢).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٤٢) نقلاً عن الأمويين والبيزنطيين.

(٤) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٤٧).

(٥) الأمويون والبيزنطيون، ص (٢١٥ - ٢٢٢).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٢٠).

وأما البيزنطيون فكانوا يستقبلون السفراء العرب في كنيسة أيا صوفيا وقناطير المياه والأديرة حول القسطنطينية^(١)، وعند رجوع السفير كانت تقدم له الهدايا والمجوهرات الثمينة إكراماً له ولمن بعثه^(٢)، ويبدو أن الهدف من وراء ذلك عند كلتا الدولتين، هو إظهار صيغ الاحترام المتبادل والنيات الحسنة في إقامة الصلح وإنابة السلام وكذلك إظهار كل دولة للأخرى مدى قوتها ورخائها، كى تكون محط أنظار السفير ومهابته من أجل وصف ما يشاهده إلى من بعثه عند رجوعه إليه^(٣)، ورغم ما أشير إليه من الصفات التي يجب توفرها في السفير إلا أنه يبقى محط أنظار الخليفة أو الملك، وتراقب تصرفاته وحركاته خشية الوشاية والكيده وإشعال نار الحرب، وهذا ما حدث مع سفير معاوية إلى القسطنطينية الذي أرسل لعقد هدنة مع الروم وكان السفير مزوداً بتعليمات مشددة تقتضى ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين ولكن لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية وتهاون في عقد الهدنة حتى جاءت في صالح البيزنطيين^(٤)، فلما عاد عزله من منصبه^(٥).

سابعاً: الجراجمة في عهد معاوية رضى الله عنه:

في أثناء الحروب والغارات بين المسلمين والبيزنطيين، في عهد معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه، كان هناك طرف ثالث يشارك في النزاع القائم بينهما، يطلقون على أنفسهم اسم (الجراجمة) نسبة إلى مدينة (الجرجومة)^(٦)، وأصولهم غير معروفة، ويشير البلاذري إلى أنهم كانوا يدينون بالنصرانية وأنهم كانوا لذلك يتبعون (بطريق أنطاكية وواليها)^(٧). وعندما فتح المسلمون بلاد الشام أرسل أبو عبيدة عامر بن الجراح حبيب بن مسلمة الفهري، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بادروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن يُنقلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا حرباً معهم في مغازيهم^(٨). ولكن الجراجمة لم يلبثوا أن نقضوا اتفاقهم هذا، وصنعوا حاجزاً بين المسلمين

(١) المصدر نفسه، ص (٢٢٠).

(٢) العلاقات العربية - البيزنطية، ص (١٤٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٨).

(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (١٤٩).

(٦) الجرجومة: مدينة على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما ما بين بياس وبوقا قرب أنطاكية، معجم البلدان (١٢٣/٢).

(٨) المصدر نفسه، ص (٥٨).

(٧) فتح البلدان للبلاذري، ص (٥٨).

والبيزنطيين واستطاعوا عرقلة سير الفتوحات الإسلامية في آسيا الصغرى، فكانوا متذبذبين مرةً مع المسلمين وأخرى مع الروم، وقد بقيت شوكة في ظهر الجيوش الإسلامية ليس في عهد معاوية لكن حتى عهد عبد الملك، ثم ما لبثت أن تفرقت في بلاد الشام وآسيا الصغرى، فخفَّ خطرهما^(١). وعلى أية حال، فلا بد من القول بأن الإنشاءات والمجهودات التي قام بها معاوية رضى الله عنه في سبيل الوصول إلى القسطنطينية وإن كانت لم تثمر خلال حياته إلا أنها لعبت دوراً أساسياً في حفز من جاؤوا بعده من الخلفاء لأن يكملوا المسيرة التي بدأها^(٢).

ثامناً: أبو مسلم الخولاني من الغزاة في أرض الروم:

وهذا مثال من عظماء الرجال في ذلك العصر الذين ساهموا في صياغة نموذج إسلامي في السلوك والتعامل مع الحكام والمشاركة الإيجابية في المجتمع وحركة الفتوحات.

قال عنه الذهبي: سيد التابعين وزاهد العصر واسمه عبد الله بن ثوب علي الأصح^(٣)، قدم المدينة وقد قبض النبي ﷺ، واستخلف أبو بكر^(٤)، وكانت له مواقف محمودة ضد الأسود العنسي الذي تنبأ باليمن، وثبت أبو مسلم على الإسلام فبعث إليه الأسود، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضره، ف قيل للأسود: إن لم تنف هذا عنك أفسد عليك من أتبعك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة فأناخ راحلته ودخل المسجد يُصلي، فبصر به عمر رضى الله عنه، فقام إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من اليمن. قال: ما فعل الذي حرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهم نعم، فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصديق. فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرانى في أمة محمد من صنع به كما صنع بإبراهيم الخليل^(٥). وهذا التابعي الكبير كان من أهل الشام في عهد معاوية وقد تأثر به خلق كثير بها، وكان رحمه الله كثير العبادة، فعن أبي العاتكة: قال: علّق أبو مسلم سوطاً في المسجد^(٦)، فكان يقول: أنا أولى بالسوط من البهائم، فإذا فتر مشق^(٧) ساقيه سوطاً أو سوطين. وروى أنه كان يقول: لو رأيت الجنة عياناً أو النار

(٢) المصدر نفسه، ص (١١٦).

(٤) المصدر نفسه (٨/٤).

(٧) مشق: ضرب بسرعة.

(١) خلافة معاوية للعقيلي، ص (١١٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٧، ٨).

(٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (٤/٩).

عياناً ما كان عندي مستزاد^(١)، وعن شرحبيل: أن رجلين أتيا أبا مسلم، فلم يجدها في منزله، فأتيا المسجد، فوجداه يركع فانتظراه فأحصى أحدهما أنه ركع ثلاث مئة ركعة^(٢)، وكان أبو مسلم إذا استسقى سُقِيَ^(٣)، وكان مستجاب الدعوة؛ فعن محمد ابن زياد، عن أبي مسلم، أن امرأة خَبَّبت^(٤) عليه امرأته، فدعا عليها، فعميت، فأتته فأعرضت وتابت، فقال: اللهمَّ إن كانت صادقة، فاردُدْ بصرها، فأبصرت^(٥). وشارك رحمه الله بالجهاد في أرض الروم، فعن أبي مسلم الخولاني، أنه كان إذا غزا أرض الروم، فمروا بنهر فقال: أجزوا بسم الله، ويمر بين أيديهم، فيمرون بالنهر الغمر، فرمما لم يبلغ الدواب إلا الرُكْب، فإذا جازوا قال: هل ذهب لكم شيء؟ فمن ذهب له شيء فأنا ضامن له، فألقى بعضهم مخلاته عمداً. فلما جازوا قال الرجل: مخلاتي وقعت، قال: اتبعني فاتبعه، فإذا بها معلقةٌ بعود في النهر، قال: خذها^(٦). وكان الولاية يَتَمَنون بأبي مسلم، ويؤمرونه على المقدمات^(٧).

وقد توفي رحمه الله بأرض الروم، وكان شتاً مع بُسر بن أبي أرطاة فأدركه أجله، فعاده بُسر في مرضه فقال له أبو مسلم: يا بُسر، اعقد لى على من مات في هذه الغزاة فإنى أرجو أن أتى بهم يوم القيامة على لوائهم^(٨)، وعندما سمع معاوية رضى الله عنه بموته قال: إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبي مسلم الخولاني وكريب ابن سيف الأنصارى^(٩)، وكان رحمه الله من أهل الحكمة، فقد روى عن أبي مسلم الخولاني فى مجال الرضا التام بقضاء الله وقدره، قوله: لأن يولد لى مولود يحسن الله عز وجل نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إلى قبضه منى أحب إلى من أن يكون لى الدنيا وما فيها^(١٠). وهذا دليل على كمال توحيد أبى مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني حيث جاوز مرحلة الصبر على أقدار الله المؤلمة إلى مرحلة الرضا بقضاء الله، فاعتبر المصيبة بفقد ولد قد أحسن الله نباته وكان على خير ما يتمناه المؤمن؛ شباباً وصلاًحاً أحب إليه من الدنيا وما فيها^(١١).

هذه بعض الملامح العريضة على الجبهة الشامية المتعلقة بالجهاد فى عهد معاوية رضى الله عنه.

-
- (١) سير أعلام النبلاء (٩/٤).
(٢) المصدر نفسه (١٠/٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (١١/٤).
(٤) المصدر نفسه (١١/٤).
(٥) المصدر نفسه (١٣/٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (١٤/٤).
(٧) صفة الصفوة (٢١٣/٤) حلية الأولياء (١٢٧/٢).
(٨) التاريخ الإسلامى (٣٥٦/١٩).

المبحث الثاني

فتوحات الشمال الإفريقي في عهد معاوية رضى الله عنه

أولاً: حملة معاوية بن حديج رضى الله عنه:

معاوية بن حديج الكندى له صحبة ورواية قليلة عن النبي ﷺ، فقد روى حديث رسول الله ﷺ: «إن كان في شيء شفاء فشربه غسل أو شرطه محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوى»^(١)، وكان رضى الله عنه ملكاً مطاعاً من أشرف كندة^(٢)، وكان من خيرة الأمراء، فعن عبد الرحمن بن شماسة قال: دخلت على عائشة، فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل مصر، قالت: كيف وجدتم ابن حديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل منا فرس ولا بعير إلا أبدل مكانه بعيراً، ولا غلاماً إلا أبدل مكانه غلاماً. قالت: إنه لا يمنعني قتله أخى أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ: «اللهم من ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه»^(٣)، وبعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، كانت جبهة شمال أفريقيا، من أولى الجبهات التي وجه إليها اهتمامه، لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية، ومن ناحية أخرى فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، العدو اللدود للمسلمين، والتي صمم أمير المؤمنين معاوية على تضييق الخناق عليها، وعدم إعطائها فرصة لالتقاط أنفاسها، ففي الوقت الذي واصل فيه ضغطه عليها من الشرق، وزحفه على جزرها في البحر المتوسط تمهيداً للوصول إلى عاصمتها القسطنطينية - كما سبق ذكره - نراه قد قرر أن يطوقها من الجنوب، من شواطئ شمال إفريقية التي كانت تعتبرها من أملاكها، ففي أول سنة من حكمه ٤١هـ أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقية ثم أرسله ثانية سنة ٤٥هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقية وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشرف قريش،

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٤٠).

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧) إسناده صحيح.

(٣) مسلم رقم (١٨٢٨).

فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقاً يقال له: نقفور في ثلاثين ألف مقاتل، فنزل الساحل، فأخرج إليه معاوية بن حديج (عبد الله بن الزبير) في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة^(١)، اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفوراً ألقع من في البحر منهزماً من غير قتال، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء^(٢) فحاصرها وقتل من أهلها عدداً كثيراً حتى فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة^(٣)، وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر دون أن يترك قائداً أو عاملاً، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومي من هذه الناحية^(٤). وعندما استعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب ترك فيها رويفع بن ثابت الأنصاري والياً عليها سنة ٤٦هـ فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها سنة ٤٧هـ، وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر^(٥)، وقد تحدثت المراجع عن كثرة السبايا في هذه الغزوة، وقام رويفع بن ثابت الأنصاري بتذكير المسلمين في هذه بأحكام وطء السبايا، حيث قال: أما أنى لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره»^(٦)، ولا يحل لامرئ يؤمن

(١) سوسة مدينة صغيرة بناحية إفريقية، بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلاً ويحيط بها البحر من ثلاث جهات من الشمال والجنوب والشرق، معجم البلدان (٢٨٢/٣).

(٢) هنالك مدينتان تحملان هذا الاسم، إحداهما بفارس، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهى على طريق خراسان، وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة ١٦هـ، وهذه التي بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً. ياقوت الحموي، معجم البلدان (١٥٦/٢).

(٣) البيان المغرب لابن عذاري (١٦/١، ١٧)، الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص (٢٠٩)، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، شكري فيصل، ص (١٦١).

(٤) تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس (٨٥/١).

(٥) صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقي للصلاحي، ص (٣٣٢).

(٦) زرع غيره: أى محل زرع لغيره، يعنى إتيان الحبالى.

بالله واليوم الآخر أن يقع^(١) على امرأة من السبي حتى يستبرئها^(٢)، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً^(٣) حتى يُقسم^(٤).

وقد بقى فى ولاية طرابلس الغرب ثم ولاء مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقى عليها أميراً ومات بها سنة ٥٦ هـ وقبره معروف فى الجبل الأخضر ببرقة فى مدينة البيضاء، وهو آخر من توفى من الصحابة هناك، وروى عن النبى ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهاً من أصحاب الفتيا من الصحابة، وكان خطيباً مفوهاً^(٥).

ثانياً: عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

هو عقبة بن نافع القرشى الفهرى، نائب إفريقية لمعاوية وليزيد، وهو الذى أنشأ القيروان واسكنها الناس^(٦)، وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصح له صحبة، شهد فتح مصر، واختط بها^(٧)، فقد أسند معاوية بن أبى سفيان قيادة حركة الفتح فى إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذى خلد التاريخ اسمه فى ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك فى غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب فى هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام، وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة فى طريق فتح شمال إفريقية كله، ذلك أنه لطول إقامته فى برقة وزويلة وما حولهما، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكى يستقر الأمر للمسلمين فى إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها فى غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبى سفيان قيادة الفتوحات فى إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثرت جمعه^(٨)، وسار فى جموعه حتى نزل بمغمداش من سرت^(٩)، فبلغه أن أهل

(١) يقع على امرأة: يجامعها .

(٢) يستبرئها: بحیضة أو بشهر .

(٣) مغنماً: أى شيئاً من الغنيمة .

(٤) يُقسم: أى من الغائمين ويخرج منه الخمس .

(٥) مدرسة الحديث فى القيروان (١/٤٨٦)، صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقى، ص (٣٣٣).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٢) .

(٧) المصدر نفسه (٣/٥٣٣) .

(٨) الكامل فى التاريخ (٢/٤٨٣) .

(٩) سرت مدينة بين برقة وطرابلس، معجم البلدان (٣/٢٠٦) .

ودان^(١) قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبي أرطأة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص، ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان^(٢)، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا^(٣)، ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوَّار^(٤)، وخاور^(٥)، وغدامس^(٦)، وغيرها^(٧)، وما يلاحظ أن عقبة تجبّ في مسيره المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي^(٨).

ثالثاً: بناء مدينة القيروان:

في سنة ٥٠ هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشئون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها^(٩)، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون^(١٠)، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن

(١) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، معجم البلدان (٥/٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) فزان: جنوب ليبيا، ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة. (٣) فتوح مصر، ص (١٣٢).

(٤) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان، معجم البلدان (٤/٤٨٦).

(٥) خاور: مدينة جنوب فزان.

(٦) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية.

(٧) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٩٦). (٨) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢٨٠).

(٩) مدرسة الحديث في القيروان (١/٣٨). (١٠) البيان المغرب (١/١٩).

حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم^(١)، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعى، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها^(٢)، وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادى، إنا حالون إن شاء الله، فضعنوا، ثلاث مرات، فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادى: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله^(٣)، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة^(٤)، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتتنقل، فأسلموا ثم شرع الناس فى قطع الأشجار، وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومسكنهم، وتم أمرها سنة ٥٥ هـ وسكنها الناس، وكان فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جناب من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها^(٥)، وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامى، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائماً إلى جوار بعضهما، ويكونان دائماً فى قلب المدينة التى يخطتها المسلمون ويرتكزان فى وسطها^(٦)، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسى للقيروان، الذى يسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغاً حول المسجد ودار الإمارة فى هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسى فى الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها، وكان الكثير منهم دخل فى الإسلام، وشرعوا فى تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم، وهكذا نشاهد - فيما بين سنتى ٥٠ و ٥٥ هـ - حركة قوية بدأت فى تعريب الشمال الإفريقى^(٧).

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٠). (٢) سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٣).

(٣) رياض النفوس (٩/١) معالم الإيمان (٩/١)، سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٣) وخروج الدواب بسبب دعاء عقبة وتأمين من معه رواية صحيحة الإسناد.

(٥) الكامل فى التاريخ (٢/٤٨٤).

(٦) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/٧٢).

(٧) تاريخ المغرب وحضارته (١/٨٩).

١ - الخصائص المتوافرة في موضع القيروان :

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية في قرار عقبة في اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتي :

أ - بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط أى بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البرى الذى يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات بالأى يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب - موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع فى أن يكون الموضع قريباً من السبخة، فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إيلكم على بابها فى مراعيها^(١). . . وكذلك فى الكلمات التى عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم فى الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر^(٢).

ج - بأنه يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التى كان فيها موضع القيروان عبارة عن غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهاً لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن فإنه كان فى بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التى تكفل للمجاهدين المسلمين مورداً غذائياً مهماً^(٣).

د - صحيح أن المشكلة الرئيسية التى جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هى الحال فى مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين، الأول منهما: الأمطار حيث كانت تخزن فى صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيهما: مياه وادى السراويل فى قبة المدينة، لكنه كان مالحاً. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان

(١) الروض المعطار، ص (٤٨٦)، دراسات فى تاريخ المدن العربية الإسلامية د. عبد الجبار ناجى، ص (٢٥٢).

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٧٨/١). (٣) القيروان، للحبيب الجنحاني، ص (٥٩).

قائلاً: وشربهم من ماء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها (المواجل). . . ولهم واد يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح. . . يستعملونه فيما يحتاجونه^(١)، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجياً إلى حد ما^(٢).

٢ - القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية :

لم تبدأ الحياة العلمية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق، وبما رشح القيروان في هذه المكانة ما يلي :

أ - إن إنشاء مدينة القيروان يعنى أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامى الكبير، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبت الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقى مسئولية نشر الإسلام فى المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها^(٣).

ب - لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى فى الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا فى جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود فى مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابياً^(٤)، وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها، ولا شك، نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة فى جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما فى غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً^(٥)، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوى الشريف فى هذه الفترة، مما دعا عقبة أن يوصى

(١) القيروان، للحبيب الجنحاني، ص (٥٩).

(٢) دراسات فى المدن العربية الإسلامية، ص (٢٥٢).

(٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/٥٠).

(٤) البيان المغرب (١/٢٠).

(٥) المصدر نفسه (١/٢٣).

أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن^(١).

ج- لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين^(٢)، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة^(٣). ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربيين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام^(٤)، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كُسييلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً ودعمَ حسان بن النعمان -فيما بعد- جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر حيث خصَّص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام^(٥)، وواصل موسى بن نصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم في الدين^(٦)، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهلهم^(٧).

د- كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمّهات الأولاد، قال أبو العرب^(٨): روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صببية من أم الولد وماتت، فدفنها في مقبرة قریش بباب سلم، فاتخذتها قریش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية^(٩). ومن هنا كان لا بد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، ولذلك فقد نشأت الكتابيب بالقيروان

(١) شجرة النور (٢/١٠٠) مدرسة الحديث في القيروان (١/٥١).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٤/١٨٦). (٣) مدرسة الحديث في القيروان (١/٥١).

(٤) البيان المغرب (١/٢٧)، مدرسة الحديث في القيروان (١/٥١).

(٥) مدرسة الحديث في القيروان (١/٥٢). (٦) البيان المغرب (١/٤٢).

(٧) المصدر نفسه (١/٤٢).

(٨) الرياض (١/٩١)، مدرسة الحديث في القيروان (١/٥٢).

(٩) مدرسة الحديث في القيروان (١/٥٢).

في وقت مبكر جداً، فقد روى عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلّمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه^(١)، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين: أولاهما سنة ٦٠هـ أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة ٧٨هـ^(٢).

هـ- إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب، يمرّ بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها^(٣)، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق^(٤).

و- لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهماً في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان^(٥).

ز- ومما أسهم في ثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيراً من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتي استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب^(٦).

ح- كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب^(٧)، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية في إفريقية والمغرب حتى وصفها

(١) أسد الغابة نقلاً عن مدرسة الحديث في القيروان (٥٢/١).

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (٥٣/١).

(٣) المصدر نفسه (٥٣/١).

(٤) المصدر نفسه (٥٣/١).

(٥) المصدر نفسه (٥٣/١).

(٦)، (٧) المصدر نفسه (٥٤/١).

أبو إسحاق الجبينياني بقوله: القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل ولا قتل على إحياء السنة إلا أئمتها^(١)، وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي، من ذلك ما وصفها به ماقديشي بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابنتى، كيف لا؟ ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب، ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام^(٢)، وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الإفريقية وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء، ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب^(٣)، لقد قامت القيروان بدور كبير في فتح شمال إفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام في المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية^(٤).

رابعاً: عزل عقبة وتولى أبي المهاجر دينار سنة ٥٥ هـ :

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى يعزله ويولى مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال: . . . إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل، فنحن نحب أن نكافئه^(٥)، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتباً، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لى، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلى. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته^(٦)، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخى كما يقول ابن عذارى حتى توفى معاوية وأفضى الأمر إلى

(١) مناقب أبي إسحاق الجبينياني، ص (٦٠، ٦١). (٢) حسن البيان للشيخ محمد النيفر، ص (١٨٩).

(٣) مدرسة الحديث في القيروان (٥٥/١). (٤) العالم الإسلامى في العصر الأموى، ص (٢٧٠).

(٥) فتوح مصر، ص (١٣٤)، البيان المغرب (٢٢/١). (٦) فتوح مصر، ص (١٣٤).

يزيد، فرد عقبة والياً على إفريقية^(١). وهناك نقطة في هذا الموضوع، وهى الإساءة التى تعرض لها عقبة من أبى المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبى المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديداً^(٢)، ولا ندرى ما الذى حمل أبى المهاجر على هذا؟ قال الدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف فى كتابه القيم: ولا ندرى ما الذى حمل أبى المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذى أوعز إلى أبى المهاجر أن يسىء إلى عقبة^(٣). فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصاً أن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولى أبى المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديداً، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخليه سبيله وإشخاصه إليه^(٤). ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه، وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة^(٥). ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصياً كان يجلب عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال: هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذى لا نملك عليه جواباً شافياً. . اللهم إلا الاستنتاج الذى أخذ به محمد على دبور، وهو أن أبى المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطراراً إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبى المهاجر، ولعل أبى المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين^(٦). إن كان هذا الاستنتاج صحيحاً وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذى يوجه إلى أبى المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل

(١) البيان المغرب (٢٢/١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧١).

(٢) فتوح مصر، ص (١٣٣ - ١٣٤)، البيان المغرب (٢٢/١).

(٣) فتح العرب للمغرب، ص (١٥١). (٤) فتوح مصر، ص (١٣٣، ١٣٤).

(٥) فتوح مصر، ص (١٣٤). (٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٢، ٣٣).

الأحقاد، وأن يكون السابق منهم حريصاً كذلك على أن يعطى خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح فى مهمته لأن هدفهم واحد وهو الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه^(١).

خامساً : فتوحات أبى المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢هـ) :

على الرغم من الخطأ الكبير الذى ارتكبه أبو المهاجر فى حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة بن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول إنه قام بدور عظيم فى فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام ديناً ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى - بشاقب نظره - أن سياسة الشدة التى كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تتغير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحریتهم، فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة وقد نجح أبو المهاجر فى سياسته تلك نجاحاً كبيراً، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر فى شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم^(٢)، الذين أخذوا يتجيبون إلى البربر، ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد ليستعمروهم ويستعبدوهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذى فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التى حلت بهم فى وسط إقليم إفريقية وجنوبه، مازالوا قوة فى الشمال، ومازالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم مازالوا قوة فى ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبى المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم فى تلك النواحي، ويكسر الحلف الذى عقده مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها^(٣)، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامى، وأن أبا المهاجر لا بد أن يتنصر عليهم، فدخل

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٤).

(٢) النجوم الزاهرة (١/١٥٢).

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٣٣/٢).

العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك^(١)، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد^(٢). رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسائراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعاً، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة^(٣)، على خمسين ميلاً من بجاية في جنوبها الشرقي^(٤)، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين. وقد استثمر هذه المدة في الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح في سياسته نجاحاً كبيراً فأقبل البربر على الإسلام، وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب، قسنطينة الآن ونواحيها إلى بجاية^(٥). لأن الروم كانوا يتقنون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحي، سكون البحر بعد العاصفة^(٦)، وترامت الأخبار إلى أبي المهاجر أن جمعاً من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة^(٧)، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوى الشخصية، زكى الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان

(١) سميت شريك نسبة إلى شريك العيسى وهي تقع شرق قرطاجنة. تاريخ المغرب الكبير (٣٤/٢).

(٢) تاريخ المغرب الكبير (٣٤/٢)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٧٦).

(٣) النجوم الزاهرة (١/١٥٢)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٧٧).

(٤) بجاية على ساحل البحر بين تونس والمغرب. معجم البلدان (١/٣٣٩).

(٥) تاريخ المغرب الكبير (٣٥/٢).

(٦) المصدر نفسه (٣٥/٢)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٧٧).

(٧) تاريخ ابن خلدون (١٤٦/٦)، تاريخ المغرب الكبير (٣٨/٢).

البربر يجلبونه ويحبونه وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين فرآهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر في ميعة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلاتهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم^(١).

١ - معركة تلمسان^(٢): بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار.

٢ - إسلام كسيلة: أسر كسيلة في معركة تلمسان وحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك^(٣)، وطمع في إسلامه، فجدته عن الإسلام وعرفه حقيقته، وأنه دين التوحيد الخالص، والعدل والمساواة، والأخوة، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئاً، بل العكس سوف يكسب الكثير روحياً ومادياً، وكان كسيلة ذكياً طموحاً مخلصاً لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح، فأمن كسيلة، وأصبح من المسلمين، وأغرم بالعربية فصار يتعلمها، وأصبح من المقربين من أبي المهاجر وشمر كسيلة لمنصرة الإسلام والمسلمين. ودعا قومه البربر للدين الحنيف، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين وعاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريباً من القيروان، وأقام بقرية تسمى دكرور يراقب الأمور، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقي، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام، فقد توفي مولاه مسلمة بن مخلد الأنصاري والى مصر سنة ٦٢هـ، وكان مسلمة سنداً قوياً لأبي

(١) تاريخ المغرب الكبير (٣٨/٢).

(٢) هما مدينتان إحداهما قديمة والأخرى جديدة اختطها المرابطون فهي كالقسطاط والقاهرة من أرض مصر.

معجم البلدان (٤٤/٢).

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٣٨/٢).

المهاجر فلما زال هذا السند أعاد يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ) عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية وعزل أبا المهاجر^(١)، وفي تولية أبي المهاجر على إفريقية دليل على ثقة مسلمة بن مخلد الأنصارى فيه وحسن معاملة الموالى فى الإسلام، وبيان أن الناس كلهم سواسية فى الإيمان سواء أكانوا عرباً مسلمين أو أجناساً أخرى من غير العرب، ونستدل من هذا الاختيار على أن الموالى قد تمتعوا بمكانة مرموقة فى العصر الأموى بعكس ما تصوره بعض الأقوال، وقيل: إن أبا المهاجر من موالى النوبة فى مضر وقيل بأنه يرجع إلى أصول بربرية^(٢).

سادساً: حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ - ٦٣هـ):

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه فى وثاق شديد^(٣)، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفيّاً شهماً غيوراً، فلم ييخل بنصائحه لعقبة بالرغم ما حدث بينهما من الجفوة. ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلم شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانها، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده فى الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهائه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبّار فى قومه وبنار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثق من الرجل فإنى أخاف فتكه^(٤). فتهاون به عقبة، وسيأتى الحديث عن غدر كسيلة بالمسلمين، وكيف اغتتم فرصة انفراد عقبة فى بعض جيشه كما سيأتى بيانه، وكيف قال عقبة لأبى المهاجر: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا اغتتم الشهادة، فقال أبو المهاجر: وأنا اغتتم الشهادة مثلك، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا^(٥). قد لاحظنا أن أبا المهاجر خاض معركة واحدة كبرى دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر، ودخل بعض

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٩). (٢) خلافة معاوية للعقلى، ص (١٣٠، ١٣١).

(٣) فتوح مصر، ص (١٣٤).

(٤) قادة فتح المغرب (١٣٧/١ - ١٤٢)، رياض النفوس (٢٦/١).

(٥) رياض النفوس (٢٦/١ - ٢٧)، قادة فتح المغرب (١٣٧/١ - ١٤٢).

زعمائهم فى الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومه فى الإسلام ووفر أبو المهاجر بذلك جهوداً كبيرة كان لابد من بذلها فى فتح بلاد المغرب لو بقى أولئك البربر على كفرهم، ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربرى لم يكن يعتقد بصحة إسلامه إذ أن عقبة كان فى غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضى بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته فى نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ فى اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثى عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال فى عدم الصدق فى الولاء فإن كسبه وبقائه فى جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذى صحبهم وحاز على شىء من ثقتهم^(١)، ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التى من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأى أهل الحل والعقد خاصة فى الأمور المهمة، وعلى أى حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً فى تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته، وإنما كان رائدهما النظر فى مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبى المهاجر أقرب إلى الصواب فى هذه القضية^(٢).

١ - جهاده من القيروان إلى المحيط:

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عزّل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أعيد إليها عام اثنين وستين فقام برحلته الجهادية المشهورة التى قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان فى تونس إلى ساحل المحيط الأطلسى فى المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوى ودعا لها قائلاً: يا رب املاها علماً وفقهاً واملاها بالمطيعين لك، واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنحها من جبايرة الأرض^(٣)، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إنى قد بعث نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد

(٢) المصدر نفسه (١٣/٢٥٤).

(١) التاريخ الإسلامى (١٣/٢٥٤).

(٣) البيان المغرب (١/٢٣)، الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/١٢٦).

من كفر بالله ثم قال: يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به الليب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء فإن الدين ذلُّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة فى الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا. ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا ترونى بعد يومكم هذا. ثم قال: اللهم تقبل نفسى فى رضاك واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك^(١). وهكذا ما إن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله فى وصيته لأولاده: إنى قد بعث نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. فجعل عمله الذى نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامى، وهو إعلاء كلمة الله فى الأرض^(٢)، وفى وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ - الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيئه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذى يدل على الله عز وجل، وما أبلغه من وصف يهدى إلى بلوغ الهدف السامى الذى يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل فى مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا

(١) البيان المغرب (١/٢٣)، صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى، ص (٢٤٨).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/٢٥٧).

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذى يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

ب - الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهم بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

ج - الوصية الثالثة: التحرى فى تلقى العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعده عن حقيقة العلم وثمرته وهى تقوى الله عز وجل^(١). ونجد عقبة فى نهاية وصيته لأولاده يسلم عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته فى سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك^(٢). وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله فى فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى فى هذه الحياة^(٣). سار عقبة فى جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية^(٤)، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصروهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهى من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه فى جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن فى تلك المعركة فناءهم، ولكن الله من عليهم بالصبر فكانوا فى ذلك أشد وأصبر من أعدائهم، فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألبأوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة^(٥)، ثم استمر غرباً قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها ف قيل له (أربيه) وهى دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهمز أهل تلك البلاد وقتل كثير من فرسانهم. ورحل عقبة إلى (تاهرت) فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبة بن نافع فى الناس خطيباً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس

(١) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى، ص (٢٥٩).

(٢) البيان المغرب (٢٣/١). (٣) التاريخ الإسلامى (٢٥٨/١٣).

(٤) مصر فى العصر الأموى، ص (١٢٣)، الكامل فى التاريخ (٥٨٩/٢).

(٥) البيان المغرب (٢٣-٢٧/١)، التاريخ الإسلامى (٢٦١/١٣).

إن أشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعة الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجمته بيعة رابحة، وأنتم اليوم فى دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين^(١).

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضى الله عنه قد اعتمد فى حروبه على السلاح الأعظم الذى فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة . . ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذى يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوى الفعال قد توافر فى جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع فى هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين. وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد رضى الله عنه، الذى كان يُسرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاضم - من غير غرور ولا استهانة - كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذة قدوة فى القيادة والإقدام الذى لا يعرف التردد والسامة، وهو فى إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به^(٢).

هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم فى مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم

(١) البيان المغرب (١/ ٢٣-٢٧)، قادة الفتح المغرب العربى (١/ ١٠٨-١٢٠).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٠).

وسلاحهم^(١)، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريقاً من الروم اسمه (جوليان) الذى أهدي له هدية حسنة، ونزل على حكمه^(٢). ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام^(٣)، ثم سأله عن البربر والروم -بقوله: دلنى على رجال البربر والروم، فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم فى عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: فى السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين^(٤). . استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربى، قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزموهم وطاردوهم نحو صحراء وادى درعا، حيث بنى مسجداً فى مدينة درعا ثم غادر صحارى مراكش باتجاه الشمال الغربى إلى منطقة (تافللت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كى يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة فى مدينة (أغمات)، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تيفيس^(٥)، حيث حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصراً وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها (ايجلى) التى بنى فيها مسجداً، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومنها إلى رأس (ايفران) على البحر المحيط^(٦)، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسى يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب.

وتشير مصادرنا التاريخية إلى أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسى قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك. ثم قال: اللهم أشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك، ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم،

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٠)، مصر فى العصر الأموى، ص (١٢٥).

(٣) مصر فى العصر الأموى، ص (١٢٦)، البيان المغرب (١/ ٢٦-٢٧).

(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠).

ففعّلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً^(١). وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته، والقضاء على دول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم أنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بين أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد إذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس^(٢). ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى^(٣)، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاعر الذي بنى رباطاً ما بين بلدي مراكش وموجادور ولا زال موقعه باقياً إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدى شاعر^(٤)، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعاً مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة^(٥)، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام^(٦)، وكى يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولى عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة، فقد ترك عليها أبا

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٥٩٠)، البيان المغرب (١/ ٢٣-٢٧)، قادة الفتح المغرب العربي (١٠٨/١-١٢٠).

(٢) التاريخ الإسلامي (١٣/ ٢٦٦).

(٣) رياض النفوس (١/ ٢٦)، الإسلام والتعريب (١/ ١٣٣). (٤) البيان المغرب (١/ ٢٧).

(٥) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١/ ١٣٣). (٦) تاريخ ابن خلدون (٦/ ١٠٨).

مدرك زرعة بن أبي مدرك، أحد رؤسائها، الذي شارك في فتح الأندلس فيما بعد^(١)، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبية على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب (عقبة) نساء لم ير الناس مثلهن فقيل إن الجارية كانت تساوى بالمشرق ألف مثقال وأكثر^(٢)، وكان السبي أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية، ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب والبربر أوجد صلات وروابط تجلت في الحلف والولاء في هذا الوقت المبكر^(٣). يذكر السلاوي أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة^(٤). وهذا يشعر بأن زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتين للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين^(٥).

٢ - استشهاد عقبة بن نافع وأبي المهاجر رحمهما الله تعالى:

يبدو أن عقبة المجاهد المخلص، كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً في هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إني قد بعث نفسي من الله عز وجل . . . إلى أن قال: ولست أدرى أتروني بعد يومى هذا أم لا، لأن أملى الموت فى سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله . . اللهم تقبل نفسى فى رضاك^(٦). نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله فى الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهوذة^(٧)، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التى تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسى وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة، ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة فى قومه، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذى وقع فيه عقبة ولم يكتب نصيحته عنه - رغم أنه كان فى حكم المعتقل - ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر

(١) فتوح مصر، ص (٢٠٧)، الإسلام والتعريب (١/١٣٤). (٢) رياض النفوس (١/٢٤).

(٣) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/١٣٤). (٤)، (٥) المصدر نفسه (١/١٣٥).

(٦) البيان المغرب (١/٢٣، ٢٤).

(٧) تهوذة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم.

وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم، وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذى لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره^(١)، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضاً، وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر فى غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصداً القيروان، ولما صار قريباً من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون فى مقدمة الجيش عند الغزو ويكون فى الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً. وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداءً به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد فى أى عمل يتوجه إليه، ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوى يعتبر أهم العوامل فى تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربرى، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قبلَ لهم^(٢) به، وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة فى جمع عدته خمسون ألفاً^(٣). وكان أبو المهاجر موثقاً فى الحديد مع عقبة، فلما رأى الجموع تمثل بقول أبى محجن الثقفى:

كفى حزناً أن تمرغ الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذ قمتُ عتاني الحديد وأُغلت مصارع من دونى تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتتم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة^(٤)، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/٢٦٣).

(٤) الكامل فى التاريخ (٢/٥٩١).

(١) الكامل فى التاريخ (٢/٥٩١).

(٣) البيان المغرب (١/٢٥).

ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد (تهوذة) من أرض الزاب. ويذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها^(١). وهكذا تحقق أمل عقبة وأبى المهاجر ونالا الشهادة في سبيل الله بعد ما قاما بالواجب الذي عليهما، واستقبلا الشهادة في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوى، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله^(٢)، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره. وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وانتهاء بالمغرب الأقصى^(٣).

٣ - أثر معركة تهوذة على المسلمين (٦٣هـ) :

كانت معركة تهوذة مصيبة على المسلمين، فقد استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وصحبه، وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين، وانتابتهم حالة من الهلع والفرع، فمع أن العدد الذي استشهد مع عقبة كان قليلاً - قيل حوالي ثلاثمائة جندي - وأن معظم الجيش كان قد سار متقدماً ونجاً من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم، حتى يحتفظ بوجوده في القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك، وقد حاول زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ في الجنود روح المقاومة والتصدي لكسيلة عندما زحف على القيروان، وهتف قائلاً: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك^(٤)، ولكن صيحة زهير هذه لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتبسيطاً، حيث تصدى له

(١) التاريخ الإسلامي (١٣/٢٦٤)، البيان المغرب (١/٢٨).

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) التاريخ الإسلامي (١٣/٢٦٥).

(٤) البيان المغرب (١/٣١).

حنس الصنعاني وقال له: لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال: يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقة فليتبغني فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في أثره، ولحق بقصره ببرقة، وأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان^(١)، وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد القيروان، وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع إلى أن قوى أمر عبد الملك بن مروان^(٢). ولئن أخرجت إفريقية من يد المسلمين فإنها لم تخرج عن الإسلام، فقد أسلمت قبائل من البربر وثبتت على إسلامها وكان تعيش بالقيروان، وكان كسيلة يحسب حسابها ويتفادها لشدة بأسها فقد اعترف كسيلة بذلك حين اقترح على جيشه الخروج من القيروان واختيار موضع آخر لمواجهة جيش زهير الذي أمده به عبد الملك بن مروان، قال كسيلة: إنى أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلهما، فإن هذه المدينة (يعنى القيروان) فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبوا علينا^(٣). هذا وقد بقيت القيروان بيد كسيلة مدة تقارب خمس سنوات من عام ٦٤هـ - ٦٩هـ حتى خلصها زهير البلوي من قبضته بعد أن أمده عبد الملك بن مروان بجيش كبير عندما يأتى الحديث عن زهير بإذن الله في عهد عبد الملك بن مروان.

وفى مقتل عقبة رحمه الله درس بليغ وهو أهمية الحذر من العدو فقد أرسل جنوده وبقي في مجموعة قليلة من المقاتلين رغبة في الشهادة وهذا مطلب سامي وكبير إلا أن استشهاده كان له آثار سيئة على الفتوحات في شمال إفريقيا، وضاعت القيروان من أيدي المسلمين لمدة خمس سنوات، وتأخرت الدعوة الإسلامية، لذلك يجب على القادة أن يوازنوا بين مصالح الأمة الكبرى وحرصهم على الشهادة.

(١) البيان المغرب (٣١/١)، النجوم الزاهرة (١٥٩/١) .

(٢) النجوم الزاهرة (١٦٠/١)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٨٦).

(٣) رياض النفوس (٣٠/١)، الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١٣٦/١) .

المبحث الثالث

فتوحات معاوية في الجناح الشرقي للدولة الأموية

كان المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد أمّوا فتح البلاد التى تقع بين العراق ونهر جيحون، وتضم جرجان وطبرستان وخراسان وفارس وكرمان وسجستان، فلما قتل عثمان تعثرت حركة الفتح، وخرج أكثر أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا جاء عهد معاوية رضى الله عنه أخذت دولته تبذل جهوداً بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة ومد حركة الفتح^(١).

أولاً: فتوحات خراسان^(٢) وسجستان وما وراء النهر:

لما استقامت الأمور لمعاوية بن أبى سفيان ولّى عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان^(٣)، ولقد جاء تعيين عبد الله بن عامر فى هذا المنصب نظراً لخبرته السابقة فى هذه المنطقة. وفى سنة ٤٢٢هـ - ٤٣٣هـ عين ابن عامر، عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس والياً على سجستان فأتابها وعلى شرطته عبّاد بن الحصين الحبطى ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى، وعبد الله بن خازم السلمى، وقطرى بن الفجاءة، والمهلب بن أبى صفرة الأزدى ففتحوا فى هذه الحملة مدينة زرنج^(٤) صلحاً ووافق مرزبانها على دفع ألفى ألف (مليونى) درهم، وألفى وصىف. ثم تقدموا نحو مدن خواش^(٥)، وبست^(٦)، وخشك^(٧)، وغيرها من البلدان وتمكنوا من فتحها، كما تمكنوا من فتح مدينة كابل بعد أن ضربوا عليها حصاراً استمر لعدة أشهر^(٨). وما لبث أن جعل معاوية رضى الله عنه إقليم سجستان ولاية مستقلة وأمر عليها عبد الرحمن بن سمرة كمكافأة له على تحقيقه مثل تلك الفتوحات^(٩). وظل عبد الرحمن والياً عليها

(٢) خراسان: أى مطلع الشمس.

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢١٩).

(٣) تاريخ الطبرى (١٣٣/٦).

(٤) زرنج: مدينة كبيرة هى قصبه سجستان معجم البلدان (٣/١٣٨).

(٦) معجم البلدان (١/٤١٤).

(٥) خواش: مدينة بسجستان. معجم البلدان (٢/٣٩٨).

(٧) خشك: بلدة من نواحي كابل. ومعجم البلدان (٢/٣٧٣).

(٩) المصدر نفسه، ص (٣٩٦).

(٨) فتوح البلدان، ص (٣٩٥).

حتى قدم زياد بن أبي سفيان البصرة معيناً عليها بدل عبد الله بن عامر، والذي عزله معاوية سنة ٤٥هـ كما مر معنا، وعادت ولاية خراسان وسجستان مرة أخرى تحت إشراف والي البصرة. وعند وصول زياد البصرة سنة ٤٥هـ قسم خراسان أربعة أقسام هي: مرو وعليها أمير أحمد اليشكري والذي كان أول من أسكن العرب في مرو^(١)، ونيسابور وعليها خُليد بن عبد الله الحنفي، ومرو الرود والطاقان والفارياب وعليها قيس بن الهيثم السلمي، وهرة وباذغيس وبوشنج وقاديس وعين عليها نافع بن خالد الطاحي الأزدي^(٢)، وفي سنة ٤٧هـ عمل زياد على جعل السلطة المركزية في خراسان في مدينة مرو (القاعدة الأساسية فيها).

ثانياً : تعيين الحكم بن عمرو الغفاري :

وكان عفيقاً وله صحبة^(٣)، وفي سنة ٤٧هـ غزا الحكم (طخارستان)^(٤)، فغنم غنائم كثيرة ثم سار إلى جبال الغور^(٥)، وغزا أهلها الذين ارتدوا عن الإسلام فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغنم كثيرة^(٦)، وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بخراسان، فغزا معه بعض جبال الترك وغزا معه جبل (الأشل)^(٧) من جبال الترك، إلا أن الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق، واحتار الحكم بالأمر، فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أسر عظيمًا من عظماء الترك، فقال له: إما أن تخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنك، فقال له: أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق، وسير الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه، وفعل ذلك المهلب، فسلم الناس بما معهم من الغنائم^(٨)، وقطع الحكم نهر جيحون وعبر إلى ما وراء النهر^(٩) في ولايته ولم يفتح، وكان أول من شرب من

(١) فتوح البلدان، ص (٤٠٨). (٢) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلي، ص (١٣٥).

(٣) فتوح البلدان، ص (٤٠٩). (٤) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد.

(٥) الغور: جبال وولاية بين هرة وغزة. (٦) الكامل في التاريخ (٢/٤٧٨).

(٧) الأشل: جبل في ثغور خراسان.

(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١١٨).

(٩) ما وراء النهر: جيحون بخراسان، فما كان في شرقه يقال له: ما وراء النهر، وما كان غربه فهو

خراسان، وولاية خوارزم. معجم البلدان (٧/٣٧٠).

مائه من المسلمين هو أحد موالى الحكم، فقد اغترف بترسه بماء النهر، فشرّب وناول الحكم فشرّب وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الحكم أول من فعل ذلك^(١). وقد قال عبد الله بن المبارك لرجل من أهل (الصغانيات): (من فتح بلادك؟) فقال الرجل: لا أدري!! فقال ابن المبارك: فتحها الحكم بن عمرو الغفاري^(٢). وقد مات الحكم سنة ٥٠هـ^(٣)، فخلفه الصحابي الجليل غالب بن فضالة الليثي والذي واصل سياسة سلفه في إرسال حملات منظمة في فتح طخارستان^(٤) ولكنه، رغم كل الجهود التي بذلها لم يحرز أى تقدم يذكر في ولايات طخارستان. لذلك عزله زياد وولى مكانه الربيع بن زياد الحارثي (٥٠ - ٥٣هـ)^(٥)، وقد استطاع الربيع بن زياد إبان فترة ولايته على خراسان أن يغزو بلخ فصالحه أهلها، ثم غزا قوهستان ففتحها عنوة، ثم أن ابنه عبد الله، خلفه لبضعة أشهر من عام ٥٣هـ وخلفه خليل بن عبد الله الحنفي في إدارة الإقليم، وظل خليل في منصبه هذا حتى وصل عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان عامل معاوية رضى الله عنه المعين على خراسان في سنة ٥٤ - ٥٥هـ وكان عبيد الله ابن ٢٥ عاماً^(٦).

ثالثاً: عبيد الله بن زياد:

ما إن وصل عبيد الله إلى مرو حتى قاد حملة مكونة من ٢٤ ألف رجل وقطعوا نهر جيحون على الإبل، وفتحوا راميشين^(٧) ونسف^(٨) وبيكندة^(٩)، فأرسلت (خاتون) ملكة (بخارى) إلى الترك تستمدهم فجاءهم منهم عدد كبير، فلقبهم المسلمون وهزموهم، وعند القتال انتصروا عليهم^(١٠)، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان وصالحها عبيد الله على ألف درهم فلم يفتح بخارى وفتح بيكندة^(١١)، وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف «خراسان» التي تذكر، وقد ظهر

(١) الكامل في التاريخ (٤٧٨/٢).

(٢) فتوح البلدان للبلاذري، ص (٤٠٠)، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١١٨).

(٣) طبقات ابن سعد (٢٩/٧). (٤) خلافة معاوية للعقيلي، ص (١٣٦).

(٥) فتوح البلدان، ص (٤٠٩)، خلافة معاوية للعقيلي، ص (١٣٦).

(٦) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة معاوية، ص (١٣٨). (٧) الكامل في التاريخ (٥٠٦/٢).

(٨)، (٩) المصدر نفسه (٥٠٦/٢).

(١٠) تاريخ اليعقوبي (٢١١/٢)، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).

(١١) فتوح البلدان، ص (٤٠١)، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).

منه بأس شديد^(١)، فقد ذكر شاهد عيان، فقال: ما رأيت أشجع بأساً من عبيد الله بن زياد، لقينا زحف الترك بـ(خراسان)، فرأيتُه يقاتل فيحمل عليهم، فيطعن فيهم ويغيب عنا، ثم يرفع رايته تقطر دمًا، وبقي عبيد الله بخراسان^(٢) ستين، إذ ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥هـ^(٣)، فقدم معه البصرة بخلق من أهل بخارى^(٤) وهم ألفان كلهم جيد الرمي بالشباب^(٥)، وتولى ابن زياد أرفع المناصب في أيام معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، وكان موضع ثقة بني أمية وكان يعتمد في حكمه على القسوة لفرض سيطرته على الناس، وكان لا يبالي من أجل تدعيم سيطرته أن يرتكب كل أنواع الإجراءات الرادعة قتلاً وتعذيباً وحجزاً للممتلكات والأموال^(٦)، فقد كان ذا شخصية طاغية يحب الإمارة ويحب السيطرة. ولقد أساء ابن زياد، فترك تصرفه الأهوج في قتل الحسين رضى الله عنه أثراً بالغاً في أيامه، ولا تزال نعانى من نتائج قتله حتى اليوم^(٧)، وسيأتى بيان تفصيل ذلك بإذن الله عند الحديث عن مقتل الحسين رضى الله عنه. وفي سنة ٥٥ هـ قدم أسلم بن زرعة الكلابي خراسان والياً عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان بدلاً من عبيد الله ابن زياد والذي ندبه معاوية لولاية البصرة وظل أسلم في ولايته مدة تقارب السنة^(٨).

رابعاً : سعيد بن عثمان بن عفان (٥٦هـ):

تروى المصادر التاريخية أن سعيد بن عثمان بن عفان قد اصطحب معه إلى خراسان حوالي أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية في البصرة والكوفة، كما كان من ضمنهم حوالي خمسين عابثاً وقاطعاً للطريق من أمثال مالك بن الربيب المازني التميمي، وهؤلاء تابوا ورجعوا إلى رشدهم وفضلوا الجهاد في سبيل الله^(٩)، ومالك بن الربيب هو القائل:

ألم ترنى بعث الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازياً^(١٠)

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).

(٢) الكامل في التاريخ (٥٠٦/٢) . (٣) المصدر نفسه (٥٠٧/٢).

(٤) المصدر نفسه (٥٠٦/٢)، الفتح، ص (٤٠١). (٥) الفتح، ص (٤٠١).

(٦) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٣٥). (٧) المصدر نفسه، ص (١٣٧).

(٨) خلافة معاوية للعقيلي، ص (١٣٩). (٩) المصدر نفسه، ص (١٤٠).

(١٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٣٥٤/١).

وقدم سعيد خراسان فقطع النهر إلى (سمرقند) وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبيد الله بن زياد وأقبل أهل الصغد وكش ونسف إلى سعيد في مائة ألف وعشرين ألفاً، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، فنكثت العهد، ولكن قسماً من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال، فأثر انصرافهم في معنويات الآخرين واهتزت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك، أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحاً^(١)، وطلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها، ومن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لعرشها، وتخلصت بذلك من أشد أعدائها خطراً على عرشها وحاضرها، ومستقبلها، وحين تم الصلح بين خاتون وسعيد، زارت خاتون سعيداً بمقره، فطلعت عليه في زينتها الملكية، وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فادعى أهل بخارى أن القائد المسلم أعجب بجمالها أيما إعجاب، وجرى ذكر إعجاب سعيد بها في الأغاني الشعبية التي لا يزال أهل بخارى يرددونها ويتغنون بها حتى اليوم، ولكن هذا الإعجاب لا ذكر له في المصادر العربية الإسلامية المعتمدة، ومن الواضح أنه أقرب إلى خيال الأدباء والفنانين منه إلى حقائق المؤرخين. وغزا سعيد سمرقند، فأعانت خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف ألا يبرح أو يفتحها، وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشد قتالهم في اليوم الثالث حيث فُقت عين سعيد، ولزم أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة ويقتل من فيه، فطلبوا الصلح، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومن شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين^(٢). وكان معه من الأمراء المهلب بن أبي صفرة الأزدى وغيره، واستشهد معه يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب، وكان يُشبه بالنبي ﷺ^(٣)، وكان أخوه عبد الله بن عباس دفن بالطائف وأخوه معبد استشهد بإفريقية وعبيد

(١) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر ص ٨٢، تاريخ الطبري (٢٢٤/٦).

(٢) فتوح البلدان، ص (٤٠١ - ٤٠٢)، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٤١).

(٣) شذرات الذهب (٦١/١)، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٢).

الله بالمدينة وكلهم من أب واحد وأم واحدة قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذا وانصرف سعيد بن عثمان إلى (ترمذ) ففتحها صلحاً^(١)، وقد كان سعيد شاعراً ومن شعره في معاوية قوله:

ذكرت أمير المؤمنين وفضله فقلت جزاه الله خيراً بما وصل
وقد سبقت منى إليه بوادر من القول فيه آفة العقل والزلل
فعاد أمير المؤمنين بفضله وقد كان فيه قبل عودته ميل
وقال: خراسان لك اليوم طعمة فجوزى أمير المؤمنين بما فعل
فلو كان عثمان الغداة مكانه لما نالني من ملكه فوق ما بذل^(٢)

وعزل معاوية سعيد عام ٥٧هـ، فأخذ سعيد مالا من خراج خراسان، فوجه معاوية من لقيه بـ(حلوان)^(٣) وأخذ المال منه، ومضى سعيد بالرهن الذين أخذهم من أبناء عظماء (سمرقند) حتى ورد بهم المدينة النبوية، فدفع ثيابهم ومناطقهم إلى مواليه، وألبسهم جباب الصوف، وألزمهم السقى والعمل^(٤)، وألقاهم في أرض يعملون له فيها بالمساحي، فأغلقوا يوماً باب الحائط ووثبوا عليه فقتلوه ثم قتلوا أنفسهم^(٥)، فقال خالد بن عقبة بن أبي معيط الأموي^(٦):

ألا إن خير الناس نفساً ووالداً سعيد بن عثمان قتيل الأعاجم
فإن تكن الأيام أردت صروفها سعيداً فهل حي من الناس سالم؟
وقال أيضاً يرثيه:

يا عين جودى بدمع منك تهتاناً وأبكى سعيد بن عثمان بن عفانا

لم يف سعيد لأهل (سمرقند) بإعادة الرهن لهم، بل جاء بالغللمان معه إلى المدينة النبوية وجعل يستعملهم في النخيل والطين وهم أولاد الدهاقين وأرباب

(١) فتوح البلدان، ص (٤٠٢)، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٢).

(٢) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٣، ١٤٤). (٤) فتوح البلدان، ص (٤٠٢ - ٤٠٣).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (٤٠٣)، قادة الفتح الإسلامي، ص (١٤٢).

النَّعم، فلم يطبقوا ذلك العمل وسموا عيشتهم فوثبوا عليه فى حائط له، وبذلك غدر بهم^(١)، فكان هذا الغدر وبالأعلى عليه، إذ قدم حياته ثمناً لغدره^(٢)، لقد كان سعيد شهماً غيوراً يعتد بشخصيته، طموحاً، متراًفاً، سخياً، وكان من شخصيات قريش البارزة^(٣).

خامساً: فتح سلم بن زياد أخى عبيد الله بن زياد (٥٧هـ):

عزل معاوية بن أبى سفيان سعيد بن عثمان بن عفان سنة سبع وخمسين الهجرية، وأضيفت إلى ولاية عبيد الله بن زياد فى رواية^(٤)، وفى رواية أخرى، أن معاوية بن أبى سفيان ولّى خراسان عبد الرحمن بن زياد، وكان شريفاً، فلم يصنع شيئاً فى مجال الفتح، وكان ذلك فى سنة ٥٩هـ^(٥)، ومات معاوية وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد ولما سار سلم إلى خراسان، كتب معه يزيد إلى أخيه عبيد الله بن زياد، فى العراق ينتخب له ستة آلاف فارس، وقيل: ألفى فارس، وكان سلم ينتخب الوجوه، فخرج معه عمران بن الفضيل البرجمي، والمهلب بن أبى صفرة، وعبد الله بن خازم السلمى، وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى وخلق كثير من رؤساء البصرة وأشرفهم، فأخذ سلم هؤلاء الفرسان معه من البصرة، وتجهز ثم سار إلى خراسان^(٦)، وبدأ سلم بغزو خوارزم، فصالحوه على أربعمائة درهم وحملوها إليه. وقطع سلم النهر (جيجون) ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكانت أول امرأة عربية عبّر بها النهر، فأتى (سمرقند) فصالحه أهلها^(٧). ووجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد، واستنجدت بجيرانها من الصغد، وأتراك الشمال، فجاء طرخون على جيش الصغد، كما جاء ملك الترك فى عسكر كثيف، ولم تؤثر تلك الحشود الضخمة من القوات المعادية فى معنويات المسلمين، فحاصروا بخارى دون أن

(١) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٤٣).

(٣) الكامل فى التاريخ (٥١٤/٢).

(٤) النجوم الزاهرة (١٤٩/١)، قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٨).

(٥) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٨).

(٦) الكامل فى التاريخ نقلا عن قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٩).

(٧) قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٩)، فتوح البلدان، ص (١٤٩).

يهجموا عليها، ليقفوا أولاً على تفاصيل قوات أعدائهم ومواضعها، وهي متربصة بهم فى مواضع ليست بعيدة عن بخارى. وأمر سلم المهلب بن أبى صفرة الأزدي أن يستطلع أحوال العدو فاقترح المهلب أن يكلف غيره بهذه المهمة، وحثه أنه معروف المكانة بين قومه والمسلمين وقد يفشى تغييه عن معسكر المسلمين سرّ الواجب الذى ألقى على عاتقه، وهذا الواجب ينبغى أن يبقى سرّاً مكتوماً حتى يتم إنجازه بسرية تامة وكتمان شديد وحذر بالغ، لأن إفشاءه يعرّض المسلمين لخطر جسيم، ولكن سلم بن زياد أصرّ على إيفاد المهلب دون غيره فى هذا الواجب الحيوى الذى قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغى، وأرسل معه ابن عمه ورجلاً من كل لواء من ألوية المسلمين، واشترط المهلب على سلم ألا ييوح لأحد من الناس كائناً من كان بمهمته، ثم مضى إلى سبيله ليلاً مع جماعته الاستطلاعية، فكمن فى موضع مستور، واستطلع قوات العدو دون أن يشعر العدو بموضعه المخفى المستور، ويبدو أن قوم المهلب والمسلمين افتقدوا المهلب فى صلاة الفجر من تلك الليلة التى تسلل بها المهلب إلى موضع قريب من العدو، فما كان تغيب مثله أن يخفى على أحد وهو ليس مجهول المكان والمكانة، يملأ الأعين قدراً وجلالاً، فألحوا على سلم بالسؤال عن المهلب وألحفوا عليه، فلم يستطع أن يكتم أمره وأخبرهم أنه أرسله فى مهمة استطلاعية ليلاً، وفشا الخبر بسرعة خاطفة فى العسكر، فأسرع جمع من المسلمين بالركوب وتوجّهوا صوب موضع المهلب المستور، فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو، وأبصرهم المهلب مقبلين نحوه يتسابقون بدون نظام ولا تنظيم، فلامهم أشد اللوم على ما أقدموا عليه، لأنهم كشفوا موضع جماعته الاستطلاعية للعدو دون مسوغ، فعرضهم لخطر محقق أكيد، وأصبح موقف المهلب ومن معه من المسلمين فى خطر داهم فبذل المهلب قصارى جهده لمعالجة موقفه الخطير، وتدارك ما يمكن تداركه، وأحصى المهلب المسلمين الذين التحقوا به متطوعين، فكانوا تسعمائة من الفرسان المجاهدين، فقال لهم: والله لتندمُن على ما فعلتم، وحدث ما توقعه المهلب، فما كاد ينظّم المسلمين صفوفًا، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمئة فارس مجاهد، ولاذ الباقون منهم على قيد الحياة بالفرار، وأحيط بالمهلب ومن بقى معه من جماعته

الاستطلاعية ذات العدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتاً راسخاً لا يتزعزع عن موضعه، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون عليهم من الفرار، وصاح المهلب بصوته الجمهورى القوى مستغيثاً بالمسلمين، فسمع صوته من معسكر المسلمين القريب، الذى كان على نصف فرسخ من موضعه المواجه للعدو، وبادر فوراً إلى نجدته من قومه الأزد، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون خفاً لنجدته على عجل بقيادة سلم، ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة نكراء حيث هربوا من ساحة المعركة مخلّفين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كل فارس ألفين، وأربعمائة درهم فى رواية، وعشرة آلاف درهم فى رواية أخرى، وطارد المسلمون الترك المنهزمين، فلم ينج منهم إلا الشريد، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصغدى ملك الصغد وأعادت خاتون الصلح من جديد مع سلم، فاستعاد فتح بخارى^(١)، وبعث سلم وهو بالصفد جيشاً من المسلمين إلى (حُجَنْدَة) وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهزم المسلمون فقال الأعشى:

ليت خيلى يوم الحُجَنْدَة لم يهزم وغودرت فى المكرِّ سَلَيْبَا
تحضُرُّ الطيرُ مصرعَى وتروحت إلى الله فى الدماء خصيباً^(٢)

وكان عمال خراسان قبل سلم يغزون، فإذا دخل السّاء رجعوا إلى (مزوا الشاهجان)، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلي خوارزم، فيتعاقدون أن لا يغزو بعضهم بعضاً، ويتشاورون فى أمورهم. فلما قدم سلم غزاً فشتا فى تلك السنة، فالحّ عليه المهلب بن أبى صفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة، فوجهه فى ستة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا أن يصلحهم على أن يقدوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين ألف درهم، وكان فى صلحهم أن يأخذ منهم عروضاً، فكان يأخذ الرأس والدابة بنصف ثمنه، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف درهم^(٣)، وعاد سلم إلى (مرو) بعد جهاد هذه السنة الذى استمرّ ستى إحدى وستين الهجرية واثنين

(١) تاريخ بخارى للنرخى، ص (٦٥ - ٦٧) نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٢).

(٢) فتوح البلدان، ص (٥٨١)، الكامل فى التاريخ (٢/٥٨٤).

(٣) الكامل فى التاريخ (٢/٥٨٤).

وستين الهجرية، ويبدو أنه قطع النهر ثانية في سنة ثلاث وستين الهجرية^(١)، لأنه علم بأن الصُّغد قد جمعت له، فقاتلهم وقتل ملكهم^(٢)، ولكنه عاد مسرعاً إلى (مرو) ليعالج مشاكل المنطقة الداخلية، فقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم^(٣)، فقد مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، فبويع بعده معاوية بن يزيد بن معاوية فلم يمكث إلا ثلاثة أشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يوماً ثم مات^(٤)، وقيل غير ذلك، ولما بلغ سلم موت يزيد بن معاوية كتم ذلك، ولكن الخبر انتشر بين الناس في خراسان انتشار النار في الهشيم، فمثل هذا الخبر يستحيل كتمانها مدة طويلة، ولما علم سلم بانتشار خبر موت يزيد بين الناس، أظهر موت يزيد وابنه معاوية، ودعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثم نكثوا بعد شهرين، وكان سلم محسناً إليهم محبوباً فيهم، ولكن قسماً من القبائل العربية خلعوه عصبية وتعصباً وفتنة، فلم يجد أهل خراسان أميراً قد أحبهم مثل سلم بن زياد^(٥)، ولكن قائلهم قال: بش ما ظنَّ سلم، إن ظنَّ أنه يتأمر علينا في الجماعة والفتنة^(٦)، ووثب أهل خراسان بعمالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، ووقعت الحرب^(٧)، ونشب الاقتتال بين القبائل العربية، وأصبحت خراسان مناطق؛ في كل منطقة قائد وأمير، وتساقطت القتلى بين المسلمين بالسيوف، وتوقف الفتح وتوجه سلم إلى عبد الله ابن الزبير في مكة المكرمة^(٨).

سادساً : فتوحات السند في عهد معاوية :

تمكن المسلمون في عهد معاوية رضى الله عنه من بسط نفوذهم إلى ما وراء نهر السند، ففي سنة ٤٤ هـ غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بنة^(٩)، ولاهور،

(١) قادة الفتح الإسلامي، ص (١٥٢).

(٢) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٢).

(٤) الكامل في التاريخ (٢/٦٠٥).

(٥) المصدر نفسه (٢/٦٢٢).

(٦) فتوح البلدان، ص (٥٨٢).

(٧) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٣).

(٨) فتوح البلدان، ص (٥٨٢)، قادة الفتح الإسلامي، ص (١٥٤).

(٩) بنة: مدينة بكابل، ياقوت، معجم البلدان (٢/٥٠٠).

وهما بين المُلتان^(١)، وكابل، وأما في مستهل سنة ٤٥هـ فقد أرسل والى البصرة عبد الله بن عامر (عبد الله بن سوّار العبيدي) إلى ثغر السند على رأس حملة قوامها أربعة آلاف رجل، ولما وصل ابن سوّار إلى مدينة مكران، بقى هناك أربعة أشهر يعدّ نفسه وجنده للحملة المرتقبة. ثم تقدم وجماعته نحو بلاد القيقان^(٢)، وفتحها، وكانت هديته إلى معاوية رضى الله عنه خيلاً قيقانية^(٣) سلّمها بنفسه إليه في الشام، فأصل البرازين القيقانية من نسل تلك الخيول^(٤). وعلى أية حال، فلم يدم المقام لابن سوّار طويلاً في ثغر السند فقد قتلته جماعة من الترك هناك في سنة ٤٧هـ^(٥)، وفي سنة ٤٨هـ اختار زياد بن أبي سفيان سنان بن سلمة بن المُحبّق الهذلي ليكون والياً على الأقاليم المفتوحة من ثغر السند وما أن وصل سنان إلى هناك حتى تمكن من فتح مدينة مكران (عنوة) ومصرّها وأقام بها وضبط البلاد^(٦). ولكن سنان لم يمكث هناك سوى سنة أو سنتين ثم عزله زياد. وولى مكانه راشد ابن عمرو الأزدي، فأتى مكران ثم تقدم في بلاد القيقان، فظفر، ثم اتجه نحو الميد، فقتل هناك^(٧)، وبعد ذلك تولّى عباد بن زياد بن أبي سفيان أمر سجستان فقاد حملة توغل فيها في منطقة حوض نهر السند فتزلّ كس، ثم سار إلى قُنْدُهار^(٨)، فقاتل أهلها فهزّمهم، وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين^(٩)، وكان آخر الولاة الذين تولوا أمر الفتوحات في هذا الجزء هو المنذر بن الجارود العبدي أبو الأشعث والذي وصل ثغر السند معيّنًا عليه من قبل عبد الله بن زياد ابن أبي سفيان والى البصرة سنة ٦٢هـ، فقاد المنذر حملة ضد مدينة قُصْدَار^(١٠)، وتمكن من فتحها^(١١).

(١) المُلتان: مدينة من نواحي الهند قرب غزنة، أهلها مسلمون.

(٢) القيقان: بلاد قرب طبرستان، معجم البلدان (٤/٤٢٣).

(٣) فتوح البلدان، ص (٤٣٢).

(٤)، (٥) تاريخ خليفة، ص (٧٠٢)، خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي، ص (١٤٢).

(٦) فتوح البلدان، ص (٤٣٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (٤٣٢).

(٨) معجم البلدان (٤/٤٠٢).

(٩) فتوح البلدان، ص (٤٣٣).

(١٠) معجم البلدان (٤/٣٥٣).

(١١) فتوح البلدان، ص (٤٣٣)، خلافة معاوية للعقيلي، ص (١٤٣).

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والنوائد

فى فتوحات معاوية رضى الله عنه

أولاً : أثر الآيات والأحاديث فى نفوس المجاهدين :

كان للآيات والأحاديث التى تتحدث عن فضل الجهاد أثرها فى نفوس المجاهدين ، فقد بين المولى عز وجل أن حركات المجاهدين كلها يثاب عليها ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ ، ١٢١].

وقد تعلموا أن الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه ، قال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٩ - ٢٢].

واعتقدوا أن الجهاد فوز على كل حال ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥٢] ، وأن الشهيد لا تنقطع حياته بل هو حى ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

المؤمنين ﴿ آل عمران: ١٦٩ - ١٧١ ﴾. وكانوا يشعرون بسمو هدفهم الذى يقاتلون من أجله، قال تعالى: ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (٧٤) وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ (٧٥) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿ [النساء: ٧٤ - ٧٦].

وقد بين الرسول ﷺ للمسلمين فضل الجهاد فألهبت أحاديثه مشاعرهم وعواطفهم وفجرت طاقاتهم، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أى الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله»^(١)، وقد بين رسول الله ﷺ درجات المجاهدين فقال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»^(٢). وقد وضع ﷺ فضل الشهداء وكرامتهم فقال: «انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يُخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم اقتل ثم أحيا ثم اقتل»^(٣) وقال ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»^(٤). وغير ذلك من الأحاديث.

وقد تأثر المسلمون الأوائل ومن سار على نهجهم بهذه الآيات والأحاديث، فكان كبار الصحابة رضى الله عنهم يغزون وقد تقدم بهم العمر فيشفق عليهم الناس وينصحونهم بالقعود عن الغزو، لأنهم معذورون فيجيبونهم أن سورة التوبة تأبى عليهم القعود ويخافون على أنفسهم من النفاق إذا ما تخلفوا عن الغزو^(٥).

(٢) البخارى رقم (٢٧٩٠).

(٤) البخارى رقم (٢٨١٧).

(١) البخارى رقم (٢٧٨٦).

(٣) مسلم (١٤٩٧/٣).

(٥) الجهاد فى سبيل الله للقادري (١/١٤٥).

كما كان للعلماء والفقهاء والزهاد دور كبير في تربية الناس على هذه الآيات والأحاديث ومن هؤلاء العلماء كبار الصحابة كأبي أيوب الأنصاري، وابن عمر، وغيرهما ومن التابعين كأبي مسلم الخولاني، يرون أن الجهاد في سبيل الله ضرورة من ضرورات بقاء الأمة الإسلامية، فقاموا بهذه الفريضة في فتوحات بلاد الشام والشمال الأفريقي وخراسان وسجستان والسند، وترتب على قيامهم بهذه الفريضة ثمرات كثيرة منها: تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية، القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم، ظهور صدق الدعوة للناس الأمر الذي جعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً، فيزداد المسلمون بذلك عزاً والكفار ذلاً، وتوحدت صفوف المسلمين ضد أعدائهم وأسعدوا الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته^(١).

ثانياً: من سنن الله في فتوحات معاوية:

يلاحظ الباحث في دراسته للفتوحات في عهد معاوية بعض سنن الله في المجتمعات والشعوب والدول، ومن هذه السنن:

١ - سنة الله في الاتحاد والاجتماع: كانت الفتنة التي أدت إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه أكبر معوق أصاب حركة الفتوحات بعد الردة أيام أبي بكر رضى الله عنه، حيث أدى استشهاد عثمان إلى توقف الجهاد، واتجاه سيوف المسلمين إلى بعضهم في فتنة كادت تعصف بالأمة الإسلامية، لولا أن تداركتها رحمة الله - سبحانه - وتعالى - بصلح الحسن بن علي مع معاوية رضى الله عنهما، وقد امتلأت المصادر بالنصوص التي تبين أثر الفتنة في انحسار حركة الجهاد.^(٢) ومن هذه الآثار:

- عن الحسن بن علي رضى الله عنه أنه قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزله وأخلى بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء وقطعت فيها الأرحام وقطعت السبل، وعُطلت الفروج - يعنى الثغور -^(٣).

- ما أخرجه أبو زرعة الدمشقي بإسناده قال: لما قتل عثمان، واختلف الناس، لم تكن للناس غازية، ولا صائفة حتى اجتمعت الأمة على معاوية^(٤).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٣١٠).

(٤) مرويات خلافة معاوية، ص (٣١٠).

(١) الجهاد في سبيل الله (٢/٤١١ - ٤٨٢).

(٣) الطبقات: تحقيق السلمي (١/٣٣١).

- قول أبي بكر المالكى: فوَقعت الفتنة . . واستشهد عثمان رضى الله عنه، وولى بعده على رضى الله عنه، وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية رضى الله عنه^(١)، ولكن بعد الصلح وما ترتب عليه من الاتحاد والاجتماع عادت حركة الفتوحات إلى ما كانت عليه، وأصبحت فى عهد معاوية على ثلاث جبهات كما مر معنا . إن الاتحاد والاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله مقصد من مقاصد الشريعة، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله واستمرار حركة الفتوحات، فالأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جداً فى إعزاز المسلمين، وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم^(٢). فحركة الفتوحات بين الانطلاق والتوقف مرهون بتحقيق سنة الاتفاق والاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف والشقاق، قال تعالى:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٢ - سنة الأخذ بالأسباب: قال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد قام معاوية رضى الله عنه بالعمل بهذه الآية وحث ولاته على العمل بها، ويظهر أخذ معاوية رضى الله عنه بسنة الأخذ بالأسباب، فى اهتمامه ببناء الأسطول البحرى وتطويره، وتقوية الجيش، والقضاء على الفتن الداخلية، ودعم الثغور، وأماكن الرباط والتخطيط الاستراتيجى للدولة فى سياستها الداخلية والخارجية، والتكتيك العسكرى، فى نظام المعسكرات، ونظام الرباط والثغور، والصوائف والشواتى، وبناء الحصون، ونظام التعبئة، وتوطين القبائل، لنشر الإسلام وتثبيت الفتوحات والتصدي لحركات التمرد، فبعدما زال خطر الهجوم العسكرى من الفرس قام بتوطين عشرات الألوف من الأسر العربية فى الجناح الشرقى من الدولة خاصة خراسان، وقد نجحت هذه السياسة وآت ثمارها فى هذا الجناح^(٣).

(١) رياض النفوس (١/٢٧).

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، ص (٣٥٩).

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٩).

٣ - سنة التدافع: قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقد تحققت هذه السنة في حركة الفتوحات عموماً، وسنة التدافع من أهم سنن الله تعالى في كونه وخلقه، وهي من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية، وقد استوعب المسلمون الأوائل هذه السنة وعملوا بها وعلموا: أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضى به، وقلوب تحنو عليه وأعصاب ترتبط به. إنه يحتاج إلى جهد بشري، لأن هذه سنة الله في الحياة الدنيا وهي ماضية^(١).

٤ - سنة الابتلاء: قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقد وقع البلاء في حصار القسطنطينية، وتعرض الكثير من المسلمين للقتل، وفي فتوحات الشمال الإفريقي، واستشهاد القادة كعقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار، وغيرهما، فهذه سنة الله في العقائد والدعوات فلا بد من الأذى في الأموال والأنفس ولا بد من صبر، واعتزام^(٢).

٥ - سنة الله في الظلم والظالمين: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتِيْبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ - ١٠٢]. وسنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، وقد مارست الدولة الفارسية الظلم على رعاياها، وتمردت على منهج الله فمضت فيها سنة الله وسلط الله عليها المسلمين فأزالوها من الوجود^(٣)، وكذلك نفوذ الدولة البيزنطية من الشام ومصر، وتزعزع وجودها في الشمال الإفريقي، وما جاء عهد الوليد بن عبد الملك حتى زال نفوذها من الشمال الإفريقي كلياً.

(١) لقاء المؤمنين، عدنان النحوى (١١٧/٢).

(٢) تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين للصلابي، ص (٤٥٦).

(٣) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص (١١٩-١٢١).

٦ - سنة الله في المترفين: قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أى: متنعميها وجباريها وملوكها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكها، وإنما خص الله المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم أكد^(١)، وقد مضت هذه السنة فى زعماء الفرس وأئمتهم فى بلاد فارس وزعماء الروم فى الشام ومصر والشمال الإفريقى.

٧- سنة الله فى الطغيان والطغاة: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمُرْصَادٌ﴾ [الفجر: ١٤] والآية وعيد للعصاة مطلقاً، وقيل: وعيد للعصاة ووعيد لغيرهم^(٢). وفى تفسير القرطبى: أى يرصد كل إنسان حتى يجازيه به^(٣)، وواضح من أقوال المفسرين فى الآيات التى ذكرناها فى الفقرة السابقة أن سنة الله فى الطغاة إنزال العقاب بهم فى الدنيا، فهى سنة ماضية لا تتخلف، جرت على الطغاة السابقين وستجرى على الحاضرين والقادمين، فلن يفلت منهم أحد من عقاب الله^(٤). وسنة الله فى الطغاة وما ينزله الله بهم من عقاب فى الدنيا، إنما يعتبر بها من يخشى الله جلّ جلاله ويخاف عقابه، ويعلم أن سنة الله قانون ثابت لا يحابى أحداً، قال تعالى فى بيان المعتبرين بسنته فى الطغاة - بعد أن ذكر ما حلّ بفرعون من سوء عقاب -: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٢٥) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى** [النازعات: ٢٥، ٢٦]، فهؤلاء الطغاة من زعماء الفرس، وزعماء الروم فى مصر والشام مضت فىهم سنة الله.

٨ - سنة التدرج: خضعت الفتوحات الإسلامية لسنة التدرج، ويعتبر الحصار الأول والثانى للقسطنطينية مرحلة مبكرة لفتح القسطنطينية على عهد السلطان العثمانى محمد الفاتح، فالأعمال التى قام بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية قبل محمد الفاتح ساهمت فى عمل تراكمى توجّ بفتح القسطنطينية فى عهد العثمانيين.

(٢) السنن الإلهية، ص (١٩٣).

(١) تفسير الألوسى (٤٢/١٥).

(٤) السنن الإلهية، ص (١٩٤).

(٣) تفسير القرطبى نقلا عن السنن الإلهية، ص (١٩٣).

٩- سنة الله في الذنوب والسيئات: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقد أهلك الله تعالى أمة الفرس بسبب ذنوبهم التي اقترفوها، وأزال ملك الروم من مصر والشام وليبيا بسببها، وفي هذه الآية حقيقة ثابتة وسنة مطردة؛ أن الذنوب والمعاصي تهلك أصحابها، وأن الله تعالى هو الذى يهلك المذنبين بذنوبهم^(١)، وقد سلط الله أمة الإسلام على الفرس والروم عندما حققت شروط التمكين وعملت بسنته وأخذت بأسبابه وحققت أهدافه

١٠- سنة تغيير النفوس: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقد قام الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعون بإحسان فى فتوحات الشام ومصر والشمال الأفريقى وبلاد المشرق بالعمل بهذه السنة الربانية مع الشعوب التى أرادت أن تدخل فى دين الله. فشرعوا فى تربية الناس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فغرسوا فى نفوسهم العقائد الصحيحة والأفكار السليمة والأخلاق الرفيعة.

ثالثاً: التخطيط الاستراتيجى للفتوحات عند معاوية رضى الله عنه:

خضعت الفتوحات فى عهد معاوية للتخطيط الدقيق والمحكم، فقد كانت سياسته فى الفتوحات كالتى:

١- سياسته تجاه الروم:

فقد سلك الخطوات التالية:

أ- التركيز على عمليات الصوائف والشواتى، من أجل تحقيق عدة أهداف منها:

- استنزاف قوة الروم.

(١) السنن الإلهية، ص (٢١٠).

- انتزاع زمام المبادرة من الروم، وجعلهم فى حالة دفاع مستمر^(١).

- إرغام الروم على توزيع قواتهم بحيث لا يستطيعون القيام بهجمات حاسمة وقوية ضد الدولة الإسلامية^(٢).

ب- مهاجمة الروم فى عقر دارهم ومحاصرة عاصمتهم، وما يترتب على ذلك من إضعاف معنوياتهم، وقذف الرعب فى قلوبهم.

ج- تقليص النفوذ البحرى للروم عن طريق فتح الجزر الواقعة فى بحر الشام^(٣)، وما يترتب على ذلك من حرمان سفن الروم من قواعدها البحرية الهامة.

٢ - سياسته فى جبهة الشمال الإفريقى:

أ - أولى معاوية رضى الله عنه جبهة المغرب اهتماماً خاصاً تمثل بارتباط هذه الجبهة به شخصياً، حيث كان معاوية رضى الله عنه المرجع المباشر لقادة هذه الجبهة إلى سنة ٤٧هـ، وهى السنة التى ضُمت فيها جبهة المغرب إلى والى مصر^(٤).

ب - عمل معاوية رضى الله عنه على إقامة قاعدة جهادية متقدمة فى قلب بلاد المغرب، وقد قام عقبة بن نافع ببناء القيروان لكى تكون عزاً للإسلام والمسلمين.

٣ - سياسته فى جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر:

أ - استعانة معاوية رضى الله عنه بفتح سجستان وخراسان أيام عثمان رضى الله عنه، وهو عبد الله بن عامر رضى الله عنه، وتكليفه بإعادة فتحها مرة أخرى.

ب - العمل على تثبيت الحكم الإسلامى، ونشر دعوة الإسلام فى هذه المنطقة عن طريق إسكان خمسين ألفاً من العرب بعيالهم فى خراسان^(٥).

رابعاً: الشورى فى إدارة حركة الفتوحات:

عند انتقال الخلافة إلى معاوية رضى الله عنه كان مجلس الشورى لديه يتألف من كبار أعيان عصره وولاته ومعاونيه الذين يتصفون بالبلاغة والسياسة وحسن

(١) فن الحرب الإسلامى، بسام العسلى (١/٢٣٣). (٢) المصدر السابق (١/٢٣٣).

(٣) المصدر السابق (١/٢١١). (٤) ولاة مصر، ص (٦١)، النجوم الزاهرة (١/١٧٥).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٦٤، ٣٦٥).

التدبير فى أمور الإدارة العسكرية، وكان من هؤلاء عمرو بن العاص رضى الله عنه الذى كان مشهوراً بالصفات السابقة، مما جعل الخليفة معاوية يعتمد عليه كالوزير المدبر لدولته والمشير، ومنهم أيضاً زياد بن أبيه. ولم تكن الوزارة فى عهد بنى أمية مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، وكان ذوو الآراء من مستشارى الخليفة يقومون مقام الوزراء، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مشيراً^(١)، إضافة إلى ذلك كان الخليفة معاوية يعتمد فى إدارته العسكرية على مشورة قادة وأمرء القبائل وخصوصاً التى بالشام، فقد كان يقربهم ويدنى مجلسهم ويستشيرهم، وسار قادة معاوية بن أبى سفيان سيرته بمبدأ المشورة فى إدارتهم العسكرية للمعارك الحربية^(٢).

خامساً: مركزية القيادة والإمداد فى إدارة معاوية:

عندما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية أصبحت دمشق مقر الخلافة ومركز القيادة العليا للإدارة العسكرية، فكان الخليفة بها هو الذى يقرر السياسة الحربية كما كان مسئولاً عن الحرب والسلام، فكان التنظيم الإدارى العام للجيش أمراً من الأمور المركزية التى يشرف الخليفة مباشرة عليها^(٣)، وذلك بالرغم من وجود عمال الولايات والأقاليم الذين كان لهم مطلق السلطات التى منها قيادة الجيوش بأنفسهم، أو تعيين القادة المناسبين من قبلهم، ووضع الخطط لهم وإمدادهم وتموينهم، ومن أمثلة هؤلاء زياد بن أبيه وابنه عبيد الله^(٤)، فمن مركزية القيادة لإدارة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى تعيين القادة أنه كتب إلى واليه بالبصرة زياد بن أبيه يأمره أن يوجه إلى خراسان رجلاً يقوم بأمرها فولى زياد الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه، وكتب له عهده على خراسان وولاه حربها، وخارجها وسار إليها بمن يريد الجهاد فى سبيل الله، من المتطوعة من أهل البصرة، إضافة إلى الجند النظامى أصحاب الديوان، فوضع لهم الأرزاق، وأعطاهم وقواهم وسار لما أمر به^(٥). ومن مركزية القيادة العليا فى إدارة معاوية العسكرية تسيير الجيوش والإمدادات العسكرية لها، فنرى القائد علقمة بن يزيد

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٢٨٠).

(٢) الفتوح، لابن أعمش (١/ ٣٤٠)، الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٠).

(٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٣١٤). (٤) المصدر نفسه (١/ ٣١٤).

(٥) الفتوح لابن أعمش (٢/ ٣١٨).

الغطيفى كتب إليه قائلاً: إنك خلفتني بالإسكندرية وليس معى إلا اثنا عشر ألفاً ما يكاد بعضنا يرى بعض من القلة، فكتب إليه الخليفة معاوية: إنى قد أمددتك بعبد الله بن مطيع فى أربعة آلاف من أهل المدينة، وأمرت معن بن يزيد السلمى أن يكون بالرملة فى أربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم متى يبلغهم عنك فرع يعبروا إليك^(١).

سادساً: الألوية والرايات:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية تعددت الألوية والرايات فى إدارتهم العسكرية، كما تعددت ألوانها كاللون الأخضر والأحمر والأبيض، بالرغم من اتخاذهم اللون الأبيض شعاراً ورمزاً لخلافتهم^(٢)، فمنذ عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لا نرى جيشاً يخرج ويسير نحو العدو إلا ويعقد للقائه لواء أو راية تكون لهم شعاراً ورمزاً يسيرون خلفها ويذودون عنها، فنرى الواحد يصرع تلو الآخر وكل همه بقاءها منصوبة^(٣)، وكان القادة من الشجاعة والإقدام ما جعلهم يكونون أكفاء لحمل هذه الراية مثل عقبة بن نافع، والحكم بن عمرو الغفارى وفضالة بن عبيد الله، وقد جعل والى العراق من قبل الخليفة معاوية زياد بن أبىه خروج القبائل على الرايات، ويبدو أن الغاية من ذلك معرفة مدى جدية كل منها فى القتال والتزامها بالأوامر^(٤).

سابعاً: اهتمامه بالعيون والبريد:

كان اهتمام معاوية رضى الله عنه بأمر المخابرات وجمع المعلومات على الأعداء قديماً منذ كان أميراً على بلاد الشام وتطور جهاز المخابرات لما تولى الخلافة، وزاد اهتمامه به، ففى عهده أسر رجل من المسلمين بالقسطنطينية وأهين ببلاطهم فاستغاث وامعاويه: لقد أغفلت أمورنا وأضعفتنا. فوصل الخبر إليه عن طريق جواسيسه المتواجدين بأرض الروم، فقام بفدائه وبأسر من أهانه، وجعل المسلم يقتص منه بمثل ما أهانه، وأن لا يزيد. وهذا دليل على مدى دقة نظام المخابرات فى إدارته^(٥). ولقد ذكرت القصة فيما مضى بالتفصيل، كما قام الخليفة رضى الله

(١) فتوح مصر، ص (١٩٢)، الخطط للمقريزى (٢٦٨/١).

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٣٦٨/١).

(٣) المصدر نفسه (٣٦٨/١).

(٤) تنظيمات الجيش للجنايى، ص (٢٢٧)، الإدارة العسكرية (٣٦٩/١).

(٥) نهاية الأرب (١٥٨/٦)، الإدارة العسكرية (٤٠٥/١).

عنه بفرض رقابة دقيقة ومحكمة على أفراد الحاميات وأسرههم وعين موظفًا في كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين حتى لا يتسلل عين للعدو إلى أرض المسلمين فيتعرفوا على مواقع معسكراتهم ونقاط الضعف بها إن وجدت^(١). وفي إدارته أنشأ ديوان البريد واعتنى به عناية فائقة وذلك لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها بما في ذلك أخبار الثغور، ولم يكن للبريد ديوان قبل ذلك^(٢)، وأما علاقة صاحب البريد بالإدارة العسكرية فقد كان عبارة عن عين الخليفة الباصرة وأذنه السامعة، ينقل إليه أخبار عماله وقادته وسائر رجال دولته فكان له عيون يوافونه بكل جديد كما كان البريد واسطة بين الولاة والخلفاء والقادة لنقل الأوامر العسكرية. وكان أصحاب البريد رقباء ومفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند في مختلف حالات القتال وفي كل الظروف والأوقات، ويخبرونه بحال المال والعتاء وذلك أنه يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطلع ما يجرى فيه ويكتب بما يقف عليه من الحال في وقته، إضافة إلى ذلك كان من واجبات صاحب البريد مساعدة الإدارة العسكرية في التموين والإمداد وحفظ الطرق وصيانتها من الأعداء وانسلاخ الجواسيس في البر والبحر، وإليه كانت ترد كتب أصحاب الثغور وولاة الأطراف فيقوم بتوصيلها بوجه السرعة من اختصار للطرق واختيار المراكب لمعرفة بالطرق والمسالك إلى جميع النواحي. وكان الخليفة يجد عنده ما يحتاج إليه من المعرفة عند إنفاذ جيش وغيره وقت الحاجة إلى ما هنالك من مهام قام البريد بتأديتها في الإدارة العسكرية^(٣)، على الجملة كان يقال للبريد جناح المسلمين لما كان يطير به من الأخبار^(٤).

ثامناً: اهتمام معاوية بالحدود البرية للدولة:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية زاد الاهتمام والاعتناء بهذه التحصينات لحماية الحدود الإسلامية، وبخاصة إذا علمنا أن المؤسس الأول للدولة الأموية معاوية رضى الله عنه قد قام بتولى حملات الصوائف والشواتي بنفسه حين كان قائداً

(٢) خطط الشام، محمد كرد (١٩/٥).

(١) الجندية للدقوقي، ص (١٧٧).

(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٤٠٦/١).

(٤) ثمار القلوب للثعالبي، ص (٢٤١)، الإدارة العسكرية (٤٠٧/١).

ووالياً للخليفتين عمر وعثمان رضى الله عنهما ، كما أسند إليه فى خلافتيهما إنشاء وترميم بعض الحصون الدفاعية على الحدود الإسلامية كما سبق وأشرنا مما جعله ملماً بهذه الثغور والتحصينات ، فاستكمل ما بدأه حين استقرت بيده الخلافة ، فقام ببناء وتحصين مرعش والحدث من ثغور الجزيرة وأسكنها الجند وكان يتعهدهما باستمرار^(١) ، واتخذ معاوية رضى الله عنه لتحصين المدن الساحلية سياسة التهجير أو النواقل ؛ بنقل قوم من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها ، ونقل من الزط وأساوره البصرة والكوفة وفرس وبعلبك وحمص إلى ثغر أنطاكية^(٢) ، وولى القائد عبد العزيز بن حاتم الباهلى أرمينية وأذربيجان فبنى مدينة ديبيل^(٣) ، وعمل عدة تحصينات دفاعية كما بنى مدينة النشوى^(٤) ورم مدينة بردعة^(٥) ، وجدد بناء البيلقان^(٦) ، إلى ما هنالك من تحصينات دفاعية قام بإنشائها^(٧) ، كما قلد الوالى زياد بن أبيه القائد الربيع بن زياد الحارثى^(٨) ثغر خراسان وأرسل معه من المصرين (الكوفة - البصرة) زهاء خمسين ألفاً من الجند بعيالاتهم ، وأسكنهم ما دون النهر لحماية حدود الدولة الإسلامية هنالك^(٩) ويظهر لنا اهتمام زياد بأمر الثغور فى قوله لحاجبه: وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع وذكر منها: ورسول صاحب ثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله على وإن كنت فى لحافى^(١٠) ، وسأل زياد جلساءه عن أنعم الناس عيشاً؟ فأجابوه قائلين: أنت أيها الأمير ، فقال: فأين ما يرد على من الثغور والخراج^(١١) . وهذا يبين مدى ما كان يلقاه زياد من عناء الثغور فى إدارتها والإشراف على أمرها لحفظها وسدها . ومما أثر عن زياد أيضاً قوله: أربعة أعمال لا يليها إلا المسن الذى عض على

(١) الإدارة العسكرية (٤٧٣/٢) .

(٢) كان ذلك فى عام ٤٢هـ ، فتوح البلدان (١٣٩/١) . (٣) مدينة بأرمينية تناخم إيران ، كانت ثغراً .

(٤) النشوى: مدينة بأذربيجان ، معجم البلدان (٢٨٦/٥) .

(٥) بردعة: فى أقصى أذربيجان ، معجم البلدان (٣٧٩/١) .

(٦) بيلقان: فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان ، معجم البلدان (٥٣٣/١) .

(٧) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٤٧٤/٢) . (٨) المصدر نفسه (٤٧٤/٢) .

(٩) كان ذلك سنة ٥١هـ ، الإدارة العسكرية (٤٧٤/٢) .

(١٠) الأوائل للعسكرى نقلاً عن الإدارة العسكرية (٤٧٥/٢) .

(١١) المحاسن والمساوىء ، ص (٢٦٩) .

ناجذه: الثغر والصائفة والشرط والقضاء^(١)، وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه فى إدارته لثغر مصر من قبل معاوية لا يحمل له من الخراج إلا الشئ اليسير وينفق جل الأموال على التحصينات وعطاء الجند المرابطين بالثغر^(٢)، واهتم معاوية بأمر الصوائف والشواتى حيث كانت تخرج فى كل عام فى وقتها المحدد لها لأداء مهمتها المنوطة بها، وكان يختار لها كبار القواد والأمراء، وكانوا يتمنون إدارتها ويعدون ذلك شرفاً وفخراً لهم، فمن ذلك قول الخليفة معاوية لابنه يزيد: يا بنى إن أمير المؤمنين قد بسط أملك فاذكر حاجتك فطلب منه مطالب كان أولها قوله: يجعل أمير المؤمنين غزو الصائفة العام إلى لأفتح أمرى بتجهيز الجيوش فى سبيل الله^(٣)، ومن أبرز الولاة والقادة الذين تولوا إدارة حملات الصوائف والشواتى فى عهد معاوية لعدة مرات هم سفيان بن عوف الغامدى الأزدي، ومالك بن هبيرة السكونى^(٤)، وكان أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه قبل أن يعين القادة على هذه الحملات يجرى لهم اختباراً لمعرفة مدى حصافة القائد الإدارية، ومن الذين كان يعتمد عليهم من قاداته سفيان بن عوف الغامدى لخبرته الإدارية وقد توفى وهو بالصائفة يدير أعمالها، وحين بلغ الخبر معاوية تأثر وكتب إلى أمصار وأجناد المسلمين ينعاه، وكان معاوية إذا رأى خللاً فى الصوائف قال: واسفياناه ولا سفيان لى^(٥)، وكان معاوية رضى الله عنه لا يقصر فى اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية حدود وأراضى الدولة الإسلامية والدفاع عنها^(٦).

تاسعاً : اهتمام معاوية بالأسطول والحدود البحرية:

عندما قامت الدولة الأموية استكمل معاوية رضى الله عنه ما بدأه فى بناء القوة البحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية بإقامة المراكب للغزو إلى جانب ترتيب الحفظة فى السواحل مما استولى عليه المسلمون من قواعد ومنشآت بحرية، وعندما خرجت الروم فى عهده إلى السواحل الشامية أمر بجمع الصنائع من النجارين

(١) تاريخ اليعقوبى، الإدارة العسكرية (٤٧٥/٢).

(٢) فتوح مصر، ص (١٠٢).

(٣) أبناء نجباء الأبناء، ص (١٠٦) لابن ظفر المالكي، الإدارة العسكرية (٤٧٦/٢).

(٤) الإدارة العسكرية (٤٧٧/٢)، الإصابة (٢٣٧/٣).

(٥) تهذيب تاريخ دمشق (١٨٥/٦)، الإدارة العسكرية (٤٧٧/٢).

(٦) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٤٧٨/٢).

فَجُمِعُوا، ورتبهم في السواحل الشامية وجعل مقر دار صناعة السفن في جند الأردن بعكا. وكما هو معلوم أن بلاد الشام غنية بالأخشاب التي تعتبر من أجزاء السفن الأساسية يومئذ^(١)، كما أنشأ الخليفة معاوية أول دار صناعة للأساطيل لإنتاج السفن الحربية المختلفة بمصر سنة ٥٤ هـ في عهد واليها مسلمة بن مخلد الأنصاري، وكان مقرها بجزيرة الروضة، لذا عرفت باسم صناعة الروضة^(٢)، وكان قادة بحرية الخليفة معاوية ذوى خبرة وفن ببناء السفن الحربية، فقد كلف أحدهم بمهمة عسكرية نحو الروم وطلب منه قائلاً: أشيء مركباً يكون له مجاديف في جوفه واستعمله للسفر إلى بلاد الروم^(٣)، أى بعمل فتحات جانبية للمجاديف^(٤)، وبلغت السفن الحربية في عهد معاوية رضى الله عنه نحواً من ألف وسبعمائة سفينة شراعية مشحونة بالرجال والسلاح وجميع العتاد، والمستلزمات القتالية البحرية^(٥)، وبذلك نجد أن معاوية رضى الله عنه قد أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام ومصر لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد هذا الأسطول الإسلامى الذى يحافظ على الحدود البحرية ويغزو سواحل الروم الحين بعد الحين حتى يرتدع العدو ويحسب لهم ألف حساب^(٦)، وأخذ الأسطول الإسلامى فى عهد معاوية فى فتح الجزر الواقعة بالبحر المتوسط الواحدة تلو الأخرى والتي منها جزيرة رودس^(٧)، بقيادة القائد جنادة بن أمية الزهرانى الأزدى^(٨)، حيث فتحها - كما مر معنا - عنوة وكانت غيضة فى البحر وهى من أخصب الجزائر بالمنطقة وأنزلها قوماً من المسلمين بأمر الإدارة العليا المركزية، واتخذ بها حصناً وناظوراً يحذرهم ما فى البحر ممن يريدهم بكيد، وكان المسلمون بها على حذرٍ من الروم، وكان الخليفة معاوية يعاقب بين الجند فيها ولم يجرمهم وأدر عليهم الأرزاق والعطاء، وكان الجند المقيمون بها أشد شىء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم

(١) الإدارة العسكرية (٤٧٨/٢).

(٢) حسن المحاضرة (٣٧٨/٢) للسيوطى، الإدارة العسكرية (٥٤٣/٢).

(٣) نهاية الأرب (١٨٦/٦). (٤) الإدارة العسكرية (٥٤٤/٢).

(٥) خطط الشام (٣٧/٥) محمد كرد على.

(٦) الحدود الإسلامىة لبيزنطة (٢٣٧/١) فتحى عثمان.

(٧) رودس: جزيرة ببلاد الروم مقابل الإسكندرية.

(٨) الاستيعاب (٢٤٣/١)، الأعلام للزركلى (١٤٠/٢).

وقد خافهم العدو^(١). واستمر في فتح الجزر وشحنها بالجند المرابطين وأصبحت قواعد بحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية^(٢)، وأخذت حملات الصوائف والشواتى البحرية تجوب البحر وتمخر في عبابه في عهد معاوية رضى الله عنه وتسير جنباً إلى جنب مع شقيققتها الحملات البرية حيث كانت تخرج من مصر والشام لتحمى سواحل المنطقة البحرية وتولى قيادتها كبار القادة المشهورين كالقائد يزيد بن شجرة الرهاوى، وموسى بن نصير، وبسر بن أبى أرطاة العامرى، وجنادة ابن أمية الزهرانى، وعقبة بن عامر وغيرهم من القادة، وسار خلفاء بنى أمية من بعد الخليفة معاوية على سنته وأصبح الأسطول الإسلامى فى نمو مطرد وأكثروا من إنشاء سفنه وتفتنوا فى إتقانه وجهزوه بالأدوات والمعدات الملاحية والقتالية، ورتبوا عليه الجند والقواد وزودوه بالتموين اللازم والأرزاق، وظلت صوائفه وشواتيه تعلق الروم فى كل عام وتهدد سواحلهم وحدودهم البحرية^(٣).

عاشراً : الاهتمام بديوان الجند والعطاء:

استمر ديوان الجند فى أداء مهامه المناطة به، وحدث به تطور بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة الدولة الإسلامية فقد أصبح ديوان الجند مؤسسة كبيرة حظيت باهتمام الخلفاء وولاتهم ومر بعدة مراحل تطويرية خلال هذه الفترة، فعندما تولى معاوية رضى الله عنه الخلافة تقاعس بعض الجند عن الحرب فى بداية إدارته العسكرية إثر الفتن والصراعات الداخلية، فتمكن بحسن إدارته ودهائه بالإغلاق عليهم فى العطاء حتى تمكن مرة أخرى من إلزامهم مرة أخرى بالجندية وتأليف القلوب^(٤)، وقرب إليه زعماء القبائل وقد بلغ عدد الجند النظامى الذين يتسلمون العطاء فى بداية العصر الأموى نحواً من ثمانين ألف جندي بالبصرة، وستين ألفاً بالكوفة، وأربعين ألفاً بمصر، وبالشام نحواً من ذلك، هذا سوى من فى باقى الأقاليم الأخرى من جند كفارس وما وراء النهر وغيرهما من الأقاليم وأمصار الدولة الإسلامية^(٥)، كما كان بالكوفة من أبناء العجم زهاء عشرين ألف

(١) النجوم الزاهرة (١/١٤٤)، الإدارة العسكرية (٢/٥٤٥).

(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/٥٤٥).

(٣) المصدر نفسه (٢/٥٤٦). (٤) المصدر نفسه (٢/٦٤٣).

(٥) فتوح البلدان، ص (١٠٢)، الإدارة العسكرية (٢/٦٤٤).

رجل فرض لهم وكانوا يسمون الحمراء^(١)، وبالْبصرة ألفا رجل من سبى بخارى كلهم جيد الرمي بالنشاب، فقد ألحقهم الخليفة معاوية بالخدمة العسكرية وفرض لهم العطاء، وقد ولى كتابة الجند فى إدارة الخليفة معاوية المركزية بدمشق عمرو بن سعيد بن العاص، هذا بالإضافة إلى دواوين الجند المحلية بالأقاليم الإسلامية المحلية الأخرى التى تتحمل مهام الإدارة العسكرية المحلية^(٢)، وظل دور أمر العرفاء والنقباء سائراً ومستمراً كما كان فى السابق، وذلك لاعتماد الإدارة عليهم فى الشؤون العسكرية والمالية وبخاصة فى توزيع العطاء، على الجند، فقد كان الخليفة معاوية يدفع إلى العرفاء العطاء وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها إليهم^(٣)، هذا مع ما يقومون به من التعرف على أحوال الجند وأخبارهم ورفع التقارير عنهم للإدارة العليا^(٤)، وقد طور زياد الهيكل التنظيمى العسكرى للعرفاء، فجعل الناس فى البصرة أحماساً وجعل على كل خمسة رجلاً، كما جعل فى الكوفة أربعاً على قيادة عشرة جنود فى القتال، بل أصبحوا مسئولين عن النواحي الأمنية ومشرى الشغب والفتن والقلاقل داخل قبائلهم ومعسكراتهم، فكانوا حلقة الاتصال فى الإدارة العسكرية بين القبائل العربية فى الأمصار الإسلامية وبين السلطات الإدارية للدولة فيما يختص بتثبيت أسماء الجند فى الدواوين وتوزيع العطاء عليهم واستدعائهم عند الحاجة، وقد حل أولئك العرفاء فى القوة والنفوذ محل رؤساء القبائل والعشائر، وكان اختيارهم يتم من بين ذوى النفوذ ليستطيعوا أداء واجباتهم تجاه الإدارة العسكرية^(٥). ومثال على ذلك ما قام به زياد حيث خطب فى أهل البصرة وهددهم بقطع العطاء إذا لم يكفوه الخوارج حيث قال: يا أهل البصرة والله لتكفنتى هؤلاء أو لأبدأن بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوه^(٦). كما استخدمت الزيادة فى العطاء للقادة والجند المتجاوبين والمنفذين للأوامر تشجيعاً

(١) الأخبار الطوال، ص (٢٢٨) نقلاً عن الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/٦٤٤).

(٢) التراتيب الإدارية (١/٢٢٩)، الإدارة العسكرية (٢/٦٤٤).

(٣) نسب قريش، ص (١٥٤)، الإدارة العسكرية (٢/٦٤٥).

(٤) خطط الشام (٥/٧).

(٥) تنظيمات الجيش، ص (٢٢٣)، الإدارة العسكرية (٢/٦٤٦).

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/٦٤٦).

وحنًا لهم على المضى قدماً فى مهامهم ومناصبهم العسكرية المسئولين عنها^(١)، كما فعل معاوية مع أشرف أهل الشام.

الحادى عشر: الأثر العلمى والاقتصادى والاجتماعى للفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه:

ومن الظواهر العلمية التى زادت ازدهاراً فى عهد معاوية طائفة القصاص، وقد كانوا ينتشرون بين الجند كالقراء يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ويلقون عليهم الشعر الحماسى، فتجيش له همم العسكر فيسارعون للقتال، وقد كان الخطباء والوعاظ يقومون بنفس المهمة كما يقوم بها القراء والقصاص والشعراء لينشروا فى الجند روح الفداء ويرفعوا من روحهم المعنوية القتالية^(٢)، وسلك الخليفة معاوية فى وصاياه وتوجيهاته العلمية للأمرء والقادة والجند على منوال من سبقه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، فعندما عين عبيد الله بن زياد على ثغر خراسان كان من نماذج وصاياه قوله: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئاً^(٣). . وقد سبق الحديث عن وصيته لعبيد الله، ومن الآثار العلمية للحضارة الإسلامية فى عهد معاوية أنه حينما فتح جزيرة رودس كان ممن اشترك فى فتحها مجاهد بن جبر المقرئ، فكان مقيماً بها يقرئ الناس القرآن ويفقههم فى الدين فى المسجد الذى بنى فيها أثناء الفتح، وهذا أنموذج ومثال من ألوف النماذج والأمثلة حيث إن هذا الأثر العلمى لا يقتصر على جزيرة رودس بل شمل كافة الأمصار والشعوب الإسلامية^(٤).

ومن الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفتوحات أن والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه وغيره من الولاة فى عهد معاوية رضى الله عنه كانوا يبعثون إليه بأموال الخراج بعد أن يستقطعوا منها ما ينفق على الأراضى الزراعية بمصر لاستصلاحها من الخلجان والقناطر والجسور، وحملا القمح إلى الحجاز لتفريقه وتوزيعه على سكان الحرمين الشريفين، كمعونة لهم^(٥)، وكان بالجزيرة مكان الروضة قبل أن تبنى بها دار صناعة السفن فى عهد معاوية خمسمائة عامل

(١) المحاسن والمساوىء، ص (٤٦٤)، الإدارة العسكرية (٢/٤٦٧).

(٢) الفن الحربى، ص (١١٧)، نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/٧١٨).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/٢١٣). . (٤) الإدارة العسكرية (٢/٧١٩).

(٥) فتوح مصر، ص (١٠٢)، حسن المحاضرة (١/١٥١).

مستعد لأي حريق يكون في البلاد أو هدم للإعانة في الكوارث وتقديم الخدمات الاجتماعية لأهل المنطقة^(١). ومن التكافل الاجتماعي في عهد معاوية مراعاته لأبناء الشهداء في إدارته ورعاية شئونهم والفرص لهم^(٢)، فقد كان يقول لجلسائه: يا هؤلاء، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم على من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: أفرضوا لولده^(٣)، وعندما أذن معاوية رضى الله عنه لعبد الله بن صفوان بن أمية بالدخول عليه والمثول بين يديه طلب من معاوية أن يفرض للمنتظعين من ديوان العطاء، كما ذكره بأن لا يغفل عن قواعد قريش والبر إليهم، وأن يقدم لهم الخدمات الاقتصادية والاجتماعية التي تكفل لهم الحياة الرغدة^(٤). ومن الآثار الحضارية للفتوحات في النواحي الاقتصادية والاجتماعية استمرارية معاوية في توطین الجند بالثغور وإقطاعهم القطائع والأراضى والمساكن بها وشقه للأنهار وجلبه للمياه. فقد أمر عسكره المقيم بجزيرة رودس بأن يزرعوا ويتخذوا بها أموالاً ومواشى يرعونها حولها^(٥).

الثاني عشر: كرامات للمجاهدين في عهد معاوية رضى الله عنه:

حدثت كرامات للمجاهدين في عهد معاوية رضى الله عنه منها ما كان لأبي مسلم الخولاني والتي مرّ ذكرها، وما حدث لعقبة رحمهما الله، حينما نادى الوحوش والدواب وطلب منها الرحيل، فرحلت بإذن الله تعالى حيث قال: فارحلوا عنّا فإنّا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعجَب، من أن السباع تخرج من الشّعراء^(٦) وهى تحمل أشبالها سمعاً وطاعة، والذئب جرّوه، والحية تحمل أولادها. ونادى فى الناس: كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها، فخرج ما فيها من الوحش والسباع والهوام والناس ينظرون إليها، حتى أوجعهم حرُّ الشمس، فلمّا لم يروا منها شيئاً، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل إفريقية - بالقيروان - بعد ذلك أربعين عاماً لا يرون بها

(١) حسن المحاضرة (٢/٣٧٨)، الإدارة العسكرية (٢/٧٧٣).

(٢)، (٣) مروج الذهب (٣/٣٩، ٤٠)، الإدارة العسكرية (٢/٧٧٤).

(٤) نسب قريش، ص (٣٨٩)، الإدارة العسكرية (٢/٧٧٤).

(٥) الفتوح لابن أعمش (١/٣٥٤)، الإدارة العسكرية (٢/٧٧٥).

(٦) أى من الشجر.

حية، ولا عقرباً، ولا سبُعاً. فاخترت عقبة أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاخترته، ولم يحدث فيه بناء. وكان يصلى فيه وهو كذلك، فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، فأجهد نفسك في تقويمها، فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس، فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً، فدعا الله - عز وجل - أن يُفرج عنه، فأتاه آت في منامه فقال له: إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك، واجعله على عنقك. فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك، فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به، فاستيقظ من منامه وهو جزع، فتوضأ للصلاة، وأخذ يصلى وهو فى المسجد ومعه أشرف الناس، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أن الأمر من عند الله، فأخذ اللواء فوضعه على عنقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فركز اللواء وقال: هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة، ثم أخذ الناس إليها المطايا من كل أفق وعظم قدرها. . وكان عقبة خيراً وال خير أمير، مستجاب الدعوة^(١).

وفى هذه القصة عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أوليائه لما يريد بهم نصر الإسلام ونشره فى الأرض، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع فى قلوبها الخوف منه، وقدّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك وقد رأى ذلك قبيل كبير من البربر فاسلموا، كما ذكر ابن الأثير فى روايته^(٢).

هذا وقد حمل بعض الباحثين هذا الخبر على أنه من الأساطير التى نسجها الرواة حول عقبة، وعللوا هذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج

(١) البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب (١٩/١ - ٢١)، الكامل فى التاريخ (٢/٤٨٤)، فتوح مصر، ص (١٣٣) والقصة صحيحة الإسناد.

(٢) فتوح مصر، ص (١٣٣)، التاريخ الإسلامى (١٣/٢٤٩).

الجيش الإسلامى فحملت أولادها وولت هاربة، وهذا التأويل من عجائب بعض الباحثين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردّ ما لا يؤمن به العقل المجرد، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة فى حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذى اعتمده لا ينسجم مع العقل السليم، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفرع تأوى إلى جحورها الآمنة لتستخفى بها ولا تلجأ إلى الهرب حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادى وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك ما يدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذى حملهم على الدخول فى الإسلام من أجل ذلك، ولم يكن فى ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة.

وقد جاء فى إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثنى زياد بن العجلان: إن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمتت حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت^(١)، وعبرة أخرى فى تلك الرؤيا التى رآها عقبة بن نافع فى أمر تحديد القبلة وما تلا ذلك من سماعه التكبير الذى لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولى الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التى تظهر فيها الكرامات على أيدي أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة، فاستجاب الله تعالى دعاءه فى تفريج همه وهموم المسلمين فى هذا الأمر^(٢). وأهل السنة والجماعة يشبّون الكرامات للصالحين، فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ^(٣)، فيفعلون ما أمر الله به ويتتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التى يكرم الله بها أولياءه المتقين لحاجة فى الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ وما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد

(١) فتوح مصر، ص (١٣٣)، التاريخ الإسلامى (٢٤٩/١٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧٤/١١).

(٢) التاريخ الإسلامى (٢٤٩/١٣).

تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوى إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة^(١). ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء^(٢).

الثالث عشر: قسمة الحكم بن عمرو الغفاري للغنائم في غزو جبل الأسل بخراسان:

عن عبد الرحمن بن صبيح، قال: كنت مع الحكم بن عمرو بخراسان، فكتب زياد إلى عمرو، إن أهل جبل الأشل سلاحهم اللبود^(٣)، وأتيهم الذهب^(٤)، فغزاهم حتى تواسطوا، فأخذوا بالشعاب والطرق، فأحدقوا به، فعي^(٥) بالأمر فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أخذ عظيمًا من عظمائهم، فقال له: اختر بين أن أقتلك، وبين أن تخرجنا من هذا المضيق، قال له: أوقد النار حيال الطريق لتسلكوه فإنهم يستجمعون لكم، ويعرون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى غيره، فإنهم لا يدركونك حتى تخرج منه، ففعلوا ذلك، فنجا وغنموا غنيمة عظيمة^(٦)، وعن عبد الرحمن بن صبيح قال: كتب إليه زياد: والله لئن بقيت لك لأقطعن منك طابقًا سحتًا^(٧)، وذلك أن زيادًا كتب إليه لما ورد بالخبر عليه بما غنم: إن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفى له صفراء وبيضاء^(٨)، والروائع^(٩)، فلا تحركن شيئًا حتى تخرج ذلك، فكتب إليه الحكم: أما بعد، فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع، ولا تحركن شيئًا، فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقًا^(١٠) على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجًا، وقال

(١) مجموع الفتاوى (٢٨٣/١١).

(٢) الانحرافات العقديّة والعلمية (٥٠٨/١).

(٣) اللبود: هو الالتصاق بالأرض: أي يكمنون لعدوهم.

(٤) وهذا دلالة على غناهم وثرانهم.

(٥) عي، وعي: عجز، القاموس المحيط (١٦٩٧).

(٦) الكامل في التاريخ (٤٧٦/٢).

(٧) لأقطعن منك طابقًا سحتًا: أي لأستأصلن ما خبث من كسبك.

(٨) الصفراء والبيضاء: هما الذهب والفضة.

(٩) الروائع: المقصود بها في هذا المقام، ما أعجبك وسرك من الغنائم.

(١٠) الرتق: ضد الفتق، وهو الالتحام، لسان العرب (١١٤/١٠).

للناس: اغدوا على غنائمكم، فغدا الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم، قال: فقال الحكم: اللهم إن كان لى عندك خير فاقبضنى، فمات بخراسان بمرو^(١). إن خبر قسمة الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه الغنائم بين أفراد جيشه ذكره ابن عبد البر^(٢)، وابن الجوزى^(٣)، وابن الأثير^(٤)، وابن كثير^(٥)، وتتفق هذه المصادر حول طلب معاوية رضى الله عنه اصطفاء الذهب والفضة وعدم قسمتها بين الجيش - لكنها لم تورد هذا الخبر بأسانيد صحيحة - وزاد ابن كثير أن معاوية رضى الله عنه طلب أن يرسل الذهب والفضة إلى بيت المال^(٦)، وهنا يجدر التذكير بأن مصارف الغنيمة فى الإسلام قد بينها الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وهذا يعنى أن أربعة أخماس الغنيمة يقسم بين الجيش، ويبقى خمس الغنيمة فيقسم كما ورد فى الآية السابقة، وهذا الحكم لا يخفى على معاوية رضى الله عنه، كما أن دين معاوية وعدالته تمنعه من رد حكم الله سبحانه وتعالى^(٧)، وبالرجوع إلى رواية الطبرى نلاحظ أن الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه لم يبادر إلى قسمة الغنائم بين الجيش على الفور - مع وضوح حكم الشرع فى ذلك - بل دارت بينه وبين زياد مراسلات فى شأن الغنائم، وهذا التأخير فى قسمة الغنائم يقودنا إلى عدة احتمالات يمكن من خلالها إزالة الغموض الوارد فى الرواية وهذه الاحتمالات هى:

١ - رغبة معاوية رضى الله عنه فى أن يكون خمس الغنيمة - الذى يتولى إمام المسلمين قسمته من الذهب والفضة.

٢ - رغبة معاوية رضى الله عنه فى حمل ما غنم المسلمون من ذهب وفضة - قبل تخميسه وقسمته - إلى الهند وبيعه هناك^(٨) بقيمة مرتفعة ثم يخمس ثمنه بعد ذلك، وفى ذلك خير للجميع^(٩).

(٢) الاستيعاب (١/٣٥٧).

(٤) الكامل فى التاريخ (٢/٤٧٦).

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٦٧).

(٣) المنتظم (٥/٢٣٠).

(٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/٢١٧).

(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥١، ٣٥٢) هذه الفقرة كلها من هذا الكتاب القيم .

(٨) ذكر الدكتور خالد الغيث - حفظه الله - مبحثاً مهماً فى مسألة الغنائم والحكم بن عمرو الغفارى فنقلته

منه، انظر: مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥٢).

(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥٢).

٣ - وجود نقصٍ طارئٍ في بيت مال المسلمين، فأراد معاوية رضى الله عنه أن يقترض ما غنمه جيش الحكم رضى الله عنه إلى أجل معلوم، وتأخير قسمة الغنائم بين الجيش إلى وقت لاحق^(١).

ومن الدروس المهمة إن ثبتت الرواية التزام الحكم بن عمرو الغفارى بمبدأ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وتمسكه بأداء الأمانة في قسمة الغنائم، ولم يغفل منها شيئاً ووزعها على العسكر بعد أن عزل الخمس^(٢).

هذه أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد معاوية.

الرابع عشر : استشهاد صلة بن أشيم وابنه بسجستان عام ٦٢ هـ:

صلة بن أشيم هو الزاهد، العابد، القدوة، أبو الصهباء العدوى البصرى، زوج العالمة معاذة العدوية، وكانت لصلة مواقف في المجتمع الإسلامى مؤثرة، ومن هذه المواقف: عن ثابت قال: جاء رجل إلى صلة بنعى أخيه، فقال له: ادن فكل، فقد نعى إلى أخى منذ حين، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وكان صلة له كرامات منها، عن حماد بن جعفر بن زياد أن أباه أخبره، قال: خرجنا في غزاة إلى كابل، وفي الجيش صلة، فنزلوا فقلت: لأرْمُقَنَّ عمله، فصلّى ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، ثم وثب، فدخل غِيضَةً، فدخلت فتوضأ وصلّى، ثم جاء أسد حتى دنا منه، فصعدت شجرة، أفتراه التفت إليه حتى سجد؟ فقلت: الآن يفتسه فلا شيء، فجلس ثم سلّم، فقال: يا سبيع اطلب الرزق بمكان آخر، فولى وإن له زئيراً أقول: تصدّع منه الجبل فلما كان الصبح جلس، فحمد الله بحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إنى أسألك أن تُجبرنى من النار، أو مثلى يَجْتَرِيُّ أن يسألك الجنة^(٣)، وعن العلاء بن هلال، أن رجلاً قال لصلة: يا أبا الصهباء رأيت أنى أعطيت شهادة، وأعطيت شهادتين فقال: تستشهد وأنا وابنى، فلما كان يوم يزيد بن زياد، لقيتهم الترك بسجستان،

(٢) المصدر نفسه، ص (٣٥٢).

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٣٥٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٩٩/٣).

فانهزموا. وقال صلة: يا بُنىَّ أرجع إلى أمك. قال: يا أبة، تريد الخير لنفسك، وتأمرنى بالرجوع! قال: فتقدم، فتقدم، فقاتل حتى أصيب، فرمى صلة عن جسده، وكان رامياً، حتى تفرقوا عنه، وأقبل حتى قام عليه، فدعا له، ثم قاتل حتى قُتل^(١)، وعن حماد بن سلمة: أخبرنا ثابت أن صلة كان فى الغزو، ومع ابنه، فقال: أى بنى، تقدم فقاتل حتى احتسبك، فحمل، فقاتل، حتى قُتل، ثم تقدم صلة فقتل، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة، فقالت: مرحباً إن كنتن جئنن لُتهنننى، وإن كنتن جئنن لغير ذلك فارجعن.^(٢) وكانت الملحمة التى استشهد فيها سنة ٦٢هـ^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٥٠٠) رجاله ثقات.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/١٣٧)، سير أعلام النبلاء (٣/٤٩٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٥٠٠).

المبحث الخامس

ولاية العهد ووفاة معاوية رضى الله عنه

أولاً : بداية التفكير فى بيعة يزيد:

يُحْمَلُ كثير من الباحثين، المغيرة بن شعبة، المسئولية عن بيعة يزيد بن معاوية، وذلك باعتباره العقل المدبر، وصاحب الفكرة الأولى، حين عرض على معاوية أن يتولى يزيد الخلافة من بعده، وتكفل بالدعوة ليزيد وتهيئة أهل الكوفة لتقبل خبر اختياره لولاية العهد وكل من اتهم المغيرة بن شعبة كانت حجته فى ذلك تلك الرواية التى أوردتها بعض المصادر القديمة ومفادها: أن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - دخل على معاوية واستعفاه من ولاية الكوفة فأعفاه، وأراد معاوية أن يولى بدلاً منه سعيد بن العاص، فبلغ ذلك أحد الموالين للمغيرة، وتأثر المغيرة عند ذلك، وتمنى العودة للإمارة، فقام فدخل على يزيد وعرض له بالبيعة، فأخبر يزيد والده بما قال له المغيرة، فاستدعى معاوية المغيرة بن شعبة، وأمره بالرجوع والياً مرة أخرى على الكوفة وأن يعمل فى بيعة يزيد^(١)، وأسانيد هذه الرواية ضعيفة، فسنده هذه الرواية لا يشجع على قبولها أو الاستئناس بها بأى حال من الأحوال، كما أن المغيرة رضى الله عنه صحابى جليل تمّ التعريف به فى موضعه من هذا الكتاب، وقد توفى عام ٥٠هـ^(٢) قبل ظهور فكرة ولاية العهد عند معاوية، حيث بدأت هذه الفكرة فى الظهور فى عهد زياد بن أبيه على العراق، وقد صرح الطبرى بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة ٥٦هـ^(٣)، فلماذا تأخر كل هذه السنين إذا كان المغيرة قد شرع فى التمهيد لهذه الفكرة قبل موته؟!^(٤).

(١) الإشراف فى منازل الأشراف لابن أبى الدنيا، ص (١٢١) إسناده ضعيف، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٠)،

إسناده ضعيف جداً، تاريخ الذهبى حوادث (٦١ - ٨٠هـ)، ص (٢٧٢)، إسناده ضعيف جداً .

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٠) .

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢١٩)، انظر: مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (٨٤ - ٨٧) .

(٤) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (٨٧) .

ثانياً : الخطوات التي اتبعتها معاوية لبيعة يزيد:

١ - المشاورات:

لم نعر في المصادر التاريخية على تحديد دقيق لتلك الفترة التي بدأ فيها معاوية رضى الله عنه يفكر تفكيراً جدياً في تولية ولده يزيد من بعده خليفة للمسلمين . ولكنه بالتأكيد لم يفكر إلا بعد سنة خمسين من الهجرة، وذلك بعد أن خلت الساحة من وجود الصحابة الكبار المبشرين بالجنة من أمثال سعد بن أبى وقاص، وسعيد بن يزيد بن عمرو، وبعد وفاة الحسن بن على رضى الله عنهم جميعاً، وبعد أن عرف يزيد عند قيادته لجيش المسلمين الذى حاصر القسطنطينية، وبعدها أصبح معاوية يهيئ الأمور لترشيح يزيد للخلافة، وكان من الطبيعى أن يستشير زياد بن أبيه بعدما أصبح أخاً له، وصار يقال له: زياد بن أبى سفيان، وولاه العراق، ولنسمع إلى رواية الطبرى لهذه الاستشارة، وماذا صنع زياد^(١)، قال الطبرى: لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد، كتب إلى زياد يستشيره، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النميرى، فقال: إن لكل مستشير ثقة، ولكل سر مستودع، وإن الناس قد أبدعت^(٢) بهم خصلتان: إذاعة السر، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضع السر إلا أحد رجلين: رجل آخرة يرجو ثواباً، ورجل دنيا له شرف فى نفسه، وعقل يصون حسبه، وقد عجمتهما^(٣) منك، فأحمدت الذى قبلك . وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الكتب؛^(٤) إن أمير المؤمنين كتب إلى يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نفرة الناس، ويرجو مطابقتهم، ويستشيرنى . وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسَلَة^(٥) وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فآلق أمير المؤمنين مؤدياً عنى، فأخبره عن فعلات يزيد . فقال له: رويدك بالأمر؛ فأقمن أن يتم لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركاً فى تأخير خير من تعجيل عاقبته الفوت . فقال عبيد له: أفلا غير هذا؟ قال: ما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقت إليه ابنه، وألقى أنا يزيد سراً من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى بيعته، وأنتك تخوف

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/١٨٩) . (٢) أى: أضرت .

(٣) أى: خبرتهما .

(٤) أى خائف من ذبوعه إذا هو كتبه .

(٥) الرسالة: الكسل .

خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنت ترى له ترك ما يُنقَمُ عليه، فيستحكم لأمر المؤمنين الحجة على الناس، ويسهل لك ما تريد، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة. فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص على بركة الله، فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغش، وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ قال: أتقول بما ترى، ويقضى الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذاكره ذلك. وكتب زياد إلى معاوية يأمره^(١) بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع^(٢).

إن تحليل هذا النص يكشف لنا عن الحقائق التالية:

أ- إن بداية الفكرة كانت من معاوية، وأنه كان يدرك أنه كان يقدم على أمر خطير، بل على حدث لم يسبق إليه، ولهذا اصطفى زياداً للاستشارة، وزياد هو الذى قال عنه الأصمعي: الدهاة أربعة: معاوية للرؤية، وعمرو بن العاص للبدئية، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل صغيرة وكبيرة. وقد أشار عليه زياد بالتؤدة فقبل. ولهذا لم يقدم معاوية على الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد^(٣). قال الطبرى: لما مات زياد، دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد: إن حدث به حدث الموت، فيزيد ولى عهد، فاستوثق^(٤) له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر^(٥).

ب- إن معاوية لم يكن يريد حين الاستشارة الاكتفاء بالعهد، وإنما أراد أن يبايع الناس يزيد وهو حى، وهو حدث جديد أيضاً لم يعهد من قبل، لأن الناس لم يبايعوا عمر إلا بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه.

ج- إن زياداً قد أحس خطورة الأمر، فلم يشأ -بإدنى الأمر- أن يكتب لمعاوية بنصيحته، بل أراد أن يحملها لرسول خاص وهو (عبيد الله بن كعب النميرى) ليؤديها عنه إلى معاوية شفهاً، وفى ذلك من الحيلة الشيء الكثير، لئلا يشيع خبر الكتاب، فيحدث ما لا يحمد. ولهذا قال لعبيد: ولهذا دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف.

(١) تاريخ الطبرى (٢٢١/٦). يأمره هنا: يشير إليه .

(٢) المصدر نفسه (٢٢١/٦).

(٣) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١٩١/١). (٤) استوثق له الناس: اجتمعوا على رأيه .

(٥) تاريخ الطبرى (٢٢١/٦).

د- إن معاوية كان يتخوف نفرة الناس، فليس العهد لولد الخليفة والخليفة حياً بالأمر اليسير.

ه- إن زياداً كان يخشى على الأمة من يزيد، ولذلك يقول: وعلاقة أمر الإسلام وضمائه عظيم، ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد. ولهذا أيضاً نرى في جواب عبيد له أن سيلقى يزيد وينقل إليه أن زياداً يرى ترك ما ينقم عليه، وبذلك يسلم ما تخاف من علاقة أمر الأمة.

و- إن زياداً كتب أخيراً إلى معاوية، ولكن لينصحه بالتؤدة وألا يعجل فقبل ذلك معاوية^(١).

ز- وعن شاورهم معاوية رضى الله عنه الأحنف بن قيس، فقد روى أن معاوية لما نصب ولده يزيد لولاية العهد، أقعده في قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف بن قيس جالس. فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بألوف، فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالبواب، فقال: يا أبا بحر، إنى لأعلم أن شر من خلق الله سبحانه وتعالى هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فليس نطمع في استخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله وجيهاً^(٢).

٢- الحملات الإعلامية:

ومن التمهيدات الإعلامية الناجحة التي قدمها معاوية رضى الله عنه لابنه توليته أميراً على الجيش الذى وجهه إلى غزو القسطنطينية، وبعد أن رجع من الغزو ولاه إمارة الحج، ولكنه كان يتخوف نفرة الناس، ويتهيب من بعض المعارضين^(٣)، ولذلك

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/١٩٢).

(٢) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٥٨).

(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٤).

كان يواصل إعداد العدة للأمر، ويستشير ولاته ورجال دولته، ويستعين بهم فى تذليل العقبات وتهيئة الأجواء لأخذ البيعة ليزيد، ومما يذكر فى هذا الجانب، أن الشاعر ربيعة بن عامر الدارمى المعروف بـ(مسكين الدارمى)، وكان ممن يؤثـره يزيد ويصله، أنشد فى مجلس معاوية، وكان المجلس حافلاً ويحضره وجوه بنى أمية فقال:

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد؟
 بنى خلفاء الله مهلاً فإنما يبوؤها الرحمن حيث يريد
 إذا المنبر الغربى خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

قال معاوية: نظر فيما قلت يا مسكين، ونستخير الله. ولم يتكلم أحد من بنى أمية إلا بالإقرار والموافقة^(١).

٣ - قبول أهل الشام لبيعة يزيد:

أدرك معاوية رضى الله عنه حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم، فقد حسم أهل الشام أمرهم، وأصبح خيارهم فى ولاية العهد ليزيد، ووجدوا فيه ضالتهم لاستمرار صدارتهم فى الدولة الإسلامية، ولم يكن أهل الشام يستغربون فكرة توريث الخلافة، كما كان يستغربها أهل الحجاز، فقد عهدوها من قبل إبان حكم البيزنطيين لهم، بل إن بعض أهل العراق أيضاً كانوا فيما يبدو مهئين لتقبل فكرة توريث الخلافة ولكن من منظور خاص، حيث يرون أحقية أهل البيت بها واستمرارها فيهم وقد تأثروا فى ذلك بنظام الحكم الساسانى للفرس قبل الفتح الإسلامى لهذه البلاد^(٢)، إن أهل الشام استجابوا لرغبة معاوية فى تولية يزيد ولياً لعهد من بعده، وكان ذلك بعد رجوع يزيد من غزوة القسطنطينية، وقد أدى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعة يزيد، ولم يكن هناك أى معارض^(٣)، وقد أسهم أهل الشام فيما بعد فى أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى مثل الحجاز^(٤).

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٤٥٥/١)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٤).

(٢) مسند أحمد (٣٢٥/٢) الموسوعة الحديثية، حسن لغيره .

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١١)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٨٩).

(٤) تاريخ فلسطين، هانى أبو الرب، ص (٣١٩، ٣٢٠)، البيان والتبيين (٣٩٢/١).

٤ - بيعة الوفود:

عقد معاوية رضى الله عنه اجتماعاً موسعاً فى دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم، وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية، فمثلاً من بلاد الشام: الضحاك بن قيس الفهرى، وثور بن معن السلمى^(١)، وعبد الله بن عضاة الأشعري، وعبد الله بن مسعدة الفزارى، وعبد الرحمن بن عثمان الثقفى، وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي^(٢) وغيرهم، كما حضر عن أهل المدينة عمرو ابن حزم الأنصارى - وذلك فى وقت متأخر - وحضر عن أهل البصرة الأحنف بن قيس التميمى، ثم تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأثنوا عليها، وأكدوا أن هذه هى الطريقة الأصوب لحقن الدماء وحفاظ الألفة والجماعة^(٣)، فحصلت المبايعة ليزيد بولاية العهد على أن الشىء المؤكد أن عمرو بن حزم الأنصارى لم يحضر هذا الاجتماع وذلك لأحد أمرين:

الأمر الأول: هو أن أهل المدينة لم يوافقوا - فى الأصل - على البيعة وعارضوها بشدة، فلم يرسلوا فى موعد الوفود أحداً.

الأمر الثانى: هو أن معاوية قد رفض الالتقاء بعمرو بن حزم، وما ذلك إلا لأنه بلغه معارضة أهل المدينة، وعرف أن عمرو بن حزم مندوب عن أولئك المعارضين، فخشى إن حضر الاجتماع أن يشتت الآراء، ويحدث بلبلة من خلال معارضته، ولهذا استجاب له أخيراً؛ فالتقى به على انفراد وحصل بالفعل ما كان يظن معاوية، ولكن معاوية تقبل الانتقاد وأجزل له العطاء.^(٤) وكان ذلك بعدما عزل رأى ابن حزم عن الوفود.

٥ - طلب البيعة من أهل المدينة:

مثملاً أرسل معاوية رضى الله عنه إلى الأقاليم يطلب منهم البيعة ليزيد، أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها أخذ البيعة ليزيد،^(٥) فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيباً فحرض الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال

(١) مختصر تاريخ دمشق (٣/ ٣٨٦).

(٢) المصدر نفسه، ص (٩٠).

(٣) مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩)، صحيح الإسناد.

(٤) العقد الفريد (٤/ ٣٧٠ - ٣٧٢)، مواقف المعارضة، ص (٩٨).

مروان: إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف ولده يزيد، سنة أبي بكر الراشدة المهديّة، واستدل على ذلك بولاية العهد من أبي بكر لعمر، فرد عليه عبد الرحمن ابن أبي بكر رضى الله عنهما^(١)، ونفى أن تكون هناك مشابهة بين هذه البيعة وبيعة أبي بكر وقال: فقد ترك أبو بكر، الأهل والعشيرة وعمد إلى رجل من بنى عدى بن كعب؛ إذ رأى أنه لذلك أهل فبايعه. ثم قال: هذه البيعة شبيهة ببيعة هرقل وكسرى. ثم حدث بينه وبين مروان نزاع^(٢)، وجاء فى رواية عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق رضى الله عنه: يا معشر بنى أمية اختاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله، أو سنة أبي بكر، أو سنة عمر. . ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية كلما مات قيصر كان قيصر^(٣)، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدرُوا عليه^(٤)، فقال: إن هذا الذى أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعَدَانِي﴾ [الأحقاف: ١٧] فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى^(٥).

وقد سبق طلب مروان بن الحكم من أهل المدينة البيعة ليزيد تمهيداً من معاوية رضى الله عنه، حيث أرسل رسالة لم يذكر فيها يزيد، وإنما جاء فيها: إنى قد كبرت سنى، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدى، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بالأمر بعدى، وكرهت أن اقطع أمراً دون مشورة من عندك فاعرض عليهم ذلك، وأعلمنى بالذى يردون عليك فقام مروان فى الناس فأخبرهم بما أراد معاوية، فقال الناس: أصاب معاوية، ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو^(٦)، ولكن عندما ذكر فى المرة التالية اسم يزيد امتنع أهل المدينة فى بداية الأمر، وعبر عبد الرحمن بن أبي بكر عما فى نفوسهم^(٧).

ومما سبق نلاحظ أن مروان بن الحكم لم يوفق فى المهمة التى كلفه بها معاوية رضى الله عنه، وعند ذلك قرر معاوية المجيء بنفسه إلى الحجاز ومعرفة موقف الصحابة من هذه القضية المهمة، فجاء رضى الله عنه معتمراً فى شهر رجب من

(١) مواقف المعارضة، ص (٩٩)، مجمع الفوائد (٢٤١/٥) إسناده حسن .

(٢) مجمع الفوائد (٢٤١/٥) إسناده حسن . (٣) البخارى رقم (٤٨٢٧).

(٤) المصدر نفسه رقم (٤٨٢٧)، وفى البخارى رواية أخرى . (٥) المصدر نفسه رقم (٤٨٢٧).

(٦) المدينة فى العصر الأموى، ص (٨٨)، نقلاً عن الكامل فى التاريخ . (٧) مواقف المعارضة، ص (٩٩).

سنة ٥٦هـ^(١)، فلما علم عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير بقدم معاوية خرجوا من المدينة، واتجهوا إلى مكة^(٢)، فلما قدم معاوية المدينة خطب الناس وحشهم على البيعة وبين أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة^(٣)، ثم قال: قد بايعنا يزيد فبايعوه^(٤)، ويبدو أن معاوية قد ذكر أنه يخشى على ابن عمر وغيره من القتل إن مانعوا، ويقصد بخوفه عليهم من أهل الشام، الذين لا يمكن أن يتصوروا أن أحداً يخالف أمير المؤمنين في أمر اتفق عليه كثير من الناس، فقد ذكر أن معاوية قال: والله ليبايعنَّ ابن عمر أو لأقتلنَّه، فلما بلغ الخبر عبد الله بن صفوان^(٥)، غضب وعزم على مقاتلة معاوية إن ثبت هذا. فلما سأل معاوية أنكر ذلك وقال: أنا اقتل ابن عمر؟! إني والله لا أقتله^(٦).

أ- عبد الله بن عمر رضى الله عنه فى مجلس معاوية رضى الله عنه: فلما قدم معاوية مكة، وقضى نسكه، بعث إلى ابن عمر، فقدم عليه فتشهد معاوية وقال: أما بعد يا ابن عمر، فإنك قد كنت تحدثنى أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء وليس عليك أمير، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى على فساد ذات بينهم، فرد ابن عمر على معاوية، وبين له كيف كانت طريقة بيعة الخلفاء الراشدين، وذكر له كيف أن لهم أبناء خير من يزيد، فلم يروا فى أبنائهم ما يرى معاوية فى يزيد، ثم بين له أيضاً أنه لا يريد أن يشق عصا المسلمين وأنه موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد ﷺ، فأتلج هذا القول صدر معاوية رضى الله عنه وقال: يرحمك الله^(٧). فقد اشترط ابن عمر حدوث الإجماع على بيعة يزيد حتى يعطيه البيعة^(٨)، وكان معاوية رضى الله عنه قد أرسل بمائة ألف درهم لابن عمر، فلما دعاه معاوية لبيعة يزيد قال: أترون هذا أراد، إن دينى إذاً عندى لرخيص^(٩)،

(١) البداية والنهاية (١١/٣٠٥) . (٢) التاريخ الصغير للبخارى (١/١٠٣) إسناده حسن .

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٣، ٢١٤) إسناده حسن.

(٤) الأباطيل والناكير والصحاح والشاهير (١/٢٦٢)، حسن مشهور.

(٥) التقريب، ص (٣٠٨)، قتل عام ٧٣هـ بالكعبة مع ابن الزبير.

(٦) الطبقات (٤/٨٣) بسند صحيح، تاريخ خليفة، ص (٢١٤ - ٢١٥) بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص (١٠١، ١٠٢).

(٧) تاريخ خليفة، ص (٢١٤، ٢١٥) بسند صحيح (٨) الفقهاء والخلفاء، د. سلطان خالد، ص (٥٨).

(٩) الطبقات (٤/١٨٢) بسند صحيح .

وكان ابن عمر رضى الله عنه يرى أنه لا يجوز أن يؤخذ على البيعة الدراهم، لأنها من باب الرشوة، فإن كانت البيعة حقاً فلا يجوز له أن يأخذ على الحق أجراً، وإن كانت باطلاً، فلا يجوز له أن يبذل البيعة لمن لا يستحقها من أجل المال^(١). موقف ابن عمر رضى الله عنه هو عدم الرضا بالأسلوب الوراثي للحكم أو أخذ البيعة عن طريق المال^(٢).

ب - عبد الرحمن بن أبي بكر فى مجلس معاوية رضى الله عنهم: وخرج ابن عمر - من مجلس معاوية - واستدعى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنهما، فأخذ معاوية فى الكلام، فقاطعه عبد الرحمن ورد عليه بلهجة شديدة، وذكر أنه يمانع بيعة يزيد، وطلب أن يكون الأمر شورى، وتوعد معاوية بالحرب^(٣). ثم قام فقال معاوية: اللهم اكفنيه بما شئت، وطلب منه أن يتمهل وألا يعلن رفضه أمام أهل الشام فيقتلوه، فإذا جاء العشى وباع الناس ثم يكون بعد ذلك على ما عنده من رأى^(٤). وكان الأولى لمعاوية رضى الله عنه أن يطلب من أهل الشام ألا يتعرضوا لمن خالفه.

ج - عبد الله بن الزبير رضى الله عنه: ثم استدعى ابن الزبير، واتهمه معاوية بأنه السبب فى منع البيعة، وأنه وراء ما حدث من ابن عمر وابن أبي بكر، فردّ عليه ابن الزبير وطلب منه أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملهاً، ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلاً منه فيبايعه. ثم استدلى على عدم موافقته على المبايعة بما استنبطه من حديث الرسول ﷺ بأنه لا يجوز مبايعة اثنين فى آن واحد^(٥)، ثم قال: وأنت يا معاوية أخبرتنى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان فى الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما»^(٦).

د - الحسين بن على رضى الله عنه: ومن الملاحظ أن الرواية السابقة لم تذكر الحسين بن على ضمن من استشارهم معاوية فى بيعة يزيد، ولعل السبب يعود إلى

(١) موسوعة فقه ابن عمر، ص (١٥٣)، قلجى .

(٢) تاريخ خليفة، ص (٢١٣، ٢١٤) بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص (١٠٣).

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٤)، تاريخ أبى زرة (١/٢٢٩)، بإسناد صحيح.

(٤) تاريخ خليفة، ص (٢١٤) بإسناد حسن، حلية الأولياء (١/٣٣٠، ٣٣١).

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (١٩/٣١٤)، مجمع الزوائد (٥/١٩٨)، قال الهيثمى: ورجاله ثقات .

أن معاوية أدرك العلاقة بين أهل العراق والحسين وأنهم كانوا يكتبون له ويمنونه بالخلافة من بعد معاوية، ثم إن الحسين قد قابل معاوية بمكة فكلمه طويلاً - كما يبدو- في أمر الخلافة؛ الأمر الذى أغضب يزيد فقال لأبيه: لا يزال رجل قد عرض لك، فأناخ بك، قال: دعه لعله يطلبها من غيرى فلا يسوغه فيقتله^(١).

ويتبين لنا من خلال الحوار الذى دار بين معاوية وكل من عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهم أنهم يمانعون البيعة لسبيين:

- اعتراضهم على تولية يزيد للعلاقة بين الأب والابن، وأن هذه لم تكن طريقة الخلفاء الراشدين .

- الاستدلال على بطلان هذه البيعة ورفضها لمخالفتها النص الصريح الذى ورد فى الحديث النبوى، والذى لا يجيز البيعة لشخصين فى آن واحد. والملاحظ هنا أن المعارضين لم يذكروا قدحاً فى يزيد وإلا كيف يمكن أن يتجاهلوا صفات يزيد التى اتهم بها فيما بعد، خاصة فى ذلك الموقف الذى يتطلب حشد أى دليل فى مقابل الخصم^(٢). والحقيقة أنه كان هناك شعور قوى بين بعض الناس -خاصة بين أبناء المهاجرين- هو كيف أن معاوية الذى أسلم فى فتح مكة يتولى خلافة المسلمين، وهناك من هو أقدم إسلاماً وأحق منه؟!^(٣)، وكان البعض معترضاً على تقديم يزيد خوفاً من القيصرية والهرقلية -على حد تعبير عبد الرحمن بن أبى بكر- ولما رأى معاوية أوجه الانتقادات التى انتقد فيها أبناء الصحابة بيعة يزيد، ورأى أنها لا تمس يزيد شخصياً، بل إنها وجهات نظر أرتأوها ورأى معاوية خلافتها، فهؤلاء مدفوعون بحرصهم على جعل منصب الخلافة لا تتطرق إليه العلاقات الأسرية والرغبات الشخصية، ومن ثم تكون قيمة الخليفة واختياره مبنية على علاقته بالخليفة الذى قبله^(٤). قام معاوية بعد اجتماعه مع ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار زعموا

(١) الطبقات، الطبقة الخامسة، ص (٣٥٧) إسناد حسن نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (١٠٦).

(٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٠٤). (٣) مصنف ابن أبى شيبة (٩٠/١١١) بسند صحيح.

(٤) مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام، د. الدورى، ص (٦٤).

أن ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيد، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له. فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رءوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم، فانتهرهم معاوية، وقال: مه! سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء! لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم، ثم نزل، فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر ويقولون: لا والله ما يبايعنا، ويقول الناس: بلى لقد بايعتم، وارتحل معاوية ولحق بالشام^(١).

وبهذه الرواية الصحيحة يتبين لنا كذب تلك الرواية التي تتهم معاوية رضى الله عنه بأنه أقام على رأس كل رجل من الصحابة الأربعة - وهم عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، والحسين بن علي رضوان الله عليهم رجلين، وأعطى الإشارة لكل حارس بقتل من يمانع البيعة، فبايع الناس وبايع ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر تحت تهديد السلاح فبالإضافة إلى ضعف الرواية سنداً، فإن متنها لا يقل عن سندها من حيث الضعف ولا يقف أمام النقد الدقيق^(٢)، فمثلاً في بداية الرواية: أن معاوية لما كان قريباً من مكة قال لمرقال صاحب حرسه: لا تدع أحداً يسير معي إلا من حملته أنا، فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك لقيه الحسين بن علي، فوقف وقال: مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، سيد شباب المسلمين دابة لأبي عبد الله يركبها، ثم طلع عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: مرحباً وأهلاً بصاحب رسول الله ﷺ وابن الصديق وسيد المسلمين، ودعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير فقال: مرحباً وأهلاً بابن حوارى رسول الله ﷺ وابن الصديق وابن عمه رسول الله ﷺ، ثم دعا له بدابة فركبها، ولم يعرض لهم شيء حتى قضى نسكه^(٣). وأما ما يتعلق بباقي الرواية التي تذكر أن معاوية أوقف على رأس كل رجل حارسين وأمرهما بقتل من يحاول الاعتراض على البيعة، إذا بويح يزيد، فهذا مستبعد لأمرين أحدهما: أليس من الغريب جداً على معاوية أن يستخدم العنف بهذه الصفة مع أبناء الصحابة،

(١) تاريخ خليفة بسند حسن، ص (٢١٤).

(٢) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص (١٠٦)، تاريخ خليفة، ص (٢١٥) بسند جوهرية بن أسماء، قال:

سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون، والرواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٥) رواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

والصحابة أنفسهم ومن ثم يتسبب فى توسيع الخلاف ويباعد الشقة بينه وبين يزيد من جهة، وبين الصحابة وأبنائهم من جهة أخرى؟.

والأمر الآخر: عندما يقف الحراس على رءوس الأربعة، ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر، والحسين، أليس هذا المنظر أمام الناس يجعل الشك عند الناس يتضاعف حول مكانة يزيد، ويعرف الناس أن أولئك الحراس الذين يقفون على رأس كل شخص إنما يتربصون به ويغونه شراً، ثم يصبح لدى الناس اقتناع كامل بأن هذه البيعة بيعة إكراه وخديعة فيمانعوا؟! (١).

ثالثاً: تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد:

اختلفت المصادر حول تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد على النحو التالى:

- ١ - ذكر خليفة بن خياط^(٢)، والذهبي^(٣)، أنه كان فى سنة ٥١ هـ .
- ٢ - ذكر ابن عبد ربه^(٤)، أن ذلك كان فى سنة ٥٥ هـ .
- ٣ - ذكر الطبرى^(٥)، وابن الجوزى^(٦)، وابن الأثير^(٧)، وابن كثير^(٨)، أن ذلك كان فى سنة ٥٦ هـ .

هذا وبعد دراسة التواريخ السابقة اتضح عدم صحة ترشيح يزيد بن معاوية سنة ٥١ هـ^(٩) للأسباب التالية:

أ - أن وفاة الحسن بن على رضى الله عنه كانت فى السنة نفسها. أى فى سنة ٥١ هـ واتخاذ قرار الترشيح يحتاج لوقت من طرف معاوية لكى يدرسه ويستشير فيه، كما أنه ليس من الحكمة إعلان قرار الترشيح بعد وفاة الحسن رضى الله عنه مباشرة.

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١١٠).
(٢) تاريخ خليفة، ص (٢١٣).
(٣) تاريخ الإسلام (عهد معاوية)، ص (١٤٧).
(٤) العقد الفريد (٤/٣٣٨).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/٢١٩).
(٦) المنتظم (٥/٢٨٥).
(٧) البداية والنهاية (١١/٣٠٥).
(٨) الكامل فى التاريخ (٢/٥٠٨).
(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٥٠).

ب - قتل حجر بن عدى رضى الله عنه فى السنة نفسها - أى فى سنة ٥١هـ -
لذا فإنه أيضاً ليس من الحكمة إعلان ترشيح يزيد بن معاوية فى هذه السنة، لأن
الأنفس لم تكن مهياًة لمثل هذه القرارات الجريئة، التى يعد توقيت إعلانها على
الناس من أهم عوامل نجاحها.

ج - إن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد كان أثناء ولاية مروان بن الحكم
على الحجاز^(١)، وهى - بلا شك - الفترة الثانية من ولاية مروان بن الحكم والتى
امتدت من سنة ٥٤هـ - ٥٧هـ وذلك أن الفترة الأولى من ولاية مروان بن الحكم
كانت من سنة ٤٢هـ - ٤٩هـ.

بعد ذلك يتبقى تاريخان لإعلان ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد، وهما
٥٥هـ - سنة ٥٦هـ، وهذان التاريخان يكمل أحدهما الآخر - كما سيتضح لاحقاً -
ولكن يرد فى هذا المقام سؤال حول السبب الذى جعل معاوية رضى الله عنه يؤخر
ترشيح ابنه يزيد ولياً للعهد إلى سنة ٥٥هـ أو سنة ٥٦هـ مع أن الحسن بن على
رضى الله عنه توفى سنة ٥١هـ، وجواب هذا السؤال يكمن فى معرفة أهم حدث
وقع فى سنة ٥٥هـ حيث توفى فى هذه السنة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه،
آخر الستة الذين رضيههم ورشحهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه للخلافة من
بعده^(٢).

رابعاً: وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

حاول بعض الإخباريين أن يوجدوا علاقة بين وفاة عبد الرحمن بن خالد بن
الوليد وبيعة يزيد بن معاوية، فذكر البعض أن معاوية رضى الله عنه لما رأى مكانة
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند أهل الشام - بسبب مآثر عبد الرحمن بن
خالد بن الوليد، ولغناؤه عن المسلمين فى أرض الروم وبأسه - خافه معاوية، فأمر
ابن أثال الطبيب النصرانى فدىس إليه السم^(٣)، فى حين يرجع ابن الكلبي سبب
القتل إلى أمر آخر وهو: أن معاوية لما أراد أن يولى الأمور رجلاً من بعده قال

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى (٤٣٩/٨).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٥٢)، سير أعلام النبلاء (١٢٣/١).

(٣) تاريخ الطبرى (١٤٣/٦)، رواية ضعيفة.

لأهل الشام: إن أمير المؤمنين يريد أن يستخلف عليكم، فماذا ترون؟ فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن خالد، وكان فاضلاً فسكت معاوية وأضمرها في نفسه، ثم إن عبد الرحمن اشتكى، فدعا معاوية طبيبه بن أثال وأمره بدس السم لعبد الرحمن^(١). فهذه الروايات بالإضافة إلى ضعف سندها يوجد اختلاف في متنها مع الواقع الملموس، فمعاوية رضى الله عنه بيده عزل الأمراء أو توليتهم كما هو معروف، وليس بالصعوبة على معاوية أن يطلب من عبد الرحمن بن خالد أن يتنحى عن قيادة الصوائف على الثغر الرومى، ويهمل عبد الرحمن بن خالد، ثم لا يكون له أى مكانة يُخشى منها، وقد ورد أن معاوية عزله وولى بدلاً منه سفيان بن عوف الغامدى^(٢) على إحدى الصوائف^(٣)، وليس هذا يشكل صعوبة على معاوية، بل إن معاوية كان يعزل عن الإمارة من هو أعظم وأقوى من عبد الرحمن بن خالد، ثم كيف يقوم معاوية بقتله، وقد أورد الطبرى ذكر غزوة البحر سنة ٤٨ هـ وكان قائد أهل مصر عقبة بن عامر الجهنى، وعلى أهل المدينة المنذر بن زهير، وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^(٤)، فكيف يرضى معاوية أن يكون ولده قائداً كبيراً من بعد أبيه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يرضى أن يقوم ولده بقيادة الجيش لمعاوية إن كان معاوية قاتل أبيه، وهل يمكن أن يخفى على ولده هذا الأمر وهو أقرب الناس إليه؟^(٥) فهذه أكاذيب واضحة حاولت أن توجد علاقة بين موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والبيعة ليزيد، ومثلها مثل الأكاذيب التى حاولت أن تربط بين موت الحسن بن على والبيعة ليزيد - كما مر ذكره -.

إن خبر وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالسم أورده القاسم بن سلام، وابن حبيب البغدادى^(٦)، وذكر أن الدافع هو الخوف من منافسة عبد الرحمن ليزيد فى ولاية العهد^(٧)، كذلك أورد الخبر البلاذرى^(٨)، وأبو الفرج الأصفهاني^(٩)،

(١) كتاب الأمثال، ص (١٩٢) للقاسم بن سلام، ضعيف الإسناد. (٢) تهذيب تاريخ دمشق (١٨٥/٦).

(٣) أنساب الأشراف (١٠٤/٤)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٩٢).

(٤) تاريخ الطبرى (١٤٧/٦).

(٥) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٩٣). (٦) التمتع فى أخبار قريش، ص (٣٦٠).

(٧) هذا تحليل فاسد، لأن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد ظهر فى عام ٥٦ هـ بعد وفاة الحسن بن على،

وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد رضى الله عنهم.

(٩) الأغاني (١٩٧/١٦).

(٨) أنساب الأشراف (١٠٩/٤).

وأبو هلال العسكري^(١)، وخبر اتهام معاوية رضى الله عنه بحادثة سم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لم ترد بإسناد صحيح، بل هو من الأخبار المكذوبة على هذا الصحابي الكريم^(٢)، وفي ذلك يقول ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير وغيره، أن رجلاً يقال له: ابن أثال - وكان رئيس الذمة بأرض حمص - سقاه شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك، ولا يصح^(٣).

خامساً: أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد:

١ - الحفاظ على وحدة الأمة:

نظر معاوية رضى الله عنه إلى ابنه يزيد على أنه المرشح الذى سيحظى بتأييد أهل الشام الذين يمثلون العامل الأقوى فى استقرار الدولة، وقد أبرز معاوية رضى الله عنه السبب الذى دعاه لاختيار ابنه يزيد، وذلك أثناء جمع التأييد له من كبار أبناء الصحابة أثناء رحلته الأخيرة للحج إذ كان الدافع لمعاوية - رضى الله عنه - عندما سارع فى أخذ البيعة ليزيد هو خوفه من الاختلاف^(٤)، الذى قد يطرأ على الأمة بعد موته، وربما تنخرط فى قتال جديد لا يعلم سعته ومداه إلا الله عز وجل^(٥). كان معاوية يهرب أن يدع أمة محمد ﷺ كالضأن لا راعى لها^(٦)، ولذلك عمل على اختيار من يخلفه، وكان الأولى بمعاوية رضى الله عنه أن يعين من أفاضل المجتمع الإسلامى رجالاً يجعلهم موضع شورى يختارون من كان أهلاً للخلافة ويتعد عن ترشيح ابنه يزيد، لأن اختيار يزيد لم يكن أمناً من الاختلاف والقتال وسفك الدماء ولقد وقع المحذور بعد وفاة معاوية، وسفكت الدماء ولم يزح اختيار معاوية ليزيد ما تعلق به من المخاوف، ويبدو أنه وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، وإتباع الوراثة بديلاً من الشورى فى اختيار الخليفة، ولأسباب أخرى، وعلى كل حال فمعاوية رضى الله عنه اجتهد ولم يكن مصيباً فى تولية يزيد لولاية العهد، فقد كان بوسعه وقدراته السياسية الفائقة أن يطمئن فى حياته على اجتماع كلمة المسلمين فى أمر الخلافة من بعده باختيار واحد من قريش يشهد

(١) جمهرة الأمثال (٢/ ٣٨٥) .

(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٨٤).

(٣) البداية والنهاية (١١/ ١٧٤) .

(٤) دراسات فى النظم، ص (٤١)، د. توفيق البيوزكى .

(٥) مواقف المعارضة من خلافة يزيد، ص (١٣١) . (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٢).

له الناس بحسن السيرة أكثر من يزيد ابنه، ويجتمع عليه أعيان المجتمع الإسلامي في الشام والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

٢ - قوة العصبية القبلية:

خاض معاوية رضى الله عنه الحرب وتولى الخلافة بنصرة من أهل الشام، وكانوا من أشد الناس طاعة لمعاوية رضى الله عنه ومحبة لبني أمية، ومن الدلائل على تلك الطاعة والمحبة أن معاوية رضى الله عنه لما عرض خلافة يزيد بن معاوية على أهل الشام وافقوا موافقة جماعية ولم يتخلف منهم أحد، وبايعوا ليزيد بولاية العهد من بعد أبيه^(١)، ومن الدلائل على قوة العصبية في بلاد الشام لبني أمية أن مروان بن الحكم تمكن من الانتصار بأهل الشام على عمال عبد الله بن الزبير، ثم تبعه بعد ذلك ابنه عبد الملك بن مروان، حتى تمكن من الانتصار بأهل الشام على ابن الزبير وقتله سنة ٧٣هـ رضى الله عنه، ومع ذلك لم نجد أهل الشام انقادوا لابن الزبير، بل إن أهل العراق غدروا بأخيه مصعب بن الزبير ومالوا مع عبد الملك بن مروان، فلماذا لم تجتمع الأمة على ابن الزبير وهو في ذلك الحين لا يشاركه أحد في فضائله ومكائنه؟ بل نجد العكس؛ أن عبد الملك بن مروان -الذى يُعد في السن كأحد أبناء عبد الله بن الزبير- تمكن من تولي زعامة المسلمين^(٢)، فعصبية أهل الشام كانت سبباً مهماً في تولية يزيد وليست عصبية بني أمية فإن أسرة بني أمية لم تكن ذات تأثير كبير على الأحداث في مجيء معاوية رضى الله عنه إلى منصب الخلافة، وقد بنى ابن خلدون دفاعه عن صنيع معاوية في ولاية العهد أن المصلحة تقتضى ذلك حيث قال: والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل

(٢) المصدر نفسه، ص (١٣٢).

(١) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص (١٣١).

على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هواده، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك^(١)، وقال أيضاً: عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة، بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره لاختلفوا عليه^(٢). أى أن قوة عصبية بنى أمية وسطوتهم، ونفورهم من الانقياد لغيرهم، جعلت معاوية رضى الله عنه يختار مرشحاً من بنى أمية، فكان ابنه يزيد، خوفاً منه على الأمة من الفرقة والاختلاف^(٣)، ومما لا شك فيه أنه لو جاء معاوية برجل من ذوى الكفاءة من قريش غير ابنه يزيد واستفتى ذوى الرأى والنهى بشأنه، ثم وقف وراءه بثقله الكامل وتأييده الصريح، وطلب من أهل الحل والعقد فى الأمة مبايعته بولاية العهد، فهل كان يعترض أحد؟ طبعاً لا، ذلك لأن أمير المؤمنين هو الداعى، ولأن المرشح لولاية العهد رجل أريد بترشيحه ومبايعته مصلحة الأمة والدولة مجردة من كل شبهة أو عاطفة، ألا ترى معنى أن ذلك كان ممكناً وأنه كان محققاً للغرض القائل بأن القصد من ولاية العهد هو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، وتجنب الأمة أخطار التنازع والفتن من جديد؟ ولكن معاوية رضى الله عنه -على كل حال- اجتهد، فإن كان مصيباً فله أجران، وإن كان مخطئاً فله أجر^(٤).

٣ - محبة معاوية لابنه وقناعته به:

قال ابن كثير: وقد كان معاوية لما صالح الحسن، عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهل، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجاة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفتهم بالحروب، وترتيب الملك والقيام بأبهته، وكان ظن ألا يقوم أحد من أبناء الصحابة فى هذا المعنى^(٥). وقال معاوية رضى الله عنه لعمر بن حزم الأنصارى -الذى كان معارضاً للبيعة، فذكر معاوية بالله، وطلب منه أن ينظر فى عاقبة الأمور، فشكره معاوية-: إنك امرؤ ناصح. ثم أخذ معاوية يُبين له بصراحة أنه لم

(١) مقدمة ابن خلدون (١/٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) المصدر نفسه (١/٢٥٧، ٢٥٨).

(٣) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٦٢).

(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٢٦).

(٥) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص (٤٥٩، ٤٦٠).

يبقى إلا ابنه وأبناءؤهم وابنه، أحق من أبنائهم^(١)، وكانت ليزيد بعض الصفات التي شجعت معاوية على جعله ولياً للعهد، قال الذهبي في ترجمة يزيد: كان قوياً شجاعاً، ذا رأى وحزم، وفطنة وفصاحة^(٢)، وقال ابن كثير: وكان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأى فى الملك^(٣). ربما كانت هذه الصفات دافعة لمعاوية وكافية ليزيد ليكون صالحاً للخلافة^(٤)، ولا شك أن الصحابة وأبناءهم أفضل من يزيد وأصلح، ولكن مع ذلك فإن معاوية ربما رأى فى ولده مقدرة لم تكن لغيره فى قيادة الأمة، بسبب عيشته المتواصلة مع أبيه، ومناصرة أهل الشام وولائهم الشديد له، ثم اطلاعه عن قرب على معطيات ومجريات السياسة فى عصره، وقد أنس معاوية رضى الله عنه من ولده يزيد حرصاً على العدل وتأسياً بالخلفاء الراشدين، فقد كان يسأله عن الكيفية التى سيسير بها فى الأمة فيرد عليه يزيد بقوله: كنت والله يا أبت عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب^(٥). وغير ذلك من الأسباب. فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم فى إمارة الحرب، الرجل القوى الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف، وإن كان أميناً^(٦). فالواجب فى كل ولاية الأصلاح بحسبها، وسئل الأمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو أحدهما قوى فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزو؟ فقال: أما الفاجر القوى، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، يُغزى مع القوى الفاجر^(٧). ومعظم المقصود من نصب الأئمة حيطة المسلمين، ودفع عدوهم، والأخذ على يد ظالمهم، وإنصاف مظلومهم، وتأمين سبلهم، وتفريق بيت مالهم فيهم، على ما أوجبه الشرع، فمن كان ناهضاً بهذه الأمور ونحوها فبه يحصل مقصود الإمامة، ويطيب عيشهم، ويأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وحرمتهم، وإن كان غيره أكثر علماً منه، أو أوسع عبادة، أو

(١) مجمع الفوائد (٧/٢٤٨، ٢٤٩)، رجاله رجال الصحيح، الإصابة (٤/٦٢١)، رجاله ثقات.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٣٧). (٣) البداية والنهاية (١١/٦٤٦).

(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢٠٤). (٥) الأشراف لابن أبى الدنيا، ص (١٢٧)، سنده ضعيف.

(٦) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص (٢٢). (٧) المصدر نفسه، ص (٢٢).

أعظم ورعاً فإنه إذا كان غير ناهض بالقيام بهذه الأمور، فلا يعود على المسلمين من علمه أو ورعه وعبادته فائدة، ولا ينفعهم كونه مريداً للصلاح وإجراء الأمور مجاريها الشرعية مع عجزه عن ذلك وعدم قدرته على إنفاذه^(١). فقد كان معاوية رضى الله عنه يرى بولاية المفضول مع وجود الفاضل.. هذه أهم أسباب ترشيح معاوية رضى الله عنه لابنه.

سادساً: الانتقادات التي وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد:

لقد حمل كثير من المؤرخين السابقين والمعاصرين معاوية رضى الله عنه مسئولية البيعة الكاملة، وبالتالي حملوه جميع الأخطاء التي يقع فيها الحكام من زمان معاوية حتى عصرنا الحاضر، فمنهم من اتهمه بالخروج على نظام الشورى فى الإسلام فكان أول محطم لنظام الإسلام^(٢). ومنهم من اتهم معاوية بأنه أقر النظام الذى يعتمد على السياسة أولاً وإلى الدين ثانياً^(٣)، والبعض شبه معاوية بالملوك الأقدمين من الفرس والروم^(٤)، والبعض يجعل معاوية بهذه البيعة هو رائد المدرسة (المكيافيلية) فى السياسة القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية^(٥)، والبعض حكم على معاوية بارتكابه كبيرة أضافها إلى كبائره السابقة^(٦)، والبعض اعتبر معاوية خارجاً على إجماع المسلمين بهذه البيعة^(٧). ولمعرفة صحة هذه الاتهامات من عدمها يجدر بنا أن نعرف ماهية الشورى وكيفية تطبيقها، فالشورى دعامة من دعائم الحكم فى الإسلام، وقاعدة صلبة من قواعده، كما أن اختيار الحاكم فى الإسلام وتولى أمر الأمة المسلمة لا يعطيه صفة مقدسة، أو سلطة مطلقة^(٨)، بل إنه مسئول عن كل عمل يقوم به وينفذ فيه ما ينفذ فى شعبه وأما طريقة الشورى فلم يحدد لها نظام خاص، فتطبيقها -إذن- متروك للظروف والمقتضيات الجارية^(٩)، فقد

(١) العبرة مما جاء فى الغزوة والشهادة، ص (٣٥)، صديق حسن خان .

(٢) إسلام بلا مذهب، مصطفى الشكعة، ص (٥٨).

(٣) نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب، على إبراهيم حسن، ص (٥٨).

(٤) عائشة والسياسة، ص (٢٧٨)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٤١).

(٥) ملامح التيارات السياسية، إبراهيم بيضون، ص (١٤٧).

(٦) الأعمال العربية الكاملة (٣٦/٦) أمين الريحانى .

(٧) زعماء الإسلام، ص (٢١٩)، حسن إبراهيم حسن .

(٨) مواقف المعارضة، ص (١٤٢)، النظرية الإسلامية للصعيدى، ص (٤٦٨).

(٩) مواقف المعارضة، ص (١٤٣).

كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحى، ويأخذ برأيهم فيما هم أعرف به من شئون دنياهم، وكذلك سار الخلفاء الراشدون فى استشارة المسلمين. . وإليك استعراضاً موجزاً لكيفية انعقاد إمامة الخلفاء الراشدين:

١ - طريقة انعقاد بيعة أبى بكر رضى الله عنه:

قام أهل الحل والعقد فى سقيفة بنى ساعدة ببيعة الصديق بيعة خاصة ثم رشحوه للناس فى اليوم التالى وبابعته الأمة فى المسجد البيعة العامة^(١)، وقد أفرز ما دار فى سقيفة بنى ساعدة مجموعة من المبادئ منها: أن قيادة الأمة لا تقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هى أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب ديناً والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلامية، وشخصية، وأخلاقية، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة النسبية أو القبلية، وأن إثارة (قريش) فى سقيفة بنى ساعدة باعتبارها واقعاً يجب أخذه فى الحسبان، ويجب اعتبار أى شىء مشابه ما لم يكن متعارضاً مع أصول الإسلام، وأن الحوار الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسى السائد بين المسلمين حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات، ولا نقض للاتفاق، ولكن تسليم للنصوص التى تحكمهم، حيث المرجعية فى الحوار إلى النصوص الشرعية^(٢).

أ - وأول ما قرره اجتماع يوم السقيفة هو أن (نظام الحكم ودستور الدولة) يقرر بالشورى الحرة، تطبيقاً لمبدأ الشورى الذى نص عليه القرآن الكريم، ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وسند هذا الإجماع هو النصوص القرآنية التى فرضت الشورى، أى أن هذا الإجماع كشف وأكد أول أصل شرعى لنظام الحكم فى السلام وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستورى تقرر بالإجماع بعد وفاة رسولنا ﷺ، ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأييداً وتطبيقاً لنصوص الكتاب والسنة التى أوجبت الشورى.

ب - تقرر يوم السقيفة أيضاً أن اختيار رئيس الدولة -أو الحكومة الإسلامية- وتحديد سلطاته يجب أن يتم بالشورى، أى البيعة الحرة التى تمنحه تفويضاً ليتولى

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص (٦٦، ٦٧).

(٢) دراسات فى عهد النبوة للشجاع، ص (٢٥٦).

الولاية بالشروط والقيود التي يتضمنها عقد البيعة الاختيارية الحرة - الدستور في النظم المعاصرة - وكان هذا ثاني المبادئ الدستورية التي أقرها الاجتماع، وكان قراراً إجماعياً كالقرار السابق.

ج - تطبيقاً للمبدأين السابقين قرر اجتماع السقيفة اختيار أبي بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية^(١)، ثم إن الترشيح لم يصح نهائياً إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أى موافقة جمهور المسلمين فى اليوم التالى بمسجد الرسول ﷺ، ثم قبوله لها بالشروط التى ذكرها فى خطابه^(٢) المشهور الذى جاء فيه: أما بعد، أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله^(٣).

وقال عمر لأبى بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة^(٤)، وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، وقد قرر الصديق فيها قواعد العدل والرحمة فى التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولى الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد فى سبيل الله لأهميته فى إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك فى حماية المجتمع من الانهيار والفساد^(٥).

٢ - طريقة انعقاد بيعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

لما اشتد المرض بالصديق رضى الله عنه جمع الناس إليه، فقال: إنه قد نزل بى ما قد ترون، ولا أظننى إلا ميت لما بى، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى، وحل عنكم عقدتى، ورد عليكم أمركم، فأمرؤا عليكم من أحببتهم، فإنكم إن أمرتم فى

(١) فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوى، ص(١٤٠). (٢) المصدر نفسه، ص (١٤٢).

(٣) البداية والنهاية (٦/٣٠٥، ٣٠٦). (٤) البخارى، الأحكام رقم (٧٢١٩).

(٥) التاريخ الإسلامى (٢٨/٩).

حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى^(١)، وقد قام أبو بكر رضى الله عنه بعدة إجراءات لتتم عملية اختيار الخليفة القادم.

أ- استشارة أبى بكر كبار الصحابة: تشاور الصحابة رضى الله عنهم وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، فدعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرنى عن عمر بن الخطاب، فقال له: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، فقال أبو بكر: وإن فقال عبد الرحمن: هو -والله- أفضل من رأيك فيه، ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدتكَ. ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى الرضا، ويسخط للسخط، والذي يسر خير من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه. وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريباً كانوا برأى واحد فى عمر إلا طلحة بن عبيد الله خاف من شدته، فقد قال لأبى بكر: ما أنت قائل لرَبِّك إذا سألك استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسونى، أبالله تخوفونى؟ خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول: اللهم استخلفت عليهم خير أهلك^(٢). وبين لمن نبهه إلى غلظة عمر وشدته فقال: ذلك لأنه يرانى رقيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما عليه^(٣).

ب- نص العهد الذى كتبه أبو بكر لكسى يقرأ على الناس: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى أستخلف عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى به

(١) تاريخ الطبرى (٢٣٨/٤)، التاريخ الإسلامى (٢٥٨/٩).

(٢) الكامل لابن الأثير (٧٩/٢)، التاريخ الإسلامى شاكر، ص (١٠١).

(٣) الكامل لابن الأثير (٧٩/٢).

وعلمى فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، الخير أردت ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ج- إبلاغ الناس بنفسه: إنه أراد إبلاغ الناس بلسانه واعياً مدرگاً حتى لا يحصل أى لبس، فأشرف أبو بكر على الناس وقال لهم: أترضون بما أستخلف عليكم، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرية، وإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا^(١).

د- التوجه بالدعاء لله: إنه توجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويثبه كوامن نفسه، وهو يقول: اللهم وليته بغير أمر نبيك، ولم أرد بذلك إلا إصلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأى، فوليت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضر، فاخلفنى فيهم فهم عبادك^(٢).

هـ- تكليف عثمان بقراءة العهد على الناس: كلف أبو بكر رضى الله عنه عثمان ابن عفان أن يتولى قراءة العهد على الناس، وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبى بكر بعد أن ختمه لمزيد من التوثيق والحرص على إمضاء الأمر، دون أى آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقروا بذلك جميعاً ورضوا به^(٣).

و- وصية الصديق لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما: اختلى الصديق بالفاروق وأوصاه بمجموعة من التوصيات لإخلاء ذمته من أى شىء، حتى يمضى إلى ربه خالياً من أى تبعة بعد أن بذل قصارى جهده واجتهاده^(٤)، وقد جاء فى الوصية: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى دار الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل غداً أن يكون خفيفاً، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم

(١) تاريخ الطبرى (٤/٢٤٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/١٩٩)، تاريخ المدينة (٢/٦٦٥ - ٦٦٩). (٣) طبقات ابن سعد (٣/٢٠٠).

(٤) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص (٢٣٧).

بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف ألا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ورد عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم، قلت: إني لأرجو ألا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغباً راهباً، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حفظت وصيتي فلا يك غائب أبغض إليك من الموت، وليس تعجزه^(١).

ونلاحظ أن عمر رضى الله عنه ولى الخلافة باتفاق أصحاب الحل والعقد وإرادتهم، فهم الذين فوضوا لأبى بكر انتخاب الخليفة، وجعلوه نائباً عنهم فى ذلك، فشاور ثم عين الخليفة، ثم عرض هذا التعيين على الناس فأقروه وأمضوه، ووافقوا عليه، وأصحاب الحل والعقد فى الأمة هم النواب (الطبيعيون) عن هذه الأمة، وإذن فلم يكن استخلاف عمر رضى الله عنه إلا على أصح أساليب الشورى وأعدلها^(٢). إن الخطوات التى سار عليها أبو بكر الصديق فى اختيار خليفته من بعده لاتتجاوز الشورى بأى حال من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبعة فيها غير الإجراءات المتبعة فى تولية أبى بكر نفسه^(٣). وهكذا تم عقد الخلافة لعمر رضى الله عنه بالشورى والاتفاق، ولم يورد التاريخ أى خلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحداً نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته فى أثناء حكمه، فكان الجميع وحدة واحدة^(٤).

٣- طريقة انعقاد بيعة عثمان رضى الله عنه:

استطاع الفاروق رضى الله عنه فى اللحظات الأخيرة وهو على فراش الموت - رغم ما يعانىه من آلام جراحاته البالغة- أن يبتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها فى اختيار الخليفة الجديد، وكانت دليلاً ملموساً، ومعلماً واضحاً على فقهه فى سياسة الدولة الإسلامية، لقد مضى قبله الرسول ﷺ ولم يستخلف بعده أحداً بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق واستخلف الفاروق بعد مشاورة كبار الصحابة، ولما طلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت، فكر فى

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص (٢٣٧).

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٢٣٧).

(٤) النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الرئيس، ص (١٨١).

الأمر ملياً وقرر أن يسلك مسلكاً آخر يتناسب مع المقام، فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقرر بأفضلية أبي بكر وأسبقيته عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادراً، وخصوصاً أن النبي ﷺ وجه الأمة قولاً وفِعلاً إلى أن أبا بكر أولى بالأمر من بعده، والصدّيق لما رشح عمر كان يعلم أن عند الصحابة أجمعين قناعة بأن عمر أقوى وأقدر وأفضل من يحمل المسئولية بعده، فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة، ولم يخالف رأيه أحد منهم وحصل الإجماع على بيعة عمر^(١)، وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعمد على جعل الشورى في عدد محصور، فقد حصر ستة من صحابة رسول الله، كلهم بدريون، وكلهم توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وكلهم يصلحون لتولى الأمر -ولو أنهم يتفاوتون- وحدد لهم طريقة الانتخاب ومدته وعدد الأصوات، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات في المجلس ومنع الفوضى، بحيث لا يسمح لأحد يدخل أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الحل والعقد^(٢). وبهذا يكون أمير المؤمنون أرسى نظاماً صالحاً للشورى لم يسبقه إليه أحد، ولا يشك أن أصل الشورى مقرر في القرآن والسنة القولية والفعلية، وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر، ولم يكن عمر مبتدعاً بالنسبة للأصل، ولكن الذي عمله عمر هو تعيين الطريقة التي يختار بها الخليفة وحصر عدد معين جعلها فيهم، وهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصدّيق -رضى الله عنه- بل أول من فعل ذلك عمر ونعم ما فعل، فقد كانت أفضل الطرق المناسبة لحال الصحابة في ذلك الوقت^(٣).

وبهذا جعل أمير المؤمنين هيئة سياسية عليا، وهم أهل الشورى، وأناط بهم وحدهم اختيار الخليفة من بينهم، ومن المهم أن نشير إلى أن أحداً من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذي اتخذه عمر، كما أن أحداً من الصحابة الآخرين لم يثر أى اعتراض عليه، ذلك ما تدل عليه النصوص التي بين أيدينا، فحن لا نعلم أن اقتراحاً آخر صدر عن أحد من الناس في ذلك، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر خلال الساعات الأخيرة من حياته، أو بعد وفاته وإنما رضى الناس كافة هذا التدبير، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين، وفي وسعنا أن نقول: إن عمر قد

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢٧).

(١)، (٢) أوليات الفاروق، ص (١٢٢).

أحدث هيئة سياسية عليا مهمتها انتخاب رئيس الدولة أو الخليفة، وهذا التنظيم الدستوري الجديد، الذي أبدعته عبقرية عمر، لا يتعارض مع المبادئ الأساسية التي أقرها الإسلام، ولا سيما فيما يتعلق بالشورى، لأن العبرة من حيث النتيجة العامة التي تجرى في المسجد الجامع. وعلى هذا لا يتوجه السؤال الذي قد يرد على بعض الأذهان، وهو: من أعطى عمر هذا الحق؟ ما مستند عمر في التدبير؟ ويكفى أن نعلم أن جماعة من المسلمين قد أقرت هذا التدبير، ورضيت به ولم يُسمع صوت اعتراض عليه حتى نتأكد أن الإجماع - وهو مصدر من مصادر التشريع - قد انعقد على صحته ونفاذه^(١)، ولا ننسى أن عمر خليفة راشد، كما ينبغي أن نؤكد أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقرها نظام الحكم في الإسلام في العهد الراشدي، كما أن الهيئة التي سماها عمر، تمتعت بمزايا لم يتمتع بها غيرها من جماعة المسلمين، وهذه المزايا منحت لها من الله وبلغها الرسول، فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحد من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة من التقوى، والأمانة^(٢).

ومن الأمور المهمة حرص الفاروق على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهل لها، فهو يبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشحين للخلافة^(٣)، وقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر مع أهل الشورى وألا يكون له من الأمر شيء، ولكن قال لهم: فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فحكّموا عبد الله بن عمر، فأى الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا يحكم عبد الله بن عمر، فيكون مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فوصف عبد الرحمن بن عوف بأنه مسدد رشيد، له من الله حافظ فاسمعوا له^(٤). وقد أشرف على العملية الانتخابية عبد الرحمن بن عوف وشاور الناس في أمر على وعثمان رضى الله عنهما، وكان يشاور كل من يلقاه في المدينة من كبار الصحابة، وأشرفهم، ومن أمراء الأجناد، ومن يأتي للمدينة، وشملت مشاوراته النساء في خدورهن، وقد أبدى رأيهن، كما شملت الصبيان، والعبيد في المدينة، وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمن بن عوف أن معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (١/٢٢٧، ٢٢٨). (٢) المصدر نفسه (١/٢٢٩).

(٣) الخلفاء الراشدون للخالد، ص (٩٨). (٤) تاريخ الطبري (٥/٣٢٥).

عفان، ومنهم من كان يشير بعلى بن أبى طالب -رضى الله عنهما- . . ثم بعد ذلك أعلن عبد الرحمن بعد صلاة الصبح من اليوم الأخير من شهر ذى الحجة ٢٣ هـ النتيجة التى وصل إليها، فبعد أن تشهّد عبد الرحمن قال: أما بعد، يا على إننى قد نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل على نفسك سيلاً ثم بايع عثمان على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده. فبايعه الناس: المهاجرون ، والأنصار، وأمراء الأجناد والمسلمون^(١)، وجاء فى رواية صاحب التمهيد والبيان: أن على بن أبى طالب أوّل من بايع عبد الرحمن بن عوف^(٢)، وقد اعتبر الذهبى ما قام به عبد الرحمن بن عوف من أفضل أعماله، حيث قال: ومن أفضل أعمال عبد الرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحلّ والعقد، فنهض فى ذلك أتمّ نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محايياً فيها، لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبى وقاص^(٣)، وبهذا تحققت صورة أخرى من صور الشورى فى أحد الخلفاء الراشدين، وهى الاستخلاف عن طريق مجلس الشورى، ليعينوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامة، ثم البيعة العامة^(٤).

٤ - طريقة انعقاد بيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه:

تمت بيعة على رضى الله عنه بالخلافة بطريقة الاختيار، وذلك بعد أن استشهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه على أيدي الخارجين المارقين الشذاذ الذين جاءوا من الآفاق ومن أمصار مختلفة وقبائل متباينة، لا سابقة لهم، ولا أثر خير فى الدين، فبعد أن قتلوه رضى الله عنه ظلماً وزوراً وعدواناً، يوم الجمعة لثمانى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين^(٥)، قام كل من بقى بالمدينة من أصحاب رسول الله بمبايعة على رضى الله عنه بالخلافة، وذلك لأنه لم يكن أحد أفضل منه على الإطلاق فى ذلك الوقت، فلم يدع الإمامة لنفسه أحد بعد عثمان، ولم يكن أبو السبطين رضى الله عنه حريصاً عليها، ولذلك لم

(٢) التمهيد والبيان، ص (٢٦).

(٤) دراسة فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٢٧٨).

(١) البيهقى، ك الأحكام رقم (٧٢٠٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/٨٦).

(٥) الطبقات لابن سعد (٣/٣١).

يقبلها، إلا بعد إلحاح شديد ممن بقى من الصحابة بالمدينة، وخوفاً من ازدياد الفتنة وانتشارها، ومع ذلك لم يسلم من نقد بعض الجهال إثر تلك الفتنة كموقعة الجمل وصفين التي أوقد نارها وأنشبهها الحاقدون على الإسلام كابن سبأ وأتباعه الذين استخفهم فأطاعوه لفسقهم ولزيف قلوبهم عن الحق والهدى، وقد روى الكيفية التي تم بها اختيار على رضى الله عنه للخلافة بعض أهل العلم^(١)، فقد روى أبو بكر الخلال بإسناده إلى محمد بن الحنفية قال: كنت مع على رحمه الله وعثمان محصور قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة، قال: فقام على رحمه الله، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفاً عليه فقال: خل لا أم لك، قال: فأتى على الدار وقد قتل الرجل رحمه الله، فأتى داره فدخلها وأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه، فقالوا: إن هذا قد قتل، ولا بد للناس من خليفة، ولا نعلم أحداً أحق بها منك، فقال لهم على: لا تريدونى فإنى لكم وزير خير منى لكم أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحداً أحق بها منك، قال: فإن أبيتم على فإن بيعتى لا تكون سراً، ولكن أخرج إلى المسجد، فبايعه الناس^(٢).

٥ - طريقة انعقاد بيعة الحسن بن على رضى الله عنه:

كانت بيعة الحسن بن على رضى الله عنه فى شهر رمضان من سنة ٤٠هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، وقد اختار الناس الحسن بعد والده، ولم يعين أمير المؤمنين أحداً من بعده، فعن عبد الله بن سبيع قال: سمعت علياً يقول: لتخضبن هذه من هذا^(٣)، فما ينتظر بى الأشقى^(٤) قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير عترته^(٥)، قال: إذن تالله تقتلون بى غير قاتلى. قالوا: فاستخلف علينا، قال: لا، ولكن أترككم إلى ماتركم إليه رسول الله ﷺ، قالوا: فما تقول لربك إذا أتيت؟ قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم وفى رواية: أقول اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم.

(١) عقيدة أهل السنة فى الصحابة الكرام (٦٧٧/٢). (٢) كتاب السنة لأبى بكر الخلال، ص (٤١٥).

(٣) أى لتخضبن لحيته من دم رأسه.

(٤) مجمع الزوائد (٩٢١/٩)، مسند أحمد (٣٢٥/٢) حسن لغيره.

(٥) نبير عترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب (٥/٤)، (٥٣٨).

وبعد مقتل على صلى عليه الحسن بن على وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه، وقتال المحلّين، فقال له الحسن رضى الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط، فبايعه وسكت وبايعه الناس^(١). وقد اشترط الحسن بن علىّ على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالم، وتحاربون من حاربت^(٢)، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالم وتحاربون من حاربت^(٣)، وفي رواية ابن سعد: إن الحسن بن على بن أبى طالب بايع أهل العراق بعد علىّ على بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه ويرضوا بما رضى به^(٤).

٦ - طريقة انعقاد بيعة معاوية رضى الله عنه:

تمت بيعة معاوية بتنازل الحسن بن على رضى الله عنه عن الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة، وسمى هذا العام بعام الجماعة^(٥)، وقد بايع معاوية رضى الله عنه كل الصحابة الأحياء، وأجمعت الأمة عليه، وعدوا خلافته شرعية ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلي أمر المسلمين ويقوم به خير قيام.

٧ - المآخذ على فكرة ولاية العهد فى عهد معاوية:

صحيح أن النظام الإسلامى للحكم لم ينص على طريقة معينة لاختيار ولى الأمر، ولكنه وضع الأساس التى لا تجوز الحيدة عنه، إلا فى حالات الضرورة والاضطرار، وهو الشورى، وليس للشورى أسلوب خاص، وطريقة واحدة، لا تتحقق إلا بها، ولكن تتحقق بأساليب شتى كما مرّ معنا فى اختيار الأمة للخلفاء الراشدين، ولئن قصد معاوية رضى الله عنه بإحداث ولاية العهد فى نظام الحكم الإسلامى جمع كلمة المسلمين، وحقن دمائهم، فهو -إن شاء الله تعالى- مأجور

(١) تاريخ الطبرى (٧٣/٦).

(٢) المصدر نفسه (٧٧/٢).

(٣) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمى (٢٨٦/١، ٢٨٧).

(٤) المصدر نفسه (٣١٦/١، ٣١٧).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٣٧/٣)، تاريخ خليفة، ص (٢٠٣).

على أنه كان قادراً على أن يجعل العهد بعده لغير ولده من كبار الصحابة الموجودين في تلك الفترة، وكان فيهم كفاءات لو أسند إليهم الأمر، فقد كان الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر وغيرهم موجودين في هذا الوقت، ولكن معاوية رضى الله عنه عدل عن هؤلاء وقصد لولده ليكون خليفة بعده، وبذلك حصل التغيير الحقيقي في نظام الحكم الإسلامى، فليس التغيير في إيجاد نظام ولاية العهد... ولكن التغيير في أن يكون ولى العهد ولد الخليفة أو أحد أقاربه، حتى أصبحت الحكومة ملكية بعد أن كانت خلافة راشدة^(١)، وإذا كنا مأمورين باتباع سنة الرسول وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، فإن التزام نظام الوراثة ليس من سنة النبي ولا من سنة خلفائه الراشدين، كما أن ترشيح يزيد لم يكن موفقاً لأسباب، منها: أن المجتمع الإسلامى يومئذ كان فيه من أحق وأولى بالخلافة من يزيد في سابقته وعلمه وعمله ومكانه وصحته؛ كعبد الله بن عمر وابن عباس وغيرهما، فأين الثرى من الثريا؟^(٢) ومنها: مبدأ توريث الحكم من الأب لابنه.

وعلى كل تقدير فهذا لا يقدح فيما عليه أهل السنة، فإنهم لا يتزهون معاوية ولا من هو أفضل منه من الذنوب، فضلاً عن تنزيههم عن الخطأ في الاجتهاد، بل يقولون إن للذنوب أسباب تدفع عقوبتها، من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وغير ذلك، وهذا أمر يعم الصحابة وغيرهم^(٣)، ومعاوية رضى الله عنه من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببرىء من الهنات والله يعفو عنه^(٤)، والذي يجب أن نعتقده في معاوية أن قلوبنا لا تنضوي على غل لأحد من أصحاب محمد ﷺ، بل نقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] ونقول إن معاوية اجتهد للأمة خوفاً عليها من الانقسام والفتن، ولا يمكن أن يحمل تبعات كل أخطاء الملوك والأمراء الذين جاءوا من بعده، كما قرره عبد القادر عودة - رحمه الله -: حيث يقول: وأقام

(١) الأمويون بين الشرق والغرب، للوكيل (١/ ١٨٠). (٢) تاريخنا المقتدى عليه للقرضاوى، ص (٢٥٠).

(٣) منهاج السنة (٤/ ٣٨٥). (٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٦).

معاوية أمر الأمة الإسلامية على المحججات والظلم وإهدار الحقوق، وقضى على الشورى وعطل قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وحوّل الحكم العادل النظيف إلى حكم قذر قائم على الأهواء والشهوات، ووجه الناس إلى النفاق والذلة والصغار، ولا شك فى أن كل من جاءوا بعده إلى عصرنا هذا قد عمل بستمته وتثبتوا ببدعته -حاشا عمر بن عبد العزيز- فعلى معاوية -وقد استن هذه السنة السيئة- إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة^(١). وإذا كان معاوية أو الخلفاء الأمويون قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، ثالث خلفاء الأمويين قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة. . وإنه لما يستوجبه الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط ولم تستطع الأمة التى أعطيت حقها فى اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق فى عصر الراشدين، وبرز بوضوح دور العصبية الإقليمية والقبلية، وحُسم فى النهاية الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموى، واستطاعت الشام أن تحقق الحسم التاريخى بعمق الالتحام بين بنائها القبلى والوجود الأموى بها^(٢)، وسيأتى -بإذن الله- التفصيل عند حديثنا عن معاوية الثانى. والحقيقة أن بيعة يزيد قد قبلها الكثير حتى الصحابة رضوان الله عليهم فقد بايعه ستون من أصحاب محمد ﷺ فيهم ابن عمر^(٣) خوفاً من الفتنة وحرصاً على وحدة الصف، فقد توفى عبد الرحمن بن أبى بكر بعيد خروج معاوية من المدينة ولم يبق من المعارضين إلا ثلاثة هم ابن عمر وابن الزبير والحسين بن على، أما ابن عمر فلما رأى الناس مجتمعين على يزيد بايعه، وأرسل بيعته بعد وفاة معاوية رضى الله عنه وقال: إن كان خيراً رضىنا به وإن كان بلاءً صبرنا^(٤)، وانحصرت المعارضة فى شخص ابن الزبير والحسين بن على رضى الله عنهما، وقد حاول بعض الناس أن يلفقوا على معاوية رضى الله عنه تحسره من بيعة يزيد فنقلوا عنه أنه قال: لولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى^(٥). والسند من طريق الواقدى وهو

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص (١٥٩). (٢) الدولة الأموية المقتدى عليها، ص (٢٩٣-٢٩٥).

(٣) القيد الشريد ورقة ١٧، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (١٥٣).

(٤) مصنف ابن أبى شيبة (١١/١٠٠) بسند صحيح. (٥) أنساب الأشراف (٤/٢٨).

متروك^(١)، ونسبوا إليه أيضاً أنه قال ليزيد: ما ألقى الله بشيء أعظم فى نفسى من استخلافك^(٢). والسند من طريق الهيثم بن عدى وهو كذاب^(٣)، ولقد اعتمد محمد رشيد رضا -رحمه الله- على هذه الرواية وتحامل على معاوية تحاملاً قاسياً^(٤)، ولقد تورط الكثير من الباحثين فى الروايات الضعيفة والموضوعة فيما يتعلق بتاريخ صدر الإسلام، وبنوا عليها تصورات وأفكاراً وأحكاماً تحتاج إلى إعادة نظر من جديد.

ومع ما وقع من انحراف فى تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامى، الذى تتمثل فيه روح الإسلام كاملة -وهو الخلافة- واستبدال الملك العضوض به^(٥)، إلا أن الطابع الإسلامى هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرفات الحكام، فالصلاة تؤدى فى أوقاتها، والزكاة تحصل من أربابها والصوم فريضة لا يعارض فى أدائها، وإقامة الحدود دون هواده لم يقف شىء دون تنفيذها، والجهاد فى سبيل الله فريضة ماضية بين رجالها، وبالجملة كانت تعاليم الإسلام مطبقة بحذافيرها^(٦).

سابعاً : الأيام الأخيرة فى حياة معاوية:

١ - وصية معاوية رضى الله عنه ليزيد:

لما حضر معاوية الموت وذلك سنة ٦٠هـ وكان يزيد غائباً، دعا بالضحاك بن قيس الفهرى - وكان صاحب شرطته - ومسلم بن عقبة المرى، فأوصى إليهما فقال: بلغا يزيد وصيتى: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلى من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شىء من عدوك فانتصر بهم، فإن أصببتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٥٢). (٢) أنساب الأشراف (٤/ ٦٠).

(٣) مواقف المعارضة، ص (١٥٢).

(٤) مواقف الصحابة فى خلافة يزيد، ص (١٥٢)، الخلافة، محمد رشيد، ص (٥٢).

(٥) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٢). (٦) الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ٩٤، ٩٥).

أخذوا بغير أخلاقهم، وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقده الدين، فليس ملتصماً قبلك، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسّة، وحقاً عظيماً، وقرابة محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خبّ صبّ، فإذا شخص لك فالبد له، إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت^(١). تظهر في هذه الوصية كفاية معاوية ودهاؤه السياسى من خلال تشخيصه لأهمية الأمصار ومدى تأثيرها المستقبلى على أوضاع الدولة الأموية، فذكر في وصيته ثلاثة أقاليم فقط هى الحجاز والعراق والشام، ذلك أن الأوضاع السياسية خارج دائرة هذه الأقاليم، لم تكن تثير أى هموم جدية لدى معاوية^(٢).

أ- الحجاز: فبالنسبة للحجاز يوصى معاوية ابنه قائلاً: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب^(٣)، ويأتى اهتمام معاوية بالحجاز فضلاً عن كونه محل أهله وعشيرته فهو من الناحية السياسية كان -ولوقت قريب- مركز الثقل السياسى للدولة الإسلامية (مقر الخلافة)، ومن الناحية الدينية لم يزل يحتل مركز الصدارة لاحتضانه جل ما تبقى من صحابة الرسول ﷺ، وبإمكانه تفويض حكم بنى أمية فيما لو اجتمعت كلمته وأتيحت الفرصة له، وهو بعد ذلك لا يزال المكان الحقيقى للبيعة^(٤)، والأهم من ذلك كله فإنه يضم عدداً من الشخصيات المعارضة للحكم الأموى، أمثال الحسين بن علي رضى الله عنه، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وابن عباس رضى الله عنهم جميعاً، كما سترى ذلك فى الفقرات اللاحقة من الوصية، ولذلك نرى معاوية يحث يزيد على استخدام مختلف الوسائل لاستقطاب الحجاز بما فى ذلك إغداق الأموال^(٥)، ولهذه الأسباب أيضاً وضع معاوية السلطة فى هذا الإقليم تحت مراقبته المباشرة، حيث

(١) تاريخ الطبرى (٦/٢٤١). (٢) الوصية السياسية فى العصر العباسى، حقى إسماعيل، ص (٤٦).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/٢٤١). (٤) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤٦).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٦).

قام بتنفيذ سياسته في البيت الأموي، وقام بتشجيع مختلف النشاطات غير السياسية المناهضة له فيه^(١)، واهتم بأهله اهتماماً خاصاً.

ب- العراق: أما الإقليم الثاني الذي يثير اهتمام معاوية فهو العراق، لذا يوصى ولي عهده أن يعامل أهل العراق معاملة خاصة، فيقول: انظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلى من أن يشهر عليك مائة ألف سيف^(٢). ومن الجدير بالذكر أن شكايه أهل العراق من ولايتهم كانت منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

ج- الشام: أما الإقليم الثالث فهو الشام، فإن وصية معاوية به تأتي من باب رد الجميل لأهل الشام لدورهم الكبير في مساندته بالوصول إلى الحكم وتأييدهم المستمر لسياسته، لذا يوصى ابنه أن يجعلهم محل ثقته وعنايته وأن يدرهم للمهمات الجسام في قوله: وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعييتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم^(٣). . . وتظهر الفقرة الأخيرة من هذا النص بعد نظر معاوية السياسى، فهو يسدى مخاوفه من اختلاط أهل الشام^(٤)، ببقية سكان الأقاليم الأخرى فتتبدل أخلاقهم نتيجة مكوثهم مدة طويلة، ولربما استطاع المعارضون للحكم الأموي التأثير على جند الشام، على الرغم من التقاء مصالحهم مع مصالح البيت الأموي، فتسقط من يد الخلافة الأموية الورقة الراححة التي طالما استخدمها معاوية وقطف ثمارها، ولهذا يوصى معاوية ابنه بأن يسرع في إعادة جند الشام إلى بلادهم حال انتهاء مهمتهم^(٥)، ومن أهم ما فى وصية معاوية خطته التي رسمها لولى عهده فى مواجهة الأحداث المقبلة، وأوكل إليه تنفيذها بعد أن عجز هو عن إقناع نفر من قريش بالبيعة ليزيد، على الرغم من أن الروايات تذكر أن معاوية ذهب إلى الحجاز لهذا الغرض، والتقى بالشخصيات التي رفضت البيعة ليزيد، كل على انفراد، فى محاولة للحصول منهم على وعود بالبيعة^(٦)، إلا أن

(١) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤٦). (٢) تاريخ الطبرى (٦/٢٤١).

(٣) المصدر نفسه (٦/٢٤١). (٤) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٨). (٦) المصدر نفسه، ص (٤٨).

هذه الجهود لم تثمر فى تذليل المصاعب قبل ظهورها^(١)، والوصية تظهر أن الحجاز، وتحديدًا المدينة، هى أكثر البلدان معارضة لحكم بنى أمية، ولهذا يوصى معاوية ابنه أن يكون حذرًا ودقيقًا فى تعامله معها، وأن يكون حازمًا شديدًا حين يتطلب الأمر ذلك، ومرنًا لينًا مع من لا يشكلون خطرًا حقيقياً عليه، لما للحجاز من أهمية بالغة فى تقرير وتثبيت الحكم^(٢).

وكان معاوية رضى الله عنه مصيباً فى رأيه بعبد الله بن عمر من أنه رجل قد وقده الدين، ولا خطر على يزيد منه، وذلك أن الوليد بن عتبة حين طلبه للبيعة قال: إذا بايعتُ الناس بايعتُ، فتركوه لثقتهم بزهادته فى الأمر وشغله بالعبادة^(٣)، وكان مصيباً فى حدسه من أهل العراق لن يتركوا الحسين بن على رضى الله عنه حتى يخرجوه، ويبدو أنه كان متأكدًا من وقوع الاصطدام بينهما، لذلك طلب من يزيد أن يعفو عنه إذا تمكن منه، أما الخطر الحقيقى الذى يتطلب الحزم والشدة فإنه يأتى من عبد الله بن الزبير الذى كان يتمتع -على ما يبدو- بتأييد واسع النطاق بين معظم المعارضين للحكم الأموى، ولأنه كان رجل سياسة وحرب من الطراز الأول، وعلى الجملة فإن وصية معاوية تعكس سياسته ودهاءه فى تصريف الأمور، فنراه من خلال الوصية يتعامل مع الأحداث التى تتطلب الشدة حزمًا، وفيما عدا ذلك فهو يستخدم خبرته وتجربته السياسية الطويلة فى مواجهة الأحداث، وقد وصف معاوية نفسه مشيراً إلى هذه السياسة بقوله: إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً. ف قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها^(٤)، وكان على الدوام يوصى يزيد بهذه السياسة فيقول له: عليك بالحلم، والاحتمال، حتى تتمكنك الفرصة فإذا أمكنتك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور^(٥). وفى هذه الوصية يلخص معاوية رضى الله عنه منهجه وخبرته فى السياسة والإدارة لابنه يزيد فى كلمات قليلة جامعة، تتم عما يتمتع به هذا الصحابى الكريم من حنكة سياسية وبراعة إدارية^(٦).

(١) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص(٤٨). (٢) المصدر نفسه، ص (٤٩).

(٣) أنساب الأشراف (١٤/٤). (٤) نهاية الأرب (٤٤/٦)، العقد الفريد (٢٥/١).

(٥) نهاية الأرب (٢٥٦/١). (٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص(٩٥).

٢- آخر خطبة معاوية رضى الله عنه واشتداد مرضه ووفاته:

كانت آخر خطبة خطبها معاوية رضى الله عنه قوله: أيُّها الناس، إن من زرع قد استحصد، وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدى إلا من هو شر منى، كما كان من وليكم قبلى خيراً منى، ويا يزيد، إذا وفى أجلى فوكِّ غسلى رجلاً لبيّاً، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ، وقراصة من شعره وأظفاره، فاستودع القراصة أنفى وفمى وأذنى وعينى، واجعل الثوب يلى جلدى دون أكفانى، ويا يزيد، احفظ وصية الله فى الوالدين، فإذا أدرجتمونى فى جريدتى، ووضعتونى فى حفرتى، فخللوا معاوية وأرحم الراحمين^(١).

ولما احتضر معاوية جعل يقول:

لعمري لقد عمّرتُ فى الدهر برهة	ودانت لى الدنيا بوقع البواتر
وأعطيت حمراً المال والحكم والنهى	وسلمَ قماقيم ^(٢) الملوك الجبابر
فأضحى الذى قد كان مما يسرُّنى	كحلم مضى فى الزمونات الغوابر
فيا ليتنى لم أعن فى الملك ساعة	ولم أعن فى لذات عيشٍ نواضر
وكنت كذى طمرين عاش ببلغة	من العيش حتى زار ضيق المقابر ^(٣)

وقد أوصى معاوية بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد أن يطيب له، لأن عمر بن الخطاب قاسم عمّاله^(٤). وذكروا أنه فى آخر عمره اشتد به البرد، فكان إذا لبس أو تغطى بشيء ثقيل يغمه، فاتخذ له ثوب من حواصل الطير^(٥)، ثم ثقل عليه بعد ذلك، فقال: تباً لك من دار ملكتك أربعين سنة؛ عشرين أميراً، وعشرين خليفة، ثم هذا حالى فىك، ومصيرى منك، تباً للدنيا ومُحبيها^(٦)، ولما اشتد المرض وتحدث الناس أنه الموت، قال لأهله: احشوا عينى إثمداً، وأوسعوا

(١) البداية والنهاية (١١/٤٥٤).

(٢) القماقم والقماقم من الرجال: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل، ويجمع قياساً على قماقيم.

(٣)، (٤) البداية والنهاية (١١/٤٥٥).

(٥) الحواصل: جمع حوصلة، وحوصلة الطائر بمنزلة المعدة للإنسان. (٦) البداية والنهاية (١١/٤٥٥).

رأسى دهنًا. ففعلوا وبرقوا^(١) وجهه بالدهن، ثم مهّد له فجلس. وقال: أسندونى. ثم قال: ائذنوا للناس فليسلموا علىّ قياماً ولا يحبس أحد. فجعل الرجل يدخل فيسلم قائماً فيراه متكحلاً مُتدهنًا، فيقول متقولّ الناس: هو لما به^(٢)، وهو أصح الناس، فلما خرجوا من عنده^(٣) تمثل معاوية بقول أبى ذؤيب الهذلى الشاعر:

وتجلىدلى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تيممة لا تنفع

وكان به النقابة^(٤)، فمات من يومه ذلك^(٥)، وكان يقول لما نزل به الموت: يا ليتنى كنت رجلاً من قريش بذى طوى ولم أَلِ من هذا الأمر شيئاً^(٦)، ومن الشعر الذى تمثل به أيضاً قول الشاعر:

إن تناقش يكن نقاشك يا ربّ عذاباً لا طوق لى بالعذاب
أو تجاوز تجاوز العفو فاصفح عن مسيء ذنوبه كالتراب^(٧)

وقال رضى الله عنه وهو يُقَلَّب فى مرضه، وقد صار كأنه سعة محترقة: أى شيخ تقلّبون إن نجاه الله من النار غداً؟^(٨)، وقال الحسن البصرى: دُخِل على معاوية وهو بالموت، فبكى، فقيل: ما يبكيك؟

قال: ما أبكى على الموت أن حل بى، ولا على دنيا أخلفها، ولكن هما قبضتان: قبضة فى الجنة، وقبضة فى النار، فلا أدرى فى أى القبضتين أنا^(٩).

وأعمى على معاوية رضى الله عنه فى سكرات الموت ثم أفاق فقال لأهله: اتّقوا الله، فإن الله يقى من اتّقاءه ولا يقى من لا يتقى^(١٠)، وجعل معاوية رضى الله عنه لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقَلَّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت فى كتابك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] اللهم اجعلنى ممن تشاء أن تغفر له^(١١)، ومن دعائه فى ذلك اليوم:

(١) برّقوا: لمّعوا .

(٢) لما به: اقترب أجله .

(٣) البداية والنهاية (٤٥٦/١١) .

(٤) النقابة: قرحة تخرج فى الجنب وتهجم الجوف .

(٥)، (٦)، (٧) البداية والنهاية (٤٥٦/١١) .

(٨) المصدر نفسه (٤٥٧/١١) .

(٩) كتاب المحتضرين، ص (١٩٩)، سكب العبرات (١/١٩٠) .

(١٠) البداية والنهاية (٤٥٧/١١) .

(١١) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٥) .

اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرَجُ غيرك، فإنك واسع المغفرة، ليس لذي خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك ثم مات^(١). وجاء في رواية: اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقاءى^(٢). رحم الله معاوية رضى الله عنه.

٣ - سنة وفاة معاوية، ومن صلى عليه:

قال الطبرى: فى هذه السنة هلك معاوية بن أبى سفيان بدمشق، فاختلف فى وقت وفاته بعد إجماع جميعهم على أن هلاكه كان فى سنة ستين من الهجرة وفى شهر رجب^(٣)، وقال ابن حجر: مات معاوية فى رجب سنة ستين على الصحيح^(٤)، وصلى على معاوية الضحاك ابن قيس الفهرى، وكان يزيد غائباً حين مات معاوية^(٥)، فقد خرج الضحاك حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان عود العرب^(٦)، وحدّ العرب^(٧)، قطع الله عز وجل به الفتنة وملّكه على العباد، وفتح به البلاد. ألا إنه قد مات، فهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومُحلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى^(٨). وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية، وقد اختلف المؤرخون هل حضر يزيد وفاة أبيه أم لا؟ والصحيح أن يزيد لم يدرك والده حياً وإنما جاء بعد موته^(٩). ولما وصل يزيد الخبر قال:

جاء البريد بقرطاس يخب به فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويل ماذا فى كتابكم؟ قالوا: الخليفة أمسى مثبّتا وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا كأن أغبر من أركانها انقطعنا
من لا تزال نفسه توفى على شرف توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما اتتهينا وباب الدار منصفق وصوت رملة^(١٠) ريع القلب فانصدعا^(١١)

(١) البداية والنهاية (١١/٤٥٧). (٢) تاريخ ابن خلدون (٣/٢١).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/٢٤١). (٤) الإصابة (٦/١٥٥).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٥). (٦) العود: الرجل المسن، لسان العرب (٣/٣٢١).
(٧) حد كل شئ: منتهاه. (٨) أى عند صلاة الظهر كما ورد فى بقية المصادر.
(٩) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٦). (١٠) رملة بنت معاوية بن أبى سفيان، زوجة عمرو بن عثمان بن عفان.
(١١) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٦).

٤ - عمر معاوية رضى الله عنه عند وفاته:

على القول الراجح: توفى معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة^(١)، بدليل قول ابن حجر: إن مولده كان قبل البعثة بخمس سنوات على الأشهر^(٢)، وكما هو معروف فإن بعثة الرسول ﷺ قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، وبذلك يكون مولد معاوية قبل الهجرة بثمانى عشرة سنة، ولما كانت وفاته سنة ستين، فهذا يعنى أن عمره عند وفاته كان ثمانى وسبعين سنة^(٣).

٥ - مدة خلافته:

تنازل الحسن بن على لمعاوية بالتخيلة وتمت بيعته فى شهر ربيع الأول من عام ٤١هـ، ومات بدمشق سنة ٦٠هـ يوم الخميس لثمان بقين من رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً^(٤).

٦ - ما قيل فيه من رثاء:

قال أبو الورد العنبرى يرثى معاوية رضى الله عنه:

ألا أنعى معاوية بن حرب نعاه الحل للشهر الحرام
نعاه الناعجات^(٥) بكل فج خواضع فى الأزمة كالسهم
فهاتيك النجوم وهنَّ خُرسٌ ينخن على معاوية الشام
وقال أيمن بن خزيم يرثيه أيضاً:

رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سُمودا
فردَّ شعورهنَّ السُّود بيضاً ورد وجوهنَّ البيض سُودا
فإنك لو شهدت بكاء هند ورملة إذ يُصَفَّقُنَّ الخُدودا
بكيك بكاء مُعولةٍ قريح^(٦) أصاب الدهر واحداها الفريدا^(٧)

(٢) الإصابة (١٥١/٦) .

(٤) المصدر نفسه (٢٤٣/٦) .

(٥) الناعجات: جمع ناعجة وهى المرأة الحسنة اللون . (٦) المعولة: الرافعة صوتها بالبكاء، القريح: الجريح.

(٧) البداية والنهاية (٤٦٢/١١) .

٧- ما قاله ابن عباس في موت معاوية رضى الله عنهم :

قال عامر بن مسعود الجهني : مرّ بنا نعيُ معاوية ونحن في المسجد، فأتينا ابن عباس، فوجدناه جالساً وقد وضع خوانه^(١)، وعنده نفر، ولم يوضع الطعام، فقلنا: يا ابن عباس، أما علمت بهذا الخبر؟ فقال: وما هو؟ قلنا: هلك معاوية. فقال: ارفع خوانك يا غلام، وسكت ساعة هاجماً^(٢)، ثم قال: جبل ترزعزع ثم زال بجمعه في البحر^(٣). قال القاضي أبو يعلى بعدما ذكر القصة: اللهم أنت أوسع لمعاوية كنفاً، وأحسن من تجاوز عنه وعنّا^(٤).

٨- نقش خاتمه:

كان نقش خاتمه: لكل عمل ثواب^(٥)، وقيل: لا قوة إلا بالله^(٦).

٩- التبرك بآثار الرسول ﷺ:

عن عبد الأعلى بن ميمون، عن أبيه أن معاوية قال في مرضه الذي مات فيه: إن رسول الله ﷺ كساني قميصاً فرفعتّه، وقلم أظفاره يوماً، فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة، فإذا مت فألبسوني ذلك القميص، وقطّعوا تلك القلاية واسحقوها وذروها في عيني، وفي في^(٧)، فعسى الله أن يرحمني ببركتها^(٨).

ويعتبر تبرك الصحابة رضوان الله عليهم بآثار النبي ﷺ الحسية المنفصلة عنه، من أنواع التبرك المشروع حيث فعله الصحابة رضوان الله عليهم أثناء حياته ﷺ وبعد مماته^(٩)، كما فعله السلف الصالح رحمهم الله تعالى ومن الأدلة على ذلك:

أ- عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب عليّ من وضوئه فعقلت^(١٠).

ب- عن عثمان بن عبد الله بن وهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدر من ماء.. فيها شعر من شعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث

(١) الخوان: ما يوضع عليه الطعام عند الأكل. (٢) هاجماً: ساكناً مطرقاً.

(٣) تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، ص (١١٣). (٤) المصدر نفسه، ص (١١٣).

(٥) تاريخ القضاة، ص (٣٢٦). (٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٦).

(٧) في: الفم. (٨) تاريخ الطبري (٦/٢٤٥).

(٩) مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص (٩٣). (١٠) صحيح البخاري مع فتح الباري (١/٣٦٠).

إليها مخضبة^(١). قال ابن حجر: بعث إليها مخضبة - وهو من جملة الآنية - والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل بعده استشفاءً بها فتحصل له^(٢).

ج - وعن أسماء بنت أبي بكر رضی الله عنها قالت في جبة رسول الله ﷺ: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها^(٣).

وقد فرغ العلماء على مسألة التبرك بآثار الرسول ﷺ مسألة التبرك بفضلات الصالحين، وآثارهم ففي حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده... وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه^(٤)، وقد علق الشاطبي على هذا الحديث، وأحاديث أخرى تماثله، فقال: فالظاهر في مثل هذا النوع أن يكون مشروعاً في حق من ثبتت ولايته، واتباعه لسنة رسول الله ﷺ، وأن يتبرك بفضل وضوئه، ويتدللك بنخامته، ويستشفى بآثاره كلها، إلا أنه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله، وهو أن الصحابة رضی الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع أحد منهم في شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه، إذ لم يترك النبي ﷺ بعد موته، أفضل من أبي بكر الصديق رضی الله عنه، فهو خليفته، ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر رضی الله عنه وهو كان أفضل الأمة بعده، ثم كذلك عثمان بن عفان، ثم علي، ثم سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركاً تبرك به على أحد تلك الوجوه، أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال، والأقوال، والسير التي اتبعوا فيها النبي ﷺ، فهو -إدأ- إجماع منهم على ترك تلك الأشياء^(٥).

(٢) فتح الباري (١٠/٣٦٥).

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى (١٠/٣٦٤).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٤٣/١٤).

(٤) زاد المعاد (٣/٢٩٠)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (٤٨٨).

(٥) غزوة الحديبية للحكمي، ص (٣٠٥).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣

الفصل الأول

معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة

المبحث الأول: اسمه ونسبه وكنيته وأسرته	١٣
أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ومولده	١٣
ثانياً: إسلام أبى سفيان والد معاوية رضى الله عنهما	١٣
ثالثاً: هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضى الله عنهما	١٥
رابعاً: من إخوان وأخوات معاوية رضى الله عنه	١٧
خامساً: زوجات معاوية رضى الله عنه وأولاده	٢٦
سادساً: إسلام معاوية رضى الله عنه وشيء من فضائله	٢٧
سابعاً: رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ	٣٠
ثامناً: من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى شأن معاوية مدحاً وذمماً	٣٤
١- من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى مدح معاوية	٣٤
٢- من الأحاديث الباطلة فى ذم معاوية	٣٥
٣- دور بنى أمية فى عهد رسول الله ﷺ	٣٦
المبحث الثانى: الأمويون ومعاوية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان	
رضى الله عنهم	٣٩
أولاً: فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه	٣٩
ثانياً: فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه	٤٢

- ٤٣ ١- بدأ نجم معاوية فى الظهور
- ٤٥ ٢- ولايته على دمشق وبلبك والبلقاء
- ٤٥ ٣- معاوية فى موكب عظيم وإنكار عمر عليه
- ٤٨ ٤- جهود معاوية رضى الله عنه على جبهة الشام
- ٤٩ ثالثاً: معاوية رضى الله عنه فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه
- ٥٠ ١- فتوحات حبيب بن سلمة الفهرى رضى الله عنه
- ٥٢ ٢- غزوات معاوية فى عهد عثمان فى البر
- ٥٣ ٣- معاوية يلتمس من عثمان رضى الله عنهما السماح له بالغزو البحرى
- ٥٤ ٤- غزو قبرص
- ٥٦ ٥- الاستسلام وطلب الصلح
- ٥٦ ٦- عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامى فى الشام
- ٥٨ ٧- القبارصة ينقضون الصلح
- ٥٩ ٨- ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه
- ٩- معاوية يولى عبادة بن الصامت رضى الله عنهما على قسمة غنائم
- ٦٠ قبرص
- ١٠- حقيقة الخلاف بين أبى ذر ومعاوية وموقف عثمان رضى الله عنه
- ٦٠ منه
- ٦٤ ١١- اتهام عثمان رضى الله عنه بإعطاء أقاربه من بيت المال
- ٦٦ ١٢- هل عين عثمان رضى الله عنه أحداً من أقربائه على حساب المسلمين؟
- ٧٠ ١٣- أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه
- ٧١ أ - الرخاء وأثره فى المجتمع
- ٧٢ ب - طبيعة التحول الاجتماعى فى عهد عثمان رضى الله عنه
- ٧٣ ج - ظهور جيل جديد

- د - استعداد المجتمع لقبول الشائعات ٧٤
- هـ - مجيء عثمان بعد عمر، رضى الله عنهما ٧٥
- و - خروج كبار الصحابة من المدينة ٧٥
- ز - العصبية الجاهلية ٧٦
- ح - توقُّف الفتوحات بسبب حواجز طبيعية أو بشرية ٧٧
- ط - المفهوم الخاطيء للورع بتحريم الحلال ٧٧
- ى - ظهور جيل جديد من الطامحين ٧٨
- ك - وجود طائفة موتورة من الحاقدين ٧٨
- ل - التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضى الله عنه ٧٩
- م - استخدام الأساليب والوسائل المهيجة للناس ٨٠
- ن - دور عبد الله بن سبأ فى تحريك الفتنة ٨١
- س - موقف معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى الفتنة ٨٤
- ف - كتابة معاوية إلى عثمان رضى الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة ٩٠
- ع - مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأى معاوية فى ذلك ٩٤
- غ - مقتل عثمان رضى الله عنه وموقف الصحابة من ذلك ٩٥
- المبحث الثالث: معاوية بن أبى سفيان فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما ١٠٠
- أولاً: اختلاف الصحابة فى الطريقة التى يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان ١٠١
- ثانياً: معركة صفين (٣٧هـ) ١٠٣
- تسلسل الأحداث التى قبل المعركة ١٠٣
- ١- أم حبيبة بنت أبى سفيان ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى

- ١٠٣ معاوية وأهل الشام
- ١٠٤ ٢- دوافع معاوية رضى الله عنه فى عدم البيعة
- ١٠٨ ٣- معاوية يرد على أمير المؤمنين على رضى الله عنهما
- ١٠٨ ٤- تجهيز أمير المؤمنين على لغزو الشام
- ١٠٨ ٥- إرسال أمير المؤمنين على، جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل
- ١٠٩ ٦- مسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام
- ١١٠ ٧- خروج معاوية إلى صفين
- ١١١ ٨- القتال على الماء
- ١١٢ ٩- المودعة بينهما ومحاولات الصلح
- ١١٣ ١١٥ ثالثاً: نشوب القتال:
- ١١٥ ١- اليوم الأول
- ١١٦ ٢- اليوم الثانى
- ١١٨ ٣- ليلة الهرير ويوم الجمعة
- ١١٩ ٤- الدعوة إلى التحكيم
- ١٢٣ ٥- مقتل عمّار بن ياسر رضى الله عنه وأثره على المسلمين
- ١٢٨ ٦- من هو قاتل عمّار بن ياسر؟
- ١٢٩ ٧- المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة
- ١٣١ ٨- معاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه
- ١٣٢ ٩- عدد القتلى
- ١٣٢ ١٠- تفقد أمير المؤمنين على القتلى وترحمه عليهم
- ١٣٣ ١١- موقف معاوية مع ملك الروم
- ١٣٤ ١٢- قصة باطلة فى حق عمرو بن العاص بصفين

- ١٣- مرور أمير المؤمنين على بالمقابر بعد رجوعه من صفين..... ١٣٥
- ١٤- إصرار قتلة عثمان رضى الله عنه على أن تستمر المعركة..... ١٣٥
- ١٥- نهى أمير المؤمنين على عن شتم معاوية ولعن أهل الشام..... ١٣٦
- رابعاً: التحكيم..... ١٣٧
- خامساً: نص وثيقة التحكيم..... ١٣٨
- سادساً: قصة التحكيم المشهورة وبطلانها من وجوه..... ١٤٠
- سابعاً: هل يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية؟..... ١٤٩
- ثامناً: موقف أهل السنة من تلك الحروب..... ١٥١
- تاسعاً: تغير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين..... ١٥٥
- عاشرًا: المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما..... ١٥٧
- الحادى عشر: استشهاد أمير المؤمنين على واستقبال معاوية خبر مقتله..... ١٥٨
- المبحث الرابع: معاوية رضى الله عنه فى عهد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم:..... ١٦٠
- ١- الشريعة التى كان يملكها الحسن..... ١٦١
- ٢- تقييم الحسن بن على للموقف وقدراته القيادية..... ١٦٢
- ٣- وجود بعض القيادات الكبيرة فى صفه..... ١٦٣
- ٤- معرفته لنفسية أهل العراق..... ١٦٣
- ٥- تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن رضى الله عنهم..... ١٦٣
- أولاً: أهم مراحل الصلح:..... ١٦٥
- المرحلة الأولى..... ١٦٥
- المرحلة الثانية..... ١٦٥
- المرحلة الثالثة..... ١٦٥

- ١٦٥ المرحلة الرابعة -
- ١٦٥ المرحلة الخامسة -
- ١٦٥ المرحلة السادسة -
- ١٦٦ المرحلة السابعة -
- ١٦٦ المرحلة الثامنة -
- ١٦٦ ثانيًا: أهم أسباب ودوافع الصلح -
- ١٦٦ - أهم الأسباب والدوافع للصلح الذى تم بين الحسن ومعاوية -
- ١٦٦ ١- الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة -
- ١٦٦ ٢- دعوة الرسول ﷺ له -
- ١٦٧ ٣- حقن دماء المسلمين -
- ١٦٧ ٤- حرصه على وحدة الأمة -
- ١٦٧ ٥- مقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه -
- ١٦٨ ٦- شخصية معاوية -
- ١٦٨ ٧- اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة -
- ١٦٩ ٨- قوة جيش معاوية -
- ١٦٩ ثالثًا: شروط الصلح -
- ١٦٩ ١- العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء -
- ١٧٠ ٢- الأموال -
- ١٧٠ ٣- الدماء -
- ١٧٠ ٤- ولاية العهد، أم ترك الأمر شورى بين المسلمين -
- ١٧١ رابعًا: نتائج الصلح -
- ١٧١ - أهم نتائج الصلح هي :
- ١٧١ ١- توحيد الأمة تحت قيادة واحدة -

- ٢- عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه ١٧١
- ٣- تفرغ الدولة للخوارج ١٧١
- ٤- انتقال العاصمة الإسلامية إلى بلاد الشام ١٧١

الفصل الثاني

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

- المبحث الأول: بيعة معاوية وأهم صفاته وثناء العلماء عليه ١٧٣
- أولاً: بيعة معاوية رضى الله عنه ١٧٣
- ١- انتهاء عهد الخلافة الراشدة ١٧٥
- ٢- هل يعتبر معاوية رضى الله عنه أحد الخلفاء الاثني عشر؟ ١٧٩
- ثانياً: أهم صفات معاوية رضى الله عنه ١٨٠
- ١- العلم والفقه ١٨٠
- ٢- الحلم والعفو ١٨٤
- ٣- الدهاء والحيلة ١٨٨
- ٤- عقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب ١٩٢
- أ- المسور بن مخرمة رضى الله عنه واعتراضه على معاوية ١٩٣
- ب- ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصارى رضى الله عنه ١٩٤
- ج- الأحنف بن قيس رحمه الله ١٩٥
- د- أبو قتادة الأنصارى رضى الله عنه ١٩٦
- ٥- تواضعه وورعه ١٩٧
- ٦- بكاؤه من خشية الله ١٩٧
- ثالثاً: ثناء العلماء على معاوية ودخول دولة بنى أمية فى خير القرون ١٩٨
- المبحث الثانى: العلاقة بين الأمة ومعاوية كرئيس الدولة الإسلامية ٢٠٦
- أولاً: واجبات الخليفة ٢٠٦

- ثانياً: حقوق الخليفة..... ٢٠٨
- ثالثاً: عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول في فضائل الشام..... ٢٠٩
- رابعاً: أهل الحل والعقد في عهد معاوية رضى الله عنه..... ٢١٣
- خامساً: الشورى في عهد معاوية رضى الله عنه..... ٢١٦
- سادساً: حرية التعبير في عهد معاوية رضى الله عنه..... ٢١٩
- ١- أبو مسلم الخولاني..... ٢١٩
- ٢- الفرزدق يهجو معاوية..... ٢٢٠
- ٣- أم سنان بنت خيثمة في مجلس معاوية..... ٢٢١

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضى الله عنه

المبحث الأول: الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة

- وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم..... ٢٢٣
- أولاً: العلاقة بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما بعد الصلح..... ٢٢٤
- ثانياً: صلوات معاوية للحسن وابن الزبير رضى الله عنهم..... ٢٢٥
- ثالثاً: عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مع معاوية..... ٢٢٥
- رابعاً: هل عمم معاوية سب أمير المؤمنين علىّ على منابر الدولة الأموية؟..... ٢٢٦
- خامساً: معاوية وسمُّ الحسن بن علىّ؟..... ٢٣١
- سادساً: موقف معاوية من قتلة عثمان رضى الله عنهما..... ٢٣٣
- سابعاً: مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه..... ٢٣٤
- ١- قضاء معاوية رضى الله عنه في حجر رضى الله عنه وأصحابه..... ٢٣٨
- ٢- موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه..... ٢٤١
- ٣- ندم معاوية على قتل حجر بن عدى..... ٢٤٢
- ٤- موقف مالك بن هبيرة السكوني رضى الله عنه..... ٢٤٢

- ٢٤٣ ٥- ما قيل في حجر بن عدى من رثاء.....
- ٢٤٤ المبحث الثاني: مباشرة معاوية للأمور بنفسه وحرصه على توطيد الأمن.
- ٢٤٤ أولاً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه.....
- ٢٤٤ ١- مجلس معاوية في يومه.....
- ٢٤٦ ٢- الدواوين المركزية التابعة لمعاوية.....
- ٢٤٦ أ- ديوان الرسائل.....
- ٢٤٦ ب- ديوان الخاتم.....
- ٢٤٧ ج- ديوان البريد.....
- ٢٤٨ د- نظام الكتابة.....
- ٢٤٨ ثانياً: حرصه على توطيد الأمن في خلافته.....
- ٢٤٩ ١- الحاجب.....
- ٢٥٠ ٢- الحرس.....
- ٢٥٠ ٣- الشرطة.....
- ٢٥١ ٤- حسن اختيار الرجال والأعوان.....
- ٢٥١ ٥- استخدام المال في تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب.....
- ٢٥١ ٦- اتباع سياسة الشدة واللين في الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال.....
- ٢٥٢ ٧- اتباع سياسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيّتهم.....
- ٢٥٢ ٨- اتخاذ سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته، وجعل الناس يميلون إليهم.....
- ٢٥٤ ٩- جهاز المخابرات.....
- ٢٥٥ أ- اطلاعه على المراسلات التي بين الحسين وأهل العراق.....
- ٢٥٥ ب- قصة معاوية مع المسور بن مخرمة.....
- ٢٥٥ ج- قصة الأسير المسلم عند البيزنطيين.....

- د- وضع بعض أتباع على رضى الله عنه بالكوفة تحت المراقبة..... ٢٥٦
- ١٠- الاهتمام ببناء الجيش الإسلامى..... ٢٥٦
- ١١- سياسة الموازنات..... ٢٥٦
- ١٢- سياسته مع الأسرة الأموية..... ٢٥٧
- المبحث الثالث: حياة معاوية فى المجتمع واهتماماته العلمية..... ٢٥٨
- أولاً: حياة معاوية فى المجتمع..... ٢٥٨
- ثانياً: اهتماماته العلمية..... ٢٦٣
- ١- اهتمام معاوية بالتاريخ..... ٢٦٣
- ٢- اهتمام معاوية بالشعر واللغة..... ٢٦٤
- ٣- اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية..... ٢٦٧
- المبحث الرابع: الخوارج فى عهد معاوية..... ٢٦٩
- أولاً: حركات الخوارج فى الكوفة..... ٢٧١
- ١- حركة فروة بن نوفل الأشجعى..... ٢٧١
- ٢- حركة المستورد بن علقمة التيمى..... ٢٧٢
- ثانياً: حركات الخوارج فى البصرة..... ٢٧٣
- ١- حركة يزيد الباهلى وسهم الهجيمى..... ٢٧٣
- ٢- حركة قريب الأزدى وزحاف الطائى..... ٢٧٤
- ٣- حركة عروة بن أدية الخارجى..... ٢٧٤
- ٤- حركة مرداس بن أدية..... ٢٧٥
- ثالثاً: أهم الدروس والعبير والفوائد فى محاربة معاوية للخوارج..... ٢٧٦
- رابعاً: من قصائد الخوارج فى عهد معاوية رضى الله عنه..... ٢٨١
- المبحث الخامس: النظام المالى فى عهد معاوية رضى الله عنه..... ٢٨٣
- أولاً: مصادر دخل الدولة..... ٢٨٣

٢٨٣	١- الزكاة.....
٢٨٤	٢- الجزية.....
٢٨٦	٣- الخراج.....
٢٨٨	٤- العشور.....
٢٨٩	٥- الصوافى.....
٢٩٢	٦- خمس الغنائم.....
٢٩٢	ثانياً: النفقات العامة.....
٢٩٢	١- النفقات العسكرية.....
٢٩٤	٢- النفقات الإدارية.....
٢٩٦	٣- مصارف الزكاة.....
٢٩٦	٤- مصارف الفىء.....
٢٩٦	٥- معظم مصارف العشور.....
٢٩٦	٦- نفقات الضمان الاجتماعى.....
٢٩٧	ثالثاً: اهتمام الدولة بالزراعة.....
٣٠٣	رابعاً: اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية.....
٣٠٥	خامساً: الحرف والصناعات.....
٣٠٨	سادساً: شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية.....
٣٠٨	١- التفريط فى خراج بعض الأقاليم والتفرقة فى العطاء.....
٣١٤	٢- التوسع فى إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار.....
٣١٥	٣- مظاهر الترف عند الأمويين.....
٣١٧	المبحث السادس: القضاء فى عهد معاوية رضى الله عنه والدولة الأموية.....
٣١٧	أولاً: صلة العهد الأموى بالعهد الراشدى.....
٣١٧	ثانياً: تخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء وفصل السلطات.....

٣١٩	ثالثاً: رزق القضاة
٣١٩	رابعاً: تسجيل الأحكام والإشهاد عليها
٣٢٠	خامساً: أعوان القضاة
٣٢٠	١- المنادى
٣٢٠	٢- الحاجب
٣٢١	٣- المترجمان أو المترجم
٣٢١	سادساً: المراقبة والمتابعة
٣٢١	سابعاً: مصادر الأحكام القضائية في العهد الأموى
٣٢٢	ثامناً: اختصاص القضاة وتخصيص القضاء
٣٢٣	تاسعاً: القضاة والأعمال المختلفة
٣٢٤	١- الشرطة
٣٢٤	٢- الإمارة
٣٢٤	عاشراً: أسماء القضاة فى عهد معاوية
٣٢٦	الحادى عشر: ميزات القضاء فى عهد معاوية والأموى عمومًا
٣٢٨	الثانى عشر: خطاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى معاوية فى القضاء
٣٣٠	المبحث السابع: الشرطة فى عهد معاوية
٣٣٠	أولاً: الشرطة فى العراق
٣٣٣	ثانياً: الشرطة فى الأقاليم الأخرى
٣٣٣	ثالثاً: واجبات الشرطة
٣٣٣	١- حماية الخليفة وولاية الأمصار ضد مناوئهم فى الداخل
٣٣٤	٢- معاقبة المذنبين والخارجين عن القانون
٣٣٥	٣- تنفيذ العقوبات الشرعية
٣٣٦	رابعاً: قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة

- ٣٣٦ ١- الحرس
- ٣٣٦ ٢- الحرس من غير العرب
- ٣٣٧ ٣- العرفاء
- ٣٣٨ ٤- صاحب الاستخراج أو العذاب
- ٣٣٨ ٥- جهاز الحسبة
- ٣٣٩ ٦- نظام المراقبة
- ٣٣٩ ٧- مؤسسة الدرك
- ٣٤٠ المبحث الثامن: الولاية والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه
- ٣٤٤ أولاً: البصرة
- ٣٤٤ ١- بسر بن أبى أرطأة رضى الله عنه
- ٣٤٤ ٢- عبد الله بن عامر رضى الله عنه
- ٣٤٥ ٣- زياد بن أبيه
- ٣٤٥ أ- نسبه
- ٣٤٥ ب- صلح زياد مع معاوية
- ٣٤٦ ج- حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه
- ٣٤٩ د- خطبة زياد المعروفة بالبراء بالبصرة
- ٣٥٥ ٤- ولاية سمرة بن جندب رضى الله عنه
- ٣٥٦ ٥- ولاية عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى
- ٣٥٦ ٦- ولاية عبيد الله بن زياد خراسان ثم البصرة
- ٣٥٦ ثانياً: الكوفة
- ٣٥٦ ١- ولاية المغيرة بن شعبة رضى الله عنه
- ٣٥٨ ٢- ولاية زياد بن أبيه على الكوفة
- ٣٥٩ ٣- ولاية عبد الله بن خالد بن أسيد

- ٣٥٩ ٤- ولاية الضحاك بن قيس الفهري
- ٣٥٩ ٥- ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي
- ٣٥٩ ٦- ولاية النعمان بن بشير رضى الله عنه
- ٣٥٩ ثالثاً: المدينة النبوية
- ٣٦١ ١- مروان بن الحكم
- ٣٦١ ٢- ولاية سعيد بن العاص رضى الله عنه
- ٣٦١ ٣- ولاية مروان بن الحكم الثانية
- ٣٦١ ٤- ولاية الوليد بن عتبة بن أبي سفيان
- ٣٦١ هـ - وفاة أبي هريرة رضى الله عنه بالمدينة ٥٨ هـ
- ٣٦١ أ- التعريف به
- ٣٦١ ب- إسلامه
- ٣٦٢ ج- دعوته لأمة للإسلام
- ٣٦٢ د- عبادة أبي هريرة رضى الله عنه وأسرته
- ٣٦٣ هـ- فقره وعفاه
- ٣٦٤ و- حلمه وعفوه
- ٣٦٤ ز- ولايته على البحرين في عهد عمر رضى الله عنه
- ٣٦٤ ح- اعتزاله الفتن
- ٣٦٥ ط- مرجه ومزاحه
- ٣٦٥ ي- حياته العلمية
- ٣٦٧ ك- أضح الطرق عن أبي هريرة في الحديث عن رسول الله
- ٣٦٧ - الرد على الشبه التي أُثيرت حول أبي هريرة رضى الله عنه
- ٣٧٧ رابعاً: مكة
- ٣٧٧ - ولاية خالد بن العاص بن هشام رضى الله عنه

- ٣٧٨ خامساً: ولاية الطائف
- ٣٧٨ سادساً: مصر
- ٣٧٨ ١- ولاية عمرو بن العاص رضى الله عنه
- ٣٧٩ - وصيته عند موته
- ٣٨٠ ٢- ولاية عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه
- ٣٨١ ٣- ولاية عتبة بن أبي سفيان
- ٣٨٢ ٤- ولاية عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه
- ٣٨٢ ٥- ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه

- ٣٨٩ المبحث الأول: حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية
- ٣٨٩ أولاً: معاوية والقسطنطينية
- ٣٩١ ثانياً: التخطيط الاستراتيجى عند معاوية للاستيلاء على القسطنطينية
- ٣٩١ ١- الاهتمام بدور صناعة السفن فى مصر والشام
- ٣٩٢ ٢- تقوية الثغور البحرية فى مصر والشام
- ٣٩٢ ٣- الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقى البحر المتوسط
- ٣٩٥ ثالثاً: الحصار الأول للقسطنطينية
- ٣٩٦ رابعاً: وفاة أبى أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية
- ٣٩٩ خامساً: الحصار الثانى للقسطنطينية
- ٤٠١ سادساً: العلاقات السلمية بين الدولتين
- ٤٠٢ ١- المراسلات
- ٤٠٣ ٢- تبادل الخبرات
- ٤٠٤ ٣- تأثر الدولة البيزنطية بالتسامح الإسلامى

- ٤ - آداب السفراء ٤٠٤
- سابعاً: الجراجمة فى عهد معاوية رضى الله عنه ٤٠٥
- ثامناً: أبو مسلم الخولانى من الغزاة فى أرض الروم ٤٠٦
- المبحث الثانى: فتوحات الشمال الإفريقى فى عهد معاوية رضى الله
عنه ٤٠٨
- أولاً: حملة معاوية بن حديج رضى الله عنه ٤٠٨
- ثانياً: عقبة بن نافع وفتح إفريقية ٤١٠
- ثالثاً: بناء مدينة القيروان ٤١١
- ١- الخصائص المتوافرة فى موضع القيروان ٤١٣
- ٢- القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية ٤١٤
- رابعاً: عزل عقبة وتولى أبى المهاجر دينار ٤١٧
- خامساً: فتوحات أبى المهاجر دينار ٤١٩
- ١- معركة تلمسان ٤٢١
- ٢- إسلام كسيلة ٤٢١
- سادساً: حملة عقبة بن نافع الثانية ٤٢٢
- ١- جهاده من القيروان إلى المحيط ٤٢٣
- ٢- استشهاد عقبة بن نافع وأبى المهاجر رحمهما الله تعالى ٤٢٩
- ٣- أثر معركة تهوذة على المسلمين ٤٣١
- المبحث الثالث: فتوحات معاوية فى الجناح الشرقى للدولة الأموية ٤٣٣
- أولاً: فتوحات خراسان وسجستان وما وراء النهر ٤٣٣
- ثانياً: تعيين الحكم بن عمرو الغفارى ٤٣٤
- ثالثاً: عبيد الله بن زياد ٤٣٥
- رابعاً: سعيد بن عثمان بن عفان ٤٣٦

٤٣٩	خامساً: فتح سلم بن زياد أخى عبيد الله بن زياد.....
٤٤٢	سادساً: فتوحات السند فى عهد معاوية.....
	المبحث الرابع: أهم الدروس والعبر والفوائد فى فتوحات معاوية
٤٤٤	رضى الله عنه.....
٤٤٤	أولاً: أثر الآيات والأحاديث فى نفوس المجاهدين.....
٤٤٦	ثانياً: من سنن الله فى فتوحات معاوية.....
٤٤٦	١- سنة الله فى الاتحاد والاجتماع.....
٤٤٧	٢- سنة الأخذ بالأسباب.....
٤٤٨	٣- سنة التدافع.....
٤٤٨	٤- سنة الابتلاء.....
٤٤٨	٥- سنة الله فى الظلم والظالمين.....
٤٤٩	٦- سنة الله فى المترفين.....
٤٤٩	٧- سنة الله فى الطغيان والطغاة.....
٤٤٩	٨- سنة التدرج.....
٤٥٠	٩- سنة الله فى الذنوب والسيئات.....
٤٥٠	١٠- سنة تغيير النفوس.....
٤٥٠	ثالثاً: التخطيط الاستراتيجى للفتوحات عند معاوية رضى الله عنه.....
٤٥٠	١- سياسته تجاه الروم.....
٤٥١	٢- سياسته فى جبهة الشمال الإفريقى.....
٤٥١	٣- سياسته فى جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر.....
٤٥١	رابعاً: الشورى فى إدارة حركة الفتوحات.....
٤٥٢	خامساً: مركزية القيادة والإمداد فى إدارة معاوية.....
٤٥٣	سادساً: الأولوية والرايات.....

- ٤٥٣ سابغاً: اهتمامه بالعيون والبريد.
- ٤٥٤ ثامناً: اهتمام معاوية بالحدود البرية للدولة.
- ٤٥٦ تاسعاً: اهتمام معاوية بالأسطول والحدود البحرية.
- ٤٥٨ عاشراً: الاهتمام بديوان الجند والعطاء.
- الحادى عشر: الأثر العلمى والاقتصادى والاجتماعى للفتوحات فى عهد
معاوية رضى الله عنه. ٤٦٠
- ٤٦١ الثانى عشر: كرامات للمجاهدين فى عهد معاوية رضى الله عنه.
- الثالث عشر: قسمة الحكم بن عمرو الغفارى للغنائم فى غزو جبل الأسل
بخراسان. ٤٦٤
- ٤٦٦ الرابع عشر: استشهاد صلة بن أشيم وابنه بسجستان عام ٦٢هـ.
- ٤٦٨ المبحث الخامس: ولاية العهد ووفاة معاوية رضى الله عنه.
- ٤٦٨ أولاً: بداية التفكير فى بيعه يزيد.
- ٤٦٩ ثانياً: الخطوات التى اتبعها معاوية لبيعة يزيد.
- ٤٦٩ ١- المشاورات.
- ٤٧١ ٢- الحملات الإعلامية.
- ٤٧٢ ٣- قبول أهل الشام لبيعة يزيد.
- ٤٧٣ ٤- بيعه الوفود.
- ٤٧٣ ٥- طلب البيعة من أهل المدينة.
- ٤٧٩ ثالثاً: تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد.
- ٤٨٠ رابعاً: وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.
- ٤٨٢ خامساً: أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد.
- ٤٨٢ ١- الحفاظ على وحدة الأمة.
- ٤٨٣ ٢- قوة العصبية القبلية.

- ٤٨٤ ٣- محبة معاوية لابنه وقناعته به
- ٤٨٦ سادساً: الانتقادات التي وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد
- ٤٨٧ ١- طريقة انعقاد بيعة أبي بكر رضى الله عنه
- ٤٨٨ ٢- طريقة انعقاد بيعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه
- ٤٩١ ٣- طريقة انعقاد بيعة عثمان رضى الله عنه
- ٤٩٤ ٤- طريقة انعقاد بيعة على بن أبي طالب رضى الله عنه
- ٤٩٥ ٥- طريقة انعقاد بيعة الحسن بن على رضى الله عنه
- ٤٩٦ ٦- طريقة انعقاد بيعة معاوية رضى الله عنه
- ٤٩٦ ٧- المآخذ على فكرة ولاية العهد فى عهد معاوية
- ٤٩٩ سابعاً: الأيام الأخيرة فى حياة معاوية
- ٤٩٩ ١- وصية معاوية رضى الله عنه ليزيد
- ٥٠٣ ٢- آخر خطبة لمعاوية رضى الله عنه واشتداد مرضه ووفاته
- ٥٠٥ ٣- سنة وفاة معاوية ومن صلى عليه
- ٥٠٦ ٤- عمر معاوية رضى الله عنه عند وفاته
- ٥٠٦ ٥- مدة خلافته
- ٥٠٦ ٦- ما قيل فيه من رثاء
- ٥٠٧ ٧- ما قاله ابن عباس فى موت معاوية رضى الله عنهم
- ٥٠٧ ٨- نقش خاتمه
- ٥٠٧ ٩- التبرك بأثار الرسول ﷺ
- ٥٠٩ الفهرس